Twitter: @alqareah
10.4.2015

نادين غورديمر

ضيف شرف

رواية

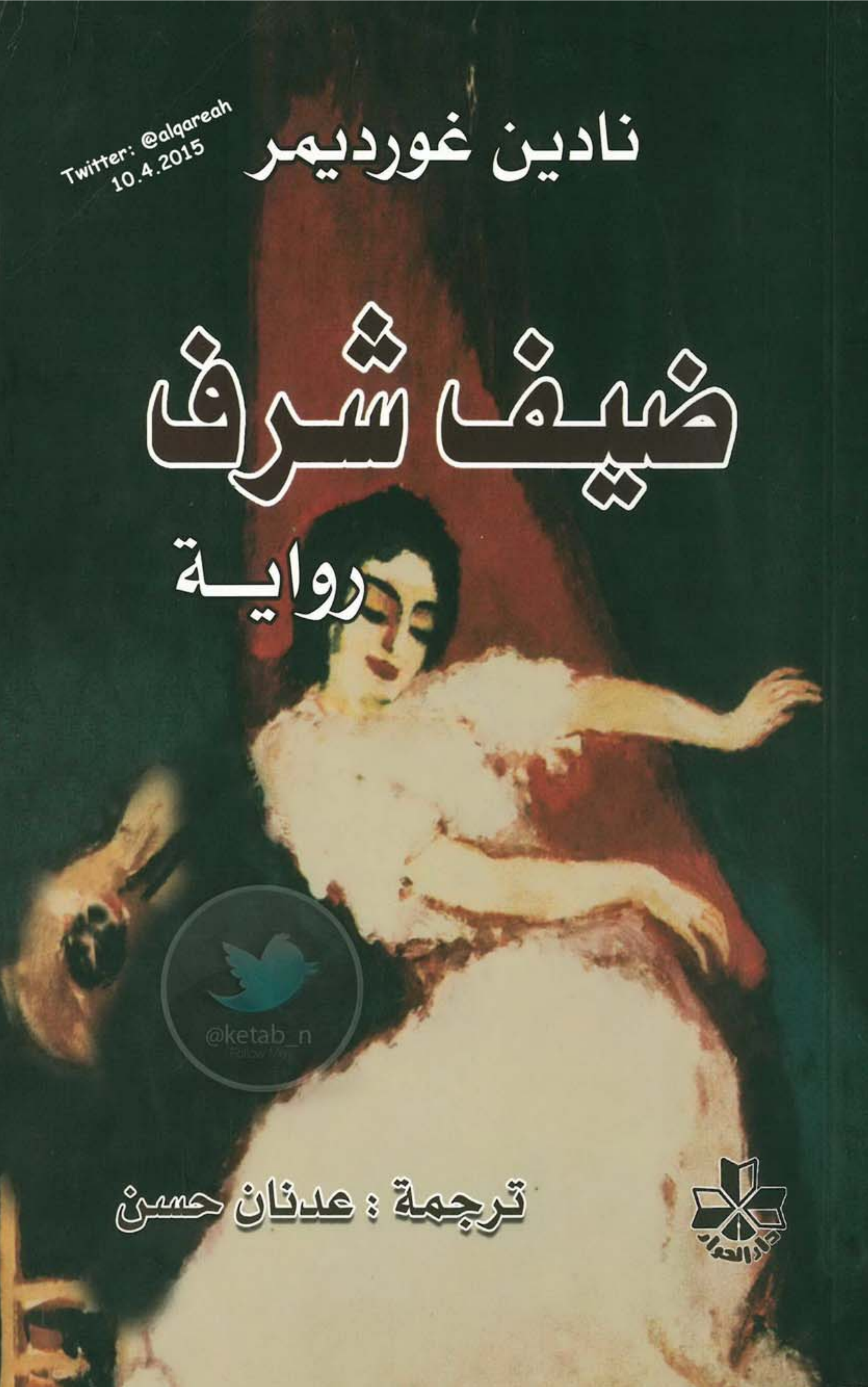

@ketab_n
Follow Me

ترجمة : عدنان حسن

دار الحوار

نادين غورديمر

ضيف شرف

ترجمة: عدنان حسن

دار الحوار

Twitter: @alqareah

ضيف شرف

Twitter: @alqareah

• ضيف شرف

• نادين غورديمر

• ترجمة: عدنان حسن

• جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

• الطبعة الأولى 2006

• الناشر: *دار الحوار للنشر والتوزيع*

سورية ـ اللاذقية: ص. ب 1018

هاتف وفاكس 963 41 422339

البريد الإلكتروني: Soleman@scs.net.org.

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

تصميم الغلاف: ناظم حمدان

Twitter: @alqareah

مقدمة المترجم

حول الكاتبة والرواية

ولدت نادين غورديمر في عام 1923 قرب مدينة جوهانسبورغ عاصمة جنوب أفريقية لأبوين من البيض المهاجرين من أوروبة. فقد كانت أمها فان مايرز من مواليد انكلترا، فيما كان أبوها ايزيدور غورديمر قد هاجر من ليتوانيا وهو في سن الثالثة عشرة. وكان أبواها من العاملين في مناجم الذهب، فنشأت في جو عائلي مريح وفّر لها قسطاً كبيراً من الحرية والثقافة. فانكبت منذ سن مبكرة على قراءة روائع الأدب العالمي وبالأخص روايات القرن التاسع عشر الفرنسية والروسية المترجمة إلى الانكليزية، بالإضافة إلى أعمال الكتاب الانكليز أمثال فرجينيا وولف وتشارلز ديكنز والأميركيين أمثال هوثورن وهمنغواي. كما أنها تأثرت كثيراً بقصص كاترين مانسفيلد. لقد كانت جنوب أفريقيا جزءاً من الكومنويلث البريطاني، وهذه الحقيقة جعلت غورديمر تتماهى بالثقافة البريطانية أكثر من الثقافة الأميركية مع أن المستعمرة التي ولدت فيها كانت تابعة لجمهورية البوير (مستعمرة هولندية).

يبدو انحياز غورديمر هذا جلياً في اقتدائها بمجموعة من الكتاب الليبراليين البريطانيين، وبالأخص جماعة بلومزبيري وإ. م. فورستر في كتابه «رحلة إلى الهند». كما تأثرت بأعمال د. هـ. لورنس ودوموباسان وتشيخوف وهمنغواي عندما بدأت بكتابة القصة القصيرة. إلا أن مصدر التأثير الأكبر كان قصص الكاتبة الأميركية يودورا ويلتي.

Twitter: @alqareah

بدأت غوردريمر مع نضوجها الأدبي والفكري تتلمس طريقها الخاص بها في التعبير عما تريد قوله لأنها بدأت تشعر بالانسلاخ عن حياتها الخاصة وعن مجتمعها والتراث الليبرالي الانكليزي. وقد تجلت قطيعتها هذه في اصطفافها إلى جانب السود ومناهضتها للتمييز العنصري فأصبحت من المقربين إلى حزب المؤتمر الأفريقي بزعامة نيلسون مانديلا.

كتبت غورديمر سبع مجموعات قصصية وثمان روايات نذكر منها: عالم الغرباء، ضيف شرف، رفاق ليفينغستون، عناق جندي، قوم جولاي وغيرها. وقد توجت سيرتها الأدبية بحصولها على جائزة نوبل للآداب لعام (1991). وكانت قد حصلت على العديد من الجوائز الأدبية الرفيعة، نذكر منها: جائزة النسر الذهبي (1975) الفرنسية وجائزة CNA الجنوب أفريقية الأدبية (1975)، وجائزة مالابارتي الإيطالية (1985)، وجائزة نيلي ساكس الألمانية (1985) وجائزة بينيت الأميركية (1968).

هذه الرواية:

تدور رواية (ضيف شرف) حول شخصية جيمس براي الموظف الإداري الاستعماري الانكليزي الذي تم طرده من دولة أفريقية وسطى بسبب اصطفافه إلى جانب زعمائها القوميين السود. بعد عشر سنوات من ذلك يتلقى دعوة للمشاركة في احتفالات عيد استقلال هذا البلد. وحين عصفت الانشقاقات الحزبية والعنف بهذا البلد جرّاء تحريف المثل الثورية، وجد براي نفسه مجبراً مرة أخرى على الاختيار والانحياز إلى أحد أطراف السلطة المتصارعة، الأمر الذي يكلفه حياته.

تبدأ الرواية بقرار الكولونيل جيمس براي أن يترك حياة الاستقرار والرخاء في ويلتشاير بلندن والعودة إلى دولة أفريقية مستقلة حديثاً، وهو الذي تم نفيه من هذا البلد (المتخيّل) قبلئذ بعشر سنوات، بسبب مساندته نمو وصعود حزب استقلال الشعب الذي هو الآن في سدة الحكم. فحين كان براي مسؤولاً كولونيالياً، عمل في الحزب إلى جانب آدامسون مويتا، الرئيس الحالي، وإدوارد شينزا، النقابي. لقد عاد براي إلى البلاد لحضور احتفالات الاستقلال، وقبل منصبه كمستشار تربوي، وهو المنصب الذي يقوده، بشكل أولي، إلى مقاطعة غالا حيث كان قد عاش سابقاً. وتدور حبكة الرواية حول الإيديولوجيتين المتناقضتين لمويتا وشينزا، وانحياز براي إلى الأهداف الثورية لشينزا المنفي، عندما يصبح مدركاً للطبيعة النيو ـ كولونيالية

Twitter: @alqareah

لحكم مويتا، الذي يبدو بمثابة خيانة لمثُل الاستقلال. وتترافق الصحوة السياسية الجديدة لبراي بصحوة جنسية: إن زوجته، أوليڤيا، تبقى في ويلتشاير، رغم ترتيبها الأصلي الذي يقضي بأن تلحق به في نهاية المطاف، وتصل إلى أن تمثل بالنسبة له حياة الاستقرار التي خلّفها وراءه. إن علاقة براي بريبيكا إدواردز تمثل حيوية فردية توازي الحيوية العامة لنضوجه السياسي المتنامي.

يفشل حزب استقلال الشعب الحاكم ـ الذي يعمل في توافق مع النقابات ـ في مجتمع القلاقل السياسية العامة، عندما يتأكد العمال، بوحي من شينزا، أن حكومتهم تضع مصالح المستثمرين الأجانب فوق مصالح شعبها. ويبدأ الجزء الرابع من الرواية بمؤتمر الحزب الذي يتم فيه التعبير بشكل واضح عن الإيديولوجيتين المتنافستين لمويتا وشينزا. إن براي الآن يصطف مع شينزا في عملية تشكيل لوبي لصالحه. ولدى عودته إلى غالا، يشهد براي صدامات عنيفة بين العمال وقوات الحكومة، وفي النهاية يقرر الهرب من البلاد لكي يجمع المال لأجل قضية شينزا.

في الطريق إلى العاصمة، يتعرض لكمين ويُقتل من قبل العمال الذين يظنونه عنصراً مسؤولاً من عناصر فرقة مكافحة الشغب التي يسعون إلى الانتقام من عنفها. وفي نهاية الرواية يكون مويتا قد استعاد النظام بمساعدة عسكرية بريطانية، ويكون شينزا في المنفى.

تستوحي رواية (ضيف شرف) الآراء والأفكار السياسية الواردة فيها من كتاب (المعذبون في الأرض) لفرانز فانون، هذا التحليل الذائع الصيت للصراع ما بعد الاستعماري، والذي نشر لأول مرة في عام 1961.

ثمة إشارة صريحة إلى فانون في مناقشة بين براي وشينزا يقدم فيه شينزا مقتطفاً تبناه براي لاحقاً. إن المقطع المستشهد به يقدم واحدة من عدة أفكار من فانون تنظم توالي القضايا في (ضيف شرف). وفكرة فانون الأساسية هي أن الكفاح ضد الاستعمار يجب ألا يقوم على الاختلاف العرقي ـ على الرفض البسيط للمستعمر الأبيض ـ بل على مسائل الاستقلال الاقتصادي، نظراً لأنه صراع طبقي. وهذا ما يشكل طوراً هاماً في تقديم غورديمر للقضايا السياسية. إنها، في هذه المرحلة، تسير على قناعة فانون بأن الوحدة الأفريقية لا يمكن تحقيقها إلا من خلال حركة الشعب التي يقودها حزب «الشعب»، والتي ستتحدى مصالح البرجوازية. بالنسبة لفانون، إن هذا الوعي الطبقي ضروري لتحدي البرجوازية المحلية التي تمارس تحت الضغط الاقتصادي من المصالح الاستعمارية عدوانيتها الطبقية الجديدة لتتحكم بالسلطة والثروة التي كانت

Twitter: @alqareah

سابقاً بيد الأجانب، وتستولي على البنى الاستغلالية القائمة تحت قناع النزعة القومية الجديدة.

تضع غورديمر أحداث الرواية في إطار تخيلي، في بلد أفريقي غير محدد، وذلك تحت تأثير الأحداث التي جرت في بلدها (جنوب أفريقيا) في أواخر الستينيات التي اتسمت بالقمع والتمييز العنصري. وتقوم فكرة الرواية على مفهوم التناقض المزدوج: الداخلي والخارجي المرتبطين بعلاقة جدلية من التأثير والتأثر. إن الطبيعة المعقدة والمفارقة للفعل الفردي يمكن ردها إلى النظام الاجتماعي الذي ينتج الأفراد، وهذا هو مقياس الواقعية السياسية للرواية. فالسجال السياسي جزء مكمل لبنية الرواية، ويخلق انطباعاً شديداً بوجود علاقة بين العام والخاص. كما يتجلى التناقض في التفاصيل المحلية في نسيج الرواية، بما في ذلك عناصرها الرمزية، وفي معالجة الرواية للجنسانية، التي تعتبر سمة نموذجية لغورديمر، تحمل مؤشراً على النضج السياسي. إذ أن الحيوية الجنسية تسير جنباً إلى جنب مع الحيوية السياسية في الرواية.

تتبع غورديمر التقاليد الغربية في التخييل رغم تشديدها على شخصية براي ومأساته النهائية. كما تطرح العديد من القضايا النسوية كارتباط الذكورة بالسلطة وبالتالي بالسياسة، وبالأخص السياسة الكولونيالية.

إن الصلة بين الشخصي والسياسي تتعزز حتى في مقاطع النقاش النظري، وهذا ما يتحقق أساساً عبر شبكة من التوترات بين شينزا ومويتا وبراي، والتي تقدم إطاراً لدراسة القضية الأساسية للكولونيالية الجديدة. إذ يرى مويتا أن البنية الاقتصادية هي إعاقة مستمرة، وكنتيجة لهذه التركة التي لا يمكن تجاوزها، يعتمد ازدهار البلد على تشجيع الاستثمارات الأجنبية. أما بالنسبة لشينزا، فإن هذا يؤدي إلى صدام مع الاستغلال الأجنبي، كما يشير في خطابه الثاني أمام المؤتمر، وهو نقد فانوني للكولونيالية الجديدة، التي يقوم منطقها على استغلال البشر مرتين: مرة كعمال ومرة كمستهلكين. هكذا فإن الموقفين المتعارضين لمويتا وشينزا يجري تقديمهما لتشكيل اختيار قوي بين الرأسمالية والاشتراكية الأصلية، بين دولة تستغل شعبها، ودولة قائمة على مصالحه، وهو الخيار الذي يجب على براي أن يقوم به، عندما يقرر إلى من سيكون ولاؤه، ويدور الكثير من الرواية حول كيفية وصوله إلى هذا الاختيار السياسي الذي يواجه الأمة عموماً.

Twitter: @alqareah

ـ «سينتهي المطاف بالإنسان الشريف بأن لا يعرف اين يعيش»

(إيفان تورغينيف)

ـ «إن الكثيرين سيدعونني مغامراً ـ وانا كذلك، إلا انني من صنف مختلف ـ يخاطر بجلده ليثبت بديهياته»

(آرنستو تشي غيفارا).

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الجزء الأول

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

(1)

صاح طير على السطح، فاستيقظ الرجل. كان ذلك في منتصف ما بعد الظهر، في الحر، في أفريقية. عرف في الحال أين هو. حتى في الثواني المعلقة بين النوم واليقظة لم يُترك في البيت، في ويلتشاير، الذي كان يقبع، آنذاك، غائصاً في ثلج الشتاء القاسي. كان الطريق إلى القرية مسدوداً، الكلب يجري فوق الحقول الطرية وهو يتنفس مثل التنين... كان جوف البيت دافئاً من التدفئة التي تعمل على النفط، والضوء الصادر عن الظلال الحمراء، والألوان الحريرية لأشياء أوليڤيا ـ البُسُط، القطع الخشبية الكرزية والساتانية، والقدور الفخارية الحمراء، وقطع الزخرفة الخرزية، والنقشين الناعمين اللذين عثر عليهما براي وأوليفيا ذات مرة في الكونغو. منذ أيام قليلة، كان في ذاك البيت يحزم أمتعته ليغادر وفقاً للتوالي المضطرد للأمور العملية الذي يتحول بموجبه القرار إلى أمر واقع. (إن كانت لديك أية مشكلة مع المرجل، كرمى للسماء دع ماكي يلقي عليه نظرة قبل أن ترسل إلى المدينة. من المؤسف أنك قد تخليت عن شورتك. لا أعلم إن كنت سأتواجد في مكان يمكنني أن أجرؤ فيه على الظهور بالشورت، رغم ذلك، لكن مقاس خصرك لم يتغير كل هذا المقدار الكبير البالغ نصف إنش ـ أنا أعرف سروال بيجامتك؛ إذ أنني أستعمل نفس المقاس تماماً لأجل المطاط الجديد كما كنت أفعل دائماً).

قبل ثلاثة أشهر، وقف آدمسون مويتا خارج محل لبيع اللحم المفروم في كنغستون وقال له: "بالطبع ستعود إلينا الآن!" قاد السيارة إلى البيت، مبطئاً سرعته على الطريق الخالي الذي يؤدي، عبر امتلاء شفق صيفي مهجور، أخيراً، إلى البيت. إن مشاريع السكن تجتاح القرى في كل أنحاء انكلترا، أما هنا فالعملية معكوسة، إذ كان البيت فيما مضى قصراً لمالك العزبة (كانت أوليڤيا تعتقد قبل ذلك أنه كان ديراً

Twitter: @alqareah

للرهبان) لكن القرية أُفرغت من سكانها في القرن التاسع عشر بفعل النزوح إلى المدن الصناعية، وفقدت استقلاليتها وماتت، فأُغلق مكتب البريد وتداعت الأكواخ والغابات، واجتاحت المراعي الحقول، ولم يتبق سوى بيوت قليلة ليشتريها أناس قلل اشتياقهم إلى حياة الريف من لا ملاءمة العزلة. وكما قالت أوليڤيا فإنه ينبغي أن يكون مكاناً مثيراً للكآبة، لكنه لم يكن كذلك. بدلاً من ذلك، كان ثمة تجدد. لقد عاد الريف جالباً طمأنينة السلام العنيد والوفرة، البداية، مرة أخرى. ولم يكونا يبعدان سوى ساعتين ونيف عن لندن، عن بناتهما وأصدقائهما. لقد حافظ على اتصال وثيق مع آدمسون مويتا وزعماء آخرين من حركة الاستقلال الأفريقية مُذ غادر أفريقية نهائياً قبل عشر سنوات. فأمضى قدراً كبيراً من الزمن يذهب ويأتي من وإلى لندن لكي يقدم لهم النصائح عندما يتشاورون مع المكتب الكولونيالي، وليفعل ما بوسعه ممهداً الطريق من أجل الوفود المختلفة التي تأتي لتقديم عريضة ضد الدستور القديم ولتتفاوض من أجل استقلال بلادها. هناك، في تلك الأرض الأفريقية المستعمرة، كان موظفاً كولونيالياً إلى أن نجح المستوطنون في إقالته وترحيله بالقوة بسبب تأييده لحزب استقلال الشعب. قال لزوجته: «دعاني مويتا للعودة ضيفاً عليهم».

- «حسناً، ينبغي أن تكون موجوداً في احتفالات عيد الاستقلال، إذا لم يكن هناك أحد. هذا شيء عجيب».

اعتادت أن تحضر رزم السندويتش لأجل مويتا لكي يأخذها معه عندما كان يركب دراجته أميالاً حول مقاطعة غالا في عطل نهاية الأسبوع، يلقي الخطب ويتكلم في الاجتماعات.

قال لمويتا قبل أن يفترقا في اليوم التالي:

- «لن يكون بوسع أوليڤيا أن تأتي إلى احتفالات الاستقلال، لسوء الحظ. فابنتنا الكبرى تنتظر مولوداً في الفترة نفسها تقريباً».

قال مويتا بابتسامته الخجولة البطيئة التي تبدو دائماً أنها تكبر مثل نور يزداد وهجاً، كما لو أن عينيه قد أمسكتا بك:

- «هل تقصد فينيشا الصغيرة؟ هل ستصبح أماً؟»

«أخشى ذلك»، بربر بطريقته الانكليزية.

- «حسناً، هذا جيد، جيد. لا بأس، فالسيدة براي ستنضم إليكم لاحقاً».

Twitter: @alqareah

- «أتصور أنها في الوقت الذي ستكون فيه مستعدة لتسليم الطفل إلى فينيشا ستكون الاحتفالات منتهية».

- «هذا ما أقصده - ستكونون مستقرين تقريباً عندما تصل».

كانا واقفين عند باب سيارة مويتا؛ ثمة فورة مشاعر مباغتة بين الرجلين. وقف الانكليزي هناك، أمسكه الرجل الأسود الصغير السريع الحركة من منكبيه، بقوة، من خلال بذلته الداكنة مثلما يفعل عندما يصافح أخاً في بلده. فقال لمويتا وهو يحاول الإفلات من التماس الجسدي معه: «لا أدري عم سنتحدث». فقال مويتا: «عنك قلت لك إننا نتوقع عودتك الآن».

- «ولكن ما الذي سأفعله؟ ما الفائدة التي سأقدمها لكم؟».

كان معتاداً هكذا على طمس نفسه في ساعات مناقشة القانون الدستوري والتكتيك السياسي (رجل أبيض أجنبي يعرض خدمة غير شخصية مهما كان استحقاقها) - غمره وعي قوي بكينونته كما لو أن منبهاً قد حُقن في أوردته.

- «مهما أردت! فهو ملك لنا كلنا! إننا بحاجة إليك، مهما أردت!» طفق مويتا يردد، وقفز إلى داخل السيارة.

كانت الواجهة الحجرية الباهتة، بعتباتها وأسكفاتها الحجرية الملساء المتآكلة كقطعة صابون مستعملة، تقع مباشرة على الطريق الخالي. لكن الواجهة الحقيقية للبيت كانت في الجانب الآخر. فالحديقة المحمية بالبناية هي إطلالة عشبية فوق ألوان غائمة مشوشة من الأزهار والنحل والفراشات المبكرة إلى الوادي الطويل. كان وأوليفيا يعملان في الحديقة في أمسيات الصيف، ليس بشكل جدي، كما كانت تفعل أثناء النهار، بل بشكل متقطع، يقتلعان العشب الضار الطويل هنا أو هناك للاستمتاع بانقلاع جذوره من الدبال، فتصدر عنها، في الفُتات المعلقة بتلك اللحى النامية تحت الأرض، رائحة أرض عبقة كرائحة كعك الفاكهة. كانا قد وضعا ألواحاً حجرية تحت أشجار الجوز لأجل الكراسي الخشبية البيضاء والطاولة، بحيث لا تكون رطبة أكثر مما يجب. هناك كانا يشربان الويسكي، أو حتى القهوة بعد الغداء. أحياناً وقبل أن يتلاشى الغسق في الغابة كان يخرج إلى ضوء الشمس الذي يتجمع مثل الماء الذهبي في منخفض المروج ويطلق النار على حجلة. لم يكن ثمة من يراعي حقوق الصيد. ثم، عندما يهبط المساء، ينظف البندقية عن طريق التحسس تقريباً، فكانت الرائحة العملية النظيفة لزيت البنادق تنقل الإحساس البسيط بالرضا عن

Twitter: @alqareah

المهمة. كانت أوليفيا تشغل آلة التسجيل وتفتح نوافذ غرفة المعيشة على مصاريعها لكي تصدح الموسيقا.

في هذا الصيف درجت على الاستماع إلى موسيقا سترافنسكي وبولنك؛ فقد كانت أوليفيا من الجيل والطبقة اللذين يدفعان للنساء الأخريات لكي يشتغلن بالصنارة. وكانت هي نفسها الآن على وشك أن تصبح جدة، فصنعت دمى محشوة ذات أشكال مضحكة لأجل أبناء وبنات إخوتها. كانت لديها علبة سجائر مملوءة بالأزرار الغريبة، كمؤونة للعراوي، لكنها وضعتها بعيداً عنها لأن أحد الأشياء التي كانت تكرهها عندما كانت صغيرة هو إظهار النفاق الذي تقوم به النساء الأكبر سناً عندما يُواجهن بشيء حيوي بالنسبة لهن.

ـ «أظن أننا قلنا مرات كثيرة إننا سنعود عندما يحققون استقلالهم».

هزت كتفيها هزة صغيرة متشككة بالنفس، مفسحة المجال لعفوية نوع آخر من الحديث اليومي في وقت آخر.

ـ «ليس ذلك بسبب ما قاله أحد».

لكنهما كانا يعرفان أن الشيء المهم هو منح آدامسون مويتا الإيمان بنفسه عن طريق افتراض مستقبل حقيقي، لأنك، كشخص أبيض، ليس لك شيء شخصي لتكسبه بذلك، تبين أنك كنت تؤمن بأنه سيتحقق.

كانت، وهي تحدق عبر الوادي ومن ثم إليه بهدوء، تتملكها الرغبة في اكتشاف ما كانا يتحدثان عنه تحديداً.

قال: «بالتأكيد لقد فكرت بالعودة، بعدئذ.. من المفترض قبل أن نغادر. بالضبط عندما علمت أنه سيكون علينا أن نرحل».

«مسكين آدامسون، كان ذلك يبدو تشاؤماً في بعض الأحيان. ومع ذلك فإنه يتحقق بسرعة. عشر سنوات».

لقد انقضت عشر سنوات منذ تم ترحيلهما عن البلاد، عشر سنوات منذ كانت امرأة صغيرة بعض الشيء، في سن الأربعين، والبنتان لا تزالان تلميذتين في المدرسة.

ـ «تاريخياً، نعم، كان ذلك سيحدث ـ ولكن ليس لآدامسون، ولا لنا؟».

كان المنزل الذي اشترياه، المملوء بالمقتنيات التي تم تخزينها طوال السنوات التي أمضياها في أفريقية، والحديقة التي أنشآها يعلنان عنهما. لم يكن بيتاً يتعين هجره.

قالت بفخر: «إنهم ينتظرون عودتك».

Twitter: @alqareah

«لقد كان آدامسون في فورة النصر، بكل معنى الكلمة. أظنه قد عانق هنري ديڤيس». إنه ديڤيس رجل الشرطة العسكرية، المستوطن الذي كان مسؤولاً في مرحلة ما عن نفي مويتا إلى المقاطعة الغربية النائية.

ـ «من المفترض بشكل طبيعي أنك ستخرج من المنفى». ضحكا.

لكنهم كانوا يتحدثون عن مويتا؛ إن الحياء الغريب للعشرين سنة من الزواج قد جعل من المستحيل بالنسبة لها أن تقول: «هل تود الذهاب؟»، فالبداية الانفعالية والانفتاح الطويل والتفاهم بينهما يعني أنها تعرف ماذا يريد. وبطريقة تعرفها بشكل مؤكد، لأن ذلك كان بالنسبة لهما شيفرة مسلّماً بها بعمق إلى درجة أنه لا يُناقش أبداً ـ يكون المرء متاحاً حيثما يكون نافعاً. فهل ثمة شيء آخر للعيش بواسطته؟ لذلك فإن السؤال عما يتحدثان حوله كان يرقى في الواقع إلى رغبتها الخفية، المكبوتة، المرمِدة، في معرفة ما إذا كان هذا البيت، هذه الحياة في ويلتشاير، هذه الحياة أخيراً ـ قد تبدت له حياة نهائية، في الأخير. لأنها تأكدت فجأة أنها هكذا بالنسبة لها. لقد كانت، بعد كل شيء (بالمعنى الحقيقي لبعد كل شيء مضى من قبل) امرأة انكليزية. لقد أخرجت من المستودع المفروشات ومقتنيات العائلة التي لم تكن سوى مصدر إزعاجٍ لها عندما غادرا انكلترا معاً منذ عشرين عاماً، وبوضعها في مكانها، فإنهما حتماً قد تقبلا الحياة التي تتطلب ترتيب هذه الأشياء، والتي جعلها دخلها الخاص الكافي ممكنة.

في الغرفة التي حسما فيها أمر دراسته، كانت طاولة المكتب الموروث من جدها الأكبر الذي آل إليه بشكل طبيعي ـ حقل هادىء من الخشب المراكشي الأسود والأحمر المطعَّم بالذهب شبه المحو ـ مكاناً ملائماً لكتابة التاريخ الموثق بشكل صحيح للبلاد (بلاد مويتا) الذي لم يُنجز من قبل، وليست طاولة المكتب الكولونيالي المصنوعة من خشب البقس التي يملأ عليها المرء الاستمارات الحكومية ويقوم بالخربشات التجريبية للإدارة أو السياسة، التي تُكتب في يوم وتُحول إلى كرة في اليومِ التالي. في المساء العَطِر، المليء بفراشات العث، شعرت بوجود البيت كأن أحداً ما يقف وراءها. لم تكن تعرف ما الذي يشعر به أيضاً، ولم يكن بوسعها أن تحاول كشفه لأنه لو تبيّن أنه لم يكن كذلك ـ كان لديها هاجس، أحياناً، بأنه يمكنك في منتصف العمر أن تجد أنك قد أضعت كل شيء في لحظة: الزوج، الحبيب، الصديق، الأطفال، فيكون الأمر كما لو أنهم لم يوجدوا أبداً، أو أنك قد تُهت عنهم دون علمك، وتقف الآن مصدوماً بالاكتشاف. كانا يراقبان الفراشات في

Twitter: @alqareah

أزهار التبغ. قالت بصوتها الأنثوي الانكليزي الحساس المستفهم الذي التجأت خلفه أجيال من نوعها:

- «هل قال مويتا ما هو طول المدة؟»

كان فيها الكثير جداً من الإيماء! فقد كان إلى حد كبير بلا أساس!

- «لا، لكنه تطرق إليه تماماً البارحة، أليس كذلك؟ لقد أخطأت فهمه البارحة. سنة؟ ستة أشهر؟ ماذا؟».

كان البيض الذين تولوا مناصب في البلدان الأفريقية بعد الاستقلال يُشغلون بالتعاقد.

- «بالله، ليست لدي أية فكرة، أنا متأكدة من أنه ليست لديه أية فكرة. كل ذلك لا أساس له».

دخلت أوليفيا لكي تبدل شريط المسجلة. ولأنه كان، على نحو غير متوقع، شريطاً لموتسارت، كونشرتو الهارْب والفلوت - فقد أشعل سيجارة ليدخنها مستمتعاً. نزلت إلى حديقة العشب ثم عادت وقد جلبت معها غصناً من الشبث (بقلة من التوابل).

«إنه هناك»، قالت. كان بومهم، فرخاً صغيراً فقس من البيضة في الحقل يسمع صوته كل ليلة. علّقت بأن عليها في الغد أن تقطف الشبث لتجفيفه. كل شيء على حاله تماماً. لكن كل شيء كان متبدلاً. كل شيء انقلب بسرعة فائقة. كانت تعرف، إن لم يعرف هو، أنه كان ذاهباً.

كان الوقت ليلاً في أوروبة طوال الطريق. هطل مطر قاتم في فترة ما بعد الظهر في لندن عندما أقلعت الطائرة. في مطار روما ثمة واجهة محل تجاري عريضة مغبَّشة تشع بألوان ضبابية من خلال المطر. أنزل معطفه مرة أخرى لأجل النزول في أثينا. كان الدرابزون المعدني للسلم المدولب أمام الطائرة رطباً مثلجاً على راحة كفه. وفي المطر المدرار لم يشم رائحة بحر إيجه أو رائحة الصعتر، كما يتذكر من رحلات أخرى إلى أفريقية. داخل المطار تحت الضوء الأصفر جلس المسافرون مرة أخرى على كراسي تبدو مهترئة، وقد تلفعوا بشدة بثيابهم الثقيلة. وقفت امرأة عجوز ذات شعر أشيب مجعد على عكازها خارج المرحاض وفتحت الباب باسمة وهي تمسك بخرقة مسح قذرة. تمشّى في الجوار لكي يرتاح من التشنج في ركبتيه ولكن ثمة دائرة يجد المرء نفسه بعد اجتيازها بخطوات وقد صار مرة أخرى في الدكان الذي جذب إليه المسافرين، نساءً وأطفالاً، ليتفرجوا على الأبرونات المطرزة ودمى الإفزون. كان ثمة

Twitter: @alqareah

فتاة في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها ترتدي رايات كانتونات سويسرة مخاطة إلى كم معطفها، فكانت تمتلك بالضبط مظهر فينيشا في هذا السن. اشترى بطاقة بريدية تمثل بحراً أزرق ساطعاً وآثار بيضاء باهرة وحاول أن يكتب، بما استطاع أن يتذكره من اللغة اليونانية: شتاء وظلام هنا، ولكن في كمبردج، ربما، ثمة ربيع يطل برأسه، حبي لك، جيمس. كانت فينيشا قد نالت درجة أولى باللغة اليونانية، هي نفسها، منذ سنة فقط، وباستطاعتها أن تضحك من الأخطاء.

ولكن تلك كانت نهاية أوروبة. في كانو كان ثمة قمر هائل يشع وبضوء أسطع من عصر شتاء أوروبي. شق المسافرون طريقهم عبر الطريق المزفتة في الثالثة صباحا أمام مقاومة حرارة النهار الباقية طوال الليل كله كما تدوم الشمس في حجر سخنته. ثمة رائحة دخان حطب؛ كان الرجال الذين يتجولون تحت بطن الطائرة ذوي أقدام سوداء عارية. عندما صعد المسافرون على متنها مرة أخرى، كانت ملابسهم تبدو مصنوعة من الشعر وكانت الطائرة عديمة الهواء. علق المعطف على المشجب معتذراً، وهو يحاول ألا يعرقل حركة الناس الآخرين في الحركة العامة لإعادة ترتيب الملابس، وانتظار الوصول، الذي لا يزال يبعد ساعات، الأمر الذي لم يثر فيهم كثيراً من الهدف المشترك بقدر ما أثار انتشاراً بدافع الغريزة، كما يحدث في الرؤوس المرفوعة لقطيع يصبح مدركاً لوعد بالماء. عندما أشرقت الشمس أغفى البعض فجأة، لكن النساء بدأن يتفحصن الحقائب البلاستيكية التي يضعن فيها قبعاتهن، عندما نفذت أشعة الشمس القاسية إلى المقصورة وسقطت على الشبك الشعري والشفاه الشاحبة واللحى التي لم تحلق منذ زمن، والطوابير التي تشكلت أمام المراحيض. بينما كان يدون على استمارة الجمارك والهجرة اسم براي، وإيفلين جيمس، ورقم جوازه ، كان شخص ما يقرأ اسمه من فوق كتفه، فقام بثنيها بشكل أخرق، ليس لأنه يمانع ذلك، بل بسبب ارتباك طفيف. تحرك الطابور نحو المرحاض فنظر إلى الأعلى من خلال شق، فتلقى الرجل الذي يحمل حقيبة اسفنجية مزهرة نظرته بتحديقة بلهاء تحولت إلى تعبير عن تحية. وبدأت المرأة التي أغفت بجانبه طوال الليل وهي تواصل الإيقاع الحميم لتنفسها لكن دون أن يتبادلا كلمة واحدة أبداً، بدأت تتكلم فجأة مثل طير نزع الغطاء عن قفصه. انحشر بين المقعدين لاسترداد فردة الحذاء التي أضاعتها في مكان ما فوق صحراء بعيدة؛ ضحكت، احتجت بلباقة، وقامت ببخ الكولونيا داخل صدرها المنمش. نظرت إلى الوهج المبهر للفضاء وهي تسحب الستارة الصغيرة وقالت: «الصباح المجيد هنا!»، وتناقشا بحيوية حول الشتاء البارد المفاجيء الذي تم تجاوزه.

Twitter: @alqareah

لما لم يكن له مقعد قرب النافذة فإنه لم يستطع رؤية الأدغال واللون الأحمر الترابي وغبار القرميد والرتم النامي على امتداد أسرّة الأنهار ـ ليس قبل أن تتوقف الطائرة على مدرج المطار، وكانوا في انتظار مفتش الصحة لكي يصعد إلى متن الطائرة. فك حزام الأمان وانحنى لينظر بزاوية من خلال العدسة الغائمة إلى الجانب البعيد من المشى، وهناك كان الدغل صغيراً جداً، ممزقاً وحقيقياً، وكان التراب تماماً كما بقي في ذهنه دائماً، دون تفكيره بذلك. كان تحت الأقدام. كان حواليه. قام رجل أسود يلبس شورتاً من الخاكي (كان من المعتاد أن يكون رجلاً أبيض يرتدي جوارب بيضاء) برش مبيد حشري معطر بشكل متخم فوق رؤوس المسافرين كإجراء احترازي ضد البعوض وذباب التسي تسي اللائذ بالطائرة. انفتحت الأبواب فدخلت الأصوات إلى الداخل على موجات الهواء؛ ظهر للعيان بين الآخرين داخل التمييز العنيف للمواكبين بكل الحواس، وهو يسير بثبات عبر الطريق الاسفلتية من خلال هبة البطاطا النيئة التحت أرضية، الدفء الطري، المبكر على الأيدي، الطعم المعدني البارد لعاصفة الليلة الماضية في مؤخرة البلعوم، وبناية المطار ذات أشجار الغرانجيباني القرمزية الخمسة، والسياج حيث كان لا يزال العاطلون عن العمل، والأطفال يشبكون أصابعهم على سلك الشبك الماسي وهم يحدقون. كان المسافرون المترجلون كلهم غرباء مرة أخرى، متصلين ليس ببعضهم البعض، بل بالوجوه الباسمة الفاغرة الأفواه، والأيادي الملوحة على شرفة المطار. لم يكن يعرف أحداً، إلا أن المسير كان موكبياً، كان استقبالاً له، وفي هذا الوقت دخل المبنى فوق الدرج حيث، كما دائماً ، كانت الحشرات الميتة التي سقطت عن المصابيح أثناء الليل ولم يتم كنسها، كل ذلك كان بشكل مفاجىء شيئاً مألوفاً وعادياً كما الوجوه التي يحييهم بها الناس الآخرون. كان رفاق الرحلة يتجاهلون بعضهم البعض وهم ينتظرون أن يتم استدعاؤهم إلى مقصورات موظفي الجمارك. وحده الرجل ذو الحقيبة الاسفنجية الزهرية، كما لو كان غير مدرك لهذا التقليد المفيد، مصطنعاً ابتسامة وهو يقول: «ها نحن مرة أخرى».

ـ «أنت الكولونيل براي؟»

تكلم من حول عائق يتمثل في امرأة تقف بينهما.

«أظن أنني تعرفت عليك في روما. أهلاً بك مجدداً. لا بد لي من الاعتراف بأنني لا أتذكرك. لقد كنت غائباً لفترة طويلة». كان للرجل خصلات طويلة خشنة من

Twitter: @alqareah

الشعر الأصفر الشمسي تمتد من الأذن إلى الأذن عبر رأس أصلع ويرتدي نظارات شمسية تستند على عظام وجنتين نورديتين دقيقتين.

ـ «لقد جئت لتوي لأعيش هنا ـ من أقصى الجنوب. جنوب أفريقية».

أصدر تكشيرة مذعنة متظاهراً بالفهم: «زوجتي وأنا قررنا أنه لم يعد بمقدورنا أن نتحمل ذلك. ولذلك نحاول الخروج من هنا. لا أدري؛ سنرى. قرأت أنك عائد، كان ثمة مقال في الصحيفة، أرسلتها إليّ زوجتي مارغوت في سويسرة، لذلك حسبت أنه أنت. لقد كنت أمامي تماماً عندما خرجنا في روما».

ـ «نعم، أعتقد أنني سأضل طريقي عندما أدخل المدينة».

ـ «أوه، إنها ليست نيويورك أو لندن، لا تقلق».

تكلم الرجل بلكنة، وبنوع أوروبي معين من الإذعان. ضحكا.

«حسناً، في تلك الحالة، من المحتمل أن يلتقي أحدنا الآخر بالصدفة في شارع البحيرات الكبرى».

«أرجوك! شارع نكروما».

«قلت سيتعين عليّ أن أستدل على الطريق مرة أخرى».

تطلع الرجل حواليه بسرعة وأخفض صوته.

«هذا البلد يمكنه أن يتحمل عدداً قليلاً من البيض أمثالك، خذها مني. الناس لديهم بعض الإيمان. في بعض الأحيان أظن أنني قد نزلت إلى الجنوب مرة أخرى، هذه حقيقة. قلت ذلك لزوجتي».

شاب أسود يلبس نظارات شمسية وله جديلة شعر سميكة، نابضية أعطيت شكل تسريحة الملاحين عن طريق التشذيب الفني بدلاً من طريق الحلاقة، اخترق الحشد بالحركة المطوقة للسلطة.

«من هذا الاتجاه، سيدي الكولونيل. سيتم إحضار حقائبك إلى المدخل، إذا أعطيتني البطاقات فقط».

كان الرجل الآخر، الذي يتمايل في زحمة هذا النشاط مبتسماً مع ذلك، منتحلاً صفة مضيف مقيم منذ زمن طويل في البلد، يتكلم إلى الرجل الأسود ويتبادل النكات والبطاقات وكلمات الشكر:

«في السيلڤر رينو، بالطبع، إنك تتذكر المكان. في أي وقت، سنكون مسرورين جداً».

Twitter: @alqareah

شكره، وهو يصغي إلى الرجلين معاً دون أن يسمع أياً منهما، ولحق بالزمكّي القوي الذي يرتدي الشورت الأبيض عبر الحواجز وخلال قاعة الاستقبال.

ـ «حسناً، أيها الضابط، هذا هو العقيد براي».

ـ «أنا أعتني بالعقيد براي، لا داعي لإزعاجه».

قال موظف أسود شاب في مكتب تدقيق جوازات السفر بشكل مبهم:

ـ «لحظة فقط، لا علم لي بذلك».

لكن الكوكني الشاحب الذي كان يعلمه لكي يباشر عمله قال:

ـ «حسناً، يا صديقي العزيز، إنه صديقنا القديم السيد كاباتا».

لم تكن الأمتعة منتظرة عند المدخل المزيّن بالأعلام والملفوف بالرايات، حيث توجد صورة امبراطور روماني ضخم. كان مويتا يرتدي ثوباً رومانياً فضفاضاً، وتوجا يبتسم كما فعل في الصورة الفوتوغرافية القديمة لفريق كرة القدم في قرية غالا. قال السيد كاباتا: «ما مشكلة هؤلاء الناس؟ عذراً، سوف أتدبّر غلاماً».

وعاد مع حقائب الملابس على رأس فلاح مفتول العضلات ذي قدم مسحاء، من الفلاحين الذين يشكلون دائماً طاقم الحمالين. خاطب الحمال الرجلين بكلمة موكاوايي، اللقب المحترم الذي أصبح خاصاً بالعبيد أثناء الأزمنة الطويلة التي كان يستعمل فيها بلا تمييز لأجل أي رجل أبيض.

ثمة علم ثلاثي الألوان، رسمي، على سيارة الفولكسفاغن. وإلى جانبه كان فخذا كاباتا القويان يملآن المقعد.

«إنه ليس مريحاً جداً بالنسبة لرجل بطولك، أيها العقيد. سيكون الرئيس في انتظاري ريثما أكون قد جئتك بالمرسيدس، ولكن بالشرف، لو انتظرت لكي أحصل عليها لوصلت لا أعرف متى. أنت تعرف كيف هو الوضع في هذه اللحظة. السيدة أنديرا غاندي ستصل عصر هذا اليوم، والبارحة كانت الأمم المتحدة وسيكوتوري».

كان ثمة أقواس مذهّبة فوق طريق المطار القديم، وثمة بضعة رجال على دراجات يرتدون قمصاناً طُبع عليها وجه مويتا بالأصفر والأحمر الداكن على ظهورها.

قال: «كل شيء مهرجاني».

لكن ذلك كان إلهاءً؛ فقد كان لديه شعور بالإصغاء إلى ما يجول في خاطره، كان يراقب لأجل شيء ما آخر.

قال الشاب: «أنت من مقاطعة غالا».

ـ «كنتُ، لماذا، هل أنت من هناك؟»

Twitter: @alqareah

«أنا من اومسالونغوي. لكن أمي غالانية. لقد زرت ذاك القصر».

- «أوه، هل فعلت؟ في الآونة الأخيرة أم عندما كنت طفلاً؟ ربما كنت لا أزال هناك آنذاك؟»

- «أعتقد أنهم سيُسرون جداً برؤيتك تعود إلى هناك».

ضحك.

- «أتساءل إن كنت سأصل إلى ذاك المكان البعيد».

- «أوه، عليك أن تقوم برحلة» قال الشاب باعتزاز.

- «إنني أقوم بها إلى اومسالونغوي في عشر ساعات. الطريق محسّن كثيراً، سترى. يمكنك القيام بالرحلة إلى ماتوكو، في ست أو سبع ساعات. سيارتي صغيرة قليلاً؛ إنها مستعملة».

قرب الجسر كانت النساء ذاهبات لأجل الماء وهن يحملن صفائح البارافين على رؤوسهن. كانت لوحات الإعلانات الضخمة قد انتصبت عالياً. ثمة معمل اسمنت، مصانع أنيقة مؤلفة من مقاطع زجاجية ناتئة، وفيما بينها كانت البقع الصغيرة تمتد إلى داخل الأدغال حيث النساء والأولاد يعزقون الخطوط العوجاء من الفول والذرة الصفراء.

توقف الأولاد عن العزق ولوحوا بأيديهم (فقد كان ذلك عذراً لإضاعة الوقت، طبعاً). وجد نفسه يرد على التلويح بإلحاح، وهو يحني رأسه تحت السقف الواطىء للسيارة، مبتسماً ويمط نفسه ليمسك وجوههم عندما يغيبون عن النظر تماماً. كانت السيارة تدنو، وهي تقله عبر سوق المدينة. تحت شجرة المانغو كانت مرايا الحلاق تحدث وميضاً في الظل، وكانت الفراريج الحية مستلقية في أكوام وقد ربطت أرجلها. كان موسم المانغو، وثمة سيوف صفراء زعفرانية من القصب المشعر الممصوص في كل مكان يمر به الناس.

كان الطير على سطح غرفة الضيوف المستديرة المسقوفة بالقش في حديقة صديقه القديم رولاند داندو - الولزي - الذي عُيّن نائباً عاماً في الآونة الأخيرة. عندما تم إيصال براي إلى المنزل لم يكن ثمة أحد في البيت سوى الخدم الملقنين جيداً للترحيب به. قدموا له الغداء المميز للطباخ الأفريقي الذي يتذكره جيداً: حساء اللحم المحروق قليلاً مع مقادير كبيرة من الشعير واللحم المفروم المبالغ في طهوه مع البصل المقلي، والبودينغ الرقيق المزبّد في الأعلى والهلامي في الأسفل ذي طعم البيض وعصير الغرانادیلا.

Twitter: @alqareah

اتصل رولي ليستفهم إن كان براي قد وصل، وشرح مرة أخرى ـ لقد فعل ذلك مسبقاً برسالة ـ أنه لديه غداء رسمي يجب أن يحضره. كانت أذنا براي مليئتين بالأصداء الغريبة للإرهاق. ونظراً لكونه متخماً بفعل الغداء الساخن فقد هدد جسمه بخنقه بأمواج الحر. دخل إلى الغرفة التي أبقيت مظلمة بالستائر المسدلة ونام.

لم يكن ثمة سقف فرفع بصره إلى نوع من شبكة عنكبوت تم صنعها بواسطة عوارض السطح. كان الجانب السفلي من القش الذي يستند عليه أملساً ومستقيماً، رمادي اللون حيث كان عتيقاً، أشقر اللون حيث تم استبداله. ومثل رأس مدبب كان يكشف هنا وهناك عن جديلة منفردة شاردة خارجة عن مكانها. ربما كان العصفور يتوازن على الناقل البورسلاني الصغير الذي كان السلك الصغير يمر من خلاله إلى المصباح المتدلي فوقه. ولى الطير؛ لقد عرف ذلك، كما لو أن الوزن النسيمي للبراثن قد ضغط على السطح وقد أزيل الضغط الآن.

كانت الشمس قد دارت دورتها، فكانت الستائر تلمع مثل السماء فوق النار. سَخَنَ هواء الغرفة البارد العطن وتقهقر تاركاً رأسه مرتفعاً وظامئاً. كان ثمة صمت، ثم سمع عدة أصوات في الصمت المدندن في مكان ما، قاطعاً إياه لأجل التنفس، ضاحكاً ـ ليس بشكل رقيق، ولكن بشكل مرقق كونه تقريباً خارج مجال السمع. ليس تماماً. انفصل الصوت، اقترب، كان ثمة الانطلاق المهسهس لصوت خرطوم، كما ظن، فأطلق عبارة: (ليس تماماً) بمثابة توليفة خاصة من الأصوات المنطوقة، بل بمعنى: "فيما بعد"؛ الكلمة المركبة لأجل هذه العبارة في اللغة التي يتم التكلم بها في أنحاء العاصمة والتي لم يكن في الواقع يعرفها جيداً.

نهض ومضى إلى البيت الرئيسي ليأخذ حمّاماً. كانت الشمس في الحديقة حارقة، مبهرة، لاصبة. في الحمام كان الذباب يسف نفسه حتى الموت على زجاج النافذة. كان رولي عازباً، بيته ذاك الخليط الفريد من البذخ الهادىء والكآبة التي لا تتبدل والتي هي شرط العائلات، حيث يعيش البيض منغمسين في المسؤولية الوحيدة عن الخدم السود. كان صهريج المرحاض يمطر رذاذاً إلى داخل الجلاس على نحو ثابت ولم يكن بالإمكان شطفه بشكل ملائم، وكانت المناشف متيبسة مثل القميص الرسمي. (كانت أوليفيا قد استغرقت سنوات لكي تجعل الناس يشطفون الصابون عن الثياب المغسولة)، لكن رجلاً عجوزاً يرتدي قبعة طباخ وضع الشاي تحت الأشجار لأجل براي وأخذ بذلته المجعدة لكي تكوى دون أن يطلب منه ذلك. كان شاب يقص العشب القاسي بقطعة من الحديد معوجة في نهايتها. كانت الشجيرات

Twitter: @alqareah

الخشنة والمنمقة، والهيبسكوس بأزهاره الكبيرة المتسخة بالطلع والنمل والبونسيتا التي تنز إفرازاً حليبياً، قد أزهرت، مضفية منظراً من الخصب الوفير على التربة الحمراء، الفقيرة التي تتحول جرداء، مشوية تحت العشب، موحلة بفعل الأمطار تحت الأشجار، وسهلة الانسحاق فقط حيث هضمها النمل وصنع منها أنفاقاً قشرية صغيرة. انبعثت رائحة كريهة قوية لحيوان ميت منتشرة، مثل الغاز، من حين لآخر فيما كان براي يشرب شايه، فنهض ونظر حواليه، كما فعل ذلك مرات عديدة من قبل، وبنجاح قليل، ليرى إن كان ثمة جرذ، أو خلد، يتعفن في مكان ما. مهما كان ذلك فإنه لم يكن بالإمكان العثور عليه أبداً؛ كانت رائحة النمو، قرروا منذ زمن طويل جداً، في غالا، عملية التحلل والانحطاط المتسارعة جداً، اقتربت بحيث أنها قد أنتجت الرائحة الكريهة للموت والحياة، كلها دفعة واحدة. تمشى إلى حدود الحديقة وتسلق عبر سياج الأسلاك الشائكة، لكن الأعشاب والشجيرات الشوكية على الجانب الآخر (كان محل داندو يقع على بعد ثمانية أميال خارج المدينة)، أكثر تشابكاً من أن يسير عبرها حيث لا يوجد طريق. أصاخ السمع إلى الشجيرة فتملكه الشعور القديم، في الأدغال ، بأنه عرضة للتنصت عليه. كان ثمة ـ أو درجت العادة أن توجد ـ فهود في أطراف المدينة. فقد سبق لداندو أن فقد كلبه ذات مرة. سار مئة ياردة أو أكثر صاعداً الطريق، وعند التقائه برجل يركب دراجة، حيَّاه باللغة التي عادت إليه عندما اضطجع في الغرفة.

في الساعة السادسة جاء رولاند داندو إلى البيت. حدق بقلق في السيارة كما لو أنه، رغم المكالمة الهاتفية، لم يكن واثقاً إن كان براي قد استُقبل بأمان، ولكنه عندما ثبت ناظريه عليه تصرف كما لو أنهما شاهدا أحدهما الآخر منذ أسبوع. كان طائشاً، مثل الكثيرين الذين يسكنون وحدهم، وقد أعاد معه من المدينة ـ وهو ولد منتفخ بالامتيازات الممنوحة له من الحزب ـ كل نوادر وأقاويل احتفالات الاستقلال، منتجاً، في سهوة من الادعاء والإشاعة، نتفاً وأجزاء من المعلومات الحقيقية والآراء حول موقف مويتا ونوع الفريق الذي جمعه حوله. خرجت صينية أخرى من تحت الأشجار، هذه المرة محملة بالويسكي والجين. وقف كلب لابرادوري أسود عجوز ذو مسامير لحمية على أكواعه يهز ذيله ببطء أمام داندو، وهو يمشي. لن يجلب جاسون إلى البيت جزة صوف ذهبية، صدقوني (جاسون مالنجا هو وزير المالية الجديد)؛ لا، لم يكن أمراً سيئاً أن مدير الشرطة البريطاني لم يتم الاحتفاظ به، كان الشعب محكوماً على الدوام من الكونغوليين البلهاء، لكن المندوب الأفريقي، آرون

Twitter: @alqareah

أونابو، كان قادراً تماماً على تولي السلطة من ذاك المخرّف بأي حال؛ كان تاليسمان غوينزي رجلاً ممتازاً، ومن رجال مويتا الصادقين، وكان ديفْيد سامباتا رقماً مجهولاً لوزارة الزراعة، إذ لا يعرف السود شيئاً حول الزراعة بأي حال؛ أما توم مسوماني فقد كان يمثل خطر الفساد ـ ثمة مبرر للاعتقاد بأنه ثمة شيء ما من الشبهة حول صفقة عقارية لأجل إنشاء مستوطنة ـ لكنه من القبيلة المناسبة، مويتا يعرف أنه لا يستطيع الإحاطة بالمشهد بدون وجود ثلاثة على الأقل من آل مسو في الحكومة.

سحب داندو البطاقات من عنق الكلب ونتفها تحت حذائه وهو يشرب ويوزع الأحكام. بدافع من نوع من غيرة الشبان الجدد من بريطانيا وأمريكا الحريصين جدا على إظهار انعدام الشعور العرقي بتجنب الكلمات الملوثة ومخاطبة الناس بصيغ مهذبة. كان يستخدم بشكل متهور قاموس المستوطنين القديم الذي يعكس موقفاً لم يكن له أي دور فيه، من قبل. بإمكان رولي داندو أن يقول ما يشاء: لم يكن رولي داندو قد «اكتشف» السود بوصفهم زملاء له إلا البارحة.

ـ «بالطبع، على مويتا أن يجد عملاً لكل شخص. كل مغفل مغرور من الأدغال يملأ غيلونه بالتبغ المشترى بالاشتراكات الحزبية من فرع الحزب المحلي. كلهم أبطال، أنت تعرف، أبطال النضال. تلحس نضالي. إن إدوارد شينزا واحد من القلائل الذين قضوا مدتهم في السجن وشج رأسه في ذاك الوقت أبناء جلالتها الشجعان، وأين هو؟ لقد عاد إلى سهول باشي بين زوجاته العجائز، لأن كل ما أعرفه، كما أعرف أنْ لا أحد حتى يتذكر اسمه».

ـ «ولكن شينزا هنا من أجل احتفال عيد الاستقلال».

حملق لولي غاضباً. «لا أحد يعطي لعنة حيث يكون».

ـ «ولكنه في المدينة، الآن».

ـ «لا أعرف أين بحق الجحيم يمكن أن يكون».

ـ «أنت تقصد أن إدوارد لن يشارك في الاحتفالات؟ هذا غير ممكن. لم يصل إلى المدينة».

ـ «بإمكانك أن ترى أنه لم يُمنح منصباً حكومياً. لا أعتقد أنه سوف يحضر على شرف الوقوف في الحشد والتلويح بعلم، إيه؟».

ـ «لكن هذا مثير للسخرية، يا رولي. أنت تعرف شينزا. إنه يعرف ما يريد. لقد تولد لدي انطباع بأنه سيكون سفيراً لدى الأمم المتحدة. أعطوا مويتا وقتاً لكي يسلط

Twitter: @alqareah

الضوء على نفسه قليلاً، وأي توتر بينهما يتلاشى. بالطبع، ينبغي أن يستلم منصب الشؤون الخارجية. لكن هذا المنصب بين الاثنين».

- «يمكنك أن تسأل مويتا، إذا حالفك الحظ بالتحدث إليه، اسأله إذا لم يكن بصدد أن يجد عملاً صغيراً تافهاً في مكان ما، مكان ذي لقب لائق به، لأن شينزا العجوز البائس، كان يطرق بشدة على باب السكرتارية الاستعمارية ببانغا في حين كان مويتا ولداً زنجياً ممخوطاً يغني تراتيل في مدرسة الإرسالية». حملق داندو بشكل نزق إلى زجاجة الجن الثالثة أو الرابعة وبيرة الزنجبيل. كان معتاداً على المراهنة على مزائج غريبة. فيتناول مشروباً واحداً لعدة أشهر ثم يتحول عنه، لأسباب وجيهة مشابهة (كان أكثر انهضاماً، وأقل احتمالاً لأن يسبب عطشاً بعدياً) إلى مشروب آخر.

- «أوه، مويتا ليس كذلك».

- «أنت تعرف مويتا. أنا أعرف مويتا. ولكن هناك الرئيس، الآن، إذا كان ثمة أب للدولة، فسيكون هو أو لا أحد».

- «بالتأكيد كان لدي الانطباع بأن أي توتر حصل قد هدأ، في آخر مرة رأيت فيها مويتا في لندن».

- «نعم، شينزا العجوز البائس» هذا ما يقوله كل شخص. داندو العجوز البائس. لم يفسر داندو انتقال المرجع. ربما كان يعلق ببساطة على تقدمه في السن؛ بدون شك كان يبدو أكبر سناً. بدا أنفه الصغير متقارباً بشكل غير متوقع الآن بحيث أن الجلد قد غاص على الجانبين.

كان لدى براي الكثير من الأسئلة، التي ليست كلها لطيفة، لكي يطرحها حول الناس الآخرين. كان بعض الإجابات غير عادي؛ سارع الرجلان إلى تبادل الذهول، واللهو التهكمي والسخط المزدري (من طرف داندو) الذي كان يتكلم به، وأخذ براي علماً بالتغيير الكامل والمفاجىء والسريع الذي يطلق بواسطته بعض البيض ابتسامة سخرية على النظام الجديد، في حين أن آخرين حزموا أمتعتهم وتركوا البلد.

- «إن السير ريجينالد نفسه سوف يقدم لمويتا مقرأة من خشب البوتا ومحبرة مفضضة؛ إنه في الأسفل طوال بعد ظهر الثلاثاء».

كان داندو مرحاً. كان السير ريجينالد هارفي رئيساً لاتحاد الشركات الثلاث صاحبة الامتياز، ومن المعروف بشكل شائع أنه، كصديق شخصي لردڤيرز ليدلي، الحاكم الأكثر شعبية الذي عرفته المنطقة، قد أثر على الحاكم لكي يلغي اتحاد عمال

Twitter: @alqareah

المناجم في الوقت الذي كان فيه مويتا وشينزا يستخدمانه لدعم حركة الاستقلال. في مقابلة صحفية مشهورة أطلق على مويتا اسم «تلك الدمية السوداء البشعة من غالا، التي ترفع رأسها العنيد والمضلّل في حضانة العلاقات الصناعية في هذا البلد الفتي». «إنها كافية لجعل شعرك ينتصب» قال داندو، واستمتع بالنتيجة. كان حزب استقلال الشعب، في ذاك الوقت قد اعتبر تعليق هارڤي بمثابة إشارة مهينة إلى شعر مويتا؛ فقد كان لا يزال يحتفظ به كله، وسيكون بالتأكيد في الأدلة يوم الثلاثاء.

كرر براي ما قيل له في المطار في ذاك الصباح - إن بعض الناس البيض الذين لا يزالون يسكنون في العاصمة سوف يشعرون بالارتياح أكثر في الجنوب، في روديسيا أو جنوب أفريقيا. من هذا؟

- «لا أعرف - أحد الأشخاص من الطائرة - رجل أشقر مائل إلى الصلع ذا لكنة، لم ألتقط الاسم. انتقل مؤخراً إلى هنا».

- «أوه هجالمار ونتز - لا بد أنه هو. تولى وزوجته إدارة السيلڤر رينو في العام الماضي. أنا أحب هجالمار العجوز. لقد ذهب إلى الدانمارك أو إلى مكان ما لأن أمه توفيت. سيدخل ويتناول شريحة من لحم البقر هناك ذات مساء، إنهم يحاولون أن يصنعوا من ذلك صفقة رابحة بمشواة فحم وخلافها...».

- «ماذا حصل لماك غوان؟»

- «يا إلهي، لقد مضى على ذهابهم خمس أو ست سنوات على الأقل. كان ثمة ثلاثة مدراء آخرين منذئذ. من الصعب أن تفعل شيئاً بذاك المحل الآن، فقد اكتسب صفة الحانة لعمال المنجم التي كان يتصف بها. لكنه قريب من مكاتب الحكومة الجديدة، لا يثير الرهبة أكثر مما ينبغي، لذلك تجد قليلاً من الأفارقة يدخلون إليه».

"إنهم مجموعة من الارستوقراطيين المتكلفين، الواعين جداً لمنزلتهم الرفيعة؛ أثرياء متبطلون، وكل شيء، بإمكانك أن تتخيل كيف يشعر الأجلاف البيض إزاء كل تلك الياقات البيضاء حول الرقاب السوداء في البار. هجالمار وديع كالحمل وعليه أن يحافظ على السلم بطريقة ما. أوه، سأخبركم عمن لا يزال في الجوار مع ذلك - باري فورسايث، نعم، وهو يجمع الأموال. لصالح منشأة فورسايث. ستشاهدون اللافتة في كل مكان. يخبرونني أنه حصل على العقد لأجل خطة استصلاح نهر ايسوزا بكامله - إنه يستخدم مهندسين من بولندا وإيطاليا".

Twitter: @alqareah

انتقلوا إلى داخل البيت بسبب البعوض. خرجت العناكب من خلف اللوحات وانتشرت مثل نجم البحر على الجدران. لم يكن ثمة هواء على الإطلاق في غرفة المعيشة، وكان ثمة رائحة دهن ساخن قوية. من حين لآخر، وفيما كانوا في انتظار الغداء، كان حديثهم تقطعه أصوات مؤنسة بشدة - طشيش الدهن، صوت صرير، وحديث عالي النبرة - تنطلق من المطبخ بينما الخادم يدخل ويخرج، وهو يفرش المائدة. إنها وجبة كبيرة أخرى، وتجاذب لأطراف الحديث حول زجاجة نبيذ أبيض بين داندو وطباخه فستوس.

- «بالطبع أنا لا أفتح النوع غير المناسب من الزجاجات. أعرف متى يؤكل لحم الدجاج، وأعرف متى يؤكل لحم العجل».

- «حسناً، إنه النوع غير المناسب، لأنني أخبرتك هذا الصباح أنني أريد وضع الزجاجة المفلطحة المدورة في البراد».

- «قلتَ أن أطبخ الدجاج، أليس كذلك؟ فهمت، أرى الزجاجة المدورة بداخلها نبيذ أحمر».

- «زهري. إنه زهري. لم أقل شيئاً حول اللون على وجه الخصوص لأنني لم أشأ أن أشوّشك. أعرف كم أنت عنيد، يا فستوس».

كانا يتجادلان وكل منهما يعرف أنه أقوم خلقاً، مثل أختين من الخادمات العجائز. كان بالإمكان سماع فستوس يعيد سرد أطراف الحديث في سره بالحرف الواحد في المطبخ؛ فيما استمر داندو، المطمئن بالقدر نفسه، في الحديث كما لو أنه لم ينقطع.. - «ليس من قبيل المبالغة أن ما يتعين عليهم القيام به هو إدخال النظام المسمى الاجتماعي الديموقراطي بدلاً من الانضباط الأبوي. فأنتم لم تستبدلوا مفوض المقاطعة بتعيين حاكم للمقاطعة. إنما قمتم فقط باستبدال إحدى وظائفه. بقي عليكم أن تجعلوا أهل البلد يتأكدون من أن هذه الوظائف موزعة الآن بين مختلف القوى؛ إذ من غير المجدي أن يهرع شخص ما إلى الحاكم إذا احتاج إلى سيارة إسعاف لتنقله إلى البلدة المجاورة، على سبيل المثال، ومع أن هذا هو ما كان على الناس أن يفعلوه في الأيام الغابرة، أليس كذلك؟».

«في مخافر الأدغال لم يكن ثمة أي شيء لم نكن مسؤولين عنه».

«بالضبط. ولكن الآن صار على الناس أن يتعلموا أنه يوجد قسم للصحة العامة يمكنهم الذهاب إليه».

Twitter: @alqareah

«شيء جيد! شيء جيد للجميع! كم كان شغلاً ميؤوساً منه بالنسبة للمفوض، وللناس! كانت الاتكالية والامتعاض جنباً إلى جنب. مهما يكن شكل الحكام السود، مهما تكن الإدارة، فلن يكون الوضع مثل ذلك».

- «كل حكام المقاطعات جيدون، لا تقلقوا. أفضل من بعض رفاقنا. لست قلقاً على هذا الصعيد. هيئة المحكمة لا تتغير بالطبع».

ضحك براي لعبارة داندو؛ نظرة النفور الضجرة المستغلقة على الفهم في الأبواز المجعدة لبعض سلالات الكلاب.

«سيموتون واحداً بعد الآخر، كما أظن. هذا ما يجب قوله حول ذلك. لكن الله يعلم ما الذي سيحصل لنا عندئذ».

«لقد قابلت شقيق غوينزي في لندن ذات يوم عندما كان في فندق غريز إن، أخبرني أنه سيكون أول أفريقي في البار هنا».

عندما يكون رأي داندو بشخص ما وضيعاً فعلاً فلا يبدو أنه يسمع اسمه.

- «لا تظنَّن أنني لا أعرف أنني أتوقع بعض الأوقات السيئة القادمة إلي». قال ذلك كما لو كان يستأنف في سره حديثاً جارياً حوله.

- «عندما قلت نعم لمويتا كنت أعرف ذلك وفي كل مرة أمرّ بالعنوان المكتوب على باب مكتبي أعرف ذلك. سيأتي اليوم عندما سيكون لدي أوامر بترحيل الأجانب لكي أوقعها وأنا لا أريد التوقيع. مذكرات اعتقال أو ما هو أسوأ من ذلك»

تناول ملء فمه من بودينغ الغراناديللا المتبقية، واجتاحت رأسه للحظة رعشة صغيرة. قال براي:

«كل من بقي يكون مغفلاً إذا لم يفكر في ذلك».

«وسوف آمر النائب العام للدولة بأن يتصرف عندما لا أريد ذلك، أيضاً. هذا ما أستطيع الاعتماد عليه. ماذا لو كان على شينزا أن يخلق شيئاً من المتاعب في الانتخابات القادمة؟ ماذا لو كان يشعر أنه مبخوس القيمة لعين تماماً مثلما هو بالتأكيد، وبدأ بمعارضة حقيقية بكل الحيل التي لقنها لحزب استقلال الشعب، إيه؟ ماذا لو جعل كل الجماهير الناطقة بلغة لامبالا تلجأ إلى المقاطعة، مع كل التصفيات الجسدية القديمة في الأحواض، وحرائق الأكواخ؟ أتظن أنني ما كنت لأجد نفسي من سيسجن شينزا، هذه المرة؟»

«حسناً، أعرف، ولكن لماذا ينبغي أن يكون الأمر هكذا؟».

Twitter: @alqareah

«كنت أعرف ذلك عندما قلت نعم لمويتا. داندو العجوز اللعين. إن العمل القذر للسود ليس بأي حال أنظف من عمل البيض. هذا ما سوف يُسعدون بملاحظته. ولكن ما لن تعرفه عقولهم الصغيرة الموجَّهة هو أنني عرفت ذلك عندما استلمت الوظيفة، عرفت ذلك كله دفعة واحدة، وسأقوله الآن بصوت عالٍ كما كنت سأقوله آنذاك».

«من سيكون سعيداً؟».

أعاد داندو ملء كؤوس البراندي مرة أخرى.

«رفاقي! أولئك الزملاء الجديرون الذين ذهبوا جنوباً إلى روديسيا وجنوب أفريقيا حيث يمكنهم الشعور بالثقة من أنهم لن يكون لهم رجل أسود على سدة الحكم لكي يصدر حكماً متحيزاً مثله في ذلك مثل حكم الرجل الأبيض ـ زملائي، تنتشر تيل وولیامسون ودي ليزل.

كان ذلك بعد منتصف الليل عندما آووا إلى الفراش. ذهب براي إلى المطبخ ليملأ كأس البراندي بالماء لأجل الليل. هربت الصراصير مغادرة الأماكن التي كانت تعتبرها مواقع أمان، لكي تدوّر قرونها الاستشعارية. كان ثمة شريط أسود فرائي من النمل يصعد باب الخزانة إلى بعض فتات الطعام الذي كانت تنقره من صحن. وقف عند المغسلة، يشرب الماء البارد وينظر إلى بذرة إجاصة الأفوكادو تنمو معلقة بواسطة ثلاثة أعواد ثقاب في عنق قطرميز مخللات مليء بالماء على عتبة الباب. كان يشعر بالألم المدوخ وهو ينقل ثقله من قدم إلى أخرى بدون إرادة منه، فقد بدا أنه كان يقف هناك لفترة طويلة من الزمن ـ لم يكن متأكداً.

سمع داندو، مدفوعاً من كلب اللابرادور العجوز إلى الحديقة يدور حول الجانب الخارجي من كوخ الضيوف ويتحدث موبّخاً إلى الكلب، ثم طلع الصبح وكان مساعد فستوس عند الباب مع الشاي المبكر.

Twitter: @alqareah

(2)

كان ثمة طائرة هيليكوبتر تشخر فوق الاحتفالات، حاجبة التحيات المتبادلة، عندما تم تعريف براي على شخص في الشارع، مغطية على الأحاديث في الحانات وحتى على الخطابات. لا أحد يعرف سبب وجودها ـ إجراء أمني، اقتنع البعض بالفرضية، في حين قَبِلَ البعض الآخر باعتبارها ملائمة لشكل مبهم، كرمز للتقدم لا يمكن فصله عن كل المعارض الصناعية والأسواق الزراعية، وبالتالي لها علاقة بشكل ما بأي عرض عام. مرت لحظة في الستاد في مراسم عيد الاستقلال الفعلي عندما سمعها تهدر في محيط السماء حين بدأ كنياتا بالكلام تماماً، فتبادل مع ڤيڤيان بايلي، الزوجة الشابة لأمين الجامعة الجديد، الجالسة بجانبه، نظرات الترقب. ولكن بالرغم من أن الهيليكوبتر لم تبتعد تماماً فإنها لم تظهر فوق الرؤوس، ولم تقدم للتكبير الرنان للخطابات سوى المرافقة المكتومة لغاطط في نومه يتقلب الآن وهو يتنفس فقط بشكل مسموع إلى حد ما. فيما بعد اكتشف أنها كانت تقدم رحلات قصيرة مقابل نصف كراون لكل رحلة لقسم من الناس الذين كانوا يصطفون طوال مراسم الاحتفال في ملعب كرة القدم المجاور؛ إنها دعاية مثيرة لصالح شركة عالمية لصناعة السجائر.

كان نيل بايلي هو الذي اكتشف ذلك، بسبب الحادث البيتي المؤسف، أو سوء الفهم الذي أخّر وصوله إلى منصة الزوار المميزين. كان براي مدركاً للتوتر الشديد بين الزوجين الشابين إلى جانبه عندما جلس مع الاهتياج الكبير لصفوف الناس من خلفه، والفراغ من أمامه، أمام المنصة المكسوة بالمخمل والمظللة، الممتلئة بمصوري الصحافة وطواقم الإذاعة والتلفزيون، الذين كانوا طوال الاحتفالات المهيبة يتسابقون منحنين على رؤوس أصابعهم المحمومة، يعقصون أسلاكهم، يدفعون إلى الأعلى

Twitter: @alqareah

بأدواتهم الغريبة الأشكال، يناورون بالمصاريع والأضواء الخطافة. كان الأمر كما لو أن فريقاً من العاملين مع عدتهم قد تُركوا في الخلف مع جعل كل شيء جاهزاً بشكل رائع لأجل العرض المسرحي. هذا النشاط والمزاج تصاعدا على خلفية شجار صامت بجانبه وفر إلهاءً قوياً عن مستوى مضطرب آخر من الوجود بدا له دائماً أنه يُنتزع من «اللحظات العظيمة» المخططة التي لا يُقصد بها أن تبقيه عنيداً ونقياً. هنا كان الإحراز الرمزي لشيء آمن به ورغب فيه وعمل لأجله، ردحاً كبيراً من حياته: ما تم التعبير عنه في الهدير الذي يتأرجح جيئة وذهاباً من الجمهور بفواصل زمنية، بزات التوجا الرسمية، الصدور المزينة بالنياشين والقفازات البيضاء، صرخات النساء المعوّلة، الجنود الواقفين في حالة انتباه، والشمس التي تنعكس أشعتها عن آلات النفخ النحاسية الصلالة للفرق الموسيقية أو في عربات (البوظة) الثلاثية العجلات المنتظرة عند قاعدة كل قطاع من المدرج المليء بالوجوه السوداء، الكلب الهجين الذي نفد صبره ورفع ساقه على المنصة الرئاسية.

كان لمويتا المظهر المحنّط لواحدٍ أصبح إناءً للطقوس والشعائر. ولكن ما إن أذيع إعلان الاستقلال حتى عاد، كما لو أنه خارج من غشوة، إلى ذاته مفعماً بالحياة على نحوٍ لا يقاوم، ساهراً هناك يراقب كل شيء من حوله، فقد شعر بأنه مشاهد بالإضافة إلى كونه مشهداً. أحس براي بنصف ارتباك عندما وجد أنه قد لمح عينه، ذات مرة، وابتسم ابتسامة خاطفة؛ لكن مويتا اعتاد على الالتفات إليه، الآن. تحدث إلى الأميرة الانكليزية الكهلة التي تجلس بقربه وركبتاها ملتصقتان بأناقة، في الوضعية الملكية المعبرة بشكل يثير الفضول عن معاناة المراسم. ورآه براي يشير إلى فرقة نساء غالا، اللواتي طلين وجوههن وصدورهن بالأبيض ابتهاجاً، واللواتي كن مصفوفات بين جحافل الموسيقيين والراقصين من مختلف المناطق.

ومع ذلك عندما انتهى ذاك الاحتفال، وفيما بين كافة المناسبات الرسمية الأخرى - حفلات الرقص الرسمية، الاستقبالات، حفلات الكوكتيل، المآدب والغداءات - طغى المزاج الاحتفالي، كما هو الحال، خارج بوابات القصر. كان يحضر معظم المناسبات الرسمية (كان ورولي يتبادلان التحية بمفاجأة ساخرة عندما التقيا في المنزل وهما يرتديان نصف ملابس العشاء الرسمية كل ليلة)، لكن الحفلات الحقيقية تحصل قبل ذلك وبعده. كانت تنبت بشكل تلقائي الواحدة من الأخرى. وما إن تحضر في الأولى حتى تصبح حاضراً في كل الحفلات الأخرى. لم يكن يعرف في الواقع سوى بعض الناس ولكن يبدو أنهم جميعاً يعرفون عنه، والكثير منهم هم

Twitter: @alqareah

أصدقاء أصدقائه. أخذه داندو إلى بيت آل بايلي؛ لكن نيل كان صديقاً لمويتا، وكانت ڤيڤيان ابنة أخ، بالنسبة لكل الناس، لوليام كلاف، الحاكم الأخير، الذي يأتي في مرتبة أدنى مع براي في الخدمة الاستعمارية في تنجانيقا. كان آل بايلي أصدقاء لكنت سايبريان، وزير داخلية مويتا، وزوجته تيندي، وتيموثي اودارا، أحد الأطباء الأفارقة القلائل في المنطقة، الذين كان براي، بالطبع، يعرفهم جيداً. من خلال كل فرد كانت الجماعة تمتد إلى شخص آخر وتجتذب إليها، بدافع من الطابع العالمي الجديد للعاصمة، بولنديين، وغانيين وهنغاريين وإسرائيليين ولاجئين جنوب أفريقيين وروديسيين.

بعد الحفل الموسيقي الرسمي كان ثمة حفلة خاصة استمرت طوال الليل في سرادق. وعد رولي داندو بأن يقوم بزيارة قصيرة عرضية وكان براي معه، بالطبع. تقاطر كثير من الأشخاص الآخرين الذين رآهم براي في الحفل الموسيقي وهم يرتدون ملابسهم المبهرجة: لقد ساهموا في الترتيبات لأجل هذه الحفلة. تعالت الهتافات من الحاضرين للتو الذين لم يكونوا في الحفل الموسيقي؛ لقد قرروا أن يتأنقوا لمرة واحدة، أيضاً، فاختلطت مجموعتان من النساء وتبادلتا الهتاف، كل واحدة بدأت حديثها حول الحفلة الراقصة، ودخلت الشمبانيا، والفرقة الموسيقية الكونغولية التي حركت خطواتها. واندفع معاً المزاج العبثي والمثير قليلاً للحفل الرسمي والابتهاج المريح للحفلة. امتلأت الخيمة بالكراسي والدواوين المستعارة من بيوت الناس، والأزهار من حدائقهم. قام شخص ما بنصب لوح مع كولاج لصور مكبّرة لمويتا ـ يتكلم، يضحك، يتثاءب، يلمس جزءاً من آلة بفضول، يغادر، يصل، وحتى وهو يهدد.

أضفى العناء الذي لاقاه الجميع حس المناسبة حتى على أوحش لحظات الليل. جاءت ڤيڤيان بايلي، جليلة في السادسة والعشرين من عمرها، ذات الوجه الجميل، المتكلف، المدرب على ضبط النفس، لتحوم حول براي بين نوبتين للمسؤولين عن الغرفة، لتتأكد من أن هذه البنت الصغيرة ليست متضايقة من ملاطفات شخص أكبر سناً ومخمور نوعاً ما، أو أن الشاب ليس موضع مراقبة من الفتيات اللواتي لا بد أنهن يلاحظنه. وفاجأها براي بأن طلب منها أن ترقص، وهو يتمايل على إيقاع لا يعرفه، ولكن لا داعي للقول إنه يحفظ الخطو، بحيث أنهما لن يجعلا من نفسيهما مغفلين وسط الدورانات المعقدة للأفارقة. قالت: «أنا سعيدة جداً بكونك ترقص» وشعر بالخجل من كونه قد طلب منها الرقص بدافع اللباقة فقط.

Twitter: @alqareah

تابعت تقول: «نيل لا يرقص ـ أظن أنه من الخطأ أن يجعل المرء نفسه ينسى هذه الأشياء بسبب الغرور. إن تيندي كنت راقصة رائعة، رائعة، أليست كذلك ـ تماماً مثل أفعى أُخرجت من وكرها بالموسيقا ـ وأحياناً يحاول معها. إنه يحب مغازلتها عندما لا ينظر سايبريان، لكنه يجعلها تقوم بتلوياتها العجيبة على الأرض وهو يقف هناك تماماً مثل أندرو، يجرجر قدميه».

ربما كان أندرو أحد أولادها؛ إذ أن كونه مقبولاً بمثلِ هذه المودة العرضية الفورية من قبل الجميع إنما كانٍ يشبه إلى حد ما كونه مجبراً على تعلّم لغة أجنبية عن طريق إيجاد نفسه وحيداً بين أناس لا يتكلمون لغة أخرى؛ كان من المفترض به أن يلتقط العلاقات العائلية والعلاقات الأخرى بمجرد تعرضه لها.

نادى أحدهم ڤيڤيان فانسحبت من الرقص إلى طاولة مكتظة. انحنت امرأة شابة بمرفقيها عليها فاندلق نهداها البيضاوان ضمن إطار ذراعيها. قالت لها: «تناولي كأساً»، إذْ لم تكن توجد كؤوس احتياطية للبحث عنها. انطلقت إلى الرقص، ممسكة معدتها عندما مرت منضغطة ووازنت جسدها اللين. كانت الحرارة ترتفع بفعل المشروب والنشاط الحركي، وارتسمت على الكأس الذي ملأته اليد السوداء الطويلة النحيلة لجاره بصمات أصابع المرأة البيضاء التي تخلت عنه.

ـ «ألا تتذكرني؟ ـ راس آساهي، جئت إلى محلك في انكلترا ذات مرة». قال الشاب إنه يعمل الآن في الإذاعة: «ما يسمى مساعداً لمدير قسم اللغة الانكليزية»

ـ «وكيف حال أبيك؟ يا إلهي، كنت أود أن أراه مرة أخرى!»

كان جون آساهي واحداً من ملازمي إدوارد شينزا في الأيام الأولى لحزب استقلال الشعب.

ـ «لقد صار عجوزاً الآن».

لم يكن بالسؤال المناسب الذي يجب طرحه. إن ما يرفضه الشاب هو أي ايحاء ممكن بأنه يُعتبر على صلة بشينزا. فملابسه، ساعته، وClufflinks كانت ملابس وساعة وClufflinks رجلٍ يشعر أنه يجب أن يشتري الأفضل لنفسه، كان له الفك الموسوليني الشائع تماماً بين الناس في الجزء من البلاد الذي ينحدر منه، لكن تلك اليدين كانتا اليدين الأفريقيتين الشاعريتين، القويتين بشكل مرهف، اللتين تخلصتا من الرقة العالية لأيدي رجال الأعمال، مثلما تعجّب براي لرؤيتهما تتخلصان من توحش الشقاء الجسدي. فالمحكومون يكسرون الحجارة بأيدٍ كهذه،

Twitter: @alqareah

هنا. تناقشا حول تغطية الإذاعة والتلفزيون للاحتفالات، ومن هذا النقاش دخلا في حديث يهمهما ـ مشكلة التواصل في بلد يضم جماعات لغوية مختلفة جداً.

ـ «أتساءل كم يمكن الاستفادة من الصفوف الدراسية الإذاعية في مدارس الريف، وعما إذا لم يكن بمقدورها أن تساعد بشكل ملحوظ في حل مشكلة نقص المعلمين، هنا، والمحافظة على نوعٍ من المستوى التعليمي حيث يكون المعلمون غير مؤهلين ربما بشكل جيد جداً. كنت أود التحدث إلى أحد ما حول ذلك ـ رجلك؟ لست متحمساً للذهاب مباشرة إلى المدير العام».

ـ «لن يكون في ذلك اختلاف كبير. إنهم» ـ كان راس آساهي يقصد البيض ـ «كلهم يعرفون أنه بعد نهاية العام سيكونون متعاقدين، وهذا يعني أنهم سوف يستبدلون في خلال ثلاث سنوات. ليس معنى هذا أنهم قد قاموا بجهد أبداً. إنهم عمالة محمية. كل هذه السنوات، ما الذي تتوقعه؟ أنت لست بحاجة إلى الأفكار، لا داعي لأن تتحرك عن كرسيك، إنك ببساطة تستمر في إصدار الصخب من الصندوق السحري لإبقاء الأهالي هادئين، والآن، بُم، لقد ذهب كل شيء، بما في ذلك الحافز الوحيد الذي كانوا يمتلكونه، معاش التقاعد. إنهم محزنون، بالتأكيد ليس لديهم الكثير ليعرضوه عندما يبحثون عن الوظائف لدى [هيئة الإذاعة البريطانية]. إنهم بالضبط لا يذهبون لإيجاد أي عمل. إنهم يريدون الذهاب، يتوقون، بإمكانك أن ترى أنهم لا يستطيعون تحمل رؤية وجهك عندما تعملون سوية، وهو ما يجعل الأمور سارة جداً، يمكنك أن تتخيل».

انسلّت بنت بيضاء صغيرة نحيلة بينهما وأخذت يد راس آساهي ذات سوار الساعة المعدني المذهّب كما لو كانت شيئاً ملكاً لها قد أودعته.

ـ «أنقذني من دادي داندو».

ـ «بمقدوري أن أعطيك دزينة من الأمثلة على نوع الشيء الذي يحدث ـ الاحتفال عصر هذا اليوم: مثل سباق الخيل، يا رجل، فالترتيبات هي بالضبط ما اعتادوا على استخدامه لأجل الإحسان للمعاقين في عيد الميلاد. ماذا يعرفون غير ذلك؟ اقترح ما شئت، فإنهم سينفثونه مع دخان السيجارة، إذ لا أحد حتى يصغي».

كانت الفتاة موجودة في حديثهم مثل صورة فوتوغرافية مطوية وموضوعة بين صفحتي كتاب، لم يكن براي متأكداً ما إذا كانت طفلة أم امرأة؛ عظام الترقوة نحيلة، والعنق طويل مع وجه بالكاد أعرض منه، شاحب وواهن، الفم رقيق، غير

Twitter: @alqareah

مطلي، الشعر أسود لامع، العينان سوداويتان حزينتان. ترتدي فستاناً مصنوعاً من قماش كونغو.

«لنفترض أنه لم يتم التعاقد معهم في نهاية العام؟ ماذا عن المصافحة الذهبية؟ أما كان ذلك أرخص، في النهاية؟»

ـ «ليس إذا لم يكن ثمة استعداد للاستبدالات التي تتم في هذه الأثناء. حاولت منذ سنتين أن أباشر مخططاً رائداً لإرسال أشخاص محليين لأجل التدريب على تقنيات البث الإذاعي ـ لا شيء يعمل. لو كان عليّ أن أتولى قسم اللغة الانكليزية غداً، أنت تعرف ما الذي سيكون عليّ القيام به ـ ثلة من الناطقين بلغتي لامبالا وانزيلي من القطاعات البلدية وبعض معلمي المدارس اللاجئين من جنوب أفريقيا».

جلست البنت ولم تفهم شيئاً، مثل حيوان مقطوع الأنفاس، لابدٍ في مواجهة الخطر.

كان على براي أن ينهض لكي يتم تعريفه على امرأة كبيرة تراوح الخطى طوال الوقت على حاشية الراقصين مع الأميركية كورتيس بيتيغرو: كانت أفريقية غربية تزوجها تيموثي اودارا بعدما رآه براي آخر مرة.

كانت تتكلم بتنغيم أميركي، أيضاً، وبفستانها القومي المموج، المشدود حولها كما لو أنه انتزع مباشرة من اللفافة البراقة على طاولة الحساب في المتجر ـ كانت تبدو بطريقة ما ضعفي حجم النساء الأفريقيات المحليات، اللواتي يُحفظن عادة في البيت ـ وقامت باستعراضه.

نودي على بيتيغرو من قبل شخص آخر، فتركت براي والمرأة وجهاً لوجه مثل راقصين، وضعت يدها على ذراعه. وبينما كانا ينصرفان قالت:

ـ «احزر ما هو اسمي؟» وعندما بدا مرتبكاً قالت:

ـ «اسمك نفسه كما أعتقد، ايڤلين».

ـ «لكنهم ينادونني باسم جيمس».

ـ «كنت آمل ذلك، اللعنة. حسناً، لقد عثرت على شخص يناسبني أخيراً، الليلة الماضية. كان بمقدورنا أن نمسح الآخرين عن الأرض».

وظلت على اتصال مع كل من كان حولها عندما كانا يرقصان، تتحدث من فوق كتفه إلى هذا، تمد قدماً سمراء صلبة في صندل ذهبي لتوكز ذاك في بطة الساق.

ـ «اجلبها لكي تغني». هتف داندي بغرور.

ـ «ليس الليلة، داندي ـ رولي ـ أنا في أفضل مزاج».

Twitter: @alqareah

- «هذا ما أقصده!». وسألت براي:
- «هل كان سيحرجكَ يا ايڤيلين لو غنت ايڤيلين؟».
- «ليس على الإطلاق. ما نوع الغناء؟»
- «حسناً، ماذا كنت تظن؟ ماذا يبدو عليّ وكأنني سأغني؟».

كانت تمتلك ثقة بالنفس لامرأة ذات قبح حركي. «ڤاغنز؟».

شخرة لذة: «هلموا! لدي صوت كصوت الضفدع. إنه رهيب عندما أنشد التراتيل القديمة من الوطن، لكنه ليس رديئاً للغاية بالانكليزية فالانكليزية هي لغة فظة بأي حال».

استأنف وجه ڤيڤيان بيلي الملحاح الحديث بالمناسبة:

- «تلك هي ابنة هجالمار ونتز - التي كنت جالساً معها».
- «الفتاة الصغيرة ذات الملامح الشرقية مع راس؟».
- «نعم، إنها مخلوقة جميلة، أليس كذلك؟ لم يكن مارغوت ليدعها تأتي لولا أنني وعدت بإبقائها مشغولة بشكل مأمون».

«ألم تتركها مع راس؟».

حرك كتفيه بشكل يائس. كان الراقصون يتقهقرون حول مهندس زراعي بولندي يعلمّ رجلاً انكليزياً وشابين أفريقيين رقصة فلاحية اوربية شرقية. لم تكن لدى الفرقة الكونغولية أدنى فكرة عن الموسيقا التي ستعزفها، فأصدرت تصعيداً جازياً، ثم قام أحد البولنديين بالعزف على البيانو، ونقر بيلي على الطبلات. إن الشكل الغر من التعبير الذي يظهر حيث يريد الانكليز أن يكرسوا أنفسهم للاحتفال قد فرض نفسه لوهلة. غادر أحد الأشخاص، وعاود الظهور مع صندوق آخر من الشمبانيا. كان الخمر دافئاً لكن مطر الساعات الأولى من الصباح تبدّى مثل العرق، والبرودة تهب على الأعناق والوجوه. فيما بعد غنت امرأة الأودارا النشيد الوطني الجديد بصوت رنان جميل وبطنها الكبير يهتز تحت الثوب. كان العازبون الصغار يمرحون بصخب مع الفتيات المشعثات الشعر، اللواتي يمررن بقربهم، أو يبتسمن فجأة لأناس لا يعرفنهم، فكانت تفوح منهن رائحة مستحضرات التجميل والعطر المسخّن على أجسادهن. ثم تناولوا الفطور في بيت بيلي، فكان ثمة نقص في الوجوه، لكن البعض ظل يعاود الظهور طوال الليل كله في الضوء المتبدل، وفي هذا الوقت، على خلفية سماء رمادية - قرمزية مترقرقة وراء ڤرندة آل بيلي، فوق رائحة القهوة، كان ثمة رأس أشقر معقوص الشعر ذو أقراط مذهبة في الأذنين، وسيور لماعة اكتست

Twitter: @alqareah

مساراً أحمر على ظهر أبيض رصاصي، مقدمة قميص تيموثي أودارا المنشّاة والمطوية وعروة زرها المسدودة ـ كل ذلك كان له ميلودراما شخصيات السيرك. قالوا: تصبحون على خير، كلٌ للآخر تحت الشمس الساطعة، وكان أولاد بيلي قد خرجوا لتوهم على العشب في بيجاماتهم، وهم يركبون الدراجات الهوائية.

في أيام قليلة فقدت الوجوه خاصية الظهور المؤسلبة لليلة الأولى، ليلة حفلة الاستقلال، وأصبحت، وإن لم تكن مألوفة، فعلى الأقل متوقعة. كانت امرأة شابة تدخل وتخرج إلى ومن بيت آل بيلي، فتضيف في بعض الأحيان، وتحمل معها في أحيان أخرى، الأولاد الكثر الذين يلعبون هناك. كانت ريبيكا إدواردز، مثل تلميذة كبيرة مهملة، في قميصها القطني وصندلها، ومفتاح السيارة على سبابتها يخشخش بشكل مزعج. كانت تُرسل دائماً لالتقاط الناس عندما تسير الترتيبات بشكل مغلوط؛ فقد جاءت من أجل براي ذات عصر في عربة ستيشن عتيقة مكسوة بورق الحلويات وجوارب مفردة وألعاب دينكي. إنها هي التي أعطت نظارتيها في تلك الليلة، في حفلة الاستقلال، للبولندي الذي رقص الغازاتسكا، ذاك الرجل الذي انزوى معه إلى ركن هادئ لكي يتمكنا من التحدث حول البنية النحوية المثيرة للفضول لمجموعة لغات غالا ولمبالا. كان الجو في الحفلات كما يعتقد أنه يجب أن يكون في التجمعات التي توصف في الروايات الروسية للقرن التاسع عشر. الأولاد يتجرجرون داخلين خارجين، ينشدون المتعة بشكل قتالي. الأطفال ينامون في غرف مظلمة. الطعام يُطهى بأيدٍ عديدة، الدعوات تُقاس فقط بمدى ديمومة البيرة والنبيذ. لقد شعر بنفسه أنه القريب المتوسط السن، الرجل ذو السمعة الغامضة القادم من بعيد إلى العرس، الذي تم استدراجه وهو لا حيلة له ولكن ليس بغير استمتاع ـ إلى كل شيء. لقد كان ذلك، بطريقة مثيرة للفضول، امتداداً لما كانه في الاستقبالات الرسمية، حيث لا يكون لدى كثير من الناس سوى فكرة ضئيلة عمن يكون الغريب الأبيض، الجالس في مكانة شرف متواضعة. وذات مرة، في حفل غداء صحافي، أشار مويتا إلى حضور «إحدى العرابات الجميلات» التي كانت «حاضرة في حفلة التعميد وقد عادت لأن مستقبل الدولة ولى»، بفضل الله، دون أن يُلحظ، كإشارة إليه نفسه. لقد أصبحت قصة استقلاله، مثلما أن قصة هليوكوبتر شركة السجائر هي قصة نيل بيلي، تروى مرة تلو الأخرى خلال الدراما السرية بين زوج وزوجة، ما جعلها تمر بدون تعليق في الوقت الذي كانت تستبعد فيه خارج السياق تماماً.

Twitter: @alqareah

سأل براي في كل مكان عن إدوارد شينزا، لكن بالتأكيد لم يكن ثمة دليل على وجوده في أية مناسبة رسمية. شعر براي أنه لابد أن يكون في مكان ما في الجوار، كان من الصعب أن يتخيل هذا العهد بدونه. كان عهده بقدر ما كان عهد مويتا. لكن لا أحد يبدو أنه رآه، أو يعرف إن كان، أو سبق له أن كان، في العاصمة. ثمة وجوه أخرى من الماضي؛ وليام كلاف، الحاكم، يرفع حاجبيه الأهلبين في تحية مبالغة في مأدبة مويتا، بالطريقة التي اعتاد أن يفعلها في قاعة التنس في دار السلام.

- «جيمس، يجب أن تأتي وتقول مرحباً لدروثي قبل أن نغادر. أنا لا أجرؤ على أن أقول تعشَّ، فنحن مشردون، أنت تعرف».

قالت ڤيڤيان: "نكتة استقلال العم ويلي تحدث ضحكة من القلب لرجل مجرب من الأفارقة".

قال نيل: «من نوع الضحكة التي انتزعوها من أناس مثل العم ويلي».

مع ذلك، فإن آل كلاف كانوا يزعجون براي من خلال ڤيڤيان.

- «العمة دروثي تقول إن سكرتيرها كان يحاول الإمساك بك. يريدونك لأجل المشروبات يوم الإثنين. لو كنت مكانك لذهبت وإلا فإنها سوف تخبر الجميع في لندن أنك كنت تراوغ الأفارقة وأنك لم تكن تريد رؤيتهم».

ضحكَ: «لا، إنه صحيح، هي تقول ذلك عني، لأمي. وهي تعرف تماماً أننا لم نر أحدنا الآخر في لندن أبداً».

كان آل كلاف قد انتقلوا إلى القنصلية البريطانية على مدى الأسبوع أو الأسبوعين الأخيرين قبل رحيلهم، وهي عبارة عن منزل زجاجي ضخم مؤقت وُضع للفت الانتباه إلى أشجار الزعرور المظللة للموقع، تماماً كما في النموذج البياني النسبي الذي يرسمه المهندس المعماري. كُنس القنصل وزوجته إلى غرفة خلفية بفعل وجود المعاونين، والسكرتاريين وضرورة إبقاء قططهما بعيداً عن متناول كلب الليدي دروثي. حدث نوع من الشجار عندما وصل براي - شاهد زوجة القنصل، التي سبق له أن التقاها بشكل مقتضب، تختفي في الطابق العلوي ورأسها محني معزية لامرأة سيامية. كانت تشكيلات الزهر موضوعة في كل مكان، كما لو أنه يوجد مريض في المنزل.

- «حسناً، انتهى العمل، لا يطلب المرء شيئاً أكثر من ذلك - سوى أن يطوي خيامه.. إنه شاب جيد، إذا تركوه وشأنه، لقد تعلمّ الكثير، والمرء يفعل ما يقدر

Twitter: @alqareah

عليه.. إذا احتفظ برأسه، وهذا ما لا يمكن المرء أن يكون واثقاً منه، حتى معه، معه؟ حتى معه هو».

دخل خادم كهل بصينية فضية من الكؤوس والزجاجات، فقاطع كلاف نفسه ليقول بالرفق اللطيف لمن لا يدخر نفسه، متشجعاً حيث لا يسمح الآخرون بالتجاوز:

«سيكون شيئاً جميلاً للغاية لو استطعنا الحصول على قليل من شرحات الليمون.. ومزيد من الثلج؟ ـ نعم، كل ما قلته لمويتا، مراراً وتكراراً.. حدد المنطلق الخاص بك. حددْ منطلقك الخاص والتزمْ به. هو يعرف رأيه، لكنه ليس رفيقاً متصلباً على الإطلاق ـ حسناً، بالطبع، أنت تعرف. منذ بعض السنوات ـ كلمة في أذنك، قلتُ، سيكون من الحماقة أن تخسر العميد رادكليف. حسناً، كانوا يصرخون ويتذمرون، بالطبع، لكنه محرم عليه أن يلمس الجيش. أوه! أعتقد أن بإمكاني القول إننا قد خرجنا من ذلك أصدقاء جيدين تماماً».

كان ذلك تنازلاً متواضعاً، بتأثير الافتراض المشترك للأريحية التي كان يعتقد أن براي يتمتع بها مع الأفارقة. نظر مسروراً إلى إبريق المارتيني وأنزله مرة أخرى بتأن. كان للخادم الكهل الذي جلب الثلج والليمون أخاديد في الزاوية الوحشية للعينين، تلك الأخاديد التي يكتسبها أهالي غالا الشمالية.

ـ «هذا مثالي، شكراً جزيلاً».

حيًّا براي الخادم بلغة غالابالشكل المحترم للخطاب الخاص بالمسنين، فتخلص الرجل من حالة انعدام الشخصية للخادم كما لو كانت الصينية في يديه وكشر بحرارة، مبدياً بعض الشذوذ التصبغي بشفة داخلية قرمزية منقطة مثل كلب دلماسي. أطل الحاكم السابق مبتسماً. انحنى الخادم له مرتبكاً وهو يسير إلى الوراء، على الطريقة القبلية في الانحناء أمام وجيه. ثم استرد نفسه وهو يغادر الغرفة بقفزة مجهولة.

ـ «سأسكب مارتيني لدروثي أيضاً، فلربما سيغريها ذلك. ليت كان بالإمكان أن ينتقل المرء على بساط سحري.. بأي حال، سوف نمضي ثلاثة أشهر في لندن الآن، ربما مع أسبوع أو أسبوعين في إيرلندا. ما الذي كنت تفعله طوال هذه السنوات في برجك العاجي في ويلتشاير؟ هل كنت لاعب غولف، لا أتذكر تماماً...؟».

ـ «كنت لاعب تنس... وفيما بعد أخذنا الفتيات لتناول البيرة في فندق دار السلام القديم ذي النسر الألماني؟».

Twitter: @alqareah

دخلت دروثي كلاف فصاح كلاف:

- «هل يليق ذلك؟ تعالي وتناولي مشروباً مع جيمس».

- «عزيزي جيمس لا بد أنه بلغ مئة عام».

- «لقد حصلنا على قفص لنقل فرينزي، وكانت لا تزال تجربه عليه».

- «ابنة أخي ڤيڤيان عثرت على نجار. لها علاقات استثنائية جداً، تلك الفتاة، إنه شيء مفيد جدا!».

أخذ وليام كلاف رشفة صغيرة من كأس المارتيني. قال بمزاج توددي: «كان ذلك إعادة ترتيب لعب أطفال بالمقارنة مع هذا. على المرء أن يتعلم كيف يخيّم خارجاً... أنا واثق من أنه شيء جيد بشكل رهيب. إنه يبقي الذهن قابلاً للتكيف».

- «يعتقد دينيس أن مصباحك الزاوي قد ترك في دار الحكومة، هل أخبرك؟».

جلست دروثي كلاف مندفعة إلى الأمام في كرسيها، كما لو أنها قد ترجلت من العربة منذ لحظة فقط.

- «كرمى للسماء، دعهم يأخذونه، لقد صار عندنا من يشعل زيت منتصف الليل هناك، الآن - ما قولك يا جيمس...» سأل رولي داندو باهتمام متذمر عن الزيارة.

قال: «لم يتم إرساله إلى أي مكان بقي فيه أي شيء للقيام به».

- «إن كلاف يدخل للسنة الأخيرة فقط، بعد منح الحكم الذاتي وبعد تحديد تاريخ للاستقلال. تاريخ مبكر».

كان براي محرجاً قليلاً بفعل القيل والقال، عندما كان صاحياً تماماً، فقال بشكل متردد، مبتسماً:

- «كان الانطباع هو أنه وزوجته ينسلان بهدوء من ساحة المعركة».

- «منذ أن وصل قبل ثمانية عشر شهراً مضت لم يبق له ما يفعله سوى الذهاب لصيد السمك في ريسالا».

في بيت بيتيغرو، في تلك الليلة، جاء صوت داندو من الجماعة المتحلقة حول شخص يطهو بالزبدة نعجة على السفود المصنوع محلياً:

- "لا شيء بتاتاً سوى صيد السمك مع سكرتيره الذي يقوم بدور مرشد الصياد ...".

كانت ريبيكا إدواردز قد أخبرت نيل بيلي للتو أن فليكس باسيليكس، الصديق اليوناني لبتيغرو، غضب منها لأنها نسيت عشبة ضرورية كان يريدها لأجل نعجته.

قال نيل: «لو كنت فيلكس لجعلتك تعودين إلى البيت وتجلبينها، يا فتاتي».

Twitter: @alqareah

ودفعت نظرة الإنهاك الغافلِ على وجهها الفتي الثقيل إلى حد ما، ببراي بشعور مماثل للفت الانتباه عنها، قائلاً:

- «يا إلهي، أخشى أن أكون قد تصرفت كطفل في بيت آل كلاف!».

- «لقد تباهيت بتوجيه الكلام إلى الخادم بلغة الغالا».

ضحك نيل وريبيكا إدواردز.

- «مسكين العم ويلي»..

- «كان شاباً ظريفاً تماماً في دار السلام. أخذ دروساً في اللغة السواحلية بما يمليه الضمير وهو بالتأكيد كان يتكلمها أفضل مني».

ضحكا عليه مرة أخرى.

وكان الجميع متحلقين للحصول على حصتهم من النعجة المشوية، فأومأ الرجل القصير القوي الممتلئ الأشقر القادم من المطار محيياً بقطعة لحم بين أصابعه.

- «ونتز، هجالمار ونتز، لقد التقينا على الطائرة».

- «كيف حالك؟» قال رولاند داندو «ربما سنراك في الرينو». توزعوا مع أطباق الطعام، وقال ونتز لامرأة جالسة على إحدى الكراسي الخيشية:

- «مارغوت، ها هو العقيد براي».

- «لا، لا، من فضلك ابق في مكانك».

وسط الهرج والمرج للعثور على مكان للجلوس رأى ضوء النار تحت السفود يمتد على امتداد المستويات البراقة لوجه المرأة كما يمتد على الكؤوس وحركة السكاكين والشوكات. والشعر الساطع يُردُّ عن جبهة مدورة عالية وخلف الأذنين، بطريقة ذكرته بالنساء المشغولات المقتدرات.

- «تذوقيه يا مارغوت، إنه رائع».

- «ألست سمينة بما يكفي؟»

لكنها أخذت لقمة شهية من الدهن المقلي من شوكة زوجها.

- «لنقل الحقيقة، هذه هي المرة الأولى منذ أسبوع التي نجد فيها وقتاً للجلوس إلى الأكل. بالشرف، كان على مارغوت أن تتواجد في المطبخ بنفسها من السادسة صباحاً. في بعض الليالي كانت تبقى حتى العاشرة. حرفياً لم تجلس إلى وجبة..».

- «أوه، ليس تماماً ... لا بد أنني قد تناولت مئات الفناجين من القهوة..»

- "نعم، بيد واحدة وأنت مشغولة بتحريك القدر باليد الأخرى".

Twitter: @alqareah

«ذهب الطباخ إلى احتفالات الاستقلال ولم نره منذ ذاك الحين ـ لفترة بعد الظهر فقط، قال، لكي يرى الرجل العظيم الذي رآه في الصحف ـ حسناً، ما قولك؟»

ـ «لقد شعرنا أنه كان يومه، رغم كل شيء». أظهرت المرأة ابتسامة واضحة المعالم في الظلام.

سأل براي: «كيف تدبرت أمرك؟».

أومأت وضحكت، لكن زوجها كان متحمساً للاقتحام، رافعاً يديه فوق الطبق الموزون على ركبتيه.

ـ «مئة واثنان وعشرون لأجل الغداء! هذا هو ما كان يوم الخميس، والبارحة».

ـ «فقط مئة وتسعة، هذا كل شيء...».

ضحكا. رفع براي كوز البيرة المليء بالنبيذ إليها.

قالت: «ماذا عن طباخي المساعد؟ يجب ألا تنسى أنني قد حظيت بالمساعد».

وأنزل ونتز كأسه إلى جانب كرسيه لتحقيق الانتباه الكامل لما كان بصدد أن يقول، «طباخها المساعد. لقد جلبته من مركز العمل الجديد ـ قلت في نفسي: حسناً، دعونا نجرب ذلك، لذلك أرسلوه مباشرة، لديه خبرة خمس سنوات، كل شيء جميل».

كانت زوجته مصغية تضحك برقة، تجلس إلى الوراء بجلال للحظة. «جميل». «خبرة خمس سنوات، ولكن هل تعرفين بأي صفة؟ ـ تعرفين الحلاقين تحت أشجار المنجا. هناك تماماً قبل أن تصلي إلى منطقة تجارة الفئة الثانية؟».

ـ «كان تعليق ابننا هو الأفضل، كما أعتقد، إذ قال: أمي، لو أن بارناباس اشتغل لصالح جزار وتعلّم تقطيع اللحم بدلاً من قص الشعر!».

ـ «حسنا، نخب ثلاثة أشخاص مجانين"ـ قال ونتز، وهو يلتقط كأسه بانفعال. ـ «الكل يعرف أنكم لابد أن تكونوا مجانين لكي تأتوا بملء إرادتكم إلى أحد هذه البلدان».

ـ «العقيد براي لن يدير فندقاً».

كانت تمتلك صوتاً خفيضاً وجافاً وكانت لكنتها أخف من لكنة زوجها. «أنا لست بشجاعتك».

قال ونتز: «أوه، كيف عرفت؟ لم نعرف ما الذي كنا بصدد أن نبدأ به أيضاً».

قالت بهدوء: «لم نكن بالتأكيد نظن أننا سنكون المالكين للسيلڤر رينو».

قال ونتز: «بأي حال، تلك قصة أخرى ـ سمعت أنكم ذاهبون إلى وزارة التعليم؟».

Twitter: @alqareah

- «أوه، صحيح؟» ضحك. «حسناً، ربما، إذاً، ينبغي عليّ أن أفكر ببار السيلفر رينو بوصفه مكاناً جيداً مثل أي مكان لمعرفة ما يجري فعلاً».

- «لو أردت أن تسمع كم يوجد من القبح ـ نعم».

كان ونتز يمتلك نبرة الصوت التي توحي بأن المتكلم لا يخاطب أحداً سوى نفسه.

- «كيف أن الناس لا يزالون يفكرون بدمهم ويستمتعون بالشعور بالاحتقار ـ نعم، البار في السيلفر رينو».

- «ابننا ستيفن يقوم عليه هذه الليلة. من المذهل كيف يتعامل مع أولئك الأشخاص أفضل مما أفعل أنا، لا أستطيع أن أحكي لكم. إنه يبقيهم في المكان».

- «لقد وعدناه بتربية متحررة عندما تركنا جنوب أفريقية. ها أنت ترى».

وضعت السيدة ونتز طعامها، وارتدّت في جلستها إلى الوراء خارج ضوء النار، وجهاً كبيراً يلمع في الظلام، كهفين كبيرين حيث تقع العينان.

- «ألن تنتهي؟». كانت اللطخة البيضاء، يدها، تتحرك بإيماءة رفض.

- «لقد حصلت عليه، يا هجالمار».

أمطرت السماء وشعر الناس بالبرودة على الشرفة. فانتقلوا إلى الداخل. كان ثمة جماعة تتناقش بصوت مرتفع حول الموقد الفارغ حيث كانت زجاجات البيرة مكدسة».

- «كان يقرع بشدة على باب الحكم بالبانجا عندما كان الآخرون لا يزالون أطفالاً زنوجاً بأنوف ممخوطة»

في هذا الوقت تملّك داندو الانتباه المثار العابس لوطني شاب من قسم الإنعاش الخاص، تلك اللامبالاة الباردة العينين لدوريس مانييما، إحدى النساء الخريجات الثلاث أو الأربع في البلد، والتقييم اللاهي للاجيء جنوب أفريقي لونه بني مائل إلى الأصفر، والأنف الصغير والشفتان الناعمتان، كل ذلك يميزه عن سواد الآخرين. في الضوء، كان رأس مارغوت ونتز مثل تمثال في مقدمة سفينة: شقراء داكنة أنيقة، مزدوجة الذقن، الأنف القصير العالي يبرز من الجبهة الرائعة، العينان ذاتا الألوان المائية المؤطرتان بتقاطيع التعب الغائرة في كل خد. بابتسامة ذاهلة لبراي عبر الغرفة، أشهرت، للحظة، جمالاً خليعاً. عندما انضم إلى الجماعة كانوا يصغون إليها:

Twitter: @alqareah

- «ليس علينا أن نتجادل، يمكننا أن نسلم جدلاً بأن الاستعمار لا يمكن تبريره أو الدفاع عنه، بالنسبة لنا، أليس كذلك؟ تعتقدون ذلك، أنا أعتقد ذلك - صح. لكن السبعة وأربعين».

- ثمانية وأربعين».

كانت عينا تيموثي أودارا مغمضتين، وهو يستند على الجدار أبقى شفتيه مزموتين قليلاً، متيقظاً.

- «أنا آسفة، ثمانية وأربعين عاماً كنتم تحت الحكم البريطاني، تحفرون مناجمهم، ترصفون الطرق لهم، تشيدون المدن، تعيشون في الأكواخ وتقومون على خدمتهم، تنظفون في أثرهم، تُعاملون كالقذارة - الآن انتهى كل ذلك، هل تعتقدون فعلاً أنه كان ثمة طريقة بالمرة يمكنكم بها أن تدخلوا إلى العالم الحديث بدون معاناة؟ هل تعتقدون أنه كان ثمة شخص ما آخر سيمنحكم الأبجدية والكهرباء ويقضي على بعوض الملاريا، مقابل الحب فقط؟ الفنلنديون؟ السويديون؟ الروس؟ أي أحد؟ أي واحد لن يطلب آخر قطرة من عرقكم وكبريائكم بالمقابل؟ هذه هي الحقائق. من وجهة نظركم، لحسن الحظ أن ذلك دام أقل من جيلين، ألم يكن ذلك يستأهله؟ هل كان أي واحد سيدعكم تدخلون مقابل لا شيء؟ أي واحد على الإطلاق؟ ألم يكن عليكم أن تدفعوا ثمن المعاناة؟ هذا هو ما أسأله».

- «أوه، أنت ترتكب الخطأ المعتاد برؤية حياة الشعب الأفريقي كورقة بيضاء - ثم يأتي المستعمرون مباشرة ونأتي نحن للعيش - في مجمعاتكم وساحاتكم الخلفية».

كانت تهز رأسها ببطء فيما كان أودارا يتكلم.

- «كل ما أقوله لا يمحو آلام الماضي من حول أعناقكم. ماالذي يعنيه الاستقلال؟ أنا لا أستعمل كلمة «حرية»، لا أحب الكلمات الكبيرة - ما الذي يعنيه استقلالكم، إذاً؟»

- «الماضي مفيد لأغراض سياسية فقط»، قال هجالمار كما لو أنه كان من الممكن أن يقول: إنها على حق. قال أحدهم: احترسوا من رجل السي آي ايه CIA «ليسقط الاستعمار الجديد».

قال هجالمار: «بالطبع، يا كورتيس. ولكن إذا كان عليكم أن تفعلوا ذلك عن طريق البقاء تلك السنوات الأربعين أو أكثر جالسين إلى الطاولة ومعكم أولادكم - آتش، إنه ليس صحياً، إنه يمرضني. ما الذي يريدون أن يسمعوه؟ - كيف كان عليكم أن تلجأوا إلى الباب الخلفي لبيت البعثة التبشيرية؟»

Twitter: @alqareah

كانت السيدة أودارا قد انضمت إلى الجماعة، متكدرة، نافشة، تمد يداً كبيرة ذات أظافر مطلية باللون الفضي عبر شعر كورتيس بتيغرو المقصوص قصة القبطان.

«أوه، يا إلهي، يا تيموثي، ليس ذلك مرة أخرى».

«دعيهم يرفعون رؤوسهم مرة أخرى بشكل طبيعي في بلدهم دون أن يشعروا بالتحدي في ذلك!».

ضحك أودارا. «ولكن ذلك ينتهي دائماً إلى الشيء نفسه: أنتم الأوربيون تتحدثون بشكل منطقي جداً حول ذاك النوع من المعاناة لأنكم لا تعرفون.. ربما تكونون قد اعتقدتم ذلك رهيباً، ولكن لا شيء مثله في حياتكم».

شاهد براي مارغوت ونتز ترفع رأسها بتكشيرة ـ ابتسامة خاطفة، كما لو أن أحداً روى نكتة قديمة لم تستطع أن تطلق ضحكة لأجلها.

ـ «حسناً، هنا أنت على خطأ» قال زوجها بنوع من التشامخ؛ «لقد عشنا في ظل السيد هتلر، ولا بد أنك تعرفين كل شيء عن ذلك».

ـ «لست مهتمة بهتلر».

كانت أسنان تيموثي أودارا مفتَّرة بدماثة تنم عن نفاد الصبر.

ـ «يا صديقي، لقد قتل البيض من البشر في أفريقية أكثر مما قتل هتلر في أوروبة».

قال ونتز بلطف: «ولكنكم مجانين».

ـ «حروب أوروبة، اقتتالات البيض فيما بينهم، ماذا تعني بالنسبة لي؟ قلت للتو على المرء ألا يثقل نفسه بالمعاناة. ليست لدي مشاعر تجاه هتلر».

ـ «أوه، ولكن ينبغي أن تكون لديك» قالت السيدة ونتز، شبه حالمة: «لا أكثر ولا أقل مما تكن من المشاعر تجاه ما حدث للأفارقة. كله سواء. العبد في عنبر سفينة في القرن التاسع عشر واليهودي أو الغجري في معسكر الاعتقال في أربعينات القرن العشرين».

قال أودارا: «حسناً، لقد احتفلت بعيد ميلادي السابع عشر والثامن عشر في معسكر الاحتجاز في قلعة هوارد، ضيفاً على حاكم جلالة الملكة، لذلك فأنا أعرف».

قال هجالمار ونتز: «لقد مات أخواها في اوشفيتز».

لكن زوجته كانت تتحدث إلى جو ـ آن بتيغرو، التي كانت تقدم قطعاً صغيرة من حلوى الخطمية المحمصة على رأس شوكة طويلة.

«كرمى لله، يا تيموثي، كف عن التكشير عن أسنانك واغرزها في شيء ما».

Twitter: @alqareah

كانت ايفلين أودارا تتكلم إلى زوجها كما لا تتجرأ أية امرأة محلية أن تتكلم؛ مع ذلك فقد تجاهل ذلك، كما لو أنه يقلب الطاولات عليها بافتراض الريفي أن ما تقوله النساء غير مسموع، بأي حال. قال لونتز غاضباً، موجهاً التعليق على الزوجة من خلال الزوج:

«ما الذي حصلت عليه بالمقابل وكان يستحق ذلك؟».

قالت مارغوت ونتز، دون أن تنظر إلى أحد: «هذا ما لا يمكن للمرء أن يقوله».

هزت أصابعها الدبقة من الحلوى، فأخذ زوجها منديله من جيبه وأعطاه لها.

كان الوقت مساءً عندما انطلق براي ونيل وايفلين أودارا، وأحد اللاجئين الجنوب أفريقيين، وآل بتيغرو، وعدد قليل من الآخرين، إلى بار سبوتنيك. وبينما كان براي واقفاً حولهم ضمن المجموعة مع آل أودارا وآل ونتز، فإن جو ـ آن بتيغرو، بعد ما فشلت في جعله يأكل آخر قطعة لها من حلوى الخطمية، وضعتها في فمها وأشارت إلى الجميع أن ثمة شيء ما يجب أن يسمعوه.

ـ «لقد ذهبت ريبيكا إلى السبوتنيك وهي تقول إنه مرعب الآن. فقد بنوا على عجل جداراً إلى ذاك النوع من الفناء ولديهم حفلة رقص. والفتيات يتعرضن للضرب».

قال نيل «هاي؟ ومن منا أخذ ريبيكا إلى السبوتنيك؟»

أطلق ضحكة. «حسناً، لماذا لا نذهب جميعاً؟ هذا ما أريد معرفته».

كانت زوجة بتيغرو الشابة دائماً في حالة حماس، وقد انتفش شعرها المجعد الطويل، مرصعاً بقطرات المطر، لأنها قامت بقلي حلوى الخطمية في الخارج فوق نار السفود. كانت عالمة انثروبولوجيا، وقد تقبل براي ذلك كتفسير لشغفها بتنظيم الرحلات القصيرة، التي كانت تحمل إليها طفلها مقموطاً على ظهرها، على الطريقة الأفريقية.

ـ «من هذا؟ انتشروا!». كان ثمة صخب مرة أخرى.

ـ «أوه، راس، ما هذا؟».

ـ «بار سبوتنيك، إيه؟ هكذا هو، الآن».

دخلت ريبيكا إداوردز من الشرفة، مبتسمة بشكل ودي، مستفهمة تحت التعليقات الموجهة إليها.

ـ «توجد مصابيح كتلك التي ترونها في الأفلام حول طاولة تزيين النجوم، وهم يشعلون الأضواء ويتهجَّون عبارة مرحى للاستقلال».

Twitter: @alqareah

عندئذ وهناك قرروا الذهاب وسط الفوضى الكبيرة. رفض داندو، وكان على ڤيڤيان أن تذهب إلى الأولاد، فاحتجت ريبيكا إدواردز بأن أولادها وحدهم أيضاً. ألح نيل على أن يأتي براي، فقد كان ممن تصيبهم حاجة ماسة لرفاق معينين فجأة، وفي وقت متأخر من الليل. ولكن عندما نزل نيل وبراي، وايڤلين أودارا والجنوب أفريقي إلى منطقة تجارة الفئة الثانية، لم يكن الآخرون قد وصلوا. دخلوا بار سبوتنيك للحظة، وهم يتلقون الموسيقا مثل ضربة على الرأس، ثم قال شخص ما إنه يعتقد أن الترتيبات لأجل الاجتماع قد أجريت عند تقاطع خطوط السكك الحديدية. هناك بدأت واحدة من تلك المطاردات في الليل التي استمتع بها نيل بيلي بشراسة، كما رأى براي. سلكوا جميعاً طريق العودة إلى داخل المدينة نحو الشقق التي تسكن فيها فتيات إدواردز. وقف نيل على البقعة الأرضية المضاءة بنور القمر أمام البناية المظلمة ونادى، ولكن لم يكن ثمة جواب. توقفوا في مكان ما لالتقاط رجل، لمحوه تحت الأضواء، يحمل قبعته بيده، سوى أن قميصه الأبيض النظيف لاح على الطريق المعتم. رد على نيل باستعمال متحرر لكلمة بوانا Bwana كما يتوقع الرجل الأبيض لو كان عليه أن يفعل شيئاً كهذا ـ كأن يتوقف لأجل رجل أسود على الطريق. وعندما دخل في السيارة إلى جانب براي والجنوب أفريقي، جلس بين هذين المدنيين الأبيض والأسود مثل قنفذ تكور على ذاته لدى لمسه. كان براي، وقد عاد إلى هذا البلد ثانية، مدركاً مرة أخرى أن طوله وحجمه وأناقته الشديدة تشبه تقريباً شكلاً ما من الاعتداء لم يكن مسؤولاً عنه، وعرف أن الشخص يتجنب التماس معه. كانت أصوات ايڤلين ونيل والجنوب أفريقي تعلو حول السيارة؛ فعبروا ظلال أشجار المانجا في ضوء القمر الساطع، الذي يقبع تحت الأشجار مثل وحوش نائمة؛ كان ثمة حمار يرعى العشب بين الخزف الصيني المكسَّر على كومة زبالة؛ الألوان الموجودة على المسجد تكاد تكون ظاهرة، وكذلك الحواجز القضبانية اللصوصية المفضضة على المنازل الأنيقة من القطاع الهندي. كانت المنطقة التجارية من الدرجة الثانية قد بنيت منذ زمن طويل بشكل عشوائي، فجأة برزت الدكاكين على نحو غير متوقع، والتقت الشوارع.

اندفعت السيارة بسرعة شديدة وتدحرجت. كان كل شيء مغلقاً بالمصاريع تحت أعلام ممرغة بالوحل تماماً، ورايات سوداء، وكل شيء كان مهجوراً باستثناء البارات ـ حوانيت صغيرة ملطخة على نحو فج بالضوء وموسيقا الجوكبوكس وتذبذب الحركة والضجيج البشريين.

Twitter: @alqareah

عرض براي أن يُترك خارج السبوتنيك في حال جاء الأفراد والآخرون المشاركون في الحفلة. تمشى لمدة عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة في الشارع الذي رسمت حدودَه المبهمة الأقدام وعجلات الدراجات أكثر مما رسمه خط الزفت الذي كان يعد كافياً من قبل مجلس المدينة الأبيض في الأيام الخوالي. الشرفات الاسمنتية للدكاكين الهندية كانت أرصفة محملة بالغبار؛ كانت نتف القماش مهترئة عنها في كل مكان ـ ذاك هو المكان الذي كان يجلس فيه الرجال الأفارقة الذين يستخدمهم الهنود للعمل على آلات الخياطة أثناء النهار. كانت المصاريع والأعمدة المشوهة مغطاة بملصقات الأعلام وصور مويتا برداء التوجا. والصبيان الصغار الذين يحدقون من فوق الطلاء الذي يسوّد واجهة مدخل السبوتنيك، كانوا ينتقدون الملصقات على الزجاج التي تتحرك بالقوة البدنية، والتي تُصمغ بالنَفَس، وقهقهوا ضاحكين على براي. كان الباب مسدوداً بشكل دائم برجال تعتعهم السُكر يتأهبون للخروج ورجال مترددين بالدخول.

قال في نفسه، كيف تفسد ملذاتنا! وسار ببطء صاعداً الشارع مرة أخرى، ماراً برجل كان قد صار بعيداً، كما الدراجات المعنقدة. واضطجع مبطوحاً على التراب الدافىء. إن منسوب الطريق غير المسوّى قد تآكل بشكل عميق للغاية عن مستوى شرفة الدكان بحيث أن المنصة الاسمنتية كانت هي الارتفاع المناسب للجلوس عليها. كان الضجيج الوارد من الحانة مؤنساً، يطمئن بأن ثمة حياة تسري في البيت، فدخن سيجاراً، نافثاً الرائحة العطرة الخشبية في الجو الملوث بتلك الروائح القديمة التي تنبعث من الرطوبة ـ رائحة البول والفاكهة المتعفنة. بعد عشر سنوات، كان ضوء المدينة لا يزال غير كبير بما يكفي لتعتيم السماء؛ لم يكن ثمة مدينة كبيرة بما يكفي لذلك على مدى آلاف الأميال. كانت حبال ونقط النجوم تمتد معاً بشكل ملتهب، ما جعله يزداد انبهاراً. عندئذ عادت سيارة بايلي، فقرروا التخلي عن الأمل ببقية الحفلة. وتناول بيرة سريعة قبل الذهاب إلى البيت لكي يأووا إلى الفراش. كانت حفلة البار القديمة، في دكان مفروش بمقاعد وطاولات سفرة خشنة، مليئة بالمرتادين المنتظمين، الزبائن المحليين الساهرين على البيرة غير عابئين بالفرقة الموسيقية المحشورة بشكل مصم للآذان في الزاوية. في حديقة البيرة الجديدة ـ باحة شبه مكشوفة (برميل القمامة لا يزال ينتصب طافحاً بالقمامة)، ومجهزة بعدد قليل من الطاولات الملونة ذات الشمسيات المرفوعة فوقها ـ كان ثمة بعض الأفارقة البرجوازيين مع نساء، وكان هناك ثنائي أو أكثر يرقصون معاً.

Twitter: @alqareah

لوحت ايفلين أودارا لشخص تعرفه، هنا تقدم البيرة الأوروبية المعبأة في زجاجات. كان لنيل أصدقاء في كل مكان، فدخل بحثاً عن صاحب الحانة، وهو شاب أسود وسيم، ذا وجه جشع، يغلي بخطط لجمع المال. جلس معهم وأحضر، استجابة لإلحاح نيل وإلحاحاً منه بدوره، ثلاثاً من «فتياته» للانضمام إليهم، وهو يضحك على كونهن غير موجودات.

«سوف تسدي خدمة للشباب. ففي هذا الوقت تقريباً يأتي البوليس في جولة ولا يفترض بهن أن يكن هنا وحدهن، أنت تفهم ـ حاكم هذه المدينة رجعي».

وصلت البيرة مع الفتيات ـ «لا، لا، إنه من دواعي سروري أن أستقبلك وأصدقاءك في محلي الصغير. بالطبع، إنه ليس مجهزاً بشكل لائق بعد. ـ أردنا أن تكون لنا حياة ليلية لأجل الاحتفالات. إنني أدفع للفرقة الموسيقية وحدها عشرين جنيهاً في الليلة الواحدة؛ إنني بصدد أن أجهز باراً أنيقاً خارج هنا مزوداً بالويسكي والثلج لأجل المشروبات، وكل شيء لائق. ـ لأجل أفراد الطبقات الراقية من المدينة، أنت تفهم».

كانت النساء الثلاث أنيقات بشكل رخيص، يرتدين أحذية النايلون المطوطة بشكل لصيق على وفرة من السيقان السوداء القوية. كن يتمتعن بلذة القهقهة المغرية نوعاً ما في كونهن مكسوات بأحسن الملابس لأجل الدور. ملابس أولاء اللواتي لم يمض عليهن وقت طويل في المهنة. كن مليحات، ذوات شعر مسرَّح، وعيون مطلية، وشفاه محمَّرة بلون مائل إلى القرنفلي. لكن المصابيح الملونة التي تعلن //مرحى للاستقلال//، كانت قد انفصمت بفعل المطر ولم تعد تعمل.

صحيح أن إدوارد شينزا لم يكن في العاصمة، بالنظر إلى الماضي، فإن هذا الغياب لم يكن من الممكن أن يكون أكثر بروزاً. بالنسبة لبراي نفسه، كان غياباً حاضراً على الدوام بشكل ما.

Twitter: @alqareah

(3)

كانت الرحلة بالسيارة ليلاً إلى البيت، على الطريق القذر المؤدي إلى بيت داندو، تقطع صمتها أصوات الارتطام المميت للسيارة بطيور السبّد، التي تحط على الطريق ثم تنهض متأخرة جداً بحيث لا تتمكن من النجاة بروحها، كعادتها تماماً على الطرقات في غالا. كانت جثثها المكسَّرة تُكوى ببطء في الغبار، في وضح النهار، بفعل العجلات المارة فوقها ذهاباً وإياباً. كان قد احتفظ وأوليڤيا بسجل لحياة الطيور التي تعيش في غالا وحولها؛ فكان يضايقهما التفكير في كيفية اعتياد المرء على ذلك تدريجياً، نظراً لأنه لا توجد طريقة لتجنب قتل هذه الطيور في الظلام، بحيث أن صوت ارتطام هذه الأجسام بالسيارة يمر دون أن يُلاحظ، مثله في ذلك كمثل رشقة من الخنافس القاسية الظهر التي تضرب زجاج السيارة. رغم ذلك، فالمرء لا يلاحظ حتى أن الطيور الميتة جميلة بوسماتها الخمرية والسوداء. ذات صيف حاولا أن يقوما بدراسة لعادات طيور السبد لتحديد ما الذي يجعلها شديدة الولع بالطرقات؛ فتوصلا إلى استنتاج مفاده أن القمل الموجود تحت أجنحتها يدفعها إلى القيام بحمامات الغبار المتكررة. نعم، كانت أفريقية نوعاً من الدراسة، آنذاك، مع المسرات والاهتمامات المستقلة، رغم استغراقه في السياسة.

خلال أسبوع الاحتفالات كان من الصعب الدخول إلى المدينة دون أن تعوقك في مكان ما أفضلية المرور الممنوحة لصاحب مقام رفيع أو آخر. فكان ضباط شرطة المرور الذين يرتدون القفازات البيضاء يئزون أزيزاً متواصلاً وهم في وضعية الأرابسك[1] على

[1] وضعية الأرابسك: وضع من أوضاع رقص الباليه يقف فيه الراقص على إحدى قدميه ماداً إحدى ذراعيه إلى الأمام والقدم والذراع الأخريين إلى الوراء (المترجم).

Twitter: @alqareah

دراجاتهم النارية، والجنود الذين يرتدون الخاكي المكوي جيداً يسدون الطريق ويردون الأولاد والنساء والمتسكعين والدراجات العادية؛ في بعض الأحيان تأتي فرقة موسيقية وهي تبوّق وتدوي بلطف في الطليعة، والأعلام مرفوعة دوماً. ثم تأتي سيارة الدايملر أو المرسيدس محملة برئيس هذا البلد أو رئيس وزراء ذاك البلد، غارقاً بداخلها، وفي أغلب الأحيان لا يتحقق المرء من هويته إلا بعد أن تكون قد مرت سيارته، النواة لعدد كبير جداً من الوجوه الكثيرة العدد، السوداء، التي تشاهد وهي تنبثق من الموكب الكامل المتماثل بالبذلات السوداء وياقات القمصان البيضاء الثلجية. ذات مرة كانت الشخصية الملكية الانكليزية مع وصيفتها ذات الشعر الأشيب المتموج، وفي إحدى المرات كانت السيدة غاندي؛ وفيما كان براي في السيارة مع ڤيڤيان بايلي، عوّقه مويتا نفسه. صعد أولاد بايلي على سطح وغطاء السيارة لكي يهللوا، إذ كان مويتا يرتدي التوجا البرتقالية اللون في سيارته المكشوفة، فمر بابتسامته الشاردة التي تعلّم قبلئذ، في غضون أيام قليلة، أن يمسح بها الوجوه التي تصبح بالنسبة له وجهاً واحداً.

قالت ڤيڤيان بحزن: «إنه رائع، أليس كذلك؟ إن رئيسنا هو الأحسن مظهراً من بين الكثيرين».

- «أتساءل إن كان يستمتع بذلك. إنه بالتأكيد يؤديه تماماً كما نتوقع منه دائماً».

قالت: «ماذا يقول؟».

- «لم أتكلم إليه، حقاً، ليس حيث يمكن للمرء أن يتحدث بشكل لائق».

كالعادة، قام شرطي مرور بصف مؤخرة الحاشية بحركة شبه مسرحية على شكل رقم ثمانية حول الطريق الخالي ثم أطلقت حركة المرور مرة أخرى، مستهزئاً بالمشاة البطيئين والمدوخين. كافح وصارع أولاد بايلي للعودة إلى داخل السيارة من خلال النوافذ وهم يشدون سيقان بعضهم البعض؛ فيما كانت الفتيات السوداوات الخجولات يتفرجن، فأطلقت إحداهن قهقهة عصبية من خلف إبهامها الموضوع في فمها. قذفت امرأة شابة طفلها على ظهرها، ولفته بشكل محكم بثوبها، ووضعت طفلاً آخر صغيراً على حامل الأمتعة الخاص بدراجتها قبل أن تنطلق متمايلة فيما هي تطلق صيحة، وتتضاحك مع امرأة على الحاجز الحجري للطريق. كانت علب الكرتون المنتفخة المربوطة بحبل محمولة على الرؤوس، فيما الأولاد الكبار حملوا الأولاد الصغار على ظهورهم، ومجموعة من الشبان على دراجات عادية يتسكعون

Twitter: @alqareah

ويتجادلون، وأجراس الدراجات الأخرى ترن لهم بنفاد صبر. ترتفع جلجلة إعلان من مذياع ترانزستور ملصق بشدة إلى أذن شاب وهو يمشي، فتنتشر عبر الناس.

قالت إليزا بايلي: «أود إعطاء العلمَ إلى الفتاة الصغيرة».

- «حسناً ، أسرعي إذن، لا، البقية تبقى في مكانها».

صاروا يتفرجون على الفتاة البيضاء الصغيرة السمينة المولعة بالقتال عادة مع بنات جنسها، تصعد كما لو إلى المنصة عند منح جائزة، وتسلّم للطفلة السوداء ذات الإبهام في فمها إحدى الرايات الصغيرة الرقيقة المطبوعة على عجل في اليابانٍ بأسرع وقت للحاق بمناسبة عيد الاستقلال. كان الناس يطوفون وينحرفون مروراً بحاجز السيارات.

قالت ڤيڤيان: «هل هم يستمتعون بذلك؟».

كان ثمة سباق سيارات، وفرقة موسيقية للشرطة وحفلة جوقات مدرسية حاشدة، بالإضافة إلى المهرجان التاريخي الخاص الذي استمر لساعات في الملعب البلدي. إن الرقص البلدي وأغاني المديح المتناوبة مع لوحات رجال دندريري البيض ذوي الشوارب الذين يعرضون قطعاً من الذهب الخام على الزعماء المهيئين بشكل رائع، كل هذا يتعين إبقاؤه غامضاً لكي لا يغيظوا المتحدرين من قبيلة اوسيبي زونا الثاني، بشيء يذكّر بأن الرجل العجوز قد تخلى عن الحقوق المنجمية للبلاد إلى البيض بثمن عربة وزوج من الأحصنة تشبه عربة وحصاني الملكة البيضاء العظيمة ووعد بمئتي جنيه، ولكي لا يغيظوا البريطانيين بتذكيرهم بأنهم، بهذا الثمن، قد ضموا إليهم البلاد بأكملها.

كانت فتيات المدارس اللواتي يتمايلن تحت ملابس الجمباز، وعمال المناجم الذين يرتدون الخوذات يلخصون الحاضر بأمانة أكثر.

كان براي وڤيڤيان يتفكران في الاحتفالات الجارية في المدن والقرى الأفريقية.

- «مشروبات البيرة؟ ثمة براميل كبيرة منها.. واللحم المحمّر، وفسحة لأجل الرقص».

استذكرت ڤيڤيان نافورة الخمر وساحة القرية في أوروبة. كان الأولاد في مؤخرة السيارة يتشاجرون؛ فالفتاة الصغيرة تتبجح معتدةً بأنها هي التي قدمت العلم. «كم أمقت إليزا أحياناً»، قالت ڤيڤيان بصوت خافت. إن الشك بالنفس، الذي يُظن بمثابة براءة الناس الأذكياء، غالباً ما يضفي جمالاً خاصاً على وجهها. كانت نزيهة

Twitter: @alqareah

ليس فقط بالمعنى المألوف لكونها منتقدة للآخرين، بل لذاتها. ـ «هل تعتقد أنها ستشعر بذلك؟»

ـ «ستشعر».

ـ «هذا شيء لا يتصوره المرء. تقدرين على الشعور بنفس النوع من الكراهية تجاه ابنتك كما تشعرين تجاه أي شخص آخر. بطريقة ما، ألن يكون مصدر ارتياح أن تتقدمي في العمر وأن تكوني قد قمت بكل هذه الاكتشافات الصغيرة السارة مرة واحدة وإلى الأبد؟».

ـ «أوه، لكنني بلغت تلك المرحلة، منذ زمن طويل!».

كان يشعر بالتسلية وربما بالتملق قليلاً لأن الفتاة ينبغي أن تنسى أنهما ينتميان إلى جيلين مختلفين.

ـ «لابد أن يكون مصدر ارتياح».

ـ «لا يمكن للمرء أن يكون متأكداً. قد تكون لا تزال هناك صدمات».

ـ «لكنك لا تظن هكذا؟» عبارة أكثر مما هي سؤال.

كان لديه الشعور بأنها تتحدث حول الزواج، الآن: زواجها، وزواجه، الذي تعرف أنه دام اثنين وعشرين عاماً. كان الناس يتحدثون عن أوليڤيا وعنه، فهما مربوطان بروح واحدة، كما هو مفترض، لكن ذلك كان اتحاداً لشخصين سليمين أكثر مما هو كائن عضوي مغفل الاسم ثنائي الرأس، زوج ـ زوجة؛ ربما كان شيئاً خاصاً بها، توصلت إليه بشكل غير متفائل جداً مع «نيل».

ـ «حسناً، لا. لكن بعض الناس يصبحون أكثر غضباً، وبشكل ما أكثر جموحاً عندما يتقدمون في السن. خذ تولستوي . بعض قصائد ييتس المتأخرة ـ يبدو لي أن الشيخوخة لا بد أن تكون هكذا بالنسبة لعدد كبير من الناس. وهو الأكثر غلبة من هراء مساء الحياة. يا الله الطيب، أيهما الأسوأ؟».

قالت، كما لو أن ذلك كله أكثر جدية بكثير بالنسبة لهما:

ـ «لا أعتقد أنني قرأتها. باستثناء قصيدة واحدة. حول رجل عجوز».

ـ «[الشيطان بين فخذي] تلك هي؟».

ـ «نعم ـ ولكن بالتأكيد ليس الجنس أقله. ثمة أشياء أخرى يتمنى المرء لو يضمن الاكتفاء بها».

Twitter: @alqareah

- «ماذا عن الأشياء التي لا يفكر بها المرء؟. حتى التصلب البسيط للشرايين يمكن أن يحولك إلى عجوز شمطاء جشعة تشك بأن الناس الذين اعتادت أن تحبهم يسرقون النقود من محفظتها».

- «ولكن هل يمكن أن تتصوري أن يحدث ذلك لك؟».

أوقفهما ضوء أحمر فالتفت إليه، وجه امرأة شابة بدأ لتوه يكتسي التعبير الدائم عن العواطف وضوابط الذات التي ترتسم قسماتها في تشابههما.

- «بالطبع لا»؛ وهدوء منتصف العمر، الذي كان بحد ذاته قبولاً لهذه الأهوال القادمة، يكذّب طمأنينة كلماته. ابتسمت.

اقترح داندو أن يأكلوا في مطعم السيلڤر رينو - فقد جاء، بمزاج وضع حد لكل شيء - من المطبخ، حيث حُسمت مسألة ما إذا كان الغداء متوقعاً تقديمه في المنزل في ذاك المساء، وهم يلوكون الحديث حول من سيحضر ومن سيغيب.

تناولوا مشروباً في الحديقة، وارتدوا ستراتهم لكي يذهبوا إلى المدينة عندما حل الظلام. كان فستوس يحمل دراجته على شبك الأمتعة على ظهر السيارة؛ فقد كان، على الأقل، ذاهباً إلى نوع ما من المهرجان.

«ما هذا يا فستوس؟» سأل داندو.

كانت «مباراة ملاكمة» في الستاد. «يجب أن أحضر في السابعة والنصف».

- «أعرف، أعرف. لا تجفل. ستكون هناك».

جلس الرجل الأسود في مؤخرة السيارة يرتدي قميصاً أبيض وسروالاً رمادياً، تفوح منه رائحة الصابون الكربوليكي. كرر، من نافلة القول «السابعة والنصف».

- «آمل أن تقضي وقتاً طيباً مع الفطور غداً كما سآخذك إلى الستاد هذه الليلة».

نظر فستوس إليه نظرة تشي بنية الإجابة، لكنه في هذه الأثناء أنزل زجاج النافذة وهتف. انطلقت صرخة ضعيفة من مقر الخدم. جأر فستوس؛ وفي هذه المرة جاء الشاب راكضاً ليفتح ويغلق البوابات خلف السيارة. عندما أطلقت مصابيح السيارة العالية منحدراً ساطعاً كامداً بالغبار نحو السماء، بادر فستوس داندو بقوله: «إذا لم احضر، أخبرني».

- «تأكد تماماً من أن تتذكر أن أمامك ثمانية أميال لكي تقطعها بعد الاستجمام، هذا هو كل شيء».

- «أقول: غداً نعرف».

Twitter: @alqareah

التفت براي وقدم سيجارة من فوق كتفه. أخذها فستوس، ولكن بدون المشاركة بابتسامة ضد داندو. كان له انهماك شخص يقوم بالواجب.

بعد أن أنزلاه ـ ليس عند الستاد بل عند زاوية شارع ـ انقضّ (ممسكاً داندو من الكتف لكي يوقف السيارة)، بنيّة مبيتة طوال الطريق، وإن لم تكن معلنة، قاد داندو السيارة إلى فندق البحيرات الكبرى بدلاً من مطعم الرينو، فقد اعتقد أنه لابد أن يكون قد ترك نظاراته هناك، على طاولة الغداء.

كانت قد بنت فندق البحيرات الكبرى منذ عدة سنوات أكبر شركات التنقيب عن الذهب، إذْ لم يكن ثمة مكان ملائم لاستضافة المدراء من بريطانيا وأمريكا. لقد صممه، حتى آخر مسكة باب ونفاضة سجائر، مهندس معماري بريطاني حائز على جوائز ولم يسبق له أن ذهب إلى أفريقية، فالشبكية الإسمنتية المخرمة مجهزة لأجل الزاوية الحادة التي يسف بها المطر خلال فصل الشتاء؛ وعلب النوم المفروشة بالسجاد السميك تعتمد اعتماداً كاملاً على التكييف الهوائي لأجل التهوية وتصد الهواء الكامل اللاذع لفصل الصيف. كان الفناء مزججاً الآن بشكل جزئي من الداخل، وتم استبدال الحرير الخام المتضرر من المطر بالنايلون؛ لم يعد الفندق جميلاً لكنه كيّف نفسه لأجل البقاء، مثلما يمر النبات بطفرات تفرضها عليه البيئة.

كان ثمة حفلة كوكتيل توشك على نهايتها عندما وصلا، وكان الواصلون المتأخرون قد تحلقوا في أبعد رقعة من الفناء حول البركة في مجموعات حميمة، ومع ذلك تصخب فجأة بأصوات غرفة مكتظة. كانت الأعلام المثلثة الصغيرة للخطوط الجوية الجديدة للبلاد تنتصب بين حزم الخس في (الغولدن برتش روم)؛ فشق داندو وبراي طريقهما إلى بار آخر، تتنازعهما التحيات وأطراف الحديث.

كانت تعليقات رولي داندو السيالة جهورة بلا مبالاة كافية لأن يسمعها أي شخص، كل الناس، لو كانوا مصغين. إلا أن أحداً لم يكن يصغي. الرؤوس مرفوعة، العيون محولة لكي تتابع، والوجوه لامعة بالانبهار الدافئ لوقت الغروب..

ـ «رايموند ماكنتوش، لا أقل. أتساءل لماذا يدب صاعداً إلى محل نورمان الآن؟ انظر إلى ذلك».

ـ «حسناً، رايموند. نخب مليونك الأول ـ مرحباً يا جو، ألم تبلع شريحة لحم البقر بعد؟» لوّح رجل أسود بابتسامة لافتة، وهو ينظر إلى أعلى من أعماق نقاش جعله ينكب إلى الأمام في كرسيه، وركبتاه متباعدتان، وسرواله مشدود، ليتناقش مع الرجل الأبيض الجالس مقابله.

Twitter: @alqareah

ـ «كان جو بالا هنا مع شتاين على الغداء، أيضاً. من شركة المطاحن. سيكون أول أسود على تلك اللائحة، انتظر وسترى. بطل محبب للمشروع الخاص، يبقي المقعد دافئاً لأجل الاستثمار الرأسمالي الأبيض ويكسب سريعاً في عقارات المدير. بدأ يأكل السلمون المدخن، رأيت ذلك بنفسي».

ـ «ألم يكن من الأفضل لك أن تذهب إلى البيت إلى أطفالك؟».

لاحت ريبيكا إدواردز حول شجرة مطاط على وقع صوت داندو. كانت تشرب البيرة مع كورتيس بتيغرو، من الواضح أنهما جاءا مباشرة من العمل، مع باعة الصحف المهملين من السوبر ماركت الذين يبيعون صحفهم إلى جانبها.

ـ «سوف يسخن الغداء مرة أخرى، يا كورتيس. إنه ممتاز بالنسبة لعازب مثلي أن يأتي إلى البيت عندما يشاء».

كانوا قد تعرضوا لكمين من رجل الفاو والأب رافن، اللذين كانا يديران برنامج تعليم اللاجئين في سنشي. كان براي قبلئذ قد خرج إلى هناك، وبناء على طلب بيل رافن دوّن بعض الملاحظات في أوقات غير منتظمة في البيت في كوخ داندو، لأجل دورة بسيطة في الإدارة الاقتصادية.

ـ «ألا تتكلم البرتغالية؟ لقد أنزل الزامبيون دفعة من رجال فرليمو علينا».

كان رافن شبه مرتعب من المأزق.

عرض رجل الفاو أن يأخذ براي لرؤية المزرعة التجريبية التي كان يقيمها في الجنوب: «لو بقيت في الجوار لوددت الذهاب معك».

خرج في أثر داندو الذي كان فوق، في البار، يتجادل مع صديقه، كونينغسبي، المدير، حول الامبراطورية النمساوية ـ الهنغارية وشخصية فرانز جوزف. كان مألوفاً أن يعرف داندو حول أي موضوع أكثر من الشخص الذي يجادل حوله، وفي غياب حافز فكري أفضل، كان يتمتع بهذه الميزة بطريقة متذمرة؛ تذكر براي أن هذا هو ما يحدث للرجال الذين يعيشون في دائرة محدودة ويقرأون كثيراً. إن عقلية الأدغال لم تكن ما يفكر فيه الناس؛ كان من الممكن لذلك أن يتخذ شكل إلزام ملحّ لشرح مؤلفات السوق المشتركة أو نظريات ڤيتغنشتاين لشخص ما ـ أي شخص، سائق النقل البري، الطبيب البيطري للمقاطعة.

كان براي يجد كراسي البار عديمة المساند غير مريحة دوماً ـ فقد كان من الكبر بحيث لا يمكن أن يجلس دون أن ينخس شخصاً ما بكتفه أو بركبته ـ وكان يرتاح

Twitter: @alqareah

بمرفق واحد على البار فيما بقيته مفتولة نحو الغرفة. كان يشرب الويسكي وهو يراقبهم جميعاً. كان ذلك حلم يقظة من الماضي، بتناقضات جعلته من الحاضر.

دخل فريقٌ صغير من البيض كانوا قد خرجوا لتناول الغداء، بمظهر الرفاه على الرأس طازجاً من مزين الشعر، الوجوه مشعة من الحلاقة الثانية: الضحك، من النوع الخليع، الذي يسبب نوبات هادئة تحت البذلات المحكمة الالتصاق بالجسم، مما ألفتَ مجموعة من ثلاثة رجال بيض جالسين بعيداً عند آخر طاولة حساب البار عندما قال أحدهم للآخر بإلحاح: «انتظر - انتظر». ثم أضاف تحريفاً إلى الحكاية شدهم مرة أخرى. رجل أسود بسترة تارتان أمريكية مع آخر ذي طقم أزرق داكن، يتحدث إليه دون أن ينظر إليه، ذهنه في مكان آخر. الأظافر البرتقالية تقشر جوز البلاذر؛ ثمة امرأة تنادي كل شخص بكلمة «Sweetie» احتجت لأنه لا يوجد زيتون في شراب المارتيني المقدم لها. احتجت مرة أخرى عندما تم توبيخ الساقي. دخل رجلان أسودان آخران ونظرا من فوق الرؤوس بشكل تآمري، بغطرسة، ثم شاهدا الإصبع المرفوعة للرجل ذي سترة التارتان فدخلا في نوع من الشكليات الودية من المصافحة والتربيت على الظهور التي كان الرجل الأبيض سيتغاضى عنها من قبل، لكن ذلك، الآن، قد جلب إلى عينيهما نظرة بعيدة خاطفة.

كانت مناسبة إقامة الحفلة مع السيدات هي، بشكلٍ واضح، الحاجة لاستضافة شاب أشقر طويل القامة من خارج المدينة، فكانوا جميعاً يصغون إليه بالإظهار البارز للانتباه الذي يليق بالظرفاء والخبراء. كان متميزاً كنموذجٍ لضابط الحرس، ربما أكثر نموذجية من أن يكون وحيداً. إنه ليس صغيراً للغاية، أيضاً، فرأسه الصغير الوسيم، الممسوح الخلفية على كتفين عريضين، ذو شعر حريري طويل قليلاً تخف كثافته على اليافوخ. وعندما يبتسم يكون لأسنانه مظهرٌ عظمي. له طريقة في التلاعب بمنخريه وشفط الهواء بشكل مسموع من خلالهما، تعبيراً عن السخط أو لإثارة الضحك.

بالتأكيد لقد وجد أصدقاؤه ذلك شيئاً لا يقاوم. إن خطابه لم يعد يُسمع في انكلترا، بأي حال. التفسير الأرجح هو أنه لابد أن يكون قد شارك في التمثيل المسرحي للهواة على مسرح نويل كوارد. فقد كان مسرح الهواة يحظى بشعبية بين رجال الخدمة المدنية والمستوطنين؛ حتى أوليفيا ظهرت في واحدة من تلك التمثيليات المثيرة التافهة التي تجري أحداثها في البيت الريفي للورد سَمْبدَي.

- «ـــ أوه يا إلهي ، نعم. إن أباها يخرج أيضاً. يخرج تماماً. فالمحل في كابندي هيلز قد ذهب. قلب كارول المحطم على الخيول... إلى جرسي، أعتقد. - الزعيم

Twitter: @alqareah

ابوروا قال لي الأسبوع المنصرم، ستحصل مشكلة بخصوص الانتخاب ـ بعض هؤلاء الرجال جعلوا مزرعة الخيول الحكومية الكبيرة اللعينة تستولد الثيران التي صرف القسم ثروة عليها ـ وأنا قلت، يا عزيزي، هذا همك، هذه مشكلتك، وآمل أنه سيكون هناك بليونان من غالونات البحر. بيني وبين بقراتك وزوجاتك المجموعة اللعينة برمتها. «لا أريد بيزل قرب كرسيي». قلت لا تكن مغفلاً ملعوناً آبوروا ـ حالما أراه وحده لا مجال للهراء، أتحدث إليه مثل عم هولندي، كنا نشرب البراندي معاً».

ـ «تافه ! ».

كانت إحدى النساء منهكة للغاية فكان عليها أن تنزل كأسها.

ـ «يا للسماء، هذا لا يساوي شيئاً ـ إن كارول تشتري مشدات زوجة آبوروا العتيقة لأجلها».

مزيد من الضحك.

ـ «زوجته الكبرى. أمتعته قديمة بائسة، هي لا تعرف أين يبدأ الفم وينتهي الإست. فظيعة. هذه المخلوقة العجوز النادرة. لا أعرف ماذا ستفعل بدون كارول، إنهن يعبدن كارول. نعم، إنها تشتري لها مشداتها، والبلومرات، لا أعرف ماذا.. قسم خاص في هارودز، لأجل السيدات السمينات لفرق السيرك أو شيء من هذا القبيل». وسحب نفساً من منخريه المتضيقين في حين كانوا ينظرون إلى بعضهم البعض بسرور شديد.

«لا أعرف من سيعوض عن تلك الخدمة عندما نذهب، أقول لك، الحكومة المركزية أم السلطات المحلية؟ أو بحق الشيطان ما الذي سيطلقه هؤلاء الأسياد على أنفسهم؟ سيدي بيزل ـ كوارد الجنتلمان السمين الكبير من المقاطعة الشرقية ـ يأتي على طول في سيارة الجيب من الطراز الجديد (لطالما بقيت أطالب طوال أربع سنوات باستبدال سيارتنا العتيقة ولكن بدون جدوى)، إنه يمشي متثاقلاً إلى المقام العظيم: «موعدي مع الزعيم آبوروا في التاسعة والنصف» ـ ينظر إلى ساعته. يعتقد أنه عند طبيب الأسنان. وهناك الرجل العجوز فوق، في بيته، يتطلع إلى حديث ظريف مع كأس».

قال الرجل الأسود مع الصديق ذي سترة التارتان للساقي الأسود متباهياً، بالانكليزية: «الخدمة هنا سيئة جداً. لقد طلبت ثلجاً، أليس كذلك؟».

ولكن لا أحد كان يسمع باستثناء براي.

Twitter: @alqareah

- «سعيد بالحصول على ثمانية بالمئة على استثمار قصير الأجل بدلاً من ذلك. كل ما يعملون عليه في هذه البلدان هو خمس سنوات، أنت تعرف».

انطلقت موسيقى الغداء في غرفة الطعام، وكانت ترد عليها الأصوات المنتشرة لبيانو واهن من مكبر صوت فوق البار.

- «أوه، لن تكون هناك أي مشكلة مهما تكن، هناك، إننا واثقون».

كان رجال الأعمال البيض، وقد أصبحوا جادين مرة أخرى، يتميزون بتلك الوجوه المهمومة برقة، المنتبهة بشكل محترف، التي يمتلكها أولئك الرجال الجالسون في الطائرات والفنادق في البلدان الأجنبية، الذين يمثلون الشركات الكبيرة.

- «ـ برتغاليوك الغريبون يدخلون عبر الحدود.. أناس ماكرون برتغاليوك، لكن فتياني كانوا ينجحون دائماً..ـ الآن خذ هذا فوراً يا بيزل، عندما أذهب يمكنك أن تتحمل نتائج أعمالك، ولكن فيما أنا أقوم بعملي ـ ضابط سياسي، هل هو كذلك؟ ـ عندئذ أخبره عندما يستطيع قراءة الانكليزية بشكل جيد بما يكفي لفهم التقارير السرية للآخرين أنه سيكون هناك وقت كافٍ لكي يلحس أصابعه الدبقة».

العينان الزرقاوان، المتسعتان بشكل خالٍ من التعابير، المتقدتان، أبصرتا داندو وبراي في طريقهما وهما خارجان من البار بنِصف ابتسامة عرفاناً بالجميل للتعاطف المرتسم على كل وجه أبيض.

«مون، جون، سبون» كان داندو يقول، «من بحق الشيطان يريد ذاك الهراء؟ يجب أن أتكلم إلى كوينغسبي: إن ذلك ينصرف في المرحاض. ألا يمكنك أن تسمع نفسك تبول في هذا المكان؟».

كان السيلفر رينو على مسافة قصيرة خارج المدينة مبنياً، مثل معظم فنادق هذه البلدان في العهد الاستعماري، على طريق الشمال الكبير الذي يمتد من بلد إلى بلد عبر أفريقية الوسطى والشرقية. كان منذ عشر سنوات مكاناً يذهب إليه الناس من المدينة والمناجم لقضاء عطلة نهاية الأسبوع أو نزهة يوم الأحد؛ ثمة مسمكة في الجوار، ويوجد حيوان أليف وطيور في الأقفاص في الحديقة. أما الآن فكانت العاصمة تنتشر باتجاه الفندق القديم، وأضواء المنازل المبعثرة تتداخل في الأدغال، ثمة أسماء لشوارع تدل على طرق جديدة خالية، انتقلت عدة وزارات في ذاك الاتجاه. سمع براي أن موقع الجامعة الجديد سيكون هناك.

- «نعم، ولكن ذلك كله تغيّر مرة أخرى» قال داندو وهو جالس إلى عجلة القيادة كما لو كانت رأس حصان طائش.

Twitter: @alqareah

- «ستكون الجامعة على المنحدر الغربي للمدينة، على الأرجح، والآن وقد دفعوا مبلغ مئة وخمسين ألف جنيه لوزارة الأشغال، خطر لهم أخيراً أن كل الأبنية الحكومية ينبغي أن تكون في منطقة واحدة. إنهم كذلك بصدد أن يبنوا وزارة أخرى حيث تنتصب الوزارات الأخرى. ألف أكرة، تحت دار الحكومة مباشرة والسفارات. وهو ما كان من الممكن أن يلحظه سوى خبير تخطيط مدن مستورد خصيصاً، بالدرجة الأولى».

- «ما الذي سيجري عمله بالبناية هنا؟».

استعجل داندو ، مقدماً حركة شبه مسرحية لجوابه.

- «نربي فيها دجاج المفاقس العاملة على البطاريات. كل ما أعرفه. ونتز العجوز المسكين ليس له كثير من الحظ في استثماراته. لا يزال في نوع من الورطة بخصوص سندات تمليك الفندق. ما زلت أعده بأنني سوف أسوي الأوراق معه، إنه بين يدي ذاك الأحمق اللعين، ماك كيني، هل تذكر ماك كيني وغولدين؟ جاء إلى هنا واشترى المحل ووقع الاتفاق، ثم عندما تبعته زوجته وأسرته، كان ثمة فقرة حمقاء لعينة لم يكن من المفروض أن يوقع عليها. لم يحصلوا تقريباً على الملكية».

- «يا الله الطيب. كان عليهم أن يغادروا جنوب أفريقية بسبب مشكلة سياسية ما، أليس كذلك؟» كان لبراي الاهتمام المعتدل لشخص يعاني.

- «لا تعرف ما الذي كان عليها أن تفعله. كانت عصبية وأرادت الذهاب - زوجة هجالمار. إنها يهودية - لقد أخرجها من ألمانيا في عام ستة وثلاثين، أنت تعرف، مع أنه نفسه ليس يهودياً، هربها عبر الحدود. إنها قصة مرعبة. بالطبع لم يكن مسموحاً له أن يتزوجها في ألمانيا. لم يكن بمقدوره حتى أن يخبر عائلته، إذ لم يكن بإمكانه أن يثق بأحد. اختفى تماماً معها. قصة لا تصدق. لم يكن يخطر ببالك أن هجالمار سيمتلك الشجاعة، لكنه فعل ذلك. كان من الممكن أن يكون في معسكر اعتقال معها لو ألقي القبض عليه».

كان خيط من المصابيح الملونة معلقاً من عمود إلى عمود على الشرفة العريضة القديمة المألوفة للسيلفر رينو. الأفارقة يجلسون حوله على كراسي قاسية، يشربون البيرة. البعض منهم برفقة نساء كن، بالطبع، برفقة أطفال. الأولاد الصغار يلعبون بزجاجات البيرة الفارغة ويتسلقون جدار الفرندة الواطىء. حجرة الهاتف التي كانت دائماً موجودة تحتوي على صورة وجهية كبيرة لمويتا، تعلوها وردة صغيرة ذهبية، ملصقة على الباب؛ كان الناس قد خربشوا أرقام الهواتف على هامشها. في داخل

Twitter: @alqareah

الفندق كانت لوحات جناح الفراشة البالية قد استبدلت ببعض أقنعة الكونغو الجيدة نوعاً ما والجدران قد طليت بالكلس بشكل قبيح. كان ذلك كله إلى حد كبير كما يذكره براي. في غرفة الطعام يوجد بناء مقبي مثل بئر الأُمنيات لأجل شواء اللحم فوق لهب مفتوح، لكنه لم يستعمل في تلك الليلة، إذْ شرائح اللحم تأتي من المطبخ. ومنذ أن كان براي آخر مرة في أفريقية، حلّ البرد القارس، فوجد نفسه الآن يأكل هذه الشرائح في كل مكان؛ اللفافات الكبيرة، السميكة من اللحم التي ما إن يتم تقطيعها حتى يصبح لها قوام الخرق المتحللة.

«إنها في العادة تصنع صلصة الفطر، شيء مميز» دمدم داندو.

«كل هذه المحلات سواء، إنها تبدأ بداية جيدة».

كان هجالمار ونتز قد رآها ـ ربما من المستحيل الذهاب إلى هناك لأجل اللحم بدون التورط في زيارة إلى آل ونتز ـ وجاء إلى الطاولة. كان يرتدي سروالاً قطنياً وقميصاً مشغولاً بالصنارة، أخضر مجعداً، حول صدره وأخرج يديه بشكل اعتذاري.

«يا الله الطيب، يجب أن تغفر لي ـ فقد أردتك أن تجيء وتتناول كأساً من المارتيني أو شيئاً ما أولاً، ولكن ما يجري هنا ــ لا يمكنني أن أقول لك ـ أعضاء غرفة التجارة يتناولون الغداء غداً، وفي هذا الصباح عندما جلبت جراد البحر من المحطة وجدناه فاسداً برمته. مارغوت تعد شيئاً ما آخر، أعجوبة الأرغفة والأسماك ـ هل ذاك الخمر على ما يرام؟ رولي، أريدك أن تجرب المونتراشيه.. وجدته.ـ ولكن تلك شريحة لحم ـ إيه؟ حسناً، لا يمكننا أن نقدم لكم جراد البحر هذه الليلة. لكن في المرة القادمة، ذكرني، يجب أن تجربه ـ إنه خفيف ومز للغاية».

جلس وشرب معهم كأساً من النبيذ، وتحدثوا في السياسة البريطانية، فكان يضيع الخيط، على مضض، من حين لآخر، وينظر حوله في حاجة لأن يكون في مكان آخر، ثم يعود بشكل لا يقاوم إلى الحديث. عندما جاءت القهوة قال: «أوه، مارغوت أريدك أن تتناولي القهوة معنا، فيما بعد. بالتوفيق. سنكون خارج المطبخ في الساعة العاشرة. تعالي إلى قصرنا. رولي يعرف». «هل ستيفن في الحانة؟» قال رولي: «قد يكون، لست متأكداً. ينبغي على الساقي أن يكون هنا الليلة». كان الندل يتطلعون إليه بقلق لبعض الوقت؛ خرج مسرعاً.

كان البار خانقاً، بالرائحة السفلية الباردة الحامضة لليكور. ثمة مروحة متحركة مصنوعة من سفن فايكينغ الصغيرة، ذاك النوع من الأشياء الذي يباع في حوانيت المطارات، كانت تنوس ببطء مثل كفتي ميزان متفاوتتي الوزن.

Twitter: @alqareah

«كم عمرك، أيها الشاب؟» هتف داندو لصبي أشقر ممتلىء الجسم ذي بعجة في ذقنه. كان ذلك، على ما يبدو، نكتة قديمة؛ فابتسم ستيفن ونتز وسعى للفت الأنظار قليلاً عندما أنزل زجاجة من البراندي وكأسين مزخرفتين.

- «لي من العمر ما يكفي لأعرف ماذا تحب، يا سيد داندو».

- «ابن ووريث هجالمار. كل هذه الزجاجات ستكون له، ذات يوم».

ظهر هجالمار ونتز بالنغمة المرتبكة لشخص استأذن بالانصراف؛ تكلم إلى الصبي. أمسك داندو كأس البراندي مثل طير بين يدين.

- «كنت لتوي أحكي لابنكم هذا أنه سيكون علي أن أبلغ البوليس عنكم بسبب قيامكم بتشغيل قاصر في البار».

- «لا بأس، ينبغي عليك أن ترى المشكلة التي نعاني منها أحياناً لتجنب الأطفال المحمولين على الظهور».

قال براي: «لقد رأيناهم في الخارج. يبدو ذلك بشعاً جداً».

- «تلك هي مارغوت».

كان هجالمار ميالاً إلى الثقة بالآخرين بدون تحفظ.

- «إنهم يحبون المجيء إلى هنا. فهي تطوف وتعطي الأولاد الحلويات. كل الفنادق الأخرى، بالطبع، تحاول أن تجعلهم يتركون الأولاد في المنزل».

كان معظم زوار أسبوع الاستقلال قد انصرفوا لكن البار شبه مملوء بالمرتادين المنتظمين، وهم خليط من البيض والسود، البعض منهم من الواضح أنهم قد دخلوا معاً. ثمة جماعة أصغر، من هيئة أصحاب المقامات الرفيعة، الزائرين الذين تم إنزالهم في الرينو - سكرتير سنغالي، رجلان من ساحل العاج - وكان ثمة رجال صحافة وزوجان فلبينيّان يعملان لصالح مفوضية السكان التابعة للأمم المتحدة (أشار داندو إليهم) مع أصدقاء من السفارة الغانية. ثمة واحد أو اثنان من الملازمين التابعين لمويتا في وظائف إدارية روتينية مختلطان مع هؤلاء المواطنين العالميين، لكن داندو علق قائلاً: «إنهم لا يزالون في المرحلة المكرسة، التطهرية، في الحكومة تأتي أولاً الرشوة والتطهيرات، ثم يأتي الشرب العادي في الحانات، سوية مع الفانين العاديين، أمثالنا. سيروقون».

تلقى التحية من أناس كثيرين، حتى أن براي رأى وجوهاً لم يكن يعرفها قبل الآن. لكنهم لم ينضموا لأحد. كان داندو، الذي يجلس بأكمام قميص مرطبة في بار خانق

Twitter: @alqareah

في هذه الصحبة، متأملاً وقنوعاً لمرة واحدة، مثل رجل في البيت وسط قرقعة مطبخه.

بعدئذ بوقت قليل تم استدعاؤهم إلى شقة آل ونتز. كان ثمة شيء ما أوروبي بشكل قوي في غرفة المعيشة الصغيرة التي دخلوا إليها، رغم السحالي الشفافة على الجدران، والأثاث الذي يصعب وصفه، المصنوع محلياً. كانت الطاولة هي قوامه، فقد كانت طاولة مستديرة ذات ساق مركزية لولبية ثقيلة، وغطاء أصفر يتدلى مهدباً، ومصباح في المنتصف. ضمن دائرة ضوئه يوجد داخل أوروبي، محاط بالظلمة المبكرة لفترة ما بعد الظهر الشتوية، ذات الرياح الرطبة، القارعة لليالي الشتاء. لكن النوافذ مفتوحة على اتساعها على الظلمة الفاترة وصخب الحشرات الذي يصمُّ الآذان.

على الطاولة تنتصب ركوة القهوة وكعكة شوكولاته غنية السواد مع قصعة من الكريما المخفوقة. أكل داندو ثلاث قطع. كان لمارغوت ونتز هدوء الانهماك أو الاستغراق. فهي بالكاد تبدو مدركة لداندو وبراي، بغض النظر عن ضرورة إطعامهما. ومن غير المحتمل أن تكون قد عرفت، قبلئذ، أنهما في الفندق. كانت من حين لآخر تطلق ابتسامة مترددة، رداً على أحد الضيوف، لكنها لم تكن تبدو مصغية لزوجها بالرغم من أنه كان مستمراً في الكلام، يروي النوادر التي تعتمد على مشاركتها وتفترض هذه المشاركة، مستشهداً بآرائها كما لو أنها مؤكدة للنوادر.

- «قال بإلحاح: كأس من الشنابس مع القهوة». وبالرغم من أن براي لم يكن يريد أن يشرب المزيد قال رولي داندو، «آه، جميل» وبدأ هجالمار، الذي ظلّ أشقر ووسيماً بطريقة مرهقة وقد لوحته الشمس، يتجرجر في أرجاء الغرفة، يفتح الخزانات ويصدر جلبة مثل رجل عجوز.

«إنه أكواڤيت [ماء الحياة]، لابد أن يكون هنا - أين هو الآن - أنا نصف دانمركي، تعرفون، ماذا تسمّون خمري القوي؟ نعم، يا الله الطيب، كل شيء محشور هنا عداه».

سقطت أكوام المغلفات المزقة ذات الطوابع على الأرض، والصور الفوتوغرافية المجعدة، والإشعارات المصرفية، والعروض المجانية لعينات تجارية من هذا وذاك. بدأ ينظر خلف مجلدات المؤلفات الفلسفية والسياسية التي تملأ رفوف الكتب المتقلقلة؛ كان ثمة كتب في كل أنحاء الغرفة، برنارد شو وأونيل ودوس باسوس وأودن بالانكليزية؛ هسه وهاوبتمان وبريشت وريلكه بالألمانية، علم النفس بالألمانية والانكليزية - نظرة خاطفة أثبتت أن هذه هي البقية من مكتبة الشباب التي كانت

Twitter: @alqareah

ذات مرة لا غنى عنها في أوروبة في الثلاثينيات، والتي لم يكن يمتلك المال أو الفراغ لكي يضيف إليها، ولا قوة الإرادة على تركها خلفه.

- «ما الذي تبغيه، يا هجالمار؟» قالت مارغوت ونتز فجأة بصوت رنان، صبور وقوي. أدارت ظهرها له.

- «لا، إنه على ما يرام، الأكوافيت، ألم يكن ثمة زجاجة متبقية من عيد الميلاد، زجاجة الڤيبيكي.. - انتظر لحظة».

نهضت بالمشية المسرنمة المصممة لمن تحفظ مخطط الخزائن والزوايا والمشكاتين ومحتوياتها بشكل واضح في ذهنها مثل مقطع عرضي لوكر نمل تحت الزجاج، وأخذت زجاجة من خلف مشجب تسجيلات الغراموفون ذات الأغطية البالية: «هاك، يا هجالمار».

استمر يتعجب كيف أنها خمنت وجود الزجاجة هنا أو هناك، فهو يعرف أنه قد وضعها في مكان ما، وتابعت الوقوف للحظة، تتطلع إليها كما لو أنها بانتظار أن يهمد أزيز قطعة من آلية ساعة.

انسلت ابنتهما، ايمانويل، إلى الداخل وقطعت لنفسها قطعة من الكعك. «نعم، أنا أعرفك»، قالت موجهة كلامها مباشرة إلى براي عندما بدأ والدها بالتعارف؛ ليلة حفلة الاستقلال عندما جلست مثل حيوان صغير أخرج من وكره أمام المطاردة، ولم تكن قد اعترفت كثيراً بوجود الغريب المتوسط العمر الذي يتحدث إلى راس آساهي، وقد تم تقديمه فجأة بوصفه صديقاً حميماً مشتركاً. قطعت الكعكة بشكل مائل على نحو متعمد، ظاهرياً لتتجنب الحشوة، غير مبالية بحقيقة أنها قد أفسدتها بالنسبة للشخص التالي.

جلست تقضم برفق قطعاً صغيرة مفتتة، ممسكة إياها بيدين طويلتين، نحيلتين، شاحبتين. كان كتفاها المحدبان إلى الأمام يكشفان عن تجاويف عميقة فوق وتحت عظام الترقوة التي كانت البشرة الزلقة المائلة إلى الخضرة تلمع فوقها في الحر، بطريقة تذكر براي بواحدة من صور ضحايا المجاعة الشرقيين - كلها عيون وعظام؛ لكن ساقيها تحت الفستان القصير عديم الشكل كانتا جميلتين، الفخذان أهيفان لكنهما أنثويان، والرضفتان مدورتان.

كان ستيفن يرتب الكتب التي أفسد أبوه ترتيبها.

«أوه، يا ماما، لقد حصلت على اسم المادة لقتل تلك الأشياء».

- «أية أشياء؟»، قالت أمه، دون أن تلتفت.

Twitter: @alqareah

- «تلك الأشياء التي تأكل أغلفة الكتب الجلدية»

قالت: «السمكة الفضية».

- «يمكنك الحصول عليها من الصيدلية. تدعى ايراديم، يكفي أن ترشها على الرفوف».

كان ونتز يتحدث إلى الضيفين لكن الاعتراض جاء منه مثل صوت شخص يتحدث عبر وسيلة إعلامية.

- «أي وقت لديه. تعرف أنه بالكاد ينجح في دراسته».

- «هذا صحيح».

بقي اهتمامه معلقاً في الهواء للحظة، سابراً إياه، ثم باشر مرة أخرى في مناقشة موضوع الجامعة الجديدة، مخالفاً رأي براي بأن التركيز ينبغي أن يكون على العلوم، وخصوصاً الهندسة.

- «حسناً، لا أفهم كيف ستجد أي واحدة من هذه الجامعات الأفريقية الجديدة الطلاب الكافين ذوي المستوى التعليمي الملائم لملء الأماكن في نصف دزينة من الكليات المختلفة».

قال براي: «الحل المنطقي بالنسبة لتلك البلدان سيكون مرتبطاً بهيئات التخطيط الجغرافي والاقتصادي وخلافهما لنوع من التوحيد للتعليم العالي، كل جامعة على حدة تركز على كلية واحدة أو كليتين، وتعتمد على كافة المناطق لأجل الحصول على الطلاب. هنا، أعتقد أن الجامعة ينبغي أن تباشر عن طريق تقديم دورات جامعية في الهندسة والطب فقط. الناس الذين يريدون قراءة العلوم الإنسانية أمامهم جامعتا ماكيريري ولوساكا للذهاب إليهما. بهذه الطريقة يمكنك أن تنشيء هيئة تدريسية وتجهيزات من الطراز الأول، بدلاً من نشر الازدحام على مستويات متباعدة ومتدنية للغاية».

- «عندئذ سيبقى عليك أن تمتلك نوعاً من البرامج المتوسطة ـ لا أعرف كيف ـ شيئاً ما بين المدرسة والجامعة. لأجل المستوى العام لتعليم شبابك ـ كذلك لأجل الذين سيذهبون إلى الجامعات في البلدان المجاورة، ن ن هـ..؟».

- «لا أحد يشك في ذلك» قال داندو «إنه مبدأ معترف به ـ مدرسة للدراسة المعمقة أو شيء من هذا القبيل».

«ولكن ما هو المانع من دمجه مع الجامعة، إذاً؟ هذا هو ما يفعلونه فعلاً. بتخفيض مؤهلات القبول هنا. يكفي أن تطيل قليلاً مدة اجتياز منهاجك الجامعي،

Twitter: @alqareah

هذا هو كل ما في الأمر. ولكن إذا كانت الجامعة ستتخصص، أيها الكولونيل، عندئذ يكون عليك أن تمتلك هذه المدرسة الإضافية أو ما شابه، مؤسسة أخرى، إدارة أخرى، فقط لأجل الناس الذين سيدرسون القانون أو اللغات في مكان ما في الخارج».

قال داندو: «إن المطلوب هو التكنولوجيون، مهندسو المناجم، المهندسون الكهربائيون، يا عزيزي هجالمار، وليس الكثير من البلهاء الوطنيين الذين يكتبون الأطروحات حول الأدب الأفريقي».

قال ستيفن، مسروراً: «إذا أردت أن أدرس القانون، فلا أعرف إلى أين سأذهب».

قال هجالمار: «ليس القانون لأجلك. إذا كان عليك أن تخرج، فلا يمكنك أن تمارس القانون في بلد آخر. تلك هي الطريقة لكي يتم إلقاء القبض عليك».

- «هلم، يا هجالمار، إنك تكف يدك عن العمل، لقد استطعت أن تمارس التدريس في كلية تعد الناس لأجل الجامعة، استطعت أن تقدم شيئاً ما للأمة».

سكب ونتز كأساً أخرى من الأكوافيت. «كانط وهيغل لأجل خريجي المدارس التبشيرية».

قال مبتسماً لنفسه: «إذا تذكرت شيئاً لأدرسه».

قال براي: «إذا كان بمقدورك أن تدرّس، فينبغي عليك ذلك»، وأضاف، ملتفتاً إلى مارغوت ونتز: «لماذا نقول ذلك بمثل هذا اليقين. دائماً؟ كيف يعرف المرء ما هو الصواب لكي يفعله الآخرون؟».

تلقت ذلك بابتسامة متأملة، مثل اعتذار. قالت لابنتها بهدوء:

- «وكيف كانت حفلة الكوكتيل؟».

هزت كتفيها استهجاناً وحدقت في الفضاء البعيد.

- «المفوض التجاري لجمهورية الصين الشعبية، ألم يكن هو؟».

قال هجالمار، لأجل الضيوف، وهو عارف جيداً ما هو:

- «كانت حفلة أنيقة جداً. مع الفوانيس الورقية والألعاب النارية. نعم!»

أدار وجهاً ذا طابع هزلي، كما لو أنه ينظر إلى عمل فذ لولد ناضج قبل الأوان.

كشرت ايمانويل فجأة بشكل مبتهج جداً.

- «كان عليك أن ترى راس وهو ينحني من الخصر. الكل ينحنون من الخصر. فئة الرقص الإيقاعي. ثمة رجل دعا راس ودعاني إلى شيء ما شبابي في الصين.

Twitter: @alqareah

أجرى معي حديثاً طويلاً ـ من خلال مترجم بالطبع. سألني كيف تخلصتم من النفوذ الاستعماري الجديد. لم أعرف ماذا أقول».

قال أخوها: «لماذا يقول راس *Longwedge* [إسفين طويل] بدلاً من لغة *Language*، إنه يتحدث عن الـ *Longwedges* الأسافين الطويلة الأفريقية؟ إنه شيء مضحك للغاية».

ـ «إلى الجحيم» نهضت ايمانويل منتصبة.

ضحك ستيفن، احتج قائلاً: «لا، حقاً، لماذا يفعل ذلك ـ أقصد أن ذلك يبدو ـ أنا دائماً ألاحظ ذلك».

كانت مستنفرة مثل حية الكوبرا، رأسها الصغير جاهز للسع؛

ـ «عد إلى زجاجات بيرتك».

ضحكته نصف الخافتة، اللا مرتاحة، جعلته يتلوى، لكنها كانت هي التي غادرت الغرفة، متجاهلة الجميع. صاح داندو:

ـ «هاي، ايمانويل، إلى أين أنت ذاهبة؟. «ألن تعزفي لي على الفلوت هذه الليلة؟ ماذا فعلت لك يا جميلتي، تعالي إلى هنا!».

قالت مارغوت ونتز: «ليس ايمانويل».

قال داندو لبراي: «إنها جيدة، إنها جيدة».

ـ «ولكن لا يوجد من يعلمها، هنا، هذه هي المشكلة»، قال هجالمار.

ـ «إنها موهوبة حقاً. إنها تعزف على الكمان، أيضاً. لقد حصلت عليه من والد مارغوت، إنه ظريف نوعاً ما، فقد سميت تيمناً به، أيضاً، ايمانويل غوتليب، الفيزيائي، لا بد أنك سمعت به...؟».

لوحت مارغوت ونتز بيدها، مستبعدة إمكانية ذلك.

ـ «عليك أن تسمع كيف تعزف على الآلات الموسيقية الأفريقية، أيها الكولونيل براي»، قال ستيفن، «ذاك البيانو اليدوي الصغير؟ ما الذي تستنبط منه! الشيء الذي تعزفه أنت بإبهاميك».

قال هجالمار: «هل تعرف راس آساهي، من الإذاعة إنه بصدد أن يعمل برنامجاً، وأن تقوم هي بالعزف على الآلات المحلية. لا أعرف عما يدور. لديه كل أنواع الأفكار».

قال براي: «كنت أعرف أباه. إنهم عائلة لامعة».

Twitter: @alqareah

كان الجميع متعبين إلى حد ما. ساد النوع من الصمت الذي يلف المساء. نظر هجالمار ونتز بشكل خاطف إلى زوجته، ثم ببطء من داندو إلى براي. كان يتكلم بنبرة خافتة، في إيماءة إلى وجود الصبي، ستيفن.

- «لا يعرف المرء تماماً ما الذي يفعله في هذه الظروف. لقد فهمت الليلة. إنه يجول بها في كل مكان. لابد أن يكون أعمر منها باثني عشر عاماً على الأقل؛ إنه رجل العالم. بشكل طبيعي لا يتردد المرء في وضع حد لذلك. لو كان رجلاً أبيض. ولكن كما هو الحال، إنه شيء أخرق. عندما تقول مارغوت شيئاً لإيمانويل، تعتقد كما لو أنه، معنا، لن ينسجم أبداً!».

كان وجهه طافحاً بالألم الذي مما لا شك فيه أن ابنته لا تتردد في إنزاله به. أعلن ستيفن عن حضوره: «ايمانويل تستخدم أي شيء لتصل إلى مبتغاها». لكن مارغوت ونتز كان لها ذاك الوجه المغلق، الحالم، وجه واحدة غاضبة من سماع الأمور الخصوصية يُباح بها أمام الغرباء. تكلموا عن أشياء صداقية تافهة لدقائق قليلة قبل الانصراف.

Twitter: @alqareah

(4)

جاءت الدعوة إلى الغداء مع مويتا بمكالمة هاتفية من جوي مويتا نفسها. كان براي قد تحدث إليها قبلئذ في حفلات استقبال مختلفة ورقصا معاً - للمرة الأولى طوال السنوات التي عرفها فيها - في حفل الاستقلال.

- «أنت تعرف أين نسكن الآن، بالطبع؟» قالت بصوتها البهيج المقوقيء، وضحكا.

كانت الصحف قد عملت الكثير من حقيقة أنه حتى اليوم الذي انتقل فيه الرئيس إلى ما كان مقراً للحاكم، استمر في العيش في البيت ذي السقف الصفيحي المكون من ثلاث غرف في بلدية كاساليتي والذي صار بيته منذ أن جاء هو وجوي إلى العاصمة من غالا.

- «هل هو غداء رسمي؟» قالت، هازئة قليلاً.

- «آدامسون يريد فقط أن يراك. على الأقل آمل أن يكون ذاك معك وحدك. ابني يقول لي: ماما، لماذا يأتي كل هؤلاء الناس ويسكنون معنا؟»".

- «أي طفل ذاك؟ تيليما؟»".

- «أنت متخلف عن العصر! تيليما في الصف السادس نموذجي. ومانغاليسو في العاشرة تقريباً - ذاك الذي ولد بعد مغادرتك. الطفل صبي آخر، ستانلي، عمره سنتان ونصف».

- «عمل جيد، يا جوي. كيف لغة ستانلي الغالية؟ أحتاج إلى شخص أتدرب عليه، شخص ليس معمراً بما يكفي لأن يكون قاسياً على أغلاطي».

- «أوه، ماذا تظن! هل أتحدث الانكليزية إلى أولادي؟»".

Twitter: @alqareah

كان يستخدم سيارة آل بايلي الثانية، الآن، لذلك فقد قادها بنفسه إلى مقر الحاكم - لا أحد كان يتذكر، بعد، أن يسميه المقر الرئاسي. كان ثمة دائماً نوع من السعي لإنشاء حديقة رسمية ليس لها صفة مميزة على جانب المدخل - النخيل عظيم البطن ومساكب الحوليات المنسقة بصرامة - لكنه كان مسروراً، عندما تم إيقافه عند البوابات، لرؤية أكشاك الحرس الذين يقومون بتدقيق هويات المخلصين له بالهاتف مع البيت؛ أسرة مكونة من نساء وأطفال، وقدور طهي حجب حضورها خيط من الدخان القادم من الشجيرات خلف بيت الحرس. ربما كانوا حتى أقارب جوي أو مويتا؛ استغرب براي كيف يمكن لمويتا أن يتعامل مع حقوق العائلة الموسّعة، في بيت من الواضح أنه ضخم بما يكفي، على ما يبدو منه، لإيوائهم جميعاً.

بالطبع، لم يكن يبدو مثل بيت؛ على الأقل، ليس في أفريقية. شعر بذلك، لأجل مويتا، عندما صرّت سيارة ڤيڤيان الرينو العتيقة فوق الحصباء المقلّعة المؤدية إلى المدخل. كان بيتاً كلاسيكياً محدثاً، ذا صف مزدوج من الأعمدة البيضاء تحمل رواقاً معمّداً أمام بناية كبيرة من طوب الطين النضيج (التراكوتا) المحلي والحجر المزوق بالميكة، وصفاً فوق صف من النوافذ المتشابهة مثل ثكنة. كان شعار النبالة الجديد في مكانه على الواجهة. أما الجانب الآخر، الذي يطل على الحديقة كما لو أن capability brown كان متوقعاً لكنه أخفق بطريقة ما في توفير المسحة الملائمة للمرج المهندَس بما يحاكي الطبيعة، والبحيرة الاصطناعية والسرادق والغزال، فلم يكن رديئاً للغاية. كان المنتزه نفسه، ببساطة الأشجار الأكثر ورقاً والأجمة الأقل كثافة على مدى سبعة أو ثمانية أكرات من العشب الخشن، كان - كما يتذكره - مليئاً بطيور الهدهد والحرباءات الموجودة هنا منذ البداية، بأي حال. لقد تم إنقاذه لأن أحد الحكام الأوائل طلبه لمحاكاة شروط مضمار الغولف المحلي - إذ كان يمارس نزواته من المصطبة المزدوجة الدرج.

فتح الباب رجل أسود يرتدي الدريل الأبيض والقفازات والطربوش الأحمر الذي اهترأ بفعل الخدم المنزليين في المقرات الاستعمارية، وقام شاب أسود كثيف الشعر يرتدي شارة زرقاء مثبتة بدبوس وقرنفلة بيضاء بإدخال براي إلى غرفة جلوس خاصة. كان سكرتير مويتا الجديد، لكن ثمة أيضاً شاب أبيض يحوم بالأريحية الاجتماعية للضابط المعاون، كان براي قد سمع عنه: فقد كان سابقاً P.R.O في أكبر دار للتنقيب، وقد أُخذ بالدرجة الأولى لحماية مويتا من كثرة وجود الناس من أبناء شعبه الذين يصفونه كزعيم حزبي. ظلوا يأملون أن يتمكنوا من الدخول

Twitter: @alqareah

والتحدث إلى مويتا، لم يكن لأي سكرتير أسود أن يأمل بالصمود أمام إلحاح النساء من كنيسة صهيون أو أمام الفلاحين المسنين ذوي الشكوى، عندما يتم إخبار هؤلاء الناس أنه من الضروري الآن التقدم بطلب خطي لأجل مقابلة الرئيس.

- «يا لحظي، يا كولونيل براي، أنا كلايف سمول. كانت عمتي ديانا رايكز من صديقات زوجتك، أتذكرها وهي تتلو رسالة من زوجتك قبل أن تغادر هذا البلد تلك المرة - إنها الأكثر مدعاة للتأثر. أعتقد أنها كانت واحدة من الأشياء التي تثير اهتمامي في ذاك المكان - كنت لا أزال طالباً».

كانت جبهة الشاب الأبيض المصبوغة باللون الأحمر مذهَّبة بشعر لامع عند خط الحاجب والصدغين، كان يمتلك الشفتين المرسومتين بإتقان والحاجبين الاستشعاريين، الكثين قليلاً لرجل جذاب للنساء. وكان يرتدي سروالاً كتانياً ملتصقاً بجسمه وقميصاً زهرياً زاهياً، وقد استلم من الساقي الأفريقي الكهل تحضير إبريق المارتيني.

- «أنت تعرف أنني أحب الاهتمام بهذا، يا نمرود. لقد أوجدنا نظاماً جديداً لتقسيم العمل يسري مفعوله في هذا القسم».

- «الرئيس سيكون معك في خلال لحظات، يا سيدي».

التفت السكرتير من براي إلى سمول رداً على الكلمات الانفرادية الحميمية اللارسمية للناس الذين ينفثون أبخرة السلطة ومكائد القصر بشكل اعتيادي للغاية بحيث تبدو لهم هذه الأبخرة والمكائد مثل أية هواءات أخرى»

- «هل فزتَ؟» ففح الرجل الأسود أن الأشياء لا يمكن أن تكون قد سارت خلافاً لذلك:

- «حسناً، ماذا كان بوسعه أن يقول؟ إننا نأسف شديد الأسف لأجل كل ذاك النوع من الأشياء».

- «الرجل الأسود سوف يُطفأ. انتظر فحسب. سوف يطفأ. ودوغلاس؟ سأراهن بأن أنفه سوف ينخلع من الانزعاج مم؟» وعندما دخل مويتا، وقفا جانباً يحيطان به وهما يبتسمان كما لو أنهما قد أوجداه. كان يرتدي السترة الطويلة الضخمة، وإن تكن مشوشة بالنسبة للزي الذي تبناه الحزب، منذ سنوات (فهي خليط من القميص الماوي وسترة الأدغال)، لكن كان فيها شيء خارج عن حزبه.

جاء مويتا إلى براي قبل أن يتمكن براي من الاقتراب. تصافحا بسرعة، كادا أن يميلا، مبتسمين. كان مويتا يضحك له، وكان الاثنان الآخران واقفين هناك، يبتسمان. «حول الوقت. حول الوقت» ظل مويتا يقول.

Twitter: @alqareah

- «دائماً عبر الغرفة، في الحشد! لمحت عينك تماماً، ثم كان هناك وجه آخر».
- «إنه لأمر غريب أن أتوقف على الطريق وأن أراك تمر، ملوّحاً لنا جميعاً».
أحنى مويتا كتفيه وضحك مثل صبي عليه أن يسعى للفت الانتباه قليلاً.
- «ولكن ذلك كان لك دائماً، لو كنت هناك يا جيمس، أنت تعرف ذلك، كان ذلك لأجلك بالتأكيد».

كان الساقي يتجول حاملاً صينية وعليها المارتيني للسيد سمول، وكأس من سكواش البرتقال لمويتا. مع ذلك ارتفع صوت ومعنويات مويتا، في الحديث والضحك، تماماً كما لو أن الكحول يرتفع في تيار دمه كما في تيار دم الآخرين. لقد كان له دائماً هذا الثمل الذاتي، هذه الحيوية الدفاقة التي تقرب الناس إليه ويطلقها حضورهم لديه بآن معاً. منذ سنوات، كان يظهر في قرية على دراجته، وقبل أن يلتقط أنفاسه من الرحلة تكون هناك جماعة من حوله وسرعان ما يصبح صوته مسموعاً فوق الآخرين، طاغياً على الآخرين. بعدئذ يصبح وجهه مبللاً من الإثارة عندما يخطب لمدة ساعتين في ملعب كرة قدم يضم جمهوراً متراصاً كالخلايا في متعضية، شخص ضخم يهتف باسمه كأنه دوي من فوهة كهف: مويتا. فقد طور هو تقنية الوقفات الطويلة، تاركاً الفسحة لأجل الرد الطنّان، المتصادي، المرتعش. إنهم يهتفون، وهو يتلقى ذلك؛ ثم يبدأ يخطب مرة أخرى، ذات مرة عندما كانت أوليفيا قد أصابها الإنهاك قالت: «ثمة شيء ما مرعب - كما لو أنهم يتملقون إفرازاً ثميناً منه - مثل النمل الذي يمسّد حشرات المن الأسيرة».

كان السكرتير، ويلفريد آسوني، يمتلك المهارة الاحترافية المتألقة المتمثلة بجعل اهتمامات الرئيس اهتماماته هو.
- «سيدي الرئيس يبدو أن بإمكاننا أن نشكر الكولونيل براي لأجل خدمات صديقنا كلايف، هنا. بشكل غير مباشر، أقصد، ولكن سيان».
- «أوه، إنها دائرة نفوذك، مرة أخرى، يا مويتا، تصور كيف سيكون عليه الأمر، التشغيل دولياً، أتساءل إن كانت الأمم المتحدة تتحقق».
- «لا، لا، إنها دائرتك، يا جيمس».
- «حسناً، حتى لو كنت تعتقد ذلك، لا تقل لهم. يجب ألا تكون ودوداً أكثر مما ينبغي مع آفل مثلي».
- «ولكنك كنت، كيف سأقول، سابقاً لعصرك».
- «لقد أُخرجتَ منه، بأي حال، أما كنت لتقول، يا سيدي».

Twitter: @alqareah

مررّها سمول عبر الضحك.

- «إنك الآن على الأقل حيث تنتمي، الآن، الآن، تبني الدولة معنا. أليس كذلك؟ بالطبع!».

قلصت أصواتهم المرتفعة وضحكاتهم الغرفة المرتفعة، المفرطة الضخامة، إلى الحجم المريح. فشكل دخان السجائر الأزرق سديماً فوق المشهد من خلال الأبواب الفرنسية للأجمة في المنتزه، ارتد إلى هجير الظهيرة. من حين لآخر كان انتباه براي يشرد هناك في طباق يضاف إلى الحديث؛ الارتجاف الومض بدا أنه ينتشر عبر وعيه، ملطفاً، مسكناً، مرعشاً إياه إلى حالة من التعطيل المؤقت: السعادة الصغيرة للمناخات الدافئة. دخلت جوي مويتا إلى الرفقة الذكورية الحميمة يتبعها أو، بالأحرى، يسبقها، يطوقها ويغير عليها عدد من أولادها وكلب واثب. حصل هرج في الغرفة لدقائق قليلة؛ لم يكن براي قد شاهد اثنين من الأطفال من قبل، أما الثالث فكان رضيعاً عندما غادر البلد: كانوا يرتدون جوارب بيضاء وكان ابنا العشرة والإحدى عشرة سنة قد فقدا لتوهما حياء الأطفال الأفارقة ويتحدثان بثقة إلى الأكبر منهما سناً مطالبين ومتذمرين، وحده الثالث تشبث بذراع أمه وصار ينظر حوله خلسة بارتياب. تكلم مويتا إليهم بلغة الغالا فاندلقوا خارجين إلى المصطبة، ثم أظهر الكلب تفضيلاً لفيء الغرفة، وللسجادة، واندفع الطفل الأصغر داخلاً مرة أخرى لكي يخرجه. تبعه إخوته واخته، صار كلايف سمول يؤرجح الصغير حوله. فتوسل إليه الآخرون أن: «بالساقين، بالرجلين! إن أمك هي التي حرمت ذلك، يا مانغاليسو، إنها تخشى أن أسقطك على رأسك وستكون الأدنى في الصف بعدئذ إلى الأبد».

- «أنا الثالث عشر وثمة خمسة وثلاثون في صفنا» تطوع الولد بالقول لبراي.. تسلق الطفل الأصغر على مويتا، كان مخلوقاً صغيراً مبلل الشفتين، يتنفس لاهثاً بشدة، ذا منخرين مدورين مكشوفين، وعينين مدورتين تحملان اللوم من كل وجه رضيع أسود.

قال لبراي: «لم أقل لك إنني صرت جداً. لقد تلقيت برقية هذا الصباح. فقد أنجبت ڤينيشا بنتاً».

قال مويتا وهو يهز رأسه: «ڤينيشا! هل تذكر أنني كنت آخذها في مشوار على دراجتي العادية، وكانت تصنع لنا الملصقات؟» وقال لجوي التي تزوجها بعد ذهاب ڤينيشا إلى المدرسة في انكلترا:

Twitter: @alqareah

- «نعم، البنت الصغيرة كانت مؤيدة صغيرة جداً لحزب استقلال الشعب. تصنع الملصقات التي تعلن عن تاريخ ومكان الاجتماعات وهلم جرا، والشعارات. كلايف، ذات مرة قامت بعرض ملصق كهذا على السكرتير الاستعماري - من كان، آنئذ، يا جيمس؟ صحيح - كان هنا بعد محادثات لندن الأولى مع شينزا، ذاك الوقت - واستمر في جولة على مقاطعة غالا، بالطبع». ضحك الجميع.

- «ليرى أين بدأ كل هراء الاستقلال هذا، وليرى أي صنف من الرجال هذا الـ [البراي] الذي لم يكن يبدو أنه يعمل على إيقافه - وبينما كان في البوما في ذاك اليوم وذهب إلى البيت، إلى دار الـ D.C لتناول الغداء، سأل هذه الفتاة الصغيرة، ابنة الـ D.C، ما هي اللوحة الظريفة التي ترسمين؟ فقالت ڤينيشا، إنها ليست لوحة، إنها ملصق، انظر! لأجل ماذا هذا الملصق أيتها الصغيرة؟ ألا يمكنك أن ترى؟ قالت له. لأجل اجتماع حزب استقلال الشعب، طبعاً!» كان براي يومئ برأسه موافقاً ويضحك.

- «كانت فخورة برسمتها، إيه؟» قال مويتا: «لم لا؟» وضحكوا جميعاً مرة أخرى، وسمعوا من براي روايته للقصة، مع تدخلات من مويتا، الذي أصبح أكثر انفعالاً مع حركة مسرحية.

قال براي: "بعد ذلك بسنوات أخذت ڤينيشا جانباً فسألتني، بشكل جدي جداً، أن أحكي لها الحقيقة. هل كان طردي في جزء منه بسببها؟ قالت إنها منذ أن كبرت بدأت تفكر في ذلك وتحمله عبئاً على ضميرها".

تضيقت عينا مويتا بشكل انفعالي: «ڤينيشا! لا بد أن تأتي هنا مع زوجها، إيه، يا جيمس. كان من المفروض بها أن تكون معنا لأجل عيد الاستقلال».

قال سمول لآسوني: «ما رأيك بصورة فوتوغرافية؟ ويلفريد يتحرق شوقاً لتجريب كاميرته الجديدة، يا سيدي».

تفرقوا جميعاً إلى المصطبة، كان يبدو أن الحر يقصرهم، كانت أصواتهم ترن على واجهة البيت. وقف براي ومويتا معاً، كان براي مطأطئ الرأس ومرتبكاً، وكان مويتا مبتسماً وهو يضع يده على ذراعه. جرى الكلب عبر الصورة. التقطتها السكرتيرة مرة ثانية. ثم كانت هناك صورة مع جوي والأولاد؛ وضعوا أقدامهم إلى بعضها وطووا أذرعهم.

قال مانغاليسو: «لدينا أرجوحة ومزلقة».

- «ولعبة الغابة» تكلم الصغير إلى براي للمرة الأولى.

Twitter: @alqareah

- «الأميرة قالت ذلك».

ضحكت جوي. «نعم، الأميرة كانت مفعمة بالأفكار الجيدة. كانت تحكي لي كل شيء ينبغي أن أفعله. قالت إنها سوف تسوّر قسماً من الحديقة وتجعله مخصصاً للأطفال، فيه أراجيح وهلم جرا. أنت تعرف، أقصد أنها اعتادت على العيش في هذا النوعٍ من المكان. قالت إنه يجب عليك أن تجعل من مكان ما ملكاً لك - خصوصاً لأجل الأولاد».

قال مويتا: «أوه، إنهم يتقدمون مثل بيت يشتعل. جوي تعرف كل أسرار قصر بكنغهام».

- «هراء، إنها حتى لا تعيش هناك».

- «وزوجة السفير الصيني، كانوا أصدقاء عظيمين أيضاً. إنها تتكلم الانكليزية بشكل جيد تماماً».

- «تريدين أن أذهب إلى بكين وأتكلم حول النساء الأفريقيات».

تحدته جوي مبتسمة لبراي.

قال براي: «كانت جوي على الدوام ذخراً كبيراً».

- «هذا ما أقوله له».

كان الأولاد قد خلعوا أحذيتهم وجواربهم، وكان الزغب الكثيف على رأس الطفل مليئاً بالعشب. سرعان ما ظهرت بقعة مبللة تنم عن جناية على سرواله قبل أن يبدأ الحر بتجفيفها مرة أخرى. كان أحد الخدم المنزليين الذين يرتدي بذلة بيضاء يحوم في فيء البيت معلناً عن جهوز الغداء، لكنه لم يستطع إيجاد فرصة للفت انتباه أحد. كانت السكرتيرة والـ P.R.O يعبثان بآلة التصوير من طراز بولارويد. عندئذ ظهرت الصورة، فاحتشد الجميع لرؤيتها. في هذا الوقت انضمت إلى الجماعة امرأة ذات شعر طفولي أشقر معقوص على قمة رأسها على شكل عقصات رقيقة. كانت مثل الكثيرات من النساء، كانت تحمل تاريخ تعتيقها في طريقة ماكياجها؛ الخط المرسوم بقلم الرصاص لحاجبي ديتريش على البشرة الانكليزية الناعمة الصلعاء فوق كل عين زرقاء، الأنف المطلي جيداً بالمساحيق والفم بلون الفوشيا الزهري. كانت ترتدي طقماً أزرق بحرياً مع بروش ماسي صغير في مكان ما باتجاه أحد الكتفين. قُدّم براي إلى السيدة هاريسون بالمجاملات السريعة المتملقة للناس الذي تعلموا التقاليد الاجتماعية الأساسية نفسها في السنوات نفسها وفي البلد نفسه. كان مويتا وبراي

Twitter: @alqareah

وجوي (يتسامرون) حول احتفالات الاستقلال؛ الأطفال يتقافزون حول ويلفريد آسوني وسمول، يحاولون الوصول إلى آلة التصوير:

ـ «انتظر، انتظر يا مانغاليسو ـ هل تريد أن تؤخذ لك صورة؟ ولا حتى مع بيمبو؟» بدأ صوت السيدة هاريسون، صوت المرأة الانكليزية الواضح العالي:

ـ«يا أولاد ـ أتساءل من الذي استعار مقراضي secateur*؟ هل تعرف يا مانغاليسو؟ كنت أظن أن مانغاليسو قد يعرف، ألا تعرفين يا تيليما؟»

هبط الأولاد إلى الأرض المقصوصة العشب ينظرون إلى بعضهم بعضاً. فبانت تحت ناظريها الأحذية والجوارب المبعثرة، البقعة المبللة الآخذة بالتجفف بين ساقي الصغير.

قالت جوي: «مانغاليسو!»

قالت المرأة للولد: «سأعطيك مقراضاً في عيد ميلادك. ولكن يجب أن تكون واثقاً من أنك لن تستعير مقراضي. أنا بحاجة لمقراض، أنت تعرف».

ابتسم لها، متجهماً، مناشداً أن يكون خارج الأضواء، لقد أخذ مقص التقليم، لكنه لا يعرف ماذا يعني المقراض.

قالت السيدة هاريسون: «هذا ولد طيب. سيدة مويتا، أخشى أنه إذا لم تدخلي إلى الغداء فإن نفيخة الطباخة ستكون فطيرة محلاة. إنها في حالة سيئة تماماً».

ـ «أوه، يا إلهي ـ كم الساعة الآن؟ كنا نلتقط صورة ـ آدامسون، يجب أن نتناول الغداء».

كانت تضحك وتستحث، مرتبكة. صُرف الأولاد بشيء من الصعوبة. كانت السيدة هاريسون واقفة في غرفة الجلوس، وعيناها تقومان بنوع من الجرد السري، عندما عبرت الجماعة في رتل. عندئذ كان عليهم أن ينتظروا بضع دقائق لأجل جوي، التي أخذت الأولاد إلى مكان إقامتهم. عادت تقهقه وتعتذر فصادفت براي.

ـ «لا يمكنهم أن يفهموا السبب في أننا لم نعد نأكل معاً».

ـ «حسناً، ألا يمكنك، أحياناً؟ عندما تكونين وحدك».

ـ «لا أكون وحدي أبداً!» شرحت، برفعة خفيفة للكتفين إشارة إلى سمول وآسوني «حتى لو لم يكن هنا زوار».

ـ «ألا تسمحين لتلك السيدة ـ لا أدري ما اسمها ـ بدخول المكان؟» قال براي متهماً.

---

* بالفرنسية بالأصل (المترجم)

Twitter: @alqareah

ضحكت له: «لا، لا، ثمة واحدة من بنات عمتي من الوطن، والأخت الصغرى لزوجة أخي. تأتيان للمساعدة ـ أنت تعرف، أثناء الاحتفالات مرت أيام لم أجد فيها الوقت لرؤية الأولاد مطلقاً».

أخفضت صوتها، ربما لأن جو غرفة الجلوس الباردة، عندما دخلوا، كان مختلفاً للغاية عن المأنسة العائلية الصاخبة على المصطبة. وبجسمها الضخم، الأمومي، ولكنه لا يزال شاباً، أخذت الكرسي إلى عند طرف الطاولة متنازلة. أخذ مويتا الكرسي الرئيس بشيء ما يشبه التسليم، كما لو أنها طاولة المؤتمر، وراء كل شخص كان يقف خادم. لم يبدُ على مويتا حتى أنه مدرك لحضورهم، لكن جو استدركت اللامبالاة الهادئة لشخص أو آخر، من حين لآخر، وهمست نصف همسة بشيء ما باللغة المحلية. كان ثمة سلمون مدخن ونفيخة بالجبن وبطة باردة. كان مويتا، وفيما هو يتحدث حول السياسة الخارجية الأميركية، ينزع بتأن كل أثر باق للطبقة الرقيقة من الهلام التي تغطي اللحم.

ـ «في الواقع لا أرى أنه من المهم ما إذا كان ذلك يعود إلى أن أمريكا تورطت في فييتنام أم، كما يقول هذا المرجع الذي ذكرته، إلى كونها انتهت من مرحلة المواجهة الخارجية ويجب عليها أن تركز على المشاكل في الداخل، أم لأنها، كما يفهم بعض وزرائي، وجدت أنه من الصعب شراء النفوذ حتى بالدولارات. إذا أرادت امريكا أن تنسحب» ـ رفع راحتيه ـ «حسناً، إنها من القوة بما يكفي للقيام بذلك. لو قالت للجائعين، لا قمح ما لم تدفعوا ثمنه، صحيح فإنها تفعل ذلك. وقصة الخوف القديمة حول من سيملأ الفراغ لم تعد موضع اهتمام. ولكن لا يمكننا نحن أن نفعل ذلك. إن الفائض الوحيد الذي حصلت عليه الدول الأفريقية هو فائض الديون والفاقة. إننا نكافح. لقد صرنا مرغمين على شراء الذرة من جنوب أفريقية، وهذا من ذاك البلد، وذاك من الآخر، إننا مقيدون معاً مثل عرق ثلاثي الأرجل مع كل أنواع البشر. البنية الاقتصادية للعهد الاستعماري تعوقنا طوال الوقت. بالطبع، يتعين علينا أن نساعد بعضنا البعض دائماً. لا يعني أنني يجب أن أدع نفسي لمنظمة الوحدة الأفريقية أن تقول لي كيف أسيّر هذا البلد، إيه؟».

نظر إلى قبة الموسيه الزهرية اللون التي قُدمت عند مرفقه وقال لزوجته: «كنت أظن أننا سنتناول طعاماً عادياً في منتصف النهار، ألم يكن ذلك مقرراً، من الآن فصاعداً؟»

ـ «نعم، أعرف».

Twitter: @alqareah

- «لا أشياء فاخرة، مجرد قطعة من الفاكهة».

- «نعم، السيدة هاريسون تقول إنها فاكهة - مصنوعة من الفاكهة» تردد ثم أقحم الملعقة بصوت تخويض ووضع قطعة على طبقه.

- «ماذا أكون بالنسبة إلى اوبوتي؟ لقد كان عليه أن يدفع ثمن الكلس لأجل الاسمنت مرة أخرى بمقدار الثلث لو كان عليه أن يستورده من مكان آخر. ما هي صحة نيريري بالنسبة لي؟ التعرفة المتدنية لأجل سلعنا في دار السلام».

- «هذا هو ما أردت أن أسألك إياه، يا أدامسون - ما هي الآفاق بالنسبة لخليج كوندي؟»

- «من الأفضل أن تسأل السيد سمول حول ذلك. كان هناك يتزلج على الماء»، ابتسم مويتا ورفش آخر قطعة متبقية من البودينغ.

- «حسناً، لا يمكنني أن أعطيكم رأي خبير حول آفاقه كمرفأ، لكنني كنت أحكي للسيد الرئيس أنه بالتأكيد يمتلك إمكانيات كبيرة كمنتجع. الشواطىء أفضل من تلك الشواطىء علي امتداد مومباسا، أجمل بكثير. مسابح عميقة ومناظر رائعة - ما تحتاجه هو أن ترغب السيد هيلتون ببناء أحد فنادقه».

- «إنه على بعد مئة ميل من منتزه الصيد في تالاواتيمي، مركز جذب سياحي آخر». صرح آسوني لبراي. تمتم موافقاً في رد انكليزي مهذب؛ كان هو وأوليڤيا والأولاد قد خيموا هناك في كوندي، ذات مرة، عندما لم يكن أكثر من قرية لصيد السمك، مع أنه يقال إنه كان يستخدم كميناء للعبيد في أوائل القرن التاسع عشر، وكانت هناك بقايا قلعة صغيرة. قبيل عيد الاستقلال تماماً خرج فريق من الخبراء الإيطاليين لفحص إمكانية بناء ميناء كبير بما يكفي لاستقبال ناقلات النفط والسفن التجارية الكبيرة. متى سينشر التقرير؟».

راوغ صوته من حول الكم المنشّى للخادم.

قال مويتا، بابتسامة أقفلت الموضوع: «إنه قيد الدرس»

قالت جوي مويتا: «أريد من آدمسون أن يبني بيتاً صغيراً في الأسفل هناك. فالأولاد لم يروا البحر أبداً. مجرد بيت صغير. هل تعرف ذلك؟».

- «لقد كان الشيء الوحيد، أكلني ذباب التسي تسي تماماً، كان ذراعي مثل قطعة سجق، لا، ليس الشاطىء - على الطريق، الطريق من منتزه الصيد».

Twitter: @alqareah

- «ولكن هذا سوف يزول» قال آسوني، «فالذبابة سوف تُستأصل. لقد تم ذلك في الشمال. لقد فعله القسم يدوياً. أي شيء يمكن القيام به، اليوم. إننا نعيش في عصر العلم. ولّى البعوض. وسوف يولّي التسي تسي».

- «سيكون فردوساً» أصدر مويتا واحدة من إيماءاته الشهيرة، بيد واحدة مفتوحة إلى الأفق من فوق الطاولة، الغرفة الطويلة، والبلد، وضحك. ونهضوا عن كراسيهم، ضغط ذراع براي، بشدة، للحظة. بعد القهوة في غرفة الجلوس قام مويتا باصطحاب براي إلى مكتبه. جاءت امرأة هاريسون في تقليد اعتذاري تتألق صرامة، لتتكلم إلى جوي مويتا حول أمر ما، وذهبت جوي إليها حالاً بنفحة غرور شبه عصبية لتلميذة أثيرة استدعتها مديرة المدرسة. قال كلايف سمول عندما مر مويتا:

- «بالمناسبة، يا سيدي، سوف أهتم بأولئك الناس من فورت هاوارد إذا جاءت المكالمة».

- «وهل يعرف ويلفريد بذلك؟»، التفت، وتبادل مع آسوني كلمات قليلة بلغة الغالا.

- «حسناً، ولكن، من فضلك، إذا ألح أخو الزعيم».

- «لا داعي للقلق. سوف أعامله مثل فراشة» قال سمول وهو يكز فمه الوسيم. حيّا براي بمرح: «لدي أمل كبير جداً بأنني سأراك مرة أخرى، يا سيدي».

كانت ممرات المبنى مرصوفة بالبلاط الأسود والأبيض المردد للصدى.

فتح مويتا الباب، أولاً، وهو يدخل إلى حجرة مراحيض الرجال. عندما خرج براي من المرحاض كان مويتا واقفاً هناك في انتظاره؛ ربما كانا في محطة قطار لندني ما. كان براي لاهياً، مع الإحساس المؤثر بالعثور على صديق، سليم، وراء تراكبات الذات العمومية. فالمرء لا يتعين عليه أن يقول، وهو يواجه الصورة النصفية بلباس التوغا، الوعاء المقدس على المنصة المكسوة بالمخمل، هل هذا ما هو عليه الآن؟ الشخص المرتدي التوغا، الوعاء المقدس على المنصة المكسوة بالمخمل، كانت كلها، ببساطة، هذا الرجل القصير إلى حد ما برأسه المردود إلى الوراء، في امتلاك كامل لهذه الصور. لقد عملها كلها بالطريقة التي اعتاد أن يثب بها على الدراجة الهوائية ويركب إلى القرية التالية والتي تليها.

مع ذلك، كان المكتب مقبِّضاً للصدر. فالستائر الثقيلة تصنع ضوءاً كنسياً أحمرٍ داكناً. ثمة طاولة مكتب هائلة ذات غطاء جلدي. كراسي جلدية، أريكة منجدة بشيء صوفي ذي خيط مبهرج يخترقه. ربما كان مكتب مدير شركة؛ فقد كان ذلك

Twitter: @alqareah

كله مفروشاً لأجله من قبل شخص رأى فيه نوعاً آخر من ملوك المال الأقوياء، قروياً أسود وجد نفسه، بصدفة سياسية، الزعيم الأكبر الاسمي لشركات التنقيب التي كانت هي البلد. ربما صنعه، بالفعل، شخص مستعار من الشركة - ومن غيره سيكون هناك لديه أي فكرة عن الكيفية التي ينبغي بها تنصيب مسؤول؟ لكن هذا التأمل تأتّى من العدائية تجاه الغرفة، ربما كان مجرد طريقة تركها الحاكم، مثل بقية البيت.

تردد مويتا في الجلوس على الكرسي الكبير خلف طاولة المكتب لكنه سار مبتعداً مرة أخرى. بدأ يتمشى في أرجاء الغرفة كما لو كان في انتظار شخص ما. «لم أحلم أبداً بأن تكون بهذا الطول. كل يوم كنت أود الاتصال بالهاتف وأقول ـ هل انتهى؟ كنت أشعر بالقلق إزاء ذلك - إيه؟ لن تصدقني ولكن ليس هناك نصف ساعة كل يوم - لم تمر نصف ساعة. لم يكن فيها شيء ما يتعين عليّ أن شخصاً ما يجب أن أراه»

- «ولكن تلك هي الكيفية التي يجب أن تكون ـ» قال براي من الأريكة.

- «نعم، أعرف، ولكن لو كنت هنا، يا جيمس».

- «لا يهم من الذي هنا»

- «أعتقد ذلك».

فقدت عيناه نبرة الترهيب الرسمي، المبتهجة للغداء، التي ظلت متراجعة في خضم التعدي على حدود الآخرين.

قال براي: «أنت الرئيس».

- «ولكن ليس معك».

- «أوه، نعم». رسخ براي نفسه في مكانه.

بدا مويتا مخذولاً. كان يمتلك تلك التركيبة الغريبة - الابتسامة المؤكدة للحياة، وفي العينين، ذاك الاضطراب السريع للسياسي.

- «لا أعرف حتى أين هي كتبي. أعتقد أنها لا تزال هناك في بناية الحرية».

- «لقد ذهبت إلى هناك لألقي نظرة على المكان القديم يوم الجمعة».

كان البناء الرديء، وراء الشوارع الرئيسة من المدينة، الذي استأجره تاجر هندي، مقر حزب استقلال الشعب منذ تلك السنوات عندما كان كل ما يمكنهم أن يتحملوه هو أجرة غرفة خلفية واحدة.

- «حسناً. مبنى الحرية جاهز عند البرلمان الآن».

قال براي: «طبعاً سوف يُنظر إلى أن آلة الحزب لا تتوقف عن العمل».

Twitter: @alqareah

لكن مويتا لم يكن قد نسي الطريقة الانكليزية المهذبة في جعل التحذير يبدو مثل افتراض.

- «كيف يمكن ذلك؟»

- «حسناً، أنا سعيد بسماع ذلك. خصوصاً في المناطق الريفية. صار الناس يشعرون تقريباً أنهم بعيدون عما يجري في البرلمان مثلما كانوا يشعرون عندما لم تكن الحكومة حكومتهم، أنت تعرف».

- «هذا هو ما جاء لأجله وزراء الحكومة المحلية. وسأظل أقابل أناساً كثيرين قدر المستطاع، بنفسي. أريد أن أجول على البلاد كلها على الأقل كل عدة أشهر، ولكن صار عليّ أن أعيّن هذا الرجل في مبنى الحرية. اعتاد الناس أن يأتوا ويروني في أي وقت من النهار أو الليل، وأحياناً عندما كانت جوي تستيقظ في الصباح تجد شخصاً جالساً قبلئذ في الباحة».

«إنه ضروري، ينبغي أن أقول. في الوقت الحالي، على أي حال، الناس سيعتادون على ذلك. سيتعلمون أن يفهموا».

- «أوه، إنه ينجح بشكل جيد جداً، ولكن ليس هذا ما أريده».

- «ما الذي تفعله هنا المرأة الانكليزية؟».

قال مويتا: «كانت هنا من قبل ـ كانت تتولى العناية بأصص الأزهار، أشياء من هذا القبيل».

- «ولأجل الاحتفالات، طلبت جوي أحداً ما، إذ لم تكن واثقة من أن بمقدورها أن تتدبر أمرها».

قال براي: «كل شيء سار على ما يرام. بدون أي مشكلة في أي مكان».

- «دعونا نخرج إلى هناك».

وقف مويتا وسط الغرفة كما لو كان يفرزها. اتخذا الباب الأول من الكوريدور إلى الحديقة وتراصفا معاً في خطوة متمهلة، فوق العشب الخشن وتحت الفيء المرقش، كما كانا يفعلان، وهما يتمشيان ويتحدثان منذ سنوات. كان مويتا أصغر من براي وأكثر حيوية ونشاطاً منه، وكانا مرئيين من مسافة المنزل، عندما ابتعدا صار مسيرهما نوعاً من الرقص، الرجل الصغير يندفع خطوة إلى الأمام ملفتاً انتباه الرجل الكبير. يتوقفان أو يتابعان، على إيقاع واحد مع الصعود والهبوط في حدة النقاش. كان مويتا يروي قصة تكشف الدهاء اللا متوقع لجاسون مالنغا، وزير المالية، الذي

Twitter: @alqareah

كان براي قد سمع كثيراً عن الشبهات التي تحوم حوله، ليس فقط من قبل رولي داندو.

- «بالطبع لو احتفظت بالشؤون الخارجية لنفسي، لكان تولا تولا هو المرشح للمالية، ولكن تقرر أنني لا يمكن أن آمل بالقيام بذلك».

- «لا، كيف كان بإمكانك».

لا ذكر للاختيار الواضح لشينزا.

- «حسناً، لقد جرب الآخرون. بأي حال»- تبادلا نظرة.

- «إن تولا تولا موجود دائماً إذا كان مالينغا يحتاج للمشورة».

مرة أخرى، برغم السكوت عن شينزا، الذي اعتبر أمراً مفروغاً منه إلى حد كبير بينهما، أطلق تعليقاً ملطفاً: «إذا اعترف مالينغا بذلك».

استبعدا ذلك بالابتسامات: «ما الذي يمكنني أن أفعله».

أفسح مويتا الطريق للحاجة الملحة إلى البحث عن الاطمئنان إلى صواب القرار المتخذ قبلئذ:

-«في فترة أشهر قليلة - العام القادم - إذا عملت تعديلاً وزارياً، سأعطي توم مسوماني حقيبة الداخلية وأنقل تاليسمان غوينزي إلى المالية، ربما أعطيه حقيبة مزدوجة، أدعه يتولى المناجم».

استوقفه سكون براي: «أعرف ما يقوله الناس عن توم. ولكنه رجل يستطيع معالجة الأمور، أنت تعرف - إنه داهية، لكنه يستطيع فهم الوضع الحساس دون أن يحطمه. لقد امتلك البراعة كما تعرف. وبالنسبة للداخلية - مشاكل اللاجئين، التهجيرات. - وهلم جرا. ينبغي أن ترى الملف. انتظر انتهاء الاحتفالات فحسب، وعندها يجب أن تفتح».

أطلق نخرة عصبية، قوية. «إنني أفكر جدياً بتوم».

قال براي: «ولكن فيما يتعلق بالداخلية، ألا يأخذ نظرة شخصية أكثر مما ينبغي؟ ألن يميل إلى تصفية الحسابات القديمة؟».

- «حسناً، ربما، هذا جائز، ولكن كونه في المكتب، المسؤوليات. وهلم جرا - أعتقد أنه سيكون على ما يرام. أحياناً يكون عليك أن تجازف مجازفة ضد أخرى».

لم يكن يعرف ما إذا كان مويتا يشجع على سؤال حول تأييد مسو أم لا. كان وجهه مقطباً، للحظة، في تكشيرة في مواجهة الشمس أو خواطره؛ ربما كان يشعر أنه قد باح بما يكفي من الاعترافات.

Twitter: @alqareah

- «كنت أفضل أن أراه آمناً في وزارة البريد والتلغراف، أرى شخصياً».

هز مويتا رأسه ليعترف بالنكتة، أكثر مما ليعبر عن موافقته.

- «آدمسون، ألم يخطر ببالك شينزا أبداً كوزير للخارجية؟»

صاغها بعناية بتلك الطريقة، لكنه كان سريع البديهة بما يكفي لأن يلتقطها بالطريقة المقصودة فعلاً: «انظر، أنا مستعد لفعل شيء ما لأجل إدوارد، لأنه» - هز رأسه بعنف كما لو أنه يتخلص من شيء ما - «لأنه يعتقد أنه علمني شيئاً ما، و - لأن الماضي هو الماضي، فأنا لست من يحاول الابتعاد عن ذلك - أما ما الذي يمكن أن يكون، لا أعرف، تلك هي مشكلتي».

- «إنه رجل متقد الذكاء».

- «ألا زلت تعتقد ذلك؟»

- «أوه، هلم، أنت تعرف ذلك».

- «جيمس» قال مويتا، موضحاً أن ذلك يسره، «ما الذي يمكنني أن أعرضه على شينزا؟ هل تفكر في منصب نائب سكرتير أو شيء من هذا القبيل؟ هذا هو كل ما عندي. ولن يكون ذلك ما يريده هو. إنه يريد تغيير العالم وأن يستعملني ويستعمل هذا البلد ليفعل ذلك لصالحه، بغض النظر عما يحصل للبلد في هذه الأثناء. يمكنني أن أجعله نائب سكرتير - هذا كل شيء».

- «لا يمكنك فعل ذلك».

فتح مويتا شفتيه المذمومتين وأطبقهما مرة أخرى دون أن يتكلم.

قال براي، مفصحاً عن نفسه بعبارة أكثر فخامة مما كان يرغب:

- «كنت أميل إلى أن نجد له منصباً خاصاً لا دخل له بشكل مباشر بالحكومة الفعلية. ولكن مع الاعتراف بحقوقه بالأقدمية خارج المنصب؟ لقد فكرت أنه قد عمل بشكل جيد كمندوب للأمم المتحدة، على سبيل المثال، كبداية».

بدا رابط الجأش بمزاج عصبي فيما حدق مويتا إليه في ذهول مرير.

- «سفيرنا إلى الأمم المتحدة؟ إدوارد شينزا؟ بعد ما قاله؟ بعد ما قاله لسكرتير الكومونويلث؟ التقارير المسماة تقارير حول الأقليات في المؤتمر الأخير، ليس قبل سنة من عيد الاستقلال؟ بعد ما أصابنا منه؟».

- «اجعله ناطقاً باسم الأغلبية وسترى. إنك تتحدث كما لو أنه قد أسس حزباً منافساً».

Twitter: @alqareah

- «إنه يتصرف كما لو أنه كذلك! الكثير من الناس يظنون أنه سيكون من الأفضل لو فعل ذلك! أعلن ذلك على الملأ!».

بدأ مويتا يمهد بكعبه أثراً لوكر خلد حديث العهد على العشب.

- «كم هي مصدر إزعاج، هذه الأمور - لو يكف عن الانزواء بعيداً هناك في البيت، حسناً... إن ذلك يعود له... ».

- «آمل أنك لن تسمح له بالانزواء».

- «هل ذهبت لرؤيته، يا جيمس؟».

- «لا أعرف إن كنت سأحظى بالفرصة. لم يكن بمقدوري أن أصدق أنه لن يحضر عيد الاستقلال».

هز مويتا كتفيه استهجاناً، قال فجأة، مناشداً:

- «سنتحادث كل بضعة أسابيع حديثاً كهذا. سنجعله شيئاً منتظماً».

قفلا عائدين باتجاه المنزل الذي يرتفع بلونه الأحمر وشكله المصمت خارج الأشكال السديمية، المبهمة للأجمة.

- «ولكن يا عزيزي آدمسون، سيكون عليّ أن أعود حالاً. كنت أفكر بالأسبوع القادم. ستنزلون كلكم إلى العمل مرة أخرى، الآن. حان وقت مغادرة الضيوف».

توقف مويتا مرة أخرى: «هل ستعود؟ ولكنك عدت».

قال براي مبتسماً: «لا أعرف ما إذا كان بمقدوري أن أفعل ذلك، لو بقيت».

إن التقاليد من شأنها أن تسهل عليهما ذلك؛ فكلما وصلا إلى هذه النقطة. كان عليهما ببساطة أن يستمرا، حاذين حذوه في ادعائه المهذب بأنه لا يعد نفسه سوى زائر، وادعاء مويتا المهذب بأن منصباً عرض عليه بوصفه شيئاً آخر غير ذلك.

كان ذلك سهلاً للغاية، مغرياً جداً - نظر إلى البيت القبيح الذي يلوح في طريقهما - فالمرء لا يمكنه أن يلتف على الماضي الذي كانا يقيمان فيه، كما يلتف على نصب تذكاري.

قال مويتا، بشيء من الصعوبة، مثلما كان سيقول منذ سنوات عن شخص ما من المكتب الاستعماري: "لا، لا، لا تفعل الآن. يجب عليهم ألا يمارسوا انكليزيتهم معي".

قال متذمراً: «هل هذا ما تفعلونه هناك في انكلترا حقاً؟».

- «نعم، إنه نمط كسول من أنماط الحياة، أعتقد، إنه لمدهش تماماً كيف يتعود المرء على القليل جداً من العمل».

Twitter: @alqareah

حوّل براي السؤال إلى اتهام، معترفا ببهجة، مهوّناً ذلك على الرجل الآخر ـ لقد كان ذلك جزءاً من اللعبة.

لم يرد مويتا، ما يقتضي ضمناً أن هذا النوع من النقد لايمكن أن يطاله. لكنه، هو نفسه، لم يكن يفعل أفضل بكثير، فقد قال مستعملاً الضمير «نحن» القلبية، بصوت نزق يخفي انعدام القناعة:

ـ «أي هراء أن تتحدث عن الذهاب في الأسبوع القادم؟. لا يمكننا أن نسمح بذلك».

تحولا إلى أمور أخرى. أراد مويتا أن يناقش ميناء كوندي رغم كل شيء، الآن وقد أصبحا لوحدهما. راقب وجه براي عندما تطرّق إلى النقاط التي كان هو نفسه قلقاً بشأنها على وجه الخصوص. كان ثمة الإحساس القديم بنشدان التصحيح في افتراضاته واستنتاجاته. عندئذ وجدا نفسيهما يعودان إلى البيت مرة أخرى. كانت جوي داخلة خارجة، مع الشباب القائمين على الخدمة، وامرأة هاريسون تصب الشاي. رنت الهواتف، أدخلت السكرتيرة برقية، تم استدعاء مويتا بعيداً، انتظر براي ليقول له وداعاً. عندما عاد سرعان ما فرض العرف نفسه مرة أخرى؛ فقد كان ذلك كله bonhomie* ، توبيخاً ساخراً، واعتذارات لبقة بشكل مبالغ فيه وخططاً ووعوداً.

ـ «لا نريد سماع حديثه حول انكلترا ـ أي؟».

ـ «حسناً، ولا كلمة واحدة حول انكلترا».

ـ «قلت له، إن انكلترا هي للعجائز لكي يعودوا ويموتوا فيها. أي؟».

بأي حال، ستتصل جوي مرة أخرى، سيلتقيان في حفل استقبال في الأسبوع التالي.

كانت يد مويتا المفعمة بالحياة ثابتة على كتفه. نعم، كان ذلك جميلاً، قال براي: «سيذهب في الساعة العاشرة، فقد تم حجز رحلته بالطائرة قبلئذ».

ألح مويتا على الخروج إلى درج المدخل. بدا فتياً، سريعاً، متألقاً، لوح بيده مع وقفة، مثل تحية عسكرية، ثم استدار مبتعداً نحو الداخل في الحال. لقد وجد هكذا تماماً، لأجل المستقبل، في ذهن براي. سيرفض بنفور أي ايحاء بأن مويتا شخص مدعوم، لكنه كان يمتلك في ذلك اليوم الإحساس بالهجر الذي يرى به شخص أكبر سناً، كطرف مهتم، شخصاً آخر صغيراً في السن منطلقاً ويغيب عن النظر.

---

* طيب قلب، بالفرنسية في الأصل (المترجم)

Twitter: @alqareah

لسبب ما لم يعط أوليڤيا موعداً دقيقاً لعودته، مع أن مقعده على الطائرة كان محجوزاً، فقد فكر أنه ربما يتوقف في أسبانية لمدة أسبوع، في الطريق. لم يكن، في الواقع، قد ألقى نظرة مناسبة على البرادو أبداً. قبل ثلاثة أيام من الموعد المقرر لمغادرته جاءت رسالة، سلمت باليد. طلب مويتا منه أن يقبل تعيينه فوراً كمستشار تعليمي خاص ـ منصب محدث ـ للبحث في تنظيم المدارس والمدارس الفنية ومشاريع تعليم الكبار في المقاطعات، بدءاً بالمقاطعة الشمالية الكبرى، غالا. أعاد قراءتها بنفسه مرة أخرى ثم سلمها لرولي داندو.

قال داندو: «إن شخصاً ما قد فكر بذلك بسرعة».

هدرا ضحكاً، ليس بسبب وجود أي شيء يبعث على الضحك، بل لأن براي تأثر وانفعل بطريقة لم يكن بالإمكان قبولها. إن مويتا، المعزول هناك خلف سور عظيم من المسؤليات، يردد أقواله المتملقون، محاطاً بسجاني المكتب، قد خرج على العرف: فمويتا لم يكن قد آمن بشيء من ذلك لدقيقة واحدة.

لم يتمكن داندو من إبقاء فمه مطبقاً: «لقد عُرِضت على براي وزارة صناعة كلابات القدور والنجارة، هكذا هو، نعم، ولكن ما كان يتصيده فعلاً هو فرك الصدور وحك الظهور، حسناً، هكذا سمعت».

ضحك الناس لكنهم فهموا أن ثمة شيئاً ما في ذلك، فالتعيينات تُسلَّم كل يوم نظراً للتغير الإداري الحاصل وانطلاق خطط التنمية المختلفة. كان معظم المعيَّنين أسماء لا يمكن لفظها ووجوهاً سوداء لم يسمع بها أصحاب الحوانيت وموظفي المناجم من قبل أبداً. أما في القانون والزراعة والصحة العامة والتعليم، فقد كان ثمة الكثير من البيض؛ الخبراء الأجانب، وقليل من الوجوه المألوفة، كوجه الكولونيل ايڤيلين جيمس براي، الذين أظهروا، في الأيام الخوالي، اهتماماً بمصالح الأفارقة أكثر من اهتمامهم بحياة البيض في المستعمرة. من ضمن الفئة التي كان براي يجري التنقلات فيها في العاصمة، كان هناك أصدقاء انتقلوا إلى مشاريع أو وظائف جديدة في أنحاء البلاد المختلفة؛ فقد كان ثمة الكثير من الكلام عن المال والتجهيزات والإداريين، أو عن انعدامهم، وهو ما كان الناس يأملون في تدبيره. كان براي ببساطة واحداً آخر منهم، غير متأكد تماماً كيف يبدأ ما يفترض به أن يحققه، نظراً لعدم وجود أي ضمان لأي موارد خاصة متوفرة له. كان معظم الناس يظن أن وظيفته هي شيء مفهوم منذ البداية، إذ لا أحد يتذكر أنه ذهب إلى البيت. إن حفلة الشرب

Twitter: @alqareah

التي أقامها رولي داندو بمثابة تمني بالنجاح أصبحت اجتماعاً خارجياً آخر في محل داندو.

يوم وصلت الرسالة أصابت براي نوبة شرسة من اللايقين عندما عاد إلى الغرفة الواقعة في الحديقة والرسالة في جيبه. فلو جاء بعدئذ بثلاثة أيام، لكان قد ولى، لما أعادته.

كان مويتا في نيروبي في اجتماع مع كنياتا وكاوندا ونيريري، ولم يره مرة أخرى. عندما تحدث إلى وزير التعليم، ناقش بنود صلاحيات وظيفته، وقرر أنه سيذهب إلى غالا خلال أسبوعين، هكذا كتب إلى أوليڤيا. أخبرها أنه «يرتاب» بالوظيفة التي تم إحداثها خصيصاً لعرضها عليه؛ لم يكن بحاجة لأن يخبرها أن هذه الوظيفة تحتاج إلى عمل وأنه ربما يكون قادراً على أن يعمل أفضل من معظم الناس - فهي تعرف ذلك تماماً كما يعرفه هو. وقد هزأ من الموضوع قليلاً، وقال إنه وعد بأن يباشر فترة تجريبية مدتها ستة أشهر أو أكثر، وهي فترة طويلة بما يكفي لإلقاء نظرة جيدة حوله وكتابة نوع ما من التقرير الأولي. كان بصدد أن يحصل على بيت حكومي - عائداً إلى «الأثاث المستورد الأساسي». والقديم في الوقت الذي تأكد أنه صالح للسكنى، ويستطيع المباشرة بعمل ما هناك، خرجت وانضمت إليه. بالتأكيد إن ڤينيشا يمكن أن يُعهد إليها بتدبير الطفل بنفسها، في هذا الحين - أما الشيء الوحيد الذي لم يخبرها به فهو أنه كان قد حجز مقعداً في رحلة جويّة ليعود إلى انكلترا حين جاءته رسالة مويتا.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الجزء الثاني

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

(5)

اشترى براي لنفسه سيارة فولكسفاكن مستعملة من شخص «فالل» وقادها شمالاً لتسلمّ منصبه. غادر العاصمة ذات صباح رمادي بارد يتدرج إلى نهار حار؛ كان رولي داندو قد ذهب إلى العمل لكن فستوس بقبعة الطاهي وصبي الحديقة وقفا جانباً لمراقبته وهو يمضي. كانت ڤيڤيان بايلي قد جلبت هدية من منشورات بنغوين استطاعت العثور عليها في المكتبة المحلية: مفكرة نكرة، القياصرة الثلاثة، قطار اسطنبول، *les liaisons dangereuses*، الطاعون.

ـ «حسناً، أظن دائماً أنك تريد قراءة أشياء تعرفها عندما تعيش بعيداً في مكان ما، وحدك».

كانت هذه الكتب في سلة على المقعد الخلفي مع زجاجة من الويسكي وبعض الملفات التي وردت من وزارة التعليم في الدقيقة الأخيرة. ساق السيارة خارجاً عبر الشارع الرئيس للمدينة ورأى الآنسة إيڤلين اودارا تحاول أن تركن سيارتها خارج مكتب البريد الجديد. وكان ثمة بضعة أشخاص آخرين وجوههم مألوفة بالنسبة له الآن، يلاحقون أعمالهم اليومية. كان باعة تماثيل الحيوانات الخشبية يلمعونها تحت أشجار اللهب؛ وكان العاطلون عن العمل ينادون على أكياس بلاستيكية من البندورة.

عندما كانت المدينة تنسل خارجة نحو مناجم الذهب كانت الشاحنات تتجاوزه وهي تترنح مليئة بالأنابيب الاسمنتية ومواد البناء وذبائح الخنازير المتيبسة من مخازن التبريد والصناديق المقعقعة من معمل البيرة. ثم كانت هناك الممرات المزينة المؤدية إلى عقارات المناجم نفسها، كل الطرق الملتوية المزينة بالأزهار، واللافتات، ومساكب القنّا والورد، ومن ثم امتدادات المستطيلات المطلية بالألوان الأنيقة من

Twitter: @alqareah

المساكن لأجل عمال المناجم الأفارقة، ذات نمط هندسي خربشته الهامات الكثيفة لأشجار الببو، والمداخن التي ينبعث منها الدخان، وحبال نشر الغسيل، والنباتات المعرشة ورقع الذرة، ويقطعه ضجيج وحركة الناس. لقد مر بكل ذلك في عشرين دقيقة؛ فمر بالـ *bush hill arms*، بواجهته التيودورية المجدورة بأعشاش الدبابير ولافتة كتب عليها «للبيع» (إن أحداً ما آخر «يفل») ثم لم يعد هناك شيء على الإطلاق ـ كل شيء: الطريق الأملس الوحيد، الأشجار، البامبو، والريف المفتوح فجأة للـ dambos حيث الأعشاب الطويلة تغطي الماء، ورأى أخيراً، مرة أخرى، طائر الصرد [الدغناش] الطويل الذيل الوحيد الذي يبدو أن المرء يراه دائماً في هذه الأماكن، يحوم بريشته الذيلية ذات اللون الأسود الحبري مثل ضربة فرشاة خطاط صيني.

ساق السيارة طوال الصباح ولم يلتق بأكثر من دزينة من السيارات والحافلة الثقيلة التي يبدو أنها لا تزال تقوم بالرحلة من حدود تنزانيا مرتين في الأسبوع. حيث كان ثمة قرى أفريقية، ظهر عدد قليل من الدراجات العادية والمتشردين على الطريق. كانت أكياس الفحم مسندة هنا وهناك على طرف الغابة الصامتة. الناس يسكنون في أمكنة عميقة في داخل هذه البيئة كما لو كانت بيتاً؛ ملاجئهم الفردية رديئة النوع. ظل يتذكر ـ لا، يجرب ـ أشياء كهذه، كان قد نسيها. في انكلترا، أحياناً، على مدى سنوات، كانت تراوده أحلام يبدو أنها سوف تتحقق في هذا البلد، ولكنه لم يكن هذا البلد بالمرة؛ وحتى التذكر الواعي لم يكن سوى ذكرى سايكولوجية ـ شيئاً ما تم اختياره لمضاهاة المشاعر المتولدة في مكان بعينه في أوقات محددة.

لم يكن بيت داندو، الذي خلّفه وراءه، أكثر حضوراً من ويلتشاير. استمتع بنوع من الحرية يعرف أنه سيدوم فقط إلى أن يتحول تمييزه للأشياء المحيطة به إلى تقبل لها بدون تفكير، ولم يعد بمقدوره أن يستعيدها وينظر إليها بوصفها الماضي الذي تعاد زيارته أو الحاضر غيرالمطروق بعدُ.

نادى على البعثة التبشيرية للآباء البيض عند نهر رونغوا، لكن الأب بنديكت كان بعيداً ولم يستطع أن يرى أياً من الصغار يعرفه. كانت طيور السنونو لا تزال تسقسق داخلة خارجة إلى ومن أعشاشها الطينية في حجرة الطعام، حيث قُدم له الشاي. رنين صاخب يعرفه جيداً كان يصدر عن قطعة حديد متدلية من شجرة وتضرب بعصا، معلناً إغلاق المدرسة، فتبددت السكينة الحارة بفعل الصياح والفرار

Twitter: @alqareah

الجماعي المكظوم للأقدام العارية. كان الآباء طيبين بما يكفي لأن يبيعوه غالونين من البترول، فقد كان أحدهم يشغل المضخة اليدوية بتكشيرة، ومسبحته تتأرجح، فيما وقف آخر جانباً ويداه مثنيتان داخل كمي ردائه الكهنوتي، وقدماه الكبيرتان العزباوتان المائلتان إلى الزرقة موضوعتان قريبتين إلى بعضهما البعض في صندليهما الخشنين. كان الأبوان حيين مثل فتاتين صغيرتين. كان تلاميذ المدرسة الأفارقة ينطلقون مسرعين مهتاجين وهم يهذرون على مبعدة، وعندما حياهم، ضحكوا وردوا عليه.

كان ثمة قرى كبيرة قرب الطريق في هذا الجزء من الريف، تطلق دخانها من خلال الغابة. إن فلاحة الأرض مع قطع أغصان الأشجار وحرقها حول الجذع، لأجل الحصول على البوتاس، قد صنعت دوائر رمادية في كل مكان. ثمة لافتات جديدة تشير إلى الأجمة: «حانة الحرية»، «حانة نيويورك». «حانة الاستقلال» - بأحرف انكليزية معقوفة على قطع من الخشب، لكن الجيل الجديد الذي كبر في عشر سنوات كان فقيراً وباهت البشرة مثلما كان آباؤه.

كانت لديه نية قضاء الليلة في فندق بيلتشي القديم في ماتوكو، وهو استراحة مسافرين عادية. وصل إلى هناك أبكر مما كان يظن؛ كان متردداً في متابعة القيادة، لكنه لم يكن يعرف إن كانت الاستراحة الحكومية التي جرت العادة أن تكون محطة لتعقيم الماشية، على بعد ستين ميلاً إلى الشمال، لا تزال مفتوحة. لقد خلف وراءه الطريق المزفت على مسافة طويلة فبدت السيارة الحمراء القبيحة، عندما ترجل منها ومسّد قميصه المجعّد داخل سرواله، كما تبدو السيارات دائماً هنا. كانت الجوانب السفلية للرفاريف محفوفة بالطين والرفراف الأمامي مكسواً بالجثث المكسرة والأحشاء الغريبة الألوان للحشرات الميتة. هجم عليه الحر والصمت. مشى بتثاقل فوق الشرفة المتصدعة وحدق في عتمة الفندق: رائحة شمع النحل والمبيد الحشري، لا أحد في المشهد. كان يعرف أين هو البار وصوت وقع خطواته يرافقه إلى هناك، لكن الباب كان مقفلاً فشعر بالثقة أن جرس السفينة الذي كان معلقاً إلى جانب اسم *Davy Dones 'locker* هو جرس زخرفي محض. عاد إلى الشرفة، هناك لم يكن ثمة مدخل رئيس سوى أبواب منخلية في كل أنحاء المكان تصدر أصوات صرير طويلة، مملة، خلفه، وتؤدي إلى غرفة طعام مهجورة فيها مناديل مائدة مطوية على شكل مروحة، وممرات خضراء قاتمة ذات أبواب موصدة. سرير طفل مكوم مع وسائد

Twitter: @alqareah

عتيقة والرخام المكسَّر من مغسلة قديمة الطراز تنتصب حيث ينعطف الممر؛ ثمة صينية عليها زجاجتا بيرة فارغتان، وكؤوس على الأرض.

عاد إلى الشرفة ومد ساقيه الطويلتين الثقيلتين على الكرسي. كان يعرف هذه الساعة، فالكل نيام. لو جلس لأي فترة من الزمن، لغطّ هو نفسه، في قيلولة بعد الظهر. ثمة تخوم من الزنبق البرتقالي اللون في الحديقة، وقفص الطيور المتدلي الضخم ذاته، مثل شبكة عنكبوت ثقيلة، حيث اللقالق الزرقاء والدجاج الحبشي تنتف ريشها بشيء من الألم الذي يستثيره الحبس. استطاع أن يرى رؤوسها الناخعة الدائمة الحركة. كانت الأرض الزراعية جيدة حول هذا المكان، وعندما كان المزارعون البيض يمرحون في البار فقد درجت العادة أن يكون بعضهم بصحبة الطيور. اجتاحه إحساس عارم باللاواقعية. لاحظ كبسة جرس نحاسية، مصقولة بشكل لماع، فألصق سبابته عليها وهو لا يتوقع شيئاً من قبيل الرد. ولكن بعد برهة ظهر نادل صغير جداً يرتدي طربوشاً أحمر ومعه صينية من الصفيح. سأل عن بيرة باردة فأخبره أن الدونيا نائمة، وأن البار سيفتح الآن ـ الآن.

ـ «هل لا تزال الدونيا بيلتشي؟».

ـ «نعم، الدونيا بيلتشي نائمة. إنه لم يعد ريف غالا، لكن اللغة المحلية قريبة. تكلم إلى الصبي بلغة الغالا فكان مفهوماً؛ اتفقا على أن الأمتعة ينبغي إخراجها من السيارة حتى بالرغم من أنه لم يكن بوسعه أن يأخذ غرفة قبل استيقاظ الدونيا بيلتشي. هل كان المطبخ مقفلاً؟ لا، فقد كان المطبخ يبدو مفتوحاً. ليصنع الصغير الشاي له في هذه الأثناء.

فيما كان يشربها، سقط ظل إحدى الأشجار الكبيرة فوق الشرفة وكان يبدو أنها تجلب نسيماً. تحول حر بعد الظهر، كما يحدث ذلك فجأة، فبدأت إحدى الدجاجات الحبشية تصيح. لم يعد معتاداً على القيادة لساعات على نحو متواصل. كان جسمه الكبير متململاً من انعدام النشاط. خرج يتمشى إلى أي مكان لا على التعيين، مع أنه يعرف هذا الطريق الذي يؤدي من الطريق الرئيس إلى فندق بوما في ماتوكو على بعد حوالي ميلين. كان الرمل أحمر مبهجاً للدوس عليه ـ لم يكن قد تمشى إطلاقاً، فعلاً، في الشهر الذي أمضاه في العاصمة، إلا في شوارع المدينة؛ لا أحد يمشي ـ والعشب الأنيق الخشن ينحني تحت ثقله على جانبي الطريق، يرتفع عالياً حتى الكتفين. كانت طيور الحباك القرمزية ذات الأقنعة السوداء تنفض الغبار عن نفسها خارجة وتتدلى رأساً على عقب عند الدخول إلى أعشاشها. الطريق الخاص

Twitter: @alqareah

الوعر المحدَّد بأحجار مدهونة باللون الأبيض وصبار الألوة ينعطف صاعداً إلى مبنى مدرسي صغير على طلعة ونزلة مرة أخرى. قام بجولة صغيرة لإضفاء نوع من الشكل على تسلله. ثمة حديقة المدرسة ـ رقعة من الذرة والفول، بعض نبتات البندورة المدعمة ـ قطعة الحديد المعلقة التي كانت جرس المدرسة، وعندما مر بالباب المفتوح، كان مدير المدرسة نفسه جالساً يقوم بعمله. انتفض الرجل وبدأ في الحال يعتذر كما لو كان متهماً بخرق خطير لقواعد الضيافة والاحترام.

ـ «لا يا سيد، أنا آسف شديد الأسف، يا سيد، كنت فقط أستغل الفرصة لإنجاز بعض الدراسة».

حياه براي بلغة الغالا، ملقياً تحيته في صيغة الخطاب الذي يتعين استعماله من قبل التلاميذ المحترمين تجاه المعلم وذلك لتهوين الأمر عليه.

كان الرجل مسروراً بحياء وسرعان ما أخرج كل ما عنده ليقدمه ـ سجل المدرسة، كتب التمارين والنصوص للتلاميذ، وهو يشرح طوال الوقت ويجيب على أسئلة براي بأسلوب بطيء، قلق. جلست تلميذة ـ كانت جالسة معه، إلى طاولة خشب الصنوبر حيث كان يعمل، وهي عاجزة عن المتابعة، يدها على مكانها في كتاب، تصغي وتبتسم محيية بشكل متردد. إنها تبدو مثل امرأة ناضجة، لكن التردد غير المنتظم على المدرسة غالباً ما يعني أن أطفال المدارس الأفارقة يكونون أعمر بكثير من زملائهم البيض. مدير المدرسة نفسه كان نحيفاً جداً، أسود البشرة وذا صدر حمامي تحت كنزة صوفية. إن مدرسته المكونة من صفين عمرها سبع سنوات؛ فيها بعض المقاعد، لكن الأولاد الصغار، كما شرح المدير، لا زالوا يجلسون على الأرض. بعض الأطفال الذين يسكنون بعيداً يقيمون في أكواخ المدرسة في القرية ويذهبون إلى بيوتهم في عطل نهاية الأسبوع.

قال: «لدينا هذا العام خمسة وستون. هذا أكبر أعوامنا الدراسية حتى الآن. وعدد الفتيات إحدى وعشرون».

أظهر باعتزاز ملصقاً على الجدران المبقعة بالرطوبة كتب تحته عبارة: بلادنا. وهو عبارة عن صورة عامل منجم باسم يعمل في قاع منجم للذهب، وصيادي أسماك باسمين يرفعون صيدة سمك؛ وامرأة باسمة تقطف محصولاً. الإحصاءات السكانية بالأرقام الخضراء، أرقام الدخل الإجمالي باللون الأحمر.

Twitter: @alqareah

- «من وزارة التعليم، أوه، نعم، بدأنا نحقق أشياء ظريفة. إنني أملأ الاستمارات. سوف أجلبها الآن. كنت أتمنى أن تكون هنا عندما يكون الأطفال في المدرسة، لكي ينشدوا لأجلك».

لقد أنشد أطفال المدارس السود لبراي مرات كثيرة.

- «في وقت آخر، آمل ذلك».

- «زوجتي تدرب الكورس. إنها أيضاً تعلم الصفين الأول والثاني».

كانت المرأة الصغيرة تبتسم، وهي تنقل نظراتها من واحد إلى آخر.

قال براي: «ظننتك إحدى التلميذات الصغيرات!» وضحكوا.

- «حسناً، إنني أعلّمها لكي تتقدم إلى امتحان الصف السادس النظامي. ستذهب في الشهر القادم إلى المدينة لأجل ذلك. لقد أنجبت أربعة أولاد، أنت ترى، كانت دراستها متقطعة. لكنني أعلمها عندما أستطيع. تريد التقدم إلى امتحانات المعلمين في النهاية».

حاول براي أن يستدرجها إلى النقاش: «من حسن حظك أنك تزوجتِ معلماً».

- «وأنا أدرس لأجل مستويات O، شهادة كامبردج»، قال مدير المدرسة بإلحاح رجل ليس لديه أحد ليلتفت إليه: «لدي هنا ورقة اللغة الانكليزية ـ ليس الورقة التي سيتعين عليَّ أن أكتبها، أنت فاهم».

- «أعرف ـ إنه أنموذج».

- «نعم، الورقة التي كتبها الطلاب في عام 1966 ـ أنت تفهم. إنني أعاني من الصعوبة، لأنه توجد بعض الكلمات التي لا يمكن العثور عليها».

مضى إلى الطاولة وجلب قاموساً مدرسياً صغيراً عتيقاً.

- «فهمت ـ حسناً، إنه لا يحتوي على الكلمات الأكثر ندرة، أليس كذلك».

ساعدته الزوجة بسرعة على إيجاد الورقة وكتاب التمارين. راجع الورقة بعينيه، وشفتاه تتحركان قليلاً. لاحظ براي كم كان تنفسه صعباً، كما لو أنه مصاب بنزلة صدرية.

- «هذه الكلمة هنا ـ ها هي، *mollify* ....؟»

أراد براي أن يضحك، أمسكه التشنج من البلعوم كما لو أن سعالاً يصعد؛ أخذ ورقة الامتحان لكي يناور بالوقت، ليتظاهر، بدافع الكياسة «المتحضرة» لبني جنسه، بأن عدم اليقين حول معنى الكلمة هو شيء يمكن أن يحصل لأي شخص ـ وهذا في حد ذاته كان جزءاً من العبثية ذاتها: إنها ادعاءات الثقافة الاستعمارية.

Twitter: @alqareah

قرأ: «اكتب إحدى الرسائل التالية: (أ) إلى ابن عم /ابن خال تصف فيها مشاهداتك في رحلة مدرسية إلى قارة أوربة؛ (ب) إلى أبيك، تشرح فيها لماذا تتمنى أن تكون في سلك البحرية، (ج) إلى صديق، تصف فيها زيارة إلى معرض لوحات أو فيلماً استمتعت بمشاهدته».

دوّن مدير المدرسة معنى كلمة «mollify وبيّن تلك الأسئلة التي كان قادراً على الإجابة عنها بتعليمها بالحبر الأحمر.

قال عن الامتحان: «ستكون هذه هي المرة الثالثة التي أحاول فيها».

ـ «حسناً، أتمنى لكما حظاً جيداً».

ـ «عندما ستذهب هي للتقدم إلى امتحان الصف السادس ستأخذ معها كورس المدرسة لأجل مسابقة المدارس الكبيرة. الشهر الماضي نالوا أفضل مرتبة في مقاطعة رونغوا. أما الآن لا ندري ـ لكننا نأمل».

ابتسم المدير.

تم إطلاعه على ملعب كرة القدم الذي مهده التلاميذ؛ على مسافة صغيرة خلفه يوجد بيت طيني، مبنى على الطراز الأوربي، ذو شرفة مدعمة بجذوع أشجار مشذبة بخشونة، من المفترض أن مدير المدرسة وأسرته يسكنون فيه. ثمة امرأة عجوز تقوم ببعض الأعمال المنزلية الروتينية خارج المنزل، برفقة اثنين أو ثلاثة من الأولاد الصغار. قال مدير المدرسة: «لو وجد شخص يمكنني أن أسأله ـ كما أسألك» لكنه كان محرجاً من أن يبدو متذمراً فبدأ يتحدث عن تلاميذه، مرة أخرى.

قال براي الذي يشعر كما شعر ألف مرة من قبل في هذا البلد بالمردود غير المتناسب الذي يحصل عليه لقاء التعبير المبتذل عن الاهتمام:

ـ «ما الذي ترى أنه مشكلتك الكبرى، في الوقت الحاضر؟».

فوجئ عندما استغل الرجل الوقت للتفكير بهدوء، بالانعدام الأفريقي للإحراج من التوقفات الطويلة، بدلاً من التحول مرة أخرى إلى توقعات وزارة التعليم في ظل الاستقلال، فقال:

ـ «يتعين علينا أن نجعل الآ ـ باء يدعون بناتهم يأتين إلى المدرسة. هذا هو ما كنت أحاول فعله لسنوات. إن فتياتنا يجب أن يتعلمن. يمكنني أن أريك الأرقام ـ في عام 1965، وليس 1964 ، نعم.. كان لدينا فقط تسع فتيات، وقد تركن المدرسة بعد انقضاء عامين. نعم بعد عامين، لا أستطيع إقناع الآ ـ باء بإبقائهن مواظبات على المدرسة. لكنني أحاول، أحاول. أذهب إلى الآباء بنفسي، نعم، في

Twitter: @alqareah

الريف. أتحدث إلى الوجهاء وأقول لهم، انظروا، هذا بلدنا الآن، هل يمكن للرجال أن يتخذن زوجات غير متعلمات؟ ستكون هناك مشكلة. يجب أن نضع الفتيات في المدرسة. لكنهم لا يريدون أن يسمعوا. ذهبت لمقابلة الآباء، تحدثت إليهم. نعم، حسناً، نجحنا هذا العام في إبقاء إحدى وعشرين فتاة وبعضهن في الصف الثالث النظامي الآن. أتحدث إلى الناس ببطء».

ابتسم الرجل وأخذ واحدة من شهقاته اللهاثية؛ أمسكت يده بالشجيرة.

- «أنا أذهب وأخبرهم. لقد جلبت دراجتي العادية».

تذكر براي أن الأمور مختلفة الآن، حتى في فندق بيلتشي.

- «لماذا لا تأتي إلى الفندق هذا المساء. أنا أقيم هناك الليلة. يمكننا أن نتحدث أكثر»

كان لمعلمِ المدرسة المظهر المنهك بشكل مفاجئ. إنه يقضي فترة نقاهة. أغمض عينيه متردداً، كما لو أن هناك شيئاً ما خلف الدعوة يجب أن يفهمه.

- «أي وقت يا سيدي؟».

- «تعال بعد العشاء؟ سنتناول البيرة. وزوجتك أيضاً، بالطبع».

هز الرجل رأسه ببطء موافقاً: بعد العشاء»، كرر، متذكراً ذلك.

عندما عاد براي إلى الفندق كانت السيدة بيلتشي جالسة إلى طاولة مكتبها في البار، تجري الحسابات. إن رأسها الكبير ذا الشعر الأشقر الكثيف المائل إلى الحمرة قد أتيح له أن يبهت متحولاً إلى اللون الأبيض المبقع بالأصفر لشارب رجل عجوز. تطلعت من فوق نظارتيها ثم خلعتهما ووقفت على قدميها بالوقفة الحمامية للنساء الثقيلات، المتقدمات في العمر.

- «ظننت أن ذلك يروق لك، عندما أخبرني الصبي».

كانت الحيوية الجنسية قد همدت فيها، فقد تجلّى ذلك من الطريقة المتحدية التي تقابل بها الرجال، إذ كانت مخادعة ومتذمرة.

لم يكن أحدهما قد أحبّ الآخر كثيراً، بالقليل مما كان يعرفه أحدهما عن الآخر، وبشكل استثنائي، الموقف القديم الذي حل بينهما كما لو أن السنوات العشر لم تكن. كان ثمة ضحك ومصافحة.

- «رجل كبير ذو شعر رمادي على الصدغين، يتكلم لغة غالا.حسناً، لم تكن هناك في العادة أي شعرات بيضاء - لكنني خمنت، ذاك هو الكولونيل براي! لا،

Twitter: @alqareah

حسناً، سمعت أنك كنت في الخارج، بأي حال، لذلك فأنا لست ذكية كما أتصور نفسي».

قال: «هكذا، إنك تتابعين وحدك؟ أوليڤيا وأنا سمعنا عندما توفي السيد بيلتشي».

قالت: «منذ خمس سنوات».

كان ثمة رسوم كاريكاتورية مرسومة بقلم الرصاص لأوسكار بيلتشي وراء الباب، معمولة بتنويع على أسلوب بيربوم *Beerbohm*.

ـ «لا أعتقد أنه كان سيقدر على تحمل ذلك لو كان موجوداً الآن».

جلس براي على البار:

ـ «إنه عمل رهيب بالنسبة لامرأة لكي تأخذه على عاتقها».

ـ «لا أعرف عن ذلك، لقد اشتغلت في الأعمال الفندقية لمدة خمس وعشرين سنة، كما تعرف. ولكن التكيف معه كما هو عليه الآن، يكفي للإطاحة بعقلك، هذا ما يمكنني أن أقوله لك»

ـ «ألا يجدر بك أن تتخذي شخصاً ما ليساعدك ـ مدير أو مساعد؟».

طلب جيناً وتونيكاً فقامت بقلب الزجاجة حيث علقت رأساً على عقب فوق مقياسها الجرعي، وأعدّت المشروب بنوع من العجرفة المقيتة للحركات التي تنم عن التمرس، وهو ما كان بحد ذاته ازدراءً للذين كان بالنسبة إليهم من المستحسن جداً أن يتحدثوا عنه.

ـ «إنهم لا يأبهون. إنهم يريدون أن يصبحوا أغنياء. يريدون أن يتعلموا ركوب الطائرات. هذا ما أخبرني به أحد صبيان مطبخي، نعم. أنا لا أكذب. لا يريد مسح الطاولات، يمكنه الذهاب إلى المدينة وتعلم ركوب الطائرات الآن».

ابتسم براي: « ومن أخبره ذلك؟»

ـ «أنت تسألني!».

لكن يدها المنمشة الرشيقة، التي تفعل ما ينبغي فعله، كانت تمسح الحلقة الرطبة التي خلّفها سطل الثلج، وأوضحت أنها تعرف ما يعرفه هو بشكل جيد تماماً.

ـ «كل ما يمكنني قوله هو أنني منذ الأسبوع الماضي لا يمكنني أن أصرف أياً من هؤلاء الطيارين الظرفاء خارج مطبخي دون أن أسأل وزارة العمل أولاً. أنت تعرف ذلك، بالطبع، فقد نشِرَ في الأسبوع الفائت. حصلت على نشرة دورية من جمعية أصحاب الفنادق، رغم ما يعتقدون أنهم سيقدرون على فعله بشأن ذلك. يجب أن

Twitter: @alqareah

أحصل على إذن من مسؤول العمل في منطقتي، أياً كان، لا أعرف، وما الذي يعرفه الجنتلمان، أياً يكون، حول شغلي؟».

ضحكا؛ فقد كان اتهامها لما كانه براي، لكل ما كانه، هو وبنو جنسه، معروفاً بصراحة بينهما في موازاة لصاقة جوني ووكر وعلبة الـ s.p.c.a الصفيحية المخصصة لأجل «الفراطة» الصغيرة. جلست مرة أخرى إلى مجموعة الكتب إلى جانب كأس البيرة.

قال: «يمكنني أن أتعاطف معك. لا بد أن ذلك صعب بشكل جهنمي بالنسبة لك».

لم تصدقه؛ فقد كان ذلك كله جيداً جداً بالنسبة لأشخاص مثله لم يكن عليهم أن يكسبوا عيشهم، أوفدتهم الحكومة البريطانية لسنوات قليلة ووقفوا إلى جانب السود لأنهم لم يكن عليهم أن يبقوا ويعيشوا معهم لو لم يكونوا يريدون ذلك. لكنها تابعت تاركة إياه يسمعه كله:

- «رودويل العجوز، رودويل الذي عمل لأجل أوسكار منذ ما قبل زواجه، جاؤوا إلى هنا في اليوم التالي ليطلبوا منه إبراز بطاقته الحزبية. أنا أسألك! كل ما يعرفه هو أنه الطباخ الأعلى أجراً في البلد، منذ خمسة وعشرين عاماً وهو يسيّر مطبخه هنا. البطاقة الحزبية! وقد أصبحوا بذيئين! لم يترددوا في ضربه وهو في الطريق إلى المجمّع ليلاً. يقول لي، دونيا، ما الذي يمكنني القيام به؟ إنهم عصابة من قطاع الطرق»، لم تقل «حزب استقلال الشعب»، برفضها أن تسمي الأسماء كانت قادرة على أن تقول ما تشاء دون أن تكون استفزازية. فقد كان في حديثهما نوع مثير للفضول من حميمية الإهانة.

حكى لها عن السلطات الجديدة لوزير العمل التي خلعها على نفسه؛ «المشكلة هي وجود خطر البطالة الذي يزداد في الوقت الحاضر».

- «حسناً، الكثير من الناس يبيعون ممتلكاتهم، إذا كان بمقدورك أن تجد من يشتري. عندما يعود هؤلاء الطيارون والجنتلمانات الآخرين جائعين يفتشون عن عمل ستحصل لهم مفاجأة كبيرة. فالكويرك* *Quirks* قد ولوا، الشهر الفائت، يقول جوني كونولي إنه سيرسل ماشيته إلى المسلخ في غالا إذا لم يستطع التخلص من معمل الألبان بوصفه هماً دائماً. لديه الكثير من الناس».

- «أنا متأكد أن المزارعين عصبيون. لكنني لا أعتقد أن مغادرة عدد قليل من البيض تعني الكثير لموقف اليد العاملة. إنها الثغرة الحتمية بين الآن والوقت الذي

Twitter: @alqareah

ستنطلق فيه خطط التنمية ـ الميناء عند قدوم كوندوي، أنا أفهم. وتجفيف الأراضي المستنقعية حول منطقة ايسوزا. لا يوجد مزيد من العاطلين عن العمل، الآن، أكثر مما كان يوجد في ظل الإدارة الاستعمارية؛ سوى أنهم بشكل طبيعي ينتابهم الشعور بأنهم قد اكتفوا من العيش في القرى بمستوى الكفاف، وثمة خطر من أنهم قد يندفعون أفواجاً إلى المدن والمناجم، حيث لا يوجد أمل لهم في العمل حقاً. يمكن أن تكون القصة القديمة نفسها للفلاحين عديمي المهارات الذين يتركون الأرض».

قالت: «بالضبط، ما الذي يعرفونه طوال كل هذه السنوات التي كانوا يمتلكون فيها المنيهوت والماعز والبيرة؟ كانوا أسعد منا، صدقني».

كان يتناهى صوت السيارات الصاعدة وأصوات بشرية آتية من الشرفة. النادلان يدخلان ويخرجان من وإلى البار حاملين الطلبيات التي كانت توزعها برشاقة ودخان السيجارة في زاوية فمها يجعلها تبقي عيناً ضيقة. كان لها، وهي تنتقل في الجوار، ذاك الرأس الكبير والصدر الحمامي الآخذ بالتضاؤل إلى تفاهة الرسوم الكاريكاتورية على الجدار. بين الفينة والفينة تعود إلى حساباتها، مديرة وجنتيها عن الأرقام التي تشطبها أثناء الحديث إلى براي. سألها مباشرة:

ـ «هل يأتي الأفارقة إلى هنا الآن؟».

قالت، بالمباشرة نفسها: «إنه القانون، صبياني يخدمونهم إذا جاؤوا. إنهم قليلون جداً. يفضلون بيرتهم، طبعاً، في خاياتهم *Khayas*، هذا طلبهم، يجلسون على الشرفة، وطالما أنهم متأدبون، فلا ضير في ذلك. يعرفون أنه صار عليهم أن يكونوا متأدبين».

ـ «وهل لا زال المزارعون يضعون الفتيان في قفص كبير في ليالي السبت؟».

ضحكت ووضعت القلم من يدها، وهي تهز رأسها باستمتاع:

ـ «أوه تلك كانت الأيام الجيدة، أي؟ يا إلهي، أي سهرة اعتدنا أن نقضي أحياناً! وعيد الميلاد وعيد رأس السنة! ما أكثر الحياة التي اعتاد جمهورنا هنا أن ينالها فيهما، اعتاد أوسكار أن يقول هذه آخر مرة، آخر مرة. وفي كل مرة ـ يا إلهي الطيب».

ـ «إيه؟ آه، لقد ولى ذلك كله، الآن».

أطلقت سخطها، وقد عاد الدم إلى وجهها، وطراوة الضحك في عينيها ـ المرح المقتضب لكلب عجوز يتذكر أن يهز ذيله. لقد مسته، كما يحدث، علامة الحياة؛ لكن حتى في لحظة الدفء العرضية كانت تحتفظ على وجهها بعدوان الغرور

Twitter: @alqareah

والدونية: ليس معنى ذلك أنه هو ونوعه قد تنازلوا، بل إنهم قد عرفوا كيف يمتعون أنفسهم!

عندما استحم وغير ملابسه استعداداً للغداء، التقته في أحد الممرات، وهي تخشخش المفاتيح.

- «هل أنت متأكد من أنك حصلت على كل ما تريد؟ المناشف، الصابون - على ما يرام؟ لا أعرف أبداً، هذه الأيام».

طمأنها، كان الرجال البيض لا زالوا يشربون على الشرفة، وكان البار مليئاً بشكل مريح، أيضاً. كانوا يلعبون لعبة السهام المريشة، والأخبار تفرقع عبر المذياع. لم يكن ثمة رجال سود. سمع صوت جرس الغداء يتردد في كل أنحاء الممر والشرفات والملحقات التي تشكل مجمع الفندق، والأضواء مشتعلة في غرفة الطعام، لكن أحداً لم يأتِ بأي حركة للذهاب وتناول الطعام. لم يشعر أنه يرغب بالجلوس هناك على كرسيه. أما على الشرفة فلم يكن يعرف أحداً سوى ربما وجهاً واحداً - رجلاً ذا رأس ذي أشعار شقراء تجتذب الضوء مثل الشعيرات الناعمة على الصبار. من المحتمل أن يكون دنيستون الذي اعتاد أن يكون في البوليس المزود بخيول. طلب مشروباً وصار يراقب الضفادع التي تبقي عيونها مفتوحة على البشر باحتراس النشال، فيما تلتقط النمل الطائر الذي يسقط من المصباح علي أرضية الشرفة. جاءت قطة السيدة بيليتشي لتلتقط الضفادع بدورها، فطردوها بعيداً. لأول مرة يشعر باهتمام بالهراء الوارد من وزارة التعليم الذي يقبع في السيارة، فقد نبهه إليه كل من المدرّسة الصغيرة ومعلم المدرسة. راودته بعض الشكوك في أن الغرض من هذا العمل ليس حقيقياً بالنسبة له لأنه ليس متأكداً مما ينبغي أن يكون عليه. فقد تقبله في ذهنه على علاته «لأسبابه الخاصة»: كيلا يُسأل في الوقت الحالي سوى حول ذلك، فلا بد أنه لا توجد أوهام حول الشرعية الموضوعية. ذهب إلى السيارة لإحضار الملف؛ إذ يمكنه أن يلقي نظرة عليه فيما هو ينهي مشروبه قبل الغداء. عندما عاد إلى الشرفة، كان أستاذ المدرسة يقف على الدرج يرتدي معطفاً من المعاطف الفائضة عن الجيش، والقبعة في يده. تولد لدى براي الانطباع بأنه كان ينتظر في الجوار في الظلال، ربما ليس أكيداً، بين كل وجوه الرجال البيض المحجوبة بكثافة خارج الظلام بالضوء المتدفق الذي كان ينشده.

- «أوه جيد - رائع - هذا كأسي، أعتقد». وجلسا. طلب البيرة التي قال الآخر إنه سيتناولها.

Twitter: @alqareah

ـ «لا أعرف ما إذا كنت قد عرفت بنفسي، براي، جيمس براي.... واسمك....؟»

صفى استاذ المدرسة حنجرته وانكب إلى الأمام.

ـ «روبن سندوي. رو ـ بن سند ـ وي».

ثم هز رأسه معترفاً بهذه الهوية وعاود الجلوس مرة أخرى.

لقد كان، بالطبع، معتاداً على أن يُستدعى ويُتحدث إليه؛ كان براي يعرف أن كونه قادراً على أن يسكر في الفندق لن يغير ذلك. فالمرء لا يمكنه ربما سوى أن يجعله ينسى نفسه. بدأ براي يتحدث حول نفسه، كيف اشتغل في الإدارة البريطانية، حيث كان مفوض المقاطعة في مقاطعة غالا، ثم أصبح «لا شعبياً» كما عبر عن ذلك ـ مع المكتب الاستعماري.

ـ «لكن ذلك كله كان تاريخاً قديماً، ليس بذي أهمية كبيرة».

كان يريد أن يعرف المزيد حول المدرسة، حول المدارس والتعليم عموماً، في هذه المقاطعة. لقد حصل سندوي ما تلقاه من التعليم المدرسي الثانوي في التبشيرية في رونغوا. من الطبيعي أن يعرف الأب بندكت.

ـ «أخبرني الآباء هذا الصباح أن الحكومة سوف تضع يدها على المدرسة. ما شعورك تجاه ذلك؟».

قال سندوي: «أتمنى ذلك يا سيدي، لقد عرفت كم من المال حصلت حكومتنا».

ـ «نعم، المال؟».

لحس شفتيه الجافتين: «لو كانت حكومتنا تملك الكثير من المال، لكان علينا عندئذ أن نستولي على كافة المدارس التبشيرية. لو لم تكن لدينا بعثات تبشيرية عندما كنت صغيراً، لما كان هناك مدرسة ثانوية لأجلي. لم تك لدى الحكومة الانكليزية سوى تلك المدرسة الوحيدة في ألبوما، هل تعرف ذلك؟ ولكن إذا وجد المال عندئذ فإن أفضل شيء هو أن يكون التعليم كله سواء، لكي يحظى كل الأطفال بالفرصة نفسها. وعندئذ سترى. إن حكومتنا لا تحسن التفكير، حسناً، ثمة مدرسة تبشيرية هناك، قرب هذه القرية أو تلك، إذاً لماذا يجب علينا أن نبني مدرسة أخرى؟ أنت تعرف ماذا أقول؟»

ـ «أوه نعم، بالضبط».

ـ «هذا ما فعلته الحكومة الانكليزية، لكن حكومتنا يجب عليها الآن أن تفعل الشيء نفسه. هذا هو السبب في أنه يجب علينا أن نغلق المدارس التبشيرية. ليس

Twitter: @alqareah

لأن الآباء ليسوا رجالاً جيدين. أنا لا أقول ذلك. لا أحد من شعبنا يقول ذلك. لا يجب على الأوربيين أن يقولوا إننا نرمي البعثات التبشيرية؛ يجب أن تكون لنا مدارسنا الخاصة في بلدنا، هذا هو كل شيء. أريد بالضبط أن أعرف إن كنا قد حصلنا على المال».

قال براي: «أعتقد أننا حصلنا عليه ، لكننا لا نملك المعلمين،وتلك هي المشكلة. آمل أن تستطيع إقناع معلمي المدارس التبشيرية بترك إدارة مدارسهم للحكومة ولكن مع بقائهم والتدريس فيها. حتى ذاك الوقت، سيتعين تجنيد مئات المعلمين من مكان ما في الخارج».

قال: «إذا حصلنا على المال»، قال ذلك باقتناع.

- «هل تساعدك وزارة التعليم في دراساتك؟ من أين تأتي تلك الدروس التي أريتني إياها - دورة بالمراسلات؟».

هز رأسه وسعل: «أنا أدفع بنفسي - ... تأتيني من لندن» .

كانت الشرفة تفرغ والسيارت تبتعد رغم أن شلة مواظبة من الشاربين بقيت تشرب بشكل صاخب في الحانة. جاءت السيدة بيلتشي وهي تندفع نازلة عبر الشرفة مظهرة سلطتها:

- «ألا ينوي أحد أن يأكل الليلة؟» سألت بصورة عامة. كانت رصينة مع براي. فنهض نصف نهضة بلباقة وقال:

- «أنا أنوي بالتأكيد. لن أتأخر كثيراً».

كان سندوي واقفاً. فنظرت إليه. سألت بصوتها المرتفع:

- «حسناً، كيف هبط الغنم؟».

- «أوه، أنت تعرفين السيدة سندوي، يا سيدة بيلتشي»

- «طبعاً أنا أعرف السيدة سندوي».

امتدت يد معلم المدرسة إلى قبعته ونترتها بشكل تلقائي عن الكرسي. وقف هناك لابساً المعطف و، بالطريقة التي كان مصباح الشرفة يصب بها وهجه، لم يكن بالإمكان رؤية عينيه مطلقاً في وجهه الأسود النحيف.

قال: «أوه مدام، ينبغي أن أجيء لكي أشكرك. كان ذلك ظريفاً جداً. لكنني مرضت منذئذ».

احتفظت بوقفة شخص هوجم من كمين.

- «هل كانت الاحتفالات أكثر مما ينبغي بالنسبة لك؟».

Twitter: @alqareah

قال: «لقد أصابني برد شديد». وفيما كانت تمضي تشجّع وقال مناشداً:
- «كان الأولاد سعداء جداً باللحم. أشكرك كثيراً جداً».
- «هذا عظيم... قالت بخفة، بنغمة متصاعدة، ومضت مستغرقة بالخطو الثقيل، مصغية قليلاً إلى جهة واحدة، بخطو من بقيت لسنوات كثيرة جداً واقفة على قدميها. جلس مبتسماً.
قالت: «كان ذلك غنماً بالكامل».
- «منحه الفندق للمدرسة بمناسبة عيد الاستقلال. كان هدية ظريفة جداً. كان الأطفال سعداء».

سعل مرة ثانية، تناول بعض البيرة، واستمر في السعال. قال براي بعد أن استعاد أنفاسه:
- «ماذا عن العشاء، الآن؟ ما قولك؟».
- «لقد تناولت وجبة».
- «أوه، هل أنت متأكد؟ ألا تشعر بالرغبة في تناول شيء ما، الآن؟».
- «لا، لا أشعر بالجوع منذ أن أصبت بهذا الرشح مرة أخرى».
كان لا يزال مقطوع الأنفاس من نوبة السعال.
قال براي: «هل تفعل شيئاً لأجل ذلك؟»
- «لقد ذهبت مرة أخرى إلى المستوصف. يقولون إن علي الذهاب إلى المستشفى لإجراء الفحوصات».
وذكر اسم مستشفى السل في العاصمة. رفع ثلاث أصابع.
- «بقيت هناك سبعة عشر شهراً منذ ثلاث سنوات. لكنني عوفيت. منذ حوالي أسبوعين أو ثلاثة فقط أصبت بهذا الزكام السيء جداً. لا أشعر بالجوع»
- «فهمت، جيد إذاً، دعنا نتناول كأساً أخرى من البيرة».
لكنهما لم يجلسا مرة أخرى. «متى ستذهب؟»
ابتسم الرجل: «إنه بعيد جداً».
- «ولكن ينبغي ألا تنتظر».
قال: «عندما أتقدم إلى مستويات أو O»
فجأة بدا مشوشاً بالشعور بأن الزيارة انتهت ولا يعرف الطريقة المناسبة لإنهائها دون أن ينصرف بدون ما جاء لأجله.

Twitter: @alqareah

«سيدي، أود أن أسألك إن كان بمقدورك أن تكتب لي بخصوص أخي الصغير. إنه يريد أن يدرس الزراعة ـ الزراعة الأوربية. إنه يعمل هناك في مزرعة السيد روس، والسيد روس طيب، يعلمه فيما هو يشتغل هناك. منذ زمن طويل يريد الذهاب إلى مدرسة المزارعين، سمعنا عنها. إذا كان بمقدورك، من فضلك، أن ترسل لي الأوراق لأجله... يمكنني أن أساعده في ملء كل شيء ـ لتقديم الطلبات ـ إذا كان بمقدورك فقط أن ترسل لي الأوراق».

شرح براي أنه ليس بصدد الذهاب إلى المستشفى، بل إلى الشمال، لكنه سوف يرتب الأمور للحصول على التفاصيل حول كلية الزراعة. غار الرجل المتلفع بالمعطف العسكري في الظلام، المشطور بشكل مائل للحظة بالضوء الذي يصدره الفندق. انعطف براي إلى غرفة الطعام، حيث كان بعض الرجال يأكلون ويتحدثون باستمتاع أصدقاء قدامى يجتمعون معاً. وكان الصوت المكتوم لأقدام النُدّل العارية يهز الألواح؛ طلب نصف زجاجة من النبيذ واتكأ حيث كان بإمكانه أن يلقي نظرة على تقرير سحبه بشكل عشوائي من الملف الذي يحمله معه أينما رحل. قبلئذ كان غارقاً في عادة العزّاب في القراءة فيما هو يأكل. وفيما كان يتذكر، كان يدون ملاحظة لكي يرسل لمعلم المدرسة نسخة من معجم اوكسفورد.

هكذا كانت بداية كل شيء من جديد، كان شبه مستمتع، نصف محتقر لذاته. كان الرجل فقيراً بشكل يائس للغاية في كل شيء ـ فما الذي ليس بحاجة إليه؟

قالت أوليڤيا: «الطيبة مثيرة للضحك».

وكانت تقصد: هنا. كان عليها أن تنظم مبيعات السوق الخيرية لكي تستطيع الزوجات البيضاوات المحسِنات تأمين مستوصف لأجل الأطفال الأفارقة، في حين كانت المناجم تدفع الملايين كل عام إلى حملة الأسهم في انكلترا. كان عليها أن ترتدي قفازات بيضاء لأجل افتتاح (الأسواق الخيرية)، من صور الجرائد الملتقطة لهم عندما وصلوا إلى لندن بإحساس يناديهم من المنطقة، فقد بدا موظفاً مدنياً مع سيدته بشكل متنافر مثل فئة ونوع الزوجين اللذين اعتمد عليهما المستوطنون البيض طويلاً.

بعد الغداء مضى إلى غرفته ماراً بـ *Davy tones' lockey* والوجوه المتوردة هناك ـ رجل انكليزي ضخم بمشية مدير يحمل عليٍ الدوام أوراقاً تحت ذراعه. اضطجع على سرير كان مثل كل أسرّة الفندق، صغيراً أكثر مما ينبغي بالنسبة له، وقرأ. كان لمصباح سرير السيدة بيلتشي المثبت عنق مكسور فأشعل مصباح السقف. فصار يشع على نقطة تقع بالضبط بين عينيه. تصفح الأوراق الموجودة في ملف وزارة

Twitter: @alqareah

التعليم؛ قليلاً جداً، كشيء للمتابعة. في معظم الأمكنة لم تحلل الأرقام بدقة، و«الظروف غير المتنبأ بها» المتواترة التي تسببت بنسبة مئوية عالية من الإخفاقات، أو التراجع عن المخططات التجريبية المتواضعة، لم تشرح أبداً. عندما أطفأ النور كان الصمت عميقاً، أكثر عمقاً؛ كما لو أن الليل يقيس المسافة التي قطعها.

Twitter: @alqareah

(6)

أمضى أسبوعه الأول في غالا مشغولاً بما وصفه في رسائله إلى انكلترا بأنه تدبير منزلي. فالبيت الذي أخلاه محاسب عُدَّ فائضاً بموجب نظام الإدارة الجديد، لم يكن فيه طباخ ولا ستائر. أقام في الفندق المحلي فيما كان يمتحن شفهياً المتقدمين لشغل المنصب، والخياط الهندي المقبول لصنع الستائر. كان السيد جوساب مكروباً بسبب اختيار براي للمادة، لكن براي وأوليڤيا كانا يفضلان على الدوام الأقمشة ذات الألوان الحمراء الداكنة والسوداء، والبرتقالية والبنية، والنصوص المأثورة المكتوبة باللغة السواحلية أو بلغة الغالا مطبوعة على القماش الذي تلفه النساء المحليات حول أنفسهن وأطفالهن - لم يكن عليه أن يزعج نفسه باعتبارات ما يُعد وما لا يُعد مناسباً لأجل دار المفوض، في هذا الوقت.

كان الشارع الرئيسي العريض الذي عبَّدته غالا عبر وسطها العالي الاحديداب لكن مع بقاء الأرض المصطبغة باللون الوردي على شكل تخم عريض - أدنى من الطريق على الجانبين، هذا الشارع كان مبقعاً، مجدراً وفي بعض الأحيان مخفياً بظل كثيف لأشجار الماهوغاني التي تتدلى فوقه.

غالا مكان قديم كما هي في العادة المستوطنات الاستعمارية؛ وحتى قبل أن تصبح مخفراً أمامياً بريطانياً، كان تيبو تيب *Tippo Tib* قد أقام إحدى محطات تجميع عبيده في أقصى الجنوب هناك. فإلى الشمال من القرية كان موقع حصنه العربي. لقد تداعت الجدران في القرية، لكن الأشجار بقيت على حالها؛ فقد كانت أضخم من أن تقطع وتُزال من طريق محنة قوافل العبيد، وأقوى من أن تتلف بالنار عندما كانت القوات البريطانية تقوم بعملية إخضاع السكان، الإخضاع المبجل من قبل عدة أجيال من السيدات الاستعماريات، اللواتي نجحن في استصدار قانون داخلي محلي

Twitter: @alqareah

معلَن يحظر على أي شخص قطع هذه الأشجار. كانت بروزاتها الرمادية الهائلة الصادرة عن الجذر تؤمن مواقف لأجل الدراجات العادية وأكشاك الباعة والحرفيين؛ فالإسكافي يعمل هناك، ومصلّح الدراجات العادية وآلات الخياطة. ثمة شجرة نخاسة (فقد كانت المهنة تتم تحتها إلى وقت متأخر قبل مئة عام) كانت السيدات الانكليزيات أنفسهن قد أحطنها بمساحة مرصوفة صغيرة ودرابزون، مع لوحة تحمل عبارة ويلبر فورس *Wilber Force*. كان ذلك في الجزء الأسفل من القرية حيث، كما وجد براي، بدأت بدايات الصناعة منذ أن رأى المكان لآخر مرة. إن العمال الشباب من منشأة تعليب الأسماك ومنشآت الكلس يتسكعون هناك، الآن، ويلعبون النرد ويقرقشون ركاماً من علب البطاطا المقلية.

كان شكله الكبير، في سترة الأدغال الكتانية الرمادية والسروال اللذين وجدهما لنفسه في العاصمة، يتحرك بانهماك جيئة وذهاباً عبر الطريق بين الشمس والظل داخل وخارج جوف الحوانيت. وقد باغتته الروائح المألوفة ـ الكاليكو، البارافين، الدُخن، أكياس الكابنتا المجففة مع المغرفة الصفيحية ملصقة بين الأسماك الصغيرة العفنة، كذلك الشعور القديم بحبيبات السكر المسفوح وجريش الذرة الرملي بين نعال الأحذية والأرضيات الاسمنتية المشققة في محل الخياط، كانت حلاوة الهال معلقة حول لفافات القماش وقصاصات البطانات البراقة. نفس اللوحات المؤطرة للإدوارديين ذوي مباسم السجائر الطويلة والعكازات المصنوعة من عشب الشهاب، صورة فوتوغرافية لمويتا في بذلة التوجا إلى جانب الصورة العتيقة للملكة. كان السيد جوساب وابنه، أحمد، هما تقريباً أول الناس من الأيام الخوالي الذين يتكلم إليهم براي (فقد استبدل الفندق اليد العاملة؛ وكان ثمة موظفون سود في مكتب البريد، الآن). كان جوساب رجلاً سميناً شاحباً يرتدي أكماماً قصيرة، مع شريط قياس يرتديه مثل وشاح عسكري فوق صدريته. كانت ضحكته الرقيقة بلا صوت تقريباً؛ وقد وقف هناك مع أحمد، النحيف، القاتمِ البشرة، وقد كبر ـ كما تذكر براي الأم ـ مع تلك النظرة المهووسة، المجنونة قليلاً التي تتأتى من امتلاك عينين شديدتي السواد ذوات ظل.

ـ «الكولونيل، إنه الكولونيل، ها قد عدت إلينا».

النظرة المحدقة الوضّاءة لجوساب، النظرة الخاطفة، المترعة، والمرقّصة مثل نظرة فتاة مرتبكة:

Twitter: @alqareah

- «ابني أحمد - ألا تتذكر الكولونيل (إيه، يا كولونيل، كان ولداً صغيراً) - الكولونيل براي؟ بالطبع إنك تتذكر! مفوض المقاطعة، والسيدة براي - يا لها من سيدة ظريفة!»

بدأ الشعر السابل الكثيف اللماع يرتفع وينخفض على رأس الصبي في استجابة خرساء للارتباك.

- «حسناً، أيها الكولونيل - براي، سنكون سعداء بعودتك، كنت أقول لزوجتي غالباً. ليس عندنا جنتلمان مثل الكولونيل، مرة أخرى! أوه، السيد ميتلاند جاء عندما غادرت أنت، كان جنتلماناً ظريفاً، أوه، نعم. ثم السيد كارتر، ثم السيد ويلوين - جونز - ولكن ليس لزمن طويل. أعتقد أنه لم يمكث هنا سوى خمسة عشر شهراً، أوه الكولونيل».

- «وكيف كانت أحوالك، يا سيد جوساب، كيف تسير الأمور؟»

كان لا يزال يضحك بلا صوت، ماداً يديه الناعمتين مثل عضو في لجنة ترحيب:

- «أوه كل شيء على ما يرام، نعم، يمكنني القول أنه على ما يرام». وكبح هزة كتف مغناجة، كما لو أنه كاد أن يبوح بسر.

- «بالطبع إن الأمور متقلقلة قليلاً، لقد قل الشغل، أو أن ذلك طبيعي فقط، بالطبع، يا كولونيل. أنا لا أشكو - هل تفهم؟ جاليتنا تدعم الحكومة مئة بالمئة. إننا نساهم في صناديق الحزب. على الأقل بأكثر من خمسمائة جنيهاً. ولقد حصلنا على ضمانة من الرئيس - أوه - أنت تعرف، أهل الحكم القديم، كلهم ذهبوا. أوه، أنا أعرف شعورهم، يمكنني أن أتصور ذلك. الدكتور بيري والسيدة بيري عادا إلى انكلترا، باعا محلهما. لقد بنى بيتاً جميلاً منذ سنوات قليلة، على البحيرة، عندما تقاعد، أنت تعرف. ولكنهما بالطبع لا يريدان البقاء الآن، بشكل طبيعي ـــ لماذا يتعين عليهما ـــ في بيتكم» - كان يقصد مسكن مفوض المقاطعة - «هناك السيد أليك الآن، مع زوجته وسبعة أو ثمانية أولاد صغار، نعم. كان المكان يبدو مثالياً عندما كنت أنت والسيدة براي هناك، أيها الكولونيل - الحديقة، كانت رائعة! حديقة السيدة براي. وماذا كانت السيدة الأخرى - السيدة بتروورث؟ أوه، نعم يا لها من سيدة ظريفة. هل تعرف أنني صنعت أول زوج من السراويل الفضفاضة للسيدات - لأجلها؟ قلت، ولكن يا سيدة بتروورث، يا مدام، أنا لا أخيط للسيدات. لكنها كانت سيدة تحب الحصول على ما تريد، أنت تعرف. يمكنك القيام بذلك، قالت، يمكنك فعل ذلك! والسيد بلانيير. لقد فاز ببطولة الغولف مرة أخرى هذا العام. لا

Twitter: @alqareah

يزال هنا، والسيد لي روي، وآل أندرسون فوق في النادي ـ السيد أندرسون لا يزال رئيس اللجنة، إنهم يؤدون عرضاً هناك، هذا الشهر. أعتقد أنه السيد بارسيغال، مرة أخرى، هو الذي يرتب ذلك، أنت تعرف أنه رجل ذكي جداً».

روى كافة تفاصيل نشاطات الجالية البيضاء التي لم يكن له أي دور فيها:

ـ «أوه، هناك الكثير من الأيام الخوالي».

قال واعداً: «سترى أيها الكولونيل».

لم يكن هو من ينسى أن هؤلاء الناس هم الذين طالبوا بإزالة المكتب الاستعماري، لكنه تذكر ذلك فقط بشكل جيد أكثر مما ينبغي ـ لقد كانت طريقته في التعامل مع الأحداث، ليقي نفسه والآخرين من الخطر بالانحناء في كل الاتجاهات بآن معاً.

حيّا معظم أصحاب الحرف في القرية براي بابتهاج مهنيٍ يطغى على بعض تحجر الوجه. إذ لم يكونوا قد نسوا أي واحد منهم، لكن شخصاً ما سيصبح زبونه. لم يكن لديه وعي خاص لـ«موقعه» بينهم؛ كان الماضي بالنسبة لمويتا وإدوارد شينزا ومستقبل البلد يعني شيئاً له، لكن الماضي بالنسبة لمصاعبه مع الخدمة الاستعمارية والمستوطنين كان ببساطة صراعاً ولى زمنه، كل طرف فيه تصرّف ـ بلطف كافٍ ـ وفقاً لقناعاته في وضع تاريخي خاص، إنه وضع لم يعد موجوداً. ليس بشكل موضوعي، وليس بالنسبة له، فقد كان بعيداً، وعاد متحرراً من ذلك. إن حقيقة أنه أرسل إلى مقاطعته القديمة لم تكن تبدو ذات أهمية خاصة له سوى أنها اتخذت بشكل ملموس ميزة إنه هنا يعرف اللغة والناس؛ لم يكن يرى نفسه كعائد إلى مكان لم يُرحّل عنه ـ فأية صلة بالحاضر كان لهذا النوع من الانتصار الصغير؟

لكن بالنسبة للمقيمين الذين بقوا، لم يكن قد جاء مجدداً، بل عاد؛ إنه، من عقدوا حوله منذ عشر سنوات اجتماعاً علنياً في ذاك الفندق نفسه حيث يقيم الآن، هو من قدموا عريضة إلى الحاكم لإزالته من المكتب. في صباح أول سبت في القرية، تأكد من ذلك؛ إنه مصدر إزعاجٍ أكثر من أي شيء آخر. كانوا يأتون إلى المدينة للتسوق كما كانوا يفعلون دائماً، وكان يتنقل وحده، بينهم. كانوا يحيونه، حتى أنهم يتوقفون ليتكلموا إليه، نساء يحملن سلالهن، أو رجالاً مع عربات البيرة المعلبة معلقة بين الإبهام والسبابة، مستفيدين من الأعراف الحوارية ذات الخلفية الانكليزية التي يشتركون بها معه، لذلك فإن أول انقطاع عن الكلام أصبح فرصة ليقول: «حسناً، إن آل آلكوك لن يحتفظوا بصوص واحد لأجلي إذا لم أسرع وأحضره» أو «روبرت سيبرّد عقبيه خارج مكتب البريد ـ من الأفضل أن أنطلق ـ».

Twitter: @alqareah

لكنهم جعلوه (ليس عبثاً وبالتالي أقلّ خجلاً من الرجال) يدرك أنهم في مواجهة معه. هو لم يحمل لهم ضغينة من أي نوعٍ. الأمر الذي كان لا يطاق، وهو ما تحقق منه بتسلية ساخطة قليلاً على نفسه وعليهم، إذا كان يتعين كشفه.

في الرسالة الأولى إلى غالا، كتبت أوليڤيا: «أعتقد أنه من الغريب أن ترى البيت القديم!» ـ لكنه لم يكن حتى قد ذهب بعيداً للغاية إلى حد القيام بمشوار على الطريق إلى المسكن القبيح الذي يوجد في ذهنه، ليس كمكان بقدر كونه حياة داخلية مجوفة بفعل تجارب تم المرور بها هناك. ذات يوم سيذهب ويرى أولاد السيد أليك «السبعة أو الثمانية» يلعبون في الحديقة، ويحكي لأوليڤيا حول ذلك.

بينما كان يدخل ويخرج إلى ومن فندق فيش ايغل كان يستوقفه أحياناً منظر البحيرة، من الشرفة. إن لافتة البحيرة، ذاك الشريط المبهر من الوميض، بعيداً وراء الأشجار، أو في الأيام الأقل صفاءً، لها صفة مختلفة في السديم. للحظة فرغ ذهنه، التلألؤ اللا مستقر للبحيرة، خط النظر تحت جفن مُسْدل ـ لأنها لم تكن البحيرة فعلاً على الإطلاق تلك التي رآها، بل خدعة المسافة، الوهج الساطع للبحيرة منثوراً على الجو المسخّن، تماماً كما الانفتاح الشاسع للماء المتباعد نحو الأفق، حالما تصل إلى شواطئها الدغلية ـ الشعرية، لم تكن فعلاً البحيرة المفتوحة ذاتها مطلقاً. بل (كما تظهر الخريطة) ليست سوى القمة الجنوبية القصوى للمياه العظيمة التي انتشرت فوق القارة على مدى ستمائة ميل وعبر أربعة أو خمسة بلدان. كان ذلك، إذاً، لمجرد لحظة، إن هذا الرمز للانهائية المسافة، الذي يحمل لا نهائية الزمن الذي تماهى به، حرر ذهنه من زمن النهار. وكان في الحال ذاته منذ عشر سنوات وذاته الآن، هو نفسه وبآن معاً. كانت وقفة لم تؤخذ في الحسبان. تابع نزوله على درج الشرفة، قاصداً شراء تجهيزات لأجل بيته.

لقد تمكن من الانتقال في عطلة نهاية الأسبوع الثاني. بالطبع، قدم نفسه للناس في البوما. تحادث مع أليك، أول مفوض أفريقي للمقاطعة ـ لكنهم لم يسمونهم مفوضي مقاطعات بعد، فقد كانوا معروفين كموظفين إقليميين، ورأى سامبسون ماليمبا، مسؤول التعليم المحلي، الذي صادف أنه كان صديقاً قديماً، مدير المدرسة الأفريقية عندما كان براي في المكتب. كان أليك بالضبط ذاك النوع من «الأفريقي الجديد» الذي يمقته المستوطنون أشد المقت: سميناً، بهيجاً، يرتدي سترة مويتا التي تجعله يسير منتفجاً بردفين صلبين، يتكلم انكليزية عامية طليقة، يتراخى خلف طاولة مكتبه مثل تلميذ مدرسة، وكان يُشاهد وهو يعلك قطعة من قصب السكر بينما

Twitter: @alqareah

يلمع حذاؤه تحت الأشجار. كان المستوطنون متآلفين مع الغرور التقليدي للأفارقة نصف المتعلمين - رجال يرتدون بذلات متعهدين، يرتدون نظارات، يتنحنحون؛ يتميزون بالعلامات المتفق عليها للحضارة في هذا الشكل الكاريكاتوري من صورة ذواتهم، حتى لو كانوا مزارعين يشربون البيرة وهم يرتدون الشورت المجعّد. بقي أن نرى إن كان أليك كفؤاً، أيضاً، سمع ذلك من براي الصغير، كان ذلك محتملاً. قال مبتهجاً أنه لا يعرف ما يقدر على فعله لأجل براي - فقد طلب منه أن يفعل ما هو ضروري للتسهيل. - إلخ، وكان الأمر يعود إلى براي ليخبره ماذا يمكن أن يكون هذا الشيء الضروري: «هل بإمكاني أن أحصل على مكان للعمل - هذا هو الشيء الأساسي». ووجد أليك ذلك مضحكاً جداً. «أقصد أن بإمكانك أن تؤمن لي مكتباً وحصة من ضاربة آلة كاتبة - أنا متأكد من أنك تعاني نقصاً في الكوادر».

- «مكتب! بالطبع! لكن ضاربة الآلة الكاتبة ليست جيدة جداً. أخشى ذلك. سأعرفك عليها».

رنَّ جرساً فدخل موظف نموذجي من الفئة الثانية، ذو ظهر نحيل لرجل عجوز، ووجه مراهق مسلوب الحيوية بفعل دورات الدراسة المنزلية.

- «السيد ليتانكا. سيساعدك بكل ما يستطيع».

عندما انصرف الموظف، كان أليك لا يزال لاهياً:

«هاك ما طلبت، لكنني طلبت سكرتيرة كفؤة وجميلة حقاً. كأولوية أولى، لكي يتحسن مستوانا».

ألح أليك عليه لكي يقيم في بيته «قبل أن نخوض في أي شيء جدي»؛ فقد كانت طريقة لطيفة بما يكفي لتأجيل مشكلة عدم معرفة ما يجب عمله معه.

لم يحقق التنقلُ الكثير. فالمشتريات المختلفة التي اشتراها خلال الأسبوع انحصرت بغرفة المعيشة. كان السيد جوساب طيباً بما يكفي لأن يرسل ابنه وإحدى بناته لتركيب الستائر. وقد امتدت فوق النوافذ فبدت مثل أغطية الطاولات؛ لكنها لم تنطبق. عندما سُحبتْ ارتخت قليلاً. لم يعرف بالضبط ما هو الغلط؛ فكر بأوليفيا وابتسم. فقد كان لديه خادم شاب يدعى ماهلوبي، الذي يعني بلغة غالا «آخر الجميع»، يرتدي المئزر الأبيض الطويل الخاص بالشراء، وكان في الحال يطلب النقود، في اللحظة التي يعهد إليه فيها بالعمل. لقد غطي الأرضيات الاسمنتية للبيت بالطبقة السميكة الحتمية من اللماع الأحمر استعداداً لوصول براي، وأمضى الرجلان عصر يوم السبت وهما يرتبان - بغريزة أكيدة واثقة لوضع إحدى كراسي

Twitter: @alqareah

موريس[1] ذات المصدر الحكومي، واستعمال علاّقة الصورة النحاسية لحمل مرآة الحمام عالياً بما يكفي ليرى براي نفسه وهو يحلق ذقنه ـ العمل المنزلي اللامتغير للعازب الأبيض، القديم قدم الاستيطان نفسه. وضع ماهلوبي منديل مائدة مطرزاً رثاً تحت الإطار الجلدي الذي يضم صورة لفينيشا مع مومياء صغيرة مضببة، طفلها الجديد؛ وفرش الويسكي والجين، وفتاحة مطعوجة وكؤوس في وضعيتها الدائمة حسبما كان مدرجاً في جرد البيت بوصفها طاولة «المناسبات».

قبلئذ كانت تفوح من المطبخ رائحة البارافين الذي يشتغل عليه البراد، وتفوح من غرفة المعيشة رائحة مسحوق البراغيث، لأن البيت الذي يظل خالياً لأكثر من أسبوع يصبح مرتعاً دائماً للبراغيث، وكان كاحلا براي يتعرضان للسعها من خلال جوربيه فيما هو يزور البيت ببساطة.

بدأ يستقيظ مبكراً مرة أخرى، كما اعتاد أن يفعل في أفريقية. كان الخادم في الجوار يدندن بصوت خفيض، منذ الخامسة والنصف. تناول براي فطور الأحد الأول في الحديقة ذات صباح مضمَّخ برائحة دخان الحطب. لقد عاد له ـ كله، مباشرة، كما هو الحال مع رائحة امرأة ضاجعها المرء ذات مرة. عصافير الشمس الصغيرة تطن في الأبواق الخشبية للأزهار. اليمام البري المرهف يهدل بتكاسل، هزيلاً في طيرانه ورخيم الصوت، من غير الممكن تمييزه، كما النوع نفسه من المخلوقات الأجشة الصوت المنفوخة التي تتهادى في المدن الأوروبية. في سكون تام كانت الأوراق الميتة الصغيرة تتدلى من الخيوط المنفردة لشبكة عنكبوت، في الضوء المتلألىء. شجرة تين ضخمة ـ ربما كانت بضع أشجار، ملتفة على بعضها بعضاً في جذع مضاعف يبلغ ارتفاعه عشرين قدماً ثم ينتشر عرضانياً وإلى الأسفل مرة أخرى في قطر من الأغصان المتشابكة. ثمار التين العقدية الصغيرة تنعقد على الشجرة كلها، محمولة مباشرة على الخشب العتيق القاسي للجذع. الدبابير الهزيلة تغادرها وتسقط في المربى. شعر بسعادة لا تصدق، مثل خطر واه. سحب طاولة منصبية مخلّعة مطوقة بعلامات النباتات الموضوعة في أصص، تحت شجرته، وكتب رسائل وقرأ الصحف التي أرسلتها أوليڤيا، منغمساً في ترف كونه وحيداً.

كان العصر طويلاً. في الجو كانت أصداء نشاط الناس الآخرين؛ النقر البعيد للتنس، دوامة السيارات الواصلة والمغادرة عند المنازل الأخرى في الطريق، السماء التي ترن مثل الكأس برنين أجراس الكنيسة المشوه سمعياً مثلما كانت البحيرة

---

[1] كرسي موريس Morris . كرسي ذو ذراعين وظهر قابل للتعديل وحشايا يمكن نزعها.

Twitter: @alqareah

مشوهة بصرياً، من شرفة الفندق. ثمة نوع من تكثف صمت الخلفية، الهدير المبهم لاستمتاع يوم الأحد من جهة المدينة الأفريقية بعيداً إلى الشرق. فكّر في أن يقوم بجولة هنا؛ فهو لم يقم بذلك بعد. بالطبع، لقد عرف المكان بشكل جيد جداً عندما كان مفوض المقاطعة، فقد أمضى كثيراً من الوقت هناك؛ أكثر مما ينبغي، حباً ببعض الناس. لكنه يعرف أن ذلك قد تغير منذ أن كبر، وثمة مخطط إسكان جديد كلياً وفندق لأجل العمال الصناعيين.

كانت الطرق الحمراء العارية تمتد بين الأشجار. الناس يتمشون وهم يدفعون دراجاتهم وهم يتحدثون؛ النساء يمسكن أطفالهن إلى تنانيرهن عندما يمر بهن، الصبيان يضحكون ويتراشقون ببذور المانجا، ثمة جماعات صغيرة من الطوائف الدينية تعقد اجتماعات تحت الأشجار، وأزواج شبان يرتدون أفضل ملابسهم، ورجال عجائز يحملون الخشب أو الفحم على مزلجات، فيوم الأحد لا يختلف عن أي يوم آخر، بالنسبة إليهم. إن البيوت الجديدة الصغيرة المتألقة تبدو مجدولة بالطين، فقد قطعت الغابة لأجلها. ثمة بعض البقع الموطوءة من الكاسافا والقلقاس، وسيارة مدفوعة إلى الشاطىء، مهجورة، أو سيارتان. ثمة في البيوت نور كهرباء والأطفال يلعبون لعبة تقوم على ضرب أعمدة الهاتف بالعصي. كانوا يصيحون بتحدٍ وابتهاج للرجل الأبيض في السيارة.

شاهد الفندق على التلة التي كانت نوعاً من حاجز يحجب القرية السوداء عن القرية البيضاء؛ بناية مؤسسية حديثة تتجمع حولها الأكشاك وعربات الباعة الجوالين مثل زرائب مكشوفة خارج جدران القصر. لكنه استدار بدلاً من ذلك نازلاً إلى المدينة القديمة التي يتذكرها، وانطلق على طول الشوارع غير الممهدة وسط الأكواخ المغلقة والحمير والكلاب والناس.

كانت المدينة القديمة رثة وجميلة. في هذه الأرض الخفيضة تنبت أشجار النخيل، مضفية طولها السامق على الحشد، ورافعة خط السماء إلى خيالها النقي والكسول. المكان ينتن برائحة البيرة والغائط والدخان. الكوخ الأكثر بؤساً له إطار من أوراق الموز البراقة، مع وفرة في الشمعدان الأخضر من الثمار المتدلية؛ وأشجار الببو المليئة بالأثداء الآخذة بالنضج مثل إلهة هندية. لقد نمت الخضرة وتشابكت في كل مكان خارج الروث، وتموجت وانثنت فوق الخشب المتعفن والحديد الصدىء. بؤسٍ رومانسي؛ إنه بالأحرى سيسكن هنا، مع الجرذان تحت أشجار النخيل، بدلاً من

Twitter: @alqareah

السكن على التلة، في تلك المكعبات الوضيعة، المحتشمة الملوثة تماماً بالتراب العاري: كان ذلك لأنه لن يكون عليه أبداً أن يسكن في أي منهما.

كان ولد صغير عارياً يلوح بيد، ويمسك أعضاءه التناسلية بالأخرى. خلع رجل عجوز قبعته محيياً. لم يكن براي يعرف أحداً وكان يعرفهم جميعاً. ثمة غفلة من القبول المتبادل لم تأته أبداً في انكلترا، ونادراً ما أتته في أوروبا - في اسبانيا، ربما، ذات صباح في السوق بين الأجساد المتناكبة وابتسامات الناس المهموكين الذين لا يتكلم لغتهم. لم يكن ذلك خسراناً للذات، كان عثوراً على حضور المرء معترفاً به ببساطة شديدة، حتى لينسى أنه من الخارج يتحرك كرجل انكليزي ضخم، وردي الوجه، فاتح لون العينين، سميك الرمشين خلف النظارات المكبّرة، مغلفاً مع ذلك مرة أخرى، كما في فقاعة من غلاف جوي آخر، في السيارة. جال بالسيارة بطيئاً بمتعة غير واعية للذات، غير متأكد تماماً إلى أين يذهب حتى الآن وهو يشعر أن المنعطفات التي يتخذها مألوفة، الطريق المار ببيوت الناس الذين كان فيما مضى يزورهم أو يعرفهم. وعندئذ برز في الامتداد الذي لا اسم له للأرض المشاعية، حيث حظائر الباصات، والعنزات تبحث عن قشور المانغو المرمية، والنساء والأولاد يجلسون راضين تحت الأشجار.

هنا، في هذا الفضاء الذي ينتقل إليه الناس يوم الأحد، كان يدوي صوت طبل، صوت الطبل الذي سمعه في المدينة. ثمة حوانيت صغيرة تدوي فيها موسيقا الجاز، ذات شرفات مفتوحة يقف عليها الرجال أو يجلسون ويشربون. في الأرض المفتوحة أمام أحد الحوانيت يوجد ملجأ مسقوف بالقش بلا جدران نصبت تحته طبول متطاولة فوق جمر الفحم. عندما توقفت سيارة براي، كان ذلك وسط استراحة قصيرة؛ كان صبي صغير يستعمل منفاخاً مصنوعاً من جلد الماعز لإذكاء الجمر وإحماء الطبلات. كان طبل واحد فقط يحتفظ بدوي غير رنان مستمر بحيث أن الإيقاع يمكن أن يرتفع في أي نقطة، في أي وقت. النغمة الثانوية تضرب بصوت مكتوم، بلطف، عبر حلقة الثرثرة وموسيقا الجاز. جلس براي في السيارة وسط ذلك كله. الأطفال ينفصلون عن الجماعة ويتابعون ترنحهم نحو الفسحة، ليلحق بهم الأولاد الأكبر منهم ويمسكونهم، فيما الآخرون يبكون أو يرضعون. النساء يتحادثن باستغراق ويتطلعن حواليهن، منتبهات للأولاد، لكنهن يمتلكن النغمة الباسمة لنساء متفرجات على رجالهن. بعض الرجال يشربون، فيما الآخرون يقفون معاً مبتعدين عن مركز نشاطهم. امتطى شخص ما دراجته وانطلق بها. وصل شخص آخر. النغمة

Twitter: @alqareah

الثانوية للطبل تطابقها قرعة أعلى، طاغية عليها من طبل آخر. لم يكن الطبال، وهو يخفض أذنه، مقتنعاً بجودة الرنين وكان الطباق يتلاشى. كان الطبالون منهمكين في الاعتناء بالطبول ولم يتكلموا أو ينظروا إلى الشاربين أو أي شخص آخر. وجوههم وشعورهم مغطاة بالغبار. يأمرون الصبي حولهم، فكان مرفقاه المدببان القويان يتحركان داخلين خارجين فوق الكير، وعيناه الحمراوان تفتحان وتطبقان في الفحم. ولكن مع الطباق الموجز الذي تصاعد وتلاشى مرة أخرى، بدأ رجل متوسط العمر ذو قصاصات على سرواله يطأ في الفسحة وحده. انضم إليه رجل آخر، ثم آخر، ببطء، فاشتد مرة أخرى ما كان قد تراخى بين الشاربين والمتبطلين. أدخلت الطبول، ودخل الرجال. حدث خليط دائم الصعود من الحركة، مع أنه ثابت وهادىء. كانت الطبول وجرجرة الأقدام، والتوقف وقرع الطبول.. كان كل ذلك بكل طباق الصوت والحركة هو المحصلة لقرعة واحدة تناهت، لا كصوت ولا كحركة، بل كخفقة قلب واحد في جسد واحد. لم يكن ذلك بدافع العربدة أو الانتشاء، بل مجرد رقص عصر الأحد. رفع براي ساقيه الطويلتين خارج السيارة ووقف مسنداً ذراعه على صندوق السيارة الخلفي، بين المتفرجين. بدا أن الناس يعرفون من هو. فكانت ملاحظة يتبادلها فيما بينه وبينهم من حين لآخر؛ يطرح سؤالاً أو يدلي بملاحظة، كما يفعل المرء، بدافع التقرب. أكد رجل عجوز أن البارات جديدة تماماً. كان رجل شاب ينتظر العجوز لكي يكمل ثم كذّب كل ما قاله؛ هذا البار عمره ثلاث سنوات. والرقصة من طراز قديم يؤديه الناس القديمو الطراز. «لو كنت مكانك لرقصت»، قال براي. كان وقع الأقدام وقرع الطبول يتصاعدان عبر قدمي براي وأقدامهم كما لو كانوا جميعاً يقفون على ظهر سفينة فوق حجرة المحركات.

سيارة مرسيدس رسمية تتباهى بالشخصية الرسمية الجديدة الموجودة بداخلها، جذبت الاعتراف الإعجابي للرؤوس الملتفتة. توقفت فجأة وسط الناس. فوجىء براي باقتراب أحد الركاب ذوي الياقات البيضاء والطقوم السوداء، يثب خارجاً منها ويُهرَع بخطوات مديدة وقد أُفسح الطريق لأجله. «هل أنت بخير؟» قبل أن يتمكن براي من الإجابة، كان وجه المحافظ مندلقاً خارج النافذة الخلفية للسيارة، وهتف الصوت بالانكليزية: «هل تُهت، أيها الكولونيل؟ هل يمكننا أن نساعدك؟».

كان براي قد قابل المحافظ قبلئذ بأيام قليلة، مع سامبسون مالمبا.

ـ «لا، إنني أقطع الوقت فحسب». ثم فكر أنه من اللياقة أن يمضي إلى السيارة. «كلمات الشكر كلها سواء. هل أنت متأكد من أنك بخير؟».

Twitter: @alqareah

كان المحافظ رجلاً ضخماً، شعره مفروق في منتصف مركز وجهه الغالي الذي لا يُخطأ، يرتدي ثياباً أنيقة لأجل مناسبة رسمية، أو ربما كان ببساطة يستمتع برد الزيارات بسيارته الأنيقة، مصحوباً بأقارب أو أصدقاء يرتدون أفضل ما عندهم.

كان الصبية الصغار يتسابقون في أثر السيارة فيما كانت تتمايل برشاقة. والناس يبتسمون ابتسامات عريضة لبراي باعتباره شخصاً حقق لهم تميزاً. قال أحدهم: «هذه أكبر سيارة في غالا»، والرجل العجوز، الذي لاح مرة أخرى قال: «المحافظ، هل تعرفون من هو؟ المحافظ!»

قهقهت النساء لغبائه. «إنه يعرف، إنه يعرف». لم يكن لديهم حسد للمحافظ، بسيارته الرائعة التي تنم عن منصبه الأفضل، لم يكن سوى الفخر.

كانت الدنيا لا تزال مضيئة عندما عاد براي إلى البيت وجال حول الحديقة، ثم خرج منها عبر الأجمة، ربما استجابة لبعض المتبقيات الواهنة في الذاكرة من عادة تمتد من الحياة في ويلتشاير ـ كان وأوليڤيا يمرنان نفسيهما بشكل منتظم كما يمرن أهل المدينة كلابهم. كانت الخفافيش قد بدأت بالطيران فوق مضمار الغولف، وكانت دار النادي قبلئذ عبارة عن برتقالة منتفخة بالضوء المظلل بالمصابيح.

مساء الأحد: معظم أفراد الجالية البيضاء هناك، يشربون بعد الرياضة. سجل اسمه في لائحة العضوية، مرة أخرى؛ كان وجه السكرتير، عندما ملأ الاستمارة، صريحاً في محاولته إخفاء الدهشة. لكنها لم تكن إيماءة تبجح بالشجاعة، ناهيك عن كونها رغبة في حشر أنوف الريفيين في «انتصار» عودته. لطالما فعل أشياء أسيء فهم صراحتها، لم تكن حتى «يد الصداقة» هي التي يمدها ـ القبول ببساطة لكونه يعيش في غالا مرة أخرى، بين هؤلاء، وأنه لا يعتبرهم منبوذين أكثر مما يشاطرهم رأيهم، في أوقات أخرى، بأن الغاليين هم خارج إطار المجتمع. عندما جاءت أوليڤيا، ربما كانت تريد أن تستخدم مسبح النادي، بأي حال؛ فهو الوحيد في المقاطعة. كان على المرء أن يستفيد مما هو موجود. ثم، بالطبع، منذ عيد الاستقلال، قام النادي بالإيماءة المعتادة لمثل هذه المؤسسات المحتضرة؛ فالمحافظ أصبح عضواً فيه، بحكم منصبه، وكذلك فعل أليك، بوصفه عضواً في الحزب ـ ليس بمعنى أنه اعتقد أنهم قد وضعوا قدماً في المكان.

كان ثمة ثلاثون أو أربعون سيارة مصفوفة تحت الأشجار. وكان كلب ألزاسي ينبح خلف النوافذ المغلقة لإحدى هذه السيارات. الأولاد البيض، المثارون بفعل الغسق الآخذ بالظلمة، يزعقون وهم يركضون حول المرجات. كان البناء قابلاً

Twitter: @alqareah

للتكيف؛ فقد كان من الممكن أن يكون شيئاً ثميناً ونافعاً حقيقياً. عندما صعد براي الدرج وارتفعت الرؤوس هنا وهناك عند طاولات الشرفة خارج البار، كان يقول في نفسه إن البناء سيكون كافياً بشكل مثالي لأجل مركز تعليم البالغين. ففي الغرف الصغيرة يمكن للنقابات أن تعقد صفوفاً مسائية لأجل المتدربين على المهن، ويمكن لسامبسون مالمبا أن يجري دورات محو الأمية، وغرفة الطعام الكبرى يمكن أن تفيد كصالة لأجل العروض المسرحية التي تقوم بها الفرق المدرسية وهلم جرا.

حيّا قليلاً من الناس الذين يعرفهم. امرأة شقراء جميلة، تحمل طفلاً على وركها وتمسك واحداً بيدها، تقف صبورة عند طاولة مكتب الاستقبال في حين أن زوجها ورجلاً آخر، بالسترات الخاصة بالنادي، لم يستطيعا انتزاع نفسيهما من الانفعال الجياش للرفقة التي تتأتى من الفوز في ملعب أو في مضمار. قال براي لهما عفواً وهو يمر بهما، لكنهما لم يرياه ـ باستثناء الأطفال، الذين كانت عيونهم الزرقاء، الواسعة في لحظات ما قبل النوم، والذين لحقوا به إلى اللافتة الاسمية. كان اسمه في أعلاها، حسناً، ولكن لم يكن ثمة اسم ثان إلى جانبه. كانت تنطلق نوبات متقطعة من الغناء مثل حفلة مستمرة؛ تكرار افتتاح البارات على البيانو يجعله يتأكد من أنه لا بد أن يكون تمريناً متواصلاً: العرض المسرحي الذي ذكره جوساب.

بدأ في ذاك الأسبوع بمعالجة برنامج استنبطه لنفسه. فقد بينت المحادثات المطولة مع مالمبا أنه سيكون عديم الجدوى أن يصوغ تقريراً وتوصيات حول المدارس القائمة والأرقام المتوفرة لأجل الأطفال في سن الذهاب إلى المدرسة. فالمقاطعة ضخمة، إذ تساوي بلداً أوروبياً بكامله من حيث المساحة. آخر إحصاء عمره سبع سنوات، بالكاد يدّعي الدقة. لا يمكنك ببساطة أن تجزىء الخارطة إلى أقسام متساوية وتخصص عدداً معيناً من المدارس الجديدة لكل قسم، عدد كذا وكذا من المرافق التعليمية للمئة ميل مربع. أراد سامبسون مالمبا مدرسة ثانوية كبيرة جديدة في غالا نفسها، لكن المطلوب هو التنسيق المتأني للمرافق التعليمية على مدى المقاطعة بكاملها، من مستوى الابتدائي إلى التخرج بمستوى (O) الانكليزي على الأقل. مع احتياطي لأجل المبتدئين المتأخرين وغيرهم، الذين لا يتمتعون بإمكانية أو فرصة للتعليم الأكاديمي، لكي يحولوا إلى الكليات التقنية من النوع التمهيدي.

«كم ولداً في المدارس الابتدائية للمقاطعة يتوقع أن يكونوا في مستوى المدرسة الثانوية في، لنقل، خلال خمس سنوات؟ هل يوجد ما يكفي لملء الأماكن في مدرسة

Twitter: @alqareah

ثانوية جديدة؟ أكثر مما سيكون لدينا من الأماكن لأجلهم؟ هل العدد كبير جداً بحيث أنه سيكون من الأفضل أن نبني مدرسة ثانوية جديدة في مكان آخر؟».

لكن سامبسون ماليمبا لم يكن بمقدوره أن يجيب على ذلك؛

- «بالضبط، إن ذلك يتوقف على عدد المدارس الابتدائية التي نحتاجها والتي يمكننا الحصول عليها. وهذا بدوره لا يعتمد فقط على عدد الأولاد الذين كانوا في المدرسة، بل على عدد الذين يمكن أن يكونوا في المدرسة. وكم معلماً يمكننا أن نأمل في استدعائهم من الاحتياطي العام».

- «آه، تلك هي المشكلة». كان ماليمبا دائماً الأكثر سعادة بالموافقة، لكن براي قرر أنه إذا كان ذا فائدة على الإطلاق، فيجب عليه أن يدمج القبول التنازلي بالتقييدات مع بعض العناد. يجب عليه أن يفترض أنه سيتم التغلب على هذه التقييدات.

قرر القيام بجولة على الإقليم بكامله، ناحية إثر ناحية، وقرية إثر قرية، يزور فيها معلمي المدارس والوجهاء ويجمع الحقائق. كان ينوي أن يعمل إحصاءه الخاص به للأطفال في سن الذهاب إلى المدرسة والشباب، الذين كانوا قبلئذ واقعين تحت شكل من أشكال الاحتلال، الذين لا يزالون مطواعين بما يكفي للاستفادة من شيء ما أكثر من المعرفة السطحية بالقراءة والكتابة. لم يفهم كيف يستطيع البدء بما ينبغي أن ينجز تالياً حتى يتم إنجازه. بدأ بغالا نفسها والقرى التابعة لها، وكان يقصد أن يتحرك ضمن قَطر يزداد كبراً كل يوم، كل أسبوع، إلى أن يغطي المقاطعة بأكملها من البحيرة إلى سهول باشي. كان يعود إلى البيت كل ليلة حسبما تسمح به المسافة. عندئذ، عندما كانت الدوائر تحمله إلى مسافة أبعد عن المركز، كان يمضي كل ليلة في نقطة ملائمة لمجال استقصاء اليوم التالي. ذهب ماليمبا معه في جولة حول غالا نفسها؛ فكان الأمر كله مثل جولة تفتيشية مدرسية، مع التجميع الحتمي للأطفال، والمظاهر الرسمية القلقة للمدرسين. وفي نهاية الزيارة كان ينتابه إحساس بأن اللباقة قد بددت أي احتكاك حقيقي مع الوجوه المقهقهة المقوقئة للأطفال الذين يلتفتون مغمضي الأعين إلى شمس الاهتمام، والمعلمين أنصاف المتعلمين وذوي الرواتب البائسة، الثرثارين أو معقودي الألسن بسبب انعدام كفاءاتهم.

كان يأتي إلى البيت كل يوم من ذاك الأسبوع الأول مع الإحساس بموات ما يجري لأجل التعليم في هذه البيوت المدرسية العارية بملاعبها الترابية الحمراء، المدموغة بقسوة بأقدام الأطفال الحافية. كان الأولاد يمورون بالحياة والدسم البارد للتلقين من الدرجة الثالثة عن طريق الاستظهار التافه في عقولهم، يوماً بعد يوم.

Twitter: @alqareah

كتب في مفكرته: «إذا كان كل ما يمكن لحكومة مويتا أن تفعله هو تقديم قبس داكن من المعرفة التي جلبناها، فإنها ليست كثيرة الفائدة». لقد شعر أنه هو نفسه ليس مؤهلاً لإيجاد الحل الجذري المطلوب، ولا وزارة التعليم بمستشاريها، ذاك الدون الانكليزي القدير الذي كان مديراً لمدرسة عامة مشهورة قبل ثلاثين عاماً، وذاك الأميركي المعار من برنامج الدراسات الأفريقية لجامعة ميدويست. فقد كانوا جميعاً رجالاً تقوم بنية التعليم، بالنسبة لهم، على خلفيتهم وخبرتهم التعليمية. وحتى هو نفسه، الذي عاش في أفريقية طويلاً، كان يميل إلى التفكير بالحاجات وفقاً للأسلوب التعليمي المألوف له. وفشل في التفكير من منظور الولد الذي يرى أن ما يتم تعليمه في المدرسة يتمتع بالمصداقة لكونه جزءاً من نمط ثقافي عام في المنزل. فربما كان المطلوب شخصاً ذا معرفة بأحدث تقنيات التعليم الأساسية، شخصاً يمكنه أن يتجاوز الفرضيات القديمة التي تعتمد اعتماداً شديداً على خلفية ثقافية خاصة، وأن يركز على عملية التعلّم ذاتها. وهذه العملية يجب تحريرها لكي تشكل ارتباطها الخاص بها بثقافة ذات صلة.

«اكتب رسالة إلى صديق تصف فيها رحلة إلى الخارج مع عمتك / خالتك»: كان يفكر غالباً بمدير المدرسة ماتوكو.

للوصول إلى جماعات صيد الأسماك في المناطق البعيدة الواقعة في أعلى البحيرة، ترك سيارته في منشأة تبريد الأسماك على التلة الجنوبية وذهب بالقارب، متطفلاً، تقريباً، على القوارب البطيئة المصنوعة منزلياً والتابعة للصيادين المستقلين. كان البعض منهم تجاراً أكثر منهم صيادي أسماك، في الواقع؛ فقد كانوا يذهبون حيث توجد أسمال الكانبتا، ثم يبيعونها في أكياس وزنها ثمانون باونداً حيثما تكون مطلوبة على البحيرة. هذه القوارب تتجاهل الحدود، فترسو أينما وجدت قرية محتملة، الرجال على متنها يتكلمون السواحلية بالإضافة إلى لغة غالا ـ السواحلية تعود إلى مئات السنوات، من الساحل الشرقي. كانت اللغة المشتركة لسكان البحيرة، حتى بالرغم من أن أهل البر الداخلي، إلى الجنوب البعيد، لا يتكلمونها. إن قرى البحيرة، المقفلة وسط القارة، تمتلك شيئاً من الدنيوية الطبيعية لسكان المرفأ البحري، والإحساس بالاستقلال الفرداني لأولئك الذين يضيق مداهم، في الأفق المتلألىء المنحدر المتقهقر إلى الأبد أمام القارب. كانوا يضحكون وينكتون ويتحدثون بأسعار السمك من حول براي؛ فقد كانت لغته الغالية جيدة للغاية مرة أخرى، وها هو الآن يتكلمها كل يوم، بحيث صار بمقدوره أن يشارك في الحديث وحتى أن

Twitter: @alqareah

يلتقط المفردات السواحلية التي تسربت إليها، ساعة إثر ساعة وهو يجلس على مجثمه من أكياس الكانبتا المجفف يبادل نقوده من فئة الواحد كارل بتبغهم الغليوني، والقارب يغطس ويرتفع فوق الوهج الشاسع للبحيرة. استحال وجهه الانكليزي متقبضاً وأحمر اللون ثم، كما لو أن إفرازاً ما لصبغته، كف عن القيام بوظيفته في السنوات التي كان فيها بعيداً، بدأ جسمه بإنتاجه من جديد، فأصبح ذراعاه ويداه ووجهه مصقولة، وكان الوجه في مرآة الحلاقة وجه عائدٍ من عطلة. لم يكن من المهم كيف يثار الحديث، فالأصوات تتلاشى في البحيرة بكاملها، مثل قطعة نقود مرمية تبتلعها المياه. بالنسبة له كان المشهد ألق الماء والسماء، نوعاً من تفجر العنصرين في ومض لا نهاية له - جميلاً، ذا سطوة غريبة لحسية المكان، حسية شيءٍ ما لم يتوقع أبداً أن يراه مرة أخرى. هذا هو. ليس بمقدور المرء أن يتذكر شيئاً فيزيائياً على هذا النحو. لا يمكن إعادة القبض عليه عن طريق نشاط العقل؛ إذ ينبغي المرور به مجدداً. كانت نسور السمك تطلق صيحاتها؛ صوتاً قادماً من الجانب المظلم من الشمس. من حين لآخر كان الماء يبقبق بأذيال قطعان السمك المهتاجة، سمك الأبراميس الصخري الذي يتغذى على الكانبتا، والسمك النمري الذي يخطف الأبراميس الصخري، ونسور السمك والنوارس تحوّم، تنقض وتلتقط. بالنسبة لمرافقيه كان الماء ظرفاً - طقساً، حظاً (مع السمك)، مسافة إلى الهدف التالي. تعطّل دماغه، فهل أضاف هذا معنى آخر إلى نظرية علم الجمال التي تقول بأن الجمال هو نتاج تصادفي للوظيفة؟ قد يكون الجمال أيضاً طريقة أخرى لقراءة الظروف التي تحصل فيها الوظيفة - التي هي في هذه الحالة صيد السمك لأجل العيش. مد أحد الرجال إصبعاً إلى الجانب الأيمن من أنفه ومخّط الجهة اليسرى بنخرة حادة، في البحيرة. الماء، ذاك العنصر الشاحب الفاتن نفسه الذي كان السمك يتلألأ من خلاله، حمل المخطة التي سالت بشكل فعال، بعيداً.

على الشاطىء، كانت جماعات كاملة مكونة من عدة آلاف من البشر حيث الأولاد لا يذهبون إلى المدرسة، تماماً مثلما أن الرجال لا يدفعون الضرائب (هكذا شكى أليك عندما عاد براي إلى غالا).

- «فيما أنت تلوب، هناك، ربما بإمكانك أن تفكر بشيء يمكننا فعله بخصوص ذلك».

تكلم أليك بالمزاج الحالم لرجل مدوخ قليلاً بالمشاكل:

Twitter: @alqareah

ـ «الحكومة تقول لي ذلك. بعد عمال المناجم، هؤلاء الرجال هم أكبر الكسبة في البلاد، لكنهم لا يريدون أن يسمعوا بضريبة الدخل. كل ما يمكنك أن تحصّله منهم هو أنهم كانوا دائماً يدفعون ضريبة الأكواخ. فضريبة الدخل خلقت لكي يدفعها البيض. هل يجب عليهم أن يصبحوا بيضاً لأننا صار لنا حكومتنا الخاصة بنا؟».

«يا إلهي، يا رجل، أي صنف من الأشياء هو هذا الاستقلال!».

كان براي يضحك متعجباً وهو يفكر بصيادي الأسماك.

ـ «حسناً، إنهم يعملون لحساب أنفسهم، أميون، لكنهم دهاة إلى أقصى درجة. إنهم أداة لأجل الإدارة لكي تعجنهم».

ـ «أقصد، كيف يمكنك أن تخمن مكاسبهم؟ إنها ليست مسألة مسك مجموعتين من الدفاتر. إنه كله هنا».

لكز أليك صدغه بإصبعه: «ما الذي يستطيع مدقق الحسابات أن يحصل عليه من ذلك؟ ينظمهم في تعاونيات».

قال براي، وهو لا يزال متهكماً.

ـ «حسناً، هناك شركة الترولات الكبيرة».

ـ «نعم، إنها شركة أجنبية، الرجال الذين يعملون على الترولات هم مجرد مستخدمين، أقصد الناس الذين يصطادون السمك ويتاجرون لأنفسهم. أوه، سيأتي ذلك، أعتقد».

ـ «أولئك الناس؟ لا يريدون أن يسمعوا منا ما هو لصالحهم!».

ـ «لا بأس، يا أليك، الرئيس يفضل المشروع الحر».

ابتسما؛ تلك كانت الطريقة التي يعطي بها مويتا تطميناً خالياً من التعابير لشركات التنقيب، دون أن يقدم إهانة مباشرة لأعضاء الحكومة الذين يخشون الاستعمار الاقتصادي.

ـ «هل جلبت سمكاً؟» سأل أليك، وهو يرفش الأوراق إلى داخل الأدراج؛ دخل براي عندما كان ذاهباً إلى البيت لتناول الغداء.

ـ «لم أفكر في ذلك! لم يخطر ذلك ببالي! لكنني سأتذكر في المرة القادمة. ماذا تحب زوجتك؟ لقد رأيت سمكة فرخ رائعة».

ـ «أوه، إنها من المدينة، لا تلمس شيئاً من البحيرة. لكنني لن أجعل الأولاد كذلك. لقد أخبرتها أن عليها أن تأكل الطعام الذي يكون متوفراً، هناك، حيث يعيشون. لذلك تقول لي ما عيب اللحم الذي نشتريه من السوبر ماركت؟».

Twitter: @alqareah

- «في المرة القادمة سأجلب لك سمكة فرخ».
- «نعم، يخنة السمك ظريفة مع الفلفل، أنا أحبها».

استل مبرد الأظافر وصار يكشط النقطة السوداء تحت الأظافر الشاحبة ليديه السوداوين كما لو كان يقشر ثمرة: «أنا مليء بالفحم، كان عليّ أن أقوم بأعمال الطباعة على الستانسيل، حتى. في الواقع لا ينبغي أن أذهب إلى البيت للأكل، اليوم، العمل فوق رأسي، يا رجل. بالشرف، أشعر برغبة في قيادة السيارة طوال الطريق واختطاف سكرتيرة لائقة من الوزارة». وترك المكاتب برفقة براي، وهو يدمدم باسترخاء؛ هبط أحد أبنائه الصغار على دراجة ثلاثية العجلات لملاقاته وكان ينتظره في الخارج، يرضع إصبع قدم انبثقت منها قطرة براقة من الدم. بينما كانوا يفحصون الجرح تدحرجت القطرة عن القدم الصغيرة المغبرة مثل حبة زئبق. كان الصبي قد اصطدم بالسياج الصندوقي الواطيء من شوك المسيح الذي يسيج بشكل متقن مدخل البوما. كل فنادق البوما في المنطقة لها سياجات من شوك المسيح، تماماً مثلما أن فيها كرسي موريس لكل مكتب وطقماً موحداً من المحابر.

- «انظر إلى هذا» قال أليك بلغة الغالا، «إنه يمتد عميقاً، ما هذا النبات!».

قال براي: «لماذا لا نقتلعه، نتخلص منه».

بدا أليك غير متقين للحظة، كما لو أنه لا يستطيع أن يتذكر لماذا كان ذلك غير ممكن. ثم عاد إلى نفسه وقال بالانكليزية:

- «إنك على حق تماماً. أريد هذا المكان خالياً من النباتات».

قال براي: «يمكنك أن تزرع نبات الثلج».

لكن أليك أخذ الدراجة الثلاثية العجلات وهو يمسك بالمقود بيد ويحمل الطفل تحت إبطه بالأخرى، ويستحثه طوال الطريق، فيما كان يثب بشكل مبالغ فيه «أو! أو!»

ما عليك سوى أن تغادر مكاناً لمرة واحدة وتعود إليه لكي يصبح وطناً. في المنزل جاء براي عبر المطبخ وطلب من ماهلوبي أن يجلب أغراضه من السيارة. كان عند ماهلوبي صديق جالس هناك سرعان ما نهض واقفاً. رد براي التحية ثم أصبح فجأة مدركاً للتوتر الاستثنائي الحاصل وراءه. فقد سبّب مروره تحسساً، إذ قام بحركة تفتيش لا إرادية، كما لو كان ثمة شيء صاعق قد وخزه على ظهره. كان الوجه يحملق فيه، متوقعاً بشكل أعمى، مجفلاً من هبوط مفاجيء. الهبوط المفاجيء كان معلقاً بشعرة. ثم نحي جانباً.

Twitter: @alqareah

- «كاليمو!» بدأ الرجل بالضحك واللهاث، فقد أسعفه اسمه.

كان الوجه من حياة أخرى. طباخ براي من العهد القديم، في دار مفوض المقاطعة. استمرت التحيات لعدة دقائق، ثم كان كاليمو في انتهاز كامل للمناسبة. قال بالانكليزية:

- «أنا هنا اليوم، جئت البارحة، باق لثلاثة أيام. لا، الصبي يقول موكا وايي يذهب الثلاثاء، ليعود الخميس، أنا مستعدٌّ».

أعادت عينا براي تتبّعَ خيوطَ مئزر كاليمو المعقود مرتينِ تحت ذراعيه إلى متاهة الشيء المألوف في الماضي، بالطريقة التي كان يتأثر بها دائماً.

- «كيف وجدتني؟»

«فستوس هو الذي أرسلني. أرسلني وهو يقول، الكولونيل عائد، لمدة شهر، شهرين، اذهب، إذاً، إلى غالا. ودّعت زوجتي، ودّعت أبنائي. قالوا لي إلى أين أنت ذاهب؟ لا، أنا ذاهب إلى غالا. الكولونيل عائد. لا، أنا ذاهب، يجب أن أذهب».

بدءا يتكلمان بلغة الغالا التي لم تكن اللغة الأم لكاليمو، نظراً لأنه ينحدر من الجنوب حيث بدأ العمل أولاً لصالح آل براي منذ سنوات عديدة. لكنه، مثل براي، تعلمها عندما انتقل مع آل براي إلى غالا. تبادلا الأخبار العائلية؛ أحضر براي صورة طفل فينيشا. كانت الإثارة المبهجة للم الشمل تحوم فوق غدائه المتوحد مع كاليمو الذي يدخل الطعام والذي تم استبقاؤه لكي يتحدث.

لكنه، في وقت متأخر بعد الظهر، عندما جلس لمدة ساعة أو ساعتين يدون ملاحظاته حول جماعات البحيرة، وصل إلى مشكلة ماهلوبي، ما الذي يجب عمله بشأن ماهلوبي؟ كان كاليمو قد تسلّم التدبير المنزلي بوصفه حقاً له. شعر براي بالخوف القديم من جرح شخص وضعته الظروف تحت سلطته. لم يكن من الوارد أن يبعد كاليمو. فهو ينتمي إلى كاليمو؛ لقد قطع كاليمو أكثر من ألف ميل، بدافع التقاعد؛ ليطالب به. أرعبته الفكرة: فكرة أن يطبخ وينظف لأجله كما لو أن له حق المطالبة النهائي بحياة كاليمو.

ذهب إلى المطبخ حيث كاليمو الذي يسمعه وقد بدأ يتجول في البيت، كان يصنع الشاي. لقد شاهد براي ماهلوبي من خلال نافذة غرفة المعيشة. مد يده إلى العشب؛ حرفياً: كان ينوس عنده بمنجل مشحوذ منزلياً مصنوع من قطعة سياج حديدي.

Twitter: @alqareah

قال له بلغة الغالا: «كاليمو، هل تحدثت إلى ماهلوبي حول الوظيفة؟»،
- «موكاوايي؟»
- «لقد عينت ماهلوبي لكي يعتني بالبيت، ها أنت ترى».
أصدر كاليمو الهمهمة العميقة التي تُسوى بها الأمور. لقد تقدم في السن، وهو يصدر هذه الأصوات، مثل رجل عجوز تحت الشمس.
- «ماهلوبي سيكون مختصاً بالحديقة وتنظيف السيارة. أنا طباخك. وعليه هو أن يقوم بأعمال الغسيل. دائماً كان لدينا صبي صغير لأجل العمل خارج المنزل».
- «نعم، لكنني لم أعد مفوض المقاطعة، يجب أن تتذكر ذلك. وأنا هنا بصفتي الشخصية. هذا ليس بيتاً كبيراً، ليس فيه عائلة كاملة. لا أحتاج إلى أكثر من شخص واحد للعناية بي».
رفع كاليمو إبريق الشاي الحاوي على الماء الغالي. وضع الشاي فيه حسب المقدار المناسب، سكب الماء، وأعاد وضع الغطاء، وهو يفتله بحذر، بحيث يكون الغطاء الواقي في مكانه الصحيح.
- «شخص واحد للطهو والغسيل وكل شيء - فقط لأجلي».
- «هل يريد موكاوايي كعكاً مع الشاي، أم بسكويتاً؟».
بالطبع طبخ كاليمو الكعك، ورتب شؤون المنزل بشكل صحيح، على خلفية عودته. وجعل براي يشعر بغطرسة تعليم رجل الشغل الخاص به، بقدر ما يتطلب ذلك من تبسيط للموضوع.
حمل كاليمو الصينية إلى داخل غرفة المعيشة. عندما وضعها قال:
- «كنت دائماً أعتني بك. الطبخ، الغسيل، الخارج. كله سيان بالنسبة لي».
قال براي: «ألست متعباً؟».
جلس إلى طاولته. نظر كاليمو إليه وابتسم:
- «وأنت؟ ألست متعباً».
- «حسناً. سأشرح لماهلوبي. سنحتفظ به إلى أن نجد له عملاً آخر. يمكنك الاستفادة منه. في الحديقة، أي شيء يخطر ببالك».
بعد العشاء، كتب إلى أوليفيا: «حسناً، لن تراودك أي شكوك حول كيفية الاعتناء بي من الآن فصاعداً؛ فقد عاد كاليمو. سمع من خلال الإشاعات - استغرق شهراً للوصول إلى هنا، بالحافلة وسيراً على القدمين. إنني مُحْرَج لكنني أعتقد أنني محظوظ. الأيام الجيدة القديمة تعود».

Twitter: @alqareah

شينزا، إدوارد شينزا. حتى ظهور كاليمو يذكره به. ينبغي عليه أن يذهب ويراه؛ من السهل أن يتظاهر لنفسه أنه غالباً ما يفكر في ذلك؛ في الحقيقة، لم يفعل ذلك. إن العمل الذي يقوم به، دون أن يشوشه الإلهاء أو المقاطعة، قد ملأ عقله. في العاصمة يكون العمل مضغوطاً لساعات قليلة كل يوم؛ تنافسه الحاجات الملحة الأخرى ورفقة الأصدقاء. أما الآن، رغم أنه غالباً ما كان مدركاً لكونه وحيداً ـ وحده ليلاً، مع نحلة عيد الميلاد تئز عند المصباح، والأثاث العاري يتخذ المظهر المؤرق لغرفة الانتظار في محيط شخص معتزل. وحده في الحديقة، يقرأ الرسائل والصحف على طاولته تحت شجرة التين. المقابلات، الأعمال الورقية، كانت هماً يمتد ليستهلك النهارات والأمسيات الطويلة. كتب داندو مرة أخرى وسأل، من ضمن أشياء أخرى، ما إذا كان قد رأى شينزا ـ كانت كتابة داندو صعبة القراءة وتغطي بشكل ملزوز للغاية صفحات مزدوجة من الورق الرقيق، بحيث أن رسائله كانت من النوع الذي يضعه المرء جانباً ليقرأه بتركيز أكبر في وقت آخر. لو كان رولي لفقد الوعي بزجاجة يسكر بها من سخرية شينزا. لكان جعل نفسه موضع ترحيب. مع رجل في جنازته هو، لو كانت تلك فرصة مناسبة لأجل الصداقة والتضامن. كلما رأى براي نفسه يدخل إلى شلة شينزا مرة أخرى، شعر فجأة أن ليس ثمة شيء يقال: لقد أعاده مويتا، فهو الآن يعمل لصالح مويتا. كان من الأفضل أن يتم التركيز على مسائل عملية، مثل إمكانية إنعاش حرفة النجارة القديمة وورشة صناعة الأحذية في المدينة وتوسيعها لتصبح نوعاً من مدرسة مهنية متوسطة. ناقش ذلك مع ماليمبا. كانت وزارة التعليم قد ألغت هذه الورشات الريفية انطلاقاً من مبدأ أن كل فرد سوف يحصل على التعليم المناسب الآن، فالرجل الأسود لم يعد يُدرَّب بشكل كفؤ للقيام بأعمال الرجل الأبيض الغريبة عليه.

ـ «ولكن ماذا عن الميكانيكيين والسباكين إذا كنتم سترفعون مستوى المعيشة؟ ومع ذلك ستكونون بحاجة إلى نجاري واسكافيي القرية لزمن طويل في مجتمعات كهذه، حيث لم ينجز الناس، بعد، التحول الكامل إلى الاقتصاد النقدي وشراء حاجياتهم من الحوانيت. إذا استطعنا تدريب الناس على مهن من شأنها أن تؤمن لهم لقمة العيش، فسيكون لدينا بديل عن النزوح إلى المدن. إنها فكرة أفضل من معسكرات العمل، إيه؟»

فهم براي أن ماليمبا سيكون مسروراً بسماع الاقتراح يصدر عنه؛ ماليمبا نفسه يعتقد أنه من غير الواقعي أن تغلق الورشات الريفية الحكومية؛ لكنه لم يكن يرغب

Twitter: @alqareah

في أن يسود الاعتقاد في الدوائر التعليمية بالعاصمة، أنه اقليمي رجعي عندما يصل الأمر إلى المطالبة بالتعليم العالي للشعب. لم يكن ماليمبا متملقاً ذليلاً لكنه يحتاج إلى قليل من صلابة الثقة؛ كانت تلك واحدة من القناعات الصغيرة التي صمم براي أن يجدها جديرة بالاحترام في حين أن ماليمبا، ليرى ذلك من خلال عملهما معاً، بدأ يكتسبها.

مع ذلك قال لأليك: «كنت أود أن أقوم بزيارة قصيرة إلى إدوارد شينزا في يوم من الأيام».

كان في بيت أليكي - بيته القديم - في عصر يوم سبت. لم يكن ثمة تبادل للدعوات إلى مشروبات ووجبات الغداء بين المسؤولين كما كان الأمر عندما كانت فئة المسؤولين بيضاء، لكن أليك قال:

- «لماذا لا تأتون إلى محلي؟» وكان يعني بوضوح شديد الدعوة المفتوحة التي فهمها براي من غير قصد وبشكل صادق خال من التكلف.

كان المذياع، كما هو الحال دائماً، يصدح بصوت عال على الشرفة. كان بعض الأطفال السبعة يدفعون دمى السيارات عبر مسارات محفورة في أرض الأحواض حيث كانت أوليفيا ذات مرة قد زرعت أشجار برتقال متقزمة.

قال أليك، بكسل، وإن يكن ليس بلا اهتمام كلياً:

«الطريق سيء جداً في ذاك الاتجاه، يقولون لي».

تأكد براي من أنه قد أثار الموضوع لأنه، بالرغم من أنه لن يذهب ويرى شينزا علناً، سيخبر مويتا بذلك بنفسه، إذ أن مويتا في الحقيقة يتوقع منه أن يقصد شينزا. كان لديه بعض الممانعة الحذرة لجعل أليك يشي بأنه قد زار شينزا. ينبغي أن يكون ثابتاً أنها ليست مسألة اهتمام بأي شخص سوى نفسه.

أحضرت السيدة أليك الشاي فأرسلت لجلب البيرة بدلاً منها. حاولت إخلاء الشرفة من الأولاد، لكن أليك كان واحداً من الرجال ذوي العضلات النامية والأجسام الممتلئة الذين تجعلهم ثقتهم بأنفسهم رخوين ظاهرياً، فيمارس جاذبية ملموسة على النساء والأولاد. كان أبناؤه وبناته الصغار يركضون عائدين ليستندوا على فخذيه المدورين الرائعين. كان يتكلم عن زوجته كما لو كانت غير موجودة.

- «إنها امرأة لا تقدر على جعل الأولاد يصغون. الشيء نفسه مع الصيصان. إنها تطاردهم في اتجاه فيذهبون في الاتجاه الآخر»

- «إنهم شريرون». نظرت بعجز واستياء إلى الأولاد.

Twitter: @alqareah

- «لقد اعتدنا أن نسمع صوت أمي».

لاطف الأولاد، فقد كان ذلك سهلاً عليه. عندما اكتفى منهم نترهم عنه مثل الأشواك العالقة.

قالت لبراي: «وهل ستأتي زوجتك إلى هنا؟ هذا المكان ميت. لا شيء في الحوانيت. أتمنى لو أستطيع الرحيل إلى المدينة، بالشرف».

لكنها كانت مشدودة، مثل الأولاد، إلى زوجها مع أنها لم تلمسه تماماً. طردهم جميعاً، بالسهولة نفسها تماماً، بإيماءة آمرة.

شعر براي بشيء من الضغينة في نفسه لأنه أسس معرفته بأليك للحظة على قاعدة الاحتراس. لماذا يتعين على أليك حتى أن يفكر به بلغة المناورة السياسية؟ فإخبار مويتا بما يفكر به هو شيء، وأي شيء يمكن أن يفسر بوصفه عملاً سياسياً هو شيء آخر، شيء صمم عليه في الخارج منذ بداية عودته. هذه اللامبالاة تأكدت فقط عن طريق الحق في البحث عن صديق قديم، أياً يكن هذا الصديق.

كان للقلق أثر في جعل خططه تبدو أنها تأخذ في الحسبان سهول الباشي، منطقة شينزا - فالعيش منفرداً أصبح احتراماً زائداً للذات. خرج ذات صباح، قاصداً الذهاب عبر الجبال حيث مناجم خامات الحديد في الطريق، وقضاء أسبوع بطوله. تذكر أن شينزا يحب سيكار الشيروت، فعرّج على البوما حالما غادر غالا، وكان ثمة علبة صغيرة في طاولة المكتب التي خصصها له أليك. انفتح باب المكتب على شخص على وشك أن يفتحه من الجهة الأخرى - امرأة شابة بيضاء تقف ويداها، كفاها مفتوحان، وقد سُحبا إلى مستوى نهديها. ابتسم بتهذيب. عندئذ فهم أنها تعرفه؛ كانت ريبيكا اداوردز، من بيت ڤيڤيان في العاصمة. وبينما كان يفتش عن السيكارات شرحت له أنها جاءت تعمل لصالح أليك: «قال رولي أنه كتب إليك، لذلك أخبرت ڤيڤيان، لا تتضايق».

بالطبع، كان ثمة شيء في رسالة داندو - اسم غير مقروء.

- «هل يوجد شيء يمكنني أن أفعله لأجلك؟».

- «أوه، لا، أنت تعرف كيف هم هناك. الشبكة بكاملها يجب أن تكون مستنفرة في كل مرة ينتقل فيها شخص ما».

ترك لأليك رسالة وداع معها: «لابد أن ينتصر. كان دائماً يهدد باقتحام الوزارة واختطاف سكرتيرة».

«جئتُ بهدوء» قالت الفتاة، بابتسامتها الغلامية الطيبة.

Twitter: @alqareah

كانت السماء قد أمطرت ليلاً وكان عشب الفيلة متلبداً بالندى اللماع. استطاع أن يسمع إطاراته تقطع الخطوة الأولى من النهار إلى داخل الرمل الملزوز المبلل على الطريق؛ حاسة شمه الكليلة استعادت نشاطها، لشيء من الأنف الحساس للحيوان. الخيزران، الصخور، الأشنيات ـ كانت تنتصب طرية مثل لوحة صخرية مغطسة بالماء. على بعد عشرة أميال أو أكثر من غالا أركب معه شاباً كان يمشي مجهداً على الطريق ومعه حقيبة سفر مصنوعة من الورق المقوى. كان هناك أناس آخرون على الطريق، نساء يحملن صرراً وقدوراً، قرويون حفاة يتنقلون جيئة وذهاباً في الغابة والعشب في المساء العادي لحياتهم اليومية، مثلما يجوب الموظفون والمتسوقون شوارع المدينة، لكن هذا الرجل الذي يرتدي أكمام قميص مع الحذاء الجديد الملطخ بالوحل كان «لوهلة» خارج هذا النشاط. توقف براي أمامه مباشرة، دخل إلى السيارة، دون أن ينبس بكلمة واحدة.

ـ «أنا ذاهب إلى المنجم في ذاك الاتجاه. كم يمتد مشوارك؟».

ـ «سيكون ذلك ممتازاً».

كان وجوده في السيارة قد بدّل مزاج الصباح؛ تراجعت متعته الحسية. كان نور الشمس يتفرغ على الجسم المشحون بشدة: تنفس الرجل بهدوء، كانت شفتاه تنطبقان بصوت خفيض من حين لآخر على شيء لم يكن قد قاله بصوت مرتفع، ورأى براي، من زاوية عينه، أهداباً معقوصة تطرف ببطء، وخطاً من المرض أو الإجهاد يسم الخد الخشن. كان سرواله نظيفاً جداً وكانت له الخطوط المقعرة والمحدبة الناجمة عن كونه ملفوفاً لفات صغيرة في حقيبة سفر. في الحال استل القلم ذا الرأس الكروي من جيب قميصه وصار يطقطق الرأس داخل وخارج اليد السوداء الكامدة، الجميلة.

لم يعرف براي ما إذا كان الشاب مشلولاً فحسب بفعل الاقتراب الاجتماعي من رجل أبيض ـ هكذا كانت التبعات القديمة، الامتعاضات غير المعبّر عنها، السحر الذي تضبط به حتى أبسط المواجهات لردح طويل من الزمن، ويتم إسكاتها ـ أو ما إذا لم يكن يريد أن يتكلم إليه أحد أو أن يتكلم إلى أحد. مع ذلك كان حضوره ثقيل الوطأة بشكل استثنائي. جرب براي الكلام بلغة الغالا، قال الشاب، بدون استجابة:

Twitter: @alqareah

«إنني عائد إلى الوطن». فقد مضى عليه في المدينة «شهران وسبعة أيام». لم يكن براي يريد استفساراً، أخذ الرجل سيجارة وأطلق العنان للسيارة وبؤرة الطريق العابرة تضمهما بشكل حالم.

كان منجم فلزات الحديد جرحاً بليغاً أحمر مائلاً إلى الأرجواني في التلال السفحية أمام الممر الجبلي. ثمة جبل على هيئة قلعة رملية من اللون نفسه قد كُوِّم إلى جانبه، مجرداً من الغطاء الأخضر من الأدغال والأعشاب التي تغطي هذه الأرض الملطخة بالدم على التلال. كان الطريق الجديد يؤدي إليه. وعلى منحدر قريب، توجد مستوطنة منظمة، وثمة أشكال صغيرة قابعة هنا وهناك، تتحرك بخفة. مع اقتراب السيارة أصبحت الأشكال العفريتية لعمال المنجم في كل مكان، وجوهاً مخططة بالوسخ الشنيع تحت الخوذات، الجزمات المطاطية المثقلة بالطين ـ المنظر القاتم للرجال الذين يعودون يومياً من القبر.

ـ «سأعرّج على شخص يمتلك محلاً على بعد ثلاثة أميال من هنا...؟».

ـ «نعم يا سيدي».

فكر براي في أن ينزل إلى المنجم، هذا ما كان مفهوماً لكنه ليس مهماً:

ـ «قل لي فقط عندما نقترب من قريتك».

لوح الشاب بيده بتثاقل موحياً بالمسافة اللانهائية، أو باللامبالاة. ركبا السيارة إلى مزرعة الماشية التي كانت نائية منذ خمسة عشر عاماً، عندما استوطن جورج بوكسر هناك. أما الآن فيوجد منجم وأسلاك هاتف، فوق التلة. كان بوكسر لا يزال هناك، يرتدي طماقات الجلد الملمّع بشكل نظيف، وتلازمه ثلاثة كلاب صيد أفغانية ضامرة وشرسة ذات خصل من الشعر الملبّد. كان بوكسر واحداً من أولئك الرجال الذين تتحقق صلتهم الوحيدة بالعالم من خلال الصراع مع الطبيعة. لم تكن شؤون البشر تشغل باله. إن البشر أنفسهم، بيضاً كانوا أم سوداً، لا يمتلكون حقيقة بالنسبة له إلا بقدر ما ينخرطون معه في هذا الصراع. لم يكن العامل الحاسم هو ما إذا كان الرجل الذي يبحث معه عن عِجلة ضائعة أو يعمل معه لإصلاح السياج رجلاً أبيض أم أسود: ، لم يكن العامل الحاسم هو ما إذا كان أبيض أم أسود: الوضع النهائي هو وضع رجلين، هو وآخر، يخوضان صراعاً مع العفن الجاف في موقع السياج، أو مع الفهد النهاب الذي يطارد العجلة أيضاً. لم ينضم إلى الاحتجاج الصاخب للمستوطنين ضد براي منذ عشر سنوات لنفس السبب الذي لأجله لم يشارك في خروج المستوطنين مع مجيء الاستقلال: لم يكن السبب هو أنه لا يملك أية مشاعر نحو اللون، بل لأنه لم تكن

Twitter: @alqareah

لديه أية صلة حميمة مع الكائنات البشرية من أي لون. إن الظروف ـ ظروف براي، عندئذ ـ جعلت بوكسر يبدو بمثابة صديق، ببساطة لأنه كان لا مبالياً بكونه عدواً، لكن براي عرف دائماً أن هذا المظهر لا يملك من المعنى بطريقته بأكثر مما يملكه المظهر الآخر، المظهر الجسدي لبوكسر، فقد كان يرتدي الملابس، يحافظ على الأخلاق والتقاليد البيتية لخلفيته المدرسية الحكومية، ليس كما لو أنها هي التمظهرات لمكانة ما في مجتمع عالي التطور، بل كما لو أنها العلامات والعادات والوجار التي ولد معها، غير واعٍ لها (مثل أي أرنب بري أو ابن آوى).

توجه براي من البيت إلى أحد مجمعات الماشية للعثور على بوكسر. وبينما كانا يتحدثان، وهو ينظر إلى ثوري بوكسر الجميلين الذين استولدهما بنفسه، نسي براي راكبه في السيارة. بدأ بوكسر باصطحاب براي صعوداً إلى البيت مروراً بالسيارة:

ـ «إنني أُقلّ شخصاً في سيارتي».

حدق بوكسر إلى الراكب. توقف قليلاً. قال:

ـ «سأرسل له شيئاً. سنتناول الغداء، بالطبع».

لكن براي ألح على أن الشاي أو المشروب هو كل ما يمكنه البقاء لأجله. دخلا إلى غرفة المعيشة التي فيها مكتبة، والتي كان بوكسر قد فرشها بخشب الماهوغاني المحلي. كانت مثل مكتب مدير مدرسة، مع أن الكتب الموجودة فيها هي مراجع زراعية. على صينية الشاي نقش فضي، والأثاث الانكليزي الموروث مرتب كما يتذكر براي الغرفة الآن. تحدثا حول المنجم.

ـ «هل توجد أي فرصة للعثور على لقية في عقارك؟ أعتقد أنك قمت بأعمال التنقيب».

أخرج بوكسر صفيحة البيرة من كبينة مملوءة بالمصافق الملونة.

ـ «لا داعي للقلق. لا يوجد شيء. لقد مسحتْ الشركة إنشاً إنشاً. خططته كله دفعة واحدة. كان يوجد عِرق هنا، كم سيدفع لي للإخلاء؛ العشرين ألف أكرة التي كانت عيني عليها لأشتريها في سهول باشي. لقد أرقني ذلك عدة ليالٍ، إنني أصحو، بأي حال».

كانت الكتب حول تربية الماشية قد حلت محل قصة موت آرثر والإلياذة ومذكرات تشرشل فأزاحتها إلى الرفوف العلوية، لكن كان ثمة روايات نادي الكتاب ورباعية الاسكندرية في غلاف ورقي في المتناول، بين مجلات الزراعة وبعض أكياس البذور وقوقعة حلزون عملاقة تقبع بين خرطوشات بارودة الصيد على الصينية.

Twitter: @alqareah

تذكر براي زوجة جورج بوكسر، امرأة سوداء الشعر ذات عينين خضراوين، كانت مليحة تبتسم مكشرة عن أسنان صغيرة مبقعة مكسورة. رزقا بولد، انتسب إلى كلية ساندهرست: قال بوكسر كما لو أنه يذكّر بشيء لم يكن قد فكّر فيه مؤخراً.

سأل براي: «لماذا الباشي؟ لم يخطر ببالي أن يكون مكاناً للماشية».

- «لا، لا؛ تلك هي النقطة. ثمة الكثير من الهراء حول الارتفاع المنخفض وما شابه ذلك. لقد انخرطت في الشغل كله لمدة عشر سنوات؛ جمعت عينات المراعي، سجلت إمدادات المياه، جمعت كل نوع القراد الموجود في كل أنحاء البلاد. وبإمكانك أن تأخذ كلمتي: لا توجد أمراض ينقلها القراد هنا بأقل مما يوجد في السهول؛ إنها تقريباً نفس المشكلة، والمرعى الطبيعي أفضل بشكل لا محدود. فإذا سار مخطط حفظ الماء - مخطط تحويل مياه الفيضانات، أقصد - أعتقد أنه لن يكون على المرء أن يسد النقص في الغذاء إطلاقاً، ولا حتى في آب - تشرين الثاني، قبل موسم الأمطار. بإمكانك أن تبقي مرعاك شغالاً على مدار السنة. ولن تكون لديك أي مشكلة فيما يتعلق بإرواء ماشيتك. أنت ترى، في الوقت الحاضر، عندما تنحسر الفيضانات، ينصرف كل شيء سريعاً إلى الجنوب».

- «لكنني رأيت مياهاً جوفية هناك تماماً أثناء فصل الجفاف».

- «لا، لا، ليس كذلك. ليس ماءً نظيفاً. حساء مستنقعات، هذا هو كل شيء. لا يمكنك قضاء الشتاء عليه. هذا هو السبب في أنك تقوم بالهجرة الكبيرة للماشية كل عام، وهذه هي الكيفية التي انتشرت بها الحمى القلاعية، في كل مرة حدث فيها تفشي المرض. إنهم يلتقطونه على الحدود الأنغولية ويعيدون نقله إلى السهول في تشرين الثاني».

كان يشرب البيرة والشاي بدون تمييز فيما هو يتحدث. كان عطشه هو تجفاف الإعياء، فقد أمضى الليل كله مع رعاته والكلاب يطاردون ضبعاً قتل ثلاثة عجول في الشهر المنصرم. فحاصرته الكلاب الرشيقة وقتلته؛ لم يحتج حتى إلى طلقة قاضية. كانت الكلاب مستلقية تلهث حوله، ورموشها النجمية الشفافة متدلية فوق عينين لا تريان، منهكة بشكل عصبي للغاية بحيث لا يمكنها أن تنام وعيونها مغمضة. لكن بوكسر ألهب خياله باقتناص الفرصة، ليس للتواصل، بل لكي يشرح بصوت عال، ويكرر التكتيكات والنجاحات والانتكاسات التي جعلته يقضي عاماً داخل الأجمة الهادئة وعاماً خارجها حيث يستطيعون رؤية ماشيته، من خلال النوافذ، وهي ترعى على انفراد، أو تتعثر أو تساق بعيداً، تتدفق في فيضان بني

Twitter: @alqareah

متراص عبر الأشجار النحيلة. أخذ براي إلى غرفة حمام توجد فيها زجاجات اسبيرين في خزانة، وعيّنات عليها لصاقات مكتوبة من كل أنواع القراد الذي يصادف في الريف.

- «هذا كل ما تمكنت من تحديد هويته، حتى الآن».

لقد قام بحفظها بكل التواضع الموضوعي للاستقصاء العلمي. كان الكثير من القراد حياً، يعيش في حالة السبات لمدة أشهر بلا غذاء أو هواء. في الحمام غير المستعمل كانت تتلوى حشرات السمكة الفضية (العث)، ففتح بوكسر حنفية قاسية، تصدر صوت صرير، لكي يشطف الحشرات. ثمة رسوم منقولة متقشرة لحوريات بحر وأحصنة بحر على الجدران القرمزية لهذا المخبر.

لم يبدِ بوكسر أي اهتمام أو فضول إزاء عودة براي إلى البلد أو نشاطاته هناك في الوقت الحالي. لكن براي سرعان ما فهم أنه يمكن الاستفادة من شيء ما من معرفة جورج بوكسر، لو استطاع أن يجد الطريقة الصحيحة للاقتراب منه. لا يوجد ما يوحي إليه بعرض خدماته على لجنة التخطيط الزراعي لمويتا، فالاحتكاك الإنساني على أي مستوى مجرد قد اختزل لديه إلى عبوس بارد.

«لو تأتي إلى غالا في وقت ما - أقصد إذا جئت بأي حال - ربما ستتحدث إلى الناس الذين يقومون بدورة التربية الحيوانية التي نأمل في إطلاقها. نريد أن نشغل مدارس المهن القديمة مرة أخرى على قاعدة جديدة - مدرسة حرف متواضعة، بالطبع، مع تقنيات الزراعة التطبيقية المتصلة بأي شيء آخر يكون مفيداً. لا أفهم لماذا يتعين ترك ذلك لكليات الزراعة، حتى لو كان لدينا واحدة. قد ينسجم ذلك مع خطك الخاص في الاستقصاء، فالشباب يمكن أن يقوموا بجمع الأعشاب والمواد من الأماكن التي يسيرون ماشيتهم فيها».

- «أوه، غالا. لا أظن أنني جئت إليها أكثر من مرة واحدة منذ أن سافرت كارولين. كارولين في انكلترا».

- «حسناً، عندما تعود، لا شك في أنك ستجد نفسك آتياً إلى المدينة مرة أخرى، وعندئذ؟».

- «لابد أن ذلك قد مضى عليه أكثر من عامين. الزمن يطير. لا أعتقد أن المكان قد تغيّر. شيء مذهل، لا أعرف أين تمضي الأيام. متى عدتم أيها الناس؟»

- «أوليفيا ستتبعني. كنت هنا، نعم، أعتقد كان ذلك منذ أكثر من ثلاثة أشهر. كان المفترض بها أن تأتي حالما يولد طفل فينيشا».

Twitter: @alqareah

نظر بوكسر حوله إلى الجدران القرمزية، من فوق زجاجات القراد القذرة. «قال إنه حمامها». وكان يقصد الزوجة ذات الأسنان الرديئة:

«لأجل ماذا تحتاج إلى حمامين في هذه الدنيا؟».

كان ثمة شعور مريح بالتفاهم، يقوم بشكل أبله، كما شعر براي، على سوء الفهم، يحيط بهما. فأوليفيا قادمة؛ كم مضت الأشهر الثلاثة بسرعة!.

كان من العبث إزعاج النفس بتسوية الأمور مع بوكسر. تابعا التحدث بالأريحية الضمنية لرجلين أزاحا مراسي الروابط العائلية. عندما عاد براي إلى سيارته كان راكبه قد ولّى؛ نادى بوكسر خادماً؛ الوجبة التي أُخذت إلى الرجل قد أُكلت. نظرا حولهما بحثاً عنه لكنه لم يكن موجوداً. شعر براي بالصد قليلاً، كما لو كان ثمة نوع ما من الاستجابة المتوقعة منه أخفق قد في فهمه.

- «لم يكن راكباً متعاوناً جداً» قال بدفاع من السخرية المتفلسفة.

- «من المحتمل أن يكون خارجاً لتوه من السجن».

قال بوكسر: «كان رأسه حليقاً، إيه، لقد لاحظت».

اجتاز براي ممر جبل باشي، وهو ينخبط بصوت قوي على النوابض المتآكلة للسيارة عبر منحدرات عل شكل حرف U في أسرّة السواقي، مرتعداً فوق وهدات مغطاة بحجارة مقلّعة. أمضى الليلة الأولى في كوخ الاستراحة الحكومي في قرية تانيلي. تحت أشجار الموبان كانت الأزهار القرمزية والبنفسجية الزاهية تنبثق مباشرة خارج التربة الرملية بدون ساق أو ورقة مرئية، كما لو أنها ألصقت هناك من قبل أولاد يلعبون لعبة البيت. في البداية ظنها سوسنات (سوسنات مزهرة حول حوض زنبق في ويلتشاير) لكنها بانت بعدئذ مثل الزنابق التي اعتادت فينيشا وبات أن تقطفاها عندما كانتا، بوصفهما فتاتين صغيرتين، تتمتعان بحرية الذهاب معه في جولة جمع الضرائب. سخن لنفسه صفيحة من الكاري والرز؛ فقد درجت العادة أن يوجد طباخ عجوز ملحق بدار الاستراحة يرتدي قبعة شيف عالية ويطهو يخنة الفول السوداني على البريموس.

استيقظ في اليوم التالي على الرنين الخفيف لأجراس الماعز، وذهب لزيارة مدير المدرسة المحلية. بدا أن الجميع يتذكرونه؛ شرب البيرة مع الزعيم تشيتوني وعمه، الحاكم العجوز الذي حفظ الكرسي دافئاً عندما كان براي مفوض المقاطعة، وقدُمت له دجاجة بيضاء رديئة وبعض البطاطا الحلوة. على مسافة كبيرة من تانييلي، فك ساقي الدجاجة وأطلق سراحها في الأدغال، فظهر شخص من بين الأشجار تمنى ألا

Twitter: @alqareah

يكون قروياً من تانييلي. ثم رأى أنه كان، في الواقع، راكبه، الذي لا يزال يحمل حقيبة السفر الكرتونية. ابتسم براي، إذ أن الآخر لا يبدو عليه أنه يشعر بأية صلة تعارف، لكنه صعد إلى السيارة مرة أخرى كما لو أنهما التقيا بناءً على موعد. في وقفة الليلة التالية، أصر على النوم في السيارة وأبقى نفسه منعزلاً عن أهل القرية. كان حذاؤه قد صار رمادياً من الطين الجاف الآن، وقد أخذ شكل قدميه. وعندما حرك ذراعيه، ملأت السيارة هبة عرق قوية مرة. ولكنه كان كما لو أنه مهما يكن الذي حبس بداخلها قد أفلت الآن، فإنه قد أفلت دون أذى، فزعاً، لاذعاً. النتن، لم يكن شيئاً هاماً، تلك الكماشة المظلمة، اللامشخصة للحضور، أصبحت جسداً منهكاً متسخاً قطع مسافة طويلة تحت الشمس. في اليوم الثالث طلب من براي فجأة أن يوقف السيارة؛ ظن براي أنه يريد أن يتغوّط، ولكن بعد الاختفاء بين الأشجار للحظة أو لحظتين عاد وقال:

ـ «أنا باق هنا ، يا سيدي».

كان ثمة مخيم فحامين قريب.

أمضى براي يومين آخرين يجوب الجزء الأعلى من السهول متنقلاً من قرية إلى قرية على الدروب الوعرة. ظل أنبوب العادم يخون السيارة، وكان يتم إصلاحه بطرق مختلفة في كل قرية. في صباح اليوم السادس دفعت سيارة الفولكسفاكن دفعاً عبر النهر فكانت الحركة الصامتة، بعد القعقعة الدائمة للسيارة، نوعاً من النذير بأن شينزا على الجانب الآخر. فوجئ في الغابة الخفيفة الكثافة ذات الأرض الرملية بحركة شيء حسبه، عن بعد، ظبياً يرعى؛ كانت نساء يجمعن الثمار البرية الحامضة، فالتفتن وهن يضحكن ويثرثرن عندما مر بهن.

انتهت الأشجار؛ انتهت الأرض ذات الأشجار الخفيضة؛ انطلقت السيارة الصغيرة فوق ثغرة مفاجئة من العشب المتدفق ووميض الماء يدفع بالأفق نحو الوراء. لطالما شعر هنا، وقد رأى فجأة كما يرى الطير، أنه دائم الارتفاع، وأنه مع ارتفاعه تتسع دائماً دائرة فوق النظر. خلع نظارتيه للحظة فابتعد المدى المومض والخافق عنه، وصار أكثر بعداً حتى.

كانت الكتل الصغيرة والأشكال المائية الزرقاء الحارة تصدر مظاهر داكنة من السرير اللامتناهي من الأعشاب الناعمة. العصافير الصغيرة ترفرف مثل جنادب ذات رؤوس مكسوة بالريش. هنا، كانت رائحة الفضاء. آلاف من رؤوس الماشية ترعى في هذا السهل؛ لكنها كانت ذرات ضائعة، ليست أكبر من قرادات جورج بوكسر في

Twitter: @alqareah

العشب. كان الطريق رهيباً، إذ أن عنف التقدم عبر الهدوء والسكينة لا يمكن مقارنته سوى باصطدام طائرة تطوحها مطبات هوائية في سماء صافية. وقف الرعاة يراقبون، لا يتزحزحون متأملين. كان يراوغ الجداول المائية الصغيرة المحفورة عرضانياً بفعل المزلاجات المستخدمة لجر الخشب. بدأ نخيل إيلالا يلوح في العشب، ونصلات السعف مفتوحة مثل مبراة متعددة الشفرات. كان يقود السيارة، وهو يتحسس طريقه عبر الممر، بلا تردد كثير عند المنعطفات، إلى قرية شينزا. جيل جديد من الأولاد العراة يتنقلون في جماعات حول البيوت التي كانت خليطاً من مواد الطين والعشب التقليدية والآجر والصفيح المموج للمستوطنة الأوروبية. بعض الأولاد يلعبون بمكواة فكتورية عتيقة؛ كان المبشرون البلجيكيون من الكونغو والمبشرون الألمان من تنجنيكا قد خاضوا عبر العشب طوال العقد الأخير من القرن التاسع عشر، أوروبة العجوز تسقط بين الماشية ذات القرون الطويلة.

يسكن شينزا الآن (هكذا دلّوه) خلف الجدار القصبي لمجمّع معزول مثل بيت زعيم. في الحقيقة، تبيّن أنه جزء من مربع الزعيم مبان. في الداخل ثمة امتدادات طينية مختلفة وبيت قرميدي قبيح ذو شرفة من عمود وسقف من القش، ومانع اللصوص مثبت في النوافذ مثل الذي للبيوت الأوروبية في ضواحي العاصمة. لم يكن ثمة أطفال هنا. كان الجو هادئاً جداً. امرأة عجوز تضطجع على جنبها تحت الشمس، وهي مغطاة بالكامل بأسمال قطنية باستثناء قدميها العاريتين. تملّك براي شعور بأنه لو لمسها بقدمه فإنها ستتدحرج؛ إنها ميتة. كما لو أنه في مكان مهجور. جال حول البيت بدلاً من أن يدق الباب. أطل على كوخ شديد الرطوبة وعاتم لا يحوي شيئاً وسط عتمته سوى إطاري دراجة نارية وخزانة أضابير فولاذية عتيقة إلى جانب كومة من حصر النوم المتعفنة. عندما استدار إلى الشمس، لاح رجل طويل القامة، صغير الرأس، يرتدي سروالاً رمادياً من الفلانيل وسترة رياضية مثل معلم مدرسة أو موظف من المدينة.

«نعم؟» قال بفظاظة، دون أن يقترب.

- «هل إدوارد شينزا هنا، هل تعرف؟».

لم يرد الرجل. ثم اقترب ليطل على براي أكثر قرباً.

- «هل تريد أن ترى شينزا؟»

- «أخبروني أنه يسكن هنا، الآن. هل هو في الجوار؟».

وقف الرجل، رافضاً أن يُلح عليه: «لا أعرف إن كان هنا».

Twitter: @alqareah

- «هل بإمكانك أن تسأل، لأجلي؟».

قال الرجل: «تريد أن تراه؟».

- «أنا صديق قديم».

- «لا أعرف. سأرى إن كان هنا. حالاً».

دخل الرجل إلى البيت لكن براي تولد لديه انطباع بأنه غادره مرة أخرى عن طريق باب خلفي. رأى شخصاً يدخل للحظة. يعبر الباحة.

وقف براي تحت الشمس. لم تتحرك المرأة العجوز. ثمة رائحة جلود. عاد الرجل.

- «تعال».

دخلا إلى البيت، إلى داخل نوع من الردهة فيها عش دبابير في الركن، ومجلدات هانسارد على خوان بوفيه. انتظر الرجل بصمت إلى جانبه مثل حارس شخصي. جلسا على كرسيين قاسيين بضع دقائق. كانت عتمة التباين مع ضوء الشمس في الخارج قد زالت. ثم دخل شينزا ويداه في جيبي عباءة النوم، حافياً، يتحسس سيجارة. لكنها لن تكون السيجارة الأولى لهذا اليوم، هذا الانطباع الفوري لم يكن عن رجل استيقظ لتوه، بل عن رجل لم ينم بالمرة.

Twitter: @alqareah

(7)

- «هكذا قررت أن تأتي وتراني بأي حال».
قال اداورد شينزا، مبتسماً، بمنخريه المفتوحين والمتوترين اللذين لا يُخطأان.
- «جيمس ــ أنتم الانكليز تفعلون ما تشاؤون».
أبدى تعبيراً مخيفاً عن العواقب، لكنه بالغ في التحول إلى نكتة.
ثمة شيء ما مختلف (أخذ شينزا يد براي عَرَضاً، وأمسك علبة الثقاب بين الإبهام والسبابة في الوقت نفسه): كان سناً، سناً أمامياً مكسوراً، ذاك هو الشيء المختلف. لدى شينزا الآن سن أمامي مكسور بشكل منحن. لقد مضى عليه زمن طويل على هذه الحال بحيث أصبح أملس ومدوراً مثل حافة سن آخر. أشعل السيجارة ثم نظر إلى براي، ورأسه مردود إلى الخلف، وقال، وهو لا يزال يضحك منه:
- «تعرف، تسرني رؤيتك يا جيمس، شيء ظريف. كنت سأجري مكالمة، بالشرف، كنت أود أن».
تجاهل متعمداً لباس النوم، كما لو أنها الطريقة التي اختارها للارتداء. أمرَ الرجلَ المتفرجَ بلغة الغالا أن يغادر ولكن على أن يعود خلال ساعة، غير مبال ظاهرياً بحقيقة أن براي يمكنه أن يفهم ما يقال. ولكن عندما عاد إلى براي وقالَ بالانكليزية - وكان التعليق فقرة من إحدى شعارات مويتا أمام الحشود الكبيرة:
«هكذا أنتم تساعدون على بناء أمة، أي ــ».
ظن براي أن المقصود من ذلك أنه يعرف أنه يتوقع التخلص منه في غضون ساعة، مثل أي ضيف آخر.
- «ألم تكن أنت من علّمه إلقاء الخطابات؟».

Twitter: @alqareah

كان شينزا فاتح اللون بالنسبة لغالا؛ فرك صدره البني الأصفر برفق حيث كانت العباءة مفتوحة. كان هناك عدد قليل من حب الفلفل حول الحلمتين، مثل الجدائل التي تشكل نسيج بشرة وجهه، تنبت من السطح الناتىء والمنقّب بفعل إصابة جلدية قديمة، جدري الأطفال أو بثور المراهقة، فكان الرتم يمتد فوق تقوسات الفم، ليصنع شارباً خلبياً. شدد على الابتسامة مرة أخرى، تحت المنخرين العريضين، المشدودين.

ـ «معلم جيد. لكنني لم أعلمه كيف يُسكت الناس. لقد تعلم بنفسه. أو ربما ساعده الآخرون، لا أدري».

رسم على وجهه التعبير المخيف بطريقة زائفة مرة أخرى، كما لو كان شيئاً ما لن يميزه براي.

ـ «آه، تعال، الآن ـ لقد تم تصورها كدولة حزب واحد منذ البداية، كنت دائماً تقول الـ..ـ ماذا كنت تسميه؟»

ـ «برلمان الأولاد» قال شينزا متصيداً ابتسامة لأجل ذلك وهو يدلي بالعبارة بشكل منفصل.

ـ «برلمان الأولاد ـ ذاك هو ـ برلمان الأولاد الأفارقة الذين يظنون أنهم يعيدون إنتاج [برلمان] وستمنستر في دولتهم. لم يكونوا بصدد أن يضيعوا الوقت والمال على هذا الشيء».

ـ «بالطبع، وأنا كنت على حق تماماً، يا رجل. والآن يريد غلامك أن يراني أختار اسماً وهمياً وأن أؤسس حزب معارضة لطيفة صغيرة غير مؤذية يمكنك أن تهزمها في صناديق الاقتراع بخطاب «الوحدة قوة» الذي علمته إياه. أو عن طريق جعل الرواد الشباب يضربون المقترعين. يبدو ذلك دائماً ألطف من مهاجمة الناس الذين أنشأوا حزب استقلال الشعب هناك في مقر الحاكم، إيه؟ لماذا نقف؟»

كوّم الغسيل النظيف على الطاولة ـ القمصان ذات المربعات الباهتة الألوان، والشراشف المطرزة بشكل غير متقن، التي كانت موضوعة على أريكة بنية قبيحة ـ وتمدد بترفٍ لا مبالٍ، ثانياً رقبته على قفاها بالحركات بحركات رجلٍ مدرك أنه لم يحلق ذقنه.

كان ثمة طرق عديدة يمكنهما بواسطتها أن يتوصلا إلى هذه النقطة. كان براي مدركاً لذلك بحيث يتم الاقتراب منها عبر طبقة تلو الطبقة من تداعيات الماضي، مشاغل الحاضر، الأمور التافهة شبه الحميمة التي يحاصر بها ذهن الآخر قبل

Twitter: @alqareah

الاستقرار على المستوى الذي يتعين عليهما أن يكونا به مفتوحين أحدهما على الآخر في هذا الوقت. لكنهما كانا قد غاصا في التجريب في الحال، لا شيء يحول بينهما، لا حماية. كان من الممكن أن يكونا قد فتحا فميهما وبدأا يتكلمان جهاراً عن المسكوت عنه، مثل رجل يخاطب غرفة مظلمة. قال براي:

- «منذ يوم وصولي، حاولت التحدث إليه. فكرت لو أنكما لم تتسرعا لكان من الممكن أن تذهب إلى الأمم المتحدة لبعض الوقت».

كان شينزا يراقبه، متراخياً في نوع من التسلية الواهية المرة عن بعد على مشهد كف عن أن يكون مهماً، شخصاً متشدقاً في مشهد قُطع الصوت عنه.

قال بلطف: «أوه، نعم، الأمم المتحدة».

جلس براي على الأريكة.

تابع شينزا الإصغاء إليه بأناة، مبتسماً.

كانت لا مبالاة قوية، ليست كسولة. فالأسد لا يثبت نظره على جسم، شيء، لا يلتفت للذباب. "شينزا العجوز- لكنه ليس عجوزاً بالمرة، إنه في الرابعة أو الخامسة والأربعين - يكبرني بحوالي سنة". كان براي مدركاً لعنفوان صدر شينزا الذي يرتفع وينخفض، والعنق القوي يشع قليلاً بالدفء، والجسم لا يزال جسم رجل وليس جسم عجوز، رغم أن الوجه ظل لسنوات يمتلك التعقيد الملغوز للخبرة والشرب.

- «تولد لدي انطباع بأن ثمة أشياء بينكما لم يكن من المفترض بي أن أعرف عنها».

- «بالطبع، يا جيمس، بالطبع. كيف بإمكان مويتا بغير ذلك أن يفسر؟ بالطبع، أشياء رهيبة».

بدأ يضحك ووضع يده على ركبة براي.

«لم يكن يريدني أن أكون حوله. هذا هو كل ما في الأمر. يبدو شيئاً تافهاً، أي، كيف أمكنه أن يقول لك: أنا لا أريد شينزا. أنا لا أريد شينزا. وجه شينزا الأسود الكبير في الصحف، فم شينزا الأسود الكبير المفتوح في الوزارة. يسأل شينزا أسئلة عندما أعقد صفقاتي مع شركات التنقيب. البريطانيون. الأميركان. الفرنسيون. لماذا. كيف. كم. ولأجل من؟. من الأفضل أن نأخذ ذاك السيد الذي لا أعرف اسمه، الانكليزي الشاب الذي يثب حوله لاحساً، كلباً أليفاً ودوداً، تدفع له وهو ينحني احتراماً، هذا هو كل شيء. لا، شينزا يسأل أسئلة لعينة. قبلاً، اعتاد أن يسألني ما هي الأسئلة التي يتعين عليه أن يطرحها. الآن هو الذي يجب أن يعطي الأجوبة».

Twitter: @alqareah

ـ «يُسكت الناس؟» معنى آخر للعبارة التي سقطت عرضاً، قبلئذ، انفتح فجأة:

ـ «قلت شيئاً الآن بالضبط. ما الذي كنت تقصده بالضبط؟».

كان شينزا يمسد عنقه تحت ذقنه المرفوعة الخشنة، مبتسماً، مصغياً إليه بإذن واحدة. استقام وابتسم لبراي. ثم تلاشى كل تعبير. قال: «أوه، قصص الأدغال، مثل الشاب الذي كان في سيارتك».

ـ «ذاك الشاب؟ الذي انتشلته عن الطريق؟».

أبقى شينزا اللحظة معلقة، يراقب بدون اهتمام كبير من مسافة جوانية. كانت تزدحم في رأس براي أفكار متضاربة؛ هل كان قد ذكر الصبي لشينزا؟ قال، وقد أدرك على الفور حماقة ذلك:

ـ «لكنه بالكاد كان لديه كلمة واحدة ليقولها عن نفسه».

ـ «نعم، كان أخرس، كان أخرس».

أصر شينزا على ابتسامة السن المكسور لتلاعبه الذكي بالكلمات.

شهران وسبعة أيام.

من المحتمل أن يكون خارجاً لتوه من السجن.

ـ «أين؟»

ـ «أوه في غالا، بالطبع. أنت تعرف مدير بوليس المقاطعة ليباليسو والضابط الإقليمي، أليك. بالطبع أنت تعرفهما».

ـ «ماذا كانت التهمة؟».

ـ «التهمة؟ أية تهمة؟ لا تهمة؛ لا محاكمة. تم احتجازه فحسب».

ـ «وماذا كان يعمل؟».

ـ «يعمل في معمل تعليب الأسماك».

أصدر براي إيماءة مفاجئة غير مضبوطة للفت انتباه شينزا، فأفسح له شينزا المجال، بهدوء:

ـ «لقد تكلّم إلى الشباب الآخرين حول الأجور والظروف وهلم جرا. أخبرهم شيئاً حول كيف تجري صفقة امتيازات صيد السمك مع الشركة. في الوقت الذي جددت فيه الحكومة الامتيازات لمدة خمس سنوات أخرى ـ أنت تعرف».

كان وزير مويتا قد جدد العقد مع شركة الترولينغ البريطانية ـ البلجيكية تحت بنود حولت نسبة مئوية من الأسهم إلى الحكومة. لكنها تركت أجور العمال عند مستوى العهد الاستعماري.

Twitter: @alqareah

جلس براي إلى الأمام غامضاً، يداه متدليتان بين ركبتيه.

ألصق شينزا سيجارة أخرى في فمه، تكلم من حولها، وهو يقف للبحث عن أعواد الثقاب في جيب المئزر.

ـ «حصلت اجتماعات صغيرة قليلة في المدينة.الرجال من المصنع وزملاؤهم من الأعمال الكلسية. ممثل النقابة لم يرق له ذلك. الرواد الشباب لم يرق لهم ذلك».

«هل اعتقلوا الغلام؟».

«أظن أنك تسميه كذلك. أخذوه وحبسوه؛ كان لديهم الكثير من الأسئلة ليسألوه، أمضى شهرين أو أكثر، والآن ها أنت قمت بنقله إلى موطنه».

قطع شينزا ذلك فجأة، مثل قصة خرافية تُحكى لولد.

ـ «أكثر من شهرين». في حوالي الوقت الذي وصل فيه إلى غالا.

ـ «لم أسمع كلمة واحدة».

ـ «لا» قال شينزا، وهو يقطع نهاية تثاؤبه «لا كلمة من ليباليسو؟ من أليك؟».

ـ «مسؤولية من كان ذلك؟ من الذي يوقع؟ لا يوجد قانون احتجاز احترازي في هذا البلد الآن».

ـ «أوه حسناً، هناك التقليد المتبع من أيام الطوارىء».

كان ثمة شعور متزايد بأن شينزا يقفل النقاش.

ـ «ولكن بأوامر من؟».

قال شينزا بصبر، ضجراً: «ليباليسو، أليك».

ـ «كنت أود التحدث إلى الغلام».

ـ «كان لديه ما يكفي من (الأسئلة)».

قال براي: «ربما لا يدري مويتا».

ضحك شينزا. كان براي واقفاً في الجوار. لا يعرف أين يضع نفسه، سمع صوت صرير حذائه. كانت ساقا شينزا مدفوعتين أمامه تحت العباءة، العينان مثبتتان بتعاطف، لاهيتين، متقززتين.

قال براي: «يجب ألا آخذ هذه معي بعيداً مرة أخرى».

وضع علبة السيكار على الثياب المغسولة.

ـ «إنه صنفك القديم».

نهض شينزا، فالوضع الآن يقع على عاتقه.

Twitter: @alqareah

- «يا الله، يا رجل، أنا أحب تلك الأشياء. أدخن هذه السجائر اللعينة في هذه الأيام. جلبها لي شخص. هل يمكنك أن تدبر لي المزيد من تلك يا جيمس؟ أفضل صندوقاً. أرسلها لي من انكلترا - إيه؟»

عندما دخل رجله تجاهله وتمشى الهوينا مع براي عبر المطبخ وخرجا من البيت إلى بيت آخر، بيت من الطين والقش.

- «البيرة التي تصنعها ليست رديئة جداً» قال في معرض تقديمه لامرأة شابة تعدو خلف الستارة القذرة التي تقسم البيت إلى غرفتين. نادى عليها وفي خلال لحظة عادت ترتدي فستاناً نظيفاً وقدماها تعرجان في الحذاء.

«لقد ولدت طفلاً لتوها» قال، بلغة الغالا.

- «أين ابنك، يا تاليسا، أرنا ابنك».

فضحكت وأجابت بروح الحوار الثنائي أمام غريب:

- «لماذا لا تدعه ينام، لماذا يتعين عليك أن تنظر إليه طوال الوقت؟».

- «أنت غيورة. لدي الكثير من الأولاد، ولا يهمني ولد آخر - إنه ولدها البكر»، قال لبراي، ومضى خلف الستارة، حيث كان ثمة ضحك ولغط، وخرج يشد المئزر مباشرة بيد واحدة، طارفاً عينيه فيما هو ينفث دخان السيجارة لإبعاده عن الطفل الصغير الذي يحمله، ولا يرتدي سوى صدرية صغيرة، في يده الأخرى. كان الطفل ذا لون أسمر قرمزي، شفاني بشكل واهن، وذا يدين دقيقتين وقدمين متخبطتين، ووجه مغلق بحجم الساعة. أخذت الفتاة السيجارة من فم شينزا وعندما حدقت إلى الطفل، وبسبابة يدها الأخرى، كانت تتبع برهافة تلافيف أذنه التي كانت خطوطها لا تزال مضغوطة من الرحم. بال الصغير في قوس ضعيف صغير، مثل سائل ينبجس من مخلوق بحري صغير مزعوج في قوقعته. ضحك شينزا، مطلقاً تعليقات داعرة، وهو يكاد يقذفه إلى الأم، فيما كانت هي مثارة بشكل بهيج ومرتبكة فحملته بعيداً خلف الستارة، حيث انفجر بصرخات قوية بشكل مباغت طغت على ضحكة أبيه. حاص بحثاً عن قطعة قماش. كانت الغرفة الطينية تفوح منها الروائح الباردة للرضيع النتن والبيرة ودخان الحطب. كان ثمة ملابس، قدور طهي، جرائد ومذياع، عربة أطفال جديدة تماماً من النوع الذي تشاهده في حدائق أوروبة - إنها الفوضى اللائقة للحميمية. قرمة شجرة مع لصاقات من أحواض ساوثامبتون وسان فرانسيسكو ونيويورك لصناعة السفن (كان شينزا من الجيل الذي حصل على منح دراسية للدراسة في الجامعات الزنجية في أمريكا؛ وقد ولد مويتا متأخراً جداً على ذلك

Twitter: @alqareah

فذهب إلى السياسة من المدرسة مباشرة) عليها حصيرة مخرّمة وطقم قهوة مزيّف موضوع عليها. انتزع شينزا ثوباً من نوع ما ومسح صدره، ورمى الخرقة إلى الركن. كانت طاولة المطبخ مع الآلة الكاتبة القديمة هي مكتبه. ثمة صندوق من الكتب في حالة من الفوضى؛ أما خلفها فتوجد الزينة الوحيدة المعلقة على الجدران، مجموعة فرق كرة القدم وصور نكروما وفانون أحول العينين وسيلاسي جالب الحظ وغيفارا، ومن ضمن الوجوه الأخرى كان شينزا نفسه: مؤتمر البلدان الأفروآسيوية في القاهرة في بداية الستينيات. رأى شينزا براي يتفرج، فقال: «سجل المجرمين الأوغاد».

كان يدخن سيكاراً؛ فهناك كان يتمتع بالسلطة،، عَسْكَر هنا في هذه الخيمة الطينية، فهي سلطة قائد ميداني.

شربا بيرة منزلية وتحدثا بالسياسة العامة بأسلوب متقطع لأن شينزا استدعي إلى خارج المنزل مرتين (تحت الشمس، ثمة رجال ينتظرون مثل الأحصنة انزووا بعيداً ليتكلموا معه) وكانت البنت مع الطفل حوله. لا شيء من هذه الأشياء كان مسموحاً أن يقاطع الحديث، ليس لأن شينزا كان يعطي انتباهه الكامل، بل لأن كل ما كان يدور بينهما كان هامشياً، بالنسبة لشينزا.

في المرة الثانية عاد شينزا إلى الكوخ، أوقفه براي وهو داخل:

- «كم من المسافة استغرقت مع الولد؟».

قام شينزا بحركة إيمائية من نخعة برأسه، وهو ينظر بعينين طارفتين:

- «ماذا؟».

- «أسئلة. أنت قلت. يكفي أسئلة؟».

أبقى شينزا العقب البارد للسيكار في فمه.

- «أوه أنت تعرف ما الذي توصل إليه الأسئلة، يا جيمس».

- «صحيح؟».

- «ورغم كل شيء، مويتا رجلك، لديك أفكار معينة حوله، حولنا».

صار براي قاسياً من اللا مبالاة مثل لحم ينكمش في النسيم البارد.

- «الأسئلة تلزمها أجوبة. بشكل ما. إن لم يكن بطريقة فبأخرى. أنت تعرف».

- «أريد أن أعرف ما حدث».

قال شينزا، وكأنه يشرح لولد: «جيمس، رأسه لم يجب، لذلك فقد وضعوا أسئلتهم على ظهره».

- «فهمت».

Twitter: @alqareah

- «بإمكانك أن ترى الأسئلة على ظهره. تريد أن تراها. سوف أجلبه لأجلك» وكما لو أنه ينهي الموضوع، قرر بشكل نزوي، الآن، أن يجعل براي يفحص الشيء المعروض.

- «لا أريدك أن تصدق أي قصص برية من الأدغال. سأحضره ويمكنك أن ترى. لا، لا، ابق أنت، سأحضره لك».

ترك براي واقفاً وحده في حضرة أشياء شينزا. كانت الفتاة ساكنة خلف الستارة. يبدو أنها كانت تصغي؛ لم تخرج. عاد شينزا بسرعة إلى الغرفة مرة أخرى، يسوق الشاب أمامه.

لم يبدِ الصبي أية إشارة تدل على التعرف. خمدت تحية براي التي لا صلة لها بالموضوع، فقال شينزا، بلغة الغالا، للصبي: «انحن».

رفع قميص الصبي. وقف متباعد الساقين، يداه مشبوكتان على ركبتيه. ولم ينظر حوله. من خصره المتضيق بفعل ثقل جسمه المتهدل عن العمود الفقري، يتسع ظهره إلى العضلات الواقعة تحت الكتف، مائلاً إلى الصفرة حول الخصر، رمادياً ـ مسحوقاً في الخندق الضحل على جانبي الفقرات، ذا لون بني باهت فوق العضلات والكتفين. كانت مسامات الجلد منتفخة، محببة، ذات إفراز دهني متصلب لم يكن قد تعرض للهواء الطلق والشمس لفترة طويلة. الجلد الذي فقد لمعانه مثل جلد حيوان حفظ في الحبس؛ براي كان يعرف ذاك الجلد الذي لم يكن قد رآه منذ الأيام التي كان فيها على كرسي الحاكم، بصفته مفوض المقاطعة، وكان السجناء يمرون من أمامه. في البيت. في ويلتشاير لم تكن هذه الأشياء موجودة، لم يكن هذا الواقع موجوداً.

كان متنبهاً للغاية لحقيقة الجلد بحيث أن آثار الضرب التي شفيت، والموجعة عند اللمس، والقشور المغضنة قليلاً مع المظهر الأملس للشفتين، كان من الصعب أن تفقد معناها. فالندب، لا بل الجروح، نعم، الاحتجاج، الذاكرة المستديمة للجسد لكل ما يُفعل به، غضب البثور، البقع الخشنة، كل ذلك يمثل سجلاً دائماً، مثل رسائل محفورة على لحاء شجرة. الانخماص الصغير في القفص الصدري، نزولاً إلى الجانب الأيسر، على سبيل المثال: من أين جاء ذلك؟ تشوه خلقي؟ تقزم في نمو العظام من خلال نقص تغذية مبكر؟

مرر إصبعه فوق النقاط النافرة لندبة ثم أبعدها، احمرّ خجلاً من الإحراج. ظل الصبي منحنياً، هدفاً جاهزاً لتلقي الضرب، كما كان عليه أن يتعود الانحناء لتلقي الضربات نفسها. لم يكن بعض الندوب أكثر من علامات باهتة صارت أكثر شحوباً

Twitter: @alqareah

من الجلد المحيط بها، نازفة إليه، ناسية، سرعان ما تتصل بشكل تدريجي وغير محسوس مع خلايا الجلد الأخرى. لا بد أن هذا الجرح قد غاص عميقاً وانفتح على اللحم، لكي يصنع مثل هذا الشريط السميك من نسيج الندب كله.

فجأة رأى شكل الضربات المشروحة بانتظام عبر الظهر مثل حزوز في قطعة لحم مكسوة بالشحم. وعلى عضلة الربلة للساق القوية المقوسة بشكل كساحي ظهر شق شاحب من خلال الأشعار الخفيفة. وصفها براي في الفراغ بمقدار إنش أو إنشين بعيداً عن اللحم، ناظراً إلى شينزا؛ وتلك؟

قال شينزا: «أحدهم أخطأ الهدف».

ارتفعت شفتاه، عاد هلالا اللحية المحيطة بهما إلى الحركة. أبان عن أسنانه للحظة، ثم تلاشت التكشيرة عندما انسدلت الشفتان فوق الأسنان مرة أخرى.

ربما كانت ندبة قديمة من إصابة بريئة ـ سقطة، حادث ـ لا علاقة لها بالسجن في غالا، لكن شينزا لم يكن لديه الوقت لمثل هذه التفاصيل في التمييز. رأى براي أن كل الجروح بالنسبة له واحد؛ وهذا رأيه.

ـ «ما الذي كان من الممكن أن يأخذوه منه ويستحق هذا؟».

والآن كشر شينزا فعلاً، واضعاً راحته على كفل الغلام كما لو كان يضعها على غنيمة صيد. قال بلذة كونه قد برهن على أنه على حق:

ـ «جيمس العجوز الطيب، الشيء نفسه كما كان دائماً».

قال براي بلغة الغالا: «لماذا لا ينهض؟».

أما شينزا الذي استدعي إلى شيء ما غير ذي أهمية، فصفع الكفل صفعة ودية وقال بالانكليزية:

ـ «اوكي، وهو كذلك».

أدخل الصبي قميصه تحت سرواله. أراد براي أن يقول شيئاً ما له ولكن عندما نظر إليه فإن الصبي ثبت ناظريه على شينزا فوراً.

قال براي: «حسناً، إذاً، ما الذي كان عليه أن يحتفظ به لنفسه وجعله يستحق ذلك؟».

ـ «جيمس، جيمس. إنك ترى بطلاً وراء كل دغلة، عندما عدت إلى هنا. لقد أخبرهم بكل ما يعرفه حالما اعتقلوه. تماماً. بدون خدش. لكنهم كان لديهم بعض الأسئلة التي لم يكن يعرف الإجابة عليها. إنه أسلوب؛ إذا لم يتكلم الشخص، مهما كان السبب، فليس متوقعاً منك أن تعرف السبب ـ فدعه ينلْ ذلك. روتين».

Twitter: @alqareah

قال شينزا: «في هذا المكان، يا جيمس» وأطلق ضحكة صغيرة، وأضاف "أي؟".

قال براي: «لا يزال من المحتمل أن مويتا لا يعرف».

تأمل شينزا سؤالاً مدرسياً: «ليس حول هذا المكان، لا ـ يقاس بمثال صغير جداً، أنت لا تستطيع أن تتوقع ذلك» وقال للصبي: «تمام».

نظر الولد إلى براي أخيراً، واستأذن منه بالانصراف بشكل لبق، بلغة غالا. ناداه شينزا وقذف إليه بعلبة سجائر كان قد وضعها جانباً لأجل السيجار. أخذها الولد بدون أي كلمة وانصرف.

قال براي: «الشيء الذي يتعين القيام به هو أن نأخذ منه إفادة يدلي بها أمامنا، كلينا».

كان شينزا ينظر إليه تقريباً بشغف: «تلك الأيام ولت».

«إنك تستسلم بسهولة، يا شينزا».

تلبّس براي بإذعان سافر السذاجة المنسوبة إليه.

انتظر شينزا لكي يقبل هذا الشكل من الدحض للبدء بالكلام.

قال شينزا: «أوه، نعم. أنا مجرد عرض كسول، إنني أصدأ. إنها مؤامرة. لا، لا، لا، مؤامرة. تعفن. مهما شاؤوا أن يفكروا فذلك أمر عائد لهم. إنها حالة سرطان الرئة. البعض يقول الكبد ـ قل لي، كيف داندو العجوز؟ الشلة القديمة، في لندن؟ أنا أسمع من الكاميرون من حين لآخر، إذا رأيته، قل له أين أنا، إننا نستعمل الطبول المتحدثة، هذا هو السبب في أنني لا أكتب».

خرجت الفتاة مع الطفل، صاحية تماماً مرة أخرى. وجلسا، بوقار، وهما يشربان مزيداً من البيرة ويتحدثان ذلك النوع من الهراء الهزلي بين صديقين قديمين بالقدر الذي يسمح بحضور شخص ثالث.

لم يترك شينزا أي منفذ مفتوح يؤدي إلى نفسه. لكن براي، قال، وهو ينصرف: «سأعود».

علقت في الجو ملاحظة ذات طعم سيء. لقد فهم شينزا، طبعاً، أنه يقصد أنه عائد لرؤية مويتا؛ لكن شينزا كان يتريث بتهذيب فحسب عند السياج القصبي، مبتسماً، موتراً انتباهه، مثل أذن كلب موجهة إلى الوراء، إلى مكان آخر.

ـ «أنت تقيم إقامة طويلة هذه المرة؟»: علق ذاهلاً على ضيف مويتا.

ـ «لو كنت أعتقد أن بإمكاني أن أنجز شيئاً».

Twitter: @alqareah

تجاهل شينزا السؤال الضمني: «ما هو مرة أخرى، يا جيمس ـ المدارس؟ ما الذي ستعرفه حول إدارة المدارس».

ـ «أنا أشتغل مع سامبسون ماليمبا على المدارس، لأجل شيء واحد: إلقاء نظرة على النظام التعليمي بأكمله، فعلاً؛ المدارس الفنية، المدارس المهنية، هذا هو المطلوب، أيضاً ـ بداية متواضعة من تعليم الكبار لأجل النوع الجديد من الشباب المواكب لشيء من الصناعة الدارجة الآن، في غالا نفسها».

الأعمال الكلسية، معمل الأسماك المعلبة، من حيث جاء راكبه.

هز شينزا رأسه.

قال براي فجأة: «أي شيء تحتاجه، يا إدوارد؟».

وقفا هناك على مسافة، للحظة.

ـ «أوه، حسناً، السيكارات ـ قلت إنها ستؤمنها لي من انكلترا. هذا لطف منك، أنت تعرف». قال شينزا وهو يبتسم.

بيديه اللتين تنزلان إلى جيبي مئزر النوم ـ بحيث أن ردفيه العضليين كانا ينتخعان وهو يسير ـ اختفى في البيت حيث ينتظره براي. لقد فعل براي ما كان عليه أن يفعله؛ ذهب إلى المدرسة في القرية، ساق السيارة لمسافة عشرين ميلاً على الطريق الذي جاء منه، ومر بدون توقف بالأولاد والدراجات، وبيوت الطين، وحظيرة القصب حيث كان شينزا. لكن براي اجتاز ذلك كله بانتباه أعمى، منفثاً ضغطاً ذهنياً متراكماً، ينتظر ثغرة لكي ينفجر من خلالها. لقد أصبح ارتعاش غيارٍ السرعة في راحة يده فوق الطريق الرهيب هو التعبير عن ارتجاف يده ذاتها، تعبيرا مكبوتاً. شهران وسبعة أيام. راجع إلى هنا لأشهر قليلة وهاقد بدأ ذلك لتوه ـ الضرب، الحجز. قصة قديمة. لا عجب أن شينزا لم يتمكن من مقاومة فرصة النخر على رد فعله. لم يكن قد حسب نفسه بين أولئك الذين تصل ليبراليتهم إلى ما هو أكثر من الكره المجرد للأساليب القسرية. لم يكن، قبل ذلك أبداً، قد اكتشف نفسه في ذلك النوع الخاص من التضليل. على مدى السنوات كان يتقبل ـ عن بعد ـ بعض الحقائق إذا تبين، لسوء الحظ، أنه لا يمكن تجنبها لإحراز التغير الاجتماعي الذي يؤمن به. كافح لكي يزيح جانباً منظر ظهر الولد. سيغفر الكثير ليرى أن ذلك الصنف من الدولة، الذي تصوره شينزا وموينا معاً، لأجل البلد قد تحقق. لكن «استجواب» الغلام وقف بين شينزا وموينا.

Twitter: @alqareah

وهو نفسه؟ هل سيغفر لنفسه؟ ربما كان هذا الاهتياج هو مسألة عدم رغبة في توسيخ يديه. كان هذا هو نوعه من التضليل. ليكن ذلك إذا كان لا بد من عمله، ولكن ليس من قبلي أنا، لا تدعني أقحم يدي في ذلك، ليس حتى لو كان بتوقيع في أسفل تقرير حول التعليم. هل كان ذلك؟

مع ذلك كان لديه دافع للمضي مباشرة إلى العاصمة فوراً؛ إلى مويتا؛ كما لو أن ذلك سوف يزيل الالتباسات مرة وإلى الأبد: التباساته كما التباسات ما حصل - أليك؟ ينبغي عليه على الأقل أن يتحدث إلى أليك أولاً، لكي يحصل على الحقائق مباشرة. إن أليك يجب أن يكون الوحيد الذي يضطلع بالسلطة، لكي يوقّع. لقد رأى أليك ونفسه، داخلين خارجين حول البيوت، البوما، شارع القرية في غالا، قرنا استشعار منضفرين نائسين يتقاطع مساراهما، بشكل فاقد للحس، مثل نملتين. لكن أليك ما كان أبداً ليعتقل رجلاً بمبادرة شخصية منه، إذاً فهل كان أليك هو من يأخذ الأوامر من ليباليسو؟ ضحك أليك وبراي على لبياليسو، رجل صغير، متقلب، استلم السلطة من الرائد كورنر، الذي كان هو مرساله في الحرب. كان ليباليسو شخصاً تافهاً؛ أما أليك فلم يكن كذلك بالتأكيد؛ لكنهما، كلاهما، يفعلان ما يؤمران به. كان أليك موظفاً مدنياً كفؤاً، مستقلاً. لكنه لا يمتلك عقلاً سياسياً أو طموحاً سياسياً. إذا صدر أمر من العاصمة، ولا يمس التسيير السلس اليومي لإدارته المحلية، فإنه ببساطة سيوقع. يجلس على شرفته، متمهلاً، واثقاً من نفسه، يشتغل بأوراقه وسط ضجيج الأولاد، يعرف ما الذي يفعله ويعتقد أن الناس الذين فوق [في السلطة] يعرفون ما يفعلون، أيضاً. رغم كل شيء، فالحكومة كانت حزب استقلال الشعب. على القناعات الصلبة لأناس مثل أليك تصل الحكومات إلى السلطة، لكنها لا تكون مهددة أبداً، فأليك لن يغير رأيه في مويتا أو أي شيء آخر.

أسند مويتا وزارة العدل إلى جوستين تشيكوي. لم يكن براي يعرفه جيداً. لكن رولي داندو كان يسميه ولد الجدار لفندق غراي.

- «من يدري ما الذي يكمن حقاً تحت تلك الجمة النايلونية؟ لقد جلست إلى جانبه في حفلة غداء ولمحته معجباً بملعقة حساء». لقد تحدث داندو كثيراً:

«عندما تعطى وزارة العدل، لا تعود لك علاقة بالعدل. إنك تحفظ السلم بالطريقة التي يريدها الكبار. الشيء نفسه مع منصب النائب العام. زوج من شرطة كيستون والعدلية وأنا، فعلاً، هذا هو كل شيء. سيكون على ما يرام، أعتقد، طالما أن مويتا باقٍ على استقامته ودقته».

Twitter: @alqareah

سيتصل بداندو حالما يصل إلى البيت؛ فقد قرر فجأة أن هذا ليس الشيء الذي يجب عمله. إن البيت موصول بخط الحزب وبأي حال فإن المقسم المحلي سيسمع كل كلمة. تراجع عن ثرثرة رولي المتكلم من بطنه، والآتية من بعيد.

عندما كان براي مع شينزا شعر أنه رجل بالغ يأنف أن يصدق أن ولداً أثيراً يكذب أو يغش. في بيت شينزا خشي أن يكون مويتا قد عرف بالموضوع. أما الآن ـ وهو وحيد أمام أفق من الأعشاب الناعمة بلا أي أثر من إنسان آخر سوى وميض صفيحة البارافين المحمولة على رأس امرأة ـ فقد شعر أنه هناك تقع المسؤولية التي لا يعرفها مويتا حقاً، أن حجم هذا البلد الصعب القيادة، بمواصلاته التي تتضاءل في السكك المغمورة بالفيضانات وأعمدة الهاتف التي أكلها النمل، تجعل من الممكن للناس أن يأخذوا القانون بأيديهم، بينما وراء واجهة القرميد الحمراء لمقر الرئيس توجد الهواتف والتلكس، والطائرات القادمة إلى المطار تجعل مويتا أقرب إلى أديس أبابا ونيويورك ولندن منه إلى هذا السهب المغطى بالعشب، المنسي تحت السماء الخاوية.

في الممر الجبلي (فقد كان يقود السيارة متخذاً طريقاً مباشراً الآن؛ إذ قطع في يوم واحد ما كان قد استغرق منه ثلاثة أيام) ولت الثقة مرة أخرى؛ بشكل لا مبرر له. الجبال الوعرة المظلمة الجنبات تحيط بالطريق وتطوقه. كان شينزا يمتلك نوعاً آخر من الثقة، تلك الثقة التي تستفز براي، ليس بالضبط في العقل بل في الجسد، في الحواس. انتقل شينزا بوعيه الفوري، بصوره الحية للغاية التي يشعر أنها إنذار غريب. تحرك القلق بامتعاض في الأرض المرصوصة لكينونته، آثار لمسة على عصب كان (بالطبع) قد ضمر منذ زمن طويل، مثلما يتموّت العصب المبهم بفعل النضوج وتكف الغدة النخامية عن القيام بوظيفتها عندما يكتمل النمو. كانت قدما شينزا القويتين العاريتين المشوهتين بفعل الحذاء، تطأن الأرض الطينية بالحركة شبه المسرحية لأداء عطيل لدوره أمام قبرص. كان يدخن السجائر المهربة عبر الحدود؛ أصدقاء عبر الحدود: الذين يملكون السجائر ربما يملكون المال والسلاح أيضاً. والطفل؛ لماذا بقي الطفل يظهر على نحو غير متوقع؟ كان شينزا يحمله في يده بشكل عَرَضي مثلما أنجبه بشكل عَرَضي من تلك الفتاة. حتى أنه لم يتبجح باتخاذه لزوجة جديدة شابة، فقد كان ذلك لا يساوي شيئاً بالنسبة له، لا شيء يخلفه.

سيبدل الرجل حياته، هكذا فكّر براي بحرقة. لم يصبح مويتا أكثر من العامل الذي سيحقق وجوده ذاك، يحرضه على الكينونة. ربما كان شينزا في الثلاثين مثلما

Twitter: @alqareah

كان من الممكن أن يكون في الأربعين. لا، لم يكن، ذلك أنه رجل ينضج مثل شاب - شيء مختلف تماماً - كان مدفوعاً، بشكل طبيعي تماماً، بشكل مقبول، إلى الاستمرار في العيش طالما بقي على قيد الحياة. سيكون عليك أن تصرعه، أن توقفه.

كان البيت في ويلتشاير بكل جماله وترتيبه المريحين، بروائحه الزكية المنبعثة من الزهور الغضة والطبخ الجيد، وإراقات الخمر المدروس والمنتقى بعناية، قد راود براي بكل التفصيل الهادىء لطقوس موت مثيرة: أن يستيقظ المرء، هناك مرة أخرى، يعني أن يجد نفسه راضخاً ومدفوناً على قيد الحياة. في الوقت نفسه شعر بإحساس مروع بالخيانة. كانت أوليفيا تتجول هناك، النعناع والسجائر على طاولة الليل، ساقاها الطويلتان اللتان ترتديان جوارب صقيلة تحت التنورة التي تتهدل قليلاً بشكل دائم عند الظهر. إنه تفصيل مأخوذ من لوحة، معزول ومقرّب إلى العين. فجأة حاول أن يتذكر ما الذي يجب أن يكون داخل جسد أوليفيا. لكنه لم يقدر. فكان كل ما توصل إليه، وهو يقود السيارة وحيداً عبر الغابة الكثيفة الدغل هو المنعكس الدافىء لبداية انتصاب، استجابةً للفكرة المعممة للدفء ضمن النساء، ضمن أية امرأة. تحول دماغه إلى مويتا مرة أخرى. انكمش جسده. لا ينبغي عليه ذلك. ربما كان على خطأ بسؤال مويتا حول أي شيء. لقد أوضح منذ البداية أنه لن يستغل أي رابطة سلطوية تنشأ من تزاملهما، لأنه كان يرى من البداية أن ثمة خطراً دائماً - على علاقته الشخصية بمويتا - في أن تصبح هذه الرابطة مشوشة ببعض الانتحال المتبقي للسلطة من الماضي الاستعماري. الرجل الأبيض في أفريقيا لا يعرف كيف يرى نفسه إلا بمثابة الناصح المخلص. ينظر في المرآة، وهناك حيث الافتتان القاتل بالصورة القديمة، لا يهم كم، الآن، سواءً كان موظفاً مدنياً تحت شعارات مبتذلة أو ليبرالياً أبيض أدار ظهره للمستوطنين وتابع مع الأفارقة إلى لانكاستر هاوس. إذا لم أحب ما يفعله مويتا، فمن الأفضل أن أخرج وأذهب إلى وطني في ويلتشاير. أكتب مقالاً لأجل النيوستيتسمان، من هناك. كاد أن يتكلم إلى نفسه بصوت عال. تمنى أن تكون أوليفيا في البيت في غالا، عندما يعود. شعر فجأة أنه وحيد، كما يمكن أن يكون قد شعر بالبرد، أو التعب. بدأ يكتب رسالة إلى أوليفيا في رأسه، يخبرها فيها أن تحزم أمرها وتأتي بسرعة. شعر أنه يفتقدها كثيراً جداً.

تمنى لو أنه عاد إلى غالا في الليلة التالية - كان بإمكانه أن يفعل ذلك، استعد لقيادة السيارة في الليل حتى الساعة الواحدة أو الثانية صباحاً - لكنه تمسك على مضض بنيته الأصلية في القيام بجولة، لدى عودته، تشمل مقاطعة نومي. كانت،

Twitter: @alqareah

على الورق موقعاً لمخطط إعادة التوطين، الناس فقراء ولا مبالين، يصادفهم المرء وهم يفتشون بكد عن شغل في الغابة، بالوجوه المدوّخة لأولئك الناقصي التغذية منذ اليوم الذي فطموا فيه عن أثداء أمهاتهم. إن بعض القرى لم يكن فيه مبنى مدرسة على الإطلاق. لاح الأولاد، قذرين وصامتين، من الغابة وباعوه تلك الفطور الكبيرة مثل أقراص سكة المحراث التي تنمو في مثل هذا الوقت من السنة. كان الفحم البارد يطلق رائحة قبو ملطفة، الرائحة الضاغطة للترف وسط البؤس البشري الذي يميزه دائماً بوصفه خاصاً بأفريقية. هنا في الغابة كان ثمة بقايا طعام باذخ من وليمة آلهة ما ـ فطور ضخمة، زنابق مزهرة نابتة من الرمل، لكن لا يوجد قوت عادي لأجل البشر.

قطع المرحلة الأخيرة من طريق العودة إلى غالا باستغراق كامل للإرادة في الوصول إلى هناك، متوتراً من أي تغير في الإيقاع من شأنه أن يدل على وجود عطل في السيارة، يشطب الساعات والأميال مع كل نظرة إلى ساعته. أخيراً عندما استلم الشارع الرئيسي وابتلعته أشجار الماهوغاني في ظلها الكثيف ورأى تماماً أن الحوانيت مغلقة ـ فقد كان يوم أحد ـ ذهب إلى المكتب نفسه تماماً؛ قد يكون أليك هناك، يقوم بعمل ما. ولكن لم يكن ثمة أحد. كانت شجيرة شوك المسيح قد اقتلعت. استطاع بصعوبة أن يذهب إلى بيت أليك ـ بيته القديم، وأن يواجهه وسط سيارات دينكي والأولاد. الصوت القديم لتطبيل الأحد ينطلق مكتوماً بشكل واهن خلال فترة بعد الظهر. كانت الظهور اللامعة للسيارات تربض حول النادي. ثمة سيارة تنعطف نحو المدخل فقد توقفت عندما صار بمحاذاتها وكان شاغلها يكشر مبتسماً له بكياسة، وباهتمام. كان براوتون، السكرتير، يتفوه بشيء ما له. أنزل زجاج النافذة وكشر بلباقة ليظهر أنه لم يسمع.

ـ «أنت لا ترد على هاتفك. حاولت الاتصال بك طوال الأسبوع. لقد قبلت اللجنة طلبك. أيده هندرسون. هكذا أنت هنا، عرفت أنك سوف تسر لكنك بحاجة لشيطان لكي يمسك بك».

كانا يسدان المدخل فأومأ الرجل وقاد السيارة نحو الداخل، متوقعاً أن يلحق به براي، ووجهه مشرق بالاستعداد لاستئناف الحديث المقطوع بصعوبة.

كان هندرسون صاحب أحد حانوتي الألبسة والأجواخ المحلية: إنه يهيء الأرض على خلفية عودة أوليفيا، إنه رجل عميق التفكير. تابع براي قيادة السيارة هابطاً الطريق القذر الهادىء ماراً بالبيوت نصف المحجوبة، مرورا «بمربي أطفال» غالا

Twitter: @alqareah

الذي يدفع عربة عليها طفل أبيض وأطفال وكلاب أحد المسؤولين الإداريين السود الذين انتقلوا إلى المساكن الحكومية، وهم يثبون حول تجمع لدراجات جديدة براقة. فرزت عيناه عن النباتات الخضراء الأخرى ذاك الإطار الباسق المنفرش لشجرة التين، لا شيء قد تغير، لا شيء قد تغير. في هذه الأثناء، عندما كان كل شيء كما هو الآن، كان الغلام محبوساً في السجن في الأدغال خارج المدينة.

قام ماهلوبي بجز العشب على حواف الطريق أمام البيت. كانت المآزر منشورة وقد جفت بشكل متيبس على سياج الهيبسكوس. شعر براي بالاشمئزاز لدى دخول البنغالو الخالي المسوّر حيث كل ما سيلاقيه هو إشارات على احتلاله. فارتد إليه إحساسه بالإلحاح، صدى.

بدأ يسحب أغراضه إلى خارج السيارة ويكومها على العشب. كان الاستفهام اللطيف لأصوات الأطفال يرن عبر السكون المشمس؛ نظر حواليه فرأى امرأة وثلاثة أطفال قادمين عبر الأرض ذات الأشجار الخفيضة نصف المقطوعة بين بيته والبيت الذي عزل عنه بشكل مبهج. كانت رؤوسهم معصوبة بشيء ما ـ مناشف. لكن كل شيء ـ الاهتمام السعيد لسكرتير النادي، الناس برؤوسهم المعصوبة بالمناشف ـ كان ببساطة جزءاً من المسافة التي وضعت بينه وبين حياة هذا المكان المألوف بما كان قد سمع بوجوده هناك، تحت هذه المظاهر التي كان هو نفسه جزءاً منها.

كانت الفتاة، ريبيكا إدواردز مرة أخرى، مع ثلاثة من الأولاد العديدين الذين يجتاحون بيت آل بايلي في العاصمة. الوشلات الصابونية تسيل من تحت التربان إلى أسفل صدغها وخدها.

قال براي للأولاد: «هل كنتم تسبحون ـ إيه؟» فتعلق الطفل الأصغر بفخذ أمه. مسحت القطرة الصابونية.

ـ «من المعيب أن نزعجك. أنت ترى، فجأة لا توجد قطرة ماء، وقد وضعت هذا الصابون على شعرنا».

نزلت قطرة أخرى وسقطت على قدمها العارية.

ـ «لو كان بمقدورنا أن نلصق رؤوسنا تحت حنفية الحديقة».

ـ «بربك، تعالي إلى الحمام. سأفتح البيت».

كانت هي والأولاد جميعاً يرتدون صنادل مطاطية رخيصة. احتشدوا خلفه، وهم يطردون السكون بوقع أقدامهم المخوضة في الطين ويزيحون الفراغ بأجسامهم الغازية.

Twitter: @alqareah

فتح نافذة الحمام القاسية بدفعة واحدة، فتح الحنفيات؛ فتعالت صيحات الارتياح عندما تدفق الماء.

«حتى أنه ساخن». وتركهم له.

كان ثمة بريد غير مفتوح موجه مكتوب بخط مألوف، ورزم من الجرائد؛ ومحافظ كرتونية من المذكرات والأوراق، كما تركها. المقاطعة، المدارس، السكان تحت سن الـ18. وضع ورقة كربون بين صفحتين وأدرجهما في الآلة الكاتبة. بدأ برسالة إلى مويتا؛ ثم أخرج محبرة زرقاء رخيصة، النوع الوحيد الذي يمكنك شراؤه من مخازن غالا، وبدأ يكتب بخط يده، رسالة أو مسودة رسالة. قبل أن يتمكن من لمس شيء من هذا مرة أخرى ـ المحافظ والمذكرات. قبل أن يكون هناك هدف في الاستمرار يجب أن يحصل على جواب من مويتا. كانت الأسئلة المتلعثمة المتكررة لولد صغير. تتدفق حاجته إلى التعبير مباشرة من مفرداته تأتي مكتومة من الحمام. مزق الأوراق المغلفة لزوج من الجرائد ولفها بالاتجاه المعاكس لأجل تسويتها. إن ما كتبه، ما قاله لمويتا لم يكن حول الغلام أبداً.

ـ «إن التعارض القائم بينكما برمته هو تعارض زائف، لا أعتقد أنه يقوم على أي خلاف حقيقي في الفهم على الإطلاق، لكنك دفعت شينزا إلى موقف يتعين عليه فيه، إذا كان سيفعل أي شيء على الإطلاق، أن يعارضك، ولكن ليس بطريقة سلبية. يجب عليه أن يدعي شيئاً ما ضد ما تدعيه أنت بدونه. إذا تصرفت بشكل مختلف في السلطة عن الطريقة التي تصرفت بها من قبل، فإنه سيفعل ذلك بالطبع. لو جعلته معك، الآن، فإنكما كلاكما ستواجهان مشاكل التوافق نفسها. وستكون هناك فرصة جيدة تماماً، ومع الأخذ في الحسبان تقارب الزمالة القديمة، فإنكما ستتوصلان إلى نفس النوع من الحلول. ألا ترى ذلك؟ أو لنعبر عن ذلك بأسوأ شكل، فإن ذلك سيكفل نوعاً في الاشتراك في الجريمة على الأقل. إنكما ستتفاديان أن تجدا نفسيكما في الموقع الذي سيكون عليكما فيه أن تقوما ببعض الأشياء التي ستجدان أن عليكما أن تفعلاها الآن».

جاءت ريبيكا إدواردز وأولادها لكي يشكروه؛ فتأكد له بإدراك مجرد للنوايا السيئة أنه حتى لم يسأل كيف توصلت إلى أن تصبح غازية لهذا البيت؛ من أين جاءت؟.

ـ «هل وجدت مكاناً للسكن؟ هل لا زلت في الفندق؟»

شرحت له أنها انتقلت إلى البيت الواقع عبر غابة الدغل، وأنها تتقاسمه مع المسؤول الزراعي، نونغواي تلومي، وزوجته.

Twitter: @alqareah

- «لا أعبأ بذلك، يوجد مطبخ إضافي ملحق بذاك الكوخ الدائري من الخارج. أي شيء للخروج من الفندق، على أي حال، كان يكلفني الكثير من المال».

كان شعر الأولاد بالكاد مجففاً وشائكاً، أما شعرها فكان منفوشاً بأناقة مثل هداب قاتم مبلل من كافة الجوانب. كانت جبهتها الكبيرة الجرداء وجناحي أنفها تلمع بشكل باهت من الوضوءات. لها عينان صفراوان، مثل كلب صيد كان يملكه ذات مرة.

ذهب الأربعة في الطريق الذي جاؤوا منه، عبر الأرض الدغلية. شيء بائس؛ ثمة قصة لا أحد يزعج نفسه بالسؤال عنها - إنها وأطفالها كان من الممكن أن تقيم في هذا البيت بدلاً من الإقامة في فندق فيش إيغل بانتظار الانتقال إلى بيت آل تلومي، لا بد أن يكون قد خطر ذلك بباله. من المحتمل أن ذلك كان شيئاً من النوع الذي توقعه رولي.. لا يمكنني أن أصدق أن شينزا قد قام بحركة لكي يطردك، وهو يقف إلى جانبك كما هو مفترض. لا يوجد مبرر أخلاقي، سوى أنه كان ثمة دائماً شيء ما غامض في طبيعته، يجد بعض اللذة في كونه خلف الكواليس، معترفاً به لأجل أهميته فقط من قبل أناس قلائل في العلن... يحب أن يكون الوجه الذي يمكنك بصعوبة أن تميزه بين الوجهين الآخرين، ولكن ثمة ـــ وهو يتصف بالكسل ـــ إزاء الناس - أنت تعرف ذلك - لا يمكن إزعاجه باستمرارية التماس اليومي، فهو يصافح ويبتسم للحشود. إنه، في جوهره، رجل أناني وانطوائي. أقصد أن النجاح قد أصبح تافهاً بالنسبة له، إنه دائماً سيترك ذاك الجزء منه لك.

عاد كاليمو وطبخ له عشاءً. بعدئذ وقف تحت شجرة التين في الظلام، يدخن سيجاراً كبيراً مما لم يكن غالباً يسمح لنفسه به. كان ثمة خفافيش على الفاكهة، إنها المخلوقات الأكثر صمتاً ولا فضولاً، إنها الأسمال البالية للظلام نفسه. تساءل مع من يمكنه أن يجد الملاذ التقليدي، ملاذ القيام بزيارة مفاجئة لتناول مشروب؟ ليس إلى النادي، فالعضو الجديد يستغل حقوقه. ليس أليك. يمكن أن يذهب إلى تلك الفتاة، ريبيكا إدواردز، واحدة من الشلة في العاصمة. لكنهما لن يكون لديهما أي شيء للتحدث حوله. وانطفأ السيكار متحولاً إلى إصبع من الرماد الصلب. جرى النمل منبهاً شجرة شعرية دقيقة من الأعصاب فوق ظهره. دخل إلى البيت وكتب إلى زوجته مقترحاً عليها أن تحزم أمرها وتطير خلال الأسابيع القليلة القادمة. لقد كان عليه أن يذهب إلى العاصمة بأي حال من الأحوال، وهذا يعني أنه يمكنه أن يلاقيها ويعود بها بالسيارة على الرحلة نفسها. بعد أن وقّع الرسالة، كتب: «كل مبرراتنا لعدم مجيئك تبدو بسيطة لأننا لا نستطيع أن نسمي المبرر لوجوب مجيئك».

Twitter: @alqareah

كانت رسالة حب، إذاً. شطبها. كتب، بشكل تجريبي: «كل مبرراتنا لمجيئك تبدو مهزومة أمام المبرر المجهول لعدم مجيئك». شعر أنه لم يفهم ما قاله. لم يلصق المغلف. وضعها مع الصفحات التي غلفها لأجل مويتا، حول مويتا.

في الصباح، ترك الصفحات هناك. على الأقل إلى أن يكون قد تكلم إلى أليك. على الأقل حتى ذاك الوقت.

كان أليك وسكرتيره يبدأان النهار بفنجان من القهوة عندما وصل إلى المكاتب. كان جواً عرفه طوال حياته كلها ـ ما كان يظنه «كل حياته»، السنوات التي أمضاها في أفريقية. المكاتب لا تزال فاسدة الهواء لكنها باردة قبل اشتداد حر النهار، الموظفون يتحدثون بتكاسل من فوق أكتافهم عندما بدأوا ببطء غدوهم ورواحهم على امتداد الممرات، إنه الوقت الذي يسبق دخول حقيبة البريد. ملأ أليك كرسيه الذي يمكن دفعه إلى الوراء وسأل ريبيكا إدواردز بمزاح متفهم للعمل:

ـ «لم تنسي أن تعلقي في الفقرة ب، المقطع السابع عشر، يا فتاتي». اتكأت على عتبة النافذة، الفنجان بيد، والسيجارة بالأخرى.

ـ «لم أفعل».

بالطبع، كان من الممكن أن تتكل عليه لكي تأخذ الشغل إلى البيت في عطلة نهاية الأسبوع. قال أليك في نفسه:

ـ «أنت ملاك. وهل ستنجزين ذاك الملف حتى تاريخه، بحلول يوم الجمعة؟ هل رسمت إشارة الصليب على قلبك؟»

كان يحتفظ لأجل براي بالابتسامة التي يحيي بها رجلاً مشغولاً كان غائباً في رحلة متعة.

ـ «حسناً، كيف كانت الغابة؟ هل أمضيت عطلة سعيدة؟»

دار نقاش حول حالة الطريق. قال السيد سكوت لستانلي نكو:

ـ «أفضل شيء لسهول الباشي هو أن ينسحب» (كان نكو قد استلم السلطة من المدير الإقليمي الأبيض للإنشاءات العامة، سكوت). نقلاً عنه، كان أليك مغتبطاً بشدة بهذا الحل للمشكلة، وضحكوا جميعاً.

سأل براي: «هل يمكنني أن أتبادل معك كلمة، يا أليك؟»

ـ «أوه، بالتأكيد، بالتأكيد».

صُرفت ريبيكا إدواردز بلباقة في الحال.

ـ «خذي، خذي، لا تنسي هذا» ورمى إليها بالملف.

Twitter: @alqareah

نهض أليك، أخذ مفتاح المرحاض من مسماره الثابت، وتقدم لأجل اللحظة الذهبية اليومية قائلاً:

- «ليكن معك بعيداً، إذا أردت أن تستمعي إلى الأخبار».

وأومأ إلى مذياع الترانزستور على مكتبه.

Twitter: @alqareah

(8)

كان أليك يغسل يديه بصابون بومبا، يجففهما بخرقة من منشفة بومبا. قال براي:

«لقد انتشلت شاباً عن الطريق».

أومأ أليك برأسه وانكب باسماً على قصة يمكنه أن يحزرها.

ـ «طالما أنه لم يضربك على رأسك. أصبحت الأمور سيئة كما في المدينة. ماذا لو قضي عليك؟ هؤلاء الشباب من معمل الأسماك لن أقف لأحد منهم بعد الآن، بالشرف»

ـ «نعم، إنه من معمل الأسماك، لكنه خرج من السجن لتوه. لقد أمضى بداخله أكثر من شهرين ونصف. بدون محاكمة. لا توجد تهمة موجهة إليه. هنا في غالا، في سجن ليباسو».

جلس أليك إلى مكتبه وأصغى إلى شيء يعرفه بدلاً من أن يحزره.

مد يده وشغّل المروحة، ربما يفعل ذلك كل صباح في نفس الوقت بالضبط، ليرد الحر عندما يأتي. كان وجهه مفتوحاً لبراي.

قال براي: «أنت على علم بالموضوع».

ـ «ليباليسو وضعني في الصورة».

ـ «هكذا، كان ذلك قرار ليباليسو؟».

«كنا نراقب ذاك الشاب منذ فترة طويلة. إنه رجل شينزا».

قال براي: «ماذا تقصد، إنه رجل شينزا؟»

ـ «يوجد الكثير من عناصر باشي يعملون هنا الآن. يرى شينزا أنهم يشكلون مصدر إزعاج من حين لآخر. في النقابات وهلم جرا».

Twitter: @alqareah

ـ «أليك».

حاول براي إخراج المسألة برمتها من الواقع، حيث تركها أليك كامنة مثل قنبلة مفخخة مطمورة في حديقة منسقة:

ـ «أليك، ليباليسو سجن رجلاً لمدة شهرين وسبعة أيام».

ـ «مما تم إخباري به، كان هذا الرجل مشاغباً حقيقياً. أقصد، أنه ليس من شأني، سوى أن مصلحة المقاطعة تهمني. من وجهة النظر تلك، يتوقع مني أن أراقب الأمور بدقة. إذا كان ثمة احتمال لوجود أي مشكلة، أود أن أعرف تماماً ما هو المطلوب مني».

بنصف جملة غيّر رأيه حول ما قاله:

ـ «حسناً، يجب أن أوضع في الصورة تقريباً».

ـ «وماذا ترى في قيام ليباليسو بأخذ حقه بالقوة؟».

كان أليك ودوداً، حاول أن يستحضر النميمة على ليباليسو التي كان يتشاطرها مع براي:

ـ «طبعاً قلت له في البداية إن الحاكم هو الرجل الذي يجب عليك أن تذهب إليه لحل مشاكلك وليس أنا. بأي حال، يبدو أنه كان أمراً لا بد من القيام به بخصوص ذاك الرجل. كانوا يريدون أن يعرفوا المزيد عنه».

قال براي: «هل كان اونابو هو الشخص المعني؟»

آرون اونابو كان مدير البوليس في العاصمة.

قال براي، لافظاً كل كلمة على حدة بثبات: "وأنا لم أسمع كلمة من أحد في غالا".

ـ «حسناً، كانت لديك أشياء أخرى لتقوم بها سوى التفكير بليباليسو العجوز.... هناك».

وافق أليك بدلاً من أن يجيب: «أعتقد ذلك».

أشارت اليد في اتجاه السجن، خلف الأشجار، خلف القرية.

ـ «لقد نلنا كل شيء بشكل كافٍ في أيدينا. لكن هذه الفتاة ـ أقول لك، حياتي مختلفة الآن. عندما أريد شيئاً، فإنه يوجد. إذا نسيت شئياً، فإنها تذكرني. واعطها أنت أي شيء تريد إنجازه، أيضاً. إذا أردت أن تطبع تقاريرك. فإنها ستفعل ذلك، إنها شغيلة، يا رجل».

Twitter: @alqareah

كان براي يراقب المروحة تفتل رأسها المتحرك، وهو يصدر طنيناً، إلى اليسار فالوسط فاليمين وبالعكس وتعود ثانية. أراد أن يسأل:

- «وهل يوجد آخرون هناك مع ليباسيو؟» لكن الهاتف رن، وفي حين كان صوت أليك الدافئ المفعم بالحيوية يرتفع وينخفض بلغة الغالا، شعر بالحماقة في ملاحقة هذه القضية من خلال أليك، فغادر الغرفة مستأذناً بالانصراف.

في مكتبه قرر أن يرتب بعض المصنفات التي يحفظها هناك؛ إذ كانت تنقل باستمرار وتعاد بين [فندق] البوما والمنزل. لم يكن المكتب تحت تصرفه هو حصراً، وكان غودمزي ليتانكا، الموظف، يدخل ويخرج بحذر. أعطاه بعض الأوراق لطباعتها؛ لم يكن بمقدوره أن يعوّد نفسه على الاستفادة من تلك الفتاة. ازداد الحر وملأ تلك الغرفة الصغيرة؛ وقف عند النافذة ونظر عبر القرية المتدثرة بالأشجار. في الساعة الثانية عشرة كانت القرية تعج بالدراجات التي تنقل الناس إلى بيوتهم في المدينة الأفريقية لأجل الغداء، سيقان سوداء تصعد وتهبط، صيحات، حديث، ورنين أجراس ينم عن نفاد الصبر. خرج وكانت الشمس بطيئة، خلف السحابة، فوق رأسه. كان لديه شعور بأنه ليس موجوداً في غالا، حقاً. لقد فقد الواقع الخارجي. أو، على العكس من ذلك، إنه يحمل شيئاً بداخله يفصله عن كل هؤلاء الناس الذين كانوا بريئين من ذلك، غير مصابين به. ما الذي يفعله بينهم؟ وقعت عيناه على سروال جوساب ذي السحاب المفتوح؛ كان جوساب يدرز، يقولب طبقات البطانة الداخلية على طية صدر السترة، والمصباح العاري فوق آلة الخياطة، وصورة مويتا على الجدار. كان صهر وحماة جوساب قد حجا إلى مكة، والصهر في الدكان يرتدي عمامته البيضاء. احتفى جوساب بالمسافرين، واحد من الأدغال، والآخر من الحج، بمتعة بديلية.

- «دوهك* سيأتي، دوهك سيأتي، يا اسماعيل».

كان الصهر يطمئنه متكرماً من سخاء خبرته.

- «مضى عليّ الآن أكثر من خمسة عشر عاماً وأنا لا زلت أفكر العام القادم والعام القادم ولكن بجد، أيها الكولونيل، إنني أخطط للقيام بالرحلة».

في المخزن العام، حيث كان عليه أن ينتر اسطوانة الغاز المنزلي، كانت التغيرات جارية على قدم وساق: فقد كان الباب الدوار لأمين الصندوق يركّب عند اللافتة الجديدة التي كتب عليها /خروج فقط/، وهو عبارة عن باب ثاني كان مسدوداً في

* يقصد (دورك سيأتي) (المترجم)

Twitter: @alqareah

السابق بلفائف اللينوليوم ومغاطس الصفيح. من قبل كان الرجال والنساء الذين يرتدون الصنادل البلاستيكية المصبوبة، التي يرتديها الآن كل من يستطيع شراء الأحذية، كانوا يندفعون ويدلفون لأجل الحصول على حصة من المواد الغذائية الموجودة في السوبر ماركت، فيحصلون على مشط جيب مجاني مع كل شرية يتجاوز ثمنها جنيهين وست بنسات. كانت امرأة عجوز مخبولة تجوب شوارع غالا قد أصبحت بطريقة ما خلف الباب الدوار ترنّم وهي تروح وتجيء في حارات المعلبات والمنظفات.

قام بجولة مروراً بالسجن بدلاً من الذهاب إلى البيت. ظن أن ثمة طريقاً تلتف حول التلة الواقعة خلف المستشفى وتؤدي إلى طريق السجن. عندئذ تذكر ـ بينما تلاحقه الكلاب النابحة لعائلة مقيمة هناك بالقوة ـ أنه خرج عن الطريق ورأى أنه يصعد مباشرة مكاناً أجرد ذا أبنية منخفضة محجوبة عن الشمس، مثله مثل أي معسكر او سجن في إفريقية. لم يعرف ما الذي كان بانتظاره؛ فقد كان ثمة سياج مرتفع جداً، سياج جديد من الشبك الماسي، الشائك في أعلاه، وضوء خفيف متموج؛ وكان العلم الجديد متهدلاً. لقد دخل إلى هذا المبنى مرات كثيرة، عندما كان مفوض المقاطعة، فكان يعرف الساحة الحارة، البيضاء، ورائحة المعقمات والمنيهوت الحامض. لم يترك أي سجين سياسي هناك أثناء فترة الإدارة البريطانية؛ فقد أرسلوا جميعاً إلى معسكرات الاعتقال في الحالات الطارئة المختلفة. كان قد رأى اولئك، أيضاً، في المخيمات المنصوبة في أماكن نائية حيث لا يسكن أحد، وهناك في الداخل كانت تمر الأسابيع والشهور والسنوات، في الحر والعزلة. فيها ضرب الناس؛ وفيها ماتوا من الديزنطاريا. لم تشفهم لجنة التحقيق أو تعدهم إلى الحياة.

تضخم اهتياجه في هذه الرحلة من سهول الباشي. فقد نجم ذلك عن البهرجة غير العادية؛ إذ كان ينظر إلى الأمر بنزاهة. ألقى نظرة على الظهر المتقرح للغلام، لكنه كان حقاً شيئاً لا يمكن تصوره، بالنسبة لمويتا، وله ـ ولأي شخص سبق له أن غامر بالخروج من ويلتشاير؟ ارتجفت يداه ـ هل هو خوف عادي؟ كانت إدانة ذلك هي المركز لكينونته مثلما كانت العضلات المدفونة التي تضخ الدم في صدره. أما الارتعاش بشكل عذري من معرفة أن ذلك قد حدث، هنا تحت أنفه..

جزء من المعرفة الشائعة: الهواء الذي نتنفسه؛ لقد عشت حياتي كلها مع ذاك النتن في المنخرين، فلماذا أتقيأ، الآن؟ إنك تشتغل ونتن العنف في أنفك تماماً مثلما يجب على الطبيب أن يعمل ضمن شرط المرض والموت.

Twitter: @alqareah

دار برغي الظهيرة على كل شيء. توقف في البيت الخالي من النسمات عندما جلس إلى الغداء الذي حرقه كاليمو (فقد كان كاليمو أقل كفاءة بكثيرٍ مما كان موجوداً في الذاكرة، في أوربة، أم هل إن السبب هو أن كاليمو أكبر سناً، عجوز؟ لاحظ براي حلقة مائلة إلى الزرقة مثل الحلقة التي تحيط بالقمر تميز القزحية البنية عن اللون الأصفر المعرّق بالأوردة الحمراء لكرتي عين الرجل. كلما فكر في مواجهة مويتا أصبح شكوكاً بشكل ملح في هدفه، وبما وراء تلك المادة الظليلة لسلطته ـ مثل منطقة الظلام فوق عضو مشتبه بإصابته في صورة بالأشعة السينية ـ . لو كانت قضية الغلام مثالاً على سوء استخدام السلطة من قبل مسؤول يتصرف بحرية بالسلطة الجديدة الوليدة، لكان من الممكن للمناقشة مع أليك بحد ذاتها أن تكون كافية لوضع نهاية لهذا الحادث الخاص؛ إذ أن أليك سيوصل الكلمة إلى ليباليسو، وسيخاف ليباليسو من التصرف مرة أخرى إرضاءً (بشكل مفترض) للورد صغير من اللوردات المحليين لحزب استقلال الشعب. إن تدخل مويتا يمكن أن يمضي خطوة أبعد ويضمن توبيخاً لليباليسو. إلا أن حوادث أخرى كهذه سوف تستمر في الحدوث ولن يسمع بها أحد، لن ينقل عنها أحد أي كلمة. ستكون الطريقة الوحيدة التي يمكن بها أن يعولوا على عدم حدوثها بالمرة، لو سارت الأمور بشكل جيد بما يكفي، ولفترة طويلة بما يكفي، في البلاد لكي يقوم قانون الكفاءة بإلغاء بديل السلطة الصغيرة بين الإداريين والموظفين. عندئذ لن يبقى سوى ذاك النوع من إساءات استخدام السلطة الذي يستهدف الربح بدلاً من البشر، والذي يتمتع بقداسة القِدم بشكل صامت في الدول الديموقراطية في الغرب والشرق. ولكي يسير البلد بشكل جيد كفاية، على مدى طويل كفاية، فإن مويتا بحاجة إلى مساعدة شينزا.

ولكن ماذا لو أن ما حدث للغلام هو ما أمر به اونابو، من العاصمة؟

لو كانت هذه الأشياء جزءاً من النشاطات المنتظمة للفرع الخاص، أمن الدولة ـ مهما يكن الاسم الذي اختارته هذه المنظمة لتعمل به؟ ـ لتبرد ذهنه بالرفض. مع أنه عاش طويلاً، وعاش هنا طويلاً، بين البيض والسود، بحيث أنه كان شبه عارف أن ذلك لا يمكن أن يكون غير ذلك. وإذا كان الأمر كذلك، فإن ما تجدر الإشارة إليه أكثر من ذي قبل هو أن البلد لا يمكن أن يتحمل أن يصبح مويتا عدواً لشينزا.

كان مويتا في دولة مجاورة، في زيارة رسمية لعدة أيام. لم يتمكن براي من رؤيته فوراً. لم يودع الرسالة التي كتبها له، والرسالة التي كتبها لأوليفيا، أيضاً. جال حول البيت والبوما والشارع الرئيس العريض الداكن الظلال التي تشكل غالا، مثل

Twitter: @alqareah

شخص رزم اغراضه وأرسلها مسبقاً إلى وجهة مجهولة. ظل بعيداً عن الناس القلائل الذين تعرّف عليهم ـ آل أليك، آل تلومي. في أحد مواعيد الغداء في الطريق إلى البيت توقف لتناول زجاجة بيرة في الحانة «الأهلية» قرب أشجار البائعين. كان شباب الصناعات هناك؛ نخبة غالا، ذوي الدخل المنتظم كل أسبوع بدلاً من الدخل المنقطع، من غلة صندوق المناسبات. جلس الرجال وحدهم على المقاعد القذرة إلى ابريق من الجعة المحلية، بعيون دامعة وثياب رثة، يفتلون القطع النقدية والنشوق (السعوط) بين أكياس التبغ القطنية بذاك التلمس الإصبعي الحريص الذي يمضي به المعمرون الوقت المتبقي لهم من الحياة.

كان الشباب يشربون البيرة الأوربية المعبأة في زجاجات من المعمل المحلي. وكان يسمعهم وهم يتجادلون حول كرة القدم وسعر البطاريات الخاصة بالمذياع. البعض منهم يرتدي شارات حزب استقلال الشعب كما كان الآخرون يرتدون الأزرار الممنوحة من شركة مشروبات غير مسكرة. تجاهلوه بشكل مريب؛ انتقل أحد المسنين إلى مقعده بإيماء تحية احترام.

عند التحويلة الفرعية للطريق حيث يقع منزله، لمح سكرتيرة أليك التي كانت تتأفف من الحر. كانت جبهتها تلمع مبللة فوق النظارات الشمسية.

قالت: «إنه لا يبعد سوى مئة ياردة أخرى»، لكنها صعدت إلى السيارة.

ـ «لقد تعطل الدبرياج. سيكلفني أربعة عشر جنيهاً».

ـ «من الجنون أن تسيري في هذا الحر. يمكنني دائماً أن أقلك إلى العمل».

قالت: «حسناً، لم أكن أريد أن أجبرك على الصعود والنزول في الثامنة والثانية عشرة.. أقصد، ليس عليك أن تلتزم بساعات المكتب.. أليس كذلك....»

كان البيت بارداً، فاسد الهواء، معتماً، خاوياً؛ فقد أسدل كاليمو الستائر المضادة للحر، والستائر الرقيقة الملونة بشدة مثل الرايات المانعة للضوء. كان ذلك صحيحاً، لم يكن عليه أن يلتزم بساعات الدوام في المكتب، فعمله هو من ابتكاره هو، وهو مسؤول أمام نفسه فقط. تلك هي الشروط التي وضعها لكي يجعل نفسه مقيداً. إن الرنة الصغيرة لفنجان أعيد وضعه في الصحن والصرخة الخافتة لبراته قد رافقتاه إلى الطاولة في الغرفة الداكنة. حسناً، لم يكن ثمة مبرر لأن يتوجب على أي شخص أن يمشي تحت الشمس، لمجرد أنه لا ينبغي عليه أن يعود إلى البوما أو أي مكان آخر، في الساعة الثانية. وفيما كان يتناول القهوة أرسل كاليمو مع إشعار مكتوب ومفتاح الفولكسفاغن إلى فتاة إدوازدز لكي تستخدمها. قال كاليمو:

Twitter: @alqareah

- «الدونيا مسرورة جداً. تقول لك شكراً، يجب أن تجلب الأولاد، شكراً لك».

أنجز بعض الأعمال تحت شجرة التين؛ فيما هو يكوم تقاريره التي أرسلها إلى انكلترا أيضاً بحثاً عن أية أدبيات متوفرة حول أنظمة التعليم في البلدان المتخلفة، ثمة مجلد يعالج أمريكا اللاتينية من ضمن المواد التي وصلت بالبريد عندما كان في سهل الباشي. انكب على القراءة وتدوين الملاحظات، فأضفت الأسماء الإسبانية غير المألوفة مادة قيمة لشخذ انتباهه الذي يعمل بسلاسة وشفافية.

مشى متثاقلاً في الحر الذي يجعل الجو سميكاً مثل الجيلاتين الذي يخثر سائلاً. كانت الحديقة مكاناً سيئاً في ذاك الوقت من النهار. كان بياض الشمس تحت السحاب يحرك لهب اللحام على امتداد الخطوط العامة للأفرع والأوراق الجلدية ويندفع في العصب الذي تخثر عيناً سيكلوبية، بين عينيه. مع ذلك كان من الصعب بمكان أن يتحرك داخل البيت. في الرابعة والنصف، وبما أن هذا هو الموعد الذي يأتي فيه الموظفون الاستعماريون إلى البيت، أحضر كاليمو الشاي، فطلب براي ماء بارداً أيضاً. أوجع أسنانه وبدا أنه يلامس العصب بشكل مؤلم في تلك العين الثالثة. ترك الكتب تحت الشجرة ودخل إلى غرفة المعيشة المحجوبة عن النظر، وقد راوده في الحقيقة ذاك القرار عندما دخل: سيذهب إلى العاصمة غداً. استلقى على الأريكة التي انكمش غطاؤها الرخو تحت ثقله، ودخن سيكارة تشيروت. كان ذهنه مشدوهاً بما قرأ. نام، ولا بد أنه ظل نائماً لأكثر من ساعتين.

كان يصحو في غرفة آخذة بالتبرد وتزداد ظلمة إذ ينسحب النهار منها في عتمة وردية منعكسة من إحدى تلك الغروبات الساطعة خارج الشرفة. كان الهواء مرقشاً بالورد والظلمة مثل باطن جفن. ثمة شكل يتحرك في الغرفة. كانت تضع المفاتيح على الطاولة بدون أدنى صوت، حذرة لئلا توقظه. توقفت كما يفعل الطفل في ألعاب «التماثيل» عندما رآها. ثمة طنين في أذنيه - طنين صراصير الليل حول البيت، من الحديقة. مد الشكل القاتم لذراعه - لاستلام المفاتيح؛ إيماءة اعتذار. - ثم، بتردد الثانية، استدارت بتلك الحركة الجانبية للردفين التي تنتقل بها المرأة بين قطعتي أثاث، أقبلت، وأخذت الساعد - ليس اليد، بقبضة العزاء الغريبة، نوعاً من المكوث. كما لو أنه كان يغط في النوم بدلاً من كونه يصحو من نومه، رأى بوعي ووضوح كبيرين أنه بشق النفس قد فهم في حينه: تراجعت يداها، راحتها مفتوحة، نهداها مكشوفان بفعل الإيماءة اللاإرادية للتراجع، اليوم الأول الذي يدخلها إليه عندما فتح باب المكتب وكانت هناك خلفه. كانا ينظران أحدهما إلى الآخر لكن

Twitter: @alqareah

الوجهين كانا كتلتين مركزيتين في نصف الضوء لئلا يُميزان كصورتين. قال: «اجلسي» وفتل ساعده في قبضتها ليأخذ معصمها ويضغطه إلى الصوفا.

قالت: «كان الباب مفتوحاً» وهي تجلس بجانبه. كان الظلام يخيم في كل أنحاء الغرفة. كانت مرآة ذات مصباح ليموني اللون معلقة في الباب.

- «لا أعرف متى أصابني هذا الصداع».

- «أوه صحيح؟ كانت الرطوبة رهيبة في حوالي الساعة الثالثة».

- «هل الفولكسي يسير على ما يرام».

- «كانت بركة. الأولاد في الطرف الآخر من المدينة، عند آل رايلي».

سينهض، ويشعل المصباح، ويقدم لها مشروباً. فيما كان يفكر في ذلك - استولت عليه رغبة شعر أن جسمه بأكمله قد امتلأ بها، الرغبة المبهمة الرهيبة التي لم يسبق له أن شعر بها مذ كان شاباً مفرط النمو.

برغم ذلك، لم يكن وحيداً؛ فقد قبّل الفم وداعب اللحم بمهارة تنم عن الخبرة، نهض ليتأكد أن كاليمو ليس في المنزل وليقفل الأبواب، ووقف هناك للحظة، يلقي نظرة على الشكل الوماض للجسد الذي كان قد جرده من ثيابه التنكرية، الطراز البدائي المألوف والأعجوبة بآن معاً. تذكرّ أن يسألها ما إذا كان ذلك حسناً، فقال الصوت في العتمة: «لا» واثقاً.

بدأ يمارس الحب معها، بدءا يتغازلان بشراسة، وفيما كان جسده ينفلت منه بشكل استثنائي، كان يفكر بشينزا، ابتسامة شينزا الواثقة، قدمي شينزا العاريتين القويتين، شينزا الذي يدخن السيكار في الغرفة التي تفوح منها رائحة الطفل. شينزا. شينزا. أخرج منها صرخة انتصار صغيرة، وعاود الكرة مرة أخرى.

التقطت ملابسها بالتحسس وذهبت لارتدائها في غرفة الحمام. فظهرت له، مع اشتعال الضوء هناك، الأريكة، وطاولة الأوراق المبعثرة، وخزانة الكتب المحتشدة بالكتب المرتبة بعناية على رف واحد ورزمة الفواتير والمصابيح الاحتياطية. جرى صرصور تحت البساط. ارتدى سرواله وقميصه ومضى إلى المطبخ ليجلب الماء لأجل المشروبات. لكنها خرجت وقالت بلطف، بصراحة: «ماذا عن غلامك؟ من الأفضل أن أذهب». وكانت تقصد أن الخادم ربما قد لاحظ العتمة والباب المقفل؛ لو أن أحداً رآها الآن فسوف يرتاب في الظروف غير العادية. ذهبت قبل أن يكون ثمة ضرورة لنوع من إظهار الحنان، لإظهار التغير في معرفتهما ببعضهما البعض كغريبين. نزلت عبر الحديقة ثم عبر الأرض الحراجية الفارغة كما اقترح عليها. سمع الكلاب تنبح

Twitter: @alqareah

لدى اقترابها؛ لقد وصلت إلى البيت لتوها. تأكد له أنه قد مارس الحب معها دون أن يرى وجهها. صار وحيداً في البيت الهادئ مرة أخرى، فتذكر الآن أن هذه هي ليلة خروج كاليمو للذهاب إلى الكنيسة وإلا لكان بمقدور العجوز بسهولة أن يأتي ويضرب على الباب بقوة. كان القمر طالعاً ويسطع على الكتب التي تركها في الحديقة كما يسطع على الحجارة في مقبرة.

نفض غبار سهل الباشي عن حقيبة ملابسه ووضع فيها أشياء قليلة مرة أخرى. حاول أن يجري مكالمة مع رولي داندو لكن المقسم أجاب بعد ساعة أن لا أحد يرد. أخذ مصباحاً وبدّل إطاراً مهترئاً للسيارة. جاء النمل الطيار إلى الضوء وسفك أجنحته مثل رقاقات الصابون تحت الأقدام.

كانت تفوح رائحة عرقه وعندما اشتغل فاحت منه تلك الرائحة الأخرى بشكل ضعيف جداً. أخذ حماماً وفي الساعة العاشرة شعر بجوع شديد فخلط وجبة غريبة من كل التذكارات الصغيرة لوجبات الماضي التي اختزنتها كاليمو في البراد. غادر باكراً، مستيقظاً قبل طلوع الضوء. لم تكن أشجار غالا قد عادت إلى الحياة بالعصافير، لكن الشارع الرئيس لم يكن خالياً تماماً. كان رجل عجوز يستريح على درجات مكتب البريد، فرحلته النهارية قد بدأت لتوها، وهو ينكش بأناة برغوثاً من إصبع قدمه الكبرى.

وصل براي إلى العاصمة في وقت الغداء من اليوم التالي ولم يذهب إلى داندو، بل ذهب بدلاً من ذلك مباشرة إلى فندق سيلفر رينو وحجز غرفة هناك. «لا مشكلة في ذلك»: قالت مارغوت ونتز بجفاف، والمفاتيح في يدها، وفتحت أبواب الغرف الفارغة والروندافلات له لكي يختار من بينها.

- «بالطبع، إن الأمور ستعود مرة أخرى، ستعود مرة أخرى الآن».

كان هجالمار ونتز ينتظر عودتهما إلى المكتب وهو يراقب وجهيهما عندما لاحا. تجاهلت زوجته التعليق.

قال هجالمار: «لا تدخل لأجل الغداء، تناول الطعام معنا».

وقالت لبراي: «طبعاً، تذكّر أنت إلى أين تأتي - هناك أسفل الممر، إلى اليمين. هل لديك مانع من الانتظار إلى حوالي الساعة الثانية؟ لا يمكنني الخروج من المطبخ قبلئذ».

بدا هجالمار في حالة من الاستنفار السعيد لدى وصوله. دخلوا إلى البار فاستولى على طلبية من البيرة الدانماركية مخصصة لشخص آخر. كان البار مليئاً، حتى أن

Twitter: @alqareah

معظم الغرف كان فارغاً. المروحة المعلقة بالسقف الواطيء تطلق أصواتاً يبدو أنها لم تتوقف منذ غادر براي العاصمة في آخر مرة. «لو يستطيع التشيكيون أن يجهزوها بخمس جنيهات لكل ألف، لما بقي فيها شيء لأجلنا....»

«اعتاد أن يكون هناك في زامبيا، مع جماعة R.s.t سكوتسمان المربوع ـ هل تتذكر؟ لقد لعب لأجل خمسة بالألف، لكن ذلك كان عندما كنت أصغر بكثير ـ نعم ـ بيت القصيد أنك لا تستطيع أن تشتغل على أقل من خمسة وعشرين بالمئة.. إنها مضيعة للوقت..»

ـ «في مكتب المدير في نيروبي، قلت، يمكنك أن تنجو بفعلتك بذاك النوع من الموقف.... عرض غبي».

الرجال البيض في مناجم البوكسيت، في إنشاء الطرق، في تجهيزات المناجم، في المساعدة التقنية، المنسوجات والقصدير، السود في الزراعة، الإنشاءات العامة، مراكز البريد والتلغراف، الوزارات تحت الطريق. كان السود متأنقين بعناية أكثر من البيض ويتكلمون انكليزية قاصمة للظهر، ممتازة بدلاً من اللغة المحلية. كانوا فتيين ووسيمي المظهر، بآذانهم الصغيرة، ورؤوسهم السوداء المستديرة، بين الرؤوس الشاحبة الصلعاء والآذان المتهدلة المحمرة من شرب الجين.

ـ «كنت في بيته البارحة، يا عزيزي، أنا أعرفه جيداً، منذ كنا في إعداد المدرسين في سالونغا ــ غير لائق، قالت الزوجة لي، كيف حصل أن السيد مابيرا لم يشاهدك في محل تشيبوي؟»

ـ «أوه نعم ـ لا يوجد شيء يمكنك إخفاءه عن الزوجة، يا ربي».

ـ «سأتحدث مع الوزير في الأسبوع القادم، نعم هذا ما أنويه....». هؤلاء شبان المرآب، يا رجل، يجب القيام بشيء ما بخصوصهم، أقصد أنهم يتهمون الشخص كما يريدون...».

كانت سفن الڤايكنغ الصغيرة المصنوعة من الموبيليا فوق البار تغزل ببطء في تيار الهواء البطيء. أقحم هجالمار في محاسبة أموال السيلڤر رينو وبنود البيع التي تم بموجبها امتلاك المحل. كان صوته يشق طريقه عبر الثرثرة بغفلة رجل بالنسبة له كل شيء هو تمظهر للمشكلة التي استحوذته. لم يكن بمقدوره أبداً أن يبيع طالما أن قانونية البيعِ الأصلي لم تكن خاضعة للتسوية، في هذه الأثناء لم يكن الرهن العقاري الأول مسدداً وقد رفض المصرف أن يعطي رهناً ثانياً بسبب النزاع على الملكية.

Twitter: @alqareah

كان البنّاء «ينفد صبره» من التعديلات التي أجراها عندما قاموا بالاستلام؛ سيكون كل شيء على ما يرام لو أن معمل الجعة قدم المال بدلاً من الأسهم؛ أما الآن مع التشريع الجديد فلم يكن مفترضاً بمعامل البيرة أن تقدم للغرباء المقيمين والذين ليسوا من مواطني البلد.

إن براي، الذي يسكن لوحده، بعيداً عن متطلبات الصداقة على مدى الأشهر القليلة المنصرمة، أصبح غير معتاد على هذه الحميمية الأوربية، هذا الانغماس الحار في حياة الناس الآخرين. كل ما كان بمقدوره أن يفعله هو أن يحرض على نوع من الأسئلة القصيرة التي تمكّن هجالمار ونتز من تخفيف الأعباء عن نفسه ـ مع أن ذلك كان مخففاً لأعباء الحقائق فقط».

شعر براي أنهما يشكلان نوعاً من الجبهة ـ « مارغوت وأنا نعتقد .....».

ـ «كل ما نحتاجه فعلاً، إذاً هو، لنقلْ، سنة أخرى لكي ننطلق ....».

بدافع من صراع أكثر سرية لم يكن بالإمكان التحدث عنه. قال ونتز بعد توقف: «الشيء الذي يجب القيام به، أعتقد، سيكون هو التحدث إلى راس آساهي».

كان الوجه السكاندنافي الوسيم المضنى ينتظر، كما لو أنه بانتظار صفعة. إن تقاطيع الإرهاق محفورة من خلال عظم الخد تحت كل عين. «إن أحد أعمامه على اللائحة ـ أنت تعرف...».

كل الشركات البيضاء الكبيرة كان لها رجل أسود رمز على لوائحها.

ـ «كلمة من هناك، وكل شيء. ـ حسناً. إن ذلك من شأنه أن يخرجنا من الحفرة في الوقت الحالي».

«نعم، إذا تم إقناع معمل البيرة».

كان ونتز لا يزال منتظراً، مستعداً لئلا يجفل. قال:

ـ «لكن ايمانويل ليس من السهل التعامل معها. زوجتي، مارغوت ـ لا نعرف كيف سيكون رد فعل ايمانويل. بغض النظر عن ذلك، كيف سيبدو ذلك، أقصد بالنسبة للرجل؟ حتى الآن، لم نشجع ذلك، هذه الصداقة مع ايمانويل».

الآن وقد سدد الصفعة بنفسه، كان متحرراً بطريقة ما.

ـ «كيف تظن أن الأمور سوف تسير؟»

ـ «أنا الذي ينبغي أن أسألك، فأنا أبعد ما يكون عن المركز».

فتح ونتز يديه للغرفة، شبكهما تحت ذقنه. «ماذا؟ ما هذا؟ لقد حصل السود على المناصب الحكومية التي يريدونها، والبيض في الأعمال التجارية كالعادة. إنهم

Twitter: @alqareah

سعداء، لم يتغير شيء. كان ذكياً جداً. عليك أن تسمعهم: يا له من شاب رائع، يا لها من حكومة مستقرة ـ أوه.. لقد كان ذكياً جداً. عندما تفكر بما قالوه عنه من قبل، إيه؟ كل ذاك الشغل حول هروب رأس المال تم نسيانه. يريدون أن يبقوا وأن يجنوا عائدات سريعة. بالطبع إن شهر العسل لم ينته. لا أريد أن أتحدث إلا عما أراه. الناس السود رغم كل شيء، من يكونون، هنا؟ الناس الذين صعدوا إلى السلطة الإدارية ذوي الياقات البيضاء الذين لم يعودوا كتبة لأحد، وعمال المناجم الذين يترقون في الوظائف التي كان بإمكانهم أن يشتغلوها من قبل وبقوا بعيدين عنها بسبب الرجل الأبيض. لذلك أقول إن الأمور تسير بشكل جيد جداً. إنه يتصرف بشكل جيد جداً. ما هو حال بقية البلد؟ أنا لا أتجاوز مزرعة الخضار حيث مارغوت تجلب المواد لأجل الفندق، أنا أذهب إلى هناك بالعربة المغلقة (الڤان) مرتين في الأسبوع، وهذا هو ما أعرفه من البلد!» ضحك في نفسه،

ـ «ما الذي يحصل هناك؟»

ـ «حسناً، هناك بعض الصناعات بدأت حول غالا ذاتها ـ لكن الاتفاقية الجديدة على امتيازات صيد الأسماك تترك منطقة البحيرة بأكملها تماماً كما هي، وسهول الباشي تحتاج تقريباً إلى كل شيء يخطر على بال المرء قبل أن يستطيع التفكير بمخططات إعادة الاستيطان هناك ـ الطرق، التحكم بمياه الفيضانات ـ كل شيء».

اعترض هجالمار: «السيطرة على حقوق صيد الأسماك تزداد بحوالي عشرين بالمئة، أعتقد. المال لا يخرج من البلد أبداً بعد الآن».

ـ «لكن الأجور في مهنة السمك لم ترتفع بنساً واحداً. بالطبع، هناك لجنة التنمية والتخطيط ـ يمكن أن ينتج شيء عن ذلك ـ لصالح سكان البحيرة. وسكان الباشي ـ إنهم يحتاجون إلى ذلك أكثر منهم حتى. لكن إمكانية صناعة صيد السمك موجودة لأجل الدخل ـ».

ـ «مخططات، لجان، خطط ـ حسناً، شياطين بؤساء ـ إنه شأنهم ـ أليس كذلك؟» : قال هجالمار ونتز.

ـ «إنه ليس لك ولي، إنها ليست حياتنا، عليهم أن ينفذوها لأنفسهم». أخذ نفساً عميقاً وحبسه للحظة: كانت عيناه تلاحقان حركة شخص يمر عبر الغرفة، ثم أطلق ابتسامة منتظرة عندما أطلت ابنته:

ـ «ايمانويل، هل تذكرين الكولونيل براي؟ إنه يقيم معنا حالياً».

قالت بالدقة اللامبالية لشخص يؤدي مهمة:

Twitter: @alqareah

- «ثمة شخص يدعى تومسون - وايت يريد رؤيتك. معه حقيبة صغيرة سوداء ممهورة بالأحرف الأولى. الشعر في أنفه مصبوغ بالنيكوتين».

- «يا إلهي، ايمانويل»

ضحك أبوها، متباهياً بها أمام براي.

عضت الفتاة الجادة، والجافية تماماً، على سأف إبهامها.

- «لذلك يمكنك أن تقرر ما إذا كنت ستراه أم لا. ينبغي أن أقول إنه قادم من المصرف أو من دائرة الصحة؛ إنه يتشمم شيئاً ما».

- «أوه، يا إلهي. من الأفضل أن أذهب. هل وضعته في المكتب؟»

أطل هجالمار أمامها برأسه المندفع أمامه بقلق. رآه براي ينظر حوله ليسألها شيئاً ما لكنها أشاحت بوجهها بعيداً فوق الطاولات. أخذ براي حماماً وجلس على كرسي مكسور في الحديقة، بانتظار الغداء. قرأ في صحيفة الصباح أن مويتا عاد من زيارته الرسمية. تم التأكيد في هذه الزيارة على الوحدة، وقدمت مقترحات مفيدة، واتفق على الخطة الكهرمائية بقيمة 50 مليون جنيهاً لتخديم البلدين بشكل مشترك من حيث المبدأ. تساءلت المقالة الرئيسية عن الجدوى الاقتصادية للخطة، المقابل لقيمتها كإثبات على الاعتماد المتبادل الذي يشمل كل أفريقيا [مما لا شك فيه أن هذا البلد يرى مصيره دائماً كجزء من المصير الأكبر للقارة الأفريقية ــ لا شك بأن الرئيس مويتا، يوم استلم أعباء المنصب، قد أخذ في موازاة المسؤوليات في الوطن مثالاً أفريقياً يقدم كياناً من التعاون الدولي لعالم فشل حتى الآن فشلاً ذريعاً في حل التناقضات القومية. لكن يجب علينا ألا نبدد مواردنا لكي نشجع التعاون عبر حدودنا. ففي البحيرة التي تشكل حدودنا الشمالية، لدينا مصدر كامن للطاقة الكهربائية التي تجعل أية خطة كهذه في الجنوب غير ضرورية، خطة هي بطبيعتها ستضع تنميتنا الصناعية الحيوية في النهاية تحت رحمة أي انعدام للاستقرار قد يتكشف في بيت جارتنا].

مرت ابنة هجالمار من أمامه تماماً فوق العشب مع راس آساهي، وهما غارقان في نقاش عميق بصوت منخفض. تجاهلا الشخص القابع خلف الجريدة؛ فالفتاة التي تسكن في فندق، تحمل عالمها الخصوصي في الحضور الثابت للغرباء المجهولي الأسماء. كان ثمة صوت أبواق يصعد ويهبط؛ لا بد أن لديها آلة تسجيل.

استقر الاثنان في مكان ما على العشب قريب تماماً، وسمع صوت ايمانويل الواضح والحازم:

Twitter: @alqareah

- «أخبرني أحدهم أن ذلك يشبه العطسة».

وقال صوت الرجل العميق الساخر:

- «يا إلهي الطيب، تلك هي الكيفية التي تُعدون بها، أنتم البيض، الفتيات. لو كنت أفريقية، لعرفت كيف تمارسين الحب، ستكونين قد تدربت».

- «أوه، إنكم فوقيون لعينون للغاية، لديكم انطباع بأن لا أحد غيركم يعرف كيف يعيش».

ساد صمت. ثم صدح باخ على المسجلة، بأنغام ثاقبة، مرتعشة، مضطردة، متصاعدة، بنغمات عالية بارعة الأداء، بصرخة معاقبة جذلة. تحلق غلمان السلاح الأبيض الثقيل لمارغوت ونتز على الطاولة المستديرة في مسكن آل ونتز بشكل مهيب فوق الأطباق فيما كانت هي تقوم بالخدمة. لقد طلت وجهها بالمساحيق لكن رائحة صلصة الفندق كانت عالقة بقوة حولها. من حين لآخر كانت تلقي نظرة على ابنها ستيفن كما لو أنها تنظر إلى كلب مدلل يلتهم طعامه، نظرة نصف محبة، نصف مشمئزة. كان له وجه أبيه الوسيم الأشقر، المنفوخ وفق القسمات المفرطة النمو للشباب البيض المولودين في أفريقيا والمتكلفة بفعل الرياضة والشمس، مثل دمى الكتاكيت التي تسير بالبطاريات. ظل هجالمار ونتز يقوس حاجبيه ويطرف عينيه، طارداً دوخة الانهماك. استسلم لضحكة غصباً عن نفسه:

- «الرجل الذي وافق على المخطط لأجل غرف الخدم بصم عليه تماماً دون أن ينظر. كان عائداً إلى انكلترا بأي حال، لم يكن بمقدوره أن يأبه بلعنة. الشيء برمته ضد الأنظمة البلدية، لا يوجد قرميد هوائي كافٍ - هل يمكنك أن تتصور أن المأخذ الرئيس للماء موصول بحيث لم نكن ندفع ثمن الماء المستهلك هناك؟».

«لقد أخبرتك أنني أستطيع شم رائحة المجارير أو المال».

كانت كل أوتار وعضلات يدي ايمانويل السمراوتين تبرزان بدقة تشريحية عندما كانت تدهن بالزبدة قطعة من الخبز.

قالت مارغوت ونتز: «ما الذي ستفعله؟».

احتكم إلى براي: «ما الذي يقولون إن عليّ أن أفعله، إيه؟ اجلب البنّاء فوراً وناقش الموضوع مع المفتش».

«هل تتناول مزيداً من الصلصة، أيها الكولونيل براي؟ لا؟ أي بنّاء؟»

أنزلت مارغوت ونتز شوكتها وانتظرت الجواب بصبر من تعرف كل الإجابات التي يمكن أن تتوقعها.

Twitter: @alqareah

نظر زوجها نظرة خاطفة: «حسناً، اتكينسون ـ من غيره؟»
«لا أظن أن اتكينسون سيعمل لصالحنا مرة أخرى، يا هجالمار».
كان ستيفن يمد صحنه من أجل دفعة أخرى من اللحم، وكان يهزه بنفاد صبر، يريد أن يتكلم لكنه مهموك بمراقبة ما يناله .
ـ «هدم عدد قليل من القرميدات، ما هذه الفوضى الكبيرة؟».
ـ «الماء، الشبكات». بسطت الأم الحقائق بلطف.
ـ «آه... سينقضي عام قبل أن يرسلوا شخصاً مرة أخرى، وإن فعلوا، حسناً، فهناك القرميد الهوائي، أنت هدمت عدداً قليلاً جداً من القرميدات ـ هذا كل ما في الأمر ».
كان الولد يقطّع الطعام بطعنه بشوكة، في هذا الوقت سد فمه به في حين قالت أخته، ويداها عاطلتان عن العمل على الطاولة: «أغمض عينيك وانتظرهم لكي يبتعدوا ، يا هجالمار».
ميزت عيناها السوداوان الضيقتان وجود براي للحظة، وبدا أن البؤبؤين يتضيقان فعلاً، ويغطان في النوم، ثم يعودان إلى الحياة سائلاً قاتماً مرة أخرى، فابتسمت له تماماً عندما كان يفكر كيف أن الفتاة لم تبتسم أبداً، تلك الابتسامة المشرقة، الحية المرحة، التي تنم عن ثقة عميقة بالنفس.
وضع الغداء بشكل مباغت حداً فاصلاً بين مشاغل هجالمار وزوجته والابن؛ فقد استدعي ستيفن من قبل الساقي، وهو رجل ملون ذو جديلة من شارب أسود حريري.
ـ «المشكلة أنك لطيفة أكثر مما يجب مع هؤلاء الشباب. صار على أحد ما فقط أن يقول إنه ينحدر من هيئة المياه أو شيء ما ـ إنها ليست نهاية العالم...؟».
كان توبيخ ستيفن المتواني ودياً، موجهاً من الباب. كشف الساقي عن سهولة تظاهر الخادم بعدم السماع عندما يكون في بيت رب عمله. شعر براي بشكل غريب أنه مصنّف معه. عندما وقف الرجل هناك يريح قدميه في الحذاء الذي بترت أجزاء منه لاستيعاب الأورام الملتهبة في أصابع قدميه. ابتلع هجالمار قهوته لأن مارغوت ونتز ذكرته أن عليه أن يكون في المحطة في خلال نصف ساعة، شرحت لبراي:
ـ «إذا لم تكن هناك عندما يدخل القطار، فإنهم يخرجون المواد من الشاحنة المبردة ويكومونها على الرصيف في الشمس».
ـ «متى استلمت الفواتير؟»

Twitter: @alqareah

- «حسناً، حسناً، ستأتيني خلال دقيقة».

نهضت متبعة غريزة ستقودها إلى النقطة التي وضعت فيها الأوراق، في الصعود والهبوط الصباحيين بين البهو والمطبخ، بين غرفة المخزن والمكتب.

أقبلت ايمانويل وقبّلت أباها على جبهته، كرمى لأمها. توقفت مارغوت ونتز، وهي ترفع النظارات لتلقي نظرة على الفواتير التي وجدتها في حقيبتها اليدوية، عندما أزاحت الفتاة بشفتيها خصلة الشعر الفاتح اللون التي تمتد فوق الصلعة؛ فارتسم على وجه المرأة الأكبر سناً اعتراف متلمس؛ ثم ابتعدت لتغرق في ذاتها، ومع نخعة من أنفها لتسوي نظاراتها، ألقت نظرة فاحصة على الفواتير.

بالرغم من أن هجالمار كان في عجلة من أمره فقد سار ببطء مع براي في الممر وهو يتحدث ويتوقف لشرح موقفه. كان الموضوع، الآن، هو الخطوط الحديدية؛ النسبة العالية للحوادث منذ أن استلم الأفارقة العمل كسائقين للقاطرات. قال براي:

- « يبدو الشرب هو المشكلة».

وجد هجالمار ونتز أنه من الضروري بشكل مطلق أن يسجل بطريقة ما الادعاءات والتصورات الخاطئة التي تهدد كل ما حولها. استحضر مويتا بدون ذكر الاسم، المحك، للضمير الشخصي الذي انخفض الصوت عنده مع تشديد عابر، بشكل لافت، المفهوم بشكل فوري. قال بانفعال: «بالطبع إنهم يشربون. عليهم أن يظهروا لأنفسهم بطريقة ما أن الحياة الجديدة جيدة. كيف أن هؤلاء البيض يعتقدون أن أسلافهم العظام يتصرفون عندما حصلوا لأول مرة على أجور مقابل عمل أسبوع في مصنع في أوروبة، إيه؟ هؤلاء الانكليز - أجدادهم العظام كانوا يسكرون على الجبن الرخيص، وهم يتكبرون على الأفارقة. لكنه هو يعرف كيف يتجنب ذلك، هو يعرف الشيء الذي يجب القيام به. الآن، إنه يجعل من الشرب قبل الذهاب إلى العمل إساءة، سكرة واحدة وتطرد من العمل. معقول، منطقي، سترى، قريباً، إيه، الرجال أنفسهم سوف يفرضون قوانين السلوك - السكك الحديدية لن تكون أسوأ مما كانت عليه من قبل أبداً».

مضى براي إلى مقصورة الهاتف العمومي على الشرفة ليتصل بالسكرتير الخاص لمويتا. ويلفريد آسوني. لكنه كان «غير متاح»، فقد جاء كلايف سمول، الـP.R.O إلى الهاتف للرد بدلاً عنه. كان مسروراً بشكل حماسي؛ تأكد له أن الرئيس سوف يسر بلقائه.

- «هل تعتقد أن بإمكاني أن أراه غداً؟»

Twitter: @alqareah

إن سمول سيبذل جهده بالتأكيد، كما عرف براي، بالطبع، أن الرجل الكبير قد عاد لتوه فقط ـ سيترك سمول مذكرة عاجلة لأجل آسوني ـ بكل ذاك التملق الذليل الواثق للأشياء المتفق عليها مهنياً في الصوت. ثم اتصل براي ببيت بايلي، لكن ما أراحه هو أنه لا يوجد أحد في البيت؛ لم يشأ أن يجول بين مجموعة الأصدقاء حتى يرى مويتا. كان متردداً في أن يذكر لهجالمار ونتز أنه ليس من الضروري أن يخبر رولي داندو أنه موجود؛ فهو سيفعل ذلك بنفسه غداً. حسناً، لم يقل شيئاً. قرر أن يترك ذلك كله للصدفة؛ وحتى إنه أخذ السيارة إلى المدينة للقيام ببعض التسوق؛ كما يحدث دائماً، عندما تسكن في موقع بعيد، ثمة رفاهيات صغيرة تكون غريبة على المحلات العامة في الوطن. ثم إنه كان حدثاً أن تدخل إلى مكتبة مرة أخرى، حتى الفقيرة نوعاً ما هنا، المخزونة أساساً بأفضل الكتب مبيعاً في العام المنصرم وروايات جيمس بوند. اشترى بنفسه كتاباً من أعمال ييتس ذا غلاف ورقي، وكتاب مقالات من تأليف بروفسور أفريقي في العلوم السياسية في جامعة أفريقية شرقية، وطبعة معادة من كتاب اسحق دويتشر بعنوان /ستالين/، فكل شيء يتم العثور عليه بالصدفة هو كنز. نسي لمدة نصف ساعة سبب وجوده في العاصمة. اشترى غرازة أوراق وزوجاً من الأقلام الكروية الرأس التي تبدو شكلاً مطوراً من النوع العادي، وقام بتجريبها بناءً على نصيحة بائعة أفريقية صغيرة مليحة ذات تسريحة بومبادور سوداء كريبية وعينين مبرجتين. ثمة كتب أطفال على واجهة المكتب، وكاد أن يشتري زوجاً من مجلة تان ـ تان للأولاد، الفتاة، وأولئك الصبية الصغار، واحد في كل يد من يدي ريبيكا إدواردز، يأتون عبر الأرض المفتوحة بين بيته وبيت آل تلومي. لكنه أعاد وضع الكتب على الرف. جمع كل النسخ ـ التي عمرها ثلاثة أسابيعٍ، من صحف ومجلات ما وراء البحار التي لم يكن مشتركاً بها، وخرج محملاً بها.

عندما عاد إلى السيلڤر رينو وجد رسالة من مكتب سكرتير الرئيس. فقد حُدد له موعد في الساعة الحادية عشرة والربع من صباح الغد. أظهر هجالمار ونتز، الذي استلم الرسالة، عدم اكتراث ـ في الحقيقة، شعر براي أنه قد أفرط في تقديره عن طريق التكتم المقتضب عمداً لونتز، الذي افترض أن منصب براي كان على الدوام منصباً سرياً، ذا نفوذ، لم يكن النفي إلى الأدغال في مشروع تعليمي غامض أكثر من مجرد غطاء له.

Twitter: @alqareah

ـ «أوه، بالمناسبة، إذا دخل رولي إلى البار، لن تقول إنني هنا ـ أليس كذلك؟ سأتصل به غداً، لكنني لا أشعر بالأنس خصوصاً في الوقت الحالي؛ إذا اجتمعنا معاً بهذا يعني سهرة سكر شديد».

ـ «جيد أنك قلت ذلك، سأحذر ستيفن».

رفعت ابنته غطاء طاولة المكتب ودخلت. كانت عظام ردفيها الناتئة توتد فستاناً قطنياً رقيقاً فوق بطنها المسطح، وهي تحمل الصندوق الموسيقي من النوع الذي يعزف عليه الأولاد.

ـ «ايمانويل، إذا كان عليك أن تري السيد داندو، فلا تذكري شيئاً حول وجود الكولونيل براي هنا».

قالت بشكل أنيق: «أنا لا أرى السيد داندو أبداً».

ضحك براي، وكان أبوها مجبراً على الابتسام، معترفاً: هكذا هي.

أخذ براي زجاجة بيرة إلى نفس ذاك الكرسي المخلّع في الحديقة، وأدار ظهره للبار والفندق. فجأة ضغطت على عينيه يدان دبقتان تفوح منهما رائحة السوس، وتشقلب الكرسي وانزاح من مكانه وسط القهقهات. كمن أولاد ڤيڤيان بايلي له، في حين أن ڤيڤيان، التي أصبحت حامل منذ رآها آخر مرة، وقفت تنتظر جانباً، مبتسمة بانتظار أن ينتهي المشهد.

ـ «يكفي الآن. لقد فاجأتِ جيمس. الآن دعيه ينهض. يكفي يا إليزا! يكفي!»

جمع الولدين من أذرعهما وأرجلهما وأقبل نحوها، فكانت الأطراف تتخبط في كل الاتجاهات. أوقعهما على العشب وقبلّها. كانت تمتلك تلك النفحة المهملة الناسية لنفسها، لامرأة تحمل طفلاً.

«لقد رأيناك عند إشارة المرور عند جسر سكة القطار. ألحا على المجيء».

كان الأولاد يصيحون: «أمسكناك، أمسكناك!».

ـ «اتصلت عندما وصلت، وبعد الغداء مباشرة».

ـ «ذهبت لأجلبهم من المدرسة. سيكون نيل مرتعباً. ذهب لتوه إلى دار السلام لمدة أسبوعٍ ومن المحتمل جداً أن يعود إلى البيت مرة أخرى. جيمس، تبدو نحيلاً وجميلاً، وكما ترى... ». ضحكا معاً، عليها.

ـ «لقد تعرقت، يا يسوع، كان الجو قاتلاً في بعض الأحيان من هذا الشهر».

ـ «حسناً، أنا أعرف، لكن كرشي ليس من النوع الذي يذوب، أخشى ذلك».

Twitter: @alqareah

- «أوه، سيزول كله دفعة واحدة ذات يوم، مع ذلك. ولا فائدة من الامتناع عن تناول الخبز...».

استعادا حيوية حبهما لبعضهما البعض على الفور، كما كانت دائماً، كما يشتعل اللهب الهادي عن طريق الالتقاء.

اقتادته إلى العشاء؛ تلك هي الطريقة التي حصلت بها الأمور في العاصمة، لا شيء قد تغير. كان المرور باتجاه البيت مكتظاً في الساعة التي تلي إغلاق المحلات؛ بعد ذلك بساعة، وتكون الشوارع شوارع بلدة ريفية، دافئة، وخاوية في الظلام. مروا بمقر إقامة مويتا مع الحرس في محارسهم. في حديقة آل بايلي أطلعته ڤيڤيان على آخر المستجدات، في حين أن الأولاد تناولوا عشاءهم على العشب. تم إرسال آل بيتيغرو إلى بيروت، وكانوا مسرورين بذلك، إذ سيقوم جو ـ آن ببعض الأعمال في الجامعة هناك؛ كان ديڤيد راثيبي، اللاجىء الجنوب أفريقي، قد اختفى لمدة شهرين وعاود الظهور؛ كان من المفترض أنه في الجزائر؛ عرض عليه تيموثي اودارا منصب سكرتارية الصحة، لكن ايڤلين جعلته يرفض ذلك لأنها تريده أن يستلم منحة دراسات عليا في أمريكا. لم يشهدوا الكثير من مويتا وجوي، مع أن الأولاد ذهبوا إلى حفلة عيد ميلاد في المقر الرئاسي الأسبوع الماضي؛ كانت جوي قد تخلصت من المرأة الانكليزية المنسقة للأزهار وكانت أسعد بكثير، تدير المحل باقتدار كبير على طريقتها الخاصة؛ بمساعدة تلك المرأة الحساسة الظريفة، عمتها، التي عملت مدبرة منزل لمدة عشرين سنة أو أكثر لدى المدير العام لإحدى شركات التنقيب عن الذهب. كان مويتا بالتأكيد ناجحاً جداً في جلب رأس المال الأجنبي، على الصعيد الصناعي؛ إن لم يكن في أسواق المال العالمية؛ فقد كان ثمة حتى عشاء طبق ذهبي مرتقب حيث يتمكن رجال الأعمال البيض من لقاء الرئيس بكلفة خمسين جنيها للتذكرة الواحدة، على أن يذهب المال إلى صندوق المنح الجامعية.

جاء نيل بايلي إلى المنزل وكان هدفاً للأطفال المتشقلبين الصائحين. إذ أنه لا يزال يبدو شبيهاً بالطالب أكثر مما يشبه أمين السجل. كان طبيعياً بالنسبة له أن يتعامل مع عدد من الناس المختلفين والمواقف المختلفة بآن معاً؛ فاندفع في إطلاق التحيات لأجل براي، مسدداً اللكمات الخلبية لابنه، مداعباً زوجته على ظهرها:

- «كيف حالك يا فتاتي؟ يا الله، لطالما كنت أمثل دور كاهن الاعتراف لحورية فائقة الجمال، حمراء الشعر في الثامنة عشرة من عمرها... إذا وجدت رغبة في

Twitter: @alqareah

نفسك... فتعالي إذا كنت بالقدر نفسه. يقولون لهن أن يأتين إليّ لمناقشة أية مشكلة مهما تكن طويلة بشرط ألا تتعلق بالجنس أو الدين أو السياسة، يا جيمس...».

بعد تناول الكثير من الخمر على العشاء شعر براي برغبة في التحدث تسيطر عليه. أراد أن يتحدث حول شينزا، أن يستحضر شخصية شينزا، حافي القدمين يرتدي عباءة النوم، فوقهم في الأفق؛ ليرى ما الذي سينبشه نيل ويفسره. تحدث حول الشخص في نفسه، بدلا من ذلك. ما هي الشائعات التي تنتشر حول مصاعب مويتا مع بعض الوزراء «هل لدى القاعدة أية فكرة؟»

قال نيل:

- «كان بول سيشيكا يسبب مشكلة على الدوام، منذ البداية، كما تعرف».

- «وقد شاع بعض الكلام مؤخراً عن تشكيل دلاميني اوكوي نوعاً من اللوبي لصالحه - توزيع أصوات الصناديق ـ وهلم جرا. ثمة الكثير من النزاع حول ذلك لأن كل واحد، حتماً، يريد أن يكون قادراً على أن يقول إنهم فعلوا هذا وذاك لأجل تنمية المنطقة التي ينحدرون منها، كل واحد يريد أن يكون الولد البار العائد إلى الوطن، لأنه جلب لهم محلجة قطن أو مسلخ ماشية. لا أحد يريد أن يترك للجنة التخطيط لكي تقرر ما الذي تحتاجه كل منطقة. نعم، اوكوي وموسى فاهلي كانا يظهران علامات الاستعداد لربط نفسيهما بسيشاكا، كما لو أن سمكة الزامور ترتاد الأماكن. لكنني لا أعرف، لا يمكنني أن أرى سيشاكا يهدد مويتا فعلاً، هل ترى أنت ذلك؟ أنا لا أرى أنه سوف يستمر خمس دقائق مع مويتا، لا أظن أنه يمتلك المقدرة والمعرفة اللازمة. فقد تردد بشكل سيء على هذا المخطط الكهربائي، الآن. لا بد أنك قرأت ذلك؟ ضغط أولاً على الـ P.M ليذهب رأساً. «آسِف» بسبب قلة ما يتم عمله لإثبات الصداقة والأخوة العمليتين وهلم جرا - مع البلدان الأفريقية المجاورة. ثم غير رأيه فجأة وقدم ادعاءات بحق في البحيرة بسبب مخطط من عندنا - لم تكن فكرة سيئة، لو لم تكن بسبب حقيقة أنه سيكون علينا أن نتحمل الكلفة بأكملها وحدنا، في حين أن المخطط الآخر يجعل الكلفة مشتركة ويكون التمويل بأي حال مضموناً تماماً؛ فأمريكا وألمانيا الغربية وفرنسا تلعب أدواراً. «هذا هو الخط الذي انتهجته صحيفة الصباح، فهمت».

- «أعرف، مجرد مصادفة، لا أظن أن سيشيكا له أي نفوذ هناك. إنها رغبة ايڤان بلاك في المحافظة على الإشاعة المتداولة حول كونه استفزازياً».

Twitter: @alqareah

قالت ڤيڤيان: «إنه ظلم، يا نيل. أنت تعرف أن أيڤان يعتقد أن الناس في الشمال منسيون».

سأل براي: «ولكن لو كان هناك من هو أقوى من سيشيكا، هل كان يتعين على مويتا أن يقلق؟» .

تجشأ نيل، هازا رأسه، وعندما استطاع أن يتكلم قال:

ـ «آها! لكن تلك قصة أخرى، يا جيمس. هذا الشيء يثير القلق دائماً. لو كان تولاتولا على سبيل المثال، حتى لو لم تكن هناك مظلمة حقيقية لكي يصعد بواسطتها».

«ألا تعتقد أنه يوجد ظلم حقيقي؟».

ـ «لا أعتقد. أعني بالظلم الحقيقي أن مويتا سوف يخفق، سيفشل في الاستفادة مما هو متاح له لصالح هذا البلد».

حكى لي هجالمار أن الصناعيين يدفعون خمسين جنيهاً لمجرد تناول العشاء معه.

كشر نيل: «يا إلهي، إنه شره للعقاب، مويتا العجوز تحدث عن أعمال براي وحكى براي حكاية أو اثنتين حول غالا. كيف ارتفع اسمه في النادي لأسابيع إلى أن جاء بعده تاجر الألبسة الجريء».

كانت ڤيڤيان غارقة في مناقشة مع صديقة على الهاتف؛ عادت بعد برهة وقالت: «هل عرفتم أن مويتا سيلقي خطاباً بالراديو في منتصف الليل؟ لقد تم الإعلان عن ذلك كل ساعة طوال فترة بعد الظهر».

فتح نيل زجاجة أخرى من النبيذ.

«أعطي العقد للصينيين. ألغت ألمانيا الغربية وأمريكا وفرنسا القرض. أو أنهم سيبنون سدين ـ سد البحيرة أيضاً. يا إلهي، يا إلهي. لا يمكننا أن نأوي إلى الفراش».

نظرت ڤيڤيان إلى براي. قالت: «إنه متعَب. لقد ساق السيارة مئات الأميال».

شعر بالإحراج بسبب مويتا. لماذا منتصف الليل؟ من نصحه بهذا الشيء؟ ربما لم يعرف أن هتلر كان يختار الساعات المتأخرة من الليل أو ساعات الصباح الباكر لأجل خطاباته، عابراً أرض الأحلام، غازياً عقول الشعب عندما يكون ضغط الدم ومقاومة الأعصاب في أدنى مستوياتهما.

ـ «بالتأكيد أن منتصف الليل سيكون أسعد وقت لإعادة الكلام حول سده».

ـ «تقول جوي إنه لا يأوي إلى الفراش قبل الثالثة، بأي حال».

بدأ نيل يهرش رقبته بقلق:

Twitter: @alqareah

- «هل سنتصل مع جيني بيني وكورتيس لكي ينضما إلى السهرة؟»
قالت ڤيڤيان بلطف، نظراً لأن لا شيء سيوقف نيل إذا شعر بالحاجة إلى الأصحاب:
- «لم نر جيمس منذ أشهر. أريد التحدث إلى جيمس. ريبيكا تكتب أنها حصلت على بيت قريب منكم تماماً؟ الحمد لله أنها خرجت من الفندق. أعتقد أن أليك لم يكن قد رأى مكاناً لها لتسكن فيه قبل أن ينال منها. أي نوع من الرجال هو؟ أنت تعرف، مع ريبيكا، الناس يستغلونها فحسب».
كانت تنشد الطمأنينة.
قال براي: «نصف بيت. إنها تتقاسمه مع بعض الناس».
في حين أطلق نيل ضحكته القصيرة وقال بولع:
- «بيكي الغابات الخلفية، العجوز البائسة، يجب أن نكتب لها».
- «لكن أليك: هل تعتقد أنه على ما يرام؟»
- «طبعاً، يا عزيزتي، سوف يغازلها. إذا كان هذا ما تقصدينه»
قاطع نيل: «ماذا تتوقع غير ذلك؟ إن لها ذاك التأثير، بيكي».
قالت ڤيڤيان، دفاعاً عنها ضد أليك:
- «ليس صحيحاً أن هذه الفكرة ينبغي أن ــ بشكل من الأشكال ـ إنه على العكس تماماً، إذا كنت تعرفها حقاً. إنها لا تسعى وراء الرجال إطلاقاً. لكنه نوع من الشفقة الشنيعة».
قال نيل بعدوانية: «أوه حقاً. هل هكذا تسمونه أنتن النساء؟».
- «أوه أنا أعرف أنك لا تحب الفكرة. ربما كان فيك شيء».
كانت تتكلم إلى زوجها، الآن، وببطء بدءا يلتقطان الكلمات كالحجارة. شعر براي بالخجل بشكل لامبال، من لا رسميته. لكن كل ما قاله كان بالنغمة نفسها:
- «أليك شاب طيب للعمل لأجله، أعتقد. إن أولادها قد أدخلوا إلى المدرسة المحلية».
في منتصف الليل كان صوت مويتا يملأ الغرفة. جلسوا ساكتين بشكل حالم لا ينظرون إلى بعضهم البعض. كانت يد ڤيڤيان اليمنى مضغوطة إلى جانب بطنها لتهدئ الحركة الوحيدة في الغرفة، المتحركة هناك.
أعلن مويتا عن الإدخال الفوري لمشروع قانون الحبس الاحتياطي.

Twitter: @alqareah

(9)

كان ذلك كله هناك، منشوراً، مرة أخرى، في جريدة الصباح. عندما قرأه سمع صوت مويتا، كما لو كان موجهاً إليه. وضعت أنظمة الطوارئ موضع التنفيذ لفرض مشروع القانون بالقوة فوراً بدون الإجراءات البرلمانية المعتادة. إن الخطوة قد «اتخذت بأكبر قدر من الامتعاض» ولكن «بدون شك بدافع الضرورة».

«سأكون خائناً للشعب، الثقة المقدسة بمستقبله، لو لم أتصرف بسرعة وبلا تردد ـ بدأ بعض الأفراد يقضمون سراً مؤسسات الدولة التي أرساها الشعب بشكل راسخ جداً من خلال عمله وتفانيه. بعض الأفراد غير قادرين على استيعاب الطموحات الشخصية، الغايات الصغيرة في القضية العليا لتوفير السلم والتقدم للأمة ـ وهي قضية أظهر أدنى الناس في أمتنا أنهم كفؤون لها في الوقت القصير المنقضي منذ أن ملكنا بلدنا بأيدينا ـ بعض الأفراد مستعد لتدمير المصلحة العامة لأجل الطموحات الصغيرة. إنهم ضعفاء وقلة، وطالما أنكم تثقون بقادتكم وتدعمونهم، فلا داعي لأن تخشوهم. إنهم صغار كالنمل. لكنهم جشعون أيضاً كالنمل؛ إذا قلنا، أوه، إنهم مجرد عدد قليل من النملات، فقد نصحو ذات يوم ونجد الأساسات تنهار تحت كل ما بنيناه. يجب أن نأخذ السلطات لوقف الفساد قبل أن يبدأ، للتصرف في حين لا يزال هناك وقت لتحويل هؤلاء الناس عن الأخطاء التي وقعوا فيها، ولكي نظهر لهم أين تكمن مصلحتهم الحقيقية فعلاً، مثل مصلحتكم ومصلحتي».

نسخت الجريدة على خمسة أعمدة صورة مويتا وهو يبتسم من باب الطائرة عندما وصل عائداً إلى البلد قبل أيام قليلة، والمقالة الرئيسية التي كتبت علامة استفهام، أشارت إلى أنه لا يوجد سبب يدعو للارتباك والذعر؛ فالرئيس ما كان ليغادر البلد لو لم يشعر شعوراً تاماً بأنه مسيطر على الوضع.

Twitter: @alqareah

صاح النادلون لبعضهم البعض عندما شاهدوهم يلفون حول الروندافيلات في السيلفر رينو وهم يطرقون الأبواب لتسليم شاي الصباح والجرائد. (بين الإصبع والإبهام أمسك براي زوجاً من النمل الذي اكتشف السكر بسرعة). ثمة غلاية مشتعلة. الجرس القرصي الموسيقي ذو المفتاح المعطل الذي يرن في طول وعرض الكوريدورات والحديقة للإعلان عن الوجبات يرتفع ويخبو، مثلما فعلت مسجلة الفتاة في اليوم السابق. كان وقع الخطوات يضرب بقوة وعنف فوق المسارات الخرسانية بعزم الصباح. بدأت الحنفيات فوق حوض الغسيل بالصرير والضراط عندما كانت أنابيب المياه تستنزف . أُخذ براي بتدفق هذه الأشياء ـ طقس الحمام، ارتداء الملابس، تناول الفطور ـ ووصل إلى النقطة حيث، قبل الحادية عشرة بخمس دقائق، فتح له الباب تحت الرواق ذي الأعمدة البيضاء الذي جاء إليه عدداً من المرات في حياته: ليؤدي احتراماته بوصفه نائباً في البرلمان معيّناً حديثاً؛ ليتوسل لإطلاق سراح مويتا من الحبس؛ للرد على الشكاوى المرفوعة ضده من قبل السكان البيض لمقاطعة غالا.

بدافع من نشوةِ الشيء المألوف الذي أتى به إلى هنا، أصبح براي في غرفة انتظار المقر الرئاسي يقظاً بشدة. شعر بالوجيب السريع لقلبه في نبض اليد، على ذراع الكرسي التي كانت تمسك بالسيجارة وهي تحترق بعيداً. لقد ميز نوعية صمت الغرفة، وانزياح حضوره هناك، مثل الارتفاع في حجم الماء عندما يغطس جسم ما فيه. في الوقت نفسه كان ينطلق بسرعة وبغرابة، بكلمات بدلاً من هيجانات المخيلة والعاطفة التي يتم بها عادة التمرن على لقاء، على ما سيتعين قوله. تملكه التوتر الهادئ المطلق للإثارة. كانت المرة الأولى منذ زمن طويل جداً. فتح النوافذ فوق مقعد النافذة والحديقة في الخارج ـ الأشجار المتفرقة تنتصب بهدوء في الحر، زوج من الهداهد تلتقط الحب على العشب ـ التي كانت توجد ضمن إيقاع مختلف، مثل مشهد يُرى من خلال نوافذ قطار سريع. دخل السكرتير، آسوني، بسرعة.

ـ «أنت تفهم، أيها الكولونيل، لو كان أي شخص آخر لكان الأمر غير وارد اليوم، كما قلت للسيد سمول. حقاً لا وقت للمقابلات الخاصة ـ لقد عدنا لتونا فقط، والآن هذا الآخر». كان شدقاه يهبطان رشيقين، مندفعين.

ـ «لو كان أي شخص آخر لما استطعت أن ـ لكنني نجحت تماماً في تدبير لقاء لك».

Twitter: @alqareah

تلك كانت طريقة الخادم، مبتزاً الاعتماد على إرادته الطيبة لأجل مائدة لائقة. نظر سمول حول الباب:

ـ «أنا مفتون بالعمل الرائع الذي تقوم به في الشمال».

كان في ذلك كل إقناع العبارات المبتذلة، فقد استبدل ببساطة عبارة «في الجنوب» أو «المستنقعات»، أو حيثما صدف أن كان الشخص موجوداً منذ أن رآه سمول آخر مرة.

ـ «أعرف اشتياق الرجل الكبير لرؤيتك، لا شيء يغريه بتفويت ذلك، مع أنه مشغول حتى أذنيه. لسوء الحظ، ينبغي أن تكون المقابلة وجيزة نوعاً ما، للأسف، أخشى ذلك».

لم يكن براي آتياً بأي ضمانة بأنه لن يطيل الزيارة. رافقاه، وهما يثرثران، وهو يخرج إلى الكوريدور، حيث كان يعيقهم مرور وعاء نحاسي عملاق أو مرجل يتم نقله على رؤوس وأذرع العمال. التفت ويلفريد آسوني، بإيماءة مسرحية إلى سمول:

ـ «ماذا باسم الله تعتقد أنك فاعل؟»

وقف سمول مسمراً بالأرض أمام الموكب. فقد الرجال التنيسق تحت ثقل الحمل، والقذيفة اللماعة تتأرجح إلى الأمام.

ـ «لماذا لم يُجلب هذا الشيء من خلال مدخل الخدمة؟ المطابخ ـ لماذا لا تستخدمون باب المطبخ، إيه؟ من سمح لهؤلاء الرجال بالمجيء من هذا الاتجاه؟»

ظهر الخدم وظهرت التفسيرات. أبواب المطبخ أصغر من اللازم.

ـ «لا يمكنك أن تجلب الرجال عبر مقر الإقامة، أنت تعرف ذلك. أنت تعرف ذلك جيداً، يا نمرود. يا إلهي، أي شخص يعبر المكان، أي شخص يقول إنه عامل؟»

نظر وآسوني كل منهما إلى الآخر.

ـ «هل هذا هو الأمن بالنسبة لك، إيه؟ حسناً، أخرجوا هذا الشيء من الطريق أدخلوه من هنا، تعالوا، هلموا ... ».

تفرق الرجال عبر الأبواب المزدوجة لغرفة استقبال في احتشاد مرتبك، وذلك لكي يفسحوا المجال لمرور براي وآسوني وسمول. كان الاثنان قد فقدا الاهتمام ببراي.

ـ «شيء مذهل» إنك بالتأكيد على حق، يا كلايف « ولكن هل أنت جاد. إيه؟»

ـ «ذاك هو أمن الكولونيل اونابو، نعم».

ـ «حسناً، أنا أعرف من سيسمع بذلك».

ـ «آمل ذلك، أنا بالتأكيد آمل ذلك».

Twitter: @alqareah

- «سأكون على ذاك الهاتف في خلال خمس دقائق. إلا إذا كنت تفضل أن تقوم بذلك؟»

انسل ويلفريد آسوني إلى مكتب الرئيس وأغلق الباب على صوته المؤلّف على الهدوء الرسمي للطبيب الذي يدخل جناح مريض خصوصي ذي أهمية. ظهر مرة أخرى في الحال وفتح الباب لأجل براي شارداً. ألقى براي نظرة سريعة على وجهه المنحوت الريان،العينين المثبتتين في الجلد الأسود بشكل لطيف كالعين المطلية بالمينا للأشكال الإغريقية القديمة، التي تحولت قبلئذ إلى التحفة ذات الأهمية التي يتقاسمها مع سمول.

كان مويتا واقفاً على قدميه خلف مكتب مدير الشركة، متكئاً إلى الأمام على راحتي كفيه. لدى الدخول الأول إلى حضرته مرت تلك الثانية مثل غصة ذكرى الرؤية الأولى لشخص وقع المرء في حبه منذ زمن طويل. أقبل من وراء المكتب بتلك الابتسامة ـ ابتسامة إعلانات معجون الأسنان، حقاً، في الصور التي تذكر بأوروبة، أما في أفريقية فهي ابتسامة صبي، يصادف في مكان ما على الطريق، ينشب أسنانه في قصبة سكر ـ وأخذ يدي براي في يديه الداكنتين الأنيقتين. سرى في الرجلين نوع من تيار الشعور بالنشاط والخفة.

- «لو قيل لي، من تود أن يكون موجوداً عندما تصل إلى الوطن، لكان جيمس هو الجواب. أوه، ولكن ذلك متعب، إيه، يا جيمس؟ منذ سنوات، لم تقل لي، لم تحذر من ذلك. من اللحظة التي وصلت فيها الطائرة، ثلاث أو أربع اجتماعات في اليوم ـ وحفلات الغداء، وحفلات الكوكتيل، والعشاءات ـ وحصل مرتين أن كان ثمة شيء خاص للمناقشة قبل المؤتمر ـ المرة الوحيدة كانت قبل الفطور أو بعد منتصف الليل».

- «حسناً، كنت دائماً تمتلك المقدرة التي يستلزمها الأمر. كل تلك الأميال على الدراجة؛ هذا هو التحضير الصحيح».

- «بأي حال، لقد نلنا ما نريد. وهذه إحدى المرات التي يكون فيها القرض مكسباً، كل التجهيزات والمواد والقوة البشرية الماهرة تأتي من البلدان المولة. إنهم يدفعون وسيجد رجالهم أن العمل قائم. لا ترفع يديك عن هذا التأجيل أو ذاك، لا مجال لمتعهدين مهملين مقصرين لكي يقع اللوم عليهم بينما نحن الذين ندفع. هل تعلم أننا سنحصل على ستة آلاف كيلو واط ساعي بالسنة، عندما يكون شغالاً بالكامل. يمكننا أن نبيع إلى الكونغو، مالاوي زامبيا ـ من يدري، قد يخرجون من كاريبا. كان مشروع بحيرتنا في الشمال من الأحلام. أنت تعلم، كانت لدينا أحلام

Twitter: @alqareah

جميلة قبل الاستقلال. إنه ليس افتراضاً بالمقارنة مع ذلك. الشيء الرئيس هو المال ـ إن صعوبة الحصول على المال لأجل مشروع يفيد دولة وحيدة تساوي ضعفي صعوبة الحصول على نفس المال لصالح دولتين. ويكون عليك أن تجرب ذلك وحدك، يمكنني أن أقول لك، يا جيمس، كله سواء في العالم، الفرق هو بين الذهاب كشحاذ والذهاب كرجل دولة. ذاك هو الشيء الذي تعلمته.».

كان ثمة تربيزة قرب الأريكة الخشبية، الآن، مع زوج من كراسي المطارات الجلدية السوداء من أجل المحادثات الأقل رسمية من المحادثات التي تجري فوق طاولة المكتب. جاءا ليرتاحا هناك.

قال براي، بدافع من الدفء والراحة:

ـ «يبدو أن ذلك قد مضى بشكل رائع. لكن ما يزعجني هو الآخر. الليلة الماضية».

كان يبدو من الفظاظة أن يتكلم. عينا مويتا أجفلتا. طوى ذراعيه ليسترد الارتياح:
«لا أفهم، يا جيمس».

ـ «ألا يزعجك ذلك؟»

تابعت عينا مويتا الرفيف. قال، مبتسماً: «لقد سمعت ما قلت».

ـ «أوه هكذا. ما كان عليك أن تقوله. ولكن ما رأيك بذلك؟ ما الأسباب الحقيقية في أنك وجدت ذلك ضرورياً؟ لم أكن آتياً لأتحدث إليك حول ذلك بالمرة...».

رسم مويتا إيماءة اشتياق، رافضاً؛ فقد جاء براي ليراه لأنه براي.

ـ «لا ـ كان لدي سبب». وهو صدٌّ لهما.

«كان ثمة شاب التقطته على الطريق إلى الباشي الأسبوع المنصرم. اكتشفت في وقت لاحق أنه كان معتقلاً في سجن غالا لحوالي ثلاثة أشهر لم يكن بحاجة لانتظار قانونك الجديد. كنت بصدد أن أتحدث إليك حوله، لم أعرف ما إذا كنت تعرف، مع أنني استطعت، طبعاً، أن أتنبأ بأن اونابو يعرف، هذا النوع من السلطة ـ لا أعرف ماذا أطلق عليه ـ كان يأتي من الأعلى، من اونابو ـ لكن ليس هذا هو المهم. أعني أنه مهم بشكل كبير في حد ذاته، لكن ثمة شيء أهم بكثير، والآن، منذ الليلة المنصرمة، أكثر أهمية حتى. الولد، مشروع قانون الاحتجاز، إنهما النتيجة».

Twitter: @alqareah

عاود مويتا الجلوس بنفسه، وذراعاه متقاطعان، بالانتباه الحازم الثابت الذي يعرفه براي جيداً. رق وجهه للحظة كما لو كان بصدد أن يطلق عفواً؛ ثم عاد الوميض إلى عينيه مرة أخرى. كان براي مدركاً لذلك طوال الوقت.

- «ليس هذا ما يهم. لأنه يبدو واضحاً لي أن ما حدث للولد، ومشروع قانون الاحتجاز، حتميان، ضروريان، لا يمكنك الاستغناء عنهما، أياً يكن سببك» - دخل مويتا بسرعة ولكن بشكل مزعج:

- «نعم، سببي الوجيه أنني لن أقف جانباً وأدع هذا البلد يحطمه مفتعلو المشاكل».

- «ماذا تسمي مفتعلي المشاكل يا مويتا؟»

- «لديك الناس الذي يرون الاستقلال من البداية بمثابة حرية للجميع. اخطف ما تراه. إنهم دائماً موجودون. عليك أن تتعامل معهم. أنت تعرف ذلك. أنا لا أحب ذلك لكنني يجب أن أقوم به».

- «من الأفضل أن تصرف معظمهم. نلت حظاً جيداً بإعطاء الناس ما يحتاجون..».

قال مويتا: «جيمس، ليس هذا هو بيت القصيد. بإمكانك أن تعطيهم جميعاً بيتاً مع إنارة كهربائية وعملاً شريفاً ومع ذلك تظل تواجه المتاعب من بعض الناس».

سرت بينهما شرارة نزقة كالكهرباء الساكنة.

- «لن يكون بعد ذلك. لن تكون بحاجة لإبقاء ذاك القانون إلى الأبد، إذا لم تفعل شيئاً ما بخصوص سبب احتياجك له في المقام الأول. إذا كنت ستفعل ذلك فلن تكون مجبراً على «التعامل» به. السبيل المتاح لك هو أن تتعامل به الآن. هذه الطريقة لا تحبها أنت، يا مويتا».

كان مويتا على وشك أن يرد لكنه لم يفعل. ابتسم لبراي لإسكاته:

- «حسناً، تابع».

- «أعتقد أن بعض أولئك النمل، من نملك، ينخرون خفية تحت مقاعدنا في البيت». تحرك مويتا واستقر.

قال براي: «إنهم تحت المراقبة. حسناً. ومن غيرهم؟ تحت المراقبة؟ ولماذا؟ مويتا، لماذا؟ لأجل ماذا؟ لا يمكنني أن أتمالك نفسي عن الشعور بالقناعة بأنك لو أعطيته وزارة لما كانت هناك أي مشكلة من جانبه. لكان قد عالج المشكلة».

قال مويتا: «لقد كان دائماً هو من يفتعلها».

Twitter: @alqareah

ثم فجأة، مثل ممثل يخرج بعد جمهوره، استحال عينين مشعتين وجسداً متوفزاً، تجمع كله بكثافة متشامخة وانفجر مضللاً، مومئاً.

ـ «شينزا! من يوم الحكم الذاتي بدأ يوجه انتقاداته إلينا. دائماً ينظر إليّ ويهز رأسه من الداخل. مهما كان الموضوع الذي كنا نناقشه. لم يعد يثق بأي شخص. قرر أن عليه أن يراقب البقية منا بالطريقة التي كان يراقبهم بها. نعم! هل تذكر؟ في المحادثات في لندن، كان دائماً هو من يخرج ويقول، فيما بعد «لا أعتقد أن فلان وفلان يعني ما يقول، إنه يناور بالوقت. فلان الفلان سيفعل ما يقوله السكرتير الاستعماري» «هذا الشخص يجب أن يجبر على التنازل. كان يراقبهم لأجلنا في حين كنا مشغولين جداً بالتفكير في الخطوة التي يجب مناقشتها تالياً. اكتشف أشياء لم ألاحظها. غالباً ما كان على حق. كان بإمكانه أن يحذرك. لكن فيما بيننا! رجالنا الخاصون! في اللجنة المركزية، بين الوزراء! هل يمكنك أن تعمل بهذا الشكل؟ جيمس، جيمس» ـ هبط صوته إلى علانية صبورة، لطيفة ودرامية.

ـ «يمكنني أن أقول لك أن عينيه كانتا على قفا رأسي. أسأله شيئاً ـ ذهبت إليه كما كنت أفعل دائما، أنت تفهم ـ كان أبي، أخي ـ يصغي بابتسامة على وجهه وعيناه مغمضتان».

كان مويتا واقفاً فوق براي. علِق هناك، توقف، يتنفس بشدة، يلهث، يكاد، مثل رجل على وشك أن ينشج بالبكاء، خانته الكلمات.

«لم أفهم القضية بالضبط».

«هل تأكدت مع من كنت أتعامل؟»».

الانكليز في لانكاستر هاوس، يتخانقون بحناجرهم، ويبدون كأنهم يغطون في النوم تماماً عندما يكونون مستعدين لينالوا منك. كان ذلك جنوناً، أليس كذلك؟ حسناً، قلت لنفسي، إنه أخوك. حسناً. لكن دعه يخرج إلى العلن. دعه يتكلم بما يؤمن به، في الوقت المناسب، لأجل هذه الأشياء، مثل أي شخص آخر. هذه حكومة، وليست جمعية سرية. افتح عينيك وانظر إليّ، يا شينزا. لكنني بقيت هادئاً زمناً طويلاً، طويلاً. هل سبق لي أن قلت لك شيئا؟ آخر مرة في لندن؟ لم تكن تعرف أبداً ما هو. كنت خجلاً، أنت تفهم، لم أكن أريدك أن تعرف كيف يتصرف. لم أكن أريد أن أصدق ذلك بنفسي. لكنني لا أفكر في نفسي كثيراً. إذا فعلت، فيجب أن أخرج».

مشى إلى النافذة ونظر إلى الحديقة، هناك في الخارج، وهي تتموج في الحر الساكن.

Twitter: @alqareah

«لسنا في الغابة في غالا بعد، وليس لنا شيء سوى بعضنا البعض. يوجد في هذا البلد ثمانية ملايين نسمة. لا يمكنني أن أربط من ساقي الخلفية كالبقرة. عندما اجتمع كُلَفْ مع رئيس الأركان البريطاني من أجل اتفاقية الدفاع وبرزت مسألة وجود قاعدة على الحدود الجنوبية، بدأ كلف يرسم ما «يعتقد» أنني سأوافق عليه و، يا إلهي، من الواضح أنه كانت لديه فكرة جيدة تماماً من قبل أين سنتنازل وأين سنثبت على موقفنا ـ مسألة قاعدة الصواريخ، على سبيل المثال. من الواضح أن كلف كان يعرف أننا بصدد أن نجري صفقة حول ذلك، كان مستعداً، لم يجد حرجاً في ذلك ـ وهكذا قلت ـ أي أصريت على إثارة اعتراض على شيء ما لم نكن في الواقع معترضين عليه بالمرة، لمجرد أن أرى رد فعله وقد أخرجها كما يلي تماماً:

ـ «لكنني فهمت أن ذلك سيكون مقبولاً لحكومتكم».

ـ «من أين فهمت، قلتُ. من أعطاك لتفهم؟ بالطبع، تملص من ذلك بطريقة ما. لكنني سألته فيما بعد، على انفراد. فقال لي: «كنت مخولاً بأن أفهم»، نظر إليّ كما لو أنني مجنون، كما لو أنني لا أعرف. لا يمكنك أن تلومه. من خولك لتفهم؟ هو كان قد أجرى محادثات مع كلف:

ـ «بالطبع، كان شينزا يعرف سلفي جيداً».

"كان من المفيد غالباً أن نتحادث مسبقاً. لقد تم إحراز الكثير من التقدم بهدوء، في الماضي. وهكذا دواليك. ما الذي كان بإمكاني أن أقوله؟ حسناً، في ذاك الوقت لم يرتكب أي أذى. لحسن الحظ. ولكن هذا النوع من الأشياء. انظر إلى تقرير الأقليات الذي وضعه. وهذا شيء كنت تعرف عنه. أنت تعرف ماذا كان رأيك بذلك. نعم، حسناً، إنه يفتقر إلى البراعة قليلا، هذا ما قلته لي. ولكنك لست من يقول كثيرا، وأنا أعرف أنك كنت منزعجاً، بغض النظر عما قلته. لدي ثمانية ملايين في يدي، يا جيمس، ويمكنني أن أعتني فقط بطريقتي الخاصة».

ـ «لقد أرغمته على نوع من المعارضة غير الموجودة، بينكما».

هبطت يدا مويتا، متدليتين بعجز: «غير موجودة! إذا أعطيته ذاك كثيراً، فإنه سيبلع ذراعك. إنك تفكر به كما كان منذ سنوات».

قال براي: «نعم، لقد تغير. لكنك تعرف أنني قد قابلته».

قال مويتا: «لا، لا، أقول لك: لم أكن أعرف حتى الآن».

كانت المرة الأولى، المرة الأولى منذ أن كان ذاك الصبي الذي يحمل غيتاراً، على متن دراجة، التي لم يعرف براي فيها ما إذا كان مويتا يتكلم الحقيقة.

Twitter: @alqareah

- «متى؟».
- «كان ذلك حينما كنت ذاهباً - الأسبوع المنصرم، على طريق باشي».
- «أوه، فهمت».
- «لا، أنت لم تفهم. لقد كتبت إليك شيئاً - لم أرسله، القضية المتعلقة بالشاب أزعجتني - لكنني أردت أن أخبرك، لا يمكنني أن أصدق أن شينزا سيقوم بحركة ليحل محلك لو كان معك. لو كنتما لا تزالان فيها حقاً. إن الاختلافات التي كانت بينكما في الحزب، قبل الاستقلال، يجب ألا تعتبر خلافات نهائية. سيحاربك هناك لأنه يؤمن بأن الحزب ينبغي أن يرمز إلى أشياء بعينها، الحزب ينبغي ألا يحسب حساباً للقيود الحكومية. حتى لو كانت تفرضها الظروف: هذا هو ما وجد الحزب لأجله، في دولة كهذه. أن يبقي أمام الحكومة الفكرة الأصلية لما ينبغي أن يعنيه الاستقلال، أن يعارض تلك الفكرة طوال الوقت ضد قبول الحكومة لما هو ملائم، منسجم مع السلطة. هذا هو الديالكتيك في الحقيقة. هذا هو ما تعنيه فعلاً معارضته داخل الحزب».
- «أوه كلنا نعرف عن تدريبه الماركسي المبكر. أسابيعه الستة في عام 1937. سمعنا جميعاً ذلك منه أكثر من عشر مرات. كلنا نعرف أنه كان مفكر الحزب عندما كنا فتيان الأدغال. لقد مررنا جميعاً بذلك».

قال براي: «ما أقصده هو أن ثمة شيء ما فيه يجعله دائماً يريد أن يكون سلطة لكن ليس ذاك الواحد، هذا تقريباً ما قلته. أنت ترتاب في المبرر الأخلاقي في أنني أعتقد أنه لن يهددك، تماماً مثلما كنت... لكن هذا ليس سبباً أخلاقياً، إنها مسألة مزاج. مزاج مكشوف مبرهن على مدى زمن طويل، طويل... يريد فقط أن يكون معروفاً للناس القلائل في العلن. هذا كافٍ بالنسبة له. كان يستمتع بالمساعدة في «صنعك»، لماذا لم يستخدم نفس الطاقة لصنع نفسه؟». (فكّر في نفسه، هل أضرب على وتر الغرور هناك؛ لا، مويتا يعرف أنه لم يكن بحاجة للصنع بأي معنى ينطوي على انعدام الكفاءة).
- «لأنه لم تكن لديه الإرادة ليقود، فعلاً، فهو لا يريد ذلك. لم يكن يريد ذلك. إنها نقطة ضعف، إذا شئت، نوع من الغطرسة. دع شخصاً آخر - يخرج ويحتك مع الجمهور».

كان مويتا يمتلك العناد المرهق لشخص يتبع أفكاره الخاصة.

«كان سيفعل الشيء نفسه تماماً لو كان في مكاني».

Twitter: @alqareah

قال براي: «لو كان معك»، «لو كنتما معاً، مويتا... لو كنتما معاً في الموقع نفسه. لكان يرى الأشياء من موقعك، وهذا ما يخلق كل الاختلاف. مساومات السلطة»، أضاف بإيماءة إحراج بسبب هذا النوع من العبارات «كما كان يمتلك الكثير من الضغينة في جوفه لو كان يجلس إلى طاولة هذا البيت».

طوى مويتا أصابع إحدى يديه فوق برجمة اليد الأخرى وضغطها، بشكل اختباري. رأى براي فجأة أنه يصارع لأجل السيطرة، مجمعاً جزءاً من ذاته إلى بعضه البعض.

«لقد آذيته. آذيته بقدر ما آذاه الاعتراف بوجود أذى الآخر».

لم يتمكن من تغيير العلاقة التي كانا يقفان فيها مقابل بعضهما بعضاً، هو - براي - مويتا؛ كان لا بد له من أن يأخذ موافقة مني، هذا هو دوري القديم. أي شيء آخر هو خيانة. كان ذلك غباءً، ومويتا لم يكن غبياً. لكن الصبي على الدراجة؛ عندما يكون مويتا معي لا يستطيع أن ينأى عن الصبي على الدراجة. الرئيس يريد المحبة والاستحسان، غير المتصلين بالحقائق، بيننا. عندما يأتي ذلك إلينا. شعر براي بنفور يزداد شدة من القدمين العاريتين المتغطرستين، السيكار وسط التكشيرة المكسورة الأسنان في اللحية السميكة.

قال: «لو كنت مكانك لأرسلت في طلب شينزا، الآن».

صوت مويتا صدع صمته: «لكنك تستهجن الحبس الاحترازي. لو دخل شينزا معي لوجدت أننا نؤيده».

أطلق ضحكة باردة ومتفضلة.

- «لن يكون هناك داعٍ لذلك».

كان مويتا ينظر إلى الإطار الكبير الذي يعرفه جيداً، كما لو أنه يبحث عن مكانه ليمنحه إياه.

- «هل تظن ذلك؟ ماذا عن جماعة شينزا؟ هل سيتبعونه؟ لن يكون هناك داعٍ لذلك دائماً».

نهض ومشى حول طاولة المكتب، وهو يحدق إلى الأوراق هناك مثل وجوه شبه معروفة بانتظار أن تلفت انتباهه.

التفت فجأة وجاء ووقف قرب كرسي براي.

قال: «لم أتلق أية رسالة لأجل شينزا».

- «أنا لست رسولاً».

Twitter: @alqareah

ـ «لكن أفضل شيء يمكنك القيام به هو أن تجعله يفهم أن ما يقومٍ به ليس له أي جدوى. إنه لن يحققه، مهما كان هدفه. إنه يجعل نفسه مغفلاً. أو شيئاً ما أسوأ. حقاً يا جيمس، إن كنت قلقاً بشأن شينزا، قل له أن يدع ذلك وشأنه، لا تشجعه».

كانت صفعة. «أشجعه؟».

«كما قلتَ، صداقة الأيام الخوالي، وهلم جرا ... ».

قال براي، بلطف: «لم أقل، يا مويتا. والماضي ـ حسناً هكذا أنتما الاثنان، أنت وشينزا، إنها مسألة دولة، الآن، ولا يمكن أن يكون لي أي دور فيها. يمكنني فقط أن أخبرك رأيي فيكما، ولكن هذا هو كل شيء. رأيي، ما أؤمن به بإلحاح ».

ـ « حسناً، حسناً. كله سيان. عندما تراه ستقول له رأيك».

قال براي: «ألا تريدني أن أرى شينزا؟».

قال مويتا بحزن، بلمسة رشاقة السياسي في الوقت نفسه:

ـ «جيمس، ما كنت لأخبرك أبداً بما سأفعله. يا إلهي ... ».

ـ «ولكن عليّ أن أعرف ذلك ـ ما ينبغي علي فعله. أنا ضيفك هنا».

قال مويتا منفعلاً: «إنك في بيتك».

قال براي: «ما الذي يحدث عندما يناقش مؤتمر الحزب؟ الشهر القادم؟».

كان مويتا لا يزال رئيساً لحزب استقلال الشعب، وشينزا، كرئيس إقليمي، كان في اللجنة التنفيذية.

ـ «نتقابل. إذا جاء».

ـ «ماذا تقصد؟».

انتظر مويتا ثانية، ثم قال، «ليس دائماً في مكانه، هذه الأيام. هكذا يقولون».

ـ «لكنه سيأتي لأجل المؤتمر، بالطبع».

تغيرت لهجة براي، جعلها تبدو كما لو أنه ينكّت:

ـ «ربما ستحسم النزاع، إذاً ـ إيه؟ شيء ما عملي جداً حول مؤتمرات الحزب. قل لي، أي نوع من الناس الذين ستحبسهم بمرسومك الجديد؟ هل هم جميعاً أولاد، مثل شاب معمل الأسماك الذي انتشلته عن الطريق؟ ما الذي تأمل بسماعه منهم؟».

ـ «هذا شأن اونابو. لديه الرجال الذين يعرفون الأسئلة الصحيحة».

Twitter: @alqareah

ـ «كل ما فعله شاب معمل الأسماك أنه كان يشرح امتيازات صيد الأسماك لبعض الناس في الفندق. بالطبع لقد وجدت النقابة ذلك مزعجاً أو خارجاً على النظام، أو شيئاً ما. لكن ذلك بالكاد يستدعي شهرين وسبعة أيام في السجن. لقد حان الوقت لطرح الأسئلة الكبيرة الكثيرة».

قال مويتا: «حسناً، كل هذا سيتم النظر فيه الآن، الحمد لله، لن يكون أفراد البوليس المحلي قادرين على أن يفعلوا ما يشاؤون. ثمة احتياطات وضوابط مناسبة في المرسوم. لقد صاغه تشيكوي مع داندو بعناية شديدة ـ ذاك الولد التافه ألم يعامل بشكل سيء؟».

قال براي: «لقد تعرض للضرب. لا يبدو أن ثمة فائدة كبيرة من الشهادة على ذلك، الآن ـ لا تقصد فعلاً أنه في كل مرة يتذمر فيها عامل يكون هذا تحريضاً على شعب الباشي، في هذا الجزء من البلد. ولكن ماذا عن الناس في أماكن أخرى؟ هل يمكن لأي شيء يزعجك أن يوضع عند بابه؟».

ـ «هذا هو سبب الأسئلة ـ لاكتشاف باب من. وإذا كان باب شينزا ـ أما يوضع لتصدق ذلك؟».

ـ «عليّ أن أصدق. إن ذلك لن يغير إيماني بأنه توجد أسئلة ـ لا حاجة لحدوث ذلك ـ ليس عليك أن تجعل شينزا عدواً».

كان مويتا يهز رأسه رداً على الكلمات وهي ترد إليه:

ـ «صدقني، يا جيمس، صدقني».

مع أنه لم يكن يريد من براي أن يذهب، فقد كان دائماً، بينهما، الإحساس بكونهما مجروفين في تيار قوي. بدافع من ذلك، في المقابل، كانا يتخبطان، وكانا مشدودين إلى الوراء.

قال براي فجأة: «ألن تعتقل شينزا؟».

ـ «إذا كان ذلك ضرورياً فسيكون يوماً سيئاً لنا».

كان ذلك إشارة معترضة إلى مثلث الحكم القديم: هو وبراي وشينزا. شعر براي أن المقاومة والإنذار عديما الفائدة: ارتد مويتا إلى العلاقة القديمة، كما لو أن ما فعله الرئيس مسألة أخرى.

استدرج براي متلعثماً، وممتعضاً، إلى الحديث عن أشياء أخرى.

ـ «وأليك؟ ما رأيك بأليك؟».

ـ «أوه، إنه كفؤ تماماً، أعتقد... إنه مهمل قليلاً، مم؟».

Twitter: @alqareah

- «أوه... لا يمكنني الحكم على ذلك بإنصاف. إن ذلك يتوقف على ما تريده منه، بأي حال. إنه يتمتع بمزاج طيب للخدمة المدنية».

- «بالضبط، بالضبط. هذا ما أعنيه تماماً. لكن هل يعطيك ما تحتاج؟».

توقف براي، وابتسم، «لا أعرف ما إذا كنت أقوم بما تحتاجه مني».

- «ولكن كيف تسير الأمور، يا جيمس؟».

احتفظ براي بابتسامته، مجيباً ببطء ولباقة.

- «لقد غطيت المقاطعة بأكملها. قمت بإحصاءاتي الخاصة بي لعدد السكان المهيئين للتعليم، أدقق المواد وأكتب تقريراً. هذا هو تقريباً. يفترض به أن يكون دليلاً نموذجياً دقيقاً تماماً لأجل بقية البلد. حالما يتم إنجازه، سيكون من السهل القيام بنفس النوع من الأشياء لأجل المقاطعات الأخرى، يمكن توزيع العمل على الناس المحليين. عندها لا يكون عليّ أن أمضي أكثر من أسابيع قليلة في كل مقاطعة. لا أدري كم من الوقت سأحتاج للمكوث في غالا؛ سأرى كامازا فيري».

- «جيد أنك سترى فيري... ».

- «كتب بشيء من الإيحاء أن عليّ أن أضع ما يسميها الخطط الرائدة قيد التشغيل في بالا. قبل متابعة التحرك. لقد كتبت له مذكرة حول فكرة راودتني لأجل مدرسة فنية من نوع ما. كنت أظن أن بإمكاننا أن نستولي على النادي...». ضحكا.

- «لكنني أعتقد أن من الأفضل أن أعمل ما يجب عليّ عمله لإكمال التقرير. من الأفضل أن أنتقل إلى المقاطعات الأخرى حالاً...».

قال مويتا، «ولكن إذا كان فيري يريد أن يرتب شيئاً ما في غالا. لا توجد حاجة ملحة للإسراع في مغادرة غالا...».

- «أحياناً أشعر أنني لم أكن بعيداً، ولكن هذا عندما أكون وحيداً. أنت تعرف. إن له علاقة بجو المكان، رائحته وهكذا. لكن بيتي القديم والبوما يبردان همتي. أنا أفكر بترك الحياة القديمة بالطريقة التي كنت أحياها... أحياناً أشعر أنني لم أكن بعيداً أبداً، أحياناً أشعر أنني لم أرجع أبداً».

- «لا أعتقد أنك يجب أن تكون في عجلة من أمرك. هل البيت الذي تسكنه على ما يرام، هناك؟ ينبغي حقاً أن نكون قادرين على أن نؤمن لك بيتاً لائقاً، يا جيمس. إذا سمعت عن أي أشخاص يرحلون، بيت أي مستوطن تدري به، يجب أن تكتب. يمكن للحكومة أن تشتري بيتاً كهذا لأجلك».

- «أوه البيت ممتاز تماماً لأجل غرضي. ثمة تينة رائعة في الحديقة».

Twitter: @alqareah

- «ينبغي أن يكون هناك بيت ظريف لك ولأوليڤيا. إن ذلك يقلقني. وليس واحداً من تلك الأكواخ البريطانية. لا يمكنها أن تأتي لتسكن هكذا».

- «لا يوجد أي عيب في البيت! لأشهرٍ قليلة. إنه مناسب تماماً. لا أعرف ما إذا كانت أوليڤيا ستأتي الآن. لقد مكثت طويلاً للغاية، أنت تعرف».

- «لا تستعجل». قال مويتا، وهو ينظر إليه، منفتحاً.

- «أنت تعرف، إنه شيء مضحك، كل هذه السنوات ـ كنت منشغلاً دائماً أفكر بك كما لو كنت لا تزال موجوداً، في غالا. وحتى عندما ذهبت إلى هناك، كنت أتوقعك. أفكر بك في غالا، مثل نفسي. أنا في غالا، أيضاً. كان ذلك هو الوقت... ».

سحب شفته السفلى إلى ما تحت أسنانه، ثم شفته العليا:

- «الآن يجب أن أعتمد على سيمون ثابو».

كان ثابو الوزير الإقليمي لأجل غالا.

- «لا يمكنك التحدث إليه، يا جيمس. لو أرسلت في طلبه لقال لي، لا تزعج نفسك، سيدي الرئيس. كل شيء تحت السيطرة. أنت تعرف كيف يكون بعض الأفارقة، يا جيمس، هل تعرف كيف نكون؟ كانت لديه طرق معينة في قول الأشياء، كلمات معينة يرددها. وهو دائماً يتكلم بالانكليزية، الانكليزية الخاصة التي تعلمها في دورة الإدارة العامة التي أجرتها الإرسالية في زامبيا. أقول له، لا تخبرني بذلك. أخبرني ماذا قال الناس، ماذا سمعتَ... يمكنني أن أحصل من حديث لمدة خمس دقائق معك، يا جيمس، أكثر مما أحصل عليه من كل مصادره الموثوقة وما لا أدري ماذا».

فكر براي بالصبي الذي تم سجنه، فيما كان يسكن في البيت ذي شجرة التين على بعد أقل من خمسة أميال عن السجن: «أنا في الظلام».

- «ثابو ليس شخصاً يمكنك التحدث إليه» قال مويتا. «بوجودك هناك، أنا... أنا أعرف أياً يكن ما تقوله لي، أنت تملك هذا البلد».

نقرت أصابعه على صدره:

- «في الداخل... وسترى، سترى، لا يمكنني أن أدع المشاعر الشخصية في ذلك. ولن تفعل أنت ذلك أيضاً، عليّ أن أعرف ما الذي يحدث هناك. من شخص يفهم».

قال براي: «شينزا. شينزا. لم أكن أعرف حتى أن ليباليسو لديه سجناء».

- «إنه بلد كبير. من المستحيل أن تمنع هذه الأشياء. رجال البوليس الصغار يشعرون أنهم كبار. نحن لازلنا نتعلم».

Twitter: @alqareah

كان يقصد ذلك، بالرغم من مرسوم الحجز. كان براي يراقبه. قال بحماس: «جيمس، إننا نخيب آمالك. يا إلهي».

كان براي يُداري للحظة غروراً أبلهاً، مثل عود ثقاب مشتعل بين راحتيه، فقد كان مدركاً أن الأمر هكذا: رؤوساء الحكومات والرؤوساء كرفاق الآن، وهو لا يزال يدور في هذا الاتجاه. قال مويتا:

- «يجب أن تساعدنا، يا جيمس. نحن بحاجة إليك، كما كنا دائماً».

هذا هو السبب في وجوده حيث هو؛ بغريزة السياسي التي لا تخطىء في استغلال الفرصة التي وضعك فيها. كان براي مفتوناً، مثل رجل يعرف أنه امتلك الكثير ليشربه. لا يدرك أن الحكم يتم التوصل إليه تحت تأثير الشرب. لقد أجاب على ما لم يكن موضع خلاف؛ كان بوسع مويتا أن يعده بمثابة شيفرة: «يا ليت شغلة التعليم هذه الخاصة بي تكون ذات معنى» وتركه مويتا يتكلم:

- «رغم كل شيء، فأنا لست خبيراً، أنا أقوم بما أراه ضرورياً، براغماتية محلية جداً، وعيوب التعليم كما أعرفه. فهل ينبغي أن يكون ذلك من شؤون ذوي الياقات البيضاء؟ هل يحتاج سكان البحيرة لتخريج المحامين؟ ماذا عن صيادي الأسماك المتعلمين، القادرين على تسيير تعاونيتهم من قمة الإدارة إلى التحكم بأحواض التفريخ؟ إذا لم نحصل على شيء، وإذا كنا نبدأ من نقطة الانطلاق، ألا يمكننا إذاً أن نتملص من الأهداف التعليمية القديمة نفسها؟ أتمنى لو كنت أعرف أكثر. أشعر أن الجواب يكمن في مكان ما من التقنيات التعليمية بقدر ما يكمن في التنظيم. لا أعرف ما يكفي حولها».

تحول الحديث إلى جماعات صيد الأسماك التي زارها براي. انتقد براي بنود الامتياز الجديد بدون ذكر للصبي الذي سجن بسبب فعله لذلك، وأصغى مويتا بتلك الرفرفة لعيني رجل تمثل الكلمات بالنسبة له أسواطاً ولكمات وأسلحة، تُحمل على الجسم وتسدد إلى أجسام الآخرين. وافق على أن الامتياز هو بالكاد تحسين للعهد الاستعماري، بقدر ما يتعلق الأمر بالمنفعة المباشرة لصيادي الأسماك، لكنه جادل بأن السلطة المتزايدة تجعل منه جديراً بذلك.

- «خمس سنوات، يا جيمس. خمس سنوات لا تساوي شيئاً. عندئذ سنكون في وضع أفضل بكثير من تنمية شاملة لريف البحيرة. إنني آمل بالحصول على قرض مقداره خمسة عشر مليوناً من شق طريق إلى هناك، بعض المال من الشركة ذاتها،

Twitter: @alqareah

والباقي من البلدان التي تمثلها الشركة. عندئذ لن يخرج شيء من سمكنا الفائض إلى البحيرة من أجل أرباح صغيرة؛ بل سينزل هنا وإلى الأسواق في الجنوب».

- «على صيادي الأسماك أن ينتظروا».

قال مويتا، متناغماً معه:

- «أعرف. ولكن هذا هو ما يتعين علينا فعله طوال الوقت - ضرب الميزان. لا أريد أن أنتظر جيلاً بكامله، هذا هو كل شيء. هذا هو الهدف الذي أرسمه لنا».

- «المؤسف أنه سيكون هناك احتجاز احترازي للمعالجة بنفاد صبر».

قال مويتا: «جيمس». وجلس مرة أخرى، انحنى إلى الأمام ووضع يده على ركبة براي الكبيرة.

- «إنه لن يستخدم لأجل ذلك، أعدك. لم يكن المقصود به لأجل ذلك».

جلس إلى الوراء. كان وجهه يشع مثل وجوه تلاميذ المدارس السود الذين رآهم براي، متوتراً من الإجهاد وشدة الإنارة. شعر براي بفساد التجربة، ربما تحدث الأمور هنا كما تحدث لأننا نجلب من العالم القديم هذا اليقين الملوث الذي يجعل أي شيء آخر مستحيلاً. قال:

- «ما إن يوجد القانون حتى لا يكون هناك أي مجال لعدم استعماله».

في الأيام الخوالي كانا يجلسان إلى اليخنة والخبز والشاي الثقيل التي تقدمها جوي، أو لا يأكلان بالمرة حتى يحين وقت وجبة كهذه، لكن مويتا كان عليه أن يقبل بتحول الليل إلى نهار على متن الطائرات وملاءمة أية ساعة لأن تكون ساعة عمل، والوجبات السريعة الثقيلة التي تشكل وقوداً لذاك النوع من الحياة. تناولا السندويش والقهوة على صينية، وهما يلتهمان مثلثات الخبز مثل عاملين، ويناقشان وزراء مويتا، ومويتا يبوح بشكوكه وبراي يقدم الملاحظات التي لن يبوح بها لأي شخص آخر. كان مويتا لا يزال يطالب بتاليسمان غونزوي وزيراً للمالية، فقد كان اقتصادياً أفضل من جاسون مالنغا وبشكل عام أدهى منه بكثير، ولكن من يوجد غيره لأجل وزارة المناجم يفهم كما يفهم غونزي أن رعاية وزارة المناجم هي مجرد مسألة فهم للمالية الدولية، من ناحية، والتعاطي مع علاقات العمل المحلية من ناحية أخرى - إنها ليست معرفة بالفلزات وتقنيات التنقيب التي يحتاجها الوزير - فكل ذلك من اختصاص الشركات.

قال مويتا بحسد: «لو كان لدي اثنان آخران من غونزي! مجرد إثنين آخرين! واحد للمالية وواحد للخارجية، إيه!».

Twitter: @alqareah

- «وهو كذلك». وكان غونزي قد تقدم بفكرة الأفرقة بشكل ممتاز - ووضع المسؤلية على الشركات. في عامين، ومن خلال دورات التدريب المكثف التي ابتكرتها ونفذتها الشركات، ستصبح كل اليد العاملة أفريقية حتى مستوى رئيس منجم. تجرع مويتا قهوته:

- «منذ سنوات قليلة لم يكن يُعهد إلينا حتى باستعمال الديناميت هناك».

ضحكا. «بالطبع قد تكون هناك أسباب أخرى لذلك».

- «آخر مرة كنت فيها هنا كان فيري يتحدث حول تدريب الناس على إدارة المناجم في مدرسة التعليم المكثف».

- «المشكلة هي أنك ما إن تبدأ دورة كهذه حتى تحصل على عدد من المدرسين المستقيلين من المدارس العادية. إنهم يحصلون على التعليم الأساسي للتأهيل - وبالطبع ما الذي سيدره العمل الإداري في المناجم بالمقارنة مع ما ستحصل عليه كمدرس - أعتقد أن شيئاً مثل سكرتير منجم سوف يدر ضعفي ما يقبضه مدير مدرسة - لا يمكننا أن نتحمل صرف مواردنا في مكان لنملأ مكاناً آخر».

- «أفضل شيء نقوم به هو حصر الناس في مستوى المدرسة الثانوية - الحصول على منح دراسية لأجل تاركي المدرسة للالتحاق بالدورة في F.E، تماماً مثلما لديك منح دراسية لتدريب المعلمين».

كوّر مويتا شكالة ورق محولاً إياها إلى كرة ورماها إلى سلة المهملات.

- «الوقت، مرة أخرى، الوقت. ربما نفعل ذلك علينا الاحتفاظ بالانكليز».

كان مويتا يدعو كل البيض انكليزاً: الجنوب أفريقين، الروديسيين، الكينيين. والآخرين الذين يبيعون مهاراتهم في طول أفريقيا وعرضها.

- «تحدث إلى فيري حول ذلك، مع ذلك، إنها فكرة».

كان ذهن مويتا يتنقل بين المشكلات مثل انتباه رجل مسؤول في غرفة مليئة بالعدادات والأقراص التي تمثل إبرها المتذبذبة صعود وهبوط قوة غير مرئية - ضغط أو كهرباء. فتارة يتكلم عن الجولة التي قام بها قبل أسابيع قليلة، والطرد المفاجئ للقائد في المنفى ومجموعة من اللاجئين من الأراضي المتاخمة للحدود الغربية للبلد، هؤلاء الناس كانوا يعيشون في البلد منذ ما قبل الاستقلال؛ في الحقيقة، أحد أولى الأشياء التي قام بها عندما شكل حكومة مسؤولة تمهيداً للاستقلال هو إصراره على إعطاء جاكوب نيانزا ودافيد وسومشتسي واتباعهما حق اللجوء السياسي. لم يكن بإمكانه أن يستقبلهم رسمياً، خوفا من ردود الفعل من بلدهم؛ لكنهم كانوا يمتلكون

Twitter: @alqareah

معسكراً، ومكتباً في العاصمة، بتمويل من منظمات مختلفة في الخارج تناصر قضيتهم. على الصعيد الخارجي، كان يقيم علاقات طبيعية وإن كانت غير دافئة مع رئيس بلادهم (ثمة تاريخ قديم من انعدام الثقة بينهما، يعود إلى الأيام التي كان فيها مويتا وشينزا ينشدان الدعم من بلدان أفريقية لمطاليبهما بالاستقلال)، ومن وقت لآخر كان ثمة تصريحات من الرئيس بيتي تهدد بشكل غامض تلك الأقطار «الشقيقة» التي تؤوي «خونة» جيرانها. شرح مويتا كيف أنه صار من المستحيل أن يدع نيانزا وسومشتسي يبقيان. بالطبع، لقد أنكر علناً جزم الرئيس بيتي بأن نيانزا وسومشتسي يتلقيان الأسلحة ويحضران لاستخدام البلد كقاعدة لانطلاق هجمات العصابات على بلدهما الأم.

التفت إلى براي، متوقفاً عن الكلام، أومأ براي إلى حتمية ذلك.

قال مويتا: «لم يعودا يكترثان أكثر».

- «إنهما حتى لم يستغلا المشكلة لإخفاء أي شيء. كان نيانزا يطير داخلاً خارجاً وثمة صور له في الصحف الفرنسية وهو يصافح كل من حوله في الجزائر. كانوا يحتفظون ببنادق آلية في بناية المطابخ التي بناها الصاحبيون Quakers لأجلهم في المعسكر - نعم، في الظاهر كان ثمة بعض البطاطا المكدسة التي يعتقد أنها غطاء».

أصابتة وبراي نوبة من الضحك الشديد:

- «هكذا لم يكن ثمة شيء آخر يمكنني فعله».

أخرج براي سيكاراً وأمسكه دون إشعال بين شفتيه. وهكذا كان على نيانزا وسومشتسي أن يرحلا، عبر الحدود إلى البلد المجاور، إلى الشمال الشرقي، إلى بلد لم يكن جزءاً من الاتحاد الاقتصادي الجديد الذي كان على وشك أن يربط بلدهما وبلد مويتا.

- «رأيت جاكوب نيانزا. لا أحد يعرف. رأيته قبل أن يذهبا. كان على الدوام أكثر عقلانية من سومشتسي».

توقف مويتا؛ بالطبع، كان يأمل في أن نيانزا، إن لم يكن سومشتسي، سوف يتفهم ذلك. ولكن في الظاهر لم يكن الأمر كذلك. أشعل براي السيكار وتابع مويتا المجات التي تحول الرأس المتلبد إلى نار. لم يكن يدخن أويشرب؛ إنه تأثير الإرسالية المشيخانية التي أرسل إلى مدرستها: «رأيت ما كان على تولا تولا أن يقوله في دار السلام؟»

انفتحت شفتا براي وأطبقتا بانتظام حول السيكار. هز رأسه موافقاً.

Twitter: @alqareah

- «كان ذلك جيداً، ايه؟».

قال براي، والدخان يلف الكلمات: «كان أحد أفضل الخطابات التي ألقيت هناك»

- «هذا الصباح أجرى اتصالاً ليقول إنه ذاهب إلى كوبنهاغن، وستوكهولم وهلسنكي".

كان بعض أهم أعوان مويتا في القصر الرئاسي قد استفسروا عن مصاريف وزير الخارجية على السفر وأبرزوا كشف حساب لرحلاته، يظهر أنه منذ الاستقلال لم يمكث في البلاد سوى عدة أسابيع.

- «نعم، لو كان لدي غونزي آخر».

- «ألبرت مشغول بتوسيع الذهن، أليس هذا ما تقوله. من الصعب جداً عليّ أن أفعل شيئاً. إنه يقدم لي أسبابه الوجيهة - هل تعرف؟ بالطبع إنه قادر على ذلك. إنهم يصغون إليه — » كان يقصد في العالم الخارجي. ألبرت تولا تولا كان أيضاً واحداً من قبيلة مسو، الوحيد الذي يتولى منصباً وزارياً كبيراً؛ ما كان مويتا يناقشه فعلاً هو حقيقة أن تولا تولا، سواء كان قادراً أم لا، لم يكن بالإمكان استبداله بدون خيانة الميثاق الانتخابي مع قبيلة مسو، ولم يكن بالإمكان الاحتفاظ به بدون اهتياج رجال مويتا الذي يبحثون عن سبب وجيه لإخراجه. وتحت هذا القبول الصامت بالحقائق كانت هناك حقيقة لا يمكن التسليم بها - لو أعطي تولا تولا حقيبة وزارية أخرى. هل كان مويتا يؤمن بأنه سيصبح واحداً من النمل؟ هل كان مويتا يخشى أن تكون ثمة إمكانية أن يصور تولا تولا مستاءً لمناقشة مظالمه مع الآخرين - كان نيل بايلي قد ذكر وزير التنمية والتخطيط، بول سيشيكا، موسى فاهلي، ودلاميني اوكوي. كان تولا تولا رجلاً بارعاً؛ فالسفسطة قد علمته استعراضية اللمسة المبتذلة كبديل رهيب لما كان مويتا يمتلكه بشكل طبيعي.

كان براي قادراً الآن على التحدث عن سهول الباشي كقضية بعيداً عن مسألة شينزا - شينزا أو لا شينزا، يجب أن تكون هناك طرقات، يجب أن يوجد تحرك ناشط لجعل الباشي أقل شبهاً ببلد آخر بالمقارنة مع المنطقة المحيطة بالعاصمة والمناجم.

قال مويتا: «المشكل هي أنه لا يوجد شيء هناك».

- «لا، لا شيء قابل للاستغلال، يغري الرأسمال الأجنبي. لكن الشعب، يا مويتا».

Twitter: @alqareah

ـ «ما لم يوجد اكتشاف فلز من نوع ما ـ ثمة مسح جيولوجي سيتم في الأشهر القليلة المقبلة، إنهم السويديون ـ الشيء الوحيد الموجود هو الماشية. وحتى ذاك الوقت. أقصد إذا استخدمت للنقل فأي ماشية ستكون للذبح؟».

كانت السهول من الأجزاء القليلة من البلاد التي لم تصب بذبابة تسي تسي، الحاملة لمرض الماشية المعروف باسم داء المثقبيات لكن الماشية تستخدم بالدرجة الأولى بالطريقة التقليدية، كشكل من الثروة وامتلاك رأس المال ضمن القبائل.

قال براي: «سيكون عليكم أن تغيروا ذلك كله. اجعلوا تربية البقر تسير هناك على أساس تجاري. عندئذ ستكونون قادرين على إيقاف استيراد اللحم من الجنوب. وسيكون استخدام الماشية للنقل غير اقتصادي ـ سيكون لديكم سبب وجيه لإنشاء الطرق»

بدأ مويتا يدون ملاحظاته على نقاشهما.

«أريد الخروج معك إلى هناك وإلقاء نظرة جيدة. سأطير إلى غالا في الشهر القادم في وقت من الأوقات وسوف أصعد إلى هناك. ثم في وقت لاحق من العام سنذهب إلى البحيرة. ربما أستطيع جلب جوي والأولاد، إذا كانت أوليڤيا موجودة هناك يمكنهم قضاء عطلة لأيام قليلة في حين نكون ـ أنا وأنت ـ هناك في ذاك البيت الخاص بي، أنت تعرف، أنا لم أر المكان أبداً».

كانت شركة صيد الأسماك قد قدمت للرئيس «منتجعاً» على البحيرة في عهد الاستقلال. «في هذه الأثناء، يا جيمس، ستكتب إليّ، إيه؟ رسالة من حين لآخر. دعني أسمع . يجب ألا نفقد الاتصال».

وألح على أن يمكث براي في العاصمة بقية الأسبوع.

ـ «ستأتي إلى الغداء. حفل الغداء المقام مع رجال الأعمال البيض. سأخبر آسوني».

أرجع مويتا رأسه إلى الوراء وكتفاه يعلوان وينخفضان من الضحك:

ـ «هل تعرف ما الذي أرادوا معرفته؟ إذا كان عليهم أن يبنوا مرحاضاً خاصاً لأجلي».

قبل سنوات، عندما جاء أحد أفراد الأسرة المالكة الصغار إلى المنطقة، كان حزب استقلال الشعب قد صنع رأسمالاً سياسياً من مادة غير واعدة مثل «محطة الاستراحة» لأجل السمو الملكي، سرعان ما تبين أن كلفة هذا البناء الصغير أكثر من كلفة طراز البيت المقدم لعائلة أفريقية في المدينة الأهلية. فيما كانا يضحكان تذكر براي أنها كانت فكرة شينزا؛ كان شينزا يمتلك غريزة أكيدة لأجل القضية الملموسة

Twitter: @alqareah

مهما كانت عديمة الأهمية، ويعرف كيف يجعل معارضيه يبدون عبثيين بقدر ما يبدو أنهم يستحقون التوبيخ.

عندما عاد إلى السيلفر رينو وذهب إلى طاولة الاستقبال لأجل استلام مفتاح الغرفة، وقف هناك، الرجل الذي يجد نفسه على خشبة المسرح وسط مسرحية لا يعرف عنها شيئاً؛ كان هجالمار ونتز وابنته يمران ويمرران أحدهما الآخر بانفعال في القفص المكون من طاولة العرض وطاولة الحساب والخزنة. تلعثم هجالمار، حيا براي، لكن الفتاة كانت في حالة من الشغف الرفيع: «أدعو المسيح فقط ألا يستمر صراع الأجيال؛ هذا هو كل شيء. إن الأشياء التي تقرؤها في الصحف الانكليزية لم تكن لها علاقة بالأجيال».

كان وجه هجالمار الأشقر الرقيق البشرة محمراً على طول عظام الخدين وتحت خصلات الشعر الأصفر على قبة جبهته. عينا الآنسة هجالمار السوداوان تشعان بألق نور الزيت على ماء الليل، شهيقها يشفط التجاويف فوق عظام ترقوتها. خلطت كومة من الرسائل وخرجت؛ التقط براي النفحة المسكية للغضب عندما رفعت غطاء طاولة العرض وكشفت حفرة إبطها المحلوقة، المبللة بالعرق.

كانت ايمانويل قد سمعت عن خطة والديها للطلب من راس آساهي أن يتدخل لصالحهما لدى معمل البيرة. قال أبوها: «الله يعلم من أخبرها». ورأى براي أن هجالمار لا بد أن يكون قد أخبر أناساً كثيرين بالإضافة إليه. كان من المستحيل ألا تكون غاضبة لأنهما فكرا باستغلال آساهي، بل لأنهما ترددا في القيام بذلك، فقد كانا يخشيان أن يوحيا إليها بذلك. كانت تستشيط غضباً من ذلك. لقد غضبت منهما لأنهما «يدفعان الجميع إلى الجنون» عندما يعرفان على الفور شيئاً ما يمكن القيام به. قالت لأبيها:

- «وساوسكما تجعلني أريد التقيؤ».

قال لبراي: «بالطبع، إن الأولاد يجب أن يحققوا ذواتهم؛ شيء حتمي، وفي كل جيل يكون الشكل الذي تأخذه المعارضة من المستحيل دائماً أن يفهمه الآباء».

كان براي قد سمع رد فعل الفتاة على ذلك إذ قال: «ستكونين قادرة على الانطلاق مباشرة ورؤية ما تستطيعين فعله من خلال راس آساهي، بأي حال».

لكنه كان مدركاً أن الجانب العملي هو شيء ينظر إليه هجالمار ونتز بلا تمييز الآن.

تلاشى اللون الأحمر بقعاً من رأسه عندما تلمست يداه حول الأشياء المألوفة على طاولة المكتب.

Twitter: @alqareah

كانت الفتاة مكومة في إحدى كراسي الحديقة في حالة من الوهن. حاول براي أن يمر مسرعاً بحيث لا يكون عليها أن تتظاهر بأنها لا تراه، لكنها قالت، بالصوت الأجش الخشن لطفل يلتمس الغفران على سلوك سيء، وفي الوقت نفسه كانت عاجزة عن إخفاء عدم اهتمامها بالهموم التافهة للناس الآخرين: «كيف كان تسوقك؟».

توقف ليظهر أن كل شيء على ما يرام بينهما وبين العالم:

- «أوه لم أكن أبحث عن شيء خاص، أنت تعرفين».

كانت تقتلع شائبة غير مرئية تحت بشرة ذراعها العلوي، ملتقطة إياها بظفرها ثم كوّرت يدها فوق العقدة الداكنة الملساء لكتفها.

قالت: «إنهما يثيران السخرية. أوه -- ظريفان ــ ولكن ذلك لا يغيرهما -- إنهما مثيران للضحك».

«ما كان عليهما أن يأتيا للعيش هنا ــ إيماءة، هذا هو كل شيء. والدي رومانسي للغاية. كل ما فعله كان رومانسياً».

فيما كانت تتكلم كانت تحك حبة الجلد حتى انتشلتها، فانتفضت قطرة داكنة لماعة من الدم فوق اللحم. نظرت إليها شزراً ووضعت فمها عليها برفق. قال براي: «حتى ألمانيا؟»

- «خصوصاً ألمانيا»، واستمرت تمص الدم ثم تنظر إلى ذاك المكان. «لا يمكنه أن يتدبر حياة عادية على الإطلاق، ولا يمكنها أن تتحمل ذلك. ومن يلومها؟ ما هو الهدف من أن تنقذ من أفران الغاز، لأجل ذلك؟»

ضحك عليها، لكنها فجأة أصبحت مصدومة من نفسها، إن لم يكن منه.

- «إننا شريران دمويان، أخي وأنا. أنا سيئة بالقدر نفسه، على طريقتي. هذا شيء آخر. أمي تلوي يديها لأننا كبرنا متوحشين، في أفريقيا، وعديمي الثقافة، بدون التدريب الفكري المناسب للأوربيين الذين أرادوا قتلها».

- «وهل تظنين أنكما متوحشان؟».

- «هل تعتقد أننا سنبقى على قيد الحياة، لو كنا مثلهم؟».

كان ثمة هذا الحضور المستمر لأناس يحتكون به، مثل عدد كبير جداً من القطط تترنح بين ساقيه. وكانوا جميعاً مفعمين جداً بالإلحاح والطلب، العيون مصوبة إليك، أبواب السيارة تصفق، المداخل والمخارج تفتح وتغلق فتحة انتباهك كما

Twitter: @alqareah

يستجيب بؤبؤ العين للنور والظلام. برز الدافع إلى التعبير عن ذلك لأحد ما مع التعليق البسيط على ڤيڤيان بايلي: «لقد تأكدت بالكاد كم كنت متوحدة».

قبل أن يتمكن من الاتصال مع رولي داندو، اتصل داندو:

- «سمعت أنك لم تأخذ غفوة في الليلة التي وصلت فيها».

ابتسم براي للقوقأة العدائية وهو يقف في مقصورة هاتف الشرفة تحت صورة مويتا، التي انتهكت بفعل الأرقام المخربشة عليها.

- «أعتقد أنكم لم تخسروا شيئاً. لقد أخبرني الرئيس أنك وتشيكوي قمتما بعمل جيد. ليس سيئاً للغاية كما يفترض لو لم أكن هنا. هذا هو كل ما أطلبه، يا رجل. إنه بقدر ما أتوقعه من نفسي».

على العشاء في بيته، قال: «تلك هي الكيفية التي أعرف بها وظيفة القانون في أي بلد تحب أن تذكر اسمه، اليوم. هذا هو ما وصل إليه مبدأ العدالة. إنك تتحكم بمدى الهجوم الساحق أو الاغتصاب. لا بد من إيجاد تسوية لذلك. إن تنظيمه أفضل من السماح بتشذيب حكم القانون ورفعه عالياً من قبل الجماهير الراقصة، أي؟ لذلك تكون لديك حصص جاهزة في بريطانيا، بحيث لا ينقلب البريطانيون على السود في الباب التالي، ويكون لديك مراقبوك الخلفيون في المكاتب الصحفية في تشيكوسلوفاكيا، لذلك فإن الروس لن يعودوا بدلاً منهم».

شرب مزيجاً من عصير الليمون والصودا والكحول الأبيض في قارورة بدون علامة تجارية. «إن بوبوكوسيك يدبرها لأجلي - سليڤو ڤيتز. المفوض التجاري اليوغوسلافي. الكحول النقي هو أقل إرهاقاً للكليتين. هذا ما يدور في ذهني فعلاً هذه الأيام - صدقني، إن مُثلك لا تعمل إلا عندما تكون بصحة جيدة، إنها لا تسبب لك أية مشكلة عندما يعمل كل شيء بشكل جيد في الداخل. لقد أصبت بهذه البروستات اللعينة، فأستيقظ لكي أتبوّل كل ساعة وإذا كنت مزنوقاً في مكان ما يكون عليّ أن أقف بساق واحدة ملفوفة على الأخرى لكي أحصره».

كان وجهه شكساً من الفزع والذعر من آلة رفضت أن تعمل بشكل صحيح. لقد أصبح نحيلاً، إذ أن صوته، بسبب حجم ذاك الرأس الآخذ بالتقلص، يبدو أكبر من ذي قبل. كان كلب اللابرادور العجوز يستلقي وهو يلهث بينهما على العشب. في أسفل الحديقة كان الجنائني وأحد أصدقائه يلعبان التشيسولو على لوح مخربش بالتراب الأحمر، والغراموفون يزعق بشكل واهن جداً خلف النخرات والصرخات الملحة التي يشجع بها عدادو الحجارة على التقدم من حفرة إلى أخرى.

Twitter: @alqareah

ـ «يمكنك إجراء عملية جراحية، يا رولي».

كانت أماليد أشجار الزعرور في الأفق القريب تطلق زغباً رقيقاً، منبثقاً وقاسياً كما لو أن السماء الزهرية قد تشققت بشكل يستحيل علاجه مثل قطعة خزف صيني جميل.

ـ «نعم، أنا أعرف. انتظر وسترى كيف. كنت سأحزم أمتعتي وأنصرف لأجلس على حقيبة أمتعتي في مكان ما، ولكن ما الفائدة؟ كل البلدان سيان. كلنا متخلفون. من الممكن أيضاً أن أبقى حيث أنا بدلاً من أن أجرب حظاً جديداً».

ـ «لمن تعود فكرة مشروع مرسوم الاحتجاز؟».

بين داندو أن المسألة لا علاقة لها بالموضوع: «إنها فكرة سايبريان كنتْ على ما أظن. لديه الكثير من الأفكار. أو هي هبة لأجل الخروج بما لا يريد الآخرون أن يكونوا من يقولونه. كان لمويتا فكر غير معلن، إن كِنْتْ يعلنه بصوت عال حيث لا يمكن قمعه، أنت تفهم».

كان كِنْتْ هو وزير الداخلية: «مويتا لم يذكر سوى أنت وتشيكوي».

ـ «استدعِ الكتّاب. لقد التقطنا الكلمات الصحيحة. كنت قادراً على إدخال كلمتي، بأي حال. هناك فقرة استحضرها المرسوم للتجديد كل سنة. تلك هي فقرتي الصغيرة».

بدأت الزيزان جوقة أجراس الأبواب التي لن يرد عليها أحد أبداً.

قال براي، مترفقاً بداندو وبنفسه: «وسيُجدد كل عام. بعد فترة طويلة بعد أن يكون كل واحد قد نسي تماماً لماذا كانت هذه الفقرة أولاً».

ـ «حسناً، هذا ما يهمني. إنها فقرة الضمير، ضميري، يا صديقي. لقد وضعتها هناك. إغراء الفضيلة، العدالة، فيما لو أن أحداً سيحب الوقوع عليها. إنها متاحة. أنت تفهم ما أقصده».

ارتفع خده بوخزة عدم ارتياح داخلي. نهض كلب اللابرادور ببطء ووضع خطمه على ركبته، لكنه دفع بعيداً.

ـ «يقول مويتا إنه لن يبقي المرسوم يوماً واحداً أطول من اللازم».

أحدث عدم ارتياح داندو بهجة نزقة لدى براي.

ـ «الإنساني في بلاط الملك مويتا. أوه اللعنة، يا جيمس. أنت الذي قال لي إن أي شخص سيكون مغفلاً لو خطر بباله أنه يستطيع أن يستلم وظيفتي بدون القيام بالأشياء التي لا يحبها».

Twitter: @alqareah

- «هل من سبب آخر تعرفه بالإضافة إلى شينزا؟».

- «لا، ليس حقاً. لا يمكنك أن تأخذ سيشيكا على محمل الجد. قليل من الإزعاج بالذين خارج العمل - ليسوا عاطلين عن العمل، لنتكلم بدقة، إنهم يهجرون الأراضي إلى المدينة... ولكنك تعرف كيف أن الكثير من سكان الباشي يعملون في الصناعة وإنشاء الطرق والسكك الحديدية. كانوا دائماً ثلث القوة العاملة تقريباً. شينزا يعارض نقابات حزب استقلال الشعب من خلالهم، بشكل محدد جداً».

قال براي: «الحبس الوقائي لمعالجة ذلك؟».

وضع داندو يديه على مسندي كرسيه ونهض عنه.

- «إنه ليس ولداً غضاً مثل ولدنا. إنها بداية صغيرة. لديه أصدقاء في الخارج وربما في الداخل أيضاً - ثمة أناس ربما كانوا مستعدين لامتطائه. لقد تمت معاملته مثل القاذورة - فكر لمجرد لحظة».

خطا متسكعاً بصندله التلميذي إلى ملجأ مسيّج بالهيبسكوس وعلى خلفيته ضجيج الحشرات. سمعه براي يتبول ببطء وبصوت عال.

جاء فستوس من قفا المنزل بقصعة من الثلج الطازج. انتهز فرصة غياب داندو المقترن بالدليل على أنه كان على مسافة استماع أيضاً، ليتهم: «لماذا لا يبقى موكاوايي معنا خلال هذه الفترة؟» ظل ممسكاً بالثلج إلى أن رد براي.

- «لم أعرف أنني سأجيء. حاولت أن أتصل هاتفياً...».

قبلت الأعذار ووضع الثلج، بالتقليد الذي ابتكره البيض منذ زمن طويل وأصبح، بشكل يثير الفضول، جزءاً من مصير الرجل العجوز الأسود، بحيث أن هموم «سيده» كانت هي همومه.

- «هل كاليمو يسير على ما يرام؟» قال بحدة.

كتب براي إلى داندو ليشكر فستوس، عندما ظهر كاليمو. ثرثرا للحظة، مرتدين إلى اللهجة المحلية، التي يتكلمها براي بشيء من التردد، مسعوفاً بكلمة من هنا وكلمة من هناك يقدمها فستوس. وهو يصنع بحنجرته الهتافات العميقة والمنخفضة للسرور واللباقة، كان يجمع أي قارورة صودا فارغة أو اثنتين ويخرج عندما يظهر داندو.

- «نعم، شينزا اللعين البائس، إدوارد اللعين البائس».

بدا داندو هادئاً الآن، بدأ يسكب المشروبات الطازجة.

- «لديه زوجة شابة جديدة وطفل». قال براي بابتسامة: «إنه يزدهر».

Twitter: @alqareah

- «الشيطان العجوز!». كان داندو مسروراً؛ هو نفسه اتخذ حياة جديدة من التفكير.

والسجائر من وراء الحدود، وبيت في مجمع مبانا. لكن براي لم يقل ذلك. لم يكن ذلك شأناً من شؤونه. قال داندو بإشراق:

- «هل نقلت الأخبار الجديدة لمويتا؟».

قال براي وهو يراقبه: «أخبرته أن يرسل في طلب شينزا. حتى في هذا الوقت».

- «لو أرسل في طلب شينزا الآن، لن يكون ذلك على بطاقة مذهبة».

قال براي، بعد لحظة: «كنت أعتقد أن هذا هو الشيء الذي كنت تأباه - أن تلمس شينزا».

وضع داندو مشروبه بأناة، أطلق ضحكة قصيرة، حادة، موحية.

- «أنا أعمل لصالح مويتا، يا ولدي».

عاد براي إلى الفندق متأخراً جداً من محل داندو؛ كان من المستحيل أن يمضي هناك سهرة دون أن يشرب كثيراً. وكان عليه أن يقود السيارة بحذر واعٍ. رأى زوجاً من العيون، قدمين فوق جانب الطريق؛ إنه ظبي صغير، يرعى. كانت الرائحة الباردة للندى الكثيف مبهجة للحواس عبر نافذة السيارة.

كان هجالمار ونتز لا يزال واقفاً. في المكتب الفاسد الهواء الذي لم يكن له منفذ مباشر إلى نافذة أو باب، الروائح التي كانت زوجته قد كنستها وفركتها وطرحتها من الغرف العمومية للفندق المجمع في طبقات تخلو من الإثارة - دخان، طارد الحشرات، قرنبيط مسلوق، بيرة مسفوحة. كان رأس هجالمار يلمع تحت المصباح؛ كما كان محاطاً على الدوام بالفواتير وقصاصات الجرائد.

أسرَّ لبراي، ذات مرة: «أعرف عن لاجىء في لندن كان قادراً على أن يعتاش من ملفات القصاصات. الناس يدفعون له ليقدم لهم المشورة. بروفسور من جامعة بودابست، كان عليه أن يخرج في عام 56».

قال لبراي بثقة الليل: «اليوم الآخر - هل قالت ايمانويل شيئاً؟ لقد رأتها مارغوت تتحدث إليك في الحديقة».

كذب براي، مستشهداً بتورغينيف: «الرجل الشريف ينتهي به المطاف بأن لا يعرف أين يعيش - هكذا تقريباً».

نظرة سرور خجولة، كئيبة، مسحت الوجه مثل يد.

Twitter: @alqareah

- «يا إلهي الطيب. إنها غريبة، فتاتي تلك. ولكنك تعرف من الذي حكى لها عن رأسٍ آساهي؟ ستيفن. أخوها. لقد أخبر مارغوت. ايمانويل لا تنسجم معه إطلاقاً. ذاك النفور المتبادل الرهيب للأخ والأخت. توماس مان وحده هو الذي عالج الجانب المعاكس له في موضوعاته السفاحية».

كانت الكذبة منعشة، فقد نجح في إبعاد براي عن الفراش حيث كان صوتاهما يسمعان من خلال سكون الفندق في ساعة الفجر مثل نقاش في أحلام الناس، النشاط السري للفئران، والفكان الثابتان للصراصير.

كان البيت الرئاسي ساكناً ذاك الأسبوع؛ إذ لم تكن ثمة حاجة للدعوة إلى جلسة طوارىء. تابع المضي في القراءة الثانية لمشروع قانون الحبس. من الصعب على رجل من حجمه ألا يكون فضولياً؛ عندما احدودب بهدوء على طول الجدار الفاصل الخشبي المصقول الذي يفصل صالة الزوار عن أفراد العائلة، تنحت بضعة وجوه جانباً، تقديراً له. الحجرة الجميلة، المزينة بألواح من الخشب من غابات مسو بعلامته المائية ذات الخطوط الباهتة، كانت متعددة مثل قاعة الصف. تطلق رائحة مثل رائحة الكنيسة. ثمة رجل أو اثنان يرتديان لباس التوغا - من بين أعضاء الوزارة، الدكتور موس فاهلي ودلاميني اوكوي الصغير، يظهران الأحذية الإيطالية الأنيقة تحت الأثواب - لكن معظم الأعضاء يرتدون الملابس الأوروبية الرسمية بالرفاه والثقة المميزين للرجال السود. وجه رولي داندو الأبيض الضيق المسدود، وكان المعلّم بالنظارات ذات الحواف السميكة والشاربين الشبيهين بفرشاة الأسنان جسماً صنمياً منصوباً فيما بينهم.

مع التغير المفاجىء للجو من الشمس وحركة المرور في الخارج راودته هذه الانطباعات مثل وخز الدم في طرف تعود إليه الحياة. عبر الهمس كان يُسمع صوت كِنْتْ، وزير الداخلية، وفي قبضته يحمل ورقة جدول أعمال مسحوقة:

- «هل لدى المواطن العادي، المسالم، ما يخشاه؟ ما شبكة التهويل هذه التي يتكلم عنها العضو المبجّل عن اينهام؟ من أين يستعير لغته؟ من الواضح لنا في هذا البيت أن لا علاقة لها بحقائق الحياة في هذا البلد. ومن الواضح أنها تأتي ممّا وراء

Twitter: @alqareah

البحار - فالعضو المبجّل قرأ من قصص الجاسوسية أكثر مما ينبغي - هذا البيت الرئاسي ليس مكاناً للجيمس بوندات والفيلبيات[1]».

نال كِنْتْ بعضاً من الضحك الذي يريده، ولكن ليس كثيراً. ومع أنه بالكاد نجا أي شخص من تبشيرية جيمس بوند، فإن الكثيرين لم يسمعوا بفيلبي. ولفت سايروس كيما انتباه الناطق الرسمي، الجالس بشكل مائل إلى جانب واحد على كرسيه الطويل كما لو أن جمته البيضاء المجعدة تنزله بثقلها إلى الأسفل. كان سايروس غوما العضو حالياً عن إحدى الدوائر الانتخابية الشمالية الشرقية، الذي نهض لتوه نصف نهضة عن مقعده. لهذا اعتمد غوما لباس التوغا؛ فيما كان يقوم بتسوية طرفه الفالت مثل سيدة عجوز تمسد شالها بشكل نيق، كانت ذقنه الناتئة مثبتة بأسلوب الغراب الزرعي نحو كتف واحد - تماماً كما تذكّر براي - ووجهه المشدود، عيناه مغمضتان نصف إغماضة، في حين أن صوته بقي رقيقاً ومعقولاً.

- «لقد تقبلنا ضرورة هذا المرسوم. هذا شيء. ولكن يجب علينا ألا نسمح لأنفسنا بالتفكير بأن الناس القلقين بشأنه، الذين لديهم شكوك خطيرة حوله، هم مادة للسخرية. أقترح على وزير الداخلية المبجل أن هؤلاء الناس صادقون؛ لا ينبغي السخرية منهم. ليس مرسوم الحبس الوقائي مادة للضحك. لم نضحك عندما فرض البريطانيون واحداً علينا».

كان ثمة انكماش مفاجىء للانتباه في البيت الرئاسي.

- «نحن لم نضحك في المعسكرات في سهل الباشي». فصاح شخص:

- «نعم، الباشي! - وفي قلعة هاوارد».

توقف للحظة ، لكنها كانت طويلة بما يكفي.

- «هاوارد! ، باشي!».

طلب الناطق الرسمي من نزلاء البيت الرئاسي أن يتقيدوا بالنظام. تمايل سايروس غوما قليلاً وبدأ يتكلم مرة أخرى، بشكل منطقي، وبلطافة:

- «لم يضحك رئيسنا عندما أمضى سبعة عشر شهراً معتقلاً هناك. لقد عانى لأنه كان من الضروري أن يكسب حريتنا. إذا كان علينا أن نقبل أنه من الضروري بالنسبة لنا الآن أن نُدخل الحبس الوقائي؛ فهذه ليست مناسبة للضحك».

---

[1] الفيلبيات Philbys. جمع فيلبي، الجاسوس السوفييتي الشهير الذي تجسس على البريطانيين أثناء الحرب الباردة وترقى إلى أحد أعلى المناصب في الحكومة البريطانية. (المترجم).

Twitter: @alqareah

خيّم صمت مريب، وجيز جداً. عاصفة من التصفيق الحار استحثها نوع من ارتفاع درجة الحرارة في البيت الرئاسي، عندما سعت لتوكيد ذاتها. صاح أحدهم، وهو يقف على قدميه، «إذا أردتم أن تبكوا على الخونة!». بدا أن المجلس يلتئم بروح من العدائية، وهو يقدم مظهراً متماسكاً يتخذ شكلاً عدوانياً، قفا حيوان ضخم يتموج على غوما. إلا أن شخصاً آخر من ناحية التصفيق اتخذ الأرض؛ كان شاباً ذا وجه حصاني وأذنين صغيرتين، وقد أراح يده المستدقة الأصابع التي ترتدي خاتماً على مؤخرته الضخمة. كانت انكليزيته قوية اللكنة.

- «هل يمكن للوزير أن يشرح السبب في أن المرسوم لم يطرح أمام اللجنة المركزية؟ أرجو أن تصححوا لي، ولكن على حد علمي فإنها المرة الأولى التي لم يتم فيها ذلك. لم يوافق الحزب على هذا المرسوم لأن الحزب لم يبلغ به. هل ستكون اللجنة المركزية ختماً مطاطياً، لمجرد التصديق هكذا على القرارات المتخذة من قبل الحكومة؟ هل هي كذلك؟».

ابتسم سايبريان كنت، الذي يتخذ المقر الرئاسي موضعاً لأسراره، بسبب سذاجة السؤال: «يدرك العضو المبجل أن هذا القرار اتخذه الرئيس بموجب سلطات الطوارىء».

كان مظهر تلميذ المدرسة الضخم عنيداً.

- «الرئيس هو أيضاً رئيس الحزب. هل استشار لجنته المركزية؟ هذا ما أسأله». برز مويتا، الرائق الوجه، ذا السلطة المباشرة المهدئة، لرجل يبدو دائماً أنه يأخذ وجهة نظر كل شخص على محمل الجد، في مكان كِنْتْ:

- «أود أن أطمئن العضو المبجل، لأنني أعرف التفاني الذي قدمه للحزب منذ أن كان أحد المنظمين البارزين لشبيبة الحزب. أنا أشاطره القلق لأن حزب استقلال الشعب - الذي صنعته أنت وأنا وكلنا - يجب أن يستمر من خلال هذه الحكومة في تنفيذ السياسات التي شكلها بالمثابرة من إرادة شعبنا. في رد عاجل على بعض المعلومات، اتخذت خطوة إدخال مرسوم الحبس الوقائي دون أن أجد فرصة لعرض المرسوم على اللجنة المركزية. لكنني أود أن أشير إلى أنني اتخذت هذه الخطوة بالتشاور التام مع رئاسة الحكومة. ومن بين الأعضاء الثمانية في اللجنة المركزية يوجد خمسة هم أعضاء في الحكومة».

سمع همهمة موافقة ظافرة؛ فقاطعها، بشكل خجول، متابعاً:

Twitter: @alqareah

- «عندما يعرض هذا الإجراء على مؤتمر الحزب في الشهر القادم، لا أشك في أنه سينال الموافقة ليس فقط من الأعضاء الباقين للجنة المركزية، بل أيضاً من المؤتمر ككل، مانحاً تفويض البلد كله لما كان بالدرجة الأولى قرار الأغلبية عن طريق التمثيل الكامل للجنة المركزية في الحكومة».

كانت ضجة الاعتراض في المقاعد الخلفية تصدر عن تصفيق الأحذية اللمعة جيداً التي تضرب الأرض. ابتهج مؤيدو مويتا وأفاضوا في الثقة. أما هو وقد استحوذ عليه هذا الشعور فلم يسمح لنفسه بالانجراف بعيداً، بل سرعان ما حوّل العزم نحو المنشقين: ارتفع صوته واضحاً خارج الصخب:

«في هذا العام الأول من تشكلنا كأمة نقف معاً بطريقة ربما لن تتكرر أبداً. في سنوات أولادنا وأولاد أولادنا. إذا أنعم الله على بلدنا بالسلام والاستقرار اللذين نكافح لأجلهما، فإن مسألة تسيير هذا البلد قد لا تكون أكثر من جزء من الإدارة الكفوءة من قبل محترفين. لكننا أخوة في السلاح. نحن الذين طالبنا بالحرية عندما لم نكن نملك أكثر من سروال. نعم، نحن الناس - سايروس غوما، النائب عن سيلوسي، وأنا نفسي، والكثير الكثير من الوجوه التي أراها هنا - الذين قبعنا في السجن، معاً ليس لأننا كنا نريد أن نخرّب بل لأننا كنا نريد أن نخلق حياة جديدة لأجل شعب أفريقيا. إننا الناس الذين صنعنا الكفاح والناس أنفسهم الذين يمارسون الحكم الآن. إننا المحصول الأول. هذا ما يسميه الناس الذين اعتادوا أن يسيّرونا. صحيح أنهم قد بذروا أسنان التنين للقضاء على القمع الاستعماري فنبتنا نحن جيلاً ينفث لهباً... لقد تعلمنا بأقسى الطرق منذ أيام المدرسة ما الذي تتطلبه الوحدة منا - وكيف، بدون، لا شيء، لا شيء له فائدة لأي منا، وكيف يمكن نيلها أو صونها. الشكوك والخلافات الصغيرة نحترمها كلٌّ لدى الآخر. إنها آراء عائلية. إنها لا تمس حقيقة أننا كتلة واحدة..».

حجب سايروس غوما بيده جانباً من وجهه. عيناه موجهتان إلى مويتا، وعلى وجهه تعبير لا يمكن بلوغه. داندو ينظر سئماً. أفلت براي من زحمة الناس عندما فض البيت الرئاسي الاجتماع لأجل الغداء؛ وحدهم الصحافيون سبقوه. ثمة رجل صغير يرتدي صدرية من البيسلي كان لتوه قد حظي بإحدى مقصورات الهاتف الزجاجية المحدثة وبعث برقية. إن الرئيس يطالب بالوحدة: طبعاً. مشى براي متشامخاً بطيئاً على طريق المركبات المحفوف بالأزهار إلى أرض اصطفاف سيارات الزوار، وكان عليه أن يتوقف، دون أن يعرف لثانية ما إذا كان عليه أن يثب إلى

Twitter: @alqareah

الوراء أم إلى الأمام أمام سيارة جيب صغيرة تنطلق خارجة من موقف سيارات النواب. كان السائق هو الشاب الضخم الذي أثار مسألة اللجنة المركزية. وهو يفرمل وثب براي فجأة بشكل مرتفع إلى درجة أنه كاد أن يضرب السقف المصنوع من قماش القنب، وهو ينزل أطلق تكشيرة مفتوحة ومغلقة لورطة تشابه الضحيتين، براي وهو نفسه.

كان براي بصدد أن يقابل نيل بايلي على الغداء. إنه إيطالي كان قد نزح من الكونغو وفتح محلاً للبيتزا خلف المخازن الأفريقية الوسطى. كان المحل يعجّ بشبان المدينة البيض؛ إذ لا يوجد أفريقي يدفع ستة شلنات من أجل قرص من العجين المفحّم بالبندورة وسمك الأنشوفة. عندما مل السكان البيض القلائل من أكل البيتزا، كان على الإيطالي أن يفتح محل سمك وبطاطا مقلية، حيث يمكن للأفارقة أن يتعاملوا معه. ولكن من الواضح في الوقت الحاضر أن هذا هو المكان الذي يذهب إليه في مدينة لا مكان فيها للذهاب إليه؛ تحت باقات بصل الرافية والبريق الباهر لسكرتيرات «Arrivederic Roma» المليحات من الوزارات والسفارات والبعثات التبشيرية والرجال من وزارات وسفارات وبعثات تبشيرية أخرى (فالمؤتمرات هي أماكن عظيمة لأجل صيد العصافير، على حد قول نيل بايلي). كان مشغولاً بالحركات الأولى للانجذاب الجنسي الذي يؤسس بالشكل الأسهل عبر الطاولة. مثل كل شخص آخر، شرب نيل بايلي وبراي النبيذ المنزلي بكؤوس الكوكا ـ كولا. كان رأس إله النهر الكبير، رأس بايلي، ذو اللحية المجعّدة الشقراء المائلة إلى اللون الأحمر، يحدق خارجاً باستمتاع عبر الفسحة الفاصلة بين نوبتين من نوبات تركيزه على ما يقوله:

ـ «نعم، نعم بالطبع، غوما عرص ماكر، وعندما يفتح فمه لا يتحدث عن نفسه فقط، يمكنك أن تعتمد على ذلك. إن ما لا يستطيع الآخرون قوله لأنهم في الحكومة، يقوله سايروس (نا) من الأرض».

ـ «لقد نجح في جعلهم يتصورون أنفسهم محبوسين في باشي وقلعة هاوارد مرة أخرى، هذه المرة من قبل أهلهم... بجملة واحدة ـ وكانت الوقفة محسوبة تماماً... ثم قبل أن يتمكن أي شخص آخر من أن يضع إصبعاً على ما يقوله استحضر شهور مويتا السبعة عشرة، المثال الكبير على التضحية ـ نموذج الإخلاص!».

ضحك براي بإعجاب:

ـ «أوه، إنه يغرز السكين بين الضلعين في حين يتظاهر بأنه يربت على الظهر».

Twitter: @alqareah

- «كان ذلك جزءاً من عمل الكاب. شيء للفرجة تماماً».

تقدم نيل بايلي بصورة جانبية، مرفوع الذقن إلى الغرفة، ملوّحاً بالإبريق الزجاجي لأجل المزيد من النبيذ «طعمه معدني قليلاً، أي؟ إنه معتق في صفائح بارافين قديمة أصلية - سيمضي حياة طويلة في السياسة، ذاك الولد».

- «لقد أمضى حياة طويلة، قبل الآن. كان مسؤول التنظيم القومي لفترة من الزمن، عندما كان شينزا أميناً عاماً».

- «هل هو كذلك؟ لم أتأكد من ذلك، يا جيمس، إنك أرشيف جوال - أرشيفات؟ كيف تقول ذلك؟ لديك المزيد. لكن مويتا يمكنه أن يلفهم جميعاً في طرد صغير أنيق».

قال براي: «نعم، فعل ذلك».

- «لقد أقنعكم بأنه يحتاج إلى الحبس الوقائي». قال بايلي ووجهه القرمزي الرائع يتألق بالنبيذ - نصف سؤال، نصف تصميم.

- «مويتا رجل غريب».

- «ماذا تقصد يا جيمس؟».

كان لدى بايلي ولوع بتفجير نظرة الثقة، كان ذلك جزءاً من «تكتيكه» مع النساء. لقد أصبحن مغرمات بالرجل الذي جعلهن يعرضن أنفسهن. لكنه يستمتع بممارسة مهارته الابتزازية المقنعة، المتنمرة مع الجميع.

رتب براي نوى الزيتون على صحنه؛ أولاً في صف من تسعة، ثم في صفين واحد من خمسة وواحد من أربعة. ابتسم.

- «ماذا تقصد؟ هل تصدقه ولا تريد أن...؟ أنت لا تصدقه وتريد...؟ هلم. لا بد أنك تملك كل الحقائق. هلم، الآن، يا جيمس».

نظر نيل بايلي نظرة رجل أكبر سناً، يبتسم، مبقياً رجلاً أصغر سناً منه منتظراً. بدا بايلي متشككاً.

- «إنه يطالب بفعل ينم عن إيمان».

رفع نيل بايلي حاجبيه الذهبيين. قرر أن ذلك مقصود بشكل تهكمي؛ هكذا صار ما صار عليه. تملص براي من يديه تحت غطاء التبادل:

- «ممتع، ممتع. تدريبه المبكر مع الآباء البيض. مع أولئك المشيخانيين. إنه ليس كاثوليكياً».

Twitter: @alqareah

- «أوه بالطبع. هذا النبيذ له طعم الكربيد... Nepenthe. إلى الجحيم. أنا ذاهب. أنا أشعر بالإغماء».

لاح رولي داندو ورجل ذو وجه فتي أبيض، وابتسامة متجهمة، وهما يحدقان إلى الطاولات المحتشدة ودخانها المستقر منخفضاً.

- «هلم، تخلص من الخمرة التي على ذقنك ودعنا نتولى الأمر».

قدم داندو رفيقه، رجل قانون أمريكي في طريقه إلى الوطن قادماً من جنوب أفريقية وروديسية، حيث كان مراقباً في المحاكمات السياسية. كان يمتلك العفوية الواعية للمتميزين في المحيط غير الملائم؛ لو كان أي شخص غير رولي لكان قد قدم له قريدس خليج دبلن المبرد والتشابليس في فندق البحيرات الكبرى.

- «ما الذي تفعله هنا مع براي العجوز؟ تفر من popsies؟».

اتخذ داندو ونيل بايلي مظهرين عدوانيين حقاً نحو بعضهما البعض، بالرغم من أن داندو كان الفقمة العجوز، المنبوذ طويلاً من مملكة الحريم من قبل الثور الفتي المبتسم له بأسنان بيضاء قوية وشفتين لامعتين. وجد بايلي اللهجة العامية الجنسية في زمن الحرب طريفة «bint» «popsie»؛ فقد كان صبياً صغيراً تم إجلاؤه إلى الريف مع علامة حول عنقه، في حين كان الكابتن داندو الرشيق (ثمة صورة شمسية مغبرة يحتفظ فستوس بها على رف موقد داندو) يحمل قصبته تحت ذراعه عبر شوارع القاهرة. «لمجرد أن أكشف الحقل لجيمس، يا رولي. بالطبع لقد عزفت عليها، ليس مهماً بالنسبة لك».

استهجن داندو الاستعمال الأمريكي، المصطلح الأمريكي، وخصوصاً على لسان أمين جامعة. لكن القاضي الزائر أطلق قوقأة شهوانية، متلهفاً لأن يكون بسيطاً وإنسانياً.

- «وكيف وجدت العدالة الجنوب أفريقية، يا سيد غراسبوينتز؟»

لم يكن إله النهر وسيماً ومسلياً فحسب، فقد كان يعرف من هو إدوارد غراسبوينتز (معهد الدراسات المتقدمة، برنستون، مؤلف الأعمال النموذجية حول القانون الدولي) ويعرف كيف يدخل موضوعاً كان هو نفسه مستعداً لعرضه بفصاحة:

- «حسناً، يجب أن أقول إنني وجدت سلوك المحكمة رائعاً جداً. كان شيئاً من المفاجأة. كانت محكمة مفتوحة. كانت محكمة نزيهة».

Twitter: @alqareah

ـ «على الرغم، كما تعرف، من أن بعض المتهمين كانوا بيضاً، والبعض من الملونين. كان القاضي أفريكانياً، لكن أداء المحكمة يضاهي أرقى معايير القضاء كما نعرفها في أي مكان في العالم الحر».

لقد طبقت العدالة وفقاً للقانون.

ـ «وفقاً للقانون. آه، نعم، ولكن ماذا عن القانون، يا سيد غراسبوينتز؟ قوانين جمهورية جنوب أفريقية فريدة من نوعها في العالم بسبب مساواتها للتطلعات الشرعية لغالبية السكان بالجريمة والخيانة. التطلعات الشرعية كما تعرّفها وثيقة الأمم المتحدة للحقوق. هل توافق؟».

ـ «بشكل عام، نعم، هكذا هو».

ـ «إذاً هل كان ما رأيته عدالة، أم خرقاً لمفاهيم العدالة؟ عدد كبير من الرؤوس ذات الشعور المستعارة تثب من خلال الطارة. هل العدالة جزء من آلية أم هي مفهوم أخلاقي؟ هل إعلان القانون يجعله عادلاً؟ هل يمكن تطبيق العدالة من خلال ذلك؟ كنت أظن أن الجواب على هذا السؤال قد تم تقديمه في نورمبرغ».

ـ «لم يقدم في نورمبرغ. ولم يُقدم أبداً في أيٍ مكان» قال داندو، بصبر نزق «لسبب بسيط هو أنه لا يوجد شيء بوصفه قانوناً دولياً بمعنى المعيار الدولي للعدالة. القانون الدولي هو مجموعة قوانين لأجل الأنتربول، لأجل مقايضة اللاجئين وتبادل الجواسيس، لأجل الحزازات الدموية الحدودية والنزاعات على المجال الجوي وحدود الثلاثة أميال لأجل أساطيل صيد الرنكة. العدالة هي قضية تجريبية يرتبها كل بلد على حدة لكي يؤيد نظاماً اجتماعياً بعينه. يفترض بك أنك تعرف ذلك. وثيقة حقوق الإنسان! لماذا ليست الموعظة على الجبل؟ عبارات رنانة، يا رجل».

ـ «بالطبع لقد قابلت كثيراً من الناس القلقين هناك. قلقين جداً، جداً بشأن تلك القضية، يا بروفسور بايلي».

ـ «يا لهذا المناخ الإنساني الذي نعيش فيه! هل بإمكانك أن تعيش في مكان كهذا؟»

باعد نيل سابايلي فخذيه، انفتحت ذراعاه على اتساعهما، بدا أنه يحرر القارة السوداء بكاملها، الضفاف الموحلة للنيجر والكونغو، والغابات والصحارى، البانوا الخجولين والبوشمن الواهنين، عاهرات برازا فيل الجميلات وتلاميذ غالا المتحمسين.

ـ «هل بإمكانك، يا غراسبوينتز؟»

Twitter: @alqareah

- «حسناً، لا أدري. لا يجب على المرء أن يكون متسرعاً حيال ذلك. أخبرني شخص أن علة وجوده هي البقاء هناك في المعارضة، لمجرد أن يكون هناك معانداً، حتى لو لم يكن بمقدوره أن يفعل الكثير لتغيير الأشياء. أنا لست ثورياً، قال، لا أملك الشجاعة للمخاطرة بدخول السجن. لكنني لا أستطيع أن أدعهم ينجون بفعلتهم بدون شاهد عليهم. عليّ أن أبقى وأن أعارض في ذهني. إنه موقفي؛ ليس لدي أي شيء آخر - يعني أي شيء».

- «مقرف!»

- «بالطبع، في الحياة اليومية، اعترف... إنكم تظهرون تبلداً لبعض الأحاسيس... تدعون الأشياء تمر ... إيه؟»

التفت الأميركي ليستدرج براي.

قال براي: «قرأت شيئاً ما البارحة - لكل أمة عنفها الخاص بها... بعد فترة من الزمن يمكن أن يشعر المرء أنه في بيته ومحمي تقريباً بين أي خطي حدود - تصبح معتاداً على أي شيء»

وقال في نفسه «من أين أتيت بذلك؟ من مكان ما لدى غراهام غرين. لماذا أظل أعود إلى آراء الناس الآخرين، في الآونة الأخيرة، مهشماً نفسي؟»

وقف نيل بايلي، ساداً طريق النادل. « نعم، شكراً جزيلاً لك. على الأقل يمكن للمرء أن يختار عنفه الخاص به. إنه ليس كريهاً كله بالقدر نفسه، هذا هو بيت القصيد. ولن أفهمها على أننا جميعاً مُلامون بالقدر نفسه. عاطفة رخوة. لذلك يمكنك العيش هناك، يا جيمس. رجلاً أبيض "وتعارض في ذهنك؟"

قال داندو: «لا تكن أبلهاً أكاديمياً أكثر مما ينبغي، يا نيل. بالطبع ليس بمقدورك أن تعيش هناك. بحق المسيح، لقد طرده البريطانيون خارج البلد في حين أنك كنت لا تزال...»

- «نعم، نعم... ولد أسود ممخوط الأنف تُجلد مؤخرته في إكسيتر، ديفونشاير».

كان بايلي يعرف لغة داندو الازدرائية بكل تنويعاتها. ضحكوا؛ كان ثمة مائدة صاخبة في الغرفة التي تصدر منها أصوات عالية. جلس بايلي مرة أخرى لأجل كأس من نبيذ داندو، وقدم لبراي سيكاراً فاخراً عليه الأحرف الأولى من اسم القاضي على اللصاقة.

- «لدي صديق يجلبها لي من كوبا، الله يعلم كيف. اللصاقة توضع عليها يا تامبا، كما أظن».

Twitter: @alqareah

قال في نفسه، أنا لدي صديق أيضاً، يحب السيكار.

كان عليه أن يترك الشلة ليلتقط سترة وسروال عشاء مستعارين لأجل حفل عشاء الطبق الذهبي المقدم من زوجة سكرتير وزير التنمية والتخطيط ـ ڤيڤيان الداهية رتبت ذلك. كانت زوجة غبرييل اواديس موظفة رعاية اجتماعية وكانت مكاتب دائرتها في الجزء القديم من المدينة، شريطاً من المساكن البشرية على طول خط السكة الحديدية كان ذات مرة هو المدينة. ثمة عدد قليل من أشجار الموبابا الهرمة تمد جذورها خارجاً إلى الشارع، هناك؛ ثمة رائحة زيت كبد سمك القد تنطلق من أكياس الكابنتا المجففة والرائحة القوية الغريبة لمعاليق الذبائح المعلقة في محل الجزار. كانت اثنتان من البغايا الكونغوليات، رأساهما مثل البونبونات بالعمامة النسائية، تجلسان على الرصيف تقهقهان على أظافر قدميهما المطلية وصندليهما الذهبيين، فنظرتا إلى الأمام باسمتين، عندما مر بهما. كانتا ترتديان البانييه وبلوزة قصيرة تكشف عن مساحة صغيرة من الوسط الأسمر اللماع، ما يجعل النساء المحليات يبدين زريات الملبس ومحتشمات في فساتينهن الأوربية الرخيصة. كان سلمّ دائرة الرعاية الاجتماعية ملطخاً ومطرطشاً بسائل مات فيه النمل وجف الغبار، والجدار على امتداده يحمل شاهداً على موكب البشر الذي تسكعوا في المكان، لسبب أو لآخر، شاهداً باقياً عن طرق خربشة، ليس الأشياء الفاحشة للمتعلمين، بل الأسماء الكُلابية الشكل وزخرفات تواقيع أنصاف المتعلمين. جلس الناس متراصين على مقعد أومقعدين؛ فيما تربّع الباقون على أرضية الكوريدور، وكانوا يحركون أرجلهم وصررهم من غير تذمّر بعيداً ثم يعيدونها مرة أخرى لإفساح الطريق. فيما كان ينتظر بينهم ـ كان الشخص الأبيض الوحيد ـ تطلّع خارج نافذة فرأى في الباحة مئة وخمسين على الأقل من الناس الآخرين متجمعين على أرض مكسوة ظاهراً بالأقدام والأجساد، تحت أشجار رثة مثل أعمدة الكهرباء بفعل احتكاك الظهور البشرية بها. كان أولئك الذين في الكوريدور يراقبون بلا امتعاض عندما سمح له بالدخول إلى غرفة ماري اواديس قبلهم. كانت فتاة مليحة ذات أناقة مضيفة طيران التي تنتحلها النساء الأفريقيات غالباً ذوات الوظائف المسؤولة. عندما أدخلته، غرقت عيناها في مسح سريع للحشد، بنظرة ليست نظرة تخمين للأعداد بقدر ما هي نظرة تقييم للعبء المفروض عليهم، هناك على وجوههم الفاقدة للحس. نظرة تشخيصية. كان ثمة وردة قرنفلية اللون في كأس على

Twitter: @alqareah

مكتبها؛ الألواح الأرضية القذرة التي لا يمكن كشطها أبداً خارج الغرف حيث يُستقبل الفقراء والقلقون. لقد كانت قاعة المحكمة في غالا تصدر رائحة كهذه في العادة.

جرّب سترة العشاء وقاس السروال على جنبه، من الخصر إلى الكاحل. وجدت متعة بهيجة في حقيقة أنهما سيبدوان صالحين له.

- «ربطة العنق! نسيت أن أسأله عن الربطة».

- «يمكنني أن أشتري واحدة بسهولة. هذا لطف زائد منك... هل أنت متأكدة من أن أخاك لا يمانع؟»

- «لديه اثنتان ولا يرتديهما أبداً. لقد درجت العادة أن تكون ملابس عمل، بالنسبة له، لديه فرقة موسيقية. إنهم يعزفون في فندق البحيرات الكبير. يرتدون السترات الفضية في الوقت الحالي، ذات الياقات الزرقاء - شيء فظيع! والمنظفات المتحفظات هنا لا يعرفن كيف ينظفنها، سيكون عليه أن يتخلص منها عندما تتسخ كثيراً».

طوت البذلة بشكل ينم عن خبرة ووضعتها في حمالة ورقية قوية تحمل عبارة: «إنني أوفر في سوبر ماركت الدائرة الحمراء».

- «أنت مجهدة جداً بالعمل، يا ماري؟»

كانت شديدة الحساسية لتفادي الشكوى المتفجرة التي كانت تقليداً بين البيض.

- «ليس الأمر كذلك في الواقع، لا يمكنك أن ترى سوى عدد محدود من الناس في يوم واحد. وإذا حاولت أن تتملص، لا يمكنك أن تساعدهم. أنا مرتبطة بدائرة اليد العاملة الآن، وكل هؤلاء الناس يُحالون إليّ من قسم فرز اليد العاملة».

- «لذلك هناك نساء عجائز وأطفال كثيرون - لا يبدون قابلين للاستخدام خصوصاً، بالنسبة لي».

- «هم لا يبحثون عن العمل. إنهم يبحثون عن الأقارب الذين يأتون إلى هنا من الأدغال على أمل الحصول على وظائف. لا يعرفون أين هو الشخص الذي يبحثون عنه، لا يعرفون أين يعمل - إذا كان يعمل. ما الذي ستفعله؟ لا مال لديهم. تجدهم مستلقين في محطة الباصات. دائرة اليد العاملة لا تعرف ما الذي تفعله بهم. فيرسلونهم إليّ».

أطلقت ضحكتها الرقيقة الودية.

Twitter: @alqareah

- «اقترحت إنشاء ملجأ - هناك بناية السوق القديم، على سبيل المثال، لقد خطرت ببالي. لكن كبير موظفي الرعاية يشير إلى أننا سنتحمل مسؤوليتهم. هم فعلاً لا ينبغي أن يكونوا هناك. سيمكثون إلى ما لا نهاية، البعض منهم. إنه وجع رأس».

- «ما الذي تفعلينه على الأرض؟»

كانت ماري اواديس قد تدربت كعاملة اجتماعية في بيرمينغهام، حيث قامت بإجراء تحقيق حول ضرب الزوجات وإهمال الأولاد والإدمان على الكحول لدى الناس الذين جلبوا الحضارة البيضاء إلى بلدها. في إحدى حفلات الاستقلال وجد نفسه جالساً معها وقد تنكرت بشخصية امرأة انكليزية، تدلق الحكاية القذرة لأوجاعها، إذ قالت:

«لا أشعر بالخجل الشديد منك، يا عزيزي، لكونك أسود».

كانت محترفة. قالت: «أعطيهم أجرة الباص وأحاول إقناعهم بالعودة إلى البيت. لكننا الآن نصدر تذاكر الباص بدلاً من ذلك، إذ كانوا يأخذون النقود ويبقون. البارحة وجد ابني بعضاً منهم وقد بدأوا يبيعون تذاكر الباص».

كانت تضحك بلطف عندما ودعته. عندما انفتح الباب كان ثمة هيجان كسول في الممر: عيون مقلوبة، أجساد منحنية إلى الأمام. استوقفه على الدرج رجل عجوز معه قصاصة ورق مطوية في معظمها بحيث تنقسم إلى أربعة على طول الثنيات المعلمة بالوسخ، وقد كتب عليها اسم محرّف يبدو كما لو أنه من الممكن أن يكون اسم شركة بناء. هز رأسه، أشار إلى الرتل في الممرات، وأعطى الرجل العجوز نصف كراون. كان حذراً لئلا ينطق كلمة واحدة بلغة الغالا أو اللغة المحلية. فبالنسبة لهؤلاء القرويين البؤساء، وبالخبرة الطويلة، كان اللون الأبيض سلطة؛ كما لو أن السلطة ستكون متاحة لهم من خلال لغتهم الخاصة، فكيف يمكنه أن يهرب من إزعاج اعتقادهم هذا؟ الشيء التالي هو أنني سوف أستغبي نفسي، إذ أمشي وراء العجائز لأجد الفلاحين البائسين الذين ينادون على البندورة في مكان ما.

كان السروال شورتاً صغيراً. نظر إلى نفسه في المرآة المبقعة بالرطوبة على باب خزانة الملابس في غرفته. لقد نسي أن يشتري ربطة عنق رسمية، رغم كل شيء، لكن هجالمار كانت لديه واحدة. نعم؛ وكانت ربطة جميلة؛ مصنوعة بأناقة من

Twitter: @alqareah

أفضل الحرير المضلّع، وعليها علامة برلين التجارية التي لا تزال عالقة بها. ضحكت ايمانويل:

- «لم يعد أحد يرتدي تلك الفراشات. راس سيعيرك ربطته، إنها تشبه قطعتين من الشريط الأسود، متقاطعتين في المقدمة».

كان راس آساهي مع عائلة ونتز المشروبات على الطاولة المستديرة تحت المصباح المسدل. ثمة جو من العزلة والتأمل الذي يأتي بعد ثوران عائلي حُل بشكل ناجح: آساهي لابد أن يكون قريباً من عمه.

- «بالتأكيد، إذا أردت أن تقفز إلى مكاني؟»

لكن براي كان مقتنعاً تماماً بربطة العنق التي حصل عليها. كان هجالمار يضحك بصوت مرتفع على وصف آساهي لحديث مع مدير برامج الإذاعة باللغة الانكليزية، الذي كان هو نائبه. في الظاهر، كان الرجل جنوب أفريقياً - كان آساهي يقلد اللكنة الأفريكانية: مثل الكثير من الرجال المتعلمين في المنطقة، انتسب آساهي إلى الجامعة لفترة من الزمن، هناك في جنوب أفريقيا، بالإضافة إلى أنه عمل في الإذاعة في انكلترا.

- «... يصدف أن يكون لفظ B.B.C الفصيح، قلت له».

- «يا للجحيم، يا رجل، حسناً لفظنا ليس فصيحاً. لن أفاجأ لو سرت الشائعة منه أنني امبريالي جديد...».

بقي هجالمار يحدق إلى زوجته ليرى إن كانت منسجمة. رفعت حاجبيها، مثل ممثلة طاعنة في السن. كانت ايمانويل مضطربة من الداخل، تعبث مع والدها وحتى مع أخيها، تنادي أمها بكلمة «darling» إكراما لراس آساهي أو ربما لتقدم لنفسها لوحة حياة عائلية كما تتخيلها أن تكون لأجل الناس الآخرين.

كانت سهرة غنائية دافئة مع شروق القمر من جهة واحدة من السماء، في حين لم يكن الغروب الشمسي المشرب بالليلك قد تقهقر بعد إلى الظلام من الجهة الأخرى. كان ثمة رائحة البطاطا المسلوقة المنطلقة فوق مجمل أفريقيا الوسطى، بعد هبوط الليل، قرب شجيرة ما. في الوقت الذي وصل فيه إلى صالة مبيعات التبغ حيث كانت تقام حفلة عشاء الطبق الذهبي، كان الظلام قد حل هناك. لم يكن يريد الذهاب، فعلاً - إذ أحرجه مويتا قليلا بالدعة - لكن السيارات المتقاربة على الأرض المخصصة لها، والواجهات البيضاء والفساتين الملونة كانت ملفتة للانتباه في ضوء المصابيح الأمامية، ورواق العربات المصنوع من قماش القنب المخطط مع البوابين

Twitter: @alqareah

المزركشين بالذهب خلق نوعاً من الاستقبال البسيط الخاص بهم. كانت رائحة البطاطا الساخنة ومزيج الوجوه البيضاء والسوداء في الحشد اللابس بشكل رسمي والمتدافع وإلى الداخل، كل ذلك كان بالنسبة له الدليل على أن هذا لم يكن مجرد تجمع بلدي آخر ـ كانت افريقيا، وهذه المرة كان الأفارقة ضيوفاً مكرمين يُستقبلون بانحناء وابتسامة. كان ثمة رضا ـ رضاً ساذج، كان يعرف؛ لابأس ـ بهذا المظهر الأكثر وضوحاً وفي النهاية، الأكثر تفاهة، من مظاهر التغيير. لم يكن مهماً بالنسبة للأفارقة ما إذا كان البعض يريدون أن يتعشوا معهم أم لا؛ فهم أنفسهم قد صاروا الآن النخبة الحاكمة، والبيض هم الذين عليهم أن يتوسلوا للحصول على متعة صحبتهم. خمسون جنيهاً للرأس الواحد ثمن التذكرة؛ انتظر في طابور خلف رجل انكليزي أصلع ذي وجه أحمر صدأي واسكوتلندي ممتلئ الجسم نشيط مع زوجتيهما الشقراوتين، وسيدة سوداء، ربما كانت زوجة مسؤول صغير، كانت قد لبست مثلهن تماما لباساً موحداً من الفساتين المقورة والمجوهرات. كانت تفوح منها، مثل الجراحين، رائحة الكولونيا. انضم العمدة الأفريقي والرئيس الأبيض لغرفة التجارة بشكل مشترك إلى رتل الاستقبال وهما يوزعان عبارات التملق المتشابهة.

وقع الاختيار على صالة مبيعات التبغ ليس لأن قاعة الفلامينغو لفندق البحيرات الكبرى لم تكن كبيرة بما يكفي لاستيعاب الضيوف المتوقعين. فالجدران العارية مغطاة بالكامل بالقطن الأحمر؛ وكان ملصق ملون هائل لمويتا معلقاً وسط الستائر المجعدة الذهبية فوق المنصة حيث كان مقرراً أن يجلس أصحاب المقامات الرفيعة الرئيسة؛ ثمة حوامل لأزهار الزنبق المصبوغة كيميائياً والأوراق المذهبة تنتصب بين طاولتين طويلتين وفي الزوايا الأربع لقاعة رقص مبنية خصيصاً مثل حلبة الملاكمة.

لقد تم تلطيف إعادة الإنتاج الكاملة للابتذال البلدي بعطر مريح ومرهف أضيف إلى أوراق التبغ، فكان البناء مشبعاً به وكان العطر طاغياً، رغم رائحة الطعام وعطر النساء. كان براي مدركاً لذلك عندما كان ذهنه يجول أثناء إلقاء الخطابات: تكلم العمدة وتكلم رئيس غرفة التجارة، وصناعي بارز، ورئيس أكبر شركات التنقيب. من خلال كوكتيل الليمون الهندي وسمك النهر بالصلصة الباهتة، كتبت عبارة *tilapia bonne femme* بحروف مضاءة على قائمة الوجبات)، أُنزل نوع من لحم البقر كان من الواضح أنه سيق سيراً على الحوافر من سهل الباشي (*Boeuf en Casserole aux champignons*)، جلس بين المسز جوستين تشيكوي، زوجة وزير العدل،

Twitter: @alqareah

والمسز رايموند ماكينتوش، زوجة رجل التأمين الذي كان واحداً من آخر مستشاري المدينة البيض المتروكين في منصبهم. انحنت القهرمانة البيضاء فوقه، مثل سائحة قررت بفخر أن تستخدم الجمل المأخوذة من كتاب التعابير لتثبت كم هي مرتاحة، لتقول للقهرمانة السوداء: «المسز مويتا تبدو شاحبة للغاية، أليس كذلك؟ يا لها من مسؤولية، في سنها. أنا متأكدة من أنني ما كنت لأقدر على التكيف. ألا تبدو الصالة جميلة؟ لا يتأكد المرء كم من العمل الشاق يوجد في هذه الوظائف ـ كان عليك أن تري رئيستنا، المسز سلدن ـ روس، في أعلى السلم وهي تدق المسامير في الخشب». أضافت بنبرة أخفض موجهة إلى براي، «لقد تسولنا ذلك كله من الهنود، أنت تعرف». المسز تشيكوي، المقطبة الجبين من الخجل، عنقها ورأسها المحمولان على وسادة من اللحم المرفوع بفعل حمالتي ثدييها، لم تعرف ما الذي تفعله بالسمك، نظراً لأنها، خلافاً لبراي والمسز ماكينتوش الأكثرة خبرة، لم تستطع أن تتغلب على الاشمئزاز وتأكله. تمتمت: «أوه، نعم» ثم مرة أخرى «أوه نعم؟» محولة النبرة إلى سؤال لبق. طوال فترة انتباهه إلى المسز تشيكوي البالغة عشر دقائق، ظن أنه من الأفضل أن يتكلم بلغة الغالا، لكنه قرر أن ذلك قد يساء فهمه، من ناحية (المسز ماكينتوش) بوصفه تباهياً وتملقاً للسود، ومن ناحية أخرى (المسز تشيكوي) بوصفه تفضلاً واستنتاجاً بأن انكليزيتها ليست جيدة. على كل، كان يعرف أنها تنحدر من المقاطعة الشمالية ونجح في إجراء حديث معها، قليلٍ التلعثم، حول التغيرات في مدينة غالا وأماكن تواجد مختلف أفراد أسرتها. كانت المسز ماكينتوش ثرثارة، واحدة من تلك السيدات الاستعماريات الجريئات: « سيحتاج إلى أكثر من ذلك لكي يطرحني»: كانت تشير، بالطبع، إلى مشاكلها بوصفها عضواً في لجنة السيدات، لكنها نظرت إليهم نظرة سخرية شملت الشلة الحالية. لم تكن تعرف من هو؛ فالحقيقة المثيرة للفضول هي أن الناس، مثله ومثلها، لم يكونوا يلتقون في العصر الاستعماري، تفصلهما بشكل يتعذر تغييره رؤيتُهُ للأفارقة بوصفهم المالكين لبلدهم، ورؤيتها لهم بوصفهم عرقاً من الخدم ذوي أسياد طيبين. لقد جُمعا إلى بعضهما الآن عن طريق السود أنفسهم، مصدر الخلاف ذاته، فكان حضوره النتيجة الطبيعية لصداقة طويلة، وكان حضورها النتيجة الطبيعية بالقدر ذاته لتلك الإرادة المجاملة في البقاء ـ البقاء الاقتصادي، بالطبع، فلحمها ودمها لم يكونا قد تعرضا للخطر ـ ما

Twitter: @alqareah

جعلها تقبل حكومة أفريقية مثلما كان عليها أن تقبل وجود النمل في السكر وضرورة اتخاذ الاحتياطات الوقائية ضد الملاريا.

تم إجلاسه إلى الطاولة الرئيسية، ولكن في الطرف تماماً - اسماً تم حشره بعد رسم مخطط الإجلاس. تكلم الصناعي عن منشأة التجميع الجديدة الضخمة لتجميع السيارات (كونسورتيوم بريطاني - أميركي) التي سوف تشغل خمسمائة عامل، وقال كيف أن الحكومة المستقرة والشروط الملموسة لأجل الاستثمار الأجنبي تجذب رأس المال الذي أدار ظهره للبلدان المجاورة بقيودها «المستحيلة» على الملكية الأجنبية للأسهم مع «مطالبات متطرفة بتأميم الصناعة». هنا سوف «تتقدم الصناعة والأمة معاً». تكلم السير ريجينالد هارفي، رئيس شركات التنقيب عن الذهب بنبرة غرور أبوي، متواضع، «سامحاً لنفسه» بوقاحة أن يقول إن صناعة التنقيب، التي يعود تاريخها إلى ما قبل بداية القرن «جلبت إلى هذا الجزء من أفريقيا بصيص الأمل الأول بعد النهب الذي امتد قروناً من الزمن وركود تجارة العبيد. على قاعدة الصخرة التبرية المكتشفة بعدئذ، في تسعينات القرن التاسع عشر، تم تأسيس الدولة الحديثة». لم يكن من الضروري بالنسبة له أن يذكر أن أربعين بالمئة من الدخل القومي يرد من المناجم؛ فقد كان كل من في القاعة مدركاً لذلك بشكل لا يطاله الشك مثلما يعرف أن الشمس تشرق في الصباح. كانت صناعة التنقيب مستمرة في فتح مجالات جديدة للسعي... ثمة نكسة مؤقتة في منجم موندو - موندو القديم - لكن البحث الذي لا يعرف الكلل والملل الذي أنفقت عليه الشركة ما يربو على مليون في السنة الواحدة في محاولاتها لتحسين تقنيات التنقيب ورفع الإنتاج، من الممكن في القريب العاجل أن يمكّن من التغلب على هذه المصاعب وإعادة فتح المنجم... فشركات التنقيب والأمة سوف تسير إلى الأمام...

كان التصفيق منتظماً وصاخباً، يهبط بالإيحاء عندما يغلق كل خطيب فمه. كانت الوجنات السوداء تلمع. صعد الدم بشكل مفعم بالحيوية في الوجوه البيضاء في حين كان يقبع في ذهن كل واحد منهم ، دون تأثر ولا تشوبه شائبة، الإدراك بأن ما قاله الصناعي هو: «سوف تستخدمون مالنا - ولكن بشروطنا»، وما قاله رئيس مجموعة التنقيب عن الذهب هو «نحن لا ننوي إعادة فتح منجم موندو - موندو لأن مالكي أسهمنا فيما وراء البحار يريدون أرباحاً كبيرة من المناجم قيد

Twitter: @alqareah

الإنتاج، وليس توسعاً سيخلق عمالة بل مماطلة لمدة خمس أو ست سنوات قبل البدء بدفع الأجور والرواتب». كان مدير شركة التخزين والتبريد، الذي كانت محلات اللحامين العائدة له في كل أنحاء البلاد تخدم الأفارقة من خلال بويب مفصول عن الزبائن البيض إلى أن فرضت مقاطعة حزب استقلال الشعب قبل ثلاث سنوات إحداث التغيير قد ألح بابتهاج على الضيف الأسود على الجانب الآخر من الطاولة أن يقبل سيكاراً.

- «ضعه في جيبك، إذاً. دخنه في البيت عندما تشعر برغبة في ذلك».

السيد نديسي شونوانغوا، الأمين العام لمؤتمر اتحاد النقابات المتحدة، الذي قال ذات مرة: «لقد دخلوا بزجاجة من الجين ونسخة من الكتاب المقدس - دعونا نعيد لهم ما جلبوه ونقول لهم اخرجوا»؛ كان يلوب بشكل قلق تحت الطاولة ليسترجع الحقيبة اليدوية لزوجة مدير الخدمات الطبية. كانت امرأة ممتلئة الجسم وممتنة؛ قالت بلهجة اعتذارية:

- «أوه... إنني مصدر إزعاج... أوه، انظر، ها قد صار ذراعك كله مغبراً، أوه يالي من...».

تكلم مويتا بإيجاز شديد. من حيث كان جالساً، تم تقديم براي بالصورة الوجهية الجانبية، بالحاجب الأسود العالي المدوَّر، الأذن المسطحة الصغيرة، بلحمة العين تحت الرموش «النسوانية» المجعدة، بالشفتين القويتين اللتين تقلبان برهافة في الكلام. كل الذين عملوا معاً لأجل البلد هم أهل البلد، قال مويتا: «منذ الأيام الأولى لنضالنا» إذ لم يكن قد فكر بالمواطنة بوصفها مسألة لون بشرة. إذا كان من الخطأ أن نستفيد من لون البشرة فقد كان من الخطأ أيضاً أن نمارس التمييز ضد لون من ألوان البشرة. لقد فهم «أن هذا العشاء هو أغلى وجبة سبق لأي منا أن تناولها هنا». ثمة ضحك؛ ابتسم باقتضاب، لكنه كان جاداً، صريحاً، كان رجلاً عاش حتى منذ أقل من عام في بيت من بيوت الضاحية السوداء، مكون من غرفتين، مسقوفتين بالصفيح: «لكن الكلفة هي بالفعل أعلى بكثير حتى من ذلك، إن ثمن هذا اللقاء السعيد قد كلف أكثر من خمسين عاماً من عمل شعب هذا البلد والبصيرة الوقادة لأولئك القادمين من الخارج الذين آمنوا بتطوره».

طغت الموسيقا الصاخبة العالية على الكلام وقرقعة الصحون، وارتطام المشي الثقيل المرهق للخدم المتعرقين. اقتيدت جوي مويتا إلى الخارج، إلى صالة الرقص، من قبل أحد الرجال البيض. ارتفعت الأصوات ضبطاً للصخب؛ كانت الفرقة

Twitter: @alqareah

الكونغولية تعزف ايقاعها الفواقي (المحزّق) الخاص، الذي يتسم بالخشخشات والمصفقات (الصنجات) الأميركية الجنوبية. من حين لآخر كان صوت الترومبيت ينطلق مثل صرخة ضحك رجل سمين. بدأ بعض الرجال البيض بالانجراف معاً كما يفعلون في رقصات النوادي، فانجذب الرجال السود إلى الصداقة الحميمة الذكورية للويسكي وحديث البزنس. انصرفت الزوجات البيضاوات إلى المرحاض متكتمات كتلميذات المدارس، ورجعن بوجوه منشطة بضحكة جيدة حول القضية برمتها. جلست الزوجات السوداوات صابرات، فقد ولدن ليتحملن الملل وتجاهل المناسبات الرسمية. صارت المسز ماكينتوش لا مبالية الآن بفعل الجين والتونيك وهي ترقص مع براي، مطيعة. ضحكت بقهقهة على الرايات الحمراء التي تغطي الجدران. «لقد نهبوه من الحمالين، يا عزيزي. خدعوا ابن البلد التعيس البائس لسنوات عديدة، يمكنهم أن يتحملوا التخلي عن شيء ما الآن».

رقص مع إيڤلين اودارا. جرَّته لتعرفه على فتاة أنيقة لاحظها وهي تمر بعينين شاردتين بالزوجات الأفريقيات المكومات جانباً مثل أغطية أباريق الشاي بينما النساء البيضاوات يراقبنها مع رجالهن، وهي ترتدي فستاناً أبيض وأقراطاً زجاجية متدلية، ما يجعل بشرتها الساتانية السوداء مجفلة. دوريس مانييما. لكنه كان قد التقاها من قبل أثناء احتفالات الاستقلال. لقد تم تعيينها ملحقاً ثقافياً للبلد لدى الأمم المتحدة، تلقت التهاني بازدراء واثق، مصون ـ كان الأمر كما لو أن المرء لا يمكنه أن ينظر إليها إلا من خلال الزجاج، هذه الحسناء التي لن تأخذ مكانها لا في الباحة الخلفية للرجل الأبيض ولا في مسكن نساء الرجل الأسود. ستذهب عن طريق الجزائر؛ تحدثا عن بن بلا وعن بومدين لدقائق قليلة، ثم إن شاباً أبيض كان ينتظر فرصة للمشاركة في الحديث، وهو في هذه الأثناء ينظر إلى حلمتيها اللتين تلامسان فستانها من الداخل وهو يتلمس شاربه الأشقر بنوع من المنعكس اللاشعوري، مرر تعليقاً حول موت تشومبي:

ـ «لقد خسرت رهاني بأنه سيخرج من السجن هناك. فقد أوجدتُ الفرص لذلك. أنت تعرف كم مرة نجا من قبل عن طريق جلدة أسنانه ـ أطعمهم لكومبيوتر. كان رجلاً ماكراً بشكل عجيب. أنا خبير بشؤون التأمين، أنت ترى» قال ذلك، في اعتذار مخفف للنقمة بسبب التحدث في أمور السوق. لم تنظر دوريس مانييما إليه وهو يقول لبراي:

ـ «آمل أن يشاغب تشومبي في الجحيم».

Twitter: @alqareah

- «أوه، تعال الآن».

قال الشاب ممازحاً وهو يشمخ بأنفه جنسياً: «ليس لدي اهتمام سوى بالرياضة».

نظرت عيناها الطويلتان إلى الأسفل على امتداد وجنتيها المدورتين، أنفها الصغير منفوخ قليلاً عند المنخرين.

- «نحن نشاطر الغرائز الرياضية لشعبك. رياضاتكم الدموية من نوع أو آخر. لم يتركوه حياً كل تلك المدة إلا بسبب موبوتو. وإلا لكان من المفروض أن يكون قد رمي في خندق بالطريقة التي حصلت مع لومومبا».

طلب الشاب منها أن ترقص وقادها من مرفقها، والسبلتان الخديتان الذهبيتان أنيقتان جداً. قالت ايڤلين اودارا، بضحكتها الرجالية: «إنهما ثنائي أنيق».

كانت مكسوة، مثل عمود مصمت، بالأثواب المزخرفة. كانت نظارتا نديسي شونونغوا عديمتي الحواف تلتمعان مثلما كانتا تلتمعان عندما كان يلقي خطاباً، لكنه كان يرقص مع شقرائه، مبتسماً بمودة ورأسه مردود عنها إلى الوراء، في حين كان وجهها يكتسي بالنظرة المشدوهة المحترسة لامرأة ترقص وحوضها مضغوط إلى رجل غريب. وبينما استمرت السهرة كانت زأرات الضحك تأتي من جماعات السكارى؛ فقد بدأوا ينسون وجود الأفارقة وصاروا يروون قصصهم الداعرة. احتشد الرجال السود هنا وهناك وصاروا يتكلمون بلغتهم الخاصة، بحضور الأطفال. في غرفة الرجال، ألقى أحد الرجال البيض الواقف إلى جانب براي نظرة سريعة حوله وقال لرفيقه:

«الحمد للمسيح أن ذلك قد مضى على خير، إيه، غريغ؟ يا يسوع، لكن الذهاب مع هؤلاء الشباب شيء ثقيل، وهناك مربية كان علي أن أبطحها أرضاً. أقول لك، كنت بحاجة لأن...»

قطع توقف الفرقة عن العزف خليط الضوضاء فجأة. توقف الناس عن الحديث وتطلعوا حواليهم. كان ثمة نوع من الهيجان؛ بدأ الناس يحتشدون؛ وبدأ نوع مختلف من الغمغمة المختلطة وسكت مرة أخرى. كان مويتا مع جوي يشقان طريقهما عبر الضيوف، وغيتاره في يده. تلك كانت الكيفية التي رأى بها براي ذلك: غيتاره. ولكنه، بالطبع، لم يكن ذاك الغيتار، كان واحداً قدّمه ببساطة عضو في الفرقة رداً على اقتراح أو طلب، وربما حتى رداً على فكرة مفاجئة خاصة من مويتا. بأي حال، كان يمشي بشكل شبه خجول ممسكاً بجوي بيد والغيتار باليد الأخرى، نصف استباق (فقد أحب ذاك الغيتار) ونصف

Twitter: @alqareah

افتخار (فقد أحب المتعة التي يجدها القرويون في العزف) التي اعتاد أن يمتلكهما عندما يترجل عن الدراجة والغيتار ينزلق عن ظهره. بدون أي إعلان، بشكل طبيعي تماماً، صعدا إلى المنصة وبدأ هو بالعزف، في حين ضمت يديها إلى بعضهما البعض مرة أو مرتين، شدت جسمها الأمومي، النحيل، الفتي، بفستانها الزهري الخاص بتلميذات المدارس، فابتسمت، ثم بدأت تغني معه. كان صوتاهما رخيمين ومتناغمين كلياً. غنيا أغنية شعبية مبتذلة من فيلم أمريكي من الخمسينات.

صفق البيض تصفيقاً عاصفاً؛ فربما كان الابتهاج الصادر عنهم ارتياحاً لا شعورياً لرؤية هذا الرجل الأسود من كل الرجال السود في دور المسلي القديم، المقبول. بدا الأفارقة متسامحين فحسب؛ فبعد أربعين عاماً من كونهم يؤمرون متى يأتون ومتى يذهبون، متى يقفون ومتى يرفعون قبعاتهم، ها هو رئيس أسود يقرر بنفسه البروتوكول. ثم أنزل مويتا زوجته بيدها عن المنصة، أعاد الغيتار وغادر القاعة من خلال ممشى من الناس الذين احتشدوا إلى الأمام بعفوية تحت تأثير البريق الساطع لذاك الوجه الأسود، تلك الابتسامة، ابتسامة السعادة القابلة للانعطاب.

فكّر كيف أنه قال لبايلي عن مويتا، «إنه يطالب بتقديم الولاء» ما يعنيه فعلاً هو أنه يتلبس البراءة، نوعاً من البراءة، ليطالب بتقديم الولاء. كان يتحدث إلى مدير الإعلام الذي كان، بصفته أول صحفي أسود في المنطقة، جاء ليقابله منذ سنوات عندما تم الإعلان عن الاستدعاء العاجل إلى انكلترا.

- «ما كان يقلقني أشد القلق. كنت قلقاً من أنك ستلاحظ أنني لم يكن لدي اختزال في ذاك الوقت...».

ضحكا، جرياً على تقليد مفاده أن الماضي مضحك دوماً، لكنه كان يمر بقلق مطبق من هذا الكائن مويتا، مع تقلص للاهتمام الباطني، للتأثر والروح الدفاعية لصالح مويتا، الروح الدفاعية حتى ضد براي نفسه. كان مفرطاً في تصوره للعالم المهدد بإخراج روح مويتا من جسمه - رجال الأعمال البيض، السياسيون السود، البريق الآمر لنظارات نديسي شونونغو عديمة الإطار الـ OAU - التقط عقله التهديدات العشوائية من الذاكرة والصحف والواقع من حوله. لا بد من وجود كائن واحد تؤمن به، رغم كل شيء، كائن واحد! أغرقت الفرقة القاعة بالصخب مرة أخرى. في الحال انطلق الضيوف بشكل يصم الآذان، يشربون، ويرقصون.

Twitter: @alqareah

في الصباح التالي عندما كان في طريق العودة إلى غالا تراءت له الأشجار وأجمات الخيزران برتابة، واستقر ذهنه على الأيام القليلة الماضية كما لو أن شخصاً آخر قد عاشها.

قلق دجاجي، الليلة المنصرمة.

ـ «اكتب إليّ، اكتب إليّ. يجب أن نبقى على اتصال حول شينزا، بالطبع، عد إلى غالا وراقب شينزا. لا تنس أن تظل على اتصال حول شينزا. طالب بتقديم الولاء: إنه يتظاهر بالبراءة. هراء. إنه فعل المسيحانية البدئية ـ أقدم حيلة سياسية في العالم. أعتقد ذلك. كان ثمة المذاق المتخلف المفيد في سخريته من نفسه لكونه مخدوعاً».

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الجزء الثالث

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

(10)

كان يجمع تقريره يوماً بيوم تحت شجرة التين. لم يعد يهطل المطر؛ في الليل كانت الغيوم تشكل تقشرات من الكوارتز عبر السماء، والنور يتخذ مظهراً عدوانياً ويطن بأوهى الأصوات. كان كاليمو قد أعد ناراً من قرم الخشب عليها أشنيات مجففة على هيئة ميداليات مكشكشة من اللونين الرمادي والصدأي. في الهدوء المفروض على غالا وجد نفسه مكبوحاً في نوع من التوتر السمعي - شيء ما انتصب بداخله، كما في حيوان يحلم بأنه يرعى. وهو يصيخ السمع، رفع رأسه عن الأوراق وهمهمة الحياة المتبرعمة واللامبالية للشجرة - الحفيف، الدبيب، التدويم، القضم، الطقطقة، الطنين - كل ذلك لم يهدئه. كانت غالا تمتلك الوداعة المخيفة لقرية غابية، سهولة إخفاء كل شيء، ابتلاع كل شيء، تغييب كل شيء عن البصر بإطباق ثقل من الخضرة. في الأسفل، تحت أشجار الماهوغاني كانت تمضي نفس الأشكال السوداء المتقاصرة الأبعاد. لا صوت للأقدام العارية في الغبار؛ فالأصوات البشرية ترفرف مثل عصافير محبوسة بالأغصان. غارات العبيد، الحملات التأديبية للبرتغاليين والانكليز - صحوة أوراق النبات المتجددة بشكل أبدي كانت تأتي معاً في إثرها. إن القعقعة المتواصلة والصرير البعيد للحي الصناعي الصغير يُكتمان بالطريقة نفسها. لا شيء يحدث في العلن في هذا المفترق المسالم البعيد، الصغير. كل التغير كان صيحة يغرقها بحر من الأشجار. نغمة عالية الإيقاع، تكاد تكون خارج المدى. (في قيلولة، مر في خياله بنفس هذه الشمس الهادئة والأشجار الثقيلة القائمة فيما الأشياء تسير خطأً - رأى سيارة تحترق، أجساداً تنزف بعيداً تحت التشكيل الظلي المتنقل للأشجار. دام لحظة حية: انكمش جلده - بدا ذلك محرضاً من الناحية

Twitter: @alqareah

الجسدية، مثل خبرة déjà vu ـ جدول من الهواء البارد تشكل بين قميصه المبلل وظهره الدافىء).

سرعان ما صار يقضي الكثير من وقته هناك في بيت سامبسون ماليمبا في الضاحية القديمة. كان كامازا ڤيري قد أمّن منحة عاجلة لتسيير مدرسة تقنية. قال براي له: «هل أنت متأكد من أن ما أفعله وماليمبا هو جزء من الإنعاش التنفسي الاصطناعي للورشات الحكومية القديمة التي أغلقتها وزارتك؟ الأمر برمته ضد السياسة».

انبسطت راحتا ڤيري، تلونتا بلون وردي كلون الشاي.

ـ «إنها تجربة لخدمة أغراض تقرير براي». ارتفع شدق براي بتهكم على المصطلح.

ـ «أنا مستعد للسير في ذلك [حتى النهاية]».

كان سامبسون ماليمبا مفعماً بحماس موسوس. فهو يقوم بجولة على المصانع ليتحدث إلى الناس حول الدورات الأولية الأكثر ضرورة. وقد كتب إلى السويد للاستفسار عن أسعار تجهيزات ورش الآلات. «لماذا السويد يا سامبسون؟».

لكنه عمل وظيفته البيتية على الطاولة الموضوعة في مطبخه ذي القماش الزيتي برسوم زهرية.

ـ «الاتفاقية ـ أنت تعرف. القرض الذي حصلت عليه الحكومة: هناك موازنة ائتمانية لأجل الآلات الزراعية والصناعية».

كانت لديهم خطة لتسيير مراكز القرى الصغيرة كملحقات للمركز الرئيسي في غالا ذاتها ـ يُطلب من كل زعيم قرية أن يبني كوخاً ضخماً حيث يمكن تأمين التجهيزات الأساسية عن طريق الخطة لأجل التدريب على السكافة، والنجارة، والأهم من ذلك، الصيانة والإصلاح البسيط لتجهيزات الزراعة ذات المحركات التي أعارها القسم الزراعي لهذه الجماعات. خطرت ببال ماليمبا فكرة ألمعية: الميكانيكيون في المرآبات المحلية سوف تدفع لهم أجور مقابل إعطاء دروس ليلية في القرى، أو، إذا كانت القرى نائية جداً، دورات في عطلة نهاية الأسبوع. المشكلة الكبيرة بالنسبة لكل فرع من فروع التدريب هي إيجاد الناس المؤهلين لتقديمه. ولكن إذا ترك المرء نفسه يعاق بذلك، فإن الاثنين كانا مدركين بشكل واثق أن لا شيء يمكن عمله في أفريقيا على الإطلاق. كان ميكانيك المرآب هو النوع من الحل البديل المؤقت النموذجي الذي يتعين تجريبه لأجل كل حالة ـ كانوا يتكلمون اللغة، وبالرغم من أن التدريب المناسب لميكانيكي المحركات لم يكن متوفراً للأفارقة في ظل الحكم الاستعماري، فقد أصبحوا، فيما كانوا يعملون لصالح بوانا، يتمتعون بالمهارة،

Twitter: @alqareah

كلهم سواء. في غالا، حافظوا على سيارات وجرارات الجالية البيضاء شغالة لسنوات، أما جاليتهم فلم تكن تمتلك سيارات ولا جرارات.

المشكلة الأخرى كانت هي إيجاد مكان لإيواء المركز. راود براي شعور قوي تماماً بأنه ينبغي ألا يكون في الحي الأفريقي القديم أو حتى في المساكن الجديدة ومنطقة الفنادق، بل في «البلدة» ذاتها. كان من المهم بالنسبة للغاليين العاديين أن يصنعوا رهاناً، بشكل راسخ، فيما كان رهاناً للرجل الأبيض دائماً وأصبح الآن حكراً على الرجل الأبيض والمسؤول الأسود. أراد الناس الذين يجيئون إلى المدينة لمجرد العمل أو الشراء، أو الذين يستجيبون بشكل خنوع لشكل أو آخر من أشكال الإدارة التي تحكم حيواتهم، أن يثبتوا مرة وإلى الأبد أنهم ينتمون إلى هناك، أيضاً. النادي، صالة أبناء انكلترا، مكتبة الأميرة ماري - لقد مروا بهذه على مدى سنوات كثيرة جداً. كان يريدهم أن يدّعوا الأحقية بالمدينة في النهاية. لم يقل ذلك بكلمات كثيرة، عندما ذهب ليرى مختلف الناس بقصد إيجاد مقدمات. (لم يكن ذلك عبثاً، رغم كل شيء، إنه كان فيما مضى موظفاً مدنياً). ولكن بالبساطة الظاهرة لفهمه - إذا كانت هذه مسألة روتينية لا تحمل دلالة غير عادية - كان ثمة شيء ما، برغم، وربما بسبب، الأسلوب القديم اللا عدواني بشكل فطري - التي يتذكرها الكثيرون منهم من قبل، شيء ما يثير ذاك الامتعاض اللا متسامح إزاء شخص يبدو دائماً أنه يمتلك الأفضلية المعنوية. إن جراءته هي من النوع الهادىء، أيضاً، فقد تركت النكتة بصمتها عليه بتأثير من خلفيته، محدثة لديه محاكاة ساخرة للشفة العليا المتقبضة. كان يعتبر سكرتير النادي، حتى بالرغم من أنه ومويتا قد سخرا من الفكرة ذاتها؛ على المرء أن يعطي أعضاء النادي فرصة. لقد كانت بالأحرى تشبه الفرصة التي كان على داندو أن يمنحها للبرلمان لكي يبطل مرسوم الحبس الوقائي. اقترح على السكرتير أن غرفة البليارد غير المستعملة - اندثر جيل لاعبي البليارد، فقد صارت أبنية الاسكواش شعبية الآن - يمكن أن تستعمل لأجل صفوف المدرسة الثانوية للبالغين الذين كان سامبسون ماليمبا نفسه ينوي تدريسهم. كان لغرفة البليارد مدخل مستقل عن المدخل العام لمجمّع النادي. ستعقد الصفوف في الليل فقط. ثم هناك الهري الكبير، أو الحظيرة، الذي، كما يتذكر براي، أُقيم لإيواء كلاب الصيد (منذ سنوات كان ثمة جماعات صيد في غالا والبعض منهم استورد من ايرلندا كلاب الصيد التي ماتت، الواحد تلو الآخر، من الحمى الصفراوية؛ ولكن ليس قبل أن تورث الآذان العرضية ذات الشكل U التي كانت لا تزال تظهر، في الجيل الغريب

Twitter: @alqareah

من الكلاب الهجينة المحلية). هذه الحظيرة ستشكّل ورشة ملائمة لأجل دورات التركيب والخراطة، ولما كانت بعيدة جداً عن المبنى الرئيسي، فإنها لن تتعارض مع فعاليات الأعضاء بأي حال من الأحوال.

- «ها أنت ترى أننا سنصبح شبيهين قليلاً بتلك الجامعات الكبيرة، ذات الكليات الموزعة عبر مختلف أحياء المدينة».

قال براي بشيء من انتقاص الذات. وقعت عينه وعين سامبسون ماليمبا على الجالس داخل النادي لأول مرة في حياته - كلٌ منهما على الآخر وابتسما. لكن السكرتير بدا خائفاً من أن الابتسامة قد تفشي للنادي بأكمله عن الزائر الأسود مثلما أن غمزة عين في بيع بالمزاد تخفض سعر مجموعة الأشياء المعروضة للبيع بالمزاد، الراسي على شخص بعينه. قال، بشكل ينم عن أهمية: «لقد فهمت».

إنه ، بالطبع، سيضع المسألة أمام اللجنة - براي يجب أن يكتب رسالة، مبيناً فيها الحقائق، إلخ...

- «نعم، السيد ماليمبا سيفعل ذلك - المخطط يخضع لوزارته». مرة أخرى «فهم» السكرتير؛ لكنه استطاع أن يخبرهم صراحة (وهنا ابتسم، ابتسامة الأخبار السيئة المؤسفة) أن غرفة البليارد مزدحمة بجهاز المسرح ولوازم الإخراج المسرحي، القسم الدرامي والأوبرالي طالب بها منذ سنوات، لم يستطع حتى أن يدخل صبيانه إلى هناك لتنظيف المكان. وذاك مخزن الحبوب..

- «تقصد ذاك الذي قرب المجمّع ، تماماً بعد المنعطف السابع؟».

ذاك المخزن هو المكان الذي يحفظ فيه القيّم على المروج والحدائق مواده وآلات جز الأعشاب... وهلم جرا، ولأقول الحقيقة، فإن بعض صبيان الغولف كانوا ينامون هناك؛ «أنا أعرف عنه ولا أعرف عنه - أنت تعرف». صار صريحاً بطبيعته الواعية الآن وهو يصرف زواره.

قال براي: «ربما يمكننا أن ندرج أسماء صبيان الغولف»، وهو يشعر مثل مبشر مبتهج. كان السكرتير رجلاً كبيرا يحتك فخذاه ببعضهما البعض عندما يغادر كرسيه، كان شعره القصير مبللاً للغاية بمرهم عطري، بحيث كان دائماً يمتلك مظهر الشخص الخارج لتوه من الحمام. ضحك مع الرجل الأسود، مع أنه لم يكن في الواقع قد تكلم إليه على انفراد منذ تعارفهما لأول مرة. واكبهما إلى الخارج بذراع محني في الهواء خلف كتفيهما.

Twitter: @alqareah

- «كولونيل، هل ذكرت مخططك لأي من الناس الموجودين هنا؟ أقصد، بالضبط، في سياق النقاش؟».

كانت اللهجة المتملقة المعقولة التي ربما استعملها لتشجيع عضو في النادي يمتلك مضرب سكواش مستعمل وجيد على التخلص منه؛ كان يعرف أن براي لم يتناول كثيراً مثلما تناول مشروباً في البار منذ أن أُبلغ بأن عضويته قد قبلت. وتمتم براي، محجماً عن الابتسام:

- «لم أكن في غالا كثيراً في الآونة الأخيرة، لم تتح لي الفرصة في الواقع». في السيارة قال: «ما الغلط بشأن صبيان الغولف؟ إن لاعبي الغولف سيعتبرونه بمثابة ناقوس القدر؛ الآن سنبعد صبيانهم ونثقفهم».

- «كنت أود كثيراً أن نضعهم في مدرسة». كان ماليمبا عنيداً، «أولئك الصبيان لا يعرفون شيئاً سوى تدخين أعقاب السجائر والمقامرة بالبنسات».

- «يا الله الطيب! صبيان الغولف سيرون فينا قدرهم المشؤوم، أيضاً. سيكونون عند المتاريس على طول الخط مع الأعضاء، يدافعون عن المكان بعصي الغولف».

- لا بد أنه كان ثمة اجتماع طارىء للجنة التنفيذية للنادي. في غضون أسبوع كان ثمة رسالة في البريد أحضرها الساعي من البوما. بداخلها الخطاب نفسه موجهاً إلى مكتب التعليم الإقليمي، السيد سامبسون ماليمبا، وموسوماً بعبارة «نسخة إلى الكولونيل إ. ج. براي، D.S.O».

شعر أعضاء نادي غالا، في حين كانوا يرغبون دائماً في خدمة المجتمع كما كان النادي يفعل منذ تأسيسه في عام 1928، أن الأبنية والمباني الإضافية للنادي غير لائقة وغير مناسبة لأجل صفوف تعليم البالغين. إن الغرض من النادي، وقد كان دائماً، هو توفير المرافق الاستجمامية، وليس التعليمية، التي مكانها الصحيح والمناسب هو بالتأكيد في المدارس، وقاعات الكنائس، والمراكز الأخرى المكرسة والمجهزة لأجل التدريس. ولذلك، فقد حصل ذلك، للأسف، إلخ...

اتصل بسامبسون ماليمبا الذي يمتلك أحد الهواتف القليلة في الحي الأفريقي من المدينة، ولكن لم يكن ثمة سوى طفل صغير جداً يكرر على السماعة المقطع الاستفهامي الوحيد «أي؟ أي؟ أي؟». مع البريد كان ثمة إشعار من أليك، يبدأ بشكل جاف بعبارة «سمعت أنك قد عدت». لم يكن قد ذهب إلى البوما؛ كان ذلك صحيحاً، فقد جلب كل أوراقه إلى البيت، وفي الوقت الحاضر كان ماليمبا الموظف الوحيد الذي كان من الضروري أن يراه. بأي حال، دعاه أليك إلى العشاء في ذاك

Twitter: @alqareah

المساء؛ « لكي تلقي نظرة عليّ، لترى كيف نجحت، في العاصمة؟». قال في نفسه «أتمنى أن أعرف، بنفسي».

عندما صعد درج الشرفة في ما كان في الماضي بيته منذ زمن طويل، كان أول شيء يراه هو الفتاة، ريبيكا إدواردز التي أدارت ظهرها له. كانت تسكب سكواش البرتقال لمجموعة من الأولاد الحفاة، السود والبيض، الذين كانت أياديهم وذقونهم تتلهف فوق المائدة، وعادت، وهي تطيّر شعرها حيث انسدل فوق وجهها. وعندما كان الناس الآخرون يحيونه. قالت بابتهاج، بشكل طبيعي: «أهلاً بك مجدداً، كيف كان الجميع؟»، غير متوقعة جواباً وسط الثرثرة العامة. كان ذلك حسناً، تأكد له بشكل مباغت كيف أنه لا يعرف كيف سيواجه مرة أخرى الفتاة التي لم يرها منذ ذاك الغسق. بالطبع، بسببها لم يذهب إلى البوما، بسببها رتب لإرسال البريد كل يوم. لم يكن يريد أن ينزعج بالانشغال الأخرق بكيفية معاملة تلك الفتاة. إن الأيام التي انقضت قد أعادت المستوى القديم من التعارف. أو أن الحدث كان هامشياً بالنسبة لها مثلما كان بالنسبة له؛ فأصدقاؤها في العاصمة قد لمّحوا كثيراً، في قلقهم حولها.

كان سامبسون ماليمبا هناك (زوجته الخجولة بالكاد سبق لها أن جاءت إلى مثل هذه التجمعات من الطراز الأوروبي، حتى لو كان الأفارقة هم الذين يعقدونها)؛ نونغواي تلومي، المسؤول الزراعي، وزوجته؛ هيو وسالي فريزر، الطبيبان الشابان من مستشفى الإرسالية التبشيرية؛ وليباليسو، غاص في كرسي عتيق غير مريح أمام الضيوف كما لو بإيماءة من إيماءات أليك، تقول، هاك، هذا هو كله - مازحاً، بشاربه من موضة 1914 - 1918 مقلداً الرجل الأبيض الذي حل هو محله، وحذاؤه الممسوح والملمّع - البني واللماع كخديه - الذي ينم عن التمرس الطويل في القوات المسلحة. بدأ ماليمبا وبراي في الحال يتحدثان حول الرسالة. فوق البيرة، ومع تعليقات الأصحاب، بدا الجو مسلياً أكثر مما كان. في الحقيقة، جعلتهم الجملة الأولى على وجه الخصوص، الجملة التي تدور حول كون النادي « قد خدم المجتمع» منذ 1928، مع افتراضها الحتمي أن «المجتمع» يعني البيض فقط؛ جعلتهم يضحكون كثيراً. وسط هذا التبادل للملاحظات المقحمة المتطرفة، دبّ أحد أصغر الأطفال (من ذرية تلومي) صاعداً الدرج باتجاه الصخب بافتتان وهو يسيّل لعابه، ثم نهض مترنحاً على قدميه مثل ثعبان مسحور أمام الموسيقا. التقطته ريبيكا إدواردز وحضنته قبل أن تتحول النشوة إلى خوف.

Twitter: @alqareah

سأل فريزر: «ومن أين تنحدر من هناك؟». كان يبدو مثل قرصان على خشبة المسرح، ذا شعر أسود مجعّد، وساعدين سمراوين مشعرين، ولمسة من رغوة البيرة على شفتيه.

قال براي متحدياً: «ماذا تقول، يا سامبسون؟».

- «سيكون علينا أن نفكر».

- «إلى هناك يذهب معلم المدرسة!».

كانت تعليقات أليك ودية، نقدية، يداً تشعث شعر ضيفه.

أدار هيو فريزر عينيه: «دعونا نصون إلى الأبد الجدران المبجلة، المغطاة باللبلاب لنادي غالا، المغمس بتاريخ الكثير جداً من حفلات رقص ليالي السبت الجديرة بالذكر، والكثير جداً من العروض الراقية لأغاثا كريستي».

- «لا، ليس حقاً، يا جيمس؟» قال أليك بكسل. وظل يرفع حاجبه لطفل تلومي، فانسل من حضن ريبيكا ببطه ودب نحو ساقه.

- «سيتعين أن تكون صالة غاندي تالياً. ألا تظن، إيه، سامبسون؟».

- «إنها بسيطة بما يكفي. استصدرْ أمراً بمصادرة أي مبنى تحتاجه».

ضحك الجميع مرة أخرى اعترافاً بسياق تعليق سالي فريزر - هالة صداقة براي مع الرئيس.

- «أوه، أنا لست أليك أو ليباليسو!».

اعتبرها رجل البوليس بمثابة إطراء، مقوقئاً حوله للشلة، مبتهجاً بنفسه: «الآن أيها الكولونيل، الآن أيها الكولونيل...».

بدا أليك نصف معترف بالخدعة بأن أدار وجهه. في تلك اللحظة قالت زوجته إن الطعام جاهز فأعلن: «ألست أنا أذكى ضابط بوليس لعين سبق له أن وجد هنا في مقاطعة غالا؟ هل تعلمون من الذي طبخ؟ سكرتيرتي، هنا، نعم».

كانت تبتسم غير مبالية بذلك، عندما لف ذراعه حول عنقها:

- «إنني أستخدمها للطهي، أيضاً».

- «هراء، لقد أعطيت أغنس المقادير، هذا كل ما في الأمر».

قالت المسز أليك بهدوء: «لقد أطلقتك بعد الظهر، أليس كذلك، يا بيكي؟ أنا أفضل ربة عمل سبق لك أن عرفتها، أليس كذلك، يا بيكي؟».

Twitter: @alqareah

لم يكن براي قد جلب شيئاً لأجل أولاد ادواردز لكن آل بايلي جلبوا. كان بإمكانه أن يقول للفتاة الآن: «ڤيڤيان أرسلت بعض الأغراض لك ـ طرداً. أنا آسف لأنني لم أسلمها حتى الآن».

ـ «أوه، ليست مشكلة. يمكنني أن أرسل أحد الأولاد».

في اليوم التالي ذهب لرؤية جوساب. كان من الممكن أن يكون في اقتراح سكرتير النادي ما يذكّر المرء بالمخطط في سياق المناقشة.

إن لم يكن مع أعضاء نادي غالا، إذاً، فمع أعضاء الجالية الهندية. لم يقل جوساب شيئاً؛ عيناه السوداوان الكبيرتان، مع البشرة المجعدة، ذات لون ونسيج العجز، حافظتا على تحديق نور الليل عبر الخطوط العامة لمخطط براي، مع الثقة برفض نادي البيض. وما كان يعرفه كان آتياً: اقتراح أن صالة غاندي والمدرسة الهندية الخاصة التي كانت جزءاً منها يمكن أن يؤمنا المبنى وتوابعه. بالرغم من أن هنود غالا كانوا مسلمين في معظمهم، مثل جاليات كثيرة كهذه في أفريقيا، فقد كانوا يدعون الانتماء إلى غاندي بسبب الهيبة التي جلبها للهند والعالم الثالث عموماً، وربما كانت لديهم أيضاً فكرة غامضة ـ في قلقلة وضعهم الخاص بين الأفارقة ـ عن أن إدانة المهاتما للتحيز الطبقي والعرقي يمكن بشكل ما أن تلين التحيز الأفريقي الأساسي ضدهم. بالطبع، كانت الصالة والمدرسة فيما كان يُعرف ـ وفقاً للعرف الاستعماري الذي بموجبه وضع البيض مختلف الأعراق على مسافات مختلفة عنهم ـ بوصفه «البازار»، وهو حي صغير لا يبعد أكثر من شوارع قليلة، وراء المخازن الهندية على حافة البلدة البيضاء.

ـ «لكن هذا سيكون شيئاً جيداً، ألا تعتقد يا جوساب ـ أن نكسر هذه التفرقات القديمة البالية للذين ينتمون إلى هناك، التي تؤدي بعد زمن طويل إلى الموت...؟ شعبك سوف يضرب المثل للأوروبيين، ما يجعلهم يفكرون مرة أخرى... وبالتأكيد لم يكن يبدو للأفارقة أقل من البرهان على إيمانكم الجيد كمواطنين لهذا البلد... لا تفهمني خطأ، أيضاً ـ إننا نأمل أن يأخذ هنود معنيون أي مسار يمكن أن يكون مفيداً، يا جوساب...».

لم يكن براي قد ناداه باسم «جوساب» من قبل بدون لقب «مستر»؛ فقد كان الخياط مدركاً أنه إذا أسقط اللقب الآن، فإن ذلك ليس بسبب المسافة التي وضعها البيض الآخرون بينه وبينهم بعدم منحهم هذا اللقب له، بل لأنه صادف أن هذين الرجلين يعرفان أحدهما الآخر منذ زمن طويل، ومرا بتغيرات كثيرة. ابتسم: «كل

Twitter: @alqareah

[أبناء] شعبك تلقوا تعليماً، أيها الكولونيل. منذ الأيام الأولى، كانت لنا مدارسنا الخاصة».

ـ «أنا أعرف. في الحقيقة، أفكر بجلب بعض المدرسين منكم... أقصد أن أرى السيد باتوا بخصوص ذلك».

خارج الدكان، كان أحد أحفاد جوساب يجلس على دراجة ثلاثية العجلات براقة، يرن الجرس بشكل مهيب فيما يُدفع إلى الأمام من قبل «المربية»، ذكرٌ أفريقي صغير بأسمال بالية؛ في كل مرة كان الصبي يسوي نفسه، مكشراً، لاهثاً، فتصرخ البنت الصغيرة به بلغة غوجيراتي غاضبة.

جاء الإذن من لجنة المدرسة الهندية باستعمال صالة غاندي وورشة نجارة المدرسة من قبل برنامج تعليم البالغين. بشرط ألا يتعارض ذلك مع ساعات أو أيام الشعائر الدينية العادية للمدرسة.

كان براي يكتب رسالة شكر لماليمبا ولنفسه، وهو جالس في مكانه المعتاد تحت شجرة التين. لاح أحد أولاد إدواردز ـ لم يعرف ما إذا كان صبياً أم بنتاً، فقد كانوا جميعاً لهم نفس الشعر المقصوص قصيراً ويرتدون نفس النوع من الشورتات. طالب صوت بنت واضح بالطرد البريدي لأجل الماما. كانت ريبيكا إدواردز في سيارتها البالية في الطريق برفقة الولدين الآخرين. لوّحت معتذرة. حمل هدية بايلي إلى الخارج وتحادثا عند نافذة السيارة؛ في داخل السيارة كان ولداها ينفخان فقمة بلاستيكية وكرة عملاقة، وكان شورتا السباحة مربوطين حول يديهما ـ كان صباح الأحد. قال لهم جميعاً :

ـ «الماء هو العنصر الطبيعي لهذه العائلة. أنتم مرتبطون في ذهني بالماء».

ابتسمت وهي تنظر إلى ولديها: «أحب مكتبك الجديد؛ أراك دائماً جالساً هناك عندما أمرّ. مثل بوذا تحت شجرة تين البنغال المقدسة. ولكن يا له من مكان جيد للعمل. بالتأكيد أحسن من البوما».

ـ «حسناً، لقد كنت أنت من أشار إلي بأنني زائر في البوما».

ـ «أنا؟ لكنني لم أفعل شيئاً من هذا القبيل».

ـ «لا تقلقي ـ والآن أنا ممتن. إنها ممتازة، تينتي هذه، أليست كذلك. الآن بما أن الجو أبرد فإنه مكان مثالي للعيش».

وسرعان ما أصابها الإجفال والإحراج. جف الدم من وجهها، ولم يترك سوى بريق في العينين: «ولكن متى قلت أنا ذلك؟».

Twitter: @alqareah

- «أوه لا بأس. كنت مراعية لمشاعري وقد عذرتني لعدم تفكيري بنقلك بسيارتي عندما كانت سيارتك في المرآب».

- «أوه إذاً ـ لكنك أخطأت الفهم».

- «نعم، أنا أعرف، يكتشف المرء أحياناً بالمصادفة حقيقة صغيرة بمجرد غلطة».

هدأ روعها، ولو أنها كانت حائرة قليلاً. مرت لحظات قليلة دون أن يقولا شيئاً، توقفا ببساطة عن الكلام مع سطوع شمس الصباح على وجهيهما، كما يفعل الناس، في العراء.

- «ماذا حصل بشأن الهنود؟»

-«إننا نحصل على صالة غاندي طالما أنه لا توجد أيام مقدسة أو عطلة. هذا إنصاف».

- «أوه ... جيد».

قال: «شياطين بائسة: ما الذي كان بإمكانهم أن يقولوه؟ إنهم يأملون في أن يكون ذلك عوناً لهم».

هزت رأسها مستفهمة، وهي ترسم خطاً بين عينيها:

- «بالطبع، سوف يفيد. إنها بداية لأجلكم».

- «يساعدهم. إذا بدت الأمور وكأنها تسير بشكل سيء بالنسبة لهم في وقت من الأوقات».

- «إنهم جميعاً بخير، مع ذلك، ألم يقل أحد كلمة بشأنهم؟» قال لها: «إنهم يرون ما حدث حولهم. كينيا، اوغندا. تذمرات في أماكن أخرى. في كل مكان بقوا خارج الحركات الافريقية لكي يظلوا على علاقة ودية مع المكتب الاستعماري، ترددوا في التخلي عن الجنسية البريطانية إلى أن أصبحت لا تساوي الورقة التي تحمل تصريحاً بها. عندما كنت هنا، من قبل، رفضوا السماح لحزب استقلال الشعب بعقد اجتماعات في صالة غاندي، والشخصيات الهامة في اللجنة الإسلامية لم تقصر أبداً في إعلامي بالحقيقة. الآن هم بصدد أن يسمحوا للكثير من أفارقة الأدغال بالدخول إلى حيث لم يسبق لهم أن وطئت أقدامهم من قبل ـ إنه النوع نفسه من الأمل، بالرغم من أن وضعهم ليس بالضبط على النقيض مما كان... إذ لا توجد سلطة بديلة الآن، الأفارقة أو لاشيء. لكن الغريزة هي نفسها غريزة اللعب بأمان؛ لماذا يبدو اللعب بأمان يتحول دائماً إلى لعب خطير للغاية؟»

«من سوء الحظ» قالت ذلك مقتنعة بأن الناس يستسلمون فقط للخرافة.

Twitter: @alqareah

ضحك. لكنها قالت بثقة ـ فربما كانت تقرأ كفاً:

ـ «لا، أنا أقصد ذلك. من سوء الحظ لأنك أقدس من أن تستغل فرصة».

ـ «هل من سوء الحظ أن تفتقري إلى الشجاعة؟»

ـ «هو كذلك، عليك أن تمضي رأساً، في ما هو قادم، ثق بالحظ. لأنك إذا لعبت بأمان فلن تنال شيئاً، بأي حال».

ـ «هل هو خاسر؟».

ـ «نعم».

ـ «حسناً، إنك على حق فيما يتعلق بالهنود... أياً تكن دوافعهم لإعطائنا الصالة، سواءً قرروا إعطاءنا إياها أم لا، لن يؤثر إذا سارت الأمور خطأً».

رأى في وجهها أنها فكرت فجأة بصلته مع مويتا؛ ذاك التمييز الذي يحرجه دائماً لأنه يبدو أنه يستغله بشأن زائف.

ـ «لماذا تقول لو سارت الأمور خطأ؟»

كانت لهجته سريعة التنكر:

ـ «لقد انطلقت هنا دورة عميقة من التغيير منذ ثلاثمائة أو أربعمائة سنة، مع قدوم أول واحد منا نحن الغزاة الأجانب. كنا نميل إلى الاعتقاد بأن ذلك سيتوقف، ستقفل الدائرة، مع الاستقلال... لكنه ليس كذلك... إنه لا يزال مستمراً ـ هذا هو كل مافي الأمر. لا يجب على المرء أن يدع نفسه ينسى. وفيما يتعلق بالغزاة ـ ما زلنا لا نعرف بشكل نهائي إن كان الباقون سيُطردون مرة واحدة وإلى الأبد، أو أنهم سيتعلمون. حتى الآن فإن الدول التي تسلك النهج الاشتراكي تصبح الأكثر أفريقية بالشكل الأكثر حصراً، فالدول الرأسمالية تضم عددا من المتحدرين من سلالات الغزاة بقدر ما كانت من قبل تقريباً. ليس ذلك مفاجئاً. لكن ذلك كله يمكن أن يتغير ...»

قالت: «ذهب أهلي ليستوطنوا في انكلترا ـ أبوي».

«لا أعرف... أشعر أنني كنت أكسل مما ينبغي، هل تعرف؟ أنا لا أتحدث عن جلي الصحون ـ أقصد، أن أحيا حياة أخرى».

ـ «أين كنت قبل هنا؟»

ـ «أوه، في كينيا. ولدت هناك، وأخي. عندما أعيد إلى مكانه نزل إلى ملاوي، وعندما لم يجدد عقد غوردون ـ زوجي ـ فقد طُردنا إلى تنزانيا، في البداية. لقد ولد كلايف هناك».

تدلّت يدها فوق قفا عنق الطفل، فتملص منها.

Twitter: @alqareah

قال: «هل سيأتي ليسبح معنا؟»

- «شيء سخيف، لقد جئنا لأخذ الهدية من ڤيڤيان، أنت تعرف ذلك». بدأ الولدان يطالبان بتذمر بفتح الهدية. عندما انطلقت بالسيارة كانا يتصارعان مع الأربطة مثل جراء تتعارك على عظمة. التفتت لتقول وداعاً؛ كانت ترسم خطاً من الجهد بين حاجبيها.

قفل راجعاً إلى شجرة التين وجلس هناك أمام المذكرات والتقارير وقصاصات الجرائد التي كانت باتنظاره. أشعل سيجاراً ونقر بإصبعه النمل الذي سقط من الأغصان ودب فوق سطور كتابته. ثمة مشاكل عويصة سوف تبرز في غمرة الحماس لإدخال كل طفل إلى المدرسة، إذا كانت حصيلة استيعاب المدارس الابتدائية تتجاوز عدد الأماكن المتاحة في المدارس الثانوية. كان من السهل نسبياً أن تبني المدارس الابتدائية وتزودها بالهيئة التدريسية في كل أنحاء البلاد، ولكن ماذا بعد؟ كينيا. رأى مذكرة كان قد كتبها: مقابل كل طفل ينتسب إلى المدارس الثانوية في كينيا، يفشل أربعة أو خمسة في إيجاد مكان. كتب، في عقله وليس على الورق أمامه. يجب أن تكون هناك محاولة واقعية لتحويل المتسربين من المدارس الابتدائية إلى الزراعة حيث سيكون معظمهم، على مدى الجيلين التاليين على الأقل، بحاجة لكسب قوتهم، بأي شكل. زاغت عينه بشرود عندما نزلت إحدى النملات على الجدول الذي عمله بعدد المدرسين والمدارس والإنفاق الحكومي على التعليم في المناطق المماثلة. كان ثمة رسالة من أوليڤيا، مع صور ضوئية: طفل فينيشا يستلقي عارياً، يتطلع إلى الأعلى بحيوية الاستجابة التي هي البسمة الأولى. كان شينزا قد حمل الطفل الأصفر المائل إلى الزهري بيد واحد. الصفحة الثالثة من رسالة أوليڤيا، الواقعة أولاً، بدأت مثل حديث مقطوع: «ليس مطلقاً، كما يمكن أن تتوقع، حبك الخاص انتهى مرة أخرى. نوع مختلف من الحب. أنت تعرف، إنه أقرب إلى المثالي حيث أن أي طفل، لمجرد أنه طفل، يقوم بنفس الادعاء عليك. أشعر بأنني حرة أكثر مما أشعر بأنني مقيدة». تأمّل بافتتان ذاك المشهد البعيد لتصالح الشغف الشخصي والحب اللاشخصي، الارتباط والانفصال، الذي كان يمثل رؤيتها التحررية - اللاإرادية للفضيلة. كما تبين؛ فقد كانت إحدى فضائل الجدّات. كانت زوجته من نفس عمره تقريباً؛ تزوجا أثناء الحرب. إنها تصغر شينزا بسنوات قليلة. كان الفوز بها هو الفوز المناسب، مقروناً خطوة خطوة بهذه المرحلة من حياتها؛ شعر بحنان إلى الفتاة الشقراء النحيلة ذات الفجوة الحيزبونية الصغيرة بين أسنانها الأمامية.

Twitter: @alqareah

كان ذلك مثل استمالة شخص لم يُسمع به منذ سنوات كثيرة، يسأل المرء عنه: «وماذا حدث لـ ...»

ثمة مذكرة من مويتا في البريد، أيضاً. المغلف العادي المكتوب ـ المطبوع على الآلة الكاتبة ـ لم يعطِ أية إشارة إلى من يمكن أن يكون الكاتب، وعندما فتح الورقة المطوية بداخله ورأى خط اليد كان ذلك بإحساس باللامتوقع، المحتوم أكثر مما كان إحساساً بالمفاجأة. مويتا يأمل أن تكون المنحة «كافية»؛ ألح مرة أخرى ـ ماذا بشأن البيت اللائق؟ متى ستأتي أوليڤيا؟ ظن أنه سيتلقى رسالة الآن، ولكن ربما كان براي «في جولة مرة أخرى، في أنحاء البلاد؟» يجب ألا نفقد الاتصال.

في كل مرة كان براي يواجه حقيقة الرسالة على الطاولة، كان يسيطر عليه نوع من العناد. كانت الرسالة يداً على كتفه، تحسه؛ فكان يسير وهو ينوء تحتها. تحول عقله بشكل حرون نحو حقائق وأرقام تقريره: هذا شأني ولا شيء آخر. هذه هي الفائدة مني. لن يرد على الرسالة. جوابه إلى مويتا لن يكون جواباً.

بعد ذلك بيوم أو يومين كان يكتب الرسالة في رأسه، ترافقه وهو يسير عبر الشارع بلغة الغالا «أنت تعرفني جيداً بما يكفي لتعرف أنني لا أستطيع أن أجوب البلاد لأجلك: لايمكنني أن أشي بشينزا إليك، كيفما عبرنا عن ذلك بعناية، أنت وأنا. لا يمكنك أن ترسلني حيثما لا يستطيع ليباليسو في الحقيقة أن يدخل، لا يمكنني أن أكون الساعي ـ الجاسوس بينك وبين شينزا. أنا لم أعد لأجل ذلك».

تألقت الرسالة وأعادت تأليف نفسها مرة تلو الأخرى. ذات مرة بينما كان مستغرقاً وبشكل متوتر في نسخة عالية النبرة (هذه رسالة لوضع حد، فبعد إرسالها يقلع المرء على متن طائرة ولن يكون بمقدوره أبداً أن يعود إلا كسائح، يتفرج فاغراً فمه على الأسود وهو عاجز عن تكلم اللغة) قابل الآنسات فاولر في المرآب. لم يكن قد رأى السيدتين العجوزين منذ عودته من انكلترا، بالرغم من أنه قام بتحريات حولهما ونوى أن يزورهما في وقت من الأوقات. كانتا تهرولان نازلتين من مكتبة الأميرة ماري مع كتبهما المحمولة بسيور مطاطية، تماماً كما كانتا تفعلان منذ عشر سنوات أو خمس عشرة سنة، عندما اعتادتا أن تتناولا طعام الغداء مع أوليڤيا في المقر الرئاسي في زيارتهما التي تقومان بها مرتين في الشهر إلى المدينة. جاءتا «مطرودتين إلى أفريقيا» معاً في أوائل العشرينات، وهما محبطتان في الحب أثناء الحرب قبل الأخيرة، وساقتا بعيداً صعوداً إلى النجد الأوسط في سيارة فورد (الآنسة فيليسيتي، الكبرى، كانت سائقة سيارة إسعاف في تلك الحرب). قامتا بزرع الشاي على

Twitter: @alqareah

منحدرات السلسلة الجبلية فوق البحيرة وكانتا جزءاً من المشهد قبل وقت طويل من صيرورته نائباً عن المقاطعة. كانت الآنسة اديلايد تدير مدرسة صغيرة ومستوصفاً في محلهما؛ لقد رأتا الكياسة والإحسان و«الترفّع» كجزء من واجبهما المسيحي إزاء الناس المحليين، بالرغم من أنهما، كما اعترفت فيليسيتي بطلاقة لأوليفيا، لم تشعرا بالجلوس المريح على مائدة مع الأفارقة بالطريقة التي يشعر بها آل براي. عندما التقى المستوطنون في فندق فيش ايغل للضغط لطرد براي من البوما بسبب تشجيعه للقوميين الأفارقة، نهضت الأختان فاول من مقعديهما معارضتين لذلك واحتجتا. لقد كانتا، بمعزل عن الرائد بوكسر (الذي فعل ذلك بالإهمال بأي حال) الأبيضين الوحيدين اللذين دافعا عنهم.

كانت اديلايد تتولى معظم الكلام، كالعادة، تستلم جمل فيليسيتي وتنهيها بالنيابة عنها. كانتا مهتمتين بأوليفيا بالدرجة الأولى ـ فهي كانت في بيتها في ويلتشاير، أليست كذلك؟ هل ستكون هناك؟

ـ «ألن تذهبي في زيارة؟»

ـ «أوه، لا... إننا...».

ـ «لابد أنك سمعت أننا سنرحل» صرحت اديلايد.

ـ «بالتأكيد سمعت».

بدا من الضروري أن تعتذر، لأجل عدم الاهتمام.

ـ «ثمة أشياء كثيرة للغاية يبدو أنني لا أسمعها».

ـ «حسناً، لا أعتقد أنك ترين الكثيرين منهم» قالت فيليسيتي وهي تقصد المقيمين البيض المحليين.

ـ «أوه، إنه على ما يرام، كل شيء سلمي تماماً، أنت تعرفين غالباً ما فكرت بالمجيء لرؤيتك، ثم بقيت أعِد نفسي عندما تأتي أوليفيا».

احتفظ رأس اديلايد العجوز، ذو الشعر القليل، بلون ونسيج ليف جوز الهند المستخدم في الفرشات، تحت شبكة الشعر كان يرتعش أكثر مما يهتز. قالت بثقة:

ـ «زماننا ولى. نحن قطع المتحف، من الأفضل أن نحفظ بعيداً في خزانة في مكان ما».

قال: «كنت أظن أنك سعيدة بتركه يمضي هنا. هل تشعرين حقاً أنك يجب أن تتركي مكانك؟ أعتقد أن ليس لديك ما تقلقين بشأنه، إنك ستتركين بسلام؟».

Twitter: @alqareah

قالت فيليسيتي: «لقد جلبنا هؤلاء المفتشين ـ على أديلايد أن تكفل أننا لن نُسرَّح من العمل في المزرعة، أنت تعرف. وهم يوجد لديهم مفتش جديد من أهل البلد لأجل المدارس ـ أراد أن يعرف إن كنت أتبع المنهاج التدريسي وهو ...».

ـ «لا يوجد شيء، أية مشكلة في ذلك، يا فيليسيتي».

تكلمت أديلايد إليها ومع ذلك فقد تجاهلتها:

ـ «لكننا مسنتان أكثر مما ينبغي، يا جيمس. لا يمكنك البقاء في بلد كهذا لمجرد أن تبقى في أمان».

تحادثوا فيما كانت إطارات سيارة براي تنفخ وبطاريتها تُعبأ بالماء. وعد أن يكتب إلى أوليڤيا ويخبرها أن الآنستين فاول قادمتان. رأى أن الكتب التي تحملها اديلايد هي مذكرات اللورد واڤل وكتب لميكي سبيلان.

انطلقتا نازلتين إلى الشارع تحت الأشجار، أديلايد بقفازاتها القطنية البيضاء وشبكة الشعر، فيليسيتي بسروالها الفضفاض المتهدل وصندلها الرجالي. اديلايد العجوز (اعتادا أن يطلقا عليها اسم الليدي هستر ستانهوب، اعتادا أن يضحكا عليها، هو وأوليڤيا) لم تكن رومانسية رغم كل شيء. لم يسبق لها أن كانت تحررية ـ والآن لم تكن رومانسية. الفتاتان المسنتان لم تكونا تحبان الجلوس في قاعة استقبالهما مع الأفارقة، لكنهما الآن لا تتوقعان أن تتركا بسلام هناك. لقد ميزتا نفسيهما بسبب المفارقة التاريخية.

لقد صار عقله ممسوساً عن طريق لقاءات كهذا، بعيدة عنه، حقاً. مرة أخرى، مُزقت الرسالة ذهنياً. رميت إلى الرياح. أي نوع من العبثية المتزمتة جعل نفسه؟ الإبعاد العذري للأهداب، أنا لست هذا، لست ذاك. ماذا أنا، إذاً، كرمي لله؟ صبي كشاف؟ أشبك يدي فوق مؤخرتي؟ نفاد صبر هائل من نفسه ارتفع جداراً وكان هذا شيئاً جديداً عليه، أيضاً، كان نوعاً آخر من الانتهاك ـ هو لم يكن من قبل أنانياً أبداً بشكل كافٍ لكي ينغمس في التقزز من النفس. كان ثمة دائماً أكثر مما ينبغي للقيام به. لكنني الآن أرفض، أرفض أن أمثل. لأنه ليس مكاني لأفعل ذلك.

فكر مرة أخرى: إذاً فابتعد! عد إلى البيت في ويلتشاير! اختمْ مهمة التعليم اللعينة. ربما كان بعض الشغل لا يضر. ماذا قررت أن تفعل. مع ذلك، مثل البدء التدريجي لألم الأسنان أو وجع الرأس جاء التوتر المعاود، إنه ذاهب لرؤية شينزا، لا يمكنه أن يوقف نفسه، في يوم من الأيام سيجد نفسه يقوم بهدوء بالاستعدادات

Twitter: @alqareah

الصغيرة للعودة إلى سهل الباشي. سيذهب إلى شينزا مرة أخرى، وسوف يعرف السبب عندما يصل إلى هناك.

Twitter: @alqareah

(11)

انتقل آل تلومي، فتاة إدوادرز وأطفالها، آل أليك وبراي معاً. كانوا يرون بعضهم بعضاً كل يوم تقريباً بدون أية حميمية صداقة حقيقية. كانت غالا صغيرة للغاية؛ فكان آل تلومي وآل أليك، مع عائلات الموظفين الآخرين، معزولين عن المدينة السوداء. أما ريبيكا، فلأنها وافدة جديدة تعيش تحت شروط جديدة مفروضة على الجالية البيضاء، وبراي، بسبب الماضي، فقد كانا معزولين علن المدينة البيضاء. غالباً ما كان براي يشارك في وجبة المساء في بيت آل ماليمبا في البيت المديني العتيق المعزول، لكنه أيضاً يُستدعى أحياناً من قبل مبعوث حافي القدمين من أولاد إدواردز وتلومي للمجيء وتناول الطعام في بيت تلومي عبر قطعة الأرض الخالية. وبيت آل أليك ـ بيته القديم ـ بفضل حجمه كان نوعاً من المكان الذي يلتقي فيه الناس. إنه ملجأ عزوبيته، بدون امرأة أو طفل، بقي بعيداً، الطاولة الممدودة لأجل وجبة ومغطاة بواقٍ ضد الذباب من شبكة كاليمو.

ذهبوا جميعاً إلى البحيرة لقضاء النهار، عطلة نهاية الأسبوع، فوجد نفسه مشمولاً بالشلة. فيض من الأولاد وبعض معدات النزهة التي كومت في بيته بوصفها حصته من النقل؛ كان الأولاد ينشدون له الأناشيد المدرسية وهو يقود السيارة. عند وصولهم، اندلقت الشلة خارج السيارة مثل قفص من الطيور الفالتة وتبعثروا مع الصيحات واللغط. تُرك براي وأليك يفلشان العدة؛ كان أليك قد جلب منجلاً معه تحسُّباً لوجود عشب يرتفع إلى مستوى الخصر على شاطئ البحيرة وخلع قميصه فيما كان يقوم بتنظيف بقعة من الأرض بالسهولة نفسها التي يقوم بها أي عامل خارج البوما. قطع ثعباناً إلى نصفين ـ ثعبان عشبي غير مؤذ. وضعه جانباً باستمتاع

Twitter: @alqareah

تلميذ مدرسة، ليراه الآخرون، وهو يمسح شفرة المنجل بحفنة من العشب، وقف يحدق إلى براي مستغرقاً. علق قائلاً: «هكذا نتخلص من ليباليسو».

- «أنتم ماذا؟»

أخفض أليك جسمه الفتي إلى العشب المجزوز وأخذ إحدى الجرائد الانكليزية التي يبلغ عمرها أسبوعان والتي جلبها براي معه.

- «جاءت المذكرة البارحة. لا يعرف بعد. تم ترحيله إلى المحافظة الشرقية. مقاطعة ماساما».

لفتت انتباهه صورة غلاف أمامي تظهر أشخاصا يرتدون ثياباً خنثوية - جزمات، معاطف مندرين، سراويل متهدلة، عقود من الزهور وقلادات، بزات نظامية شمعية - ووجوه كهلة قليلة في الصباح والقبعات الرسمية، تتقدم مثل جيش قيامي، تحت إمرة ابن الكابتن بير: ضيوف العرس ينضمون إلى مسيرة احتجاج ڤيتنام.

جاء دور براي ليراقبه: «ألست متفاجئاً، إذاً؟»

ابتسم أليك؛ بدا أنه يبتسم للصورة. ثم تطلع إلى فوق:

- «لا، لست متفاجئاً».

- «حسناً، أنا متفاجئ!».

أشرق وجه أليك الكبير بضحكة؛ فقد كان قادراً على تحمل أهل السلطة.

لو استطاع براي أن يذهب إلى العاصمة ويلقى أذناً صاغية من الرئيس، حسناً، هذا يجب أن يكون مقبولاً كحقيقة أخرى فحسب. بالطبع، كان أليك أيضاً بطريقته، يريد أن يقوم بعمله ويُترك وشأنه.

قال براي: «حسناً، إنه شيء جيد، بأي حال».

لم يكن أليك مستجيباً بشكل ودي. استند إلى الوراء على مرفق واحد، بصدره الثخين الأجرد وثدييه الرجوليين العضليين واللحميين بشكل شهواني يتحرك، مع ذلك، عن طريق التنفس المسترخي المنتظم. كان رائعاً إلى حد ما؛ فكر براي بشكل ملائم بالنقوش القديمة. للملوك الأفارقة، المطمئنين بشكل مثير للفضول، الذين ينم لحمهم عن الامتياز الملكي. «بالطبع، لابد أن يكون قد نال أيضاً ترقية لأجل قدراته على التبصر. مع ذلك، فإن ذاك الشاب ينبغي أن يكون قد أقام دعوى ضده».

غرقوا في الصمت وهم يقلبون صفحات الجرائد. كان براي يقرأ صحيفة يومية محلية جاءت من العاصمة متأخرة أربعاً وعشرين ساعة. غوينزي، وزير المناجم، ناشد عمال المناجم ألا يطمحوا بشكل لا مسؤول إلى مستوى الرواتب والعلاوات التي

Twitter: @alqareah

يتعين على الصناعة أن تدفعها للخبراء الأجانب؛ فالخبراء سيبقون حاجة ضرورية، لأجل تطوير مناجم الذهب على مدى العشرين سنة القادمة. قال ناطق باسم النقابة إن بعض البيض قد «كبروا من صبيان إلى رجال» وهم في المناجم، فلماذا كان عليهم أن يدفعوا ثمن تذاكر الطائرة إلى بلدان أخرى وقضاء إجازة خاصة في الوطن في حين أنهم "عاشوا كل أيامهم في ركن من المنجم؟". أنكر سكرتير وزارة العدل الشائعات القائلة إن حادثة القتل الطقسي هي في الحقيقة جريمة قتل سياسية، وهي أول حادثة من نوعها منذ سنوات كثيرة، وأن تحقيقاً حول ذلك على وشك أن يُفتح. كانت جزازات العشب المقصوص تلمع من حولِهم؛ أصوات النساء، وهن ينادين الأطفال، ترد عالية، حادة، وتتلاشى خارجاً عبر الماء. الشتاء بالكاد قد بدّل الرطوبة عند البحيرة؛ كان الهواء مثقلاً بالحر بحيث أن بمقدورك تقريباً أن ترى مسار كل صوت مثل الدخان المعلق في الفضاء، الذي تخلفه طائرة نفاثة.

بعد الغداء، كان نونغواي تلومي يتحدث إلى بعض صيادي الأسماك وقد استعار قاربهم. كان القارب أصغر من أن يحمل كل الأولاد بأمان؛ تدخل براي، وكان عليه أن يأخذ اثنين من الصغار، مع ريبيكا المسؤولة عنهما، في زورق شجري. نام أليك وابنه السابع في غشاوة واحدة متماثلة من البيرة وحليب الأم.

انطلق الزورق الكبير مع التهليلات والتلويحات، يدفعه خارج القصب صيادو الأسماك الناخرون، ذوو الأقدام المسحاء. جذّف براي المركب الخشن المحفور من جذع شجرة بالمهارة المتأنية لأيام دراسته الجامعية. بقي قريباً من الشاطئ، بدت حمولته مائلة بفعل الانحناء الكبير للبحيرة الناهضة إلى الأفق خلفهم، تلتمع وتنكمش في سرابات الابتعاد. راودهم الإحساس بأنهم على ظهر مخلوق محرشف لماع، ضخم للغاية، بحيث أن شكله بكامله لا يمكن تمييزه من أية نقطة. كان القارب الآخر يتراقص وينزلق خارج البؤرة، فيصبح شكلاً أسود ينسل داخلاً خارجاً من ضوء الهجير والماء. كانت وجوه الأطفال السمر والبيض والفتاة مضاءة من الأسفل بالانعكاسات الصادرة عن الماء؛ لقد امتلك إيقاع التجديف الآن فرآهم وقد هدّأهم التعبير الخصوصي عن كونهم مأخوذين، بشكل جديد من الإحساس الذي يراود الناس عندما يجدون أنفسهم عائمين.

كانت للفتاة هلالات من العرق تحت ذراعي قميصها. انشمر سروالها إلى الركبة واغتسلت قدماها القصيرتان الغليظتان الخشنتان نوعاً ما، مثل أقدام الطفلين، بفعل

Twitter: @alqareah

النزيز الطيني في أسفل القارب الشجري. تأكد له كم انكبَّ بشكل مهيب على تجديفه، فقد كشر الراشدان الآخران مبتسمين كلٌ للآخر، بشكل مطمئن.

أراد الأولاد أن يسبحوا، في كل مكان كان الماء أخضر باهتاً، صافياً ورخو الملمس، لطيفاً، لكنه عميق جداً بالنسبة لهم حيث كان خط الشاطئ خالياً من القصب ويتبع جرفاً منخفضاً، فضلاً عن خطر التماسيح عندما بلغ الزورق الشجري المياه الضحلة. اندفع براي بقوة نحو جزيرة صغيرة، قطعت فيها الشجيرات النامية تحت الأشجار الكبيرة، ترتفع ستة أقدام عن الماء لمنع ذبابة تسي تسي من التكاثر؛ تلهّى الأولاد ونسوا السباحة. لكنه عندما وصل ببطه إلى الجانب الآخر من الجزيرة، كان ثمة شاطئ حقيقي ـ رمل أبيض مثالي، شجر الباؤباب منتشر، جذوع الأشجار اليابسة مغسولة للاتكاء عليها. أصبحت الفتاة مُثارة مثل الأولاد:

ـ «أوه ما أجمله! ولكن ألا يوجد أي خطر هنا؟ انظر ـ يمكننا أن نرى أي شيء في الماء على مسافة ياردات». خرج والفتاة من الزورق الشجري وحملاه إلى الرمل؛ كان ذلك عملاً مجهداً تماماً. كان صوتاهما مرتفعين في هذا المكان المقفر. انشمر شورته إلى أعلى فخذيه، صار يخوض في الماء باحتراس من أحد طرفي المدخل إلى الطرف الآخر، ولكن لم يكن ثمة قصب، ولا كتل خشبية نصف مغمورة يمكن أن تظهر فجأة.

«أظن أنه آمن تماماً».

كان الأولاد عراة تماماً. بدأت تتعرى من ثيابها بالارتباك الحجلي من الوقوف على قدم واحدة، مما تشعر به امرأة تخلع سروالاً. كانت ترتدي ثوب سباحة تحت ثيابها، وقد سبق لعلاقة غرامية أن أزهرت جرحاً في فخذيها وتركت آثار ضرب بيضاء في اللحم المسمر بفعل الشمس، مما ظهر عندما نزعت ثوب السباحة من ساقيها. ركضت إلى الماء الدافئ، تهتز بلطف، مع طفل أسود سمين متهادٍ صغير بيد واحدة، وطفل أبيض نحيف ينتخع ويثب بمرح، باليد الأخرى.

تمدّد على الرمل، ثم وقف وظل متيقظاً يراقب، فيما كانوا في الماء. بتحديقه القصير المدى من خلال النظارات، يخف الامتقاع الرائق والوميض اللذين انغمروا فيهما. كان الطفل الأسود شكلاً واضحاً مجفلاً طوال الوقت، فيما الآخران اختفيا في ترخيم غريب من النور، مجرد كتف، يد مرفوعة، أو التماع خد يتشكل. فحيث لا أحد يعيش، لا معنى للوقت، الهموم البشرية لا علاقة لها، إذ تسود حالة كثيفة من الوجود. على مدى تلك الدقائق التي وقفها ويده تظلل عينيه، أكثر الإيماءات

Twitter: @alqareah

قدماً، كان بشكل صرف وجوده الخاص به، خارج طفرات أية مرحلة من مراحله. عاد إلى نفسه، لا شاباً ولا كهلاً، لا هو يفرز بصاق الوعيٍ الفردي ولا هو يستعمله ليعجن العش الطيني لنمط مطوق من الحياة. دخّن سيكاراً. ربما كان هو الدخان. صرخت المرأة والطفلان عندما قذفت سمكة بنفسها خارج الماء، فمها إلى ذيلها، وعادت مرة أخرى بحركة واحدة. رأى وجوههم، التفتوا إليه التماساً لتأكيد ضاحك، كما لو من شاطئ آخر.

أعادت الطفلين ووقفت تلهث قليلاً وتعصر شعرها المبلل إلى الوراء عن جبهتها، حيث انسكبت جُدَيْولات الماء فوق عنقها وكتفيها، متخذة شكل قطرات على خلفية اللدانة الطبيعية للبشرة.

ـ «إنه مجيد ـ للغاية ـ للأسف ـ أنك ـ لم...».

كانت مقطوعة الأنفاس، حائرة، توغلت في الماء وحدها مرة أخرى إلى مسافة أبعد، هذه المرة. شعر أنه لا يستطيع أن يطيق مراقبتها وهي وحيدة. سيكون ذلك تطفلاً على حريتها، في الخارِج، هناك جلس وذراعه على ركبة واحدة، محترساً دون أن يبدو كذلك، ماسحاً بنظرته بشكل منتظم فوق الماء. ذاك الجسد المبلل، المتحرك بأنوثة، مرتعشاً، يقف بشكل طبيعي للغاية أمامه الآن تماماً، بثوب السباحة المخضل بالماء الذي تقولب آخذاً شكل حفرة السرة والمتكوب فوق العانة، الشعرات المجعدة القليلة التي بقيت حيث انحسر الثوب عند أصل الفخذ (الأربية) ـ لقد كان هذا هو ما أحبه فيها. هذا هو ما وجده، هذا هو ما ملكه ـ «امتلك» مصطلح مثير للسخرية، فهو لم يكن قد امتلكه أكثر مما فعل الآن بالنظر إليه. هذا هو ما كان قد ولجه. حتى «عرفه»، ذاك التعبير التوراتي الملطّف الجيد، لم يكن ملائماً. هو لم يعرف ذاك الجسد ـ لقد رأى الآن، بشغف كما بحس نقدي ذكوري، عندما كانت خارجة من الماء وهي تتجه نحوه للمرة الثانية، أن الساقين، الجميلتين حتى الركبتين، ذات الكاحلين النحيلين، ثخينتان عند الفخذين بحيث كان اللحم «مرصوصاً» ويرتعش بشكل احتقاني. تمددت بقربه، كانت تتنشق مبتسمة مستمتعة بلذة الماء. لا أحد كان هناك سوى الطفلين. قال لها كما يمكن أن يكون قد قال في لقاء في حياة أخرى»:

«أنا آسف بشأن ما حدث».

استقرت الكلمات مع الشمس على جفنيها المغمضتين. بعد لحظة قالت، بشكل يقظ: «لماذا؟».

Twitter: @alqareah

شعر أنه يستحق اللوم لكونه سمع عنها ما يحكى في العاصمة. لم يجب فوراً، قال: «لأنه كما لو أنه لم يحدث أبداً».

قالت: «إذاً ـ فكل شيء على ما يرام».

اضطجعت ساكنة، ثم قعدت وطلبت سيجارة وهي تلف المنشفة حولها بانعدام كامل للخيلاء.

ـ «إنه يشبه تقريباً الشاطئ عند بحيرة مالاوي».

ـ «هل هو كذلك؟ لم يسبق لي أن ذهبت إلى مالاوي أبداً. ذهبنا إلى هناك في إجازة محلية في العام الذي طردت فيه؛ لذلك فإنها لم تتم. اعتدنا أن نأتي للنزهة هنا مع أولادي، منذ سنوات».

قالت: «هذا الشاطئ؟».

ـ «إنه بعيد للغاية، لم يسبق لي أن أتيت إلى هذا الشاطئ نفسه من قبل. لم أكن أعلم بوجوده، حتى وجدناه اليوم. قبل الآن اعتدنا أن نذهب إلى فوق مروراً بصخرة الإعدام، أنت تعرفين: على الشاطئ الرئيسي».

ـ «ما هي صخرة الإعدام؟».

ـ «ألا تعرفين الأسطورة؟ حسناً، إنها أقرب إلينا من الأسطورة حقاً. الدولو، قبيلة الزعيم الحاكم هنا، كان من عادتها أن تجري اختبار تحمّل للمرشح الجديد ليكون الزعيم المنتخب. قبل أن يكون بمقدوره أن يستلم المنصب عليه أن يسبح من البر الرئيسي إلى الجزيرة. إذا نجح في ذلك، فإنه يُنقل في مركب ذي مجاذيف عائداً، منتصراً. إذا لم ينجح، فمن المفروض أن يتم ترحيله في عربة وأن يعدم برميه عن صخرة الإعدام. هذا الجزء من الأسطورة لم ينفذ في الذاكرة الحية، لكن السباحة في مجرى النهر كانت لا تزال تنفذ حتى وقت قريب جداً، فقد فعلها سلف الزعيم الحالي. إذ كان لا يزال حياً عندما جئنا للعيش هنا».

قالت: «هل زوجتك متعلقة بهذا المكان مثلك؟».

ابتسم، نصف مسرور، نصف مُساء فهمه.

لم تكن تريد استغلال أية معرفة عنه: «لكنك قد عدت».

ـ «لا يمكنني أن أذهب وأشرح لكل واحد. ولكن كم هو صعب عندما يفرض الناس فكرة عما يفعل أو يكون المرء... ويتلقفها الآخرون، فتنتشر وتنطلق...».

Twitter: @alqareah

(تأكد، باسترجاعٍ سريع، أنه في حين كان يتكلم ظاهرياً عن نفسه إنما كان يفعل ذلك فجأة معيداً صياغة أفكار حولها، صورتها كما قدمها أصدقاؤها في العاصمة، التي كان قد استبعدها قبلئذ منذ دقائق قليلة).

ـ «العودة هي نوع من الحلم، مزحة ـ لقد اعتدنا أن نتحدث عن دوري بعد الاستقلال مثل العيش بسعادة إلى الأبد بعده. كان مويتا داخلا خارجاً من وإلى السجن، كنت الرجل الأبيض الذي سيصبح ضحية، بالترافق معه، لنفس السلطة التي خدمتها. كنت نوعاً من رمز لشيء ما لم يحدث أبداً في أفريقيا: التخلي الطوعي عن الامتيازات بمودة وسلاسة، عن التصلب الأبيض الذي لا يمكن أن يقابله سوى التصلب الأسود. كنت أمثل شيئاً ما يتوق إليه كل الأفارقة ـ حتى عندما يتكلمون حول رمي البيض إلى البحر ـ وضع لن يكون عليهم فيه أن يكونوا قد أسسوا ديناميك سلطتهم على المرارة. فالناس من أمثالي كانوا يرمزون إلى تلك الحالة التي لا يمكن تحقيقها تاريخياً ـ هذا هو كل شيء».

قال في نفسه، هل أتصنع ذلك عندما أمضي؟

لقد عملت مع مويتا، في لندن، على أشياء عملية: الخط الذي تتخذه الوفود؟ المقترحات والمذكرات وكل بقية معركة شد الحبال مع المكتب الاستعماري.

«لكن الفكرة باقية... أليك يعتقد، الآن، أن ليباليسو قد أزيح بناءً على رغبتي. يمكنني أن أفهم ذلك. أخبرني هذا الصباح أن ليباليسو قد صرف من الخدمة كما لو كان يعلق على شيء أعرفه من قبل».

أطلق ضحكة مروضة، مهتاجة. بالطبع، لم يكن مفترضاً بها أن تعرف عن ليباليسو ـ ضارب الآلة الكاتبة الخاص بأليك. لكن ذلك منحه إحساساً ضئيلاً بتحرير نفسه وذلك برفضه احترام الأصول الصغيرة للخداع. لم يكن يعرف شيئاً عن ترحيل ليباليسو، وكان يمتلك قليلاً من الحق، مثلما تمتلك هي، في سماع ذلك من قبل أن يسمع الرجل نفسه.

ـ «ثمة شاب ـ ضربه ليباليسو بشكل موجع، في السجن هنا، كان محتجزاً بدون اتهام. اكتشفت ذلك بالصدفة».

ـ «أعتقد أن أليك يظن أنك قد أخبرتهم ـ الرئيس».

ـ «لكنني، بالطبع، قد فعلت. والآن من المفترض أن كل ما كان عليَّ فعله هو أن أطلب من الرئيس إزاحة ليباليسو ـ وقد تم ذلك!».

Twitter: @alqareah

- «حدث الشيء نفسه تماماً، لابد أن الرئيس ظنك تعتقد أن ذلك شيء جيد. أقصد أنه يعرفك منذ زمن طويل، سواء طلبت منه أم لم تطلب».

قال موضحاً ما يعنيه: «أنا مسؤول عن إزاحة ليباليسو، سواء أردت أن أكون مسؤولاً أم لا».

- «ولكن هل تعتقد أنه شيء جيد أن يذهب؟ لماذا يهمك ذلك؟».

- «ثمة مرسوم حبس وقائي. ما قام به لم يكن مشروعاً، الآن. يبدو المبدأ الذي كان من الممكن إزاحته بناء عليه ضعيفاً بشكل ما». رفعت فخذيها الكبيرين بحيث أن ركبتيها تحت ذقنها قد أخفتا جسدها بالكامل. كانت تزيل الرمل من بين أصابع قدميها. قالت:

- «ربما فعل مويتا ذلك إرضاءً لك».

في اللحظة نفسها لاحظا أن الولدين قد اختفيا في الأدغال.

- «إلى أين وصلا؟»

كان ثمة الإيقاع المشتت للأصوات الصغيرة. خاضا في الرمل الثقيل. عاد وهو يحمل الصبي الأبيض الصغير النحيل، وهي تحمل الولد الأسود، مشيرة في مشهد صامت إلى أن اللفائف الدهنية حول فخذيه تفوق جانبي عجيزته. استلقى الولد وهو يتطلع إليها باللذة الكسولة لمن يعتبر أن من حقه أن يُحمل.

- «أعتقد أنك قد صار لك حفيد».

- «نعم، بنت». ابتسما.

- «يبدو ذلك بعيداً جداً، جداً؟».

قالت: «أنت لم ترها أبداً».

- «أوه، صور».

نخع حمله نخعة صغيرة معبرة.

- «هذه لك - ينبغي أن أعرف الآن، ولكن ثمة الكثير دائماً».

بالرغم من أن الصبي كان داكن الشعر، مثلما كانت هي، فقد كان مختلفاً عنها كلياً، مع أنه ذو مظهر تعريفي يوحي بصفات وراثية بارزة - عينان سوداوان تحت حاجبين سميكين وحسني الشكل، وشفتان بلون التوت مع انبعاج في الشفة السفلى: كان ثمة رجل هناك، رغم الساقين الصغيرتين المتهدلتين من ركبتين نحيلتين جرباوتين، والمخلبين الصغيرين الأزغبين ذات الشقوق المشربة بالوسخ. كان ولداها ذوي مظهر مهمل، يتلهيان بشكل رزين بألعابهما وبهجتهما كما يكون الأطفال

Twitter: @alqareah

عندما يجب عليهم أن يعوّدوا أنفسهم على التغيرات الثابتة وغير المفسَّرة للخلفية والأجواء الجديدة دائماً من «العمات» و«الأعمام».

قالت: «انتهى من غوردون مرة أخرى». كما لو أنه شيء لم يكن بالإمكان تجنبه. «ليس النظرات فحسب. الطريقة التي يتكلم بها، كل شيء. إنه مضحك لأنه كان معي طوال الوقت، لا أظن أن غوردون قد عاش معنا لأكثر من ثلاثة أو أربعة أشهر منذ أن كان قادراً على المشي».

- «كانوا قلقين بشأنك، في بيت آل بايلي».

كان متنبهاً للكيفية التي صاغها بها.

- «ما إذا كنتِ سعيدةً بالعمل لأجل أليك».

- «أليك شخص محبوب. إنه كذلك حقاً، أنت تعرف. إن في ذلك كله كثيراً من الخداع، إنه يحب أن يعتقد أنه يسوقني بسوط. يا الله الطيب، هو لا يعرف بعض الناس الذين عملت لأجلهم. لا يزال ثمة بعض الأوغاد في العالم. لكنني لا أظن أن أسوداً يمكن أن يكون على هذه الشاكلة».

- «شاكلة ماذا؟».

كان الولدان يلعبان عند حافة الماء مرة أخرى، وكان هو والفتاة يتمشيان على طول الشاطىء.

- «يستمتعون بجعلك تشعر بأنك كبير للغاية. أقصد أنهم عارضون مثل الجحيم كله، إنهم يستدينون المال منك ولا يردونه إليك أبداً. أشياء من هذا القبيل. لكنهم لا يعرفون كيف يُذلون بتلك الطريقة».

- «ليس أليك؟».

- «أوه نعم - شيك أول راتب لي . لكنه رده. الشهر الماضي، مرة أخرى، والآن ليس جازماً للغاية. لا أمانع. ذاك البيت غالي الثمن فعلاً بالنسبة لهم، أنت تعرف. ثمة متسع كثير لأجل الأقارب ويتعين أن يأكلوا جميعاً، حتى لو كان عصيدة الذرة. جلبت أغنس غسالة أيضاً. إنهم يسددون أقساط المفروشات».

- «مع ذلك، فإن هذا لا بد أنه يرهق ميزانيتك بطريقة ما».

رمت بعيداً قطعة من الزجاج المصقول بالماء كانت قد التقطتها.

- «أليك! تعرف ماذا قال - لكن بشكل جدي إنه يساعدني، أنت تعرف. عندما كنت أقول إنني يجب أن أسدد القرض هذا الشهر أو لا يمكنني أن أدفع قسطي من

Twitter: @alqareah

أغراض بيت تلومي؟ تحدث إلى آل تلومي بالنيابة عني، لقد علل ذلك بالانتقال وإصلاحات السيارة، أنا مقصرة إلى حد ما...».

- «من الأفضل ألا تخبري آل بايلي».

- «أوه، لكن أليك طريف. أتذكر ذات مرة، في روديسيا، حضر غوردونِ ووجد أنني لا أستطيع تحمل المزيد من ذاك الرعب القديم الذي كنت أعمل لأجله، همفري تمبل. إذ لم يكن حتى يدعني أذهب لأقبضٍ راتبي. كان يأتي إلى المكاتب بنفسه، يمضي مباشرة إلى غرفة تمبل ويطلب اعتذاراً... لا أحد في ذاك المكتب حتى كانت لديه أدنى فكرة عمن يكون هذا الرجل المغرور...».

ضحكت. قالت وهي تعود إلى هم آل بايلي: «كل شيء على ما يرام هنا، بالنسبة لي. في البداية، اعتقدت أنه سيكون عليّ أن أكف عن العمل وأقدم استقالتي، شعرت أنني كنت مجنونة، ولكن ذلك بالضبط هو الخوف العادي، عندما تنتقل».

«إنه مكان معزول. ألن تكوني وحدك؟»، كاد أن يضيف بشكل طبيعي تماماً، «بعد أن أذهب»، ولم يكن يعني نفسه، بل كان يعني أن حضور شخص مثله، يمثل صلة ما بين نوع الحياة التي وجدت لأجل الناس البيض وخلقت هذه المراكز البعيدة، وبين حياتهم المستقبلية المختلفة التي لم تكن قد التأمت بعد.

- «لم أفكر في ذلك. أنت تعرف كيف عندما تفكر فقط بالابتعاد - يبدو أن ذلك يحل كل شيء، لا ترى ما بعد ذلك. وعندئذ تكون آمناً... ثم يتبين أنها مجموعة عادية من الأشياء العملية، إيجاد مكان ما للعيش، البحث عن مدرسة... لكن ذلك أفضل، لأجلي.. ولكن».

أشاحت بوجهها بعيداً، إلى الخارج فوق البحيرة، ثم التجأت إلى نوع من الابتذال المتعمد - «أنا - لقد سئمت منهم».

ساد الصمت الذي يلي في الغالب نصف الحقيقة.

تحوّل إيقاع تواصلهما مرة أخرى. تحدثا عن البحيرة، عن جولاته في أنحاء البلاد.

- «تدركين كم من الصعب أن تفهمي التغيير إلا بلغة ملموسة. في أوروبة إذا غبت لمدة عشر سنوات ثم عدت، فإنك تلمسين الزمن الذي انقضى، في الأبنية الجديدة، في المناظر المغطاة بمخططات الإسكان، حتى موديلات السيارات الجديدة والأزياء الجديدة التي يرتديها الناس. لكن لا شيء هنا لا يبدو كما كان من قبل - البحيرة هي نفسها، الزوارق نفسها، الناس أنفسهم - ليس بقدر وجود جسر أو طريق حيث

Twitter: @alqareah

لا فائدة من وجودهما. ومع ذلك كل شيء قد تغير. إن السياق بكامله الذي يوجد فيه كل ذلك هو سياق مختلف عما كان. ثم، الأهم من ذلك كله، ذهبت لرؤية صديق قديم... من جيلي، أنت تفهمين، وفي هذا الصديق يمكنك أن تري السنوات العشر ـ الشعر الشائب، السن المكسور، الإشارات السهلة التي تشعرك بأنك تعرفين أين أنت. لكن تبين أن له ابناً وُلد حديثاً ـ فقد رُزِقَ بطفل في الوقت الذي صار لي فيه حفيد!».

ـ «لا شيء غير عادي في ذلك». قالت، متسلية وهي تتساءل.

قال، وهو يضحك أيضاً: «لكنه مربك».

ـ «لا أفهم لماذا. ربما كان جداً أيضاً».

ـ «أوه، أنا متأكد . لقد تزوج عدة مرات. كان له أبناء كثيرون آخرون كما أذكر».

ـ «أوه، إنه أفريقي».

ـ «هل سمعتِ بشينزا ـ إدوارد شينزا؟».

ـ «لا يمكنني أن أتذكر. أعتقد ذلك. زعيم سياسي؟ أنا أعرف أسماء وزراء الحكومة لكنني بعد ذلك أيأس منهم. ستجد أنني حمارة في السياسة، أخشى ذلك. لست مثل ڤيڤيان».

ـ «إنه صديق قديم. كان مؤسس حزب استقلال الشعب».

قالت: «أنت تعرفهم جميعاً».

قال: «نعم، تلك هي المشكلة».

قالت: «دعني أجدف عند العودة، هل ستدعني؟».

ـ «يا إلهي، هذه البحيرة رائعة. إنها تأخذ الألباب».

ـ «إلى ماذا؟».

نظرت للحظة كما لو أنها لا تعرف، هي نفسها.

ـ «للعيش هنا».

أضاء سفع الشمس حواف منخريها ووجنتيها وبدت شفتاها جافتين. يبدو أنها لم تجلب معها أية أدوات تجميل لكي تجري الإصلاحات بها. صحيح أنه كان ثمة انعدام متعمد للغنج لديها. فقد كان ذلك إهانة تقريباً. استقرت نظرتها اللبوية، الصفراء، على الطفلين.

في المساء عندما عاد كل من كان في الحفلة إلى البيت، سار عبر الأرض الخالية ليتخلص من النتف والبقايا التي خلّفها الولدان في سيارته. كانت تلعب الشطرنج

Twitter: @alqareah

على الشرفة مع نغوايي تلومي؛ كان لديهم مصباح غاز يصدر ضوءاً أرضياً بلون فولاذي. رمت كومة الأغراض على كرسي ومشت معه عبر الحديقة التي لا سياج لها ولا يفصلها عن أرض الأشجار الخفيضة سوى عدد قليل من رؤوس أشجار الزينيا والحفر الضئيلة والدروب التي صنعها الأولاد.

ـ «أنا علّمت نونغوايي اللعب لكنه يغلبني الآن بشكل منتظم. عندما أتذمر يقول إنها عادة أفريقية قديمة، أن تهزم النساء ـ لكنه متغرّب للغاية، إنه يغلب في الشطرنج».

فيما كانت تتنزه، تثرثر، كان ذراعاها متصالبين فوق ثدييها، توقفت أقرب إلى بيته من قربها إلى البيوت الأخرى، ودخلت لتشرب.

ـ «أليس الجو بارداً، بحيث لا يمكن الجلوس تحت التينة؟».

ـ «لا، لا، أود أن نجلس تحت التينة المشهورة».

كان لديه شمعدان صغير ذو غطاء زجاجي. كان يضيء شقوق وحليمات الشجرة الكبيرة مثل مصباح معلق في كهف، حتى في الليل كان اللحاء يجتاحه النشاط، فيجري مع النمل والحشرات الثقابة التي تنقب بحثاً عن الحياة.

ـ «يبدو أنك تتقدمين جيداً في بيت تلومي».

لقد أثاره أن يتعين على امرأة تبين أنها تمتلك قليلاً أو لا شيء بالمرة من المبادىء الليبرالية والحماسة التي تجعل الضرورة فضيلة اختيارية، أن تجد العيش مع أسرة أفريقية غير جدير بالاهتمام للغاية. ظاهرياً كانت قد تربّت على الطريقة الاستعمارية وعاشت حياتها في المناطق المحظورة على الجانب الأبيض من السكك، حيث وجدت.

قالت: «مجرد أناس ظرفاء جداً فحسب. كنت محظوظة. إنه جحيم من المخاطر، تقاسم البيت».

ـ «ألَمْ تجديهم مختلفين نوعاً ما؟ أنت تعرفين، بالأشياء الصغيرة التي تساوي كثيراً عندما تسكنون معاً».

ـ «حسناً، إنه شيء آخر بالطبع ـ عندما تسكن مع أناس. على مدى العام أو العامين الأخيرين كنت أعمل مع الأفارقة وعندئذ كان ضمن شلتنا، في بيت آل بايلي، أصدقاء أفارقة؛ لكنني لم أعش أبداً معهم من قبل. لكن كما قلت بعد ظهر هذا اليوم... وفي تلك الأثناء لم أفكر في شيء... وكان عليّ أن أخرج من ذاك الفندق وجاءت الفرصة... بالطبع. إنه مختلف قليلاً ـ لا يوجد كثير من الخصوصية في

Twitter: @alqareah

البيت، إننا بالفعل نسكن جميعاً مع بعضنا بعضاً، أعني، ليس من عادة هؤلاء أن يكون هذا مسكني وذاك مسكنك، هكذا كنت أفترض. إنهم يسلمون بذلك فحسب... ولكن في الوقت نفسه هناك نوع من الخصوصية، نوع آخر... إنهم لا يطرحون أسئلة. إنهم ببساطة يقبلون كلٍ شيء عنك».

عندما عاد إلى البيت حاملاً معه البيرة، قالت:

«بالطبع، غوردون مستعد للقتال. لقد كتبت لأخبره أين نحن و، وبشكل طبيعي، وقد جلب ذاك رسالة منه. تسلمتها الأسبوع الماضي - أي نوع من الخلفية التعليمية لأجل أطفاله وكل ذلك. كاد أن يصاب بنوبة. كلما وصله شيء يهمه يكتب هذا النوع من رسائل المحامين، النوع المتكبر والتافه للغاية. إنه ينظر إلينا كما لو أننا نجلس في الساحة نأكل عصيدة الذرة المجروشة من قدر كبير - لا تعرف مخيلة غوردون».

ضحكت بشكل ساخر، ولكن بغرور.

قال، كما لو كان يعرفه: «أين غوردون؟».

- «ليس بوسعي أن أقول لك».

قالت ذلك نصف متكتمة، نصف مستمتعة بالفرصة المؤاتية لإحداث الصدمة.

- «في الكونغو، مع ذاك العرص لولو كامبويا». رأت أنه يحاول أن يميز الاسم.

- «لا، ليس سياسياً، إنه مجرد محتال عادي. حسناً، إنه غير عادي. التقاه غوردون في بار في زامبيا، لولو، يطوف في كل الأماكن بسيارته المرسيدس السوداء. دخل غوردون معه في تجارة التذكارات. أنشأ لولو «معملاً» يصنع تلك القلادات المصنوعة من شعر الفيل. إنه يورّد كل أنواع الأشياء البشعة - أقنعة السحرة ونقوش قرون الحيوانات. أراد أن ينزل إلى جنوب أفريقيا لإجراء اتصالات مع العاملين في مهنة التحف هناك، لكنهم، بالطبع، لم يدعوه يدخلها. لذلك ذهب غوردون بدلاً عنه. ثمة ثروة فيها. هما بصدد أن يمتلكا شبكة على مدى أفريقيا من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب - أنت تعرف. في هذه الرسالة الأخيرة يقول غوردون إنه يعمل على أشياء الكابورا باس - السد. لقد عمل على كاريبا، بالطبع: كان ذلك عندما ذهبتُ إلى ساليزبوري. يكون مهندساً عندما يتعين عليه أن يكون كذلك - إذا أردت أية قلادات من شعر الفيلة، لدي مخزون فائض منها».

سيكون مثل آل تلومي ولا يطرح أسئلة أبداً - أي الأسئلة التطفلية. لكنها أقحمت موضوع هذا الرجل، الزوج؛ كان يبدو بالكاد أكثر من حكاية.

Twitter: @alqareah

قال براي: «حسناً، على الأقل، ليس مرتزقاً. عندما ذكرت الكونغو...».

ـ «أوه، أنا متأكدة أن لولو قام بدوره في تهريب الأسلحة، لكن ذلك كان فعلاً مربحاً بحيث لا يمكن أن يدع أي شخص يستمر فيه. غوردون إدواردز ـ لم يكن مشمولاً بذلك».

كان ذلك نوعاً من التقليد الساخر لشكوى ربة منزل الضاحية الحصينة من أن زوجها يتم تجاهله دائماً وحرمانه من الترفيع. كان متسلياً بهذا الجفاف العنيد الذي لم يره فيها من قبل. بدأت تخبره نوادر حول الحياة في العاصمة، نوادر تشمل داندو، الناس في مختلف الوزارات والجامعة، وكلاهما يضحكان كثيراً. كانت هذه الحكايات قصص سكرتيرة ذكية، قصص تلصص من خلف الستائر؛ إن كان فيها أية قصص فهي قصص عشيقة ذكية. وهي لم تكن داخلة فيها. سار إلى بيتها عبر الشجيرات وقبّلها قبلة آخر المساء على خدها، ذاك التقليد الدارج بين رجال ونساء الجماعة التي ينتميان إليها، في العاصمة. كانت فتاة جريئة وشريفة وشعر بقليل من الارتياح لكونه قد وضع الأمور في نصابها الصحيح بينهما. كان لديه نفور من المواقف المزيفة. حتى المواقف الصغرى على هامش الطريق تمثل شيئاً ما. لقد فعل ذلك، كأنه سيرتب طاولته عندما يبدو أنه لا مفر من معالجة ما عليه فعلاً أن يفعله. عندما قابلها خلال الأسبوع، وهي تشتري البوظة لأجل الأولاد، عرض أن يأخذهم جميعاً إلى البحيرة مرة أخرى في نهاية الأسبوع ـ أراد أن يتحدث إلى الناس في منشأة تبريد الأسماك.

لكنها اتصلت في ليلة الجمعة ـ كان سامبسون ماليمبا معه في الغرفة، كانا يعملان ـ وقالت إن الأولاد قد دُعيوا إلى حفلة وأنهم «تحمسوا بشكل جنوني» للذهاب ـ ليس مشكلة بالمرة، فهو سيأخذهم في مرة قادمة ربما (كان لديه الشعور دائماً حتى عندما يتكلم عن الخطط اليومية وأنه يمكن أن يذهب، بشكل مفاجىء تماماً، قبل أن يتأكدوا). ثم فكر أنه يمكن أن يكون قد بدا منشرحاً أكثر مما ينبغي لعدم إزعاجه بالخروج، وأضاف: «بالطبع، تعالي فوراً إذا أردت ذلك ـ إذا لم يكن لديك شيء أفضل لتفعليه؟ ينبغي أن أذهب بأي حال».

قالت إنها ستدعه يعرف في صباح السبت، إذا كان ذاك الوقت كافياً؟ شعر بالتسامح المتبادل لشخص مشغول بانشغالات شخص آخر.

جلس ماليمبا ينتظر وقد أمال رأسه إلى الخلف، ينقر قلم رصاص على أسنانه الصفراء الكبيرة. كانت مسألة نقود، نقود، مرة أخرى، الآن. ثمة مجمع بوليسي

Twitter: @alqareah

قديم ـ عبارةٍ عن مربع مع الغرف حول باحة ـ تمكنوا من الحصول عليه بسعر رخيص جداً وتحويله إلى صفوف دراسية بكلفة مئات قليلة من الجنيهات. كانت المنحة القائمة مخصصة قبلئذ لأجل أشياء أخرى؛ قال ماليمبا:

ـ «لو كتبت وطلبت المزيد؟».

ـ «إلى من؟»

نظر إلى براي وهز كتفيه .

نعم، لم يكن عليه سوى أن يسأل مويتا؛ قال:

«أفترض أنني كتبت إلى صديقي الملحق الثقافي الأميركي، هناك. إنهم متحمسون للمشاريع التعليمية. بالطبع، إنهم يحبون المشاريع الكبيرة التي تظهر ـ مثل الجامعة. لكن قاعات المحاضرات ـ تلك هي الطريقة للتعبير عن ذلك ـ يكفي أن تقرع الجرس لأجلنا».

سمعها تأتي عبرِ الباب المنخلي للشرفة فيما كان ينهي فطوره. كانت ترتدي بنطلون جينز رجالياً أزرق اللون وصندلاً ذا قشاط مطاطي، وكانت مسرورة لكونها تمضي وقتاً طيباً. بدت فتية جداً ـ لم يكن يعرف عمرها، كان يظن أن عمرها حوالي ثلاثين. كان كاليمو قد ربط بعناية صرة من الطعام بخيط وفّره من رزم الجزار.

سأل براي: «ماذا بداخلها؟» فأشار كاليمو بسبابته النازلة على أصابع اليد الأخرى...

ـ «آه فراريج مشوية، بيض مع سمك صغير بداخله، آه، بندورة، blead، ملح، قليل من الفلفل. لا توجد زبدة. يجب أن تشتري زبدة».

كانت وجبة النزهة التي كان يحضر لها دائماً، نزولاً إلى البيض المحشو بسمك الأنشوفة، الذي علمته أوليڤيا أن يصنعه، اللفافات الورقية من الملح والفلفل. قالت الفتاة:

ـ «لا تزعج نفسك بالزبدة، ستذوب تماماً».

توقف على الطريق خارج القرية واشترى زجاجة نبيذ بدلاً من ذلك. كان لديها جهاز راديو صغير، وعندما حذّرها من أنها يمكن أن تنتظره طويلاً في منشأة التبريد:

ـ «ليس المكان الأكثر جاذبية في العالم للتجول فيه، أيضاً». أخذت شيئاً ما لكي تقرأه من رفوف كتبه، بروح الرغبة في ألا تكون مشكلة أكثر من أي شيء آخر. كان مما يسرّ أن تكون لها رفقة في السيارة؛ أشعلت سيجارتين لهما والطريق المغبر الذي يهبط نزولاً عبر الجبال سرعان ما صار محجوباً. حتى الآن لم يكن قد لاحظها

Twitter: @alqareah

بالمرة، شعر دائماً بالأسف إلى حد ما لأجل الفتاة التي تتداخل حياتها مع حيوات الآخرين لكنها كانت بلا مركز لذاتها. إلا أنها بدت مثل إحدى الراكبات مجاناً اللواتي يدعن العالم يحملهن، اللواتي يتآلفن مع أي شخص بعدم امتلاكهن لأي بيت، الآمنات في عدم امتلاكهن أية متعة، الأنيسات في عدم امتلاكهن أي ارتباط خاص. من الممكن أن تكون قد أشارت له للوقوف على الطريق، لمجرد الركوب.
ترك السيارة في أقرب ظل استطاع أن يجده في معمل الأسماك، فالأشجار بين البنايتين والرصيف الخشن كانت قد قُطعت والتراب كان مليئاً بأحشاء السمك المسحوق بالأقدام التي تحوم فوقها الكلاب والذباب. رآها في الحال تسوي نفسها لتكون مرتاحة، وهي تفتح أبواب السيارة لدخول تيار من الهواء، وتعلق الراديو الصغير، والهوائي ممدود، من النافذة.

كان ثمة نزاع في معمل الأسماك نقلته الصحف في الأسبوع الماضي؛ نوع من الاستياء من تشغيل ما اصطلح على تسميتهم باسم «العمال الموسميين» ـ لم يكن ذلك واضحاً جداً. ما كان قد جاء هو لأجله هو الحصول على معلومات إضافية حول عدد الأسر ومدى المساحة التي سحبت منهم كما هو ممثّل في سجلات الرجال المستخدمين على سفن صيد الشركة، كان ثمة شيء من التناقض في مذكراته بين الحاجات التعليمية للسكان القائمة على عدد العمال الذين، بالرغم من كونهم مبعثرين، كان بالإمكان اعتبارهم محليين، وبين حجم هؤلاء السكان ـ الذي قد يكون أقل كثيراً، لو كان العمال بالفعل ينحدرون إلى حد كبير من الجاليات الواقعة أبعد كثيراً من البحيرة، والذين تركوا وحداتهم العائلية وراءهم. كان ناس البحيرة يمتلكون تراثاً نزوحياً يعود في تاريخه إلى ما قبل إعادة الاستيطان الاستعماري. كانوا يذهبون حيث تكون التجارة، حيث يسرح السمك. من الصعب أحياناً أن تعرف إلى أية جالية ينتمون. لأنهم أنفسهم، خلافاً للجاليات الأخرى التي كانت أرض موطنها معرَّفة مرتين، مرة عن طريق التراث القبلي، ومرة أخرى عن طريق نظام المقاطعات الكولونيالي، كانوا ينتمون، كما يقولون «إلى الماء»، إلى حقل لم يروا أبداً طرفه الأبعد، الذي يمتد بعيداً إلى أصقاع أخرى من أفريقيا.

كان لقطاع منشأة التبريد جو معرض الجثث، رجال بمآزر مطاطية يشطفون بالخراطيم الأرضيات الخرسانية، والمذكرات المفاجئة للدم والأحشاء التي لا يمكن لأية إجراءات صحية أن تتخلص منها نهائياً. رأى المدير الأبيض لدقيقة، رجلاً ذا تجاعيد وبثور ومحمراً من عمر قضاه في أعمال كهذا العمل القذر، لكن الروتيني مثل

Twitter: @alqareah

مكتب في المدينة، في البرية، في الشمس. أحيل إلى رجل ملون رمادي العينين يحفظ نصوص ترقية في مكتبه. لم تكن السجلات مقنعة جداً؛ سأل براي إن كان بمقدوره أن يتحدث إلى أحد مدراء الورش ـ فسجلات النقابة قد تكون ذات فائدة أكبر. أصبح الموظف مشوشاً فترك الغرفة ـ «لدقيقة فقط، أي؟».

عاد بالوجه الهادىء لمرؤوس تجاوز صلاحيات المسؤولية:

ـ «المدير يقول إننا لا نعرف إن كان حاضراً اليوم، فهم لا يعملون يوم السبت، إلا إذا كان عملاً إضافياً».

كان براي قد رأى بعض الناس يعملون: «نعم، البعض يعمل عملاً إضافياً هذا الصباح، لكني لا أعرف...»

صار قلقاً مرة أخرى، أنزله الموظف إلى طابق التنظيف والتغليف. يبدو أنه قد انتابه الشعور اليائس بأن براي سوف يسرّح الرجل في الحال؛ في الحقيقة، وقف أحد ناظري القسم، وهو رجل كبير شديد السواد يقف بالحذاء المطاطي المغمور بالماء حيث تتم إزالة قشور السمك، ونظر إلى الأعلى بشكل حذر والتقط نظرة الموظف. جاء بواقعية رجل معتاد على الاستدعاء. قدم براي نفسه فقال الرجل بذكاء شبه عسكري: «صباح الخير يا سيدي!».

إلياس روباديري. لكنه لم يكن بمقدوره أن يصافح لأن يديه مبللتان كما الأسماك نفسها. كانت القشور تلمع عليه كله، وقد علقت حتى بشاربيه، مثل البريقات على نبتون كرنفالي. خرجا إلى ممر مفتوح لكي يتمشيا، أوه، نعم، كان ثمة سجلات نقابة. لكن الرجل الذي يحتفظ بها لم يكن حاضراً. بحثوا عنها، أين؟ في بيته، بيت ذاك الرجل. هل يمكن للمرء أن يذهب لرؤيتها، إذاً؟

جفت القشور سريعاً في الهواء الطلق، فصار يفركها عن يديه، وينفضها.

ـ «هنا لا يوجد...».

كان ثمة ذاك التوقف الأفريقي في الكلام الذي يسبق في الغالب شرحاً أكثر دقة. تحول براي إلى حميمية غالا، فقال الناظر: «أنت تعرف، في ذلك اليوم... لقد أصيب في الرأس».

ثم بدأا يتحدثان. كان روباديري واحداً من أولئك الرجال أنصاف المتعلمين ذوي الذكاء الحاد، الذين هم على تماس مع البيض، لكنه مع ذلك واثق من نفسه، وقادر على اتخاذ موقف اعتباطي إزاء ناسه الذي يبدون في السلطة مسيطرين على كامل المكان بعد تحقيق الاستقلال. لقد ظل حزب استقلال الشعب حياً بفضل هؤلاء

Twitter: @alqareah

الأشخاص، أما الآن فإن دفء المجمرة القديمة للتكافل ـ حيث أن كل ما كان موجوداً سوف يتجمع حوله ـ قد تم استبداله بالفرن العالي للسلطة. لم يكن ثمة معنى في النزاع ـ تلك كانت الكيفية التي قدمه بها إلى براي. الرجال والنساء المسنون الذين يستخدمهم معمل «تجفيف السمك».

ـ «أولئك العكازات في الرمل مع قليل من الأسماك ـ سترى في الخارج هناك ـ لم يكونوا قادرين على القيام بأي عمل آخر. فهم لا يلتزمون بساعات عمل منتظمة، يمرضون يوماً، ولا يبدأون إلا بعد ظهر اليوم التالي، إنهم يعانون من آلام في الساقين». ضحك بتسامح.

ـ «إن ذلك يقدم لهم شيئاً ليفعلوه، المال مقابل التبغ».

بالطبع، الشركة تملك تجفيف السمك، فقد كانت موجودة، إنه امتياز خاص صغير انتزعوه مع بعض القوارب واستخدام مرحلة الرسو على اليابسة عندما يقلع المعمل. كان ينتج بضعة آلاف من أكياس السمك المجفف في العام، حيث يذهب إلى المناجم، لكن هذا الطلب كان يتضاءل لأنه حتى بعد الاستقلال تخلت المناجم تقريباً عن اليد العاملة المهاجرة. والعمال الذين يعيشون مع عائلاتهم لم يكونوا يتلقون جرايات مثلما يُمنح عمال المجمعات. بالنسبة لبقية السوق، كانت شركة تجفيف السمك ومعمل وجبات السمك في غالا، كما يجب على براي أن يعرف، حيث تقوم الآلات بكل شيء. لذلك فإن هؤلاء الناس هنا ـ أشارت يده إليهم بعيداً ـ «الشركة تسمح لهم بالإقامة فحسب». لم تعترف بهم النقابة التي تشكلت عندما أقلع المعمل.

عندما بدأ يتحدث حول «مشكلة» الأسبوع السابق اتخذ مظهراً حازماً، مظهر رجل صرّح بكل ذلك أمام اجتماع، كرره، ربما، مرات عديدة، باستبعاد متصلب لأي شك أو تفسير بديل.

ـ «الآن يأتي بعض الناس ويقولون، مجففو السمك يعملون هنا، إنهم يعملون لصالح الشركة نفسها، لماذا لا يكونون في النقابة؟ يقولون إنهم يتقاضون راتباً ضئيلاً، إنه سيء بالنسبة لنا لو أن أحداً قَبِلَ العمل بأجر متدن جداً. كيف نعرف، إذا كان ثمة مشكلة، إذا أضربنا ذات يوم، أنهم لن يُجلبوا ليقوموا بعملنا؟».

رفع شفته متهكماً وزفر، كما لو أن ذلك لا يستحق ضحكة: «بالطبع إنهم يعرفون، في الوقت نفسه، أن كل هذا هراء. كيف يمكن للنساء والرجال المسنين أن يقوموا بعملنا؟ كل ما بمقدورهم أن يفعلوه هو شطف الأرضيات! إنهم لا يفهمون التغليف ولا آلات منشأة التبريد».

Twitter: @alqareah

- «لماذا ينزعج هؤلاء الآخرون بشأنهم، إذاً»
- «لماذا؟ يا سيدي، سأحكي لك. هؤلاء هم الناس الذين يقولون إنهم حزب استقلال الشعب، لكنهم ليسوا حزب استقلال الشعب. يريدون أن يخلقوا الاضطرابات هنا. أنا أعرفهم. يريدون المشاكل فقط».
- «أليسوا شعب البحيرة؟»

بدا فظاً إذ قال: «إنهم من هنا، ولكن لديهم أصدقاء هناك...».

طعن إصبعاً في الهواء.

- «في المصنع في غالا، هناك في المدينة ـ أنا أعرف».

قال براي: «لذلك حدث شجار... ».

- «مشكلة، مشكلة، في الاجتماع. البعض من ناسنا يريد طردهم من النقابة. فحدث عراك بعدئذ.... مشكلة...»
- «وأنت... هل تريد طردهم؟»

ابتسم لبراي من تحت شاربه الأشعث، ابتسامة محترفة.

- «حزب استقلال الشعب لا يحتاج لمن يخبره بأن يهتم بالعمال هنا. عليهم أن يغيروا أفكارهم وأن يروا الرأي الصائب».

تحدث براي إليه لفترة أطول، مستفسراً عن بعض المعلومات المفيدة حول أصول عمال الترولة والمعمل؛ فقد تبين أن زوجة وعائلة روباديري نفسه لم تكونا في المنطقة المجاورة، بل في إحدى القرى البعيدة في أعلى البحيرة.

أدرك براي أنه قد ترك الفتاة جالسة في السيارة لمدة ساعة تقريباً. لكنه عندما اكتشف رفوف تجفيف السمك التي تبدو مثل محصول زراعي مكدس تحت الشمس بعيداً فوق الطرف البعيد من حاجز الماء، صعد بسرعة ليلقي نظرة. صحيح أنه كان أكثر شبهاً بمشروع لصيادي سمك محليين منه بجزء من نشاطات شركة بيضاء، ضخمة. إنه أكبر قليلاً ـ إنما ليس أكثر إتقاناً ـ من أي تجهيزات تجفيف سمك مصنوعة محلياً تراها حيثما توجد أكواخ، عندما تصعد شاطئ البحيرة. فالرفوف العادية المصنوعة من القصب والمعصوبة بالعشب، عليها فرخ النيل والسمك البني المشقوقان المجعدان المتيبسان كالجلود، المائلان إلى الصفرة، والمكسوان بقشرة من الملح وتفوح منهما رائحة قوية. كانت الأرض جرداء، حافة البحيرة مغطاة بعلب الصفيح والفضلات المبعثرة، وبالتأكيد لا أحد يعمل. لكنه بالطبع كان يوم سبت. الأطفال العراة والكلاب الباحثة عن الطعام في الجوار، عندئذ لاحظ أن سلسلة من

Twitter: @alqareah

المهجورة تحت سقف صفيحي متعفن لم تكن سقيفات تخزين بالمرة، بالرغم من أنها كانت تنتن مثلها، بل كانت مسكونة. لم يكن ثمة نوافذ، لم يكن ثمة سوى الفتحات المظلمة للأبواب. كانت الوجوه تلوح في الظلام؛ الآن رأى أن ما كان يحسبه زبالة ملقاة في الجوار إنما كان الممتلكات المنزلية لهؤلاء الناس. هذه لم تكن أواني تقليدية، من الفخار أو الخشب، وليست أواني تُشرى من المخازن أيضاً، ليست سوى النوع نفسه من الحطام المزبد على حافة البحيرة، موضوعاً قيد الاستعمال، كما لو أن هؤلاء الناس يعتاشون من الوسخ المطروح من قبل جماعة كانت قبلئذ متواضعة كفاية في حد ذاتها، تستخدم أرخص وأردأ سلع الإنسان الأبيض. لم يكن ثمة أبواب مؤدية إلى السقيفات. شعر بالعار من السير صعوداً والتحديق إلى الناس، لكنه مر سريعاً، على بعد أقدام، بالرهبة الخصوصية التي تحدثها رؤية الانحطاط المذعن لدى المتخمين. كان العجائز المصابون بالملاريا يستلقون في الجوار على الأرض خارجاً، السيقان ممدودة كما لو أنها تتخذ وضعية لأجل دفن تقليدي. التكشيرات المبهمة من الشيخوخة أو سوء التغذية عبرت عن شكرها له من تلك الفتحات السوداء للأبواب التي تنفتح مثل أفواه كريهة، رأى أنه لا توجد ممتلكات بالداخل، لا يوجد سوى بشر، هامدين، منبطحين، دبوا إلى الداخل هرباً من الشمس. أطلت فتاة تسير متمايلة تمايل ردف مخلوع ولادياً، بالنظرة الغاضبة للأعرج التي تتأتى من الجهد وليس من المزاج السيء، وتظاهرت بأنها توقعت شحاذاً. تطلعت عجوز شمطاء إلى الأعلى بشكل ينم عن ولع بالحديث لكنها وجدت في ذلك جهداً أكثر من اللازم للتكلم.

عاد يتمشى حول منشأة التبريد إلى السيارة وقال لريبيكا:

«تعالي إلى هنا لدقيقة. أريد أن أريك شيئاً».

سارا مسرعين. خضعت له مع ذلك بفضول وهي تحدق إليه.

- «يا مسيح، ما هذه الرائحة... ».

مرا بالرفوف. أخذها من ذراعها وقادها على طول خط السقيفات. بدا أن قبضته تمنعها من الكلام. قالت:

- «لكنه مرعب».

- «كان عليّ أن أُريك».

Twitter: @alqareah

تكلما همساً، دون أن يلتفت أحدهما إلى الآخر. البنت العرجاء، الحيزبون، الأطفال الساكنون، كلهم كانوا يراقبونهما وهما يمضيان. وهما عائدان عند السيارة طفقت تسأل:

ـ «لماذا يفعل شخص ما شيئاً ما بشأنهم؟ من يكونون؟»

أومأ برأسه وقال: «أردت فقط أن أتأكد من أنني لم أكن مبالغاً بشكل ما. أعني، هذا البلد لا يزال فقيراً. الحياة في القرى ليست بتلك الحياة الوردية».

ـ "أما هذا! في القرى القبلية قد لا يمتلكون الأشياء التي يمتلكونها في المدينة، لكنهم يمتلكون أشياءهم الخاصة بهم. بإمكانك أن ترى أنهم يعيشون. في ذاك المكان لا يملكون شيئاً، يا براي، لا شيء. لا توجد حاجيات ضرورية لأي نوع من الحياة".

«هذا بالضبط ما صدمني. إنهم مجردون، بشكل ما».

ـ «كيف يبقون أحياءً بالمرة؟».

ـ « إنهم مجففو أسماك».

بدأ يحكي لها القصة فيما كانا يسوقان السيارة مبتعدين ويخلّفان المكان وراءهما.

أخيراً، قال: "حسناً ـ دعينا نجد مكاناً ما نأكل فيه".

وأبطأ السيارة للتأمل. فأطلقت رعدة صغيرة.

ـ «مكاناً جميلاً».

ـ«أين كنا في ذاك اليوم؟»

ـ «أوه، جميل»

ولكنه عندما توقف على امتداد سكة شاطئ البحيرة واستعد للنزول، بدت مرتابة.

ـ «أليس هذا هو المكان؟».

قالت: « ظننتك تقصد الجزيرة ».

ـ «كل الطرق تنتهي إلى الجزيرة؟».

ـ « لا بأس، هذا جميل...».

ـ «حسناً، إذا لم تكوني مستعجلة للعودة، فأنا بالتأكيد لست كذلك... انتظري.. دعينا نرَ إن كان بإمكاني أن أجد قارباً...».

ظلت محتجة، لكنها لم تستطع إخفاء أملها. كان ثمة زورقان شجريان مرقّعان كثيراً بالصفيح، تم سحبهما بين القصب. كان صياد سمك يرفع شبكه. حدث تبادل قصير للتحيات البهيجة بلغة الغالا ثم ترك لهما اختيار المركب. أخذا الزورق الذي

Twitter: @alqareah

يبدو أنه يبحر بأقل قدر من الماء، وكان له مجدافان هذه المرة. كان تقدمهما شارداً، لكنها صممت على القيام بدورها، متوهجة ومنكرة لذاتها بطريقة غير معتادة لدى امرأة جذابة. فعندما يتجاوزن سن الرابعة عشر لا يفتقرن أبداً إلى الوعي العصبي لما يجب عليهن أن يظهرن: لقد شاهد ذلك لدى بناته.

كانت على حق. فالجزيرة والشاطئ يستحقان العناء. كانت تحب التملك بتلذذ:

- «هل سبق لك أن رأيت مثل هذا الرمل النقي؟ انظر - مسند ظهر، ويمكنك أن تواجه الماء....».

سبحا أولاً، وقد خلعا ثيابهما ثم أعادا ارتداءها بدون تواضع زائف، كل واحد منهما لا يتطلع في اتجاه الآخر. ثم قام بفلش غداء كاليمو:

- «تناولي واحدة من البيضات التي بداخلها سمكات صغيرة، هلمي...»

أكلا بشراهة وشربا النبيذ الأحمر الدافئ. كانت سمينة الفخذين أكثر مما ينبغي بالنسبة للسروال العتيق، الآن، وقد أكلتْ، صار منفوخاً كالطبل إلى ما فوق البطن، أيضاً. ما الذي يعنيه المرء بفتاة «جذابة». إذاً؟ هل كان وجهها مليحاً؟ لقد كان وجهاً مربعاً، أسمر البشرة متورد اللون، وهو لم يكن يحب مثل هذه الفكوك العريضة، عندما تصبح في منتصف العمر ستكون وسيمة وذات لغد. لها جبهة وسيمة، في المنظر الجانبي، تحت الشعر الأسود السابل - شعرها شديد السواد. وبالطبع، لها عينان جميلتان، عينا لبوة، صفراوان. لا، «جذابة» تعني تماماً أن قوة الجذب لا علاقة لها بمواطن الجمال ومواطن القبح، التنافرات والتناظرات القائمة معاً لدى المرأة الواحدة. لم تكن تستعمل أي عطر، لكن المنظر الدافئ للكوب الصغير الذي تشكله عظام قاعدة عنقها الممتلئ يجعلك تريد دفن وجهك هناك حيث يبدو أن الجسد ينشر عبيره، وهو يدخن بشكل واهن بالحياة.

استلقيا على الرمل، جنباً إلى جنب؛ أخذت إحدى سجائره، وكانت تستمتع بها. من حين لآخر، ولكي تطرح سؤالاً أو تثير نقطة؛ كانت ترفع نفسها جانبيا على مرفق واحد ويدها مقحمة في شعرها المفلوش، فيما نصف اليد الأخرى تحت جسمها، حاجبة نهديها معاً بقبة قميصها. أياً كانت، فهي لم تكن مغناجاً.

- «كم هي مدة عقدك - مع أليك؟».

- «ثمانية عشر شهراً...».

- «وبعد ذلك - هل ستعودين؟».

Twitter: @alqareah

قالت: «إلى أين؟».

كان يفكر بالعاصمة، فقد كان من عادته أن يفكر بقاعدة ما.

- «لا أعرف ماذا سيحصل. ربما سنذهب إلى جنوب إفريقية. بسبب كابورا باسًا».

- «إنه في موزامبيق، على بعد أميال من أي مكان».

- «لكنه سيعمل لأجل الجنوب - أفريقيين. سيدفع له بعملة جنوب أفريقية. ولكن ربما سأجدد - ثمانية عشر شهراً أخرى هنا. سنرى. على أي حال أريد أن أضع آلان وسوزي في مدرسة داخلية».

- «ولكن ليس في جنوب أفريقية».

- «حسناً، نعم. لا تخطر على بالي فكرة روديسية. ولا يمكنهما البقاء هنا مدة أطول كثيراً...».

كانت قلقة لئلا تؤذي مشاعره - إذ تفهم كل الانشغالات باللغة الشخصية بالإيحاء بأن خططه الكبيرة لأجل التعليم في الريف ليست جيدة بما يكفي.

- «إنه هكذا تماماً، مع المدارس المستكملة حديثاً، لقد هبط المستوى مثل الجحيم، وأنت تعرف، لا يمكن للمرء أن يدع أطفاله يخرجون من المدرسة غير مؤهلين».

- «بالطبع. في الوقت الحالي - الأطفال الأفارقة هم وحدهم المستفيدون، في حين أن الأطفال البيض هم المتضررون. لكن ألم تفكري بالفعل بإرسالهم إلى جنوب أفريقية؟».

قالت مرة أخرى: «أوه، لا أدري، يقولون إن المدارس جيدة».

فهم أنها كانت تفكر بالمال، ثمة فرصة لجني المال في جنوب أفريقية لكي تدفع نفقاتهما. تحت السطح، كانت حياتها مفصلة على حاجات أساسية كهذه، تجعل الكماليات خارج الشكوى، كما هو الحال مع المشاعر. لكنه قال بلطف:

«ها أنتم جميعاً تعيشون بسعادة مع آل تلومي. وسوف ترسلينهما إلى هناك لكي يتربّيا على الطريقة الاستعمارية البائدة، لكيٍ تعتبري أن بشرتهما البيضاء تضعهما فوق البشر الآخرين». ابتسمت محرجة قليلاً و متحدية.

- «حسناً، ماذا عني؟ كان ذلك يشبه الوضع في كينيا. فقط حين يكونان في المدرسة يكبران خارج ذلك، مرة أخرى».

قال: «لا يمكن لكل واحد أن يكون طبيعياً مثلك».

فتلت نفسها على مرفقها، مرة أخرى: «لا أفهم تماماً ما تعنيه بذلك».

Twitter: @alqareah

قال: «إنك تتمسكين بالواقع. لم يكن بمقدورهم أن يكيفوك مع التجريدات الاستعمارية القديمة الجيدة - الزنجي زنجي والأبيض جنتلمان انكليزي. إنك تلتزمين بشكل عنيد بالقرائن الأخرى - لا أعرف ما هي، لكنها بالتأكيد ليست قائمة على اللون...».

- «إنها جعجعة بلا طحين. إذا كان هذا هو كل ما عليك أن تقلق بشأنه». أنزلت رأسها، التفتت إلى الوراء. ربما كانت تفكر في «قرائنها الأخرى» نفسها - ما هي؟ ربما كانت غير مقتنعة بها. كان من السهل بالنسبة لها أن تحكم الضرورة حياتها ببساطة جميلة، حتى حيثما تكون مؤقتة ومشكلة. فأي محك يوجد لأجل هذا الرجل اللامرئي الذي زُوِّجت له لكنها لا تبدو أنها تعيش معه؟ والسمعة الكريمة التي تمتلكها بين أزواج المجموعة الصغيرة التي خلّفتها وراءها في العاصمة؟ شعر مرة أخرى كما لو أنهما يكونان للمرة الأولى على شاطئ الجزيرة، سوى أنها هذه المرة، هذه المرأة الشابة، كانت حاضرة كما كان هو في حالة الحضور، الهادئ والحيوي بشكل مثير للفضول، الذي لا يتوسطه ما كاناه، كلاهما، بالنسبة للناس الآخرين والأزمنة الأخرى.

كانت نسور السمك تجثم لا مبالية على شجرة يابسة في البحيرة. لو حاول أن يتبع تحديقها فوق الماء لزاغ نظره، وغاب في المدى البعيد؛ فقط كان مدى نظراتها وراء متناول العين البشرية مثلما أن بعض الأصوات تتجاوز قدرة الأذن على سماعها.

قالت: «ليس كما لو أنهما سيكونان جنوب أفريقيين أبداً».

- «إنه تناقض من تناقضات واقعيتك، أنت تعرفين. لا يمكنك أن تكوني واقعية بدون مبادئ - هذا هو بالضبط التفسير الملائم، الواقعي يقبل الأشياء كما هي، حتى لو كانت تلك الأشياء تعبر عن وضع لا واقعي، وضع زائف. أنت التي يتعين عليك أن تتجاوزي ذاك الوضع، وترفضيه بشكل غريزي حتى بوصفه وضعاً مؤقتاً، لأجل طفليك. ذاك هو التطبيق العملي للمبدأ».

غمغمت بساعديها المتصالبين: «سأتذكر ذلك».

فهم من حركة خدها نصف المحجوب أنها كانت تبتسم. نعم، كم هو ظريف أن ينصب المرء نفسه المعلم الناصح لامرأة شابة متوحدة، أن يشرحها لنفسها.

«من الأفضل أن نتحرك حالاً».

قالت، منهمكة: «وكم لا يزال أمامك من الوقت؟»

- «هذا يعود لي».

Twitter: @alqareah

- «عقدك مع نفسك».
كانت حسودة بشكل زائد...
- «ملائم جداً. سوى أنني أعرف ما هي الشروط. أو ينبغي أن أعرف».
- «إذاً، ربما كنت تعرف...»
- «هل أعرف؟».
- «أوه نعم. الناس يعرفون. نحن نعرف كل شيء عن أنفسنا. كل شيء عنها».
كانت تحك فروة رأسها وتقشر غبار الطريق المتجمع تحت أظافرها، شاردة الذهن كما لو كانت وحيدة.

فكر بشكل دفاعي، كم كانت طبيعية جداً! لطالما أحب كثيراً شدة حساسية أوليڤيا، افتقارها شبه المرعب للعادات الشخصية المقززة الصغيرة. لا يمكن لأوليڤيا أبداً أن تنام في الفراش مع شخص يمسك أنفه....

تريُّثا على الجزيرة، وعلى الشاطئ عندما استدارا ليدفعا أجرة استخدام الزورق الشجري الراشح، وهما يتمازحان مع صياد الأسماك المتقوس الساقين، بصدرته الرياضية وسرواله الممزق. بدا متفاجئاً لكونه يُدفع له أجر، بقدر ما كان معنياً بالأمر، كان مشغولاً بشبكته وهو يرحب بهما إلى زورقه في هذه الأثناء.

لكن، عندما رأى النقود في يده فلا بد أنه فكر بشيء ما يريد شراءه، لأنه نظر إلى النقود باسماً، كما لو أنه سيقول، ما فائدة ذلك بالنسبة لي؟ قال لبراي، بلغة الغالا، ألا يمكنك أن تعطيني اثنين وتسعة أخرى؟ لم يكن لدى براي (فراطة) لكن الفتاة كان لديها، فدفعا له مسرورين. هكذا بدأ مشوار العودة بعد الظهر، وكان ذلك أبطأ، مع صعود الممر بدلاً من هبوطه. خرجا إلى السافانا عندما شعر براي أن ثمة ثقبٌ في الإطار. قاما بتبديل الإطار بدون عناء كبير لكنهما لم يعودا إلى البيت إلا بعد حلول الظلام تماماً. «هذا واحد من الأوقات التي يشتهي فيها المرء مطعماً صغيراً جداً يظهر له بشكل سحري على الطريق الرئيسي، غالا».

قالت شيئاً ما حول عودتها إلى الطفلين، بأي حال؛ ولكن عندما ساقا السيارة تحت مصابيح الشارع الخافتة المتباعدة حيث يسكنان بدا أنها قد نسيت همها، فدخلت إلى البيت معه. كان كاليمو قد أشعل النار؛ كانت الغرفة القبيحة معطرة بالرائحة البخورية الرقيقة الجافة لخشب الموكوا. اشتريا زوجاً من سمك الأباميس عند البحيرة وأرادا طهوهما على رماد الخشب، لكن كاليمو حملهما بعيداً.

«لا تقليهما يا كاليمو، كرمى للسماء - إنه يُشوى ولا يُقلى».

Twitter: @alqareah

ضحكت له في محاولة منها للهيمنة:

- «إذا كنت قلقاً بشأن الأولاد...؟ هل يمكنك أن تنطلق الآن؟».

فكاليمو لن يكون مستعداً قبل ساعة إن كنت أعرفه».

مضت كما لو أنها كانت تنوي فعل ذلك، لكنه فهم أنها لن تذهب إذا لم تقل شيئاً، وعادت خلال عشر دقائق. كانت قد وضعت أحمر الشفاه وكان شعرها ممشطاً إلى الوراء، مبللاً بالماء من البحيرة. كانت هي نفسها تمتلك مظهر طفلة خارجة لتوها من الحمام: - «هل كل شيء على ما يرام؟»

- «أوه، يا ربي، نعم. إنه يتناول طعامه، في السرير، لقد عهدتُ إلى إدنا تلومي بذلك» جلبت علبة من حلوى الخطمية:

- «فيما بعد، مع القهوة ألا تحبها محمصة؟»

عندما دخل كاليمو ليمسح الطاولة نظر مستهجناً. فقد كانت تقعي أمام النار، تراقب باهتمام في حين كانت الحلويات القرمزية تنتفخ على طرف الشوكة، مغضّنة ومفحّمة قليلاً.

«ذق واحدة، يا كاليمو».

لوحت له بالشوكة، لكنه أجفل من ذلك... فالمطبخ مكان للطهي. دخنّت سيكاراً من سكائر براي. كانت الساعة العاشرة والنصف في الوقت الذي سمع فيه كاليمو يقفل باب المطبخ. كانت تسند رأسها وذراعيها على ركبتيها. مسّد شعرها بمداعبة مبتذلة تليق بالكلاب والقطط أيضاً، ونخعت رأسها تمنعاً أو استجابة، لم ينتظر لكي يفهم. أنزل فمه إلى ذاك الفنجان الصغير من العظم عند قاعدة عنقها الممتلئ وانطلق حالاً، مثل القارب الخشبي الخفيف على سطح البحيرة، على متن كينونة أخرى، ارتفاع وهبوط تنفسها، الوجيب المتعادل، الأجوف، لقلبها، الصوت الصغير الغريب الذي تصدره عندما تقوم بالبلع.

كانت تبتسم له، بحزن طفيف.

- «كم يمكنك البقاء؟».

- «بقدر ما نريد»..

بدأ يقبلها، لآخر مرة بالإضافة إلى هذه المرة، وضغط راحة كفه بشكل وقائي على بطنها والقساوة المدورة لحوضها في بنطلون الجينز الضيق القديم المهترىء. كان ذلك كله مفهوماً بينهما. جرّدها من ملابسها وأخذها إلى سريره في تلك الغرفة الذكورية الجرداء التي لم يسبق له أبداً أن تقاسمها مع امرأة؛ وهي في الوقت نفسه غرفة

Twitter: @alqareah

تلميذ وغرفة رجل عجوز وحيد، الغرفة المتروكة وراءه والغرفة في مكان ما أمامه في حياته. لكن السرير الضيق كان ممتلئاً مرة أخرى، وكان هو ممتلئاً مرة أخرى، وكان ذلك كله هناك، الجسد الذي يسير مهتزاً إلى الماء، الساقان الكبيرتان ترتجفان، النهدان يتمايلان. هذه المرة رأى كل جزء منها تفرّج على الحلمتين تتحولان إلى رخامتين داكنتين تتكوران في يديه، وجد البشرة الرقيقة الصقيلة مع وريد يشبه جدولاً تحت الأرض يجري، حيث الشعر الناعم اللين الندي ينتهي ويبدأ ارتفاع الفخذ، قد كشف له هالة البشرة السمراء الخبازية حيث يفترق جانبا المؤخرة عن نهاية عمودها الفقري. كل هذا وغيره، قبل أن يعلق فوقها على ركبتيه فقالت بجملتها الاعتراضية ـ العملية «كل شيء على ما يرام» عارفة كيف تعتني بنفسها، واثقة من أنها لا تسبب أية مشكلة، ونهضت من تحت جسده وأخذت ذلك الشيء بأكمله، النتوء الثقيل للعضو في يديها، معبرة عن الغرابة، أعجوبة الآخرية، بين الجسدين، ثم ولج كله في كل ما أطل عليه وقذف عصارة جسده في جسدها.

كانت امرأة مفعمة بالغرور الجنسي. قالت: «كان لديك الكثير من المني». كان فمه وأنفه يستريحان في شعرها الذي تنبعث منه رائحة ماء البحيرة الفاتر الشديد الرطوبة. بين لحظة واللحظة التي تليها، كان ينام ويستيقظ مرة أخرى، تركت يده نهديها الرطبين وانزلقت، لمرة واحدة نزولاً، إلى الخندق المتشكل بفعل ارتفاع ردفيها عن قفص أضلاعها، كما تُمسُّ أوتار الغيتار برفق عندما يوضع جانباً.

أطفأ النور الآن وبدأ يتحدث في الظلام. كانت القصة القديمة، الجسد المحرَّر من عبئه يحرر العقل من عبئه. هنا تخان الثقات، تُفشى الأسرار، تسفح الدولارات. في الأسرة. كان مدركاً لذلك لكنه تحدث إليها بالكلام نفسه تماماً، حول شينزا:

ـ «تتملكني هذه الفكرة اللا معقولة أنني عندما أراه مرة أخرى ـ سأعرف».

ـ «هذا ما اعتقدته. حولك وحولي. إذا ـ إذا ـ وصل الأمر إلى ذلك مرة أخرى، فكرت، عندئذ فإنني سأعرف».

ـ «ماذا؟» قال، بشكل استفزازي. رفع عضوه رأسه المثلوم، ولكزها بلطف، مخلوقاً مضطرباً في نومه.

قالت: «ما كنا سنفعله».

قاد السيارة إلى سهل الباشي في ذاك الأسبوع. في البيت المبني على الطراز الأوربي في مجمع الزعيم مبانا، والرجل الذي يلبس الفلانيل الرمادي النظيف

Twitter: @alqareah

والحذاء الملمَّع قد تم استدعاؤه عن طريق ولد. قال إن شينزا مريض. قال براي إنه آسف، لو كان بمقدوره أن يقوم برحلة وأن يراه في بيته، إذاً.

- «لا، إنه مريض».

لكنه بالتأكيد كان نائماً لأنه كان مريضاً.

قال براي: «لو انتظرتُ برهة؟»

كان للرجل عينان مثل داخل قوقعة بلح بحر سوداء، كمداء وذات لمعة غشائية، كما لو أنهما قد فضضتا بالزئبق. بالرغم من أن وجهه كان ضامراً، والجفنين ممتلئان وأملسان.

قال: «إنه مريض».

كانت البلادة الاحتقارية التي فعلت خيراً للغاية طوال الأزمنة الاستعمارية؛ الرجل الأبيض كان من الممكن الاعتماد عليه لكي ينصرف ويتركك وشأنك: زنجي أبكم.

- «لو عرف أنني أنا الذي كنت هنا، لطلب رؤيتي».

- «إنه مريض».

عاد براي إلى السيارة ودخن واحداً من سيجاراته. كان ثمة علبة كبيرة لأجل شينزا على المقعد. لا بد أنه قد تركها لأجله؛ بأي حال، كان في طريقه عائداً إلى البيت مع السيجارات في يده عندما انتابه دافع لأن يتجنب ذلك وأن يذهب إلى الكوخ الكبير حيث شينزا والفتاة والطفل. وحدهم الأطفال كانوا في الجوار في الباحة. كان الباب مفتوحاً، وقبل أن يقرع بلطف رأى، بموجة من الألفة، الطاولة اللوحية مترعة بالجرائد والجذع مع طقم القهوة معروضاً على الجدار ـ ثم ظهرت فتاة شينزا، زوجة شينزا، تحمل الطفل شاحبة. حيته بخجل، بشكل رسمي. اعتذر؛ وكيف كان شعور شينزا؟ قالت: «أوه؟ أوه، إنه على ما يرام». وهي تتكلم فجأة بانكليزية تلميذة من تلميذات الإرسالية التبشيرية.

- «لكنني ظننت أنه مريض في الفراش؟».

وقفت ونظرت إليه للحظة، بعمق، مشدوهة، مأخوذة بحضوره كما بنور مديد. ثم مضى وأغلق الباب وراءه. كان الجو عاتماً وآمناً في الغرفة؛ القش يطقطق، ساعة منبه تتك. وهو بالكاد يقدر على رؤيتها، قال: «ماذا حدث لشينزا؟»، كان صوته عالياً جداً بالنسبة له. انحنت إلى الأمام: « لقد سافر مرة أخرى. لا تخبر أحداً».

- «عبر الحدود؟»

خافت مما فعلتْ، «أظن ذلك».

Twitter: @alqareah

قال: «لا تقلقي. سأذهب بسرعة. لو رآني أي شخص، سأقول إنك لم تدعيني أراه، تمام...».

كانت ذراعا وساقا الطفل، حيث كان مستلقياً على حضنها، تلوح مثل مجسات مخلوق قوي تحت الماء. قالت:

- «هل يجب عليّ أن أخبره بأنك قد أتيت؟»

- «إذا كنت تعتقدين أن ذلك لن يسبب لك مشكلة معه».

- «سأخبره».

أطلق الطفل زعقة فرح صغيرة. همس لها: «ابنك ولد ظريف».

وأعاد السجائر معه، وفي هذه الحالة قررتْ أن تنسى أنه قد جاء.

Twitter: @alqareah

(12)

وصل المدير الجديد للشرطة؛ رجل من المقاطعة الوسطى، لكنه من قبيلة دندي، إحدى القبائل الناطقة بلغة غالا.

قال أليك: «ملاكم سابق من الوزن المتوسط. ذات مرة خاض جولة لأجل اللقب منذ حوالي عشر سنوات، هكذا يقولون لي».

- «هل هو مصاب بأذية في المخ؟».

ضحك أليك:

- «أوه، لا، إنه على خير ما يرام هنا».

أخبرته ريبيكا: «مدير الشرطة الجديد جاء ليسأل عنك».

- «حقاً؟ ولماذا يريد أن يراني؟».

في المرة التالية كان في ألبوما، أطلت برأسها حول الباب بسرعة.

- «إنه هنا مرة أخرى».

بعد ذلك بدقائق قليلة اختلط صوت أليك مع صوت آخر في الرواق، فأدخل أليك رجلاً طويل القامة بقدر قامة براي نفسه، ذا أنف مسطح المنخرين لكنه مقوس خلفه اختلاط دم النخاسين العرب بالسكان المحليين، من المؤكد أن الأنف لم يكن مكسوراً بالرغم من أن الوجه بكامله يمتلك لا تناظر وجه الملاكم. انصرف أليك.

«سأقول للصبي أن يجلب لكم شاياً».

«أنا سعيد بمعرفة أنك هنا في هذه المقاطعة، أيها الكولونيل، إنه شرف».

«وأنت - هل أنت مسرور بمنصبك الجديد؟»

استمر تبادل المجاملات.

Twitter: @alqareah

«أوه، نعم، حسناً، إنك تعتاد على هذا التنقل. إننا لا نزال نعيد التنظيم، أنت تعرف. البلد فتي، أليس كذلك؟ حسناً، أنا أخضع للتنظيم فحسب ـ ثمة دائماً أشياء صغيرة، عندما تستلم منصباً. لكنني لا أعتقد أنني سأجد مشكلة. ستكون هناك شذوذات من الآن فصاعداً. من الآن فصاعداً كل شيء سيكون».

فرش أصابعه ونخع يديه بعيداً: «مستقيماً ـ صحيحاً». وضحك، متخلصاً من الهفوات. قال براي «لقد تناهت إليّ سمعتك الحسنة في الحلقة».

«سيكون عليّ أن أطلب منك أن تأتي وتعطينا بعض الأفكار المفيدة في المركز. إننا بصدد أن نمتلك نوادي استجمام مختلفة هناك أيضاً».

«أوه، إنه مصدر سرور، إن كان بمقدوري أن أخدم ـ عملي هذا بالفعل يستهلك مني كل الوقت ـ أنت لا تعرف أبداً متى يمكنك الاعتماد على أن تكون حراً لساعات قليلة، لمجرد أن تروح عن نفسك». إنها دماثة رجل يقطع وعوداً يعرف أنه لن يكون مطلوباً منه أن يفي بها.

وكانت الفتاة قد قالت، ربما فعل مويتا ذلك لكي يسرّك. إذ لن تكون هناك «أية شذوذات الآن»؛ هل فعل ذلك أيضاً ليسرني؟ لم يكن ثمة أي شيء آخر يمكن لرجل البوليس أن يأتي ليراني بسببه. جلس براي في الكرسي المهترئ إلى المكتب الذي لم يكن في الواقع مكتبه، وخلع نظارتيه ليفرك عينيه. يداه دفعتا البشرة إلى الوراء عن جانبي أنفه فوق عظمتي الوجنتين، ضغط إلى الأعلى الجزء المتهدل من عنقه، رفع الحاجبين خارج الإطار. شينزا كان وراء الحدود، مع أصدقاء، هناك، مرة أخرى. الزوجة قالت ذلك: مرة أخرى. شينزا يروح ويغدو عبر الحدود، وربما يعرفون ذلك. رأى الوجه المعطوب اللطيف لرجل الأمن الذي حل محل ليباليسو. ربما يعرفون، وربما لا. مويتا سوف يُحرج لأنه لم تأت أية رسالة. سيكون من البساطة للغاية أن تأخذ ورقة مزدوجة وتكتب: كنت على حق بخصوص عدم كون شينزا في البيت، إنه يذهب ويأتي عبر الحدود، تقول زوجته. قد تكون لديك بعض الأفكار حول من يقابل هناك.

كان حسير البصر جداً وكان لخلع النظارات أثر جذب العالم نحوه كما يجذب الحلزون قرنيه. كانت الخضرة خارج النافذة مبهمة. كانت عناوين الكتب المرجعية على الرف المغبر ـ الدلائل التجارية، نسخة عتيقة من معجم وبستر ـ غير مقروءة بالنسبة له. جلس في هذا العالم المقلّص بصرياً، بعناد، لا يفعل شيئاً. لكن ذهنه لم

Twitter: @alqareah

يكن بالإمكان كبحه، كان في أثر شينزا، ملاحقاً هذه النهاية الميتة وتلك، ملاحقاً ونابذاً نتف الحقيقة والافتراض.

كان قد أخبر ريبيكا أنه لم يتمكن من رؤية شينزا لأن شينزا كان مريضاً؛ كل شخص آخر كان غامضاً في أغراضه ووجهاته، بأي حال. كانت تقضي الكثير من الوقت في البيت، آنذاك. في البداية لم تكن تأتي سوى في الليل، مختفية عن آل تلومي بعد أن يأووا إلى الفراش، عبر أرض الشجيرات مع مصباحها الصغير الذي يشبه قلم الرصاص، وتتم مرافقتها إلى البيت باليد من خلال الأشجار القاتمة في الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً. كانت الليالي متلألئة بشكل أسود للغاية آنئذ، فالنجوم كلها تلتمع منخفضة معاً مثل ذيل مذنب وصراصير الليل والضفادع الشجرية قد أخرسها الهواء المبرد؛ فكان بإمكانها أن تسمع أحدها يتنفس حين تقطع سريعاً المسافة القصيرة. عندما عاد كانت النار رماداً عبقاً، الغرفة دافئة؛ كل مساء كان يستهلك ذاته، ولا يترك أي أثر باق. ثم بدأت تأتي لتأكل معه وتمكث الليل، لا تغادر إلا قبيل أن يفتح كاليمو البيت في الصباح الباكر، وقبل أن «يندفع الأولاد» إلى غرفتها فوق الطريق. أخبرته أنها ستجلس عندما يطلع الضوء مع إدنا تلومي وتشربان القهوة معاً في المطبخ. كانت إدنا تستيقظ باكراً جداً لتقوم بأعمالها البيتية قبل متابعة واجبها في المستشفى.

«ماذا يظن آل تلومي؟»

«أوه، إنهم كتومون جداً. قلت لك. إنهم لا يظنون شيئاً».

رغماً عن نفسه، تذكر الأريحية التي تحدثا بها عنها، من شخص إلى شخص، هناك في العاصمة.

«هل تعرف ماذا قالت إدنا؟»: «رغم كل شيء، أين زوجك؟ يجب أن يكون للفتاة رجل»، «كان ذلك أفريقياً للغاية».

كانت واقفة إلى طاولته، حيث يجلس مع أوراقه. سحبها، جذبها وضغط وجهه إلى بطنها من خلال فتحة تنورتها، ثم رفع كنزتها وأخرج نهديها وهما يطلقان النفَس الحار لجسدها الذي يحبسانه دائما. كانت لها طريقة في الوقوف ساكنة تماماً، بلذة صبورة، فيما تُداعب. وجد ذلك مثيراً بشكل هائل. لم يكن يظن أن جسدها جميل في البداية، لكنه عندما صار حميماً أصبح مضمخاً، شفافاً، مفعماً بالإحساس. كان لها الشكل والنسيج واللون ذاته لما يثيره.

Twitter: @alqareah

انتقلت بشكل غير ملحوظ إلى البيت الخالي مع أشغالها العادية الخاصة بها؛ فكانت ترقع الملابس المجعدة للأولاد، وهي جالسة على البساط أمام الموقد، وتكتب رسائل بخطها الكبير خط كاتب اللافتات، وتعمل أشياء لشعرها، وهي تحبس نفسها بعد ظهر أيام الأحد في غرفة حمامه. جلبت آلة الخياطة وبدأت تعيد صنع الستائر. «عندما تأتي زوجتك ستصاب بنوبة، وهي ترى هذه الأشياء الرهيبة».

كتبت أوليڤيا تقول إنها وعدت فعلاً بأن تأتي، الآن، في شهر تشرين الثاني - كانت الرسالة الخجولة لفتاة صغيرة مدللة بإفراط تعرف أنها تستغل الرغبة في امتلاك الأشياء بطريقتها الخاصة. كان تشرين الثاني بعيداً، بالنسبة لبراي. طوال الوقت كانت المفاهيم تبدو ممطوطة، أو بالأحرى، غير قابلة للتحقق. فالأسبوع التالي وتشرين الثاني هما بالقدر نفسه خارج الذهن. لم يعرف أين سيكون، في أي وقت غير الحاضر. لم يكن يعرف ماذا يعني بـ: حيث سيكون. كان ثمة فجوة متنامية بين مشاعره وأفعاله، وفي تلك الفجوة - التي لم تكن فراغاً، بل بشكل ما حالة جديدة من الكينونة، غير متوقعة، غير مولوجة أبداً، غير مشبوهة - يكمن المعنى. جلس في الغرفة نفسها مع الفتاة وكتب إلى أوليڤيا، يقول بتوبيخ رقيق، إن تشرين الثاني على وشك المجيء، لكن المثير للشفقة أنها تفتقد الشتاء، الذي قد تكون نسيت أنه جميل للغاية، في غالا. لم يكن ثمة شيء في الرسالة يلامسه. كل الحميمية السهلة التي عبرت عنها كانت غريبة. الأوراق الرقيقة المدودة مثل جلد أفعى مطروح تحتفظ بشكل تام بشكل مادة غير موجودة. طوى الرسالة ووضعها في المغلف. كانت ريبيكا تقوم ببعض الطباعة لأجله؛ كان ذلك حتمياً. نظرت إلى الأعلى، وهي تتفوه بكلمة؛ ثم ركزت، مطلقة ابتسامة باهتة سريعة. قال لها، «ادوارد شينزا كان بعيداً عندما ذهبت بالسيارة إلى باشي».

كانت تمتلك في الغالب نفحة طفيفة من الخشية عندما يبدأ بالتحدث إليها، كما لو أنها خائفة من أنها قد تسيء الفهم - حتى في السرير في الظلام أحس بذلك.

«كان عبر الحدود. ليس من الصعب جداً أن يأتي ويذهب عبر الحدود الشمالية - الغربية هناك، في الباشي. أميال من اللاشيء، السهول تمتد إلى منتصف الصحراء، لا يوجد سوى المركز الحدودي الواحد على نهر تانغا. تلك الزوجة الصغيرة، زوجته، أخبرتني تقريباً أنه كان من قبل - لا تبدو منزعجة للغاية! وجهها صار واسعاً، مشدوداً مصقولاً من التعبير.

Twitter: @alqareah

«أتساءل إذا لم يكن سومشتسي هو الذي يذهب لرؤيته. هل تتذكر شيئاً حول هذين الاثنين؟ ـ مويتا طردهما منذ شهرين لأن الرئيس العجوز بت اتهمه بالسماح لهما بإنشاء قاعدة لحرب العصابات على جانبنا من الحدود الغربية».

«وإذا كان ذاهباً لرؤيتهما؟»

أخذ نفساً متأملاً؛ كان خصره نحيلاً مثلما كان في الخامسة والعشرين ولكن مثل الكثير من الرجال العضليين من طوله، نشأ لديه كرش حجاب حاجزي ـ يمكن رفعه إلى صدره المتمدد، ولكن لم يكن ثمة تجاهل لحقيقة أنه يندلق فوق حزامه عندما ينسى ذلك. حرك الحزام.

«ثمة مقالة في إحدى الصحف الانكليزية. كما يبدو، سومشتسي ونيانزا انشقا عن بعضهما. سومشتسي هو الزعيم، الآن». أدانَ نيانزا لأجل هدر القروض وعدم الاستفادة من الظروف لأجل تعزيز خطط التحرر وهلم جرا. مهما يكن وراء ذلك، لو استطاع سومشتسي أن يرى أية فرصة للتغيير هنا، تغيير يسمح لجماعته بالعودة وتأسيس ذاتها هنا، فلماذا لا يتعين عليه أن يكون مهتماً جداً؟ أين هم الآن؟ إنهم بعيدون بعد البلد برمته عن بلدهم. لا توجد إمكانية لأية محاولة للتسلل. حيث هم، لا توجد حدود مشتركة مع بلدهم. قد يكون شينزا فرصتهم».

كل تعليقاتها كانت أنصاف أسئلة. «إذا كان فعلاً يقصد أن يثير المتاعب هنا».

«ما أفكر به هو أنه لو تقاعد شينزا لكي ينشيء أسرة أخرى لما انسل عبر الحدود إلى سومشتسي».

«ما الذي يمكنه أن يجنيه من ذلك؟»

«لا أعرف». توقف فمه عند نقطة سماعه لنفسه يقول بصوت عال، إن شينزا يمكن أن يحصل على الدعم، من خلال سومشتسي، من مصادر أخرى تحب أن ترى مويتا خارجاً؛ يمكن أن يحصل على الأسلحة، يمكن أن يشكل نوعاً من التحالف مع سومشتسي ـ شينزا! ومضة عبث. شينزا ومويتا ينتميان إلى سياق المشاحنات النارية اللفظية في لانكاستر هاوس، مع التضحيات والمعاناة التقليدية لكفاح الاستقلال مع سلطة كانت، في مقابل المستوطنين الذين يؤمنون بأنها وجدت لتمثل مصالحهم، ببساطة تختار الوقت للانفلات. كان شينزا مهيئاً لدور الرئيس، لرئيس وزراء مويتا، أفضل مما هو مهيأ للتآمر في الأدغال.

كان ثمة طرقة صغيرة، واطئة، على الباب المنخلي للشرفة. نادت ريبيكا «نعم سوزي؟». الطفلان لم يكونا يدخلان أبدا دون أن يطرقا بحذر؛ تساءل عما إذا كانت

Twitter: @alqareah

قد دربتهما، أو إذا كانا يمتلكان نوعاً ما من الرهافة الغريزية أو حتى الخوف من اكتشاف ما يفترض البالغون أنه من غير المفروض أن يعرفاه. كان صوت البنت الصغيرة مكتوماً.

«ادخلي واخبريني. لا أعرف عما تتحدثين».

دخلت الطفلة بقوة من خلال الباب واندفعت إلى أمها ببعض الشكوى من الصبيان.

«لا تعيريهم أي انتباه. إنهم سخيفون فحسب».

«سأقول لهم إنهم سخيفون فحسب».

ابتسمت ريبيكا له في إنذار يستحق اللوم. «أوه لا، لا تقولي لهم. إنه سر، فقط لأجلك ولأجلي».

هدأ سخط الطفلة عندما نادى لها وأعطاها علبة سيكار مليئة بحبات شجرة ماهوغاني جمعها لأجلها من الشجرة خارج منزل سامبسون ماليمبا «يجب على شخص ما أن يحدث الثقوب بحيث يمكنني أن أصنع عقداً».

كان مهذباً جداً ولطيفاً مع الأطفال؛ العم المثالي، مرة أخرى. «لم أجد الأداة المناسبة لإحداث الثقوب، يا سوزي، لكنني سأعملها لأجلك في مدرسة غاندي، إذا منحتني قليلاً من الوقت».

قالت الفتاة الصغيرة بثقة: «أبي يقوم بذلك لأجلي عندما يأتي».

بدا الأطفال أنهم لا يحسون بالوقت؛ فقد كانوا يتكلمون عن أبيهم كما لو كان جزءاً من حياتهم اليومية.

عندما ذهبت الطفلة جلست ويداها بين فخذيها المتباعدين، تحدق إلى الآلة الكاتبة. التفتت وقالت «ستذهب الآن مرة أخرى» وكانت تقصد إلى العاصمة، إلى مويتا.

«هذا ما لن أفعله».

«لا؟»

لم تتابع الطباعة بشكل صحيح، تلكأت في مكان ما: بدت بائسة بشكل رزين. لاحظ ذلك فحسب، دون أن يعرف سبباً بعينه؛ وأقبل ليلمسها شارداً، بلطف؛ لقد كان ثمة الكثير جداً في حياة كل منهما لم يكن الآخر فيه، ولن يستفسر عنه أبداً ـ لا بأس، فقد استطاع أن يقدم تقوية لهذه اللحظة. مسّد بسبابته عبر حاجبيها، رافعاً إياهما فوق الهدبين القويين المعقودين دائماً إلى بعضهما قليلاً، حيث يلتقي

Twitter: @alqareah

الهدب السفلي والهدب العلوي في الزوايا الخارجية للعينين، اللذين بلون الشاي، اليوم. لا أحد من طفليها كان له مثل عينيها.

قال: «سيكون مميتاً».

سار مبتعداً عنها. شعر، بشكل اتهامي تقريباً، أنه «سيكون عليك أن تكون قد عرفتني طوالي حياتي لتفهم». لكنه تابع الكلام، كما لو كان يتحدث إلى أولفيا، التي كانت ستشعر كما يشعر هو بالضبط، سوى أنه لم يكن يتحدث إلى أوليفيا مطلقاً، حتى في الرسائل. وحين كان يتكلم كان مدركاً لإحساس متنام غريب ـ مثل البرودة يزحف صاعداً من القدمين واليدين ـ بكونه وحيداً. وفي حين كان صوته الراسخ في أذنيه، فكر فجأة بالموت ـ شرودٌ وامضٌ يخترق وعيه: فالموت يشبه ذلك، الحياة تتراجع من الأطراف مثل قطعة من الورق تحترق نحو الداخل باتجاه المركز، تاركة حلقة باردة من الرماد.

«لقد فهمت تماماً ما كنت أفعله... عندما أسس شينزا ومويتا حزب استقلال الشعب فقد كان شيء ما أؤمن به. التناقض الظاهر بين إيماني وبين موقعي كموظف مدني استعماريٍ. وهذا الإيمان لم يكن في الواقع تناقضاً بالمرة، لأن التناقض بالنسبة لي كان متأصلاً في النظام الاستعماري ـ التناقض الذي كان الشيء الحي فيه، لنتكلم بشكل ديالكتيكي، عنصره المتعالي الذي سيشقه بمعارضته ويخرج المستقبل منه ـ مستقبل الاستعمار كان هزيمته وصعود الأفارقة إلى مسؤليتهم الخاصة. كنت ببساطة أتوقع نهاية عملي. أنا... هدرت طاقاتي في ما كان مطلوباً بعد ذلك، منذئذ ـ لندع جانباً كم كان ذلك جيداً أوسيئاً ـ كانت مؤسسة توقفت عن النمو. صارت راكدة. مراسلو البوما، جولات جباية الضرائب ـ كنا كثيراً من النمل الذي يتحرك دائرياً حول ميت متخشب والعلم البريطاني يخفق فوقه... ولكنني الآن أعتقد أنه ينبغي عليّ أن أتركهم وشأنهم».

كانت تجلس مستقيمة جداً، كما لو أن ما قاله شدها إلى الأعلى، ثبتها. «لماذا هو مختلف جداً؟ يجب أن تعرف ما تعتقد أنه سيكون الأفضل، أفضل حكومة، أفضل...».

«بالنسبة لهم.. تلك هي. لماذا يتعين عليّ أن أكون متأكداً من أنني أعرف؟ لماذا يتعين عليّ أن أكون واثقاً على الإطلاق؟ لقد كان مختلفاً من قبل. ذاك كان موقفي، لقد كنت فيه، لأنني كنت جزءاً من الشيء الذي كانوا يعارضونه، لأنني كان بإمكاني أن أختار تغيير علاقتي به ومعارضته بنفسي، هل تفهمين؟ الآن يتعين عليّ أن أدخل بينهما ـ حتى لو كان ذلك بقدر وزن ريشة، يؤثر على ما يحدث، بطريقة

Twitter: @alqareah

أو بأخرى ـ فإن ذلك كان سيبقى على مبدأ زعم الحق في اتخاذ القرار بالنيابة عنهم».

كانت ساخطة من أجله. «مويتا يريدك أن تقنع شينزا! ولكن إذا طلبوا منك!».

«هذا لا يغير موقفي، إذا كان مويتا يريد الاستفادة من الإغراء المقدم لي، إذا كان يناسبه أن...».

بعد لحظة قالت: «ماذا عن الأشخاص الذين يذهبون ويقاتلون في حروب شعب آخر. لمجرد أنهم يؤمنون بحق طرف من الأطراف؟. ماذا عن الشيء الذي يشبه الحرب الأهلية الإسبانية؟».

ابتسم، فرك أنفه، رفع رأسه كما لو أنه يطلب الهواء: «المسافة بين اللواء الأممي والمرتزقة في الكونغو، بيافرا...!»

بدأت تضرب على الآلة الكاتبة مرة أخرى، ببطء. كانت النقرات مترددة، تفصلها الخطوات عبر الفضاء.

«المشكلة هي، أعني ـ أنت هكذا ـ أنت فيها. أنت لا تعبأين بأي شيء آخر، أليس كذلك؟»

«أوه، الجميع «يحب» أفريقية».

«إنك تعيش في بيتك الجميل منزوياً في انكلترا كما لو أن حياتك منتهية أقصد لا شيء مرعب يحدث أبداً، أنت تقرأ ذلك كله في الصحف، تقود بعيداً عن ذلك كله في سيارتك، مثل... عجوز» ـ «كولونيل متقاعد».

كان ثمة شبه دموع في عينيها، لم تكن قد قصدت أن تقول ذلك، التأثر تغلّب عليها مثل الرغبة.

«هذا هو المكان الذي حدث كل شيء لك فيه.. دائماً».

«كان ثمة فصل الحرب».

قالت: «أنت لا تتحدث عنها أبداً».

قال: «هذه هي القارة التي حدث فيها كل شيء لك».

«أوه حسناً، لقد ولدت هنا، لا خيار [لي]».

«عزيزي الكولونيل العجوز، يحلم بالأيام التي كان فيها مشغولاً؛ بإشعال ثورة خلف البوما».

«إنك هنا. أنت تحب ذاك الرجل، تلك هي المشكلة»، قالت بنوع من الغم الهزلي.

Twitter: @alqareah

«أي رجل؟» قال، متظاهراً بأنه لا يأخذها على محمل الجد.

«حسناً، كلاهما، بسبب كل ما أعرفه. لكن مويتا، يمكنني أن أرى ذلك. لذلك كل ذاك الهراء حول التدخل وهلم جرا... أعلن هزيمته. أنت مرتبط بشخص ما، إن ذلك يستمر في تحقيق ذاته، مثل زواج، بغض النظر عما يحدث فهناك دائماً أشياء تظل تعتمد فيها على نفسك للقيام بها، لأنه رغم كل شيء توجد - ماذا تسمي وضعك. التزم به. ماذا يمكنك أن تفعل؟ ستنسى ما يقوله الناس، ما هو شكله، ماذا تفكر بنفسك. أنت ببساطة تفعل ما ينبغي عليك أن تفعله للاستمرار في العيش. لا أفهم كيف يمكن المساعدة في ذلك».

كان يحمل في ذهنه في الوقت نفسه شكوكية إزاء مفهومها «الراقي» لذلك الحب الأسمى، اللاجنسي. (بقية باقية من كاهن أنجيليكاني يلقي الموعظة في مدرسة البنات الكينية؟) بالتوازي مع وعي لكونها تُتملق... تثار؟ - في فكرتها عنه بوصفه قادراً على شيء ما كانت تراه غير عادي وحاسماً، حضور مويتا، مويتا ينهض خلف طاولة مكتبه.

«كنت ستنطلق مثل قذيفة لتخبر مويتا أن شينزا يعبر الحدود، وأن ما يحتمل أنه يفعله هناك هو إجراء اتصال مع سومتشتسي».

بالكاد انتظرته لينهي (كلامه). رأسها ممال إلى جانب واحد، شفتاها المكتنزتان الشاحبتان المغمضتان انقلبتا إلى الوراء، الخط المضغوط معاً بين حاجبيها -؟ «نعم، نعم بالطبع كنت سأفعل. إنه طبيعي!».

«أنا لا أؤمن كثيراً بذاك النوع من الحب» قال، كما لو كان يتحدث إلى ابنتها الصغيرة:

«أوه حسناً، هذا انكليزي. لا بد أن يظهر في مكان ما... هذه الفكرة لا يجب أن تكشف مشاعرك».

«صغيرتي العزيزة ريبيكا، الانكليز أصبحوا تقريباً الشعب الأكثر انفلاتاً في العالم. لم تذهبي إلى انكلترا منذ زمن طويل؛ الحب يُعترف به ويُباح به في كل مكان، كل أنواع الحب، في كل مكان. من المستحسن تماماً أن يتم الكلام حوله».

«لم يسبق لي أن كنت هناك أبداً - ولكن الأمر سيان، أنت لا تنحدر من ذلك الجيل، يا براي - آه نعم، المحرمات القديمة لا تزال عالقة بك». لقد أضاعا ما كانا يتحدثان حوله، في خضم الإثارة والضحك. وبعد أن أكلا، جثمت عند الموقد وفجأة

Twitter: @alqareah

قرأت بصوت عال من كتابها: «على الناس أن يحبوا بعضهم بعضاً دون أن يعرفوا كثيراً حول ذلك».

كان يفتش في إضبارة فرفع نظره غافلاً، لكنه كان متسامحاً. كانت تستند إلى الوراء على مرفقها وهي تراقبه. «هكذا ترى» عندئذ فهم أنها تشير إليه نفسه ـ وإلى مويتا.

هما (هو وهي) لم يسبق لهما (هو وهي) أن استعملا الكلمة، العبارة القديمة بينهما، ليس حتى كرقية، تعويذة ممارسة الحب. "ماهو الكتاب؟".

ابتسمت: «هل تتذكر يوم ذهبت إلى منشأة تبريد الأسماك؟ أخذتُه قبل أن نغادر».

أبرزت الكتاب؛ كان كتاب ألبير كامو «الطاعون» أحد الكتب ذات الأغلفة الورقية التي أعطته إياها ڤيڤيان عندما جاء ليسكن في غالا قبلئذ. كان ماضيا مشتركاً.

ما الذي أفعله بهذه الفتاة المسكينة؟ إلى من سيتم تسليمها؟ ولماذا أشارك أنا في المرحلة؟ كان يعلمها اللغة ـ لغة غالا. كان أسلوبه نوعاً من اللعب ـ لجعلها تبدأ جملة، سرداً، وإذا لم تعرف الكلمة الصحيحة لأجل ما تريد قوله، تستبدلها بأخرى، فكانت تنطلق « كنت أسير نازلة على الطريق ـ تابعت مسيري إلى أن مررت ببيت صغير مغطى بـ... «تابعي... بـ... عصيدة... » ضحكا وتجادلا، إذا لم تكن الجمل مضحكة... ببساطة، فمن الممكن أن يتحولا إلى تعليقات غريبة حول الناس المحليين، وأحياناً حولهما.

بحث عن سيكار في جيبه الصدري ومضى ليجلس في الكرسي الموريسي ذي الوسادة المكتلة بجانبها. نقلت نفسها واستندت إلى الوراء على ساقيه. قال بلغة غالا: «هل يتعين عليك أن تذهبي إلى البيت هذه الليلة؟» أجابت بشكل دقيق تماماً، وهي تبدو مسرورة من نفسها عندما خرجت الكلمات منها: «لا، الليلة أنا سوف ـ لم تقدر على إيجاد كلمة «أمكث» ـ أنام في بيت صديقتي». «وغداً؟ والبارحة؟» اختبر أزمنتها ومصطلحات القرابات التي علمها إياها على مدى الأيام القليلة الماضية. البارحة مكثت في بيت بنت عمي، غداً أنا ذاهبة إلى بيت خالي، اليوم الذي يلي ذلك سأذهب إلى بيت أخي زوجي، وفي يوم الجمعة أنا ذاهبة إلى بيت جدتي. "جيد جداً!" قال بالانكليزية، وتحول عائداً إلى لغة غالا: «وبعد ذلك هل ستعودين إلى صديقتك؟». كانت تلميذة شديدة الذكاء. تذكرت المصطلح الوحيد الذي لم تستعمله: أبلغته بلغة غالا، لا توجد كلمة عامة بمعنى «البيت»، فكان على

Twitter: @alqareah

الأولاد أن يستعملوا الكلمة بمعنى «بيت الوالدين» وكان الرجال يشيرون «إلى بيت زوجتي» والنساء يشرن إلى «بيت زوجي».

«انتظر دقيقة»... راجعت الجملة في ذهنها: «ثم أذهب إلى بيت زوجي».

فهمت ذلك بصعوبة، توقفت لحظة، مبتسمة بانتصار ـ وفجأة، بينما كان يرد الابتسامة لها ـ اجتاح وجهها تعبير غير عادي عن الحيرة ـ والوريد النازل إلى جبهتها أصبح في الواقع مضخماً بشكل ظاهر عندما نظر إليها. هذه المرة أحدثت اللعبة شيئاً لا يقال، بالعشوائية الغريبة لرسالة مهجأة عن طريق عدسة مكبرة تتحرك حول الحرف الأبجدي تحت الأصابع الخفيفة.

حاولت أن تصرف النظر عنها بالقول، بشكل لا نحوي، في التقليد المخالف للعبة: «زوجي بعيد عن البيت في الحقول». ثم قالت، بالانكليزية: «لقد تلقيت رسالة من غوردون، قد يأتي لرؤية الأولاد».

ـ «إذاً فهو قادم».

«سمعت ذلك فقط منذ أيام قليلة. أنت لا تعرف ذلك معه أبداً. سوف أصدق ذلك عندما يصل. هذا هو السبب في أنني لم أقل شيئاً. ولكن عندئذ حكت سوزي لك عصر هذا اليوم حول الدولارات».

قال: «متى؟» أما وقد اعترفت فقد تخففت من المسؤلية، وكانت مرتاحة، وشبه سعيدة.

«الأسبوع القادم. إذا فعل»، لكنه كان يعرف أنها تعرف أن الرجل قادم ـ في اليوم والتاريخ. قال: «ماذا ستفعلان؟».

قالت: «من المحتمل أنه سيمكث في فندق الفيش ايغل. في الواقع ليس لدى إدنا سرير لأجله».

ستكون قد رتبت كل شيء، رغم كل شيء، فقد خاطت الستائر لدى وصول أوليفيا.

أمضت الليلة في بيت «صديقتها». استلقت في الحمّام، جسمها مكبّر بعدسة الماء، وبينما كان يحدق إليها؛ قالت حالمة: «لا أعتقد أن أوليفيا ستعرف أبداً عني».

«لا أعتقد ذلك».

«ألن تخبرها؟».

«من غير المحتمل».

«لا أعرف. اعتقدت أنكما من نوع الأزواج الذين يحكون كل شيء».

Twitter: @alqareah

«كنا، كنا.. هل أنت قلقة بشأن غوردون؟» جلس على حافة الحمام وهو لايزال لابساً ثيابه، حلمتاها السمراوان نبقتا من الماء، وقد صارتا قاسيتين بفعل الهواء البارد، ثِقَلُ ثدييها عندما أرضعت الأطفال مط الجلد في علامة مائية مرتعشة، كان جسداً فتياً (كانت في التاسعة والعشرين فقط، عرف ذلك الآن) متأذيا مفعماً بالمعرفة» أوه يا ربي، لا». «قد يتكرم أحد ما بإخباره. أعتقد أن الجميع يعرفون. القرية بأكملها».

لم يكن قد فكر بذلك أبداً، لا بد أن يكون ذلك فضيحة، بالنسبة لكل من كان يعرفهم بين من تبقى من المحليين البيض. لو لم يرَ أحدٌ المصباح القلمي والشخصين اللذين يعبران قطعة الأرض المشجرة في الساعات الأولى من الصباح، لكان من غير المحتمل أن كاليمو لم ينقل الخبرية إلى الخدم الآخرين.

«لا أعتقد ذلك». كانت تفكر بآل تلومي الأوفياء، آل آليك؛ الناس البيض الذين لم تكن تعرفهم في الواقع إلا بصفتهم أهالي الأولاد الذين كانوا معها في المدرسة. «إنه يعيش عالمه الخاص. لا يتذكرٍ وجودنا إلا من حين إلى آخر. ستحب غوردون، سترى. إنه شخص محبوب جداً. الجميع يحبونه».

ربما كانت تتحدث عن صديق قديم، بالأحرى عن شخصية.

قال: «سوف أؤمن به عندما أراه».

"أوه، أنا أعرف".

في نزوة منها خرجت من الحمام والماء ينساب عليها، بأصابعها المبللة نزعت قميصه وسرواله وضغطت نفسها إليه، في تماس هو في آن معاً غير مريح عصبيا إنما مبهج مع ذلك.

في الصباح الباكر استيقظ بانكماش شرس من الفزع، وقد بدا ذلك لأن كاليمو عند الباب وهي لا تزال هناك. لا بد أنهما قد أفرطا في النوم. قلبه المُطبق حوّل هذه المعرفة إلى كرب آخر، متروك من اليوم السابق. فتح كاليمو الباب لكنه لم يجلب القهوة. في الحقيقة، كان الوقت أبكر من موعد القهوة، وقد جاء ليخبر براي أن ثمة شخص ما يريد رؤيته. فهم براي نصف فهم، ونسي الفتاة، وهو ينادي «كاليمو، ما هو الموضوع، قل ما تريد قوله، تعال إلى هناك» وفتحٍ كاليمو الباب ووقف مواجهاً للسرير، بعد نظرة خاطفة لا يبدو فيها أنه يرى، أيضاً، المرأة وهي تتحرك.

«موكوايي، يقول إنه أخ صديقك، هناك ـ هناك».

Twitter: @alqareah

خارج باب المطبخ، تحت أشجار الببو المتقشرة في ضوء الفجر الاصطناعي بشكل غريب، كان يقف شاب محدودب الظهر اتقاء للبرد. كان شينزا يريد رؤيته. «في محل الميجور بوكسر! هل هو هناك الآن؟»

«نعم، بإمكانك أن تخبرني في أي يوم ستأتي. وهو سيأتي إلى هناك».

راقب الرجل وهو ينصرف، كان واحداً من أولئك الأشخاص الذين يرتدون قميصاً وسروالاً ممن تلتقيهم على كافة طرقات القارة، مباشرة على بعد أميال من أي مكان، من أي مكان في الخلف، صامتين ويفترشون الأرض. كانت الشمس الحمراء ترتفع بدون دفء خلف أشجار البوبو، كما بين أصابع يد مفروشة. صدمته في العينين تماماً فالتفت بعيداً. سار حول واجهة البيت ووقف تحت التينة. إنها ذات أذرع كثيرة مثل الإله شيفا وتنتصب ساكنة، دائماً أكثر سكوناً من أي شجرة أخرى، حتى في الصباح الهادئ الصامت، لأن أوراقها كانت مبعثرة للغاية، في الشيخوخة، فلم تظهر عليها تيارات الهواء. كانت محاطة بما سقط منها، ثمار جفت دون أن تنضج فتساقطت، أوراق يابسة، دويدات، وشرانق.

خرجت الفتاة من البيت مرتدية ثيابها، نظرت مرة خلفها ثم أقبلت نحوه.

«قد أرحل، اليوم أو غداً، ليوم واحد. لا، ليس إلى العاصمة. إنه يريد التحدث إليّ - من سهل الباشي».

عندما مضت عبر العشب الخشن صُدم بمظهرها المقهور، وصاح بلطف، «ريبيكا!». فتوقفت.

«هل كل شيء على ما يرام؟»

بالطبع، كان كاليمو قد لاحقهما في الداخل؛ لا بد أنه يعرف بأي حال، ولكن كله سواء... هزت رأسها بعنف، بالطريقة التي يفعلها أطفالها أحياناً. فقط عندما صار على الطريق وردت في ذهنه فكرة أنه لم يلحظ ما إذا كان كاليمو قد أظهر أي موقف معين في سلوكه عندما قدم الفطور. كانت تبعية كاليمو التملكية إلى أوليڤيا وإليه بوصفهما الزوجين، العائلة؛ مع أنه لم يكن، حتى بمزاج الصمت، قد أكد حضور أوليڤيا في غيابها. ربما بطريقة لاشعورية حتى كاليمو كان يجد حضور براي مختلفاً، بالنسبة إليه ذاته، عما كان من قبل - فقد ظل خادماً، ولكن بالرغم من أن لا شيء تغير مادياً بالنسبة له فإن التبعية الوجدانية، بين الحاكم والمحكوم قد ولت. مع التبعية ولت حقوق التملك. أو ربما كان كاليمو أكبر سناً، ويرى أوليڤيا كجزء من الماضي.

Twitter: @alqareah

بسبب منجم خامات الحديد، أُبقي طريق الباشي حتى منزل بوكسر في حالة إصلاح مناسب. هناك كانت ورشات العمل المعتادة التي تستصلح في الفصل الجاف الحفر الترابية وبرك الماء الصيفية. ومن حين لآخر كان يستدرجه إلى التحويلة شغيل حافي القدمين يثب براية حمراء على عصا، لكنه مع ذلك كان يصل إلى المزرعة في الساعة الثانية بعد الظهر. كان مدوخاً قليلاً من كونه قد ساق السيارة كل هذه المسافة الطويلة بدون توقف. كانت طماقات بوكسر المصقولة تلمع في الشمس. «لا أعرف ماذا يريد الشيطان العجوز».

حرر نفسه في الحال من أي ارتباط مع شينزا أو أي شخص آخر.

«لكن كل شيء على ما يرام معي، لو أنك تقوم بأعمال معه. خذ وقتك. لقد جاء ليراني ذات مرة، ليقترض مالاً!»

كانت إحدى الأشياء القليلة التي يمكن أن تضحك بوكسر: فكرة وجود أي نقود حوله ليقترضها. كان يستفيد أيضاً من الفصل الجاف لتشييد بعض الأبنية الزراعية الجديدة. كان على براي أن ينظر إلى مستودع من كتل خرسانية لأنها كلها مخالفة للمواصفات.

«أشياء لعينة مأخوذة من القوالب قبل أن تجف!»

كانت الكتل تأتي من المعمل الجديد في غالا؛ كان على براي أن يحل الشكوى.

استمر بوكسر في مهمة فرز الكتل الصالحة للاستعمال، وهو ينادي «أين ذلك الولد؟ لا أعرف أين سيدي، مع أنني أعرف أنه قد وصل لأنني رأيت سيارة حميه تعبر فوق سدي ـ لكنه ترك شخصاً ما هنا لكي يترقبك».

عكس وجهه انفعالات ليست لها علاقة بما كان يقوله ـ انزعاجاً من كل دليل جديد على الاسمنت المخالف، عدم ثقة بحكم راعيين أسودين كانا يعملان تحت بصره. كان الحارس قد اختفى. «أوه، حسناً، كان عليك أن تذهب لإحضاره. يمكنك أن تذهب إلى البيت مباشرة، لا أمانع. اسكب لنفسك مشروباً أو اطلب الشاي من المطبخ».

عاد براي إلى البيت يلحق به أحد الأفغان. كانت إشارات توزيع الغرف بين مختلف وظائف المنزل أثناء إشغال سابق ـ آل بوكسر بصفتهم أسرة ـ تختفي كلياً بفعل تكريس أسلوب حياة استهلكه تماماً الانهماك بتربية الماشية التي لا تتسم بأي تنوع في الوظائف لكي يتم إعكاسه. فغرفة المعيشة التي تقع في اتجاه الحمام الذي يتذكره براي من آخر مرة، كانت تفقد ببطء خاصية تسميتها القديمة لأن قوارير

Twitter: @alqareah

اللقاحات، والنشرات حول الأعلاف، والعينات الجافة من أعشاب المراعي قد استقرت بين الطبق الملوث وكلاب ستافورد شاير، وكانت ثلاثة أزواج من الجزمات، لا تزال مكسوة بطبقة من طين الصيف، قد وجدت موطناً دائماً بشكل واضح على سجادة شيرازية حمراء ذهبية قرب الأريكة. لم يكن كل شيء موضوعاً في المكان الصحيح فقط، بل إنه لم يعد هناك أي مكان في البيت يصلح لأي شيء. فتح براي خزانة المشروبات وأخذ صفيحة من البيرة من بين زجاجات دواء نفخة الماشية. سمع صوت سيارة فأخرج صفيحة ثانية. الكلب الجميل الذي كان يبدو أنثوياً بشكل رقيق للغاية ـ نوع من شذوذ التشبه بالبشر ـ نهض برشاقة داخل أهداب فرائه ونبح بقرب براي بالباب عندما رأى رجلاً أسود يخرج من السيارة.

كان شينزا يرتدي قميصاً خليعاً يخفق فوق سرواله، وصندلاً كان عليه أن يقبض عليه بأصابع قدميه عندما يسير. ثمة شبه اختيال غرب أفريقي فيه. تجاهل صخب الكلب وصعد الدرج إلى الشرفة وغرفة المعيشة المفتوحة بنفحة من المكر الخجول الذي كان مألوفاً للحظة ـ إن ممثلي السينما، أبطال الرياضة، كانوا يصلون إلى كاميرا التلفزيون بكسل، هكذا، أطرياء من انتصار ما أو آخر. كانت السيارة أميركية عتيقة كبيرة، كل السطوح المتلقية للصدمات تلمع تحت الغبار الذي يتوضع بكثافة على نوابضها المتآكلة.

«هذا شأن كبير جداً».

كان شينزا يكشر، وهو يدخل لتحية براي.

«حسناً، في تلك الأيام كنت كريماً على سلطتك القبلية، أنت تعرف. الزعيم مبانا كان واحداً من رجالك الكبار».

«لذلك تزوجت أنت ابنة الزعيم مبانا؟».

«أنت تعرفها، لقد قابلتها!»

وضع شينزا يده على رأس الكلب، يهمهم شيئاً ما معبراً له عن إعجابه، هر الكلب وهز ذيله الأفعواني الريشي.

«نعم بالفعل لقد قابلتها، إنها فتاة ساحرة. أنت محظوظ».

«السيارة ليست بكل ذلك الوضع الجيد» ضحك شينزا، جلس بنفسه ونظر بالاهتمام المتواضع للضيف في أرجاء غرفة بوكسر، ناظراً إليها بوصفها أحد عرائس الرجال البيض والتي يجدها أحياناً حتى هو، وقد عاش في أوروبة أو أمريكا، متعذرة التفسير.

Twitter: @alqareah

«كيف حالها؟ والابن؟».

«كان لطفاً منك أن تأتي وتراها».

«لسوء الحظ أنك قد خرجت لجلب السجائر».

ومضة شينزا ـ تكشيرة من الاعتراف، القبول المتبادل ـ في الحال، حولت الجو اللارسمي إلى توتر مشحون آخر. انتظروا ريثما يسكب براي البيرة، ولكن بنفحة كونه قد نزل إلى الأرض بينهما.

«هذا لم يكن يقلقني».

تظاهر براي بالتساؤل عن الحكمة في مثل هذه الثقة.

«أعرف أنني لم يكن لدي ما أقلق بشأنه. لكنني كنت أود أن أجري حديثاً معك. أنت تعرف، أريد أن أحكي لك أشياء قليلة، أريد أن أريك». أطبق أسنانه تحت شفتيه المفترتين، يداه حول إبريق البيرة صنعتا بشكل شبه هزلي إيماءة توجيه رأس لا مرئية للتظاهر بشيء ما.

«هذا هو كل شيء. أشياء كثيرة قررناها منذ زمن طويل. ليس فقط في لندن. قبل ذلك، في البداية تماماً، ايه، هنا في البيت. ماذا حدث لكل ذلك، ايه؟ ما الذي يحدث له، يا جيمس؟»

طغى صوته على السؤال بشكل خطابي. فالتحفظ المهموم، نصف المهين الذي أهمل حضور براي عندما تحدثوا في الباشي لا يمكن أن يوجد أبداً. الآن يتم التسليم بالحميمية القديمة بالسهولة نفسها التي تعتبر بها ميتة. بإمكان شينزا أن يتنقل بين الأمثلة، والنوادر والخواطر الخصوصية دون أن يزعج نفسه بالنتيجة لأن الروابط كانت قائمة، في ذهن براي كما في ذهنه هو. اتهم، طلب، سخر ـ وهو يتكلم بالنيابة عنهما كليهما. كاييرا يجلس في بيت الزعماء ـ ذاك المجرم العجوز الذي اغتصب طفلة منذ سنوات قليلة وأخبر القاضي أن ذلك من حقه كزعيم. أولئك الرجال العجائز الجهلة ينبغي أن يجردوا من «حقوقهم»، من كل أشكال التطفل وجعلهم ينالون استحقاقهم ـ ولكن هل سمعت ذكراً لإلغاء بيت الزعماء؟ لا، سمعت فقط أن البيت سوف يوسّع بحيث يمكن لأولئك الرجال السمان ذوي البذلات الزرقاء أن يتمددوا بارتياح ـ لقد طلي، أنت تعرف. جعل ظريفاً. مويتا لا يزال يتكلم عن الحاجة لنسيان الخلافات القبلية ـ تلك هي الكيفية التي يُصاغ فيها الآن ـ لا تقول بإلغاء القبلية لأنك يمكن أن تجعل الرجال العجائز السمان يهتزون ـ لكنه طوال الوقت يقوم بتحسين بيت الزعماء. لأنهم سيجلسون هناك ـ طالما أنه في مكانه.

Twitter: @alqareah

مويتا يحب إلقاء الخطب في الوقت الذي لا يملك فيه الواحد منا سوى سروال ـ المشكلة هي، أنه لا يتذكر أننا أيضاً كنا نعرف، عندئذ، ماذا نريد. كنا سنقلب هذا البلد من القمة إلى القاعدة. صحيح؟ نقلب الشيء برمته، تماماً مثلما ترفس قبة وكر نمل، ونصنع حيوات جديدة لأجل كل أولئك الناس الذي يلوبون غير فاهمين إلى أين هم ذاهبون. صحيح، يا جيمس؟ ولكن ماهي الإشارات؟ ريجبينالد هارفي، يقول له ما لم ترتفع أسعار الذهب فإن الشركة لا يمكن أن تفكر بفتح مناجم ذات إنتاج هامشي، وهو يسلم بذلك بدون كلمة واحدة. حسناً، ليس بدون كلمة، فقد سمع هارفي الكثير من الكلام، سوى أن هارفي كان يذكر بأن الشركة يمكنها أن تحصل على عائدات أكبر بكثير عن طريق التوسع في جنوب أفريقيا، وهو يتراجع نحو الوراء ليقول كيف أنه يثمن أية خدمة تقدمها الشركة بكسب الإيرادات هنا بشكل مطلق. ولكن هل كانت تلك هي الفكرة!

أوه نعم، أنا أعرف، خلال عامين ستتم أفرقة كل العمل حتى مستوى قائد المنجم. إذاً ماذا؟ أي نوع من تحريف الحقائق هو إذا كانت الوظائف الجديدة لا تخلق في الوقت نفسه؟ إننا نعتلي كراسي البيض المغتربين ونستمر في كسب الأرباح بدلاً منهم عندما يعودون إلى «وطنهم» ليتقاعدوا؟ هل كانت تلك هي الفكرة؟ يا للمسيح، يا جيمس ما الذي كنا نتحدث عنه طوال تلك السنوات، إذا كان ذلك لأجل هذا؟ إنه يعامل الانكليز والأمريكيين مثل الزجاج ـ لأننا بحاجة إلى رأسمال أجنبي. ولكن إذا بقيتم تذهبون إلى الأماكن القديمة لأجله فإنكم ستظلون تحصلون عليه بالشروط القديمة نفسها. الولد يفترض به أن يكون قادراً على فهم ذلك. والأرباح تُحول إلى اقتصاداتهم، وليس إلى اقتصاداتنا. مشروع السكر الكبير الجديد الذي سمعنا الكثير عنه ـ ما الذي يهدف إليه؟ سيحصلون على السكر بسعر تفضيلي في حين كان بإمكاننا أن نزرع الرز بدلاً منه وأن نحصل على سعر أفضل في السوق المفتوحة. إننا نصدر خامات حديدنا بسعرهم هم ونعيد شراء فولاذهم بسعرهم. لا زلنا نبيع قطننا ونشتري قماشهم ـ التشيك عرضوا أن يرسلوا لنا المساعدة التقنية لأجل معمل النسيج، لكن القرض المتفق عليه الذي حصل عليه من اليابانيين لأجل محلجة القطن يشترط حصولهم على كامل المحصول. هكذا نعود إلى حيث كنا. نرتدي القماش الذي يصنعونه ويعيدون بيعه لنا. كان من الممكن أن نحصل كما حصل نايريري ـ على معمل نسيج بالإضافة إلى حلج قطننا، معمل نسيج أقامه الصينيون، كل الخبرة التي نحتاجها والمشروع بكامله يموّل (بقرض) معفى من الفوائد. ممّ

Twitter: @alqareah

يخاف؟ سوى أنه يلعب اللعبة مع الشيطان الذي يعرفه، ايه؟ بغض النظر عن مشروع أو مشروعين كبيرين لم يخرجا من الورق بعد، وزوج من العقود الجديدة السيئة لأجل توسيع الصناعة القائمة، مثل الصفقة مع امتيازات صيد الأسماك، شيء عديم الفائدة إن كان ثمة فائدة، لخبطة ـ بعيداً عن ذلك، ما الذي حصلنا عليه؟ ـ منشأة تعبئة الكوكاكولا ومصنع لأجل وضع الترانزستورات من ألمانيا في علب بلاستيكية ، لأن يدنا العاملة أرخص من اليد العاملة الأوربية، وهم يحصلون على ربح أكبر عندما نشتري نحن الراديوهات؟ هل نربي شعبنا فقط على أن يحتاج الأشياء التي يبيعونها؟ يا إلهي الطيب، هل نحن بصدد الانتقال من تصدير المواد الخام إلى التعبئة، التجميع فقط، وليس إلى التصنيع أبداً؟.

«إنها بداية بطيئة، نعم».

«بداية! إلى أين تتجه؟».

انتظر شينزا كما لو أنه بانتظار أن يتلاشى الصدى.

«إنها ليست البداية التي خططنا لها إطلاقاً. لقد نسي! نُسي ما الذي كان ينوي هذا البلد فعله. ما الذي وعدنا به. الوعود الكبيرة لسياسيي الأدغال. الآن دعهم يعبئون المشروبات الباردة فيما هم يبلون قمصان حريتهم».

أطلق جأرة من الضحك. قال: «أليس بمقدورك أن تجلس وتبكي» «جيمس أليس بإمكانك أن تعوي مثل كلب دموي؟».

«شينزا، أعتقد أنني بشكل طبيعي أكثر حياداً تجاه ذلك منك».

ثم، في هذا الجو الفج الذي كان شينزا قد فضحه فيما بينهما، قال بصوت عالٍ ما كان يفكر به: «لديك صراحة مرعبة... أنت تعرف...؟ ولكن ربما من السهل... ربما تتوقع بشكل سريع أكثر مما ينبغي كثيراً، لأنك لست في الغبار المثار، لم يكن عليك أن تقوم بأي شيء من ذلك. أنا أفهم ذلك في قرارة نفسي الآن وقد صرت ملتزماً بمشروع التعليم هذا. لم يكن أمام مويتا سوى أشهر قليلة».

ـ «نعم، والعشرون بالمئة من الميزانية التي كانت ستذهب إلى التعليم، كيف تبدو حتى الآن؟ إنك تقتر لعمل أي شيء، ايه؟ في هذه الأثناء بدأ ثلاثون طفلاً آخرين يكسبون عيشهم في القذارة في ما تدعى مدارسنا. وقريباً هناك خمسة عشر ألف شاب سوف يتركون المدرسة نصف متعلمين ويهيمون في المدن».

«لن يكون ذلك أكثر من اثني عشر بالمئة من الميزانية، بالتأكيد».

Twitter: @alqareah

«أشهر قليلة! جيمس، نحن نعرف أن أشهراً قليلة هي زمن طويل بالنسبة لنا. (حزب استقلال الشعب) أصبح حزباً محافظاً نموذجياً يتشبث بالسلطة الكولونيالية القديمة، الغربية التوجّه، النخبوية. إنه مثال مرجعي من كتب النصوص. ديموقراطيته يتبين أنها من النوع الذي يحمي حقوق المصالح المشتركة القديمة أكثر من حقوق أي شخص آخر. الزعماء، التنظيمات الدينية، الأقوام ما قبل الكولونيالية، المصالح الأجنبية: كل ذلك مقامرة في سبعة أشهر تظهر في أي اتجاه تسلكه. آمل أن يكون صحيحاً من البداية أو لن يكون أبداً. انظر حولك. هذه القارة، في هذا الوقت. ليس لديك السنوات والسنوات، لا تتاح لك الفرص ثانيةً».

قيل ذلك ببرود، كان حقيقة ناجزة؛ ومع أنها أيضاً خليط غريب من التهديد والقلق. في الوقت نفسه ـ مثلما أن حجته قد جرفت براي معه ـ فإن حضور براي قد أظهر لديه مسؤولية قديمة عن مويتا.

ـ «لا أوافق على أنه قد فعل سوءاً كما تظن. لكن الاتجاه العام».

كان شينزا يراقبه، وهو يستخرج سيجارة من الجيب الصدري المتهدل لقميص العطلة المصنوع من القطن الياباني، والاعتراف بالقبول الذي انتزعه من براي ـ يظهر الآن ـ نما تحت سيطرة وجهه عندما كان براي يتكلم.

ـ «الطريقة التي يسير بها، أنا أميل إلى الاتفاق مع ذلك».

أومأ براي إيماءة انصراف ذاتي فاقد الصبر، «أنا متأكد أنها ليست الطريقة التي ينبغي أن تكون بها. إذا كنتما تقصدان كل شيء ـ إذاً. يجب عليّ أن أحكم بما كان يُظهر للعيان بعدئذ. إن نوع الدولة الذي كان في ذهنك، الذي كنت أعتقد أنك كنت تضعه في ذهنك عندما» ـ خانه صوته، كما كان يفعل دائماً بشكل حساس، عندما يصل إلى تحديد دوره في صراع لم يكن يزعم أنه صراعه ـ « عندما قررت أن أسايرك ـ صحيح ـ ما كنت أنت صريحاً بشكل مطلق بشأنه هو أن المجيء إلى السلطة لن يكون مسألة إكثار للمحرَّرين. في حين أن بقية الشعب تبقى طبقة من العبيد المحررين» .

استشهد مبتسماً بعبارة من فانون «لم يُعبر عن ذلك بشكل أفضل» «إن هذا صار منسياً. وشيء آخر أخذناه من فانون: يجب عليكم تعليم الناس أن يصرخوا «أوقفوا اللص!». لا أتذكر...؟».

«فتش عنه » قال شينزا «فتش عنه».

Twitter: @alqareah

«مضى زمن طويل منذ أن قرأته. أتساءل الآن إن كان واضحاً في ذهنكم كيف تحققون ما كنا متأكدين للغاية من أنكم تريدونه. الأهداف الأقل بساطة بقيت كثيرة جداً وموضع سجال فردي بينك وبين مويتا».

- «وأنت... » قال شينزا.

- «حفنة من الآخرين، ليس حتى حفنة. لم يكن بالإمكان تجنب ذلك. كل شيء كان مسخّراً لقضية تنظيم حزب استقلال الشعب بشكل نقي وببساطة كقوة من شأنها أن تحصل على الاستقلال. كم من الناس كان من الممكن أن نتوقع أن يروا أبعد من ذلك؟ حسناً إنها قصة قديمة، لا تستحق النقاش - إحدى نتائج السياسة التي"- كان فجأة يتكلم عن نفسه كجزء من الإدارة الكولونيالية"- "أخذناها عن الأحزاب السياسية المثبطة للهمم حتى في هذا الوقت عندما تندفع كحركات جماهيرية - ومن ثم في السياق المناسب يمكن الاعتماد عليها لتصبح عنيفة بشكل قوي ويمكن أن تحظر لمصلحة القانون والنظام... لكن النتيجة كانت صنع أحزاب مثل حزب استقلال الشعب تُغفل المرحلة الحيوية لوظائفها كمدارس سياسية ومنتديات سجال ايديولجي. أو وسيلة لصياغة التوق الأعمى إلى الدخول في شيء ما من شأنه أن يصمد جيداً بعد» - كانت يده تلولب عبر الهواء - "الذروة المضادة الكبيرة لحرية الصحافة. هذا فعلاً لم يُلامس - إنها وسيلة عملية للتخلص ليس من الحياة القديمة خارج سيطرة الرجل الأبيض، بل نوعاً جديداً من الحياة التي لم توجد بعدُ. إنها لم تُلامس فحسب. سوى بيننا نحن أنفسنا. وفي خلفية أذهان حتى الناس الأكثر ذكاء وعقلانية ثمة تسميم غامض للمكاسب مرتبط برؤية نهاية الحكم الأجنبي. مكسب من نوع أو آخر... لا يتعين أن يكون تهشيم واجهات المحلات، أنت تعرف. حتى الأشياء التي لا وزن لها يمكن أن تكون مكسباً. «سوف نتسوق في الجوار عندما يحين الوقت».

«ربما» قدّم شينزا تنازل شخص غير موافق. «ربما ينبغي عليّ أن ألوم نفسي. ينبغي أن أكون قد فهمت».

«ما الذي كان بإمكانك أن تفعله، مع أشياء كالتي كانت؟»

«كان علي أن أفهم ماهيته».

أطلق براي نخرة صغيرة من الضحك. «أنا دائماً أقول الشيء نفسه، أنا دائماً أعود إلى الشيء نفسه. ينبغي أن تكونا أنتما الاثنان. لقد كنتما أنتما الاثنين. المرء لم يكن يعرف ما الذي نشأ مع من - بالطبع دائماً كنت أسلم بتأثير خبرتك النقابية. لم

Twitter: @alqareah

يكن بمقدور المرء أن يتنبأ بكيفية تطوره بعد الانشقاق. أو كيف ستتطور أنت، بهذا الخصوص».

«لقد عرفت دائماً ماذا كنا بصدد أن نفعله. لا شيء تغير إطلاقاً معي. لقد كنت كسولاً لعيناً أكثر مما ينبغي، أعتقد... صار عليك أن تسدد لنفسك رفسة في القفا في وقت من الأوقات» وضع يديه خلف رأسه، مبتسماً، وهو يجعل كلماته مبهمة بالإيماءة السهلة.

«أنت تحديداً ألا تفكر بإطلاق حزب جديد؟»

كان شينزا يهز رأسه قبل أن تخرج الكلمات. «قلت لك. حزب استقلال الشعب هو هذا البلد ـ كما يقول هو تماماً، حزب استقلال الشعب صنعه. كل شيء يجب يأتي من حزب استقلال الشعب. كان يريد حزباً منقّى، بالطبع، منزوع الأحشاء مثل امتياز صيد الأسماك اللعين. حزب استقلال الشعب هو الحزب الذي أطلقته أنا».

قال براي: «هل كان المقصود به أن يكون حزباً قائداً؟».

«لا أخفي عنك . إنك ترى ذلك كله بالضبط كما أراه، أنت لم تتغير أيضاً، إنك تمتلك بالضبط الطريقة الظريفة اللبقة نفسها في الكلام التي كانت لديك، ظريفة حقاً، تموّه... يا جيمس! ولكن لو كان عليك أن تختار بين مويتا وبين ما يحدث لهذا البلد ـ يا إلهي الطيب!».

«قال الشيء نفسه تقريباً لي».

تجاهل ذلك بجفاف، بلطف؛ ابتسم.

«مع اختلاف جوهري واحد، بالطبع، مهما كان ما يقرره هو لأجل هذا البلد لا بد أن يكون صحيحاً».

مط شينزا أصابع قدميه مثل أصابع اليدين وقبض على الزر الجلدي الذي يثبت كل صندل على حدة.

ـ «لا، لا ـ مجرد توريط. كنت سأفعل ما هو معروف بشكل عادي بوصفه «أي شيء» ـ بعبارة أخرى، شيء كان يسير ضد مزاجي ـ لأن ذلك كان من الممكن أن يساعد».

لا يزال الخادم العجوز، وهو يفرش الحصير، قال في نفسه.

«يساعد؟ ماذا؟» قال شينزا. «لتوحيد البلد إلى بعضه بالضبط تقريباً كما كان من قبل؟ للحفاظ على الوضع الراهن الذي يسميه الأوربيون استقراراً ـ استقرار

Twitter: @alqareah

استثمارات ما وراء البحار، استقرار كونك فقيراً للغاية، العيد يأتي مرة في العام عندما تفقس اليسروعات على النافذة؟ لكننا نريد عدم استقرار، يا جيمس، نريد عدم استقرار في فقر وتخلف هذا البلد، نريد الناس الذين في القمة أن يكونوا أفقر قليلاً لسنوات منذ الآن، بحيث أن الفقر الحقيقي، التقليدي الحضيضي، النوع القديم الجيد الذي «لا يتغير أبداً» في أفريقيا، يمكن إخراجه من استقراره الشهير على الأقل، أخيراً بعد طول انتظار، أن ينتشل من القذارة».

كم تطاولا ببراعة، حيين، هو وموينا.

قال براي: «يجب أن أخبرك، قد تكون لديه فكرة ما حول اجتيازك للحدود. لقد ذكر شيئاً ما ـ قبل أن أجيء لرؤيتك مرة أخرى. لم أنتبه كثيراً في حينه».

«الحدود! لا تعني شيئاً في الباشي» قال شينزا. «الناس يتجولون وراء ماعزهم، كل يوم. أنت تنسى أننا شعب واحد على طرفي الحدود».

«لو استطعت أن أتصور ما الذي تفعله هناك، من المنطقي».

كان شينزا يسحب ويبتلع الدخان بشهية مفقودة. ما إن يُشعل السيجارة حتى تظل في طرف فمه إلى أن تحرق شفتيه. قال براي «ما الذي يدور حوله كل هذا ـ سومشتسي ونيانزا؟»

«الشيء المعتاد، في المنفى».

جمدت النظرة مباشرة، كما لو لمنع ذهن براي من المغامرة بالخروج عن هذا التفسير المختار للمسألة. «لم يكونا يتقدمان بشكل جيد أكثر مما ينبغي... نيانزا كان دائماً شاباً مستهتراً تماماً، يتقاعس وينتظر الثمرة أن تسقط. عندما قال موينا اذهب، ذهب مباشرة إلى سومشتسي».

نخع ذقنه الملتحية ـ «كف عن العمل»؛ لم يخطر بباله أبداً أن يحدث لغطاً، ليدع أصدقاء قليلين يعرفون... أقصد كان بإمكانهم أن يناوروا لأجل الوقت، كان من الممكن أن تحدث استنكارات، احتجاجات إلى المفوض السامي للاجئين في الأمم المتحدة.

ضحكا بتكشيرة «متأملين الطريقة التي كانا بها يراعيان بشكل مدقق شروط الضيافة» قال براي؛ وأزاح تحفظه الخاص جانباً.

قال شينزا بشكل واقعي: «حسناً، هذا بخصوص ذلك. سومشتسي يعتقد أن نيانزا سوف يكون مرتاحاً كلما دُفع إلى الموقع التالي. سومشتسي يريد أن يستمر. لا يرى نفسه يحتضر في الفراش مع الأحفاد من حوله. بالطبع يمكن الحصول على مساعدة منه إذا أظهرت أنك تتحرك».

Twitter: @alqareah

«ليس بإمكانك فعل الكثير إذا كنت على بعد بلد بكامله».

«لا، هذا صحيح» وافق شينزا بتجرد.

«أنا أفهم ما الذي بإمكانك أن تقدمه ـ وعد ـ سومشتسي، لكنني لا أفهم تماماً ما الذي لديه يستأهل عرضه عليك». كان ثمة تفاهم، بينهما تفاهم شخصين يكذبان؛ أصابع قدمي شينزا الصفراء العارية المثنية بأظافرها السميكة غير المقصوصة؛ الصمت، سهل بشكل غريب. بجهد هائل حاول الانفلات.

«ما لم تكن تفكر في الدخول لأجل حرب العصابات».

«ومن ثم؟»

هذا ما تم استنطاقه به؛ شينزا ما كان ليقول ذلك بنفسه.

«أعتقد... كان بمقدورك أن تقدم له دعماً عبر الحدود، كان بإمكانه أن يجلب الأسلحة من الخارج، كان بإمكانكما أن تقوما بأشياء معاً. تماما كما تفعل العصابات الجنوب أفريقية والروديسية، عبر زامبيا. سوى أن ذلك بشكل أكثر نجاحاً، أعتقد. إن ذلك سيعتمد على ما إذا كنت مستعداً لاستعمال العنف».

هز شينزا رأسه، وهو يسمع درساً بالاستظهار. ثم قال: «أتمنى أن أعرف أنني أمتلك فرصة للفوز».

ربما يشير إلى اليأس من البدء بحزب جديد، ربما ـ أطلق رعدة شبه هزلية ـ لمح إلى أنه لا يستطيع أن يكسب حرب العصابات لو كان طائشاً ليبدأ حرباً.

«هل ستحضر مؤتمر الحزب؟»

«أحضر؟ إن ذلك يبدو مثل حفلة رقص».

نهض عن قاعدة العمود الفقري، مستقيم الظهر «أنا في اللجنة التنفيذية. ما زلت. سأكون موجوداً».

«برافو!» ـ كم فشل بسهولة في الوصول إلى هدفه.

«وهل ستكون هناك؟»

جاء الجواب في الوقت المناسب، بالمزاج نفسه.

«أنا عضو حزبي. أعتقد أنني لا زلت؟ ولكن بالطبع أنا لا أنتمي إلى أي وفد أعرفه».

«أوه. سينظر في ذلك. ذكّره أنت». قال شينزا بطريقة راضية جعلت براي غير مرتاح. «يا الله الطيب، لقد أردت أن أتحدث إليك، أنت تعرف، يا جيمس؟ كل

Twitter: @alqareah

شيء على ما يرام، على ما يرام، كنت أعرف أن ذلك سيكون على ما يرام. أنت لا يمكن استغفالك»

«شينزا ـ ليس لدي ـ حسناً ـ سوى أمل مجنون. حول المؤتمر. قد تكون قادراً على فعل شيء ما حول الـ ـ الاتجاه. ذاك هو المكان».

«حسناً، تعال وانظر. تعال وأعطني يداً».

لم يكن شينزا ماهراً في التودد، أطلق ضحكة مدخّن صافرة على نفسه: «تعال وكن مطروداً معي، إن ذلك سيكون مثل الأيام الخوالي».

كان الكلب قد نهض ووقف يهز رأس ذيله في مدخل الشرفة. ظهر بوكسر وهو يقترب مسبوقاً بإنذار على نحو مبالغ فيه عن طريق النخر عندما صعد الدرج، متنهداً وصفر تعجباً. كان الكلب محتاراً. تكلم بوكسر إلى الرجل الأسود الجالس في غرفة المعيشة ذات الأريحية المرتجلة الممكن إثباتها لشخص تكون أشكال حميميته، إن وجدت ، معرفة بتلك الوسيلة بوصفها شيئاً ما بعيداً جداً عن ذلك.

«إنك تزدهر، يا شينزا؟ بالطبع. كيف كان حال العشب هذا العام؟ بالطبع مللت من الماشية، أنا أعرف. لكنْ حموك يمتلك خمسمائة أو ستمائة، إيه؟ المرء لا يمكنه أن يحصر الرقم. لكن أولئك الرجال في الأسفل هناك لديهم قطعان كبيرة، على ما يرام. ما كنت لأمانع في المشاركة. هل كان ثمة الكثير من الماء الأحمر هذا العام؟ لقد كان ثمة وباء، هنا. لقد فقدت خمسة عشر أو ستة عشر من بهائمي».

شينزا لم ينهض؛ غير مبال على نحو متحد، بمعايير الرجل الأبيض؛ لكنه قام بجهد حقيقي للتحدث إلى بوكسر حول الأشياء التي تهمه. كان شينزا، بشكل غير متوقع، يعرف الكثير تماماً حول الماشية؛ كما كان يعرف حول كل شيء يشك فيه المرء لديه. موقفه نحو بوكسر ذكر براي بموقف رجل ناضج يزور بمزيج من الرقة والشفقة المتعضة قليلاً مع وعي لكونه قد بزّ المعلم حتى في فهمه. عندما انصرف شينزا في سيارة مبانا العتيقة، قال بوكسر ببراءة؛ «الآن دعونا نجلس ونتناول مشروباً. آمل من المسيح أنك لم تعطه شيئاً. إنه أكثر غروراً بكثير من أن يرد المبلغ».

«لكنني أظن أنك قد رفضت إعطاءه قرضاً».

«أنت محق تماماً فأنا قد رفضت. منذ السنوات العجاف طلب نقوداً ليبدأ العمل السياسي ـ حزبهم ـ أنت تعرف. لكن مبانا، ذاك الشيطان العجوز الآخر، ذات مرة طلب مني ثوراً، لأجل الاستيلاد ـ لا عجب أن قطيعه مزدهر للغاية. لم يرَ بنساً واحداً. سأنزل إلى هناك ذات يوم وألقي نظرة على بقراته وأقول، انظر، أيها

Twitter: @alqareah

العجوز، أنا أتعرف على بناتي في بيتك ـ أنت تعرف هذا النوع من الأشياء، هو يقدّر ذلك».

كان عليه أن يمضي إلى السهرة مع بوكسر. وحشة مديدة ليست وليدة العزلة بقدر ما هي وليدة التفكير في موضوع واحد ـ حركت الدافع الضعيف لدى الرجل. أُخرجت زجاجات النبيذ المغبشة المجلوبة من المستورد اللبناني في زيارة نادرة إلى العاصمة، وفتحت بدون تعليق (بوكسر، مثل شينزا، كان يتمتع بكياسة معينة) ولكن بإحساس المناسبة. تكلم بوكسر بشكل متواصل كالعادة بدقة نيرة وحتى بأسلوب حول التربية الحيوانية، بيئة المراعي وملاحظته الاستثنائية للشكل الغريب من الحياة الظاهرة في القراد ـ إنه وصف للحياة السفلية لصمت وصبر الطفيليات. كان متغيراً بشكل غريب: بدون قبعته! فجبهته، منتصف المسافة إلى الأعلى حيث كانت القبعة تستقر يوماً كانت بيضاء وندية المظهر، مغضنة مثل كف امرأة غسالة. العري الحقيقي ينتمي إلى أجزاء مختلفة من الجسد لدى أناس مختلفين؛ هنا حيث كان عريه، في هذا القحف المكشوف، مضيئاً عندما كان النبيذ ينزل ويحدث عرقاً. لا بأس بالقراد ـ هو نفسه بدا لبراي كشكل غريب من الحياة. أصغى براي بافتتان مثقوب، إنه الافتتان الذي جلس به ذات مرة، قبيل مفارقته انكلترا، مع أوليڤيا يتفرج على فيلم عن الفضاء، إحساسه الخاص بالحياة يقع بقوة في مكان آخر.

Twitter: @alqareah

(13)

كان يكتب إلى مويتا عندما تطلع إلى الأعلى تماماً فيما كان الفستان الأصفر الذي يعرفه بشكل جيد للغاية مقترباً عبر الشجيرات. اختفت ثم بانت مرة أخرى، مقتربة أكثر؛ فوقف لينتظر. بهذه الطريقة تماماً في بعض الأحيان، في الصباحات الباكرة أو في المساءات، يقف ساكناً لا يأتي بحركة، في حين تتحرك بصمت ظبية ربما كانت ترعى على مضمار الغولف أثناء الليل، قريباً تماماً. لكن جسده كانت له تداعياته الخاصة مع الفستان الأصفر، تداعيات قوية لكنها ليست أقل رقة. كانت تجتاحه فورة لذة لكونه سينضغط إليها في لحظة، عندما يتقابلان. ثم خرجت مسرعة إلى عشب الحديقة فانكبحت الفورة. شيء ما مختلف فيها، كما لو أنها قد أرسلت شخصاً ما آخر، باسماً، في مكانها. وحين وصلت إليه رأى، بالطبع، أن شعرها كان مرفوعاً ومعقوصاً إلى الخلف. قال: «حبيبتي، كنت آمل أنك ستلاحظين أن السيارة قد عادت، حالما تستيقظين».

عندما مد يده خلف رأسها كُبح فجأة مرة أخرى، وهذه المرة بإرادتها حين وقفت جامدة على بعد قدم منه، وكفاها مرفوعان لإسكاته أو لصده، وجهها مشرق، تآمري، موجوع، ومع ذلك كانت نصف مقهقهة. «إنهم ورائي تماماً ـ الأولاد، غوردون. جئنا لندعوك إلى المشروبات على شرفه هذه الليلة. لقد أخبرته أنني كنت أقوم بأعمال الطباعة لك على الآلة الكاتبة في المساءات. إنه شيء جيد».

تراجع جسده هامداً أولاً، قبل عقله. قال: «لماذا تجلبينه إلى هنا، يا ريبيكا؟»

«كانت تحملق فيه على نحو مشبوب، مغناجاً، مقهقهة ملتهبة. لم يسبق له أن رآها هكذا: «الأولاد، أنت... إنهم يظلون يتحدثون عنك. من الواضح أننا نجري داخلين خارجين إلى ومن بيتك طوال الوقت. سيبدو ذلك مضحكاً لو لم نأت الآن».

Twitter: @alqareah

«يا إلهي، لماذا لم تقولي متى سيأتي. كان من الممكن أن أظل بعيداً لأيام قليلة».

انسحب إلى ما كانت قد سمته صوته «الكهولي» الذي يعني، هو يعرف، بطريقتها الكريمة واللاممتعضة، أنه يضع بينهما مسافة الخلفية الاجتماعية والتعليم والضمان بدلاً من السن.

«أوه، لا تكن أبلهاً» قالت مناشدة، والدموع، كدموع الضحك، تقف حارة في عينيها.

«هذا جيد تماماً. أنت لا تعرفه. لم يظن شيئاً أبداً، فهو ليس من ذاك الصنف. إنه جذاب جداً للنساء. لا يخطر بباله أبداً أنني من الممكن أن أتطلع إلى أي شخص آخر. لقد أخبرتك. سيسافر مرة أخرى قريباً. إن ذلك على ما يرام تماماً».

وقفت هناك، تلميذة على وشك أن تقحم يدها في فمها لتكظم افتضاحاً لإحساس هستيري بالذنب أمام سلطة. كان مذهولاً منها بقدر ما كان غاضباً من نفسه لظهوره أمام نفسه بمظهر الأحمق. كان على وشك أن يقول: وما نعتقده ـ يا فتاتي العزيزة، لا يخطرن ببالك أنني لا أريد حقاً أن أقابله ـ لكن الولدين الراكضين مثل الجراء أمام الرجل انفجرا في الثرثرة، عليهما تقريباً، وسمع صوتاً داخلاً ظنه على الفور ايرلندياً باقتناع خال من الجهد ، يتحدث، يتحدث:

ـ «تلك شجرة لأجل العرزال، كليفي، الآن! هذا ما تسميه شجرة! كان بإمكانك أن تبني عرزالاً كبيراً بما يكفي لوضع سرير معسكر فيه، هناك».

«وموقد، للطبخ».

كانت الفتاة الصغيرة النحيلة تقفز صاعدة نازلة للفت الانتباه.

«سأريك ـ أنا دائماً أتسلقها!».

تسلق الولد الأصغر على الفور متجاهلاً أمه وبراي.

«ألا تقول صباح الخير لجيمس، ألا تقول صباح الخير؟».

التقطته وأمسكته وهو يصارع ليتسلق ـ «اتركيني! اتركيني، اتركيني».

ضحكت، وهي تأسره بانتقام، في حين كان يرفس وانفجر غضباً منها وعيناه السوداوان الشرستان مبللتان بالدموع.

«بيكي، كرمى لله ـ لماذا يوجد التشويه والجريمة أينما ذهبنا؟».

أنزلت الولد، وهي تضحك من الغيظ الهائل والتوبيخ. كان الصبي الصغير الذي يحاول نصف خائف أن يرفس قصبتي ساقي أمه دائماً يمتلك، الشكل التعريفي للسمات التي تظهر في الطفل شبهاً موروثاً بقوة. الآن رأى براي الوجه الذي كان

Twitter: @alqareah

موجوداً في وجه الطفل، كان الزوج مفاجئاً؛ لكن ربما سيكون هكذا كيفما تجسّد، ببساطة لأنه لم يكن قد وُجد بالنسبة لبراي إطلاقاً. كان وسيماً بشكل غير عادي بطريقة حلوة مكتملة جداً، إنه بالأحرى رجل صغير ـ لكنه، مرة أخرى، ربما كان فقط من قامة براي. خمسة أقدام وعشر بوصات أو أكثر ـ طويل بما يكفي للوقوف بشكل كافٍ لأجل ممارسة الغرور الذكوري على ريبيكا. كان يرتدي ثياباً رجالية شبابية بشكل أنيق، سروالاً ذا لون بيج مشدود بحزام على الوركين، وفولاراً مربوطاً في العنق المفتوح لقميصه. كانت ريبيكا في فستانها الأصفر وصندلها ذي الأربطة المطاطية تبدو رثة الملابس إلى جانبه. كان يرتدي خاتماً صغيراً من حجر الدم على إحدى الأصابع الصغيرة ليديه القويتين ذات اللون الزيتوني، وكان وجهه ذا لون زيتوني بشكل صقيل مع العينين السوداوين البراقتين الكبيرتين الدائمتي التحديق في الولد الصغير، والفم الطري الأحمر الباهت. كان وجه الرجل يمتلك الخط الهلاليٍ للضحك الذي يحدد تماماً نهاية الشفتين على الجانبين. شعره الداكن يصير فضياً قبل الأوان، مثل شعر ممثل مخطط لأجل التفريق. كان يقول: «أعتقد أنك معتادة على كل هذا الصخب الذي يحدثه أفراد جماعتي الذين يتشاجرون. أظن أن بيكي قد تركتهما يكبران ويصبحان شرسين قليلاً؛ إنها رقيقة أكثر مما ينبغي. نعم ـ يتعين عليّ أن أجلد مؤخرتك».

التفت بدمدمة ساخرة إلى الولد الذي زعق بضحكة، فيما الصغير لم تجف دموعه بعد.

«لكن تلك شجرة رائعة جلبتها أنت لأجل العرزال، لا أعتقد أنني سأكون قادراً على إبعاد يدي عنها، حتى لو لم يكن لدي أولاد من حولي، فأنا سأمتلك معتزلاً صغيراً لنفسي هناك في الأعلى، مصباح كهربائي، وأسحب السلم خلفي».

وكان براي الصديق الودود يقول:

«أوه أنا أصنع البديل لهذا الشيء القديم على الأرض، كما ترين».

في حين قالت ريبيكا بنفس الطريقة الملتهبة، المغناجة المبالغة التي اعتادت عليها معه، بلهجة هجومية...«غوردون، كرمى للسماء! لا تضع الفكرة في رأسيهما! على الأقل اترك براي بسلام مع شجرته، أنت لا تعرف كم يحب شجرته».

فيما استمروا جميعاً في التحدث بهذه الأريحية الودية لاحظ هفوتها ـ حتى مع كل مهارتها الظاهرة، وليدة الممارسة الطويلة. لأن استعمال المرأة لكنية الرجل على هذا النحو لايمكن أن يُخطأ فهمه على أنه مخاطبة رسمية؛ كانت حميمية محولة

Twitter: @alqareah

تنم عن شيء لا يراد الإفصاح عنه، تخرج إذا جاز القول، من تحت السرير المعمول على عجل. شعر بشيء من الرضا في لفت انتباهها.

قالت: «من الأفضل أن أترككما أنتما الاثنين، بقدر ما أحب رفقتكما. أليك بحاجة إلى سكرتيرته. لقد تأخرت حوالي نصف ساعة حتى الآن».

«اتصلي بالرفيق وقولي إنك لن تذهبي إلى العمل بعد الظهر».

أصدر الرجل الوسيم تعليماته.

«هل تريدني أن أفعل ذلك؟».

«لا، غوردون، لا أستطيع، أعطاني إجازة البارحة وغداً عطلة نهاية الأسبوع على أي حال. كل شيء سيكون مكوماً ليوم الاثنين».

هز كتفيه استهجاناً: «حسناً، لتصابي بالصداع إذاً، إذا كان عليك أن تذهبي، فاذهبي».

أمالت رأسها إلى جانب واحد: «المفاتيح؟».

رمى بمفاتيح السيارة إليها. أخفقت في التقاطها، فانحنيا لالتقاطها.

«لا عجب أن أبنائي لا يجيدون لعب الكريكيت».

ربّت على ردفها. « وبدون هراء حول العمل الإضافي أو أي شيء. هل تسمعين؟ هناك أناس قادمون الساعة السادسة. هل تسمعينني؟».

جرت، ملتفتة برأسها إلى الوراء نحوهما، وهي تهزه مثل رأس دمية متحركة. كان فخذاها يرتجفان كما كانا يفعلان يوم خرجت من الماء، على الجزيرة.

كان الولدان يتسلقان شجرة التين ويتراشقان بثمارها الذابلة، لم يتصرفا على هذا النحو من قبل أبداً، إنهما أيضاً مخلوقان صغيران خاضعان، يسيران بنظرة جانبية ويوفران شجاراتهما الشرسة وألعابهما المتبجحة إلى حين يعيشان تحت قانون خاص بهما بعيداً عن الكبار المرعبين. بالمقابل، كانت بنات براي مثل هؤلاء الأطفال الواثقين من أنفسهم رابطات الجأش بشكل مثالي في الجوار مع سكرتير كولونيالي زائر وهن، في سن التاسعة أو العاشرة، يقدمن بلباقة رأياً إلى قومي أفريقي على الغداء وهن، في سن الرابعة عشرة، مثل أمهن، كان بمقدورهن أن يتحدثن إلى أي شخص ويحتفظن بمسافتهن مع كل شخص.

وقف الزوج في الجوار بالمودة عديمة المعنى لشخص هائم بهذه الطريقة. كان يشعر بالارتياح في بارات وفنادق أفريقيا. فالرجل، نظراً لأنه لا يمكث أبداً في أي مكان لمدة طويلة، ينتحل نفحة الشخصية المألوفة في الحال أينما حل. بهذه الطريقة

Twitter: @alqareah

سيقف في الجوار ليدخل في حوار مع مالك الكاراج في قرية كونغولية بعيدة حيث (كما كان يحكي لبراي) كانت سيارته قد تعطلت، تماماً كما يفعل الآن مع الكولونيل المتوسط العمر الذي قامت زوجته ببعض الطباعة لأجله على الآلة الكاتبة. كان مجنوناً بما يكفي «لأن تكون له مصالح تجارية في الكونغو، » لكنني استمتعت، فهناك التسلية والألعاب. لقد انسحبت. لا يزال ثمة نقود يمكن جمعها هناك. قال في نفسه: لكن البلجيكيين قد عادوا إلى التحرك بشكل هائل وهم يدفعون كل شخص آخر للخروج.... الصبيان الكونغوليون العريقون سيعملون بالأحرى مع الشياطين الذين يعرفونهم بدلاً من العمل مع الشياطين أمثالي. كانوا يودون ذلك. (العجوز شينزا فهم عن قدوم مويتا مرة أخرى في سياق جديد) «أنا أعرف شاباً ـ بلجيكياً ـ عاد للمرة الرابعة. في المرة الأولى حصل على امتياز للغاز الطبيعي في الكيڤو ـ البحيرات البركانية توجد ثروة كافية هناك بانتظار أحد ما، ذات يوم، لماذا استطعت أن تعيش حتى ذاك الوقت؟ ثم كان في مناجم الماس الصناعي في الكاساي، كانوا بصدد أن ينفصلوا وكان مستعداً لتشكيل اتحاد مالي لتمويل صناعاتهم الماسية عندما يطردون اتحاد المناجم».

أطلق ابتسامته البطيئة، المتلذذة، الحادة مع أنها دنيوية بشكل فكاهي، ابتسامة الأسنان الجيدة. «لا تعرف حول ماذا كانت المرة الثالثة. الآن يعمل في مجال العملات بين لوبومباشي والحدود الزامبية. أخبرني أنه يشعر بأنه «عديم الفائدة» في أوروبة. هنا يقول إن الناس يطلبون المساعدة للحفاظ على استمرار الأشياء ـ إنهم سيأخذونها في أي اتجاه يمكنهم الحصول عليها، وهم يعرفون أنك لا تحصل عليها بدافع من طيبة قلب أحد. في حين يراقب الروس والصينيون والأميركيون كل منهم الآخر ليرى ما الذي سيعطيه، عليك أن تستمر في الحياة».

قال براي: «هل تفكر بنا بوصفنا شياطين؟».

كانت الشركة الحالية مستبعدة.

«أنت تعرف كما أعرف أنا. الرجال البيض لا يتسكعون في أفريقيا السوداء لأجل صحتهم أو صحة أحد. حيثما يظهر الفراغ، يوجد الرجال الذين لا يترددون في ملئه. الله الطيب، ينبغي عليك فقط أن تقابل بعضاً منهم بالطريقة التي أفعلها ـ أوكي هذا يكفي ـ اخرجا من تلك الشجرة الآن. امسحا الخبيصة التي عملتماها على تلك الطاولة ـ جيمس لن يدعكما أبداً تشيدان عرزالاً إن أوقعتما الأشياء على أوراقه...».

Twitter: @alqareah

كشر لوقاحته، وهو واثق دائماً من أنها سوف تلقى قبولاً جيداً، وفي الحال أخذ المبادرة مرة أخرى:

ما رأيك بذلك، وضع بيكي في ذاك النوع من المسكن، مع ذلك؟ إذا كانوا بحاجة إليها فيجب عليهم أن يجدوا لها مكاناً لتعيش فيه، إيه؟ يجب أن يكون هناك بيت في هذا المكان. وإذا لم يوجد، فيجب أن يجدوا واحداً. تلك هي الطريقة، إذا كنت تريد خدمات شخص، فيجب عليك أن تكون مستعداً لدفع ثمن هذه الخدمات. قلت لأليك بصراحة، البارحة: أنت تحتاجها، جد لها بيتاً».

«أظن أن إدنا تلومي هي مصدر عون، بطريقة ما».

كان من المستحيل أن تدلي بأي تعليق لا يكون فيه غمز سخيف، عندما يتناهى إلى أذنيه.

«أوه تلك المرأة لم تكن لتفعل شيئاً لأجل بيكي. لكن بيت القصيد هو أن البيت قاذورة. غرفتان بدون حمام خاص بها. لا يمكن السكن على هذا النحو. قلت انظر، لو كان أمامي أسبوع واحد، فأنا أراهن أنني سأجد بيتاً ـ هل حكومتك مستعدة لدفع الأجرة؟».

وقف الأولاد حول الرجل باعتزاز.

«فهمت».

أخرجت سوزي يدها الصغيرة الجافة ذات التقشرات المسودة حيث وضعت ريبيكا مزيل الثآليل على الإصبع الوسطى. كانت تحمل إسوارة مصنوعة من حبات الماهوغاني المربوطة بخيط، هزتها وهي ترفعها إلى أعلى ذراعها بإيماءة أنثوية مفاجئة.

كان الأولاد قد أزالوا الفاكهة التي رشقوها على الطاولة. نفخ عن رسالته ورقة شجرة يغطيها نسيج العنكبوت بالغبار وبصاق العناكب. كانت قد غابت تماماً من ذهنه. كانت الجماعة الصغيرة تثرثر بالطريقة التي تظهر بها ريبيكا دائماً وتختفي، من خلال الأشجار ذات الأوراق القليلة الكثافة. عادت الرسالة. طلب من مويتا ألا ينسى أن يرتب لأن يكون مدعواً إلى مؤتمر الحزب. تطرق إلى التقدم الذي تم إحرازه في مركز التعليم. "لا يمكن أن يتبين أنه يشبه نوادي الشغيلة في بريطانيا في القرن التاسع عشر. هنا في هذه الأماكن الريفية حيث يبدأ الرجال... مع أنهم بالطبع لا يسمون ذلك بامتلاك وعي جديد لأنفسهم بوصفهم شيئاً ما أكثر من وحدات من اليد العاملة، إنهم مستعدون للأخذ بأي شيء راهن: قد يأتي بفائدة

Twitter: @alqareah

ما إذا كان أحد ما يعطي دروساً في الجودو أو يشرح الطرق المختلفة للتعامل مع قانون العرض والطلب. أود أن أقترح على الفرع المحلي لحزب استقلال الشعب أنهم يمكن أن يستفيدوا من المركز بوصفه مكاناً للإرشاد السياحي العام أكثر من ذاك النوع من الهراء الصاخب الذي ينبثق عن الاجتماعات الحزبية. إنه سيساعد في كبح الجموح، أيضاً. كنت دائماً، بالأحرى، أفترض دوماً أن الذين فوق رؤوس الناس هم أعلى من الناس الذين يرشدونهم والذين من المحتمل أن يصدقوهم".

كان أسلوب وتفسير هذه الرسائل شيئاً تعلمه مع الكتابة. كان هذا الشيء يعمل من تلقاء نفسه. مدى الحياة ـ هذه الكلمة القابعة في ذهنه، كانت ترتبط بشكل مفاجئ بالإعلانات عن ساعات اليد السويسرية النفيسة : مدى الحياة. عادات مدى الحياة. شعر أنه خارج ذاك المفهوم الآمن المتراكم طبقة تلو طبقة ؛ كان مكشوفاً بشكل عار، شاحباً مثل رجل سُجن وحرم زمناً طويلاً أكثر مما ينبغي من الشمس. قدمت الفتاة نفسها وجهاً لوجه، وجهاً ـ لحقيقة معه، ملصقاً ـ رؤيا قيامة يملأ سماء عقله. كان بإمكان الفكر أن يفيض كله فوقها وحولها، فوق الابتسامة الراسخة وعينيها الصفراوين المفتوحتين تماماً وخارج الأذنين والمنخرين. جلس للحظة كما لو أنه ابتلع حبة دواء غير مألوفة وانتظر الإحساس بالدواء أن يكشف نفسه. ثم رن الهاتف في المنزل ـ كان ماليمبا يتكلم بانفعال كبير: المخارط من السويد قد وصلت. ذهب ليستعير شاحنة (التجار الهنود بشكل إلزامي مرة أخرى) سيارة البيك ـ آب لماليمبا، وجلب الآلات من محطة النقل البري.

كان التجمع في بيت آل تلومي مختلفاً عن التدافع الشارد الاعتيادي باتجاه بيت أليك أو بيت آل تلومي لمدة ساعة بعد العمل في أغلب الأحيان، عندما كان أحد أقارب إدنا أو موظف صغير مقهور، جديد على عمله المؤفرق، يجلس صامتاً، والأولاد يطوفون داخلين خارجين وهم يحملون عشاءهم في أيديهم. كان ثمة حتى وجه أو وجهان لا ينتميان (إلى المكان): مهندس هواتف كان غوردون إدوارد قد سافر معه وموظفة استقبال شقراء من فندق الفيش ايغل. كانت هي من أدخلت التنورة القصيرة حتى الفخذين إلى القرية (ثمة تخلف زمني لعام أو أكثر بين بداية الموضة في أوربة واختراقها الأدغال) لكنها جلست ضمن هذه الشلة المختلطة بذينك الفخذين الشهيرين المضغوطين إلى بعضهما بشكل أنيق مثل شفتين مزمومتين. الطبيبان هيو وسالي فريزر من مشفى الإرسالية التبشيرية كانا هناك مع فنلندي شاب جاء لتوه سيرا من غرب أفريقيا ـ حقيبته الظهرية مسنودة إلى الجدار. يرتدي

Twitter: @alqareah

قميصاً عليه صورة وجه زعيم أفريقي، مغرّى باهت اللون بفعل العرق وكثرة الغسيل، وكان أصلع قبل أوانه على اليافوخ، مثل قديس شاب في صورة دينية رخيصة. تحول سامبسون ماليمبا إلى بذلته الداكنة المفضلة لديه بعد العمل القذر في تحميل وتنزيل الآلات. أليك يرتدي جركينة جلدية بنية اللون ذات أهداب ـ هدية غوردون؛ كيف عرف تماماً ما الذي سيقبع بشكل رائع على ثديي أليك الذكوريين القويين؟ لكن ثمة انطباع بأن غوردون ادواردز اكتسب أشياء بقيت في حوزته كدلائل على ارتقاء حياته لو كان بمقدور المرء أن يقرأها: لقد حدث أن كان هنا في وقت معين، ولذلك التقط هذا، حدث أن كان هناك، ولذلك كان في الجوار عندما كان ذلك متاحاً. بالشكل التصادمي نفسه، صادف أن هذه الأشياء تلائم هذا بشكل كامل أو كانت بالضبط ما كانته.

آل أليك، آل تلومي، آل فريزر ـ كلهم قبلوا حضور براي مع غوردون إدواردز بدون إشارة. ربما تم الاتفاق على ذلك. كان ذلك مثل مؤامرة أصدقاء حميمية واقعية: لم يعرف تماماً ما إذا كان بطلاً رئيسياً أم ضحية؟ كان كل واحد مبتهجاً للغاية. أحياناً كان يشعر كما لو أنه زوج مخدوع، كانت ريبيكا ترتدي فستاناً جديداً (هدية أخرى؟) وعندما رقص معها كانت ذات المظهر الحيوي الكاذب لفتاة صغيرة. من يصدق، كما لمّحت، أن ذاك الرجل الصغير الرشيق والوسيم لم ينم معها؟ الغيرة الجسدية فجأة أضعفت ذراعيه بحيث كاد أن ينزلهما عنها. أثناء الثرثرة توقعته أن يقرأ شفتيها وهي تقول: ـ «سأحاول وأجيء باكراً ذات صباح». تمتم، «لا، لا تفعلي». برمت وجهها نصف مجروحة. قالت: «دعنا نذهب إلى البحيرة مرة أخرى. اقترح ذلك، يوم الأحد». حفلة عائلية. شعر بنفسه يبتسم، إنه العاشق الديوث: «حسناً، سأكون مضيفاً».

رقص غوردون إدواردز مرة تلو الأخرى مع البغي الطويلة القامة من فندق الفيش ايغل؛ لا بد أنه هو السبب في حضورها. ربما، إذاً، كان يقيم في الفندق رغم كل شيء؟ كان من المستحيل أن يقول لريبيكا، هل ينام في هذا البيت؟ أبله، أبله. نظر إلى نفسه متسلياً، بقسوة كما يفعل غالباً منذ أن عاد إلى هنا، حيث كل شيء ينبغي أن يكون قد امتلك الألفة المطمئنة للمُعاش مرتين، الماضي. تولّى أليك شقراء الفيش ايغل؛ يداه السوداوان الضخمتان الواثقتان أمسكتاها بلطف كما يمسك الحمامات لأطفاله؛ أبقت رموشها المزيفة نازلة على خديها، كانت قد انتقلت من ملجأ فندق المستوطنين إلى بيت آل تلومي كما لو أنها تقوم بزيارة إلى بلد أجنبي. كانت آغنس

أليك ترتدي الشعر المستعار الذي أخبرت ريبيكا براي أنها قد طلبته بالبريد وبدت مثل زنجية أمريكية مليحة. تحدثت إلى الفنلندي حول اشتياقها لزيارة مدن أوروبة، وهي تمسك رأسها كما تفعل المرأة التي ترتدي قبعة جديدة. بالنسبة له، كانت [المدن] ساحات قتال حيث الشباب يقلبون سيارات الأغنياء ويعسكرون خارجاً في المقابر المفروشة برهبة الموتى، وليست فردوساً من الحوانيت.

«أشياء جميلة؟» قال بانكليزيته الألسنية الملفوظة ببطء. «هنا تمتلكين الأشياء الجميلة ـ منظر الأشجار، الشمس المدورة، هذه الفواكه الجميلة» ـ كان يوازن على ركبتيه ثمرة منجا، يداعبها. تنازلت له بدلال لافتقاره إلى السفسطة ـ «هذا القميص؟ هل اشتريته في أفريقيا؟ من هو الرئيس أو أياً كان؟».

نظر الفنلندي شذراً إلى صدره وقال كما لو أنه يضع يداً على رأس كلب رافقه إلى كل مكان: «سيلڤانوس اوليمبيو».

«ولكن للأسف، تم اغتياله ـ إنه ميت».

التفت براي إلى آغنس، معطياً إياها الأفضلية.

قال الفنلندي لا مبالياً: «لا بأس» بلهجة تشير ضمناً إلى أنه رجل جيد بأي حال، ميتاً كان أم حياً، وفي الحقيقة أفضل من البعض الذين لا يزالون في الجوار أحياء، ربما في هذه الغرفة.

انهار تنازل آغنس [متحولاً] إلى قهقهة أنثوية داخلية أفريقية شلّتها، و بنظرة خاطفة أصابت إدنا بعدواها. هذه التسلية المتفلتة والمسالمة على حسابه، بالتوازي مع الكثير من البيرة، قد ذوّبت الشمالي، فبدأ يرقص بجموح، لكنه فضّل أن يفعل ذلك على طريقته الخاصة. كان نحيلاً للغاية بحيث أن الانحناء الوحيد في مجمل شكله كان انحناء عضوه في بنطلون الجينز المزموم.

كان موظفو الهجرة قد حجزوا أمواله على الحدود . قال براي: "هذا طبيعي تماماً، أي بلد سيفعل ذلك ـ إنه لا يحمل تذكرة عودة. عليهم أن يحموا أنفسهم في حال علقوا به هنا".

«لذلك سيكون علينا أن نبقيه على مصروف الجيب في هذه الأثناء».

تأمله آل فريزر، بشكل معترض.

«أوه، لن تكون له حاجات كبيرة».

Twitter: @alqareah

ابتسم أليك وعلّق قائلاً لريبيكا، "هل يمكن أن نكتب إلى دائرة الهجرة؟ الإرسالية التبشيرية سوف تقدم كفالة لأجله، أي؟ ربما نستطيع دفعهم إلى الإفراج عن جزء من المال؟".

«هذا سيكون رائعاً» قال هيو فريزر «يجب عليه أن يكتب تقريراً إلى مفوض الشرطة، بالمناسبة، فيما نحن في المدينة».

«لكنني لا أعتقد أن المفوض» نظر أليك متردداً إلى براي للحظة، ثم قال له بالطريقة المواربة التي يشير بها إلى هذه القضايا، «ثمة شائعة عن بعض المشاكل في منجم خام الحديد».

«أوه، من أي نوع؟».

«لا أحد يعرف كيف تبدأ هذه الأشياء، حتى وقت لاحق. أحياناً حول العمل الإضافي».

وافقت النقابة على فترة تهدئة مدتها ثمان وأربعون ساعة قبل الاعتراف بأي إضراب. «يضربون؟»

«ظاهرياً».

«سمعت أن حمولة شاحنة من فتيان حزب استقلال الشعب المحليين شوهدوا يصعدون طريق الباشي» قال فرايزر. «سنعرف غداً عندما تبدأ الرؤوس المكسرة بالورود إلى المستشفى. اوتا، من الأفضل ألا ترهق نفسك، يا ولدي العجوز. فقد يكون عليك أن تبدأ العمل بأسرع مما تظن».

«اوكي. أنا أفضل أن أضمد الرؤوس على أن أدفنها».

العينان الزرقاوان الفاتحتان المشرقتان اللتان أفرغتا نفسيهما من أوروبة، هجمتا بلا شفقة ولا تعقل على أفريقية. كان قفصه الصدري يرتفع وينخفض تحت قميصه الفضفاض وبدأ يرقص مرة أخرى. قالت ريبيكا: «من أين حصلت عليه، بأي حال؟».

قال: «رجل أعطاني إياه». «أقمت في كوخه، كان مكاناً صغيراً، أوراق الموز على السقف، لكنه بارد من الداخل. في نهاية المدة أنت تعرفين، يقول، إنه الآن قميص جديد ـ لكنه أعطاني إياه».

«بما أنه هنا فيجب أن نحصل له على قميص مويتا. غير مستعمل. يمكننا أن نتحمل ثمنه». طريقة ريبيكا الرفاقية الجديدة في التحدث إلى براي ليست جديدة كليا؛ كانت بالأحرى الطريقة التي تتحدث بها عندما كانت امرأة شاذة في مجموعة بايلي في العاصمة، كانت بالأحرى، الطريقة التي تتكلم بها إلى الرجال هناك.

Twitter: @alqareah

الإخفاء المعتاد لمكان وجود نوع آخر من العلاقة القائمة ضمن الشلة، ربما كان أسلوبها الجديد الآخر ـ الغنج المنحرف ـ أيضاً يظهر تحت السطح من حين لآخر. فهي لا تتكلم إليه لكنها، سألت: «هل حدث إضراب في معمل الأسماك منذ زمن غير طويل؟».

«أوه إنهم مجموعة صعبة. ثمة دائماً شيء ما يضطرب هناك. لكن ذلك تمت تسويته، ذلك الشأن الآخر» أجاب أليك مخاطباً الجميع.

شعر براي بأنها تعنيه بسؤالها. قال: «كل شيء هادىء على البحيرة. يتعين علينا أن نستفيد من ذلك وأن ننزل. ماذا عن يوم الأحد؟». تحمّس الجميع: «سأجلب الطعام. كاليمو سيكون مشغولاً. لا، لا ـ إنها حفلتي». «كيف يكون صيد السمك بالرمح؟» أراد غوردون أن يعرف منه في الحال.

«آمل من الله أن تكوني قد هيأتِ عُدتي هنا؟» أضاف لريبيكا، فقالت، متسامحة، مرضية « كل ما في صندوق الثياب الصفيحي البني. لم يُمس».

«لم أجربه، ولكن يفترض به أن يكون جيداً سوف نقوم برحلة، بأي حال، إيه؟ هل لديكم قارب؟».

«ثمة زوارق شجرية في كل مكان وأي شخص سوف يسمح لك بأن تستعمل واحداً».

«لن تكون بحاجة إليه» أكدت ريبيكا بحماس. «ثمة ملايين من الأسماك. كانت تسبح داخلة خارجة بين ساقي. لا حاجة بك لأن تذهب أميالاً في البحيرة. إنها في كل مكان حول الجزيرة».

بدأ الزوج يسألها بحميمية وبصبر، كما يفعل المرء عندما يلتمس بعض الأعذار لصفات شخصية يعرفها فقط بشكل جيد أكثر مما ينبغي. «إذا كانت قد أمضت ذات مرة وقتاً جيداً في مكان ما، فإنها تبالغ فيه مثل الجحيم، هذه الفتاة».

لمعت عيناها، بشكل مترع؛ كانت طريقتها في الاحمرار خجلاً، وأرجعت إلى الوراء فكها المربع أمامهما. التفت غوردون ادواردز لكي يقيّمها مع براي. «هل رأيت شخصاً يشبه كثيراً سيمون سينيوريه؟ هل سبق لك؟ وضع ذاك الرأس على العنق الثخين؟ شكل الفكين؟».

لم تنظر إليه. خاطبت الزوج منفعلة بشكل مناسب، بحيوية: «إنها سمينة ومتوسطة العمر. لديها ذقن مزدوجة!».

Twitter: @alqareah

«هراء. آمل تماماً أنك ستتقدمين في السن على طريقتها، هذا كل شيء. اعتبري نفسك محظوظة لعينة».

لم يكن متأكداً من هي سيمون سينيوريه ـ ممثلة، طبعاً، لكنه وأوليفيا بالكاد شاهدا فيلماً. «حسناً، أنا لم ألاحظ حقاً... ».

«تلك الحقيبة العتيقة!».

ضحكا معاً على نقمتها.

كان يسكن في بيت آل تلومي على خير ما يرام. كان يظهر، وهو يتحدث قبيل دخوله، في أي وقت من أوقات النهار ـ الشعر المسرّح بشكل مثالي، المخطط بالأبيض، البشرة المدبوغة، الزيتونية، العينان السوداوان تستقران بثقة في أركان الغرفة. كان يعامل كل واحد كما لو أنه قد عرفه طوال حياته وقرر من دون تردد في أي شطر من نمطه الموطد مع العالم أنه سوف يلائم معه كل شخص على حدة. لذلك فإن براي، الذي كان سريعاً في تمييز مسيّر السلطة المحترف طويل الأمد، كما سيميز بتجرد الفائدة الخاصة لمهرب العملة أو للطبيب الذي لا يعارض في المساعدة للقيام بعملية إجهاض، كان يُفترض به في الوقت نفسه أن يكون الحليف لاتخاذ مختلف القرارات التي ليست ضد ريبيكا بقدر ما هي قرارات لإزاحتها جانباً بشكل لا ينم عن تحامل مسبق.

«لا معنى على الإطلاق لإرسال آلان وسوزي إلى المدرسة في حين يبقى الصغير في البيت. لا يزالون جميعاً في سن يحتاجون فيه إلى أمهم وإلى حياة أسرية صحيحة. ما هو المغزى من امرأة تلد أطفالاً إذا كانت لا تربيهم؟ كانت شديدة التوق إلى الأطفال. إنها لفكرة مجنونة أن تنتزعهم مرة أخرى لأشهر قليلة ـ إن ذلك يعتمد بالضبط على الزمن الذي أستغرقه لأرتب الأمور، وتنضم هي إلي. ما هو المغزى من أن يكون علي أن أوضب كل شيء مرة أخرى، في هذه الأثناء؟ المشكلة هي، حيثما تجد نفسها تبدأ بترتيب الأشياء كما لو كانت ستبقى هناك إلى الأبد. هذا المكان. أقصد، هل سبق لك أن سمعت...؟ أجد أنها حطت هنا مثل طير على عمود هاتف لعين. يتعين عليّ أن أكون قد فعلت كما أريد بالدرجة الأولى، وأرسلها إلى أمها في انكلترا. «هي لم تكن تريد أن تكون بعيدة» ولكن ما الذي يمكن أن يكون أبعد عن أي مكان؟ التخييم خارجاً مع السكان المحليين؟ لا يوجد حتى حمام خاص بها. هذا ليس مكاناً يترعرع فيه الأولاد. بيكي تحكي لي بافتخار أنهم يتعلمون بلغة غالا. أين في الدنيا سيحتاجون إلى التكلم بلغة غالا، كرمى للمسيح؟ من الذي سيفهم

Twitter: @alqareah

لغتهم الغالية هذه؟» ضحك. «في انكلترا؟» في فرنسا؟ في ألمانيا؟ كيف لي أن أتجول بلغة غالا بدلاً من الفرنسية، والقليل من البرتغالية الذي التقطته ـ كنت في أنغولا لفترة من الزمن، أنت تعرف، أحد أفضل أوقات حياتي، كما تبين لي ـ ابتسم، مبدياً أسنانه الساحرة نصف الشفافة المظهر قليلاً، رجلاً بلا اعتذارات، وعرض على الأقل نصف الحكاية ـ يا الله الطيب، على الجانب الآخر من بنغويلا، صيد السمك بالرمح! إنها تبدو مثل اليونان ـ صخر أصفر أجرد وبحر أزرق. لا شجرة أو نبتة. كنت أنفذ عقداً لأجل الميناء في لوبيتو. كل نهاية أسبوع اعتدنا أن نجتاز الصحراء وأن نقطع جزءاً من الساحل. إنها غاروبينهاس ـ شيء من هذا القبيل. حسناً، لقد تعلمت البرتغالية من بين أشياء أخرى. يمكنني أن أعبر عن نفسي بشكل مفهوم ـ والآن يوجد عقد لأجل كابوراباسّا، السد ـ هل تعرف؟ الفرنسيون والألمان سوف يبنونه لأجل جنوب أفريقيا والبرتغاليين. إنني أتقدم جيداً مع المهندسين القاريين ـ لقد عملنا معاً من قبل. إنني أميل إلى الهندسة. لوهلة، بأي حال. لذلك فإن برتغاليتي ستكون في المتناول مرة أخرى، في موزامبيق. أنت تجد نفسك عالقاً بالأدغال الحارة اللعينة، على بعد أميال من لا مكان، إنها تساعدك إذا استطعت أن تحدث صاحب الحانوت المحلي أو الشرطي، فيفعلون الأشياء لأجلك. أنا أحب الثلج في مشروباتي. قد تكون بقعة حارة بشكل خاص، بطرق أخرى ـ كان التفاهم كان بينهما، ليس لكي تسمعه ريبيكا ـ. «ربما قرأت حول تهديد الإرهابيين بنسف السد برمته فيما نحن مشغولون بالعمل عليه. حسناً، لا أريد أن أموت لأجل حكومتي جنوب أفريقيا وموزامبيق بأكثر مما أريد أن أموت لأجل أحد آخر. السود أو البيض ـ إنهم لا يستحقون ذلك. شخصياً، لا أظن أنه ستكون هناك فرصة لهم ليقتربوا ـ الشيء بكامله ستتم حراسته مثل ثكنة عسكرية. بإمكانك أن تثق بالجنوب أفريقيين لأجل ذلك. لا يوجد مكان يمكن للمرء أن يسميه مكاناً آمناً بأي حال. أتساءل حول هنا. الإضرابات مستمرة في التصاعد في منجم الحديد. أعرف هذه البلدان؛ ما إن تبدأ بمتاعب العمل حتى [تدخل] العصي والحجارة ولا يهمهم من يأتي في طريقهم. أنت تعرف أنه إذا بدا كما لو أن الأمر يسير خطأ، فإنك سوف ترسل تقارير سرية وتقترح أن يذهبوا بدون انتظار المشاكل لكي تأتي. أعرف أنك ستفعل ذلك؟".

«بالطبع».

Twitter: @alqareah

«لأنك يمكن أن ترى كيف هي بيكي ـ لا تصدق أبداً أن أحداً سوف يؤذيها. أن تأتي إلى البوندو في الدرجة الأولى ـ هذا محض جنون. حسناً، إذا كنت إحدى الأنيقات المثيرات جنسياً فيتعين عليك أن تفكري بنفسك، أليس كذلك؟ لا يمكن أن تحصلي على كل شيء...».

كانت ابنته قد صعدت إليه فختم الزيارة، وهو يتحدث عن الأم لكنه يحول الإشارة بشكل لعوب كما لو كانت تنطبق على البنت، بينما يعقص جدائل الشعر الأشعث خلف أذنيها بسبابته، فاتلاً وجهها القنفذي الهزيل لتفرك أنفها بأنفه.

«هل هذا هو كل ما حصلت عليه لكي ترتديه، سروال أخيك العتيق؟ عصفور جميل مثلك؟ هل سنذهب ونشتري لك فستاناً لائقاً؟».

لم تنطق، سوى أنها هزت رأسها بقوة، موافقة على كل شيء. صحيح أنه ثمة شيء ما رث ويدل على الحرمان في أولاد ريبيكا. كان لدى براي دافع مخلص مثير للفضول إلى شد انتباه الأب عن ذلك بتغيير الموضوع «أي نوع من التجهيزات حصلت عليه لأجل البحيرة ـ لا تقصد بدلة الغوص والأوكسجين وكل ذلك؟».

وهكذا ألح غوردون، عند البحيرة في يوم الأحد، على أن يجرب صيد السمك بالرمح معه. كان ثمة بضعة أزواج من النظارات الواقية والزعانف وثلاث بنادق تطلق سهاماً. وجد خليجاً غريباً ومبهجاً متحرراً من الارتباط بأي شيء آخر سبق له أن مر به. التقط سمكة صغيرة فقط، في حين أن الآخر، بشكل ينم عن خبرة التقط بالطبع، صيدة كاملة بما في ذلك سمكة فرخ النيل ـ تزن حوالي خمسة عشر باونداً. عندما التقى الرجلان تحت الماء، وهما يصعدان كل منهما في مواجهة الآخر في آخر الشوط الانزلاقي لأقدامهما المشدودة الأوتار، رد على الابتسامة من خلف صفيحة النظارة الواقية، الشعر المعتّم المبلل، الجسد المتموج. دام اللقاء للحظة في الماء.

«حسناً، كيف تفضل ذلك؟» كانت تنتظرهما عندما عادا.

«أوه رائع. شعرت كأنني سمكة في الماء».

لا شيء كان سيقنع أليك أو تلومي بالنزول. «وهناك الشباب الذين يصرخون في الناس الآخرين الذين يستغلون مواردهم الطبيعية، أي، جيمس؟» ـ غوردون إدواردز، وهو يميل رأسه إليهما. قال أليك من تحت قبعته، وهو يقبع في الظل: "بلدي بحاجة إليّ، الحياة أغلى من أن نفرط بها".

لاقت شائعة آل فريزر تأييداً. وحينما كانوا جميعاً عند البحيرة في ذاك النهار انطلقت شلة من سفاحي حزب استقلال الشعب عبر أحياء العمال على السفح

Twitter: @alqareah

الأجرد عند منجم فلز الحديد، وقلبوا مواقد طهي الأحد التي كانت مشتعلة تقريباً خارج كل بيت، أحرقوا الدراجات، وفي حالة واحدة، قتلوا عنزة مربوطة بحبل طويل على وتد تعود لشخص ما. روى أليك كل هذا فيما بعد ـ عندما عادوا من نزهتهم كان ثمة رسالة عاجلة لأجله من مفوض الشرطة الجديد، سيلوفو، لكي يأتي إلى المنجم. عندما اقترح أليك شبه اقتراح في لحظة ما أن على براي أن يذهب معه، ولكن ما إن فتح الموضوع حتى تركاه، كلاهما، يمضي لأسباب مختلفة، كما لو أن ذلك ليس جدياً. ربما كان أليك قد أُعلم لإفهامه أن صديق شينزا القديم يمتلك، في الحقيقة، بعض المكانة شبه الرسمية في اهتمامات مويتا؛ ربما كان قد أُعلم فحسب لكي يجعل براي يشعر بالأهمية... من ناحية أخرى، لو لم يتلق تعليمات من فوق، ربما في اللحظة التي خرجت منها الكلمات من فم أليك لتساءل ما إذا كانت شخصية غير موثوقة مثل الكولونيل ينبغي السماح لها برؤية داخلية للصعوبات في المقاطعة. لم يكونا قد تحدثا أبداً مرة أخرى حول الولد الذي ضربه ليباليسو في سجن غالا.

لكن أليك كان هناك في ألبوما في اليوم التالي، ومروحته تدور من جانب إلى جانب طوال الصباح بالرغم من أن طقس الشتاء كان مبهجاً، يتحدث حول قضية الأحد إلى حد ما كما لو أنها مباراة كرة قدم مشاكسة. كان منتقداً لمثل هذا السلوك لكنه وصفه باستمتاع. «امرأة عجوز واحدة كانت قلقة كالجحيم بخصوص آلة الخياطة ـ ركضت خارجة وهي تحملها على رأسها، لا أعرف أين كانت ذاهبة ـ وأمسك بها زميل ـ كان دائماً يسمي مناضلي حزب استقلال الشعب «الزملاء»، بدافع الشيطنة أكثر من أي شيء آخر. فأمسكه شرطي، وهكذا تركت الآلة وبدأت تقرص وترفس الزميل فيما الشرطي يمسك به.... لم يسبق لك أن سمعت بمثل هذه الحماقة... والنساء دائماً هن الأسوأ... نساؤنا! لا شيء يسبب لي صداعاً مثل واحدة من أولاء الأمهات العجائز عندما تبدأ تولول».

«ذهب زملاء حزب استقلال الشعب إلى المنجم بهدف دعم قرار مسؤولي النقابة (المتخذ ضد قرار عمال المنجم أنفسهم) بألا يبدأوا إضراباً غير مشروع. قالوا إنهم يريدون أن يعقدوا اجتماعاً في المنجم « لإطلاق العمل... » أضاف براي. «بالضبط» قال أليك «الزملاء يقولون إنه سيكون نداءً سلمياً إلى الوفاء وهلم جرا... » ولا شيء قد حدث، يا رجل، لولا أنه في اللحظة التي وصلت فيها الشاحنة إلى المجمّع بدأ الجميع بالصراخ، خصوصاً أولئك العجائز » رؤوس قليلة كسرت؛ ليس بما يكفي

Twitter: @alqareah

لخلق حالة طوارئ في مشفى البعثة التبشيرية «إنك محظوظ، يا أليك، لو كنت أقوم بعملك، لكنت قد استدعيتهم جميعاً أمامي في المحكمة في اليوم التالي».

«لا أعرف ذلك». أبدى أليك تعاطفاً احترافياً ودياً، وبالرغم من أنه وصف الليلة بمثل هذا التجرد، فقد تصرف هو وسيلوفو تصرفاً بشكل كفؤ ظاهرياً. سيلوفو اعتقل بعض رفاق حزب استقلال الشعب وأعيدوا إلى السجن لأجل التحقيق الأولي من قبل قاضي غالا. كان كل شيء على ما يُرام؛ سمح براي بارتخاء بعض التوتر الداخلي. بالطبع، حول شينزا - هناك في منطقة المنجم في الأسبوع السابق للإضراب المفترض. حسناً، شينزا سيفهم أن مناضلي حزب استقلال الشعب على الأقل قد اعتقلوا.

عادت رسالة مويتا بشكل فوري؛ براي بالتأكيد سوف يدعى إلى المؤتمر - تحت أية صفة، هو لم يقل. وعرف براي أن المؤتمر سوف يُعقد في العاصمة هذه المرة. (كان ثمة قبلئذ الكثير من النقد لهذا التحرك؛ فقد كان يعقد دائماً في قرية يامبو الصغيرة، على حدود المقاطعة الوسطى وغالا، حيث وقعت بعد الحرب مباشرة المظاهرة السياسية الناجحة الأولى والاعتقالات الأولى من قبل الإدارة البريطانية). تجاهل مويتا حقيقة أن براي لم يكتب الرسائل التي طلبها منه. تساءل ببساطة، كما لو أنه لا يوجد صمت الرفض في هذه المنطقة من علاقتهما، ما هو رأي براي حول النزاع في منجم الحديد؟

كتب في الحال من تحت تينته أن ما يهمه هو النمط الناشيء عن نزاعات كتلك التي تحصل في معمل الأسماك والمنجم. في الحالتين كان الأمر سيان: قضية أثارها العمال غير المدعومين من ممثليهم النقابيين ومسؤولي النقابة الآخرين، ما تم التوصل إليه بين النقابة وأرباب العمل لم يكن في الظاهر مقبولاً للعمال ككل؛ في معمل الأسماك، وضع العمال المدعوون بالموسميين (ومويتا كان يعرف، فقد أخبره كيف يشغلون ويعيشون)؛ في المنجم، مسألة معدلات الأجور للعمل الإضافي. لقد بدا واضحاً أن تدخل الحزب في النقابات يهدد بإلحاق الهزيمة بوظيفة النقابة ذاتها - تمثيل مصالح العمال في مقابل مصالح أرباب العمل. هذا ما كان من الممكن أن يحدث حيث ظهر أن مصالح رب العمل والدولة تتقاطع، والحكومة، بدورها، هي الحزب. أدى ذلك إلى اضطراب عملي بدون قيادة نقابية تحوز على ثقة العمال بما يكفي لأن تكون قادرة على السيطرة عليهم.

«إذا حطمت النقابات، فأنت بحاجة إلى البوليس - إلى المزيد والمزيد من البوليس. في البداية. في النهاية، بالطبع، يكون ذلك سلمياً، لأن العمال لا يمتلكون مزيداً من

Twitter: @alqareah

الحقوق ليثبتوها. الدولة ورب العمل، العارفان بما هو الأفضل لأجل الاقتصاد، يقرران ما يحتاجان وما لا يحتاجان. وثمة اسم لأجل ذلك، أيضاً». علّق وهو يخرج لسانه من تحت وجنته، أنه سوف يحضر في المحكمة عندما يظهر مناضلو الحزب؛ فقد كان شيئاً جيداً لأجل الحزب أنهم قد اعتقلوا وقدموا للمحاكمة.

جاءت مبكرة ذات صباح من ذاك الأسبوع، ولكن ليس باكراً للغاية بحيث أن كاليمو لم يكن حواليها في مكان ما. أغلقت باب غرفة النوم خلفها بهدوء، فسمعت صوتاً صباحياً أجشاً، صوته: «اقفليه». كانت مرتدية ثيابها جاهزة لأجل العمل، مع ملف تحت إبطها. الغرفة معتمة، وعفنة قليلاً من الليل، ثيابه مرمية حواليه، تفوح منها الروائح الخاصة لجسمه. الشمس التي تصطدم بالستائر التي كانت مزينة بشعاراتهم المصنوعة من السمك والودعات والديكة الصغيرة وحب القهوة مثل الأعلام، وكانت هذه الستائر توهجات مبهرجة غنية عبر الغرفة. رفع نفسه في السرير على مرفق واحد لكنه لم يدع نفسه يصبح مستيقظاً تماماً. كانت تفوح منها رائحة الماء البارد ومعجون الأسنان، قلبها يخفق بخفة وبسرعة بحيوية امرأة استيقظت وتغادر الفراش. أما قلبه فلا يزال يغط في الخفق الثقيل البطيء للنوم. بلحيته المثيرة للحك ودفء جسده الليلي أمحى هذا الندى السطحي لعافية الصباح فوجدها تحته. بعينين مغمضتين جردها من ثيابها المرتداة لتوها وهو يشد بقوة ويتلمس مرتبكاً بأصابع فظة. لم تكن مسألة تجريدها من ملابسها، بل مسألة تعرية جنسيتها. كما يتكلم المرء عن تعرية قلبه. غاصت في دفء طوال الليل المتراكم لسريره، وأخذته [...] في فمها، شعرها الناعم بين ساقيه. في توتر كان حبيساً فيه طوال حياته (بحيرة تحت أرضية مظلمة لم تجدها عينه أبداً) تم تجاوز الحاجز إثر الحاجز، وفي كل أقصى شاطئ للذات يتم اكتسابه وتجاوزه، كانت الكلمات تعاود الاتحاد مع الغشاء المخاطي الحلو الذي تفتقت عنه.

أخذت منديلاً من درجه، غطسته في كأس الماء بجانب سريره ومسحت نفسها، الوجه، تحت الإبطين، الأعضاء الجنسية. لم تكن تريد أن تقابل كاليمو أو ماهلوبي في الطريق إلى الحمام. لبست ثيابها.

«سأنهض وأرى إن كان الجو رائقاً».

«أنا ذاهب باتجاه مضمار الغولف ـ السيارة في الأسفل قرب الوكر الرابع. قالوا إن علي أن أذهب باكراً للقيام ببعض الأعمال التي جلبتها إلى البيت ولم أنجزها الليلة الماضية».

Twitter: @alqareah

«حسناً ـ إني أسمعهم في المطبخ». بدلاً من هذه الهمسات العملية كانت الكلمات تفعل فعلها. ومضت.

لم تكن قد أمضت معه أكثر من نصف ساعة. كان ذلك على نحو غريب مثل المرة الأولى التي أتت فيها. إن إعادة التمثيل نفسه هي المقياس للفرق: طقس تمت تأديته بجهلٍ ذات مرة، دون إدراك عميق للمعنى الحقيقي الذي يمكن أن يتأتى عنه.

مشى داخل المدينة لأنه كان عليه أن يستعمل التنسيق التام والتوازن في جسمه. وهو يهبط الشارع الرئيسي الطويل تحت الأشجار الرائعة تولّد لديه إحساس حي بكل الأشياء التي يستمتع بها؛ ركوب السيارة عبر الضوء والظل في ولتشاير أو منذ سنوات في موشي في تنجانيقا، التجديف بحركة بطيئة على سرير البحيرة في الأسبوع الماضي ـ كان ذلك كله متوحداً مع إدراك ـ كل تفصيل دقيق يخلّف أثراً طرياً ـ لهذا الطريق، هذا المكان. كل شيء كان فورياً ويمكن التحقق منه على مستوى الوجود الملموس. إنها الحيوية الدقيقة للفصل الجاف عندما لم يكن التراب قد تبلل منذ بضعة أشهر ؛ رنين أجراس الدراجات يمزق الهواء خلفه ؛ طفلان لا يرتديان سوى صدريات يتبادلان أكواز الذرة من الفم إلى الفم؛ البقرات تخور خارج المدى. إنه صباح عادي كان بالنسبة له الساعة الشمسية: إنه آخر شيء يراه السجين المحكوم، وسيراه طالما بقي حياً.

كان سراي الإقليم جزءاً من البناء الإداري القديم حيث يأتي الناس لقبض المعاشات التقاعدية ودفع الضرائب. في الخارج كانت جماعة من النساء العجائز يدخّن الغلايين. أجسامهن العارية من الخصر باستثناء عقود خرز متشابكة مع أثدائهن، تبرز بشكل أفعواني من ثنيات القماش الذي كن مقرفصات فيه. لم يكنّ يتكلمن. كان موظفون، طفيليون، رجال شبان، بالقمصان البيضاء والنظارات الشمسية الرخيصة يمرون متحرشين بهن. دخل إلى الغرفة التي لا تزال تنبعث منها رائحة مثل غرفة صف؛ هو نفسه كان ذات مرة قد جلس هناك على المنبر وعبث بالإبريق الزجاجي المغطى بكأس. على أحد المقاعد الخشبية بين الناس الآخرين، كان الرجل الأبيض الوحيد. كان جاراه يتحدثان عبره كل إلى الآخر من خلف كتفيه، ليس بفظاظة، ولكن بافتراض أنه لا يفهم ما يقولانه، وبالتالي فهو غير موجود، يناقشان دَيْناً مستحقاً لأحدهما أو لكليهما. من الواضح أنهما كانا صديقين حميمين بحيث أنه لم يعرف من هو الدائن ومن هو المدين. كانا يرتديان نفس

Twitter: @alqareah

سروال الجينز الكاوبوي المستورد من قبل المتاجر الهندية المحلية، النوع نفسه من الساعات اليابانية ذات الشريط السميك المذهّب، نفس المهارة التشذيبية الفنية لحلاقَيْ الهواء الطلق اللذين شكلا شعرهما الكثيف بالمظهر المسطح لتسريحة الشعر المرفوع en brosse. أما الندبات القبلية الثلاث على كل وجنة فلا تحمل دلالة أكثر من كونها علامة تلقيح.

كان الرواد الشباب لحزب استقلال الشعب يملأون بشكل متراصّ الصفين الأولين من المقاعد الخشبية، إذ إن معظمهم يمكن بشق النفس تسميتهم شباباً بعد. فالقوة المراهقة التي تتلكأ بتثاقل بعد موسمها لدى أولئك الذين لم تتحقق آمالهم إنما كانت موجودة في أمزجتهم وتململهم. كانوا ينقلون نظراتهم من مكان إلى آخر، وقحين متجهمي الوجوه، البعض منهم يرتدي قبعات فيما الآخرون يرتدون الكنزات الرياضية الفضفاضة التي يرتديها الابن المتبطل للعائلة. كان مع أحدهم راديو ترانزستور فجاء حاجب في المحكمة يرتدي بوطاً يصدر صريراً ينذره لئلا يستعمله. استمر في وضعه على أذنه من حين لآخر، دون أن يدير المفتاح، تحت بصر الحاجب.

لم يكن للمتسولين العاديين والشاذين مكان آخر ليشعروا فيه بكونهم مقبولين مع الناس الآخرين. كانوا غارقين في انهماك مطلق؛ ثمة رجل عجوز له المظهر القلق المترقب المتوتر الذي يعرفه براي جيداً. نوع من القلق المعمم في مواجهة انعدام الحيلة لدى كل الناس السود أمام البوما والقانون. تساءل من هن النساء الريفيات اللواتي في الخارج؟ ربما قريبات لرجال من المنجم متورطين في القضية. كان ثمة آخرون، رجال ونساء «محترمي» الثياب من الضواحي الأفريقية الذين لابد أن يكونوا أقارب، أيضاً. تعكّر الجو المألوف للإذعان والخوف من السلطة الذي يخيم على قاعات محاكم البلد، والذي يوحد الأبرياء المتهمين بوصول إضبارة المتهم إلى داخل قفص الاتهام تماماً، عندما بدأ دوران المراوح السقفية التي تم تشغيلها في اللحظة نفسها لطرد الهواء الفاسد. كانت المحكمة مكتظة والوجوه بقيت تحدق في النوافذ من حشد متكوم في الخارج. كان ثمة حتى الهدير الشارد لفرقة موسيقية في الخارج هناك - خيم الصمت فجأة. المتهمون الأحد عشر كان عددهم أكبر من أن يتسع له قفص الاتهام الصغير. ومثل الناس الذين «تلخبطت» مقاعدهم في مسرح، انزاحوا وبدّلوا الأماكن، وفي النهاية أعطي بعضهم كراسي في جوف المحكمة. دخلت مفرزة خاصة من رجال سيلوفو معهم، واصطفت حول قاعة الزوار. نهض أعضاء المحكمة؛

Twitter: @alqareah

دخل القاضي الأسود وجلس أمام الإبريق الزجاجي. كان مدرساً سابقاً وكاتباً لدى محام من مقاطعة أخرى. ومن حين لآخر كان يستعين بمترجم ليترجم له إلى الانكليزية عندما لا يكون متيقناً من أنه قد خمن تماماً المعاني الخاصة لعبارة ما باللغة الغالية. كان براي قد قابله في بيت أليك، كان رجلاً بهيجاً، ذكياً. بدا نكد المزاج على المعقد الخشبي.

وفد محام هندي من العاصمة لتقديم مرافعة الدفاع. تحرك الرجال في قفص الاتهام بدافع من تضامنهم الرزين ليلقوا عليه نظرة، فربما لم يروه من قبل. تلي الإتهام. كان يمسد شعره اللامع إلى الوراء عند صدغيه وهو يستمع، كما لو أنه لا يزال منفوشاً من الرحلة. بإنكليزيته السريعة، الرقيقة، المحكية بنبرة الفوجيراتي، طالب بفصل المحاكمات: محاكمات الرجال التسعة الذين كانوا متهمين بالتعدي والإيذاء المتعمد للأملاك تسمع بشكل مستقل عن محاكمات الاثنين المتهمين بالاعتداء والتهجم بموجب مرسوم الجماعات المتمردة. لبّي الطلب؛ فأُجلت القضايا إلى تاريخين منفصلين بعدئذ بأسبوع أو أسبوعين. اعترض المدعي بأنه لا يوجد وقت كافٍ لإعداد الدفاع؛ فتأجلت الدعاوى مرة أخرى فترة أطول. تم تجديد [التوكيل] للتسعة لكنه رُفض للاثنين الآخرين، كان الرواد الشباب يصدرون صريراً بمقاعدهم الخشبية ويطلقون أصوات /طُلك/! بحناجرهم مثل الإرشادات التحذيرية لبعض الطيور. زاد عدد الوجوه التي كانت تنقر على النوافذ. كان أحد الاثنين اللذين رفض توكيلهما شاباً نحيلاً يتصف عنقه العاري بالتوتر العضلي لراقص باليه؛ بقي يفتل رأسه لينظر بشكل متعجرف، متجهماً مثل داوود في لوحة مايكل أنجلو، ملتفتاً إلى الجمهور. كلما فعل ذلك حدث هيجان في الصفين الأماميين، القوة هنا تزيح ثقلها بتوازن متقلقل بين مظهره وبين بلاهة رجال شرطة سيلوفو.

كان المحامي يعترض على رفض التوكيل ؛ كان المدعي العام عنيداً. بدا القاضي أنه لا يصغي إلى أي منهما؛ أكد أن التوكيل لن يقبل. هذا هو كل شيء.

عندما خرج السجناء، مستفيدين من كثرة عددهم بجعل خروجهم في تقدم بطيء؛ بدأوا بإنشاد نشيد الحزب، و هتف الاثنان اللذان أدخلا إلى الزنزانات بالشعارات، الشعارات القديمة لأيام ما قبل الاستقلال. أباح براي لنفسه أن يُحمل وأن يعاق من قبل جمهور قاعة المحكمة. النساء في ثياب الذهاب إلى الكنيسة فتحن أفواههن بهدوء وأصدرن عويلاً. خبط القاضي بمطرقته وأذعن لتجاهله؛ تفوه بما يجب أن يكون انفضاضاً للجلسة وانصرف خارجاً. كان ثمة دعوى أخرى لسماعها

Twitter: @alqareah

فأدخلت الأدلة القانونية، بما فيها دراجة ذات عجلة مفقودة، في حين كانت الشرطة تنتقل على امتداد المقاعد الخشبية وتمسك بها بلا هدف، كان من الصعب تبيان ما إذا كانت الحركة عبر الباب بفعل الناس الذين يتزاحمون في الداخل أم لأن المحكمة يتم إخلاؤها. لم يكن حشداً غاضباً بل واثقاً بشكل غريب، أناس يتحدثون متنقلين في انهماك. النساء المولولات وقفن حيث نهضن عن المقاعد وصرن يتمايلن كأنهن التحقن برقصة؛ كان أطول من أي شخص وعندما كان يُعصر ويُزاح استطاع أن يرى كل شيء، المصفقين المستأجرين للحزب يتابعون نشيد السجناء ويحركون رؤوسهم مثل الدجاج وهم يندفعون من خلال الناس، الوجه المحتار للشحاذ العجوز، الشباب الذين ينتقلون بحيوية من جانب إلى جانب. أراد أن يكشر: طوطماً أبيض كان يتراءى، يلوح بشكل ساخر في أثر المؤخرات التي تؤرجح تنوراتها القطنية بجلال كالأجراس. خرج الحشد بأكمله ببطه، وهو معه، من خلال الباب كما الماء يدور في دوائر حول ثقب في حوض حمام.

في الخارج كانت الفرقة الرجالية الثلاثية التي استمدت دقة طبولها الإنجيلية من جيش الخلاص: تقرع مبتعدة وهي تترنح. دخل أفراد جماعة الحزب في نقاش بين المشاهدين وجمهور قاعة المحكمة المتريث. ثمة مجيء ورواح لرجال الحزب المنفردين، يتسابقون بين مكان الاجتماع ومكتب المحكمة؛ الجميع ينتظرون المتهمين التسعة لكي يظهروا بعد إكمال إجراءات التوكيل. عندما خرجوا، خانعين إلى حد ما، مثل أشخاص يترجلون من رحلة أمام أنظار الأصدقاء، فإن الحشد بكامله تمت إزالته من الشرفات المفتوحة القديمة الطراز وساحة المبنى من قبل الشرطة. ثمة ضياع آني للاتجاه حيث كان من الممكن أن يكونوا قد تفرقوا، ومن ثم فإن أحداً ما اندفع إلى قطعة الأرض المفتوحة على الجانب الآخر من الطريق، التالية لمكتبة الأميرة ماري. اجتازت الفرقة الطريق وهي تعزف. بدأ الرواد الشباب للحزب اجتماعاً مرتجلاً؛ انتظر لحظة ليستمع، بجانب الأعمدة اللامتساوية للبارثينون الصغير ذي السقف الصفيحي التي نصبتها سيدات عصبة خدمة الأمبرطورية البريطانية. وقف المتكلم على قفص خشبي تخلى عنه حانوتي ولم يكن بعد قد نقض قطعة قطعة من قبل الناس الباحثين عن الحطب. حقق الحزب الحرية والناس الذي لا يطيعون أوامر الحزب هم حمقى... لم يكن ثمة شيء في البلد ليس من شأن الحزب... الحزب لم يتخلص من الرجل الأبيض لكي يؤمر بما عليه أن يفعله من قبل الرجال السود الذين كانوا بنفس السوء تماماً... لم يكن مسموحاً لكم بأن تتكلموا حول شيء

Twitter: @alqareah

في المحاكم لكنه مع ذلك يخبر الجميع بذلك. الناس الذين تحدوا النقابات تحدوا الحكومة، الحزب عرف ما الذي يفعله بهم.

بدأ يمشي مبتعداً ودار حول شجار كان قد نشب ـ لكمات مفاجئة بين شابين، وحجارة تتطاير. كان في مسار إحداها، فأصابته على جانب عنقه. ارتفعت يده بالحركة اللاإرادية لصفع ذبابة. قالت امرأة عابرة لاهثة: «أوه، آسفة، آسفة».

لم تسبب له الضربة نزفاً. التقط الحجر عندما سقطت في ياقته المفتوحة، ودسها في جيبه. كان ثمة عدة حوادث مثيرة في غالا في ذاك اليوم. لم يظهر أنها جميعاً لها علاقة بالمحاكمة، بل أطلقتها الثقة المستثارة لجمهور قاعة المحكمة التي أثرت على جو القرية كما تؤثر موجة حر على مواطني بلد بارد.

«ينبغي أن يجمعوا وأن يوضعوا في العمل على الطرقات».

قال له السيد ديل في السوبر الماركت سراً، وهو يلف رطلاً من لحم فخذ الخنزير الذي اشتراه: «كثير من قطاع الطرق ولا أحد يلقنهم اللغة التي يفهمونها، بعد. كل ما تعلموه هو أن يسرقوا أفضل. لن تصدق لو أخبرتك عن خسائري منذ أن تحولت إلى الخدمة الذاتية. هذا المحل ليس مؤهلاً لذلك. يجب أن يكون لديك ناس متحضرون».

كانت بائعة صغيرة قد رتبت بندوراتها الصغيرة الحجم القليلة على الرصيف. كان يشتري منها عندما مر غوردون إدواردز. وفي الحال اقترح أن يتناولا البيرة في الفيش إيغل؛ كان الزبائن يتحدثون حول الغولف وحول سباق الدراجات الأوربي الذي عرض على التلفزيون الليلة المنصرمة.

حكى غوردون إدواردز قصة مسلية حول صديق له، استقال بعد الخدمة في القناة الموزامبيقية على متن سفينة دورية مهمتها أن تعترض السفن الحاملة للشحنات الواردة لصالح روديسيا، وأصبح هو نفسه سمساراً ناجحاً في مهنة خرق العقوبات، فصار يُخرج التبغ ويدخل الآلات. في حين كان يتحدث إدواردز بقيت عينه تلوب على عنق براي. «شيء ما لسعك».

كان انطباعه يلمح إلى أنه غير مدرك لذلك. فالحجر الصغير يقبع بين النوع الآخر من النقود في جيبه، مثلما تقبع حقيقة ما حدث في الصباح الباكر في عقله بين المزحات الجاهزة للحديث الصغير.

أدين الرجال التسعة وغُرِّموا فيما لم يأتِ الاثنان الآخران إلى المحاكمة أبداً. بتدخل شخصي من الرئيس أُسقطت الدعوى المرفوعة ضدهما.

Twitter: @alqareah

(14)

في كل يوم تقريباً، كان ثمة تقارير عن اضطرابات في واحدة أو أخرى من المقاطعات. كان كل من كان بإمكانه أن يتحمل ثمن جهاز تلفزيون يتابع البرامج المخصصة للعرض في وقت واحد من أمريكا وانكلترا ـ رياضة، علوم شعبية، أفلام وسترن قديمة، و(إذا كانوا من البيض) المسلسل اللا متناهي **للحمة الفورسايت**. كانت إدنا تلوما قد استأجرت جهازاً وكانت المجموعة الكاملة من أهل البيت تتواجد بشكل عام في غرفة معيشة آل تلومي المعتمة أثناء ساعات افتتاح المحطة في العاصمة. ثمة نشرة إخبارية واحدة في اليوم (راس آساهي كان المعلّق لفترة) لكن المحطة لم يكن بمقدورها أن تتحمل تكاليف فريق دائم من المصورين والمراسلين لبث الأحداث الحية في البلد. إن الغرفة العاتمة ـ التي تدوي بالموسيقا والأصوات المسجلة النابحة، وتفوح منها رائحة الأطفال القذرين ومسحوق الكاري من الوجبات الرخيصة، والتبغ الممزوج بمادة طبية لنونغوابي ـ حيث يعرض التلفزيون مباراة كرة قدم في مدريد أو محاكمة للاجئي الفيتكونغ تشوش تركيز الصورة، كل ذلك كان أكثر واقعية مما يحدث في المقاطعة المجاورة والقرية التالية. كان الاخضرار الثقيل لغالا معلقاً مانعاً كل شيء من الدخول. عندما أعتم جسمه مدخل الباب نهضت ريبيكا عن كرسي المشمع بعيداً عن المتفرجين؛ ظل الآخرون جميعاً مستغرقين. نادراً ما يزعجهما الأولاد الآن؛ وفي الحال نسي، مرة أخرى، أن يذكرها بأنه ينبغي ألا يسمح لهم بأن يصبحوا مدمنين على هذا الصندوق. كانت تجلس مع أطفالها المستندين إليها كل واحد في تماس مع جزء ما منها، وكان أصغرهم في بعض الأحيان يغرق في النوم في حضنها؛ فما يستمدونه منها، عندئذ، كان كافياً وأكثر ليعاكس فعل ما يمر أمام أعينهم ويظلل إدراكهم. ثمة شعور زمالة معهم؛ هو كان يعرف ذاك

Twitter: @alqareah

التيار الثابت لجسدها، تأثيره المهدهد والشاحن. ليس هناك من أذى يمكن أن يصيب المرء وهو يتنفس في الموقف نفسه مع ذاك الجسد.

انصرف الزوج، غوردون إدواردز، مرة أخرى. لم يتبيّن إن كانت قد نامت معه ـ ولن يتبيّن ـ لكنه لحظة مباعدة ساقيها جانباً بركبتيه وولوجه لجسدها بنفسه، أنه سيفكر بذلك. لم يكن ذلك في عينيها، بأي حال، عندما اضطجعت كما تحب أحياناً أن تضطجع فوقه ونظرت إلى وجهه كما ينظر العاشقون فقط، ووجهها مفتوح له. كانت تشكو أنه بسبب كونه حسير البصر فقد كانت عيناه خاليتين بشدة من التعبير عن الشهوة. كان محجوباً عنها.

«ليس بمقدوري أبداً أن أفهم بماذا تفكرين».

«أنا لا أفكر».

لكنها كانت من اللواتي لديهن أسرار. مع ذلك فإن عينيها اللبويتين الملونتين (أكثر بنية مع توسع البؤبؤين) لم تكونا كتومتين. لقد ولّت أيضاً الحيوية المغناجة التي اكتستها مثل شكل مثير للفضول من التحفظ عندما كان الزوج موجوداً.

كانت ذكية بمجيئها إليه في ذاك الصباح، بحيث لم يكن ثمة شك، حالما يكون الآخر قد غادر، في أنه سيتعين عليهما أن يجدا طريقة ليلتقيا مرة أخرى: لقد تم ذلك قبلئذ، إذ لم يكونا إلا معاً، تحت غطاء من التواطؤ الملائم للأصدقاء والظروف. مع ذلك لم يكن ثمة شيء «ذكي» فيها، في ذينك العينين. كانت ببساطة **كلها هناك**، لا شيء مُستبقى، لا شيء مصاناً، ولا حتى أسرارها. لذلك كان ثمة مرحلة بإمكانك أن تبلغها حيث تكون حتى العلاقات التي يقيمها كل واحد مع ناس آخرين تنتمي إلى العلاقة مع آخر. إن ذلك يمكن أن يحتوي كل شيء، يشمل كل شيء، ليس باستسلام بل بنوع ظريف من الجشع. إذا كان لي من العمر أكثر مما ينبغي لئلا تكون البتولة من أي نوع سوى شيء مثير للسخرية لدي، عندئذ اسمحوا لها أن تكون ما يجب أن تكونه، بطريقتها، أيضاً. رغم كل شيء، لم تكن السذاجة هي التي مكنتها من تحسين الستائر لدى وصول أوليڤيا.

كتب إلى أوليڤيا حول الاضطرابات، الإغلاقات التعجيزية للمعامل والتعبيرات المشوشة عن النقمة التي اتخذت شكل نزاع قبلي في الأدغال. لم يوح لها بأن هذا الجو هو السبب في أنها ينبغي ألا تأتي. ولكن أياً منهما، في رسائلهما، لم يعد يكتب كما لو أنها آتية. لم يتساءل لماذا ينبغي عليها من جانبها أن تكون قد أسقطت الفكرة، لأن ذلك ـ وهو ما تحقق منه جيداً تماماً ـ كان يناسبه أن تكون قد

Twitter: @alqareah

فعلت ذلك على نحو صامت للغاية. كتب لها حول الماشية التي تذبح انتقاماً، الأكواخ المحروقة، التعديلات المقترحة على قانون العلاقات الصناعية التي ستجعل إضرابات المعلمين وأفراد الخدمة المدنية غير شرعية. وكتبت هي حول صندوق نفائس الضابط الجميل، الذي يعود تاريخه إلى الحروب النابليونية، الذي كانت هي وڤينيشا قد وجدتاه في محل قروي للأنتيكات، ورحلة استجمام إلى لندن لرؤية مسرحية حول الحب المثلي السفاحي بين أخوين لم يكن بالإمكان عرضها فيما كبير أمناء البلاط لا يزال يملك حق الحذف. جاءت ابنتهما الصغرى بات إلى الوطن في زيارة من كندا. فينيشا وزوجها والطفل أمضوا كثيراً من الوقت في البيت في ولتشاير؛ الصور الفوتوغرافية للطفل، وهو يضحك على العشب المزهر، كانت موجودة ضمناً. لقد ظل يقع على هذه الصور في نفاضة السجائر المكسورة في البوفيه التي كان كاليمو قد اعتبرها حافظة مأمونة، وكان يسفّنها حول حواف الإطار الذي كان قبلئذ يحمل صورة فينيشا والرضيع، ذات يوم عصراً، عندما دخلت ريبيكا بكل الابتسامات والانفراج لتخبره أن كل شيء على ما يرام، أن دورة طمثها قد جاءت رغم كل شيء. كانت متأخرة عن موعدها حوالي أسبوع. خلعت نظارتيه وقبّلته بشكل محموم، بامتنان؛ «مع ذلك لو حدث هذا، لأمكنني أن أذهب إلى انكلترا. أنا دائماً أفكر بذلك».

سكب الشاي لها ومسد شعرها «انكلترا؟».

«من غير المشروع إجراؤه [الإجهاض] هنا».

لذلك لن تكون ثمة ولد منه هذه المرة، ولكن من الممكن أن يكون، في أي وقت. بإمكانه أن يرى أنها خائفة من ذلك وتقبّل كونها خائفة. أخبرته أنها لا يمكن أن تأخذ حبة منع الحمل لأنها تجعلها تسمن.

جاء سامبسون ماليمبا وزوجته إلى العشاء. تم التسليم جدلاً بأن ريبيكا هي في مقام سيدة المنزل، الآن؛ فكانت تساعد كاليمو عندما يسمح بذلك؛ كاليمو أبقى ماهلوبي محصوراً بشكل لصيق بالعمل خارج البيت - إذ كان بستان خضار ماهلوبي يموّن أهل بيت تلومي وأليك بالإضافة إلى أهله.

ستأتي السيدة ماليمبا (الخجولة أكثر مما ينبغي بحيث أنها لا تنادي أي شخص أبيض باسمه الأول أو تسمح لأحد بأن يناديها باسمها الأول) إلى بيت براي لو طلب آل ماليمبا لوحدهم. كانت مقتنعة بألا تتفوه إطلاقاً سوى بردودها المهذبة إلى أقصى حد على عروض الطعام والشراب، وحالما يُسمع مواء من رزمة الرضيع الذي تحمله

Twitter: @alqareah

معها دائماً فإنها تختفي في المطبخ لتطعمه أو تعنى به. كانت ريبيكا تنجح في إخراجها قليلاً؛ ريبيكا التي كانت امرأة تحبها النساء الأخريات، بأي حال، ولكن في هذه الأيام كان من السهل على براي أو عليها أن يكونا لطيفين مع الآخرين. كانا يستيقظان معاً في الصباح، و عندما يفترق الجميع ليلاً، ينامان معاً في سريره الضيق؛ ذاك كان مصدر كرم الروح الفياض.

كانت مدرسة المهن، المركز الممتاز لتعليم البالغين، تسير جيداً على نحو مدهش. فقد كان لدى سامبسون موظفون من البوما يديرون صفوف محو الأمية لأجل الناس الكبار في السن في الضواحي. أقنع براي الناس الأبعد احتمالاً بين الجالية البيضاء بأن يعلموا المهارات المختلفة في ورشة صالة غاندي. بدأ الناس البيض، ذوي تجعيدة البشرة التي تنم عن خشية بالكاد تلقى تفسيراً، يشعرون بأنها ربما ليست فكرة سيئة، طالما أنها لا تكلفك شيئاً، لخلق إيماءة معبرة عن التعاون إزاء السود الذين يديرون العرض. وكان هو أيضاً يعوِّل بشكل هادئ على المتعة العادية، غير المعترف بها، التي يجنيها المرء في إظهار ما يعرفه. قدَّم الأمريكيون زوجاً من العمال المفيدين على نحو مدهش بالإضافة إلى المال، ليسا شخصين من فيلق السلام، بل من الكويكرز (الصاحبيون) ـ يعلمان تركيب الآلات والخراطة، لف المحركات ومختلف المهارات الأخرى التي تلبي حاجات بدايات الصناعة الخفيفة في منطقة غالا، وأدخلا سيارة الجيب الخاصة بهما إلى الريف لتعليم الناس كيفية استعمال وصيانة الآلات الزراعية الثقيلة التي كانت متوفرة بقرض من قسم فونغوايي تلومي. حتى بوكسر جاء لمدة أسبوع واستمتع بالتحدث دون أن يقاطعه أحد، في دورة مكثفة حول تربية الحيوان. كان الأميركيان يحملان آلة تسجيل، ثم تحفظ الأشياء كلها للاستعمال مرة أخرى. عندما تكلم بوكسر بلغة غالا، تمكن الناس في أقصى قرية من تشغيل الشريط وفهمه. مكث بوكسر مع براي؛ فكان على ريبيكا أن تبقى بعيدة، بالطبع. حتى الزيارة الصباحية المبكرة لم تكن ممكنة. كان بوكسر يستيقظ في الخامسة ويجول في أرجاء غرفته. لقد جلب معه تلك الحميمية العزّابية العنوسية التي يفترض أنه ومضيفه يتقاسمانها: ثمة شعور بأنه يعتقد أنه سيكون شيئاً مثالياً لو استطاعا أن يعيشا معاً بشكل دائم. كان نوعاً من الرجل الذي تذوي فيه الرغبات الجنسية مبكراً؛ ربما كان عنيناً قبلئذ؟ تحدث عن شينزا بدون إبطاء: "المشكلة المستمرة في منجم الحديد تُعزى إلى تطفل «لورديته»، يأتي من الباشي في سيارة حميه ويرشو الناس". جاء سكرتير اتحاد عمال المناجم من العاصمة ليرى ما

Twitter: @alqareah

يحصل، ولكن من يصغي إليه؟ ـ كانوا جميعاً جمهور مبانا، سوف يستمعون إلى من يأمرهم مبانا بأن يستمعوا إليه. ومبانا أمرهم بأن يستمعوا إلى صهره، حضرة اللورد شينزا. بوكسر قدم الحقائق كجزء من أقاويل محلية.

في اليوم الذي غادر فيه بوكسر صباحاً جاءت في وقت الغداء ومارسا الجنس. انتظرتهما مائدة الغداء، مغطاة بناموسية كاليمو. قالت فيما كانا يتناولان الطعام؛ مبتهجة للتخلص من الزائر «لماذا هو رجل ثقيل على النفس هكذا؟».

«لأن الصورة التي يملكها عني هي بدونك».

ضحكت بمتعة وسخط: «أنت! دائماً مثله!»

كانت لكلٍ واحد رؤية خاصة لما يمكن أن يكونه على الطرف الآخر من الميزان، في القاع تحديداً. لا أحد آخر كان يعترف بذلك سوى المرء نفسه.

كانت مليئة بالفضول. «الشيء غير العادي هو أنه عليك أن تفكر بنفسك بلغته هو، الرؤية الخاصة يجب أيضاً أن تكون الشيء الأبعد احتمالاً الذي يمكن أن يحدث . شيء جنوني تماماً».

«شيء جنوني تماماً».

«ولكن أليس لديك رؤية خاصة؟»

«أنا؟ لا أعرف».

بعد لحظة قالت: «أوه، نعم. رغم كل شيء، تركت العاصمة بسبب ذلك». في تلك اللحظة كانت كئيبة، حالمة، في حين كان هو ثرثاراً وجائعاً.

ربما حتى كان المركز ينجز شيئاً مفيداً؛ فقد استمر براي في العمل فيه مع ماليمبا برغم ما كان يحدث. بقي موجوداً مع الاضطلاع بفعل يوميٍ في حينٍ كان السياق ـ سياق البلد وسياق عقله ـ الذي يمتلك فيه ذاك الوجود محطماً ومعطلاً على مختلف الأصعدة، مدوّماً ومدوخاً. إن حميمية العمل التطبيقي مع سامبسون ماليمبا الحساس الصلب الجيد، الوجوه المتيقظة في قاعة غاندي أو مجمع البوليس المعّدل، وسيارة جيب الكويكرز التي تحمل عزم غبارها إلى القرية الواقعة في سافانا، أو على البحيرة أو باتجاه الباشي ـ كل هذا السعي الدؤوب وراء الأهداف كان يحدث على الطوف الجليدي البري الذي كان الناس يتابعون عليه شغلهم مدركين أن بيئتهم قد أفلتت وأنها محمولة، بيتاً طافياً على فيضان، الأثاث لا يزال في مكانه والأصص في النوافذ. إن ما يفعله المرء لنفسه كل يوم هو حقيقي، فكر في نفسه؛ وكانت جالسة على السرير تحت مصباح القراءة، تقتلع الجلد المتقرن من أصابع قدميها الصغيرة

Twitter: @alqareah

(إنها طبقتي الشتوية تتقشّر ـ في الصيف عندما أرتدي الصندل طوال الوقت لا أصاب بذلك).

كان ينهض في الساعات الأولى من الصباح وعقله يستنبط الحقائق من وضوح الظلام. كان شينزا قادراً على الدوام على الاتكال على النفوذ لدى القطاعات المتقدمة من المجتمع، العمال، من خلال صلاته مع النقابات. فمن ناحية كان هو أيضاً قد امتلك نفوذاً خاصاً مفيداً من الولاءات القبلية من خلال علاقته مع عائلة الزعيم الأكبر ـ كان هو ابن أخ، لو تذكر براي بدقة. كان ذلك أساساً بسبب أن الناطقين بلغة لامبالا ـ وهي فرع من لغة الغالا، تنتشر على نطاق واسع عبر إقليم الباشي ـ قد أُبقوا ضمن الحزب منذ البداية. بزواجه من ابنة مبانا لا بد أن يكون الآن قد وسع دعمه إلى حد كبير، وضم إلى نفوذه ليس فقط الأتباع الهامين لمبانا في الوطن بل أيضاً الآلاف المشتتين الذين كانوا دائماً يشكلون جزءاً كبيراً من اليد العاملة في كل أنحاء البلاد. كان مبانا الرجل الذي منح في عهد براي سلطة قبلية من قبل الحكومة الاستعمارية عندما صرف الزعيم الأكبر، ناغاستي، بسبب تصلبه وتأييده للحزب الوليد؛ مع الاستقلال، كان ناغاستي قد أعيد تثبيته كزعيم أكبر ووجد مبانا نفسه مرة أخرى زعيماً عادياً يحمل تذكار أزمنة أفضل: سيارته الأميركية المعطوبة. حسناً، كان شينزا يقود السيارة، في هذه الأيام. كان ذلك تحالفاً كافياً، إذا وضعنا الزواج جانباً. إن مبانا وناسه بالتأكيد لم يغفروا لمويتا هذا التخفيض للمرتبة. مهما كانت قضية شينزا بعيدة عن قضيتهم، فإذا كانت معارضة لمويتا، فإنها ستخدم قضيتهم. وشينزا؟ كان ناغاستي واحداً من مريديه، «زعيمه المتنور» الذي لم يكن يخشى حركة قومية. مبانا كان واحداً من «أولاد الحكومة الجيدين»؛ أضحوكة، كان شينزا يسخر منه، بطريقته الحادة والكريمة في الاحتقار. الشعور العائلي بالكاد غيّر ذلك؛ ولكن لا شك بأن النفعية قد فعلها. كان لشينزا أصدقاء فضوليون، في كل مكان، في هذه الأيام.

في بعض الأحيان عندما كان يستلقي مستيقظاً بين هذه الحقائق كان يبدو له أن قائمة أصدقاء شينزا الآن تشكل تجمعاً قوياً ـ بالتخمين، في الظلام. وضع مويتا على رأسهم. لم يكن بمقدوره أن يقرر ما الذي سيفعله مويتا، ما ينبغي أن يفعله. لو كنت مويتا ـ لكن المشكلة هي أنه لم يكن. حاول أن يخلص نفسه من التصورات المسبقة التي تدوم مدى الحياة، أن يطرح آخر بتولة وقورة قديمة. ولكن كان ثمة دائماً بتولة أخرى ـ لو كان بإمكانه أن ينتهي منها! كان ذهنه طليقاً بفعل الليل. لو كان ثمة

Twitter: @alqareah

ثورة تحرر الناس من الخوف، الاستغلال، تطلقهم من دائرة الطباشير التي رسمها النوع الخاطئ من السلطة، إلى أي مدى يمكن للثورة أن تمضي بعيداً لحماية نفسها وما كسبته لأجل الشعب؟ إلى أي مدى، قبل أن تلتقط ببطء دبش الجدران والأسلحة نفسها التي قوضتها؛ بدأت تستعملها ضد من يُسمون عناصر الثورة المضادة؟ من هم العناصر المضادة للثورة؟ أعداء الثورة، أم الثوريون الذين ظنوا أن الثورة تتعرض للخيانة؟ كان شينزا وmويتا يمتلكان هاتين الهويتين المخلوعتين عليهما، كل واحد من قبل الآخر. يعتقد شينزا أن مويتا خان مبادئ الثورة، وهو عدوه؛ مويتا يعتقد الشيء نفسه عن شينزا. وهو يريدهما كليهما أن يكونا خاطئين. يريد أن يؤمن بذلك دفعة واحدة، ولن يبيع الحياة الجديدة أكثر من التآكل اليومي للعصمة الإنسانية في السلطة التي تصبح حتمية. لقد عرَّف ذلك بدقة على هذا النحو لنفسه، ليقيم البرهان على أن ما يؤمن به هو معقول صراحة.

في بعض الأحيان، كما الفاصل الزمني الصامت الميت (دقائق، ساعات؟) بين انقطاع الأصوات الليلية وبداية أصوات ما قبل الفجر، هذا الفاصل الذي تحتله النغمة الموحدة للعصافير التي تمزق حجب الظلام، كانت الحقائق القاسية الحواف في عقله ترتب نفسها بشكل مختلف. إن أهمية تحالفات شينزا قد هبطت. لم يكن مويتا يملك سوى أن يعيد تثبيت شينزا خلفه، أن يسترضي مبانا بمنصب محلي يفكك هيمنة الحزب على النقابات ـ كان ذلك ممكناً فعله. وقال شينزا: «أود أن أعرف أن لدي فرصة للفوز». مع مجموعة حلفائه ـ مبانا؛ ربما حتى بعض أناس ناغاستي؛ مجموعة أتباع في الحركة النقابية لا يمكن للمرء أن يخمن قوتهم وأعدادهم، ذلك العمل الطائش لسومشستي عبر الحدود ـ هل كان بإمكانه أن ينال أية فرصة؟.

لكن هذا كان اختياراً لتجاهل حقائق أخرى، جلاميد من الحقائق، خلف عينين مغمضتين حيث كان كل شيء حاضراً في الحال. قال توم مسوماني، وزير العمل، ذات يوم إن الاضطراب الصناعي لا يقوم على «مطالب حقيقية» بل على تحريض، وفي اليوم التالي بذل جهداً كبيراً لإخفاء هذا التلميح الضمني إلى أن ثمة استياء سياسياً بين العمال. كم من الاضطرابات والنزاعات اندلعت بوحي من شينزا؟ يمكن للمرء أن ينسب إليه أكثر مما ينبغي أو أقل مما ينبغي. وماذا كان معنى الاعتقاد بأن كل ما على مويتا أن يفعله هو أن يرفع يد الحزب الثقيلة عن كاهل النقابات؟ مويتا يعتقد أن الطريقة لتوسيع الاقتصاد بسرعة لمصلحة العمال أنفسهم،

Twitter: @alqareah

وكل شخص آخر في البلد، هي دعم أرباب العمل المستثمرين عن طريق تأمين قوة عمل مطواعة.

بالإحاطة بهذه القبة الزرقاء من الحقائق التي لم يكن بالإمكان مصالحتها مع جوه الخاص ـ عاطفة مثل طبقة من بصاق تلفها حشرة حول الهم العظيم لوجودها، بيوضها ـ استاء من شينزا لأنه ليس قادراً على الاعتراف بأن مويتا على خطأ. وفي الوقت نفسه (الساعة الرابعة، الآن، الخامسة؟) كان مستعدا لأن يقلب حكمه الخاص، مثل بلاطة ضريح، وأن يجد هناك في الأسفل فقط ذلك النوع من الأشياء التي تكمن تحت الحجارة.

نهض ومضى ليبول في الحمّام الفاسد الهواء. استخدم حوض الحمام، مسيّلاً الماء برفق بمثابة رحض كي لا يزعجها بصوت المرحاض. في الحال تذكر فجأة بإلحاح عنيد شيئاً ما كان شينزا قد قاله: «.. يجب تعليم الناس أن يصرخوا «أوقفوا اللص» ماذا كان السياق؟ قال شينزا: ابحث عنه في المعجم. اجتاز الممر إلى غرفة المعيشة وأشعل النور. كانت نفاضات السجائر مليئة بشكل بارد. ثمة سيقان زبيب في الموقد وفنجان من القهوة الرغوية على طاولته. تعرى وركع، متدلياً، بملمسه الرطب، مستنداً على كاحله، وهو يفتش رف كتب النشرات الحكومية. كان قد جلب معه فانون إلى أفريقيا، رغم كل شيء. صفحات الكتاب ذي الغلاف الورقي صار لونها بلون بقعة النيكوتين المظللة حول عقب سيجارة. وجد المكان: «أوقفوا اللص!». «في طريقهم المرهق نحو المعرفة العقلانية يجب على الناس...». عاد إلى الوراء سطوراً قليلة، لأجل المعنى «... حتى حينه كان كل شيء يبدو بسيطاً للغاية من قبل: الناس الأشرار على طرف، والأخيار على الطرف الآخر. النور الصافي اللا حقيقي، الرعوي للبداية يعقبه نصف ظلمة تربك الحواس. يكتشف الناس أن الحقيقة الجائرة للاستغلال يمكن أن ترتدي وجهاً أسود، أو وجهاً عربياً، ويرفعون الصرخة «خيانة» لكن الصرخة تُخطأ، والخطأ يجب أن يصحح. الخيانة ليست قومية، إنها اجتماعية. يجب تعليم الناس أن يصرخوا «أوقفوا اللص!» في طريقهم المضنية نحو المعرفة العقلانية يجب على الناس أيضاً أن يتخلوا عن تصورهم البسيط جداً لأسيادهم».

عاد إلى السرير واستلقى مرة أخرى، مستيقظاً، ورأسها على ذراعه وقد انزلقت ساقها بين ساقيه؛ لو نهضت في أي مكان قرب سطح الوعي لحركت شفتيها على شعر صدره. طوال ساعات هذه الليالي التي كان أثناءها في اهتياج عظيم، فقد كان

Twitter: @alqareah

أيضاً في أعظم طمأنينة. كان مدركاً لحمل هذين التناقضين بتوازن. فيما مضى اعتادت صديقة حميمة من صديقات أمه أن تقول بمرح عن أي شخص وجد نفسه معرضاً فجأة لحاجات استثنائية:

- «الآن يعرف أنه على قيد الحياة».

تساءل إن كانت تعرف ماذا تقول.

رأى الهوائيات الفضية لسيارتي الجيب البوليسيتين المليئتين برجال سيلوفو وهي تسوط عبر الأوراق والأغصان المقطوعة. كان آتياً إلى البيت في وقت العصر من قرية ستكون ذات يوم في ضواحي غالا. تلك هي الكيفية التي يتوصل بها المرء إلى معرفة ما يحدث: أحد ما رأى شيئاً ما، سمع شيئاً. ذكر ذلك لأليك عندما تم استدعاؤه في ألبوما، ولا بد أن أليك قد اتصل هاتفياً بسيلوفو حالما خرج من الغرفة. بأي حال، في عصر اليوم التالي عرف الجميع ماذا حدث. قتل عامل في إنشاء سكة الحديد، الآن على بعد أربعين كيلومتراً من غالا. العمال الآخرون أضربوا عن العمل احتجاجاً على شروط العمل؛ هددوا رؤوساء الورش الإيطاليين. أحد هؤلاء ساق السيارة إلى منتصف غالا عبر الأدغال، في منتصف الطريق إلى الغابات. عندما وصل رجال شرطة سيلوفو إلى موقع البناء وجدوا أن أهل قرية كاسولا المجاورة، التي جند منها العمال لهذه المرحلة من الإنشاء، قد حملوا العامل الميت إلى البيت لأجل الدفن، وفي نوبة مسعورة من الجنون الحدادي ذهبوا مباشرة من الجنازة لمؤازرة المضربين. كان رؤوساء الورش قد حبسوا أنفسهم في عربة قطار ينامون فيها؛ أحرقت عربة شحن ورميت المعدات إلى النهر.

«الأمور حامية قليلاً قبل المؤتمر»: عرض أليك، كما لو أن ذلك كان متوقعاً ببساطة. كان هو وبراي وريبيكا يشربون الشاي لإضفاء غرض ما على وقوفهم في الجوار في مكتب أليك. الآن، في حين كان سيلوفو بدون أفضل رجال قوته الصغيرة، فقد بدأت بعض المشاكل الغامضة بين الرواد الشباب للحزب وعمال مصانع تعليب الأسماك والكلس، في المنطقة الصناعية من بلدة غالا نفسها. انتشرت إلى أهالي البلدة بعد ساعات العمل، وكان ثمة حتى عصابة سلب مهيمنة تجول عبر البلدة والشوارع الرئيسية، كانت ريبيكا قد صادفتهم وهي تسوق السيارة إلى البيت؛ كررت: «صرختُ فتفرقوا بشكل ما ليدعوني أمر، وهم يصيحون طوال الوقت، لكنني لا أعتقد أنهم كانوا يصيحون بي».

Twitter: @alqareah

ربما كانت تريد أن يقال لها إنها متهورة أو جريئة لا مبالية؛ ما كان يشك فيه هو تصرفها الخاص أكثر مما كان يشكُ في تصرف العصابة. قال لها: «حسناً، هل ينبغي أن تكوني قادرة على إثبات ذلك؟» متظاهراً بتقريعها بصفته معلمها في اللغة.

«كل ما أمكنني سماعه هو شيء ما من قبيل «نحن قادمون». كررت العبارة بلغة غالا، للتأكيد.

- «الناس يحبون قليلاً من الإثارة، هذا كل ما في الأمر، هذا هو الانطباع الذي تولد هذا الصباح». لقد استُدعي أليك إلى الضاحية ليجول في السيارة مع الرائد جوشوا نتشالي. سيلوفو لم يكن مغفلاً وهو يعتقد أن عرضه للخدمة المدنية والسلطة المدنية لا يمكنه أن يخفي النقص الذي يعاني منه البوليس، بل حتى أنه يوحي بأن وجود رجال البوليس ليس ضرورياً. «ثمة عدد قليل من الناس جاؤوا إلى البيت من العمل بدون أي مبرر - رأيناهم يقفون في الجوار خارج البيوت، ينبغي أن يكونوا خارج الطريق في العمل في ذاك الوقت. - الناس الذين ليس لهم علاقة بمعمل تعليب الأسماك أو عمال الكلس. قال أحدهم إنه قد تعطل عن العمل اليوم لأن زوجته وأمه لا تريدان أن تبقيا في البيت وحدهما. زوجة عامل آخر لم تدعه يذهب لأنها كانت تخشى أن يعلق في ورطة في البلدة. وهكذا دواليك. شيء مثير للسخرية. جوش أعطاه محاضرة غطت كل شيء من كيفية الحفاظ على الزوجة إلى مسؤليته عن الصحة في مدينة غالا المشهورة. تبين أنه كان منظفاً في المسلخ».

ولكن ثمة ما هو أكثر من الإثارة في الفندق، البناية الجديدة الكبيرة على التلة التي كانت في الماضي تفصل غالا عن البلدة الأصلية مخفية إياها عن النظر. «إذاً كان هؤلاء الشباب العاطلون عن العمل هم الذين يربطون أنفسهم بالرواد الشباب فما الذي يفعلونه بالعيش هناك؟» سأل براي. كان من المفترض بالفندق أن يؤوي الرجال اللامتزوجين الذين يستخدمون في الصناعة والأشغال العامة.

«هذا ما قلته لنتشالي العجوز. إنه شأن بلدي. ذاك الفندق مليء بالناس الذين ليس لهم الحق في أن يكونوا هناك - فهم ليست لهم وظائف، إنهم فقط يدخلون ويشاركون في غرف أقربائهم الذين يعملون في البلدة».

«إذاً ينبغي على الحزب أن يتبرأ منهم».

قال أليك: «الحزب لا يتبرأ من أحد من شعبنا».

«عزيزي أليك، الحزب يمكنه ويفعل ذلك - ماذا عن عمال مناجم الحديد الذين تحدوا النقابة؟».

Twitter: @alqareah

تقبَّل أليك ذلك بابتسامة، ممرراً أي حكم: «ذاك الفندق فكرة سيئة بأي حال، أياً يكن من يُعتقد أنه يعود إليه».

«بالطبع، يشبه كثيراً المجمع السكني. لقد خططه أناس كانوا لا يزالون يفكرون بلغة العمال المهاجرين» وأضاف، لأجل ريبيكا: «آخر هيئة قرية بيضاء، قبل الاستقلال؛ لقد كان طفلهم».

«نعم، أعتقد ذلك» قال أليك: «كيف تبدأ بجعل الجميع يعرفون أنه سيكون ثمة حظر تجول الليلة، في مكان ليس فيه جريدة؟ سيلوفو يلح على أننا بحاجة إلى حظر تجول ليوم أو أكثر».

سألت ريبيكا: «المذياع؟».

«حسناً، لا... لا أدري».

كان أليك وبراي يعرفان الاعتراضات على ذلك؛ فالمرء لا يريد أن ينشر عبر البلاد بأكملها الانطباع ـ الذي من الصعب أن يلقى تأييداً ـ وهو أن غالا في حالة طوارئ.

نظر إلى أليك: «بالطبع، من المحتمل أن ذلك سيكون في خدمة الخبر ـ فرض حظر التجول وهلم جرا».

لكن ذلك كان مختلفاً عن إذاعة أمر إلى شعب غالا، إنذار سيسمعه كل شخص آخر.

«سيلوفو يريد عربة ڤان ذات مكبر صوت ليجول بها».

«هذا بالتأكيد هو الأفضل».

«لكن ليس لديه عربة بوليس ليوفرها ـ إنها جميعاً في الأدغال عند سكة القطار».

سألت ريبيكا: «ما الذي ستفعله؟».

جاءت ووقفت بجانب براي. كانوا يطلون عبر حديقة البوما المرتبة (فقد زرع الهيبسكوس حيث خرقت شوكة المسيح إصبع قدم الطفل أليك) أسفل منحدر البلدة نصف المخفية بركام النباتات دائمة الخضرة، حيث جزء من السوق ذو بقع من لون الخضار، حافلة ثقيلة ذات لون أصفر باهت، برفاريفها المشمعية تنتظر في الأرض المفتوحة لمحطة الباصات، باحة مخزن باربهو بلوحته الإعلانية ذات الوردات الخمس على السطح، والصف المرتاح من النساء والأطفال الجاثمين خارج المستوصف، كان ذلك كله في إطار الرؤية. الدراجات العادية والمشاة يتنقلون في الطريق، الدراجات تتخبّط نازلة فوق الجزء حيث تنتهي الخمسمائة ياردة من الزفت المفروش أمام البوما، وثمة انخفاض مخدّد إلى القذارة. كان لديه شعور ـ

Twitter: @alqareah

ثانوي دقيق ـ إنهما فجأة يفكران بالبحيرة في وقت واحد. البحيرة بأفقها المقوس؟ التي تنسل القوارب الشجرية السوداء إلى أسفلها باتجاهك. البحيرة راكدة كما السماء الشاحبة بفعل الحر.

قال أليك: «استعرْ سيارة الحزب. أعتقد أنهم الوحيدون الذين يمتلكون سيارة مجهزة».

لسبب أو لآخر أرادته ريبيكا أن يأتي إلى بيت آل تلومي لأجل الغداء ـ فهي في العادة تكون مشغولة بإحضار الأولاد من المدرسة وإطعامهم، ما لم يحصل أن يذهبوا إلى البيت مع زملاء المدرسة فيمكنها أن تأتي إليه. وافق بدون تفكير في ذلك، بأي حال، لأنه تلقى اتصالاً في البوما في حوالي الظهر من جوساب، وكان عليه أن يخرج ويراه، وهو يعرف قبل أن يصل إلى هناك حول ماذا ستكون الدعوة العاجلة والتبريرية. من المؤكد بشكل كافٍ أن إي. في. تشونارا من الجمعية الإسلامية في محل الخياط جوساب. هناك بين طاولة لوح الكوي وآلة الخياطة وطاولة القياس بمقصاتها الطويلة المنقار المربوطة إلى خيط، عبّر الجنتلمانان الكهلان «عن انزعاجات الجالية"من قاعة غاندي والمدرسة. كان يعطي درسه مرتين في الأسبوع لفرع الحزب المحلي هناك ـ القاعدة الاقتصادية ضرورية لأهداف عموم أفريقية. تساءل أعضاء اللجنة المسلمون ما إذا كان من الحكمة جمع هؤلاء الشبان في المدرسة الهندية في هذا الوقت بالضبط. ما كانوا يلمحون إليه في الواقع هو أنهم يريدون إغلاق المدرسة والورشة التابعة لمركز تعليم الكبار حين وجود الإزعاج. لم يتفاجأ، مع أنه في سره كان يشك بإمكانية ظهور هذا الصف للحزب بأي حال، في الوقت الحاضر. إن بضعة محلات هندية في البلدة قد أبقت مصاريعها الخشبية منزلة؛ هذا ما لاحظه ذاك الصباح.

في بيت تلومي كانت ريبيكا وتشكيلة من الأطفال السود والبيض الذين جلبتهم إلى البيت من المدرسة موجودين قبلئذ على المائدة ـ كان ثمة ليموناضة وكعك. «ألحوا على أنك يجب أن تكون هنا».

تأكد له أنه عيد ميلادها. وليس عيد ميلاد أحد الأولاد.

ضحكت: «ألم أعرف متى عيد ميلادك؟».

«أظن أنني أخبرتك ذات مرة. عندما أردت أن أعرف برجك الفلكي».

قال الصغير، كلايف: «برجي هو برج الحوت».

Twitter: @alqareah

كان بوسعه أن يقبلها لأجل عيد ميلادها، أمام الأولاد. بالرغمٍ من أنها كانت تعتذر عن جعله يعاني من الضجيج وحفلة الغداء غير المستساغة جداً، فقد كانت إلى حد ما سعيدة ومشبعة بالكبرياء لكونها مركز اهتمام الأولاد. جلبوا لها الهدايا - لوحات وملصق مرسوم لأشياء باريسية مصنوعة في المدرسة. ذكّر كلايف بأن هدية الأب هي في قمة خزانة الملابس. علبة ملفوفة بشكل متقن تحتوي حجراً شفافاً على سلسلة فضة. ذلك النوع من العقد الذي يأتي من سيلان ويشتغله صناع المجوهرات الهنود في دار السلام أومومباسا. جعلتها سوزي ترتديه وطوال وقت الغداء كان يتدلى حيث كان نهداها مضغوطين إلى مفترقهما عند قبة فستانها. لا بد أنها قد احتفظت بالطرد لتفتحه فقط في عيد ميلادها.

سواء كان سيلوفو قد أرسل في طلبهم أم لا فإن قوة دعم من البوليس من مخافر أخرى قد ظهرت حول البلدة في وقت العصر. كانوا يقفون مبهورين ومغبرين، بالسلطة العديمة الوجه للغرباء على أركان الشارع، خارج الحانة الأفريقية، في ساحات ماسحي الأحذية ومصلحي الدراجات، في الجذور العملاقة لأشجار الماهوغاني، تحت شجرة العبيد في الطرف الصناعي من المدينة. في كل مكان تقريباً، كان يحاول أن يجد شيئاً لائقاً ليشتريه لريبيكا، ولم يكن ثمة أي مكان لم يتعثر بهم فيه.

ما الذي يمكن للمرء أن يجده في غالا؟ لقد عاد حتى إلى محل جوساب ليسأل عما إذا كان أي من المحلات الهندية، التي لم يكن لديها شيء لتعرضه سوى الملابس القطنية اليابانية، ليس لديها بعض الساري الحريري الأنيق مخفياً؛ ولا حتى زجاجة جيدة من العطر الفرنسي لدى العطار!

«لا يوجد طلب على ذلك».

في النهاية اشترى لها حقيبة ملابس جلدية أخرجت من غرفة خلفية في ركن لوازم الرجال من سوبر ماركت ديل. كانت الشيء الجميل الوحيد الذي استطاع إيجاده في غالا، لا بد أنها كانت موجودة هناك منذ عدة سنوات، إنها غالية جداً، تنتصب ملفوفة ببساط سياحي رخيص منذ ما قبل مغادرته، منذ عشر سنوات. حملها إلى سيارة الفولكس فاكن، غير راض تماماً، لكنها كانت أفضل من لا شيء، وكان عليه أن يتوقف قبل عبورِ الطريق فيما تمر عربة مكبر الصوت التابعة للحزب. كان صوت مدفون يجأر متقدماً في بواق مخيف، ولم يكن من الممكن تخفيف الأذى في سماعه ،لكن معناه لا يمكن اكتشافه. وقف فرانك روجرز، صاحب مخزن

Twitter: @alqareah

القوارير، فندق الفيش إيغل، المحافظ السابق لغالا، وكان في الماضي أحد منظمي الحركة لاستعادة المجلس النيابي ينتظر بجانبه. كانت أسنان روجرز تكتسي نفس اللون الأصفر الصدأي لشعره الذهبي.

كشر: «ألن تمر علينا مرة أخرى، يا براي؟».

«هدية وداع لأجل أفراد هيئة التدريس في مركز التعليم».

«بالطبع، كل واحد يعرف أن لدى براي امرأة ـ في البداية انخرط مع الرجال الشرسين بين السود، الآن يعود ليجد لنفسه بغياً، آمناً من أية مشكلة في البيت. تلك هي الجاذبية الكبرى لرجال بيض مثله ـ افعل ما تشاء فالسود لا يبالون».

كان يعرف أن الشائعات القديمة حول احتفاظه بنساء سوداوات قد تم إحياؤها، في اللحظة التي عاد فيها إلى غالا ـ كل الاشتياقات إلى ساحاتهن الخلفية تم إسقاطها من قبل البيض الساخطين على أولئك الذين يقاسمونهم لونهم وليس سياساتهم. هل الوجود اللامشكوك فيه لمحظية بيضاء يثبت تهمة غير مؤيدة أقل من مجرد اختلاق محظية سوداء؟ سيكون من المسلي أن نعرف ما إذا كانت المحظية البيضاء تعتبر أقل أو أكثر دلالة على الانحطاط.

وهل كانت أوليڤيا، بطريقتها، ستمانع وجود امرأة سوداء بأقل من ممانعتها وجود امرأة بيضاء؟ (كانت تعرف عن الفتاة السوداء الجميلة التي كان متعلقاً بها شديد التعلق في دار السلام، قبل زواجه) هل كانت ستجد الفتاة السوداء أكثر قابلية للفهم، لديه؟ ليس لأنها تعتقد أن النساء السوداوات لا يرقين إلى مستواها، بل لأنها نفسها قد وجدت الكثيرات منهن جميلات، وبإمكانها أن تتخيل جيداً أن رجلاً يمكن أن يجد في الأفريقيات بعض الصفات التي كانت النساء الغربيات قد قايضنها بالتحرر. سيكون من الشائق أن نعرف ذلك، أيضاً؛ ولكن هناك أيضاً، لن يعرف أبداً. فأوليڤيا لن تعرف عن هذه الفتاة، ولن تقاسي، هذه الحقيقة بدت لا جدال فيها. وفي حين كان يعيش مع البنت فإنه لم يكن لديه أية خطة أو خاطرة لا تفترض وجودها. إن فكرة «التخلي عن» الفتاة لم تكن قائمة، ومع ذلك كان ثمة قبول مكافئ بأن أوليڤيا ستبقى بطريقة ما غير متأذية، لا تُمس، مصانة في الوقت الحاضر. لقد عاش كل حياته بالفعل، الآن جاء اللا عقل وكان ينم عن مفارقة، منحلاً؛ سليماً، ثعباناً ذيله في فمه. بيت القصيد أنه لم يشعر بأية ضرورة للسؤال عن تفسير لنفسه. بالمرة.

Twitter: @alqareah

حضر السكرتير الدائم لتوم مسوماني لشؤون اليد العاملة إلى غالا للنظر في قضية سكة قطار كاسولو، هابطاً على مهبط الطائرات قرب السجن، يتفرج عليه أولاد عراة البطون. ولكنه بعدئذ سوى الأمر كله. كان ثلاثة رجال زعم أنهم مسؤولون عن رمي ممتلكات حكومية في نهر سولو بانتظار المحاكمة والباقون عادوا إلى العمل؛ وحده الإيطالي، الذي دخل عبر الأدغال طلباً للمساعدة، رفض العودة.

استُقبل السكرتير الدائم بحفلة شرب بيرة كبيرة في قرية كاسولو، حيث ألقى خطاباً، أخبر القرويون فيه كيف أن سكة القطار ستجلب مزيداً من المال والعمل إلى المقاطعة.

كان كالب نيارندا ضيفاً على آل أليك حين كان في المنطقة. كان رجلاً صغيراً نشيطاً ذا شعر كثيف يتجشأ كثيراً من خلف يد أنيقة، في حين كان يشرب شاياً ثقيلاً ويحكي النوادر من الأيام التي كان فيها جابي جمعية دفن الموتى في العاصمة. ربما كان لايزال يمتلك أكثر مما ينبغي من أسلوب موارب لبق بشكل محترف مع الناس؛ علق أن قرويي كاسولو ودودون جداً، لكن «لا أحد تقدم لإخباري عما يجري فعلاً».

«لقد أخبرتك بتلك القضية الأسبوع الماضي» ـ كشف له كيف أنهوها...

ـ «رغم كل شيء فأنا لم آت لأجل عرس».

قال أليك: «حسناً، لقد سروا برؤياك تماماً، هذا كل ما في الأمر».

ـ «الناس يحبون أن يعتقدوا أن الحكومة تهتم بهم».

ـ «إن رمي أحد تلك الأشياء المهترئة الكبيرة العظيمة إلى النهر، إنما هي طريقة للفت الانتباه!» ضحك نيارندا، وهو يتطلع حواليه طلباً للتأكيد.

ذكر شخص ما رئيس الورشة الإيطالي، الذي كان لا يزال في غالا، يجلس طوال النهار على شرفة فندق فيش ايغل، يراقب بنظارت سوداء دون أن يلحظه أحد، الصليب حول عنقه يلمع على الصدر ذي الشعر المبروم في قميصه المفتوح.

كان بإمكان براي أن يتكلم قليلاً من الإيطالية، وأصر على أن يكون ودوداً معه لو مر به. أخبره رئيس الورشة أنه بصدد أن يستقل سيارة عابرة إلى العاصمة حالما يستطيع الحصول على أشيائه من الموقع؛ ثم سيذهب إلى البيت في فويا، ويمكن للشركة أن تقاضيه إذا شاءت ذلك « يقول إن مريم العذراء أنقذت حياته مرة واحدة، لكنك لا تستطيع أن تكون متأكداً تماماً من أنها ستفعل ذلك مرة أخرى».

ـ «تفعل ذلك في حينه، مرة أخرى» هذا ما قاله فعلاً.

Twitter: @alqareah

«ذاك هو الرجل الذي دفع عربة المشتريات لأجلي في السوبر ماركت البارحة».

ارتدت أغنس أليك الشعر المستعار ومكياج العين طوال النهار، المخصص للمناسبات الخاصة فيما كان السكرتير الدائم هناك ليس بدافع الرغبة في جذبه بل لتثبيت نوع ما من المعيار لأجل المقاطعة الشمالية البعيدة.

ـ «ألم يتأكد من أنك مُلك للحكومة؟» كان نيارندا سريع البديهة. وقفت آغنس ويدها على وركها. «كل ما يمكنني أن أخبرك إياه أنها المرة الأولى في حياتي التي يعرض فيها رجل أبيض أن يحمل شيئاً لأجلي».

«والسود؟» قالت إدنا تلومي بصوتها الرخيم: «آه منهم. لا تتحدثي عنهم. لا تتوقعي حتى هذا منهم».

في حين استمر المزاح عاد أليك، في مناقشة جانبية مع براي، إلى موضوع قرويي كاسولو مرة أخرى. كان قد رافق نيارندا، بالطبع. «إنهم يريدون سداً هناك، هكذا قيل لي، لكنهم لم يناقشوا ذلك معه. سألت، لكنهم قالوا إنه واحد من أهالي مسو، فلماذا يتعين عليه أن يطالب الحكومة ببناء سد لأجل غالا؟ سيفهم بشكل طبيعي أن السدود تبنى لأجل الشعب الذي ينحدر منه».

هز أليك كتفيه وضحك.

«ولكن لماذا لم يعرض الموضوع؟».

«كيف له أن يعرف ماذا يريدون؟».

إن أسلوب أليك في الانصراف قد صَقُل جيداً على نحو كاف لو استعيد النظام وكان الناس قد نالوا بعض الفخر في تسلية ممثل هام للحكومة حتى لو لم يكن لهم ثقة شخصية به، فلماذا يعاودون الالتفات إلى استياءاتهم؟ حسناً، لو نوقش السد ثم لم يتم بناؤه، لكان أليك الرجل الذي سيتعين عليه أن يتعامل مع النقمة.

هدأ أهالي بلدة غالا، أيضاً. وافق السيد تشونارا على فتح مدرسة غاندي بتصرف المركز مرة أخرى. في منجم الحديد استمرت المشاكل من نوع واحد ومختلف. فقد هدد عمال مناجم الفوسفات في المحافظة الشرقية بإضراب بدون موافقة النقابة. اندلع إضراب بين عمال وسائقي محطة الصيانة لشركة النقل البري التي تنقل البريد والصحف إلى غالا. لمدة أسبوع بقيت غالا بدون جرائد، وتأخر وصول الرسائل طويلاً. برغم (أو ربما نتيجة السكوت؟) المراسلات اللامنتظمة، فقد تلقت ريبيكا رسالة من زوجها. كان فيما يبدو قد غير رأيه حول المدرسة الداخلية لأجل الأطفال؛ فقد أدخلهم إلى مدرسة في جنوب أفريقية.

Twitter: @alqareah

«أين هو؟».

«لقد كتب من ويندهوك، لكن المدرسة في جوهانسبورغ».

«والصغير؟» قال براي. بمسحة الأب، «بالتأكيد إنه أصغر من أن يذهب إلى المدرسة فعمره ليس سوى خمس سنوات. سيقيم مع شقيقة غوردون، لفترة. تلك هي الفكرة تقريباً. لديها ابنتان توأمان في سنه. هكذا يمكن للسيدة غوردون أن تعتني به».

قال لها: «ألم يطلب منك أن تأتي، أيضاً؟».

كانت لها طريقة خجولة، مغرورة في إخفاء مصدر خطر حالما ينتهي. «نعم، هو طلب منا جميعاً أن نغادر ـ لكنني شرحت، لا يمكنني أن أفك عقداً حكومياً، وهناك النقود ـ والنقود من البيت، أيضاً، لا يمكنني مجرد ترك ذلك هنا، كله في دقيقة واحدة...».

«أي بيت؟».

«البيت في كينيا ـ والدي بنى بيتاً لأجلنا عندما تزوجنا. بيع العام الماضي ونجحنا في إخراج النقود وجلبها إلى هنا . لكنك لا يمكنك تحويل الأموال من هنا إلى جنوب إفريقيا، الآن».

«يا إلهي».

فهم أنها "مقطوعة" في جوهانسبورغ: غوردون إدواردز الذي يؤمن الثلج له لأجل الويسكي هو بعيد في أدغال موزامبيق؛ هو نفسه لا يمكن الوصول إليه. كانت واحدة من تلك الرؤى الغيبية للعوز والهجران التي تأتي في الطفولة لدى مشاهدة شحاذ نائم في الشارع.

«ماذا يقول؟».

«عني؟». تباطأ صوتها. «لكنني أخبرته. لا يمكنني أن أجيء. ينبغي أن أنهي عقدي. على الأقل لا يمكنني أن أترك ما لم يكن بإمكان أليك تدبير شخص آخر».

كان فكها المكتمل، المربع ثابتاً لكن عينيها كانتا مكشوفتين، مأسورتين به، مثل يدين مرفوعتين بهدوء عند تسديد بندقية.

تابعا الحديث حول التفاصيل العملية لرحيل الأولاد.

في تلك الليلة في نهاية المضاجعة طفقت تبكي. لم يكن قد شاهدها تبكي من قبل. الدموع، وقد أفلتت، مثل منيه، صارت تقطر إلى داخل شعرها وتجويف عنقها، رفع يده ليتأكد فعادت أصابعه مبللة كما لو أنها من جرح لم يشعر به. لم

Twitter: @alqareah

تدفن رأسها أو تخفي وجهها؛ كانت مستلقية على ظهرها ضمن ذراعه. فكر بالصبي الصغير وقال، «أعرف، أعرف».

مسح الدموع بنفسه. لأنها لم تكن المرأة التي تنتحب، فقد أصبحت للحظات قليلة مثل أولاء الأخريات اللواتي عرفهن، اللواتي فعلن [ذلك]، ولم يكن ثمة شيء ليقدمه لها سوى المواساة المعتادة ـ قبّل عينيها ومد لسانه فوق الحاجبين. قالت: «إنه مستقل... للغاية، لكن كله سواء... إنه صغير، أليس كذلك؟».

جلب لها حبة أسبرين وكأساً من الماء فنامت، وهي تشخر قليلاً بسبب النحيب. بدأت عملية تقطيع للأوصال تحدث لديه. ستذهب مع أولادها. سيأمرها. أمسكها فحمله تيار جسدها، كما لو أن لا شيء قد تبدل، أخيرا إلى النوم.

في الصباح استيقظا متأخرين وكان من المستحيل البدء بالحديث. لم يكن بمقدورها أن تأتي إليه في المساء. فوانغوايي كان بعيداً في الأدغال وإدنا في مهمة ليلية، لذلك كان عليها أن تنام في البيت مع الأولاد. جاء لأجل العشاء ومرة أخرى لم تكن ثمة فرصة. كان يوم الجمعة، والأطفال منحوا امتياز السهر حتى وقت متأخر. لعب والفتاة بالكراسي الموسيقية معهم. كانت مليئة بالنكات الخصوصية وكانت سعيدة وعندما انصرف الأولاد إلى السرير لم يكن الوقت ملائماً لجعلها حزينة مرة أخرى. كانت سعيدة لأن والدة إدنا قادمة للعناية بالأسرة في اليوم التالي، وقد وعد بأن يذهبا وحدهما إلى البحيرة. في كل يوم كان يجعل ما يجب عليه قوله أكثر صعوبة. وهو يقود السيارة إلى البحيرة كان يستعيد في كل مرة تجديداً للمرة الأولى التي كانا فيها لوحدهما معاً. كانا يذهبان إلى الجزيرة، هذه الأيام يأخذان معهما عدة صيد السمك بالرماح، واصطادت هي سمكتها الأولى. كان الوقت ربيعاً، بدأ الحر الذي يتراكم على مدى الشهرين قبل بدء هطول الأمطار، وكان عليه أن يرفع الزورق الشجري وأن يسنده إلى الصخور ليصنع ظلاً. فشجر الباوباب لم يكن قد أورق بعدُ. حتى عندئذ، كان سكون الساعة الواحدة مرعباً. وهما ينسحبان إلى داخل ملجئهما الظليل كانا يتحدثان في مزاج الثقة التي، بالنسبة لهما، تتوافق مع كونهما عند البحيرة. في لحظة قالت، «... وعندما كنت تعسة ـ أنت تعرف. أنا فعلاً كنت بالكاد أمانع على الإطلاق. إنه شيء شنيع. أليس كذلك. أنا أتطلع إلى الأمام إليكَ... وأنا... فلا أجدهم من حولي... تماماً... المشكلة أنني أريد أن أنفجر من الفرح لفكرة كوننا متروكين وحدنا» وللحظة لم يتأكد تماماً مما كانت تقول. كان قد نسي، في خضم الحميمية ولذة اليوم ما الذي يتعين عليه أن يقوله.

Twitter: @alqareah

وهكذا، لم يُقل ذلك، إذ لم تكن ثمة حاجة إليه.

غادر الأولاد غالا بالسيارة مع الفريق الطبي التابع للأمم المتحدة المكون من زوج وزوجة كانا في مهمة لتقديم المشورة حول خدمات الصحة للبلاد. كانا صديقين قديمين لريبيكا منذ الفترة التي قضتها في بلد أفريقي أو آخر، وكانا عائدين إلى العاصمة بعد رحلة إلى مجتمعات البحيرة. في العاصمة أودعت ڤيڤيان في رعاية إحدى صديقاتها التي كانت مسافرة على الطائرة نفسها إلى جوهانسبورغ.

في الأيام الأخيرة قبل ذهاب أولادها كانت ريبيكا حزينة أحياناً، وكانت تنتحب مرة أخرى ـ لكن ربما كان حزنها هذه المرة حقاً بسبب الافتراق عنهم.

كانوا بالغي التأثر بسبب الأهمية التي اكتسبوها وتوقع الطيران إلى أبيهم لامتلاك الكثير من العاطفة المتبقية. ومن حين لآخر، عندما كانا يثرثران معاً في وقت واحد حول جوهانسبوغ وما الذي سنفعله «نحن» هناك، كانت ثمة لحظة فراغ في وجه واحد أو الآخر، والتعليق ـ «تافه، الماما لن تكون موجودة بعدُ».

بدا أنهم يصدقون ـ أو أنها قد أخبرتهم؟ ـ أنها ستلحق بهم قريباً. ربما كان ذلك صحيحاً، وهي لم تكن قد أخبرته.

وجدت إدنا تلومي تنشج بالبكاء في سيارة الفولكسڤاغن بعد أن غادر الأطفال؛ ذهبت إلى هناك لتكون لوحدها، وكان يتعين إخراجها ومواساتها. كان زيها الرسمي المنشّى مجعداً كما لو أنها تعرضت لاغتصاب، والحبر من قلمي الحبر ذوي الرأس الكروي اللذين حفظتهما مع المقص في جيب محفظتها الأنيقة قد تسرب على شكل بقعة. قالت لبراي فيما ذهبت ريبيكا لإحضار ليمونة لأجل الشاي: «لا تخبرها. ما كنت لأترك أطفالي أبداً، أبداً. لا تخبرها».

لم يكن ضرورياً أن تدب خارج بيته عائدة إلى غرفتها في بيت آل تلومي قبل طلوع الفجر، الآن. اتصل غوردون من جوهانسبورغ عندما وصل الأولاد؛ كانت مكالمة هاتفية راديوية، كان الاستقبال ضعيفاً، لكنه كافٍ بالنسبة لها لتفهم أن كل شيء على ما يرام. جلسا تحت التينة، بعدئذ، هي بصندلها المخلوع وقدميها المرفوعين لأنهما متورمان من الحر. «لقد أراد أن يتذكره الجميع ـ آل تلومي وأنت».

قال لها: «لقد طلب مني أن أتأكد من أنك والأطفال قد خرجتم في وقت جيد، لو ظننت ذلك ضرورياً». كانت هادئة: «أوه؟ حسناً الآن لن تكون هناك حاجة لذلك».
مدت راحة يدها إلى راحة يده وتشابكت يداهما، تعانقا بحرية بين الكرسيين.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الجزء الرابع

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

(15)

كانت ملكية سينما لوكسوراما تعود إلى إبراهيم وسعيد جوشي، الجيل الثاني من عائلة تجار هنود جاءت إلى العاصمة من قبل. أحد الأخوين جوشي كان موجوداً بشكل اعتيادي في الردهة في كل العروض، يتأكد من أن الشباب الأفارقة العاطلين عن العمل لا يشقون طريقهم إلى الداخل دون أن يدفعوا، لكن أحداً منهما لم يُشاهد يوم افتتاح مؤتمر الحزب، وامتداد الأرضية المرصعة بالفسيفساء الحمراء والخضراء التي سرعان ما غصت بالأقدام المرتدية صنادل وأحذية ملمعة، شخصيات ترتدي سترات متجرجرة على الأرض، بسترات تونيك مويتا، بالبذلات السوداء وحتى ببذلات ذات لمعة معدنية، والحشد الكثيف من الأصوات في مكان فتور طابور السينما، قد منح المكان نفحة الاحتلال بالقوة. الأسماك المضاءة في أحواض تزيينية (زعم آل جوشي أن «سينماهم هي السينما الأكثر تبذيراً في أفريقيا الوسطى») كانت تسير جانبياً على امتداد الزجاج وتلهث خرساء طلباً لجرعات الأوكسجين على هيئة حبات المسبحة، مثل ألاعيب شعب مهزوم، متروك وسط الذعر. لم تكن آلة الفوشار تعمل، نافورة الصودا استلمتها لجنة من أمهات الحزب مع الأوعية الضخمة المستأجرة لأجل الشاي.

في الشارع، كانت نساء المنظمات النسائية بمختلف الألبسة شبه الموحدة ـ الشيء الموّحد الوحيد في لباسهن هو تشكيلة ألوان الحزب الحمراء والسوداء ـ ينشدن بكامل قوتهن. كانت لإحدى جماعات الرواد الشباب فرقة موسيقية جوالة ذات صدور بلون الشاي. من حين لآخر، يهتفون بشعارات الحزب، يحملون أعلامهم وراياتهم تتمايل فوق رؤوس الناس، هؤلاء المحتفلون كانوا يمورون إلى داخل الردهة ويجعلون من المستحيل بالنسبة لحركة المرور أن تنتقل إلى الطابق العلوي والسفلي حيث

Twitter: @alqareah

اللجنة السكرتارية المسؤولة عن جدول الأعمال تجلس في الطابق المسروق. برزت كاميرات الصحافة مثل مناظير الأفق خارج الجمهور المحتشد. كانت مصابيح الفلاش تفح وتلتقط الوجوه ببرق مباغت. فورة معاكسة من نفاد الصبر بدلاً من مساعي مشرفي الحزب دفعت المغنين والمنشدين المصابين بالدوار إلى الشارع بين الأولاد، والدراجات الثلاثية لباعة البوظة، والدراجات النارية للشرطة.

إنه حرّ تشرين الأول ـ اعتاد المستوطنون البيض أن يسموه شهر الانتحار ـ قد فرض حصاراً في الخارج، لكن سينما لوكسوراما كانت مكيفة، في هذا البراد الذي تفوح منه رائحة الدخان والعلكة سمع براي وقع كل كلمة، الخالي فجأة من الضجيج والرطوبة البليدة. كان مويتا الداخل لإلقاء خطاب الافتتاح يضاهي مزاج الثقة الذي استشعره براي حوله في بياض العيون السريعة على خلفية الوجوه السوداء. رباطة الجأش المتوترة للناس الذين يحملونها جاهزة بداخلهم، لم تمسها حتى الآن آفة من آفات الرأي المعارض، الخطابات التي أعدّوها، النقاط التي سيرسلونها إلى الوطن. وكان شينزا هناك في مكان ما على الخشبة بين اللجنة التنفيذية واللجنة المركزية؛ ببطء كشف الوجه عن نفسه؛ اللحية، طريقة رفع البصر بسهولة، ليس خارجاً إلى قاعة الاستماع بل إلى جهة واحدة، كما لو أن بعض الأسرار اللامرئية تفضي إلى أذنه المائلة. هناك كان هو.

كان لسترة مويتا شكل لفاع صغير المقاس في العنق؛ يصنع لطخة مائلة إلى الحمرة من مسافة تحت أضواء خشبة المسرح، ويجعل المرء مدركاً لوجهه بين كل الآخرين، حتى عندما لا ينظر إليه. بشرته تلمع؛ كان معافى وأنيقاً. بدأ بالكلام بطريقته الحميمية عن عدم استقرار آلة الحكم التي تم استلامها منذ أقل من عام، مع إعادة تأهيل الهيئات الإدارية الاستعمارية بالعناصر الوطنية التي تعاني بشكل كبير نقصاً مزمناً في القوة البشرية. كانت مهارات البلد على الدوام تؤمن عن طريق المغتربين لأن السلطة الاستعمارية كانت «تعتقد أنه من غير الضروري» تطوير مهارات السكان المحليين. تلك كانت السياسة المعروفة جيداً للاستعمار. «لم نكن «مهيأين» لأجل الاستقلال عن الرجل الأبيض وعندما قاتلنا في سبيله وكسبنا، أخذنا بلدنا بأيدينا العارية». منذ اليوم الأول ووجهت حقيقة أن الكثير من الأعمال الإدارية واليد العاملة الماهرة سيكون عليها أن تستمر في العمل بفضل المغتربين ـ مع وجود فرق وهو أننا «نحن أرباب العمل، وهم المستخدَمون، الآن: إننا ندفع للزمار

Twitter: @alqareah

ونسمي اللحن. بالنظر إلى هذه الحالة الصعبة، الخطيرة، المحفوفة بالمخاطر للبلد عندما وقع أخيراً في أيدي مالكيه الشرعيين، كيف يبدو الآن؟».

توقف مويتا فجأة وتطلع خارجاً وحواليه إلى صفوف الرُكَب المفروشة والوجوه التي لا بد أنه كان قادراً على أن يراها نصف رؤية في دكنة أنوار البيت وراء الوهج الذي يغلفه على الخشبة. كشف وجهه، سيباستياناً للسهام الكثيرة. وبدا أنه يقتلعها، بدون ألم من لحمه، سلفاً: نعم، ثمة بعض الصعوبات، قلاقل العمل في الصناعة والأشغال العامة التي كانت كلها في الواقع النتيجة المباشرة للتركة الاستعمارية، المشاكل التي كانت توضع على الرف ويتم تجنبها في ظل الاستعمار، دائما توضع جانباً ليوم آخر. «هذا اليوم هو يومنا» تحوّل فجأة إلى صوته الموجّه إلى اجتماع جماهيري في ستاد كرة القدم، بحيث كان للحظة أضخم مما ينبغي بالنسبة للميكروفون؛ وصارت العبارة تتصادى، تذهب وترتد إلى الجدران: «هذا اليوم هو يومنا ويجب أن تُعالج المشاكل من قبلنا تماماً كما لو أن الحكومة قد خلقت تلك المشاكل بدلاً من كونها قد ورثتها. من السهل إخراج الناس في الوقت الحالي، أن نضع شيئاً ما في أيديهم وأن نصرفهم سعداء ـ لفترة وجيزة. ولكن ماذا يحصل عندما يعودون وأيديهم ممدودة مرة أخرى، وهذه المرة لا تملك شيئاً لتقدمه لهم، لأنك استنزفت اقتصاد البلد بما يفوق موارده؟ إن حاجات التنمية الاقتصادية، في هذه المرحلة، يجب أن تسود على كل الحاجات الأخرى. فرفاه البلد ككل هو ما كان الحكم قد وضعه في الذهن عندما لم يقبل، ولم يستطع، وما كان ليقبل مطالب عمال المناجم، التي لم تكن قائمة على اقتصاد بلد مستقل، آخذ بالتطور، بل كان يعود (القهقرى) إلى الاقتصاد الذي كان قائماً في العهد الاستعماري. في أذهان العمال... وبالطبع في هذا البلد في كل مكان كان ثمة أفراد مستعدون لاستغلال الفوضى لأجل غاياتهم الشخصية. لكن حكومة «الحزب» كانت تسوي النزاعات الصناعية بالطريقة التي تخدم المصالح الطويلة الأمد للعمال بشكل أفضل ربما مما كان بإمكانهم أن يحققوه ـ في الحقيقة بأفضل مصالحهم الممكنة بالإضافة إلى مصالح البلد ككل. «أثناء الحرب الأوربية اتخذت الحكومة البريطانية في المملكة المتحدة، إجراءات خاصة، تشمل حظر الحق في الإضراب، لكي تحافظ على الوتيرة المتصاعدة للناتج الصناعي. إننا في حرب، أيضاً ـ مع تخلف بلدنا، مع الرجعية والفقر».

«لن أتخذ المخرج السهل؛ إذا كان ذلك يعني خسارة تلك الحرب. لن أضع نفسي في الموقع الذي يجب على ناس هذا البلد أن يُصرفوا فيه خاليي الوفاض».

Twitter: @alqareah

في المقطع الأخير من العبارة الرنانة أطلق حيلته المعتادة في مواجهة نفسه باتهام ملموس آخر ـ فقد كان ثمة مشكلة أخرى يجب حلها في هذه الأشهر القليلة الأولى. قدم بيانا كاملاً إلى الأمة في حينه، لكنه بالطبع كان يعتبر دائماً أن من مسؤوليته الخاصة أن يفسر للحزب ما تم فعله باسم الحزب. لقد تم التقدم بمشروع قانون الحبس الوقائي: إجراء لوضع حد لأية محاولات سرية للإخلال بنظام البلد في الوقت الذي كان فيه لا يزال يقف على قدميه. كما أشار قبلئذ، في مقاطع معينة، فإن نفاد صبر المجتمع لأجل قطف ثمار الحرية يمكن أن يطغى مؤقتاً على الحس السليم الطبيعي للناس. فكانوا في خطر السقوط ضحية لتلك القوى التمزيقية الماكرة التي ظهرت في كل أنحاء أفريقيا الجديدة، محاولة أن تقنع الناس بتخريب ذاتهم. كان من السهل أن تثير المظالم؛ إنه أسهل من إرضائها من خلال العمل الشاق والنمو المضبوط والمنتظم للبلد. «عندما نبني دولتنا سنكون قادرين على التسامح مع المنتقدين المتآمرين بوصفهم مجانين لا ضرر منهم ولن نكون بحاجة إلى الحبس الوقائي. ثمة إجراء مؤقت لأجل نوعنا الجديد من دولة الطوارئ ـ طوارئ، ليس طوارئ الاستقرار، بل طوارئ ضرورة الاستمرار في العمل، الذي لا يعوقه الأشخاص المزعجون».

كان ثمة مشكلة ثالثة، وهذه لم تكن مشكلة البلد وحده، بل هي مشكلة مشتركة لأفريقية الناشئة. فغالباً ما كان هناك عدم استقرار وقلاقل في الدول المجاورة؛ البلدان المستقرة والمسالمة وجدت نفسها في موقع يتعين عليها فيه أن تلعب دور المضيف للاجئين «من نوع أو آخر». هؤلاء اللاجئون كانوا يعرفون بشكل جيد تماماً أنهم يتمتعون بحماية البلد بشرط صارم وهو ألا يسيئوا استخدامه. لا يوجد بلد يمكن أن يتحمل وجود «أجانب متآمرين ينتهكون حق اللجوء السياسي بجلب السلاح إلى البلد، وباستعمال النشاطات السلمية العادية للشعب كغطاء لأجل تمرير الأسلحة». إن شاحنات الأسماك التي تنقل الطعام من البحيرة إلى العاصمة قد استعملت بهذه الطريقة من قبل اللاجئين. لن يسمح لأحد بأن «يشن حرباً على حسابنا». أُبلغ هؤلاء الناس بأن يغادروا، وكان بمقدورهم أن يعتبروا أنفسهم محظوظين لكونهم لم يحاكموا في محكمة قانونية. القرار حول ما إذا كان مثل هؤلاء المنفيين يجب محاكمتهم بسبب إدخال الأسلحة يكمن لدى النائب العام، وهو لن يقصر في التصرف إذا حدثت مثل هذه الأحداث مرة أخرى، فاللاجئون الآخرون يمكن أن يأخذوا العبرة.

Twitter: @alqareah

برغم «كل هذه المتاعب التي كنا ورثة لها عندما استلمنا فإن هيبة البلد اليوم تنتصب عالياً، بين الدول الأفريقية وفي بقية العالم، والأهم من ذلك أن الناس استطاعوا أن يروا آمالهم تتجسد في الحياة اليومية. فالأفرقة تمضي قدماً. في الخدمة المدنية، صار نصف موظفي الجمارك تقريباً من الأفارقة الآن. فالضباط الإقليميون الأفارقة قد حلوا محل كافة مفوضي الأقاليم البيض. تم تعيين ستة عشر حاكماً أفريقياً. كانت قيادة قوات الشرطة في أيدي أفريقي انعكاساً لوحدة وولاء البلد الذي لم يكن يعتقد أن دولة جديدة أخرى يمكن أن تضاهيه في سنتين أو ثلاثة، حتى قائد الجيش سيكون «واحداً من شعبنا».

إن مشروع قانون التدريب الجديد سوف يلحظ أن القطاع الخاص للصناعة قد لعب دوره في تدريب الشباب كحرفيين. بالطبع إن أكبر خطوة نحو الأمام قد اتُخذت فوراً بالتعاون مع شركات التنقيب، كل اليد العاملة في المناجم حتى مستوى قائد منجم ستكون أفريقية. كان سعيداً بقدرته على أن يعلن للمرة الأولى، لهذا المؤتمر، أنه قد أخبر للتو أن وزير التعليم ووزير التنمية والتخطيط قاما بترتيبات ناجحة لدى منظمة العمل الدولية لإقامة مشروع التدريب الإداري في العاصمة. الهدف المحدد هو تدريب الأفارقة على سد الثغرات الإدارية في التجارة والصناعة، وتولي الوظائف المتوسطة والكبرى التي يسيطر عليها الأجانب بشكل شبه حصري. الهدف الآخر سيكون المساعدة على توسيع الاقتصاد بتحفيز مزيد من الأفارقة على [الدخول في] الأعمال [التجارية]. سيدوم المشروع خمس سنوات، في نهاية هذه الفترة سيكون خبراء الصندوق الخاص للأمم المتحدة قد خرجوا. سيتحمل الصندوق الخاص للأمم المتحدة خمساً وثمانين بالمئة من التكاليف، وتتحمل الحكومة الخمس عشرة بالمئة الباقية.

كانت له طريقة في الانتظار بصبر لكي ينتهي التصفيق، فيكون عقله قد انتقل ظاهرياً إلى الأمام، إلى ما كان بصدد أن يقوله لجمهوره تالياً؛ لكنه أطلق ابتسامة سريعة، عريضة، ابتسامة امتنان قبل أن يبدأ الكلام مرة أخرى. إنه التعليم الآن: «إن وضع التعليم برمته تتم مراجعته بشكل ملح ليس فقط من أجل تأمين تعليم مدرسي لمدة عشر سنوات كاملة لكافة الأطفال، بل أيضاً لإيجاد مقاربة جديدة من شأنها أن تكسر الحواجز السيكولوجية التي أوجدتها المدارس الاستعمارية في تعليم أولادنا، بأن ربطت عملية التعليم فقط بالثقافات الأجنبية، وغرست في أذهانهم فكرة أن ما كان يُقدم لهم هو معرفة سطحية لشيء لا ينتمي إليهم في الواقع». ثم انتقل إلى

Twitter: @alqareah

تطوير الموارد الطبيعية - المفاوضات الناجحة لأجل المشروع الهيدروكهربائي الضخم الذي يعني أن كل أولادنا سيعرفون حياة الوفرة فيما نحن لا نزال على قيد الحياة. إنه يعني أيضاً، بما أنه مشروع مشترك لدولتين أفريقيتين، أن البلد قد اتخذ المبادرة الهامة الأولى في التعاون الأفريقي الشامل، بناء عالم ثالث من الإنجاز الأفريقي، من قبل الأفارقة، لأجل الأفارقة، في أفريقية. أما في الصناعة، فإن استثمار شركات التنقيب الأجنبية علي مدى السنوات الخمس القادمة سيكون ما بين خمس وثلاثين وأربعين مليون جنيهاً. كان هذا هو الجواب على أولئك الناس، الذين لا يزالون يفكرون بلغة الأحلام قبل أن يصبح الاستقلال حقيقة ملموسة، الذين «تحدثوا عن التأميم» في هذه المرحلة. لا يمكن أن يكون هناك حديث عن التأميم في أمة متخلفة.

رفع كفيه لإيقاف التصفيق. هذا المؤتمر هو الأول منذ أن جاء الحزب إلى السلطة. ربما كان المؤتمر الأكثر أهمية في تاريخ الحزب. فقد أصبح الحزب في الواقع هو الحكومة، وكان هو نفسه مسؤولاً عن تحقيق التفويض الذي منحه إياه الشعب. لم يعد في موقع ممارسة الضغط على الآخرين للقيام بهذا أو بذاك. وهذا استدعى بعض التغيرات. الحزب لم يعد بإمكانه أن يكون مؤطراً لأداء الوظائف القديمة: النشاطات القديمة للنضال من أجل الحرية - فقد أصبحت هذه النشاطات بالية ومبذرة في بعض الحالات. يجب إعادة ترتيب ذلك انسجاماً مع وظائف ونشاط حزب راسخ في السلطة، حزب لم يكن فقط مصدر إلهام الشعب، بل أيضاً الاندماج والعمود الفقري للحكومة التي وضعها في السلطة. هذه هي الروح التي طالب بها، بصفته الرئيس، زعيم حزب استقلال الشعب، هذا المؤتمر بعد الاستقلال مباشرة، بأسرع من رغبة رؤساء معظم البلدان في الرد على التبليغ. كان يعرف أنه الآن، تماما كما في الأيام الأولى من النضال من أجل الحرية. سيجد المؤتمر متكيفاً بشكل قوي، مستعداً لإبداء الشجاعة والحكمة الجماعية لقيادة أفريقية حقاً جُمعت من كل ركن من أركان البلد.

غمر التصفيق العام أولاً مختلف تيارات رد الفعل. ثم، عندما أصبحت الأشكال المختلفة من التصفيق متميزة عن التصفيق العام، أصبحت أيضاً مؤشرة على الأشكال المختلفة من رد الفعل ذاته، كما تكون آلات الاوركسترا متمايزة في التصعيد الذي يرتفع صوتها فيه كلها، لكن يمكن تحديد هويتها عندما تهمد والبعض منها يغرق في الصمت، في حين أن آلات أخرى تؤازر ثيمة أو تنويعاً تصبح فيه قابلة للتمييز فوراً: صوت الأوبرا، التفجع الجماعي للأوتار. كان جزء من الضوضاء لبقاً ببساطة - لا بد من رؤية يدي كل شخص وهما تتحركان عندما يكون الرئيس قد تحدث -

Twitter: @alqareah

فتلاشى، تاركاً الأكف القاسية لقطاع كبير من المتحمسين لإبقاء الصوت النحاسي الثقيل يستمر، يعلو، يؤازره الخبط المنتظم المكتوم للأقدام على سجاد السينما. هذا الصخب المصمّ للآذان، الطامس، أثار غبار التململ في قطاعات أخرى. ثمة رجال كانوا جالسين لمجرد مقاومة أي إظهار للوفاق نظراً لأنهم قدموا إقرارهم الرمزي بالخطاب، فبدأوا يتململون في المقاعد، يفتلون رؤوسهم حولهم، يمورون خفية باتجاه تضامن آخر، في المعارضة.

أسند براي عنقه إلى الوراء على مقعده للحظة. كانت الفراغات المكيفة الهواء مليئة بالهياج العظيم مثل الدوران والدوران المعاكس للطيور. فكّر في أن يغزل خيطاً بينه وبين رولي داندو، الجالس هناك على خشبة المسرح وذراعاه على خاصرته وعقباه متصالبان تحت طاولة المؤتمر. إنه الوضع الذي اتخذه بدفاعية لا شعورية عندما أشار مويتا إلى سلطاته بصفته النائب العام. (مثل فرد من الحرس الشخصي؛ قاطع الطريق، داندو صغير). أو مفاجأة مويتا نفسه، مباشرة في العينين، وهو يصدّق للحظة أن مويتا يمكن أن يجعله، براي، خارج الحكم، من تلك المسافة. كانت الملاحظات القليلة حول خطة التعليم مطابقة تقريباً كلمة كلمة لما كتبه إلى مويتا؛ لقد عادت إليه من المنبر العام، مطالبة غير مباشرة بحضوره المغفل الاسم هناك في الحشد. بدأ الأمين العام - جوستين تشيكوي كان أميناً عاماً للحزب بالإضافة إلى كونه وزيراً للعدل العمل - الذي لا نهاية له والمتمثل بالترحيب والتعريف بممثلي الأحزاب السياسية الذي أتوا من بلدان أخرى كمراقبين. فكانت طشاشات وعواصف من التصفيق تلي أسمائهم: حماس لأجل مندوب التانو من تنزانيا، مندوب اليونيب من زامبيا، شكر شبه حار لأعضاء وفد عبد الناصر ذوي الشعر اللماع المقصوص بشكل مجعد والابتسامات المرحة ونظرتهم الشزراء الشبيهة بالغشية، إذ لم يكن أهل البلد يعرفون تماما من هم، وبالنسبة لكثير من الآخرين الذين يعرفون، فقد كانوا أكثر يسارية من أن يُمنحوا الاحتضان. بالطريقة المعتادة، انتخب مويتا رئيساً للمؤتمر وشاع أن انتخاب رئيس الحزب وأصحاب المناصب واللجان سوف يتم في الجلسة الختامية.

تحول الانتباه على الفور حالما تم الانتهاء من هذه الإجراءات الشكلية، كما لو أن كل واحد مر بعين عقله فوق حدود ساحة المعركة، المؤكدة في خطوط استشراف الزمن. يومان ونصف سيتم فيهما الإقناع، حشد القوى، وتجميع وإعادة جمع، مقايضة الخدمات، سحب الحسابات من التداول وتكريس حسابات جديدة. في

Twitter: @alqareah

الأيدي السوداء ذات الأظافر الشاحبة التي تخربش المذكرات والوجوه المتحلقة، المُغلقة، الحماسية، المصممة أو غير الواثقة، تجسدت كل النوايا المتجمعة من النواحي، القرى، البحيرة، السهول الفيضية، الأكشاك على جانبي الطريق، قضبان الحرية التي تلتحم ببطء في مفاصل الحياة اليومية. بين الحراثة، الشرب، الرعي،الكدح، التسكع، الحلم على الحِصْر أو على مفارش الأسرة الحديدية، الجدال في قاعات الكنيسة المبنية من الوتل والطين، إضاعة الوقت في لعبة الكرة والدبابيس والتخطيط فوق دفاتر أستاذ من موظفي الدرجة الثانية، تخرج الصياغة إلى حيز الوجود. أنا أريد. أنتم تريدون. نحن نريد. هم يريدون. تصريف الإرادة البشرية. بسبب ذلك أضيئت بعض هذه الرؤوس حوله من الداخل بمشهد خصوصي حل فيه هذا الوجه محل ذاك وهذا الاسم انتزع منه لقب المنصب. في مكان ما في جدولِ الأعمال كانت خطة الحملة التي ستُقرر، والتي كانت لديه فكرة ما عنها سلفاً ـ لا بد أن يلقي نظرة مناسبة قبل بدء الجلسات بشكل جدي. قبلئذ، في حين كانت الشكليات الأخرى للإجراءات تُزاح من الطريق، كان خطاب مويتا يغربل في هذه الذكرى أو تلك، يُشق، يُفرز، يستخلص المقصد، يطرح الحشو. ما الذي كان شينزا يستخلص منه؟ كان ثمة رجل ضخم البنية بجانب شينزا يحجبه عن النظر معظم الوقت.

في استراحة الغداء تسكع براي قريباً من أحواض الأسماك؛ وجهه الأبيض لم يكن من الممكن أن يُخطأ بأي حال من الأحوال. كان للوفود الشعور بالفرح الذي ينتاب الأولاد المصروفين من المدرسة حتى قبل أن يبدأ العمل؛ لا أحد تجاوز لغو الردهة. جاء بضعة مشاركين في حملات الحزب القديمة لتحيته: ألبرت كونوكو، الذي كان ذات مرة أمين صندوق (ليس شريفاً تماماً لكنه منذ زمن طويل أعفي من المنصب ونسيت المخالفات المبكرة) والكاهن العجوز كاويرا من مقاطعة رافانجا مع عكازته ومحفظته الجلدية المطوية الزوايا، جوشوا نتشالي، محافظ غالا: «ينبغي أن نكون قد قمنا بترتيبات للنزول معاً. لماذا لم تتصل بي؟ يوجد الكثير من المتسع في سيارتي وبعض البيرة الباردة، أيضاً» ـ الهندي أو الهنديان اللذان بقيا على قيد الحياة على مستوى الوفود من الجماعة الصغيرة التي دعمت الحزب بشكل مفتوح منذ البداية، رمى الناس أعقاب السجائر في الحوض، وبمفكرته المطوية انتشل واحدا كانت سمكة قد بدأت تقضمه برفق.

«سمكة مسكينة».

Twitter: @alqareah

وقف شينزا هناك. كان شينزا ماهراً في النكات الخاصة المستمدة من اللحظات الشاردة للناس الآخرين. «هل تعرف بازيل؟ بازيل نوانغا».

أخذ معه الرجل الشاب الضخم ذا الأذنين الخيليتين الصغيرتين، والذي كاد أن يطيح براي خارج مجلس النوابب ذات يوم. تعرّفا على بعضهما البعض وهما يكشران: «سمعته يلقي كلمته، في المجلس، منذ فترة ليست طويلة».

انصرف نوانغا بعد لحظات قليلة بمزاج شخص متلهف إلى التعارف، فناله، مدركاً أنْ ليس له أن يقحم نفسه.

قال براي: «هل أنت ذاهب إلى الأكل؟».

سأل شينزا: «أين تقيم؟».

«مع داندو».

«أوه، حسناً. ثمة مقهى أسفل الطريق. المقهى الذي قرب مكتب البريد. سألاقيك خلال دقائق قليلة».

عندما كان براي يغادر وصل رولي داندو، لكنه ترك مسافة شخصين أو ثلاثة بينهما. كرجلين أبيضين، كان ثمة شعور ضمني بأنهما لا ينبغي أن يظهرا معلقين ببعضهما بعضاً بأي معنى من المعاني، شعور قائم، بأي حال، تحت معناه الاجتماعي، على التلميح السري بأن موقفيهما قد أصبحا مختلفين جداً، بالرغم من أنهما صديقان قديمان.

قال رولي: «هل تمضي وقتاً طيباً؟»

كان وجهه صغيراً مع كآبة. لقد تغير كثيراً؛ إن داندو الرشيق، الخبيث جنسياً في العشر سنوات الماضية، لم يكن موجوداً فعلاً إلا كما يذكره المرء، إنه الوجه المتوسط العمر الذي أعيد تشكيله كلياً عن طريق التعيينات، والرغبات وسوء الهضم التي هي صفة مميزة للرجل الأبيض أكثر مما هي صفة لبني جلده.

ليس هناك من أفريقي تحوّل بهذا الشكل.

كانت الحوانيت التي يديرها اليونانيون على الدوام تسمى «مقاهي» بالرغم من أنها تشترك بالقليل الكافي مع المؤسسة الأوربية التي أخذت اسمها منها. فالحانوت الذي قرب مكتب البريد يبيع السمك وشرائح البطاطا العادية فوق طاولة الحساب - لأجل الاستهلاك في الشارع - من مخلفات الأيام التي لم يكن يسمح فيها للسود بأن يجلسوا إلى الطاولات - ولا تزال تقدم وجبة رجل الحدود من البيض، اللحم المفروم والبطاطا المقلية. كان شينزا هناك قبلئذ يشرب كأساً من عصير تركيبي رائق مزبد

Twitter: @alqareah

بشكل دائم في الحاويات الزجاجية على طاولة البار. رفع إصبعاً ليطرح سؤالاً هاماً: «لحم مفروم وبيض؟ سجق؟»

«نعم، سجق، أعتقد».

فيما بينهما على الطاولة كانت المجموعة المعتادة من الزجاجات، مثل ترياقات متروكة في المتناول: صلصة وورسستر، صلصة البندورة، خل غير واضح المعالم.

قال شينزا: «كاد أن يكون باندا العجوز نفسه في بعض الأماكن».

كان خطاب مويتا بينهما مع زجاجات الصلصة.

ابتسم براي: «مثلاً؟».

رفرف شينزا يديه فوق الطاولة نافد الصبر.

«هذا هو الجواب إلى آخره على أولئك الذي يتحدثون عن التأميم . لا جدوى من الكلام عن التأميم في بلد متخلف».

«هذا بالضبط ما يقوله لهم الطبيب المجنون نفسه في مالاوي».

«ليس بالسوء نفسه تماماً. يقول دائماً إن عليكم أن تراكموا الثروة قبل أن تتمكنوا من التأميم. شيء من هذا القبيل. «التأميم بمثابة انتحار قومي. لا، كان خط مويتا أكثر انسجاماً مع خط سنغور».

«سنغور؟» كشر شينزا له ليثبت ذلك.

«أوه، نعم سنغور قالها ذات مرة بشكل شبيه جداً بما يقوله مويتا. انتقد النقابات بقسوة وكتب مقالاً يقول إنه لا فائدة من التأميم بالنسبة لبلد متخلف».

«آه، أتذكر عما كان ذلك. نعم، أعتقد ـ ربما قال ذلك...».

أطلق شينزا نخرته، معترفاً بنفسه رجلاً بدون أوهام.

«كان دائماً يحفظ أوهاماً عن النقابيين ذوي الأفكار الاشتراكية. هل تعرف متى كان ذلك؟ كان ذلك قبل الواحد وستين. عندما كان يحارب مطالبات اوغتان بتطوير قطاع ذي ملكية عامة في الاقتصاد. كان مشغولاً بنعت صبيان النقابة بالنخبة المنافقة والكثير من الأسماء الأخرى».

هز رأسه بشكل له دلالته للتوازي الذي رأى أنه قد عثر عليه مصادفة هناك.

ـ «لم ألقِ نظرة جيدة على القرارات بعد. كيف اشتغلت مع اللجنة السكرتارية؟»

ضغط شينزا كتفيه إلى الوراء إلى كرسي الفورميكا غير المريحة، فبرزت عضلاته الصدرية تحت قميصه الأنيق، الطويل الكمين. لم يكن يرتدي ربطة عنق لكن القميص كان مزرراً إلى الأعلى إلى ياقة مستدقة الطرف، وثمة طيات مدروزة لتغطية

Twitter: @alqareah

الجيوب الصدرية. كان يتجاهل الملابس التنكرية كالتوجات أو التونيكات (كان قد ارتدى سترة مويتا في أيام كفاح الاستقلال، لذلك فقد كانت هذه إشارة إلى أنه، بالنسبة له، لم يكن ثمة مضيعة للوقت في الماضي) ويحتقر هيبة التيربلين والصوف للطبقة الوسطى السوداء الجديدة. قال بلهجة من يعرف أن حظوظه لا تبدو جيدة أكثر مما ينبغي، لكنه يفضل أن يتجاهل ذلك:

«لقد سلمنا بأنه يجب إعادة النظر في موقف الحزب بالنسبة للشؤون النقابية، لكن ذلك صرف النظر عنه. **لكن** ـ هكذا كان رأي الرواد الشباب أن الحزب يجب أن يدعم الحكومة «في جهودها لرص النقابات ضد العناصر التمزيقية على مختلف مراتبهم». عصفور صغير أخبرني كيف يجري ذلك. أحب ذاك الواحد، ألا تحبه أنت؟ أحب ذلك. كعنصر ممزق لآخر. ضحكا. «لكن كان لدينا الكثير من الأشياء الصغيرة. قرارات هنا وهناك سوف تمنح تقريباً الفرص نفسها... كانت لدينا فكرة لم يضعها الكبير على جدول الأعمال. كان لدينا القليل تماماً مما سينفع».

«كيف نجحت اللجنة في التملص من اللغم الكبير؟»

ـ «أوه أنت تعرف. الوصفة القديمة: كل القضايا التي ستأتي تحت ذاك العنوان كانت تعالج فعلاً بشكل مستقل تحت قرارات أخرى، لذلك لم يكن ثمة فائدة. حسناً، لقد فكرنا بذلك، أيضاً... والرواد الشباب لا بد أنه طلب منهم أن يكونوا سلسين وأن يتخلوا عن مواقفهم! لا حاجة لجعل المؤتمر يناقش ما يسمح لهم بارتكابه دون عقاب كل يوم، رغم كل شيء».

أكل شينزا بسرعة دون أن ينظر تقريباً إلى ما كان على طبقه. مسحه بالخبز، مثل رجل فرنسي.

كان براي يتوقف غالباً: «أرى أن مسألة تحدي سلطة مويتا لتعيين الأمين العام لمؤتمر اتحاد النقابات تتصاعد. كيف نجحتم في ذلك؟».

«هذا قرار من فرع بيما...».

«نعم، هكذا لاحظت».

في بيما كانت ورشات سكة القطار ومناجم الفوسفات؛ كان فرع الحزب واحداً من أقدم الفروع التي تم تأسيسها، بُديء به من قبل النقابات التي نظمها شينزا منذ سنوات.

أطلق شينزا قوقأته الأنفاسية، أفلت لسانه بصوت شافط: «كان رجلاً أخرق. قالوا إنها مسألة لصالح مؤتمر اتحاد النقابات نفسه، وليس مؤتمر الحزب. ولكن كما حدث» ـ رفع حاجبيه واهتزت لحيته: «أرسلت عدة فروع أخرى رسائل تتضمن

Twitter: @alqareah

الحل نفسه تماماً ـ لذلك... فقد صعب ذلك الأمور على اللجنة. كانوا مجبرين على سماعنا».

«لقد فوجئت».

هز شينزا رأسه ببطء.

«كان من الممكن أن يكون ذلك هاماً جداً» ألح براي، سؤالاً أو إقراراً، حسب الطريقة التي فهمه بها شينزا.

«من الممكن...» كان شينزا يحدق بفضول شارد إلى النادل الذي ينظف الطاولة التالية، ثم عادت عيناه ببطء إلى براي واستقرتا هناك، منخراه مفتوحان قليلاً ومشدودان.

«كنت على علم بمشكلة ايلو» قال شينزا، بعد توقف، مراقباً براي وهو ينشب أسنانه في سجقته المبالغ في طهوها.

«أنت لست متأثراً».

«هذا هو ما يحدث هنا. خطط الإدارة. مركز تدريب لخلق طبقة تجار صغيرة؛ سيتعلمون كيفية الحصول عل ائتمان ممدد من المستوردين البيض وكيفية مسك مجموعة مزدوجة من الدفاتر إلى حين مجيء رجل الضرائب».

رد شعره إلى الوراء. «الكل سعداء لأنهم يعتقدون أن ما يكمن وراء ذلك هو إخراج الهنود، إن كان ذلك يحل أي شيء. هم يعتقدون أنها خبطة عبقرية المقصود منها تفادي حصول الموقف الغبي في زامبيا عندما أُمر الهنود بأن يبيعوا (ممتلكاتهم)، وتبين أنه لم يكن ثمة أي زامبيين يمتلكون المال للشراء أو يعرفون كيف يديرون الأعمال. ولكن بأي حال أياً كان ما يظنون فإنه لا علاقة له بالموضوع. فليس عرق أو لون صاحب المتجر هو ما يحتاج إلى تغيير. كل الوسطاء مستغلون بطبيعتهم؛ إن أفرقة الطبقة المستغلة لن تحل المشاكل».

لم يكن ضرورياً بالنسبة له أن يقول إنه موافق، هناك، فشينزا يعرف.

«التدريب قد يبدو مفيداً لأجل أشياء أخرى ـ تسيير التعاونيات الصغيرة للبيع بالتجزئة وهلم جرا».

«ينبغي أن يكون لدينا شيء ما مثل الذي حصل عليه التنزانيون ـ جماعة الإيلو يؤسسون معهداً قومياً للإنتاجية في دار السلام. حتى الخطة الأوغندية ستكون أفضل من خطة الإدارة هذه. التدريب على المشاريع الصغيرة يمكن تكييفه وفق اتجاهات تعاونية. لديهم مشاريع صيد سمك وتسويق تجري على بحيرة ألبرت، ورشة نجارة

Twitter: @alqareah

في كامبالا. ليس سيئاً. لكنك تحصل على ما تطالب به. هذا محسوم في سياسة هذا النوع من المساعدات الدولية بشكل طبيعي. لا يستطيعون الاستمرار والعمل ضد سياسات البلدان. لذلك لدينا خطة لأجل أفرقة مجتمع خال من المقاولات، قديم».

دار حول طبق الخبز بالفاتورة.

«حسناً، دعنا نمضي، أعتقد. كم حسابي؟».

« بإمكانك أن تدفع عني غداً».

قاما بسحب الكراسي إلى الوراء. ترك شينزا براي يمر أولاً وقال لدى مروره: «من الأفضل ألا تأكل معي في غالب الأحيان...».

توقف لشراء سجائر عند طاولة الحساب. انضم إلى براي في وهج الشارع، وهو يرتدي نظاراته الكبيرة الداكنة بحيث أن سرية اللحية قد تعززت وكان وجهه بالكامل مبهماً.

«لا أحد هنا يدعوني بوي».

قال براي: «أنت لا تتقدم في السن. قد تكون أكبر سناً، لكنك لا تهرم».

أقحم شينزا قميصه تحت قشاطه مبتسماً عندما سارا، أخذ عود ثقاب، وقسمه إلى نصفين، ونكش أسنانه.

«أسناني تسقط..»

إن شينزا، برغم سفسطته، قد ظل أفريقياً جداً. إذا فقد أسنانه، فإن ذلك من طبيعة الأشياء؛ ربما لن يفكر بالذهاب إلى طبيب أسنان لتأجيل عملية فقده لأسنانه. لكن جوشوا نتشالي كانت له أسنان بارزة محشوة بالذهب؛ كان الأمر ببساطة - بالنسبة لبراي أن ما فعله شينزا كان ذا دلالة. ثمة أناس يمكن للمرء أن يقرأ لديهم إشارات وثمة آخرون، هم في الظاهر نمطيون، بالقدر نفسه، لا تنطق حيواتهم.

- «لماذا لا ينبغي أن نأكل معاً؟»

لم يقل شينزا شيئاً، رمى عود الثقاب بعيداً.

«إنك تقيم في محل داندو. قد لا يروق له ذلك».

«داندو المسكين».

كان رولي داندو، أيضاً، صديقاً قديماً لشينزا. كان على وشك أن يقول: تكلم داندو إلي عما حدث لك، منذ أشهر، لحظة وصولي. شرب حتى الثمالة وتفجع عليك. «إنه موظف هذه الأيام».

«هكذا. قد لا يروق لهم ذلك».

Twitter: @alqareah

«يريد أن يعرف ما إذا كنت أرى مويتا».

«لا أظن أن وجودي في أي مكان يعرضني للشبهة أو الفضيحة».

«أنت لا تظن». كان ذلك ايحاءً بأن براي بريء من حقائق الحياة، قيل ذلك بمرارة تقريباً، اتهاماً، تحدياً.

«لكن ذلك كان يشكل فضيحة ويشكل وسوف يشكل، كما نعتقد».

كان مكدراً قليلاً بتهمة أنه قد قصّر في مكان ما. كان دفاعه، كما كان دائماً، هو أن يصبح أكثر بروداً، أن يعطي المزيد ثم المزيد من الأدلة على ما هو متهم به.

«نحن؟ أنت ومويتا؟»

ضحك شينزا، لكنها لم تكن ضحكة تلك التي أطلقها براي.

قبل أن يصلوا إلى السينما تركه شينزا متعللاً بأن عليه أن يرى شخصاً ما.

قال: «أنا في محل سايروس غوما».

«البلدة القديمة؟» الحي الأفريقي كان على الدوام يسمى البلدة القديمة.

«مم. أظن أنه رقم مائة وسبعة، الطريق الرئيسي. تماماً قرب الكنيسة الميثودية».

«أوه أعرف».

«المنظفات الجافة على الزاوية، ستعطيهن رسالة. المسز اوكوي. خذ الرقم».

«والدة دهالاميني؟ أتذكرها».

كان دهالاميني اوكوي وزير البريد والتلغراف؛ مويتا انتزع منه وزارة الإعلام وجعلها حقيبة وزارية مستقلة.

«ذاك هو، إنه فعلاً محل غوما القديم الذي أقيم فيه».

كانت اللجنة السكرتارية حريصة على ألا تضع قضية كبيرة على جدول أعمال بعد ظهر اليوم الأول. إن مسألة مشاركة المنظمات النسائية قد تسببت في كلمات قاسية من عدد قليل من الوفود النسائية ـ سابقاً كن يحضرن المؤتمرات على أساس الفروع وليس المناطق ـ وهن يطالبن باسترداد حقوقهن. (لا بد أن هذا هو السبب في وجود المنشدات الحزبيات في الخارج).

كان القرار [القاضي] بأن تبذل جهود «مضنية» لبناء الشبكة الدبلوماسية الخاصة للدولة بدلاً من الاستمرار في الاعتماد على الخدمة التي تقدمها السلطة الاستعمارية السابقة، هو الشيء الذي يعطي فرصة للناس لكي يمتطوا أحصنتهم الخشبية عبر ـ بمصطلحات سياسة الحزب ـ حقل غير مزروع بالألغام. كل شخص، محافظاً كان أم راديكالياً، يريد أن يكون للبلد ممثلوه الديبلوماسيون؛ القرار يرضي المبادئ الوطنية

Twitter: @alqareah

حتى برغم أن الحكومة لم تكن تمتلك المال أو الكادر الإداري لتنفيذه. تبين أن القرار حول أفرقة اللياقة الاجتماعية، الذي وضعه فرع غالا المركزي، هو من تدبير سامبسون ماليمبا. سامبسون لم يقل كلمة واحدة حوله، وهو يدخل إلى السيارة . لكن لم يكن ثمة شك حول أي مؤسسة معينة يحملها في ذهنه عندما تكلم عن النوادي الاجتماعية البيضاء ذات اللياقات القيّمة التي لا تزال قائمة في البلدات الصغيرة، حيث لا تكون مثل هذه الأشياء متاحة للمجتمع ككل. ثمة مثال واحد يعرفه رُفضت فيه وجارات الكلاب بسبب ورشة مركز الجالية، همهمة صدرية من الضحك اهتاجت فيه، ارتفع الضحك بصوت عال رغماً عنه. بدا ماليمبا مدهوشاً ببطء؛ شرح أن هذا ليس بيت كلاب عادي. هذه المرة كان على الزعيم أن يدعو المؤتمر إلى التقيد بالنظام. هوت الرؤوس على طاولة الاجتماع وخربشت الأقلام ذات الرؤوس الكروية. الأضواء الجانبية للمؤتمر: المحررون البيض سوف يحولون الحكاية إلى مضامين أوربية - المؤتمر يضع نوادي البيض في بيت الكلاب - والأفارقة سيحتارون وبالأحرى سيغتاظون لاختيار القضايا المعلنة للملأ. كانت النساء في وضعٍ رائع بعد تثبيت حقهن في حضور المؤتمر بكامل قوتهن. لو أن الزعيم تجنب زوجاً من العيون الآمرة لنظر مباشرة في زوج آخر. قالت امرأة كبيرة تلبس عمامة نسائية بألوان المؤتمر وتنورة ألمانية تصل إلى كاحليها: ستتم أفرقة غرف المساحيق للحوانيت والكاراجات كلياقات اجتماعية. تكلمت بلغتها الخاصة مع العبارة الانكليزية منطوقة بشكل ساخر. ثمة مراحيض وحنفيات ماء في «غرف المساحيق» هذه لكن المفاتيح لأجل السيدات البيضاوات فقط. إذا كان بمقدور النساء البيضاوات أن يضعن المساحيق على وجوههن هناك، فلماذا لا ينبغي على النساء الأفريقيات أن يكنّ قادرات على الدخول وغسل أطفالهن؟

بعد هذا، فإن القرار بأن يشدّد فرض الضرائب على النبيذ والليكور بشكل أشد للحد من الشرب المفرط لم يُعط الاهتمام الجدي الذي ربما يستحقه. المندوب الذي تحدث عنه كان يمتلك الحقائق والأرقام الدقيقة؛ لقد زادت بمقدار خمسة عشر ضعفاً كمية الليكور المستورد في السنة الماضية عما تم استيراده في عام 1962 وهذا في وقت كان فيه عدد السكان الأوربيين يتناقص. فالبلد يجب أن يكون حريصاً لئلا يحذو حذو أماكن مثل مدغشقر، حيث احتل الليكور في عام واحد المرتبة الثانية من بين كل المستوردات، على حساب الآلات والتجهيزات ذات الحاجة الماسة. لم يكن ثمة مزيد من الضحك لكن الوجوه كانت مسوّاة كما يقتضي الواجب عندما أثار أحد

Twitter: @alqareah

ما مثال الرئيس الممتنع امتناعاً تاماً عن المسكرات. كشر مويتا نفسه تكشيرة عريضة بتهكم ذاتي مشلّ لرجل قوي يبرز عضلاته. أُجِّلَ القرار وأنهيت وقائع اليوم، وعندما خرجوا ببطء إلى الماشي علق جار براي بمرح وكأنه يفضي بسر: «والآن ها نحن جميعاً ننصرف من أجل زجاجة بيرة».

عاد من حيث بدأ، في الغرفة ذات السقف المدور في بيت داندو. استلقى على السرير ونظر إلى المصباح المتدلي من جائز السقف والنسق المشّط للقش. كان الذباب الأزرق يطن بشكل يائس على اللوح المركزي المثبت للنافذة ولا يعثر على المقاطع المفتوحة. كان يرتطم بالحاجز اللا مرئي، اللامقاوم، ويرتد، في الغفوة التي تغلبت عليه. خلف الجفنين المطبقين في الظلمة الحمراء المحتشدة، كانت موجودة بوجهها المربع الفكين، المولع بالقتال ببراءة. إنه وجه المرأة التي كان عليها دائماً أن ترد الخطر عن ذاتها، مخلوقاً أنثوياً ثقيل الثديين يظل رأسه، فوق جسم يُحسن استخدامه، يقظاً لأجل صغيرها. أوحت إليه بأشياء كثيرة. ذكّرته أيضاً بإغريقية قديمة، في القدرية التي تحوم حول حياتها. ايفغينيا ستفهم أن أغاممنون يجب أن يقايضها بريح مؤاتية. قال في نفسه، ربما أنها فتاة عادية، حقاً، شخص محدود جداً، ذات شجاعة ولكنها لا تتمتع بالذكاء لاستعماله لأجل نفسها، وأنا مجرد رجل في منتصف العمر يستمتع بآخر قذفة من البروستات. عبارة كان يستخدمها هو وأوليڤيا بتسامح للحديث عن العلاقات الغرامية للأصدقاء؛ نسي من الذي صاغها. (رأى نهدي الفتاة مع العلامات عليهما، وفخذيها اللحميين الضخمين فعلاً أكثر مما ينبغي بالنسبة للسروال) يمكن أن يحدث ذلك للمرء نفسه، مثل السرطان أو مثل مرض الانسداد التاجي، مثل الاحتضار. إن المرء يربط ذلك فقط بالناس الآخرين، لكنه يمكن أن يأتي. ـ حسناً، إذا كان هذا ما كان، فلا حاجة لأن تكون متسامحاً ـ فالحسد أكثر ملائمة، لو كان المتسامحون بشكل متعال فقط يعرفون.

لكن أوليڤيا كانت تعرف ذلك، أيضاً. فقد كانت تمتلك ذكاءً عظيماً، بمعنى آخر فهماً لكل شيء: للجسد، أيضاً. في البداية ـ على مدى سنوات، في الحقيقة ـ كانا قد امتلكا ذلك فيما بينهما. كانت فينيشيا وبات، العقيلة الشابة والممثلة المدعية، متميزتين عما يبدو أنه حميميات لا تُبز. لابد أن أوليڤيا تتذكرها؛ لكنه يعيشها. بالنسبة لها، معها، كانت تنتمي إلى الماضي. الجسد يمتلك ذاكرة قصيرة. فجسده قد نسي جسدها قبل وقت طويل من بدء ممارسته الجنس مع الفتاة. يبدو ما حدث لأوليڤيا وله الآن عديم الفائدة، كأنه نتاج حادث تحطم طائرة. كان هو الناجي. كان

Twitter: @alqareah

مدركاً للغطرسة الجنسية لهذا التفسير. صاح طير في الخارج، بإلحاح فوق رأسه على السطح ففتح عينيه يتملكه إحساس بكونه قد سمع تماماً تلك النغمة من قبل، ضمّ الوسادة اللينة خلف عنقه وأجلس نفسه ليتصفح جدول أعمال مؤتمر الحزب ببطء، راسماً تشطيبات بقلم الرصاص الباهت.

كان رولي داندو قد أجرى عمليته ولم يعد يقاطع شرب المساء برحلات إلى الأدغال، لكن ظهور بعض التداعيات الباطنية المزعجة أصبح مستديماً. مع داندو المسكين، مع كل واحد قابله في العاصمة، شعر براي بأن سعادته الخاصة لا بد أن تعلن عن نفسها كما هي، بحيث يتم تمييزها بسهولة، بطريقتها، كما عين المراهق المستمني المحاطة بحلقة قاتمة اللون. لكن داندو لم يقل شيئاً. المسافة بينهما من الصعب تحليلها. فيما إذا كان ذلك مسألة طاقة جنسية، مسألة سن، مسألة اتجاهين سياسيين وشخصين مختلفين، هو شيء لا يمكن فصله عن جو الحديقة، الذي لم يكن كما كان على ما يرام بالرغم من أنهما جلسا معاً كما كانا يفعلان دائماً.

لاحظ داندو، أيضاً، أن نية مويتا في أن يأخذ لنفسه الحق في تعيين الأمين العام لمؤتمر اتحاد النقابات الموحدة كانت مدرجة على جدول أعمال مؤتمر الحزب. استبعد تفاجؤ براي من أن ذلك قد حصل حتى الآن. «لا يوجد شيء ليس من شأن الحزب. أظن أن شينزا دعا إلى الاجتماع وقد حشد الكثير جداً من التأييد، إذ لم يكن بمقدور اللجنة السكرتارية أن تتجنب ذلك. تماماً كما بوضع القضية النقابية برمتها تحت النار في المؤتمر، فإن شينزا لم يكن بمقدوره أن يتجنب إظهار يده. لا بد أن لديه سبباً وجيهاً للاعتقاد بأنه سيكون هو نفسه الأمين العام مرة أخرى، إذا ترك الأمر لانتخابات اتحاد النقابات بالطريقة القديمة».

«مويتا كشف يده أيضاً. إذا كان حتى الآن بصدد أن يدخل مرسوماً جديداً لمجرد إخراج شينزا من النقابات».

«أوه، لن يكون ذلك سوى تصريح، ليس عليك أن تزعج نفسك بمرسوم جديد. مرسوم المصالحة الصناعي القديم يسمح بذلك، إنه جزء من تشريع استعماري قديم جيد، مفصّل تفصيلاً لإبقاء السود في مكانهم. سيعمل بشكل مثالي الآن».

أفرغ داندو قاع كأسه، حيث كان الجين قد استقر، وشد الأوتار الضامرة لفكه بسخرية.

«إذا أصبح شينزا أميناً عاماً لاتحاد نقابات العمال فإن ذلك سيبرهن على انفتاح تام».

Twitter: @alqareah

«لماذا، يا رجل، لماذا؟»

«لو فهم مويتا ذلك. انفتاح كامل لإعادة شينزا إلى الحظيرة دون فقدان ماء الوجه. شينزا سيكون قد اتخذ الخطوة بدافع من «إقالة» نفسه، سيكون له المنصب الرئيسي الوحيد خارج الحكومة؛ يمكن لمويتا ببساطة أن يمد يده بدون تفضل ودون أن يذل نفسه على الأقل وأن يحتويه. والحل لقلاقل العمل، إنهاء الانقسامات الشقاقية في النقابات، في الوقت نفسه. عندئذ ستكون له حكومة قوية، على خير ما يرام».

«مع إدوارد شينزا يتنفس الأبخرة من أسفل عنقه».

ابتسم براي: «إنه لا يشرب في هذه الأيام».

«ليس البراندي ما أفكر به. الكحول الثوري».

«لا ضرر في قليل من ذلك».

استند داندو إلى الوراء استعداداً لهجوم، جاعلاً من كرسيه عرينه.

«يتعين عليّ أن أرجو ذلك على نحو بغيض. أرجو أن يكون موجوداً. لا أعرف ما الذي ضيع المغفلون أمثالي وقتهم لأجله في هذه القارة، إذا كانت الأفكار التي جلبناها إليها ليس لها أي ضرر لديهم بسبب المناصب التي تولاها السود من البيض».

«حسناً، ها أنتم».

«ها أنا، حسناً» ألقى داندو نظرة تصيب حيناً وتخطيء حيناً حول حديقته؛ كان كلبه العجوز وقد فوجيء به، يهز ذيله باحتراس. «ولكن مويتا لن يفرض عليه أي هراء حول ثورة مستمرة من قبل إدارة شينزا أو أي شخص آخر. عندما يتحدث حول البناء على أسس صلبة وهلم جرا فهو يعني ذلك تماماً - ليس كدح الفلاحين وكل ذلك، بل أيضاً الدولة الرأسمالية التي يبلغ ارتفاعها قرميدتان والتي كانت دائماً ماضية قدماً هنا».

- «قد يضيف مباني إضافية لائقة قليلة على المشاريع المملوكة من قبل الدولة هنا وهناك، أنت تفهم - ولكن لن يكون هناك تغيير للأسلوب في البنية الأساسية. سيبدو صغيراً مثل مصرف سويسري أو ربما مصرف ألماني غربي أفضل. العائلة الموسّعة ستكون لها أكواخها في الأراضي وسوف يحصلون على الفتات القليل من عشاءات الطبق الذهبي، سيكونون في حال أفضل مما كانوا من قبل، فكّر، ولن يأبهوا. يعتقد مويتا بصدق أن ذلك أفضل ما يمكنه فعله وسوف يفعله بالتأكيد بأفضل طريقة يمكن فعله بها. إنه جرح اقتصادي« أسود صغير. إذا ترك شينزا قريباً بالمرة - إذا تركه

Twitter: @alqareah

يتسلق عن طريق اتحاد النقابات، فهو يعرف جيداً تماماً ما الذي سيناله على يديه - خطر وضع النقابات في معارضة للحكومة. هذا هو ما بعد إدوارد شينزا، هذه هي رجعته بالوسائل الدستورية، هذا هو ما سوف يسعى لأجله، وغلامنا يعرف ذلك».

سكب مشروباً آخر لبراي كما لو كان ليسكته «لا يمكنني أن أفهم ذلك. لا أعتقد أن شينزا سيخضع للصدفة. إذا كان يراهن على السلطة من خلال النقابات فهذا لكي يضع نفسه في موقع، كما قلتُ، يمكن فيه لمويتا أن يعترف بأنه يحتاجه، كما يفعل دائماً، إنه شيء غريب، حتى في هذا الوقت عندما يتحدث ضد مويتا، أحياناً باستياء قوي تماماً - يكون لديه نوع من القلق، شعور بالمسؤولية عنه، لا يزال باقياً. بأي حال - شعور أو لا شعور - لا أرى أنه سيخضع لصدفة الشيء الآخر».

«لماذا باسم الله لا؟ ألا تفهم؟ هل عليّ أن أوضح ذلك، يا براي؟ أنت تعرف أن اتحاد النقابات والحزب كانا على الدوام، في الواقع، شيئاً واحداً، طوال هذه السنوات حتى الآن. كلاهما كانا يستجران الأعضاء من الطبقة نفسها، ويمتلكان التكوين الفكري نفسه. بقدر ما يتعلق الأمر بالمناهج السياسية والمواقف الاجتماعية الاقتصادية، لم يكن ثمة أي اختلاف كبير بينهما. كان بعض قادتهما هم الأشخاص أنفسهم حتى الآن! انظر إلى شينزا نفسه - الزعيم الأول للحزب وفي الوقت نفسه الأمين العام لاتحاد النقابات. ونديسي شونونغوا وحفنة من الآخرين. برغم ذلك، فإن الوضع كان من الممكن أن يتطور مبكراً، حيث بالرغم من أنهم كانوا في سخرة مضاعفة فقد كان بإمكان أحدهم أن يتقدم على الآخر ايه؟ كان من الممكن أن تمر بوضع يتعارض فيه تنظيم اليد العاملة مع حزب سياسي ذي فكر أقل تقدمية. إن ذلك لم يحدث. لم يكن من الممكن أن يحدث عندئذ بسبب عاملين: البلد لم يكن متحرراً من الهيمنة السياسية الخارجية ولم يكن قد بلغ مستوى معيناً من التصنيع. ايه؟ أما الآن فإنها قصة مختلفة. نحن مستقلون، لم يعد خط الجبهة هو القصر الحكومي. نظرياً، ينبغي على اتحاد النقابات أن يمنح الأولوية للاعتبارات الاحترافية المحضة، الآن ينبغي أن تتجه نحو توحيد العمل النقابي. لكن اتحاد النقابات أيضاً بالفعل نقابة متكاملة، ايه، جزء من الدولة، يفترض به أن ينفذ سياسة الدولة وأهدافها - ألم يكن يوجد حتى فقرة بهذا المعنى في دستور الاتحاد؟ أنا متأكد تماماً من ذلك. اتحاد النقابات هو الممثل للعمال وصغار الموظفين المدنيين، لكنه أيضاً نوع من الذراع القوي لوزارة العمل التابعة للدولة - وذاك هو جحيم من العمل المتوازن يتعين تحقيقه، يا ولدي لقد أصبح اتحاد النقابات عجلاً برأسين

Twitter: @alqareah

وثمة فرصة لشينزا لتسديد الضربة القاتلة. كل ما عليه القيام به هو أن ينصب نفسه كنصير لحقوق العمال ضد هيمنة الدولة على النقابات وإخضاع رفاهية العمال لمتطلبات الدولة. إنه يفعل ذلك. انظر إلى طموحه». قلب راحة يده المقلوبة على أجندة براي، بقراراتها الموسومة.

«لقد فعل ذلك بدزينة من الإضرابات اللاشرعية في كل أنحاء البلاد. إنهم يصغون إليه خفية ويتحدون مسؤولي نقابتهم لأن التناقض مع استياءاتهم المبيتة موجود قبلاً ـ العجل ذو الرأسين».

«لقد أعطيت الجواب بنفسك». كان براي يحك الكلب المدهوش بحيوية خلف الأذنين فيما كان داندو يتحدث، بانتظار الافتتاح. الآن أعطى الكلب ضربة نهائية.

«أنت تقول ذلك قبل الاستقلال، حتى لو كانت النقابات قد وجدت نفسها في تناقض مع حزب ذي فكر أقل تقدمية، لم يكن بإمكانها أن تشكل معارضة ناجحة لأن البلد لم يكن قد وصل إلى مستوى معين من التصنيع. الطبقة العاملة لم تكن كبيرة بما يكفي. لكن هذا يبقى ساري المفعول. يبقى أن ليس هناك تصنيع على مستوى موسع تقريباً بما يكفي لتحقيق أية زيادة ملحوظة في حجم طبقة العمال المأجورين. اتحاد النقابات ببساطة لا يمتلك الأعداد وبالتالي لا يمتلك الموارد الاقتصادية الكبرى لتأسيس نفسه في المعارضة لحكومة مويتا في ظل شينزا أو أي شخص آخر. لقد كان شينزا في الحركة النقابية منذ أن كان في لجان عمال الخدمات كشاب في المناجم، تذكر. كان في الجوار في دول أفريقية أخرى. تذكّر أنه رفيق قديم من رفاق بن صالح[1]؛ يعرف من الذي خسر بالشكل الأسوأ في تونس في الصراع بين التنظيم النقابي وحكومة [حزب] الدستور الجديد... إنه الشيء ذاته هنا. شينزا يجب أن يعرف أنه في هذه المرحلة لا يمكن القيام بذلك».

«يمكن محاولة ذلك بأي حال، لو استطاع شينزا أن يُنقذ حتى بن صالح هنا فليس لدي شك في أنه كان سيعتبر نفسه محظوظاً. إذا لم يكن بمقدورك أن تهزمهم، فانضم إليهم. ربما يرى نفسه، الزعيم النقابي العجوز يلتف على الحكومة بشكل ناجح للغاية بحيث ينتهي إلى الظهور بمظهر غالي الثمن على **طريقة بن صالح**، بصفته وزيراً للتخطيط والمالية بعد سنوات قليلة من الآن. وربما يرى مويتا ذلك في أحد كؤوسه الخالية من المسكرات ويريد أن يتأكد من عدم حدوث ذلك».

---

[1] المقصود به الزعيم النقابي والسياسي التونسي أحمد بن صالح (المترجم)

Twitter: @alqareah

وبينما ارتفع صوتاهما وصارا يقاطعان كل منهما الآخر بقوة كانت خفافيش أول المساء ترفرف حولهما، تجسيداً للأشياء التي مضت دون أن تذكر في فاصل من الصمت، فقد سَمُكَ الهواء بشكل مفاجيء تماماً بالظلمة، فلم يعد بمقدور براي أن يرى وجه داندو الصغير بوضوح، وشعر أن وجهه صار مخفياً ـ فكر كيف أنهما تحدثا عن شينزا كما لو أنه كان في بلد آخر، رجلاً مثيراً للاهتمام في وضع مثير للاهتمام يقرأ المرء عنه، بدلاً من كونه على بعد ميل أو ميلين، في بيت غوما في البلدة القديمة. لقد كان ـ بتأثير من داندو ـ أن هذا الموقف فرض نفسه. كان رجلاً عجوزاً في موقع سياسي، وكل موضوعيته النارية كانت أكاديمية، كما قال بنفسه، ذات مرة. إنه يعمل كرمى لمويتا. شينزا لم يكن من الممكن إدخاله في الحسبان، في حياته الشخصية.

بعد العشاء استأذن بالانصراف دون أن يقول إلى أين هو ذاهب وساق سيارته إلى البلدة القديمة. لم يكن الطريق قد تحسن؛ مر بحانة قديمة حيث كان قد ذهب مع بايلي وآخرين، في ذاك الزمن، أثناء احتفالات الاستقلال. لقد كانت من اكتشاف ريبيكا، لكنها لم تكن معهم؛ تذكر الانتظار في السيارة خارج البناية الطابقية الرثة حيث كانت تسكن، في حين كان نيل بايلي يرمي الحصى على نوافذها. لكن الشقة غارقة في الظلمة، إنه زمن آخر، ريبيكا أخرى.

في هذه الظلمة الحالية وما يجب أن يكونه بيت غوما في المقابل تماماً؛ كان ثمة فيما مضى أرقام مدهونة على الآجر امّحتْ منذ زمن طويل. كان هذا أحد الشوارع الأكثر ازدهاراً ولم يكن ثمة كوانين طبخ خارجاً، لكن الأولاد وعصابات الشبان كانوا يحتلونه بصياحاتهم وضحكهم وألعابهم، أما الأصغر سناً منهم فيقفون في الجوار نائمين على أقدامهم مثل حمار يقف بهدوء. إن نواة البيت النموذجي المكون من غرفتين قد استُكمل بناؤها من كافة الجهات. ثمة دهليز من الخرسانة المصقولة يؤدي إلى شرفة أمامية؛ البوابة مفقودة وثمة كلب مربوط بسلك بين وتدين بحيث يمكنه من الجري جيئة وذهاباً، فيرتد بنخعة شانقة عند كل طرف، يصارع مثل سمكة عالقة بصنارة. قرع الجرس لفترة طويلة قبل أن يأتي أحدهم: طفل صغير مليح يرتدي البيجامة. نظر إليه وركض مبتعداً. لكنه استطاع أن يسمع أصواتاً، وضحك شينزا، خلف الغرفة الصغيرة التي ينفتح عليها الباب. كراسي مستقيمة الظهر في الغرفة، براد ونسخة من موسوعة المنزل وأريكة عتيقة جعلت كسرير لأجل طفلين صغيرين آخرين نائمين تحت الضوء الساطع. أخيراً انفتح الباب الداخلي مع قبسة

Twitter: @alqareah

من وجوه وإيماءات عبر الحر المحبوس والدخان. نظرت إليه امرأة وفي الحال نظرت إلى الوراء إلى داخل الغرفة لأجل الاتجاه، لكن سايروس غوما ظهر نافد الصبر، وحالما رأى من هو تقدم وأغلق الباب الأمامي خلف براي مرحباً: «ادخل فوراً. والدتي ـ أخي الأصغر. ـ بازيل توانغا... لينوس اوغوتو...».

كان بيتاً ممتلئاً، بوجود المؤتمر في المدينة. نهض شينزا على قدميه ووقف مسروراً؛ وضع ذراعاً على كتف براي. كان رجلان يلعبان الورق في آخر الطاولة، ساهيين، ينظران إلى أيديهما وإلى الأعلى كلٌ إلى الآخر، دون أن يتكلما. ثمة ولد يؤدي وظائفه المدرسية البيتية في ركن وجده لنفسه على الأرض. كان المذياع شغالاً. جلبت امرأة شابة كأساً زهرياً ذا حافة مذهبة وسكب شينزا لبراي كأساً من البيرة. جلست والدة سايروس غوما، مثل إلهة منزلية على عرشها، على مبعدة قليلة على كرسي خشبي داكن غريب، هو نوع من مقعد كنسي صغير من الواضح أن لا أحد آخر سيتجرأ على إشغاله. لدى النظرة الثانية، تأكد براي أنه خزانة ذات أدراج قديمة الطراز قد عُدّلت لأجل الاستعمال الأقل خصوصية، أياً يكن الفرد من عائلة غوما الذي يمتلكها فمن المرجح أنه ليست لديه أية فكرة عن الغرض الأصلي منها. كانت المرأة العجوز ضخمة وسوداء لا تشبه سوى الناس المنحدرين من جزء من الريف المتاخم للكونغو. كانت القسمات التي ورثها سايروس تخطيطاً بقلم رصاص للموتيف المركزي الذي طُوّر بشكل كامل هنا، فالرأس منتفخ بشكل ضخم، المنخران معقوفان، الشفتان العريضتان المقلوبتان مصطبغتان بالأزرق مع تقدم السن، العينان المحتقنتان بالدم وإحداهما متورمة قليلاً (ضربة خفيفة، ربما)، شحمتا الأذنين الخاليتان الآن من الأقراط النحاسية التي كانتا في الماضي تحملانها، تتدليان بتفاخر ذاتي مزدريتين لكل الزينة، نزولاً إلى الكتفين الثخينتين. تحت فستانها القطني الطويل كانت قدماها حافيتين. لم تتكلم، معبرة عن شكرها لبراي فقط بنَفَسٍ عميق ومن ثم، من تلك القامة المشوقة، بانحناءة جليلة للرأس. كانت تتنخع وتنشق من حين لآخر بصخب تجاهله الجميع. كان ذلك محزناً وإشارة احترام مُستحقة: فلم تُطرد بسبب عادات الشيخوخة القذرة، ولم تكن عرضة لأي تعليق.

كان شينزا في المزاج الذي اعتاد أن يراوده عشية الانتخابات عندما بدأ الحزب لأول مرة بمحاولة كسب مقاعد المستوطنين. يطلق نكاتاً منتقصة من قدر الذات، هي خدعة أكثر مما هي دالة على الثقة بالنفس. إنه داوود أكثر مما هو جوليات. فنَّد الرجل الذي تم التعريف به على أنه لينوس اوغوتو القرار الذي كان بصدد أن

Twitter: @alqareah

يستصدره في اليوم التالي نقطة نقطة، والذي ينص على أن رواتب أعضاء الحكومة أعلى مما ينبغي. كان رجلاً قوياً ذا وجه ورأس مغضنين ـ حتى فروة الرأس الحليقة اللحمية كانت مدروزة بخطوط بحيث لم تكن شدة تغيرات تعابيره محصورة بالوجه بل تشمل الرأس بكامله. ألقى محاضرة على براي بانكليزية طليقة، ثقيلة اللكنة:

«هل تعرف ما هو الرقم التقديري؟ سبعة وأربعين بالمئة من الميزانية. وزراء ومدراء إدارة واجهات الحوانيت مثل جوشوا نتشالي».

تدّخل شينزا: «انتبه، نتشالي هو جار لجيمس».

«إنهم يقبضون من ثلاثة إلى عشرة آلاف بالعام. عمالنا اللامهرة يكسبون ما بين ثلاثين واثنين وسبعين جنيها. انتظر دقيقة، لم أنتهِ. لدي أرقام قليلة أخرى. بيت مجاناً، مخصصات سيارة أساسية خمسة وسبعين جنيها، مخصصات إضافية خاصة بشيلينغ واحد لكل ميل في الجولات الرسمية، وفي أي يوم مشابه، بترول بسعر مخفض من محطات PWD. كبار الموظفين المدنيين ومسؤولي المؤسسات يحصلون على الامتيازات نفسها إلى حد كبير».

كان سايروس غوما ونوانغا، كلاهما من الشرطة العسكرية، يتقاضيان راتباً جيداً وبعض الامتيازات نفسها؛ ولكنهما بالطبع لم يكونا وزيرين. بدا من المسلّم به من قبلهما أنهما سيقبلان التخفيضات في راتبيهما؛ هذا بالتأكيد ما لم يخفقا في ملاحظته عندما كانا يحاولان كسب التأييد للقرار بين الناس العاديين.

«لقد حصلت على الأرقام الخاصة بمتوسط مكاسب وفود المؤتمر. ثلاث وسبعون بالمئة يكسبون أقل من ستمائة في العام، ومن أولئك الثلاث والسبعين ثلاث أرباعهم تقريباً يكسبون ما بين ثلاثين ومئة بالعام. هذا هو كل شيء».

«مكاسب نقدية ـ بالطبع؟ المحاصيل المعيشية وسواها ألا تدخل في ذلك ايه؟» كان شينزا رغم خفته حذراً متيقظاً للثغرات التي يمكن للمعارضة أن تنفذ منها».

«مكاسب نقدية. ما يحصل عليه الوزير من بستانه في الأرض لا يدخل في الحساب لأجله أيضاً».

هز شينزا رأسه موافقاً بسرعة، مقتنعاً.

قال نوانغا لبراي، «داندو وجماعة تانازي سيدعمون ذلك بكل قوتهم. إنهم يريدون تجميداً لكل المكاسب التي تزيد عن ستمائة في العام».

«حسناً، كل شخص تقريباً في تلك القاعة يكسب أقل من ستمائة. ينبغي ألا يشعروا بأنهم من الأفضل أن يعترضوا».

Twitter: @alqareah

نظر اوغوتو كما لو أنه يحدق إليهم خارجاً.

«كان ذلك شيئاً من عمل البوليس السري، ياليئوس» قال شينزا جانباً.

«كيف فعلته؟» مشيراً إلى الأرقام الخاصة بمكاسب النواب.

«لقد اشتغلت عليها لأشهر، يا رجل. الناس لا يردون على الرسائل ـ أنت تعرف ـ يتعين عليك أن تلح عليهم. لقد كلفني ذلك الكثير من الطوابع».

ضحك اوغوتو فجأة، محرَجاً، وأذناه حركتا جلدة فروة رأسه. ثم عندما تغلب على إحراج المديح الذي سرى بالأحرى إلى رأسه، لم يستطع التوقف عن الكلام، باستمتاع شديد عن المشكلة التي انتهى إليها. نادرة بعد الأخرى، ضحك الجميع ما عدا لاعبي الورق وتلميذ المدرسة، الغارقين في تركيزهم، والمرأة العجوز.

تحدث براي إلى سايروس غوما حول قرار يتعلق بالعمال الزراعيين. كان قد لحظ أن ذلك يأتي من المجلس الإقليمي للمقاطعة الجنوبية ـ كان مقعد غوما في الشرقية ـ لكن غوما كان يعرف بنوده بدقة.

«الفكرة هي أن عمال المزارع ينبغي الاعتراف بهم مثل العاملين في الصناعة الزراعية، وينبغي أن ينظموا، تماماً مثل أي قطاع آخر من قطاعات الصناعة. إن واحداً وسبعين بالمئة من العمال في هذا البلد لا يزالون يعملون في الأرض. ليس لهم أي تمثيل ملائم، ولا يتمتعون بظروف تشغيل مرسومة بشكل لائق، ولا حد أدنى من الأجور، لا شيء. بالطبع إنه شيء يتطلب حذراً لتنفيذه ـ فمعظمهم لا يشتغلون بالوقت الكامل بوصفهم عمالاً مأجورين نقدياً، كما تعلم. إنهم يُشغلون بشكل موسمي من قبل المزارعين البيض، جزء من الوقت يشتغلون بأرضهم أو بأرض قبيلتهم، أو يكونون متبطلين يسمح لهم بشغل جزء من أرض الرجل الأبيض مقابل حصة من المحصول».

«هل يوجد تأييد جيد؟».

أطلق غوما ضحكة قصيرة. «مبدئياً من الذي سينهض ويقول إنه ضد تحسين حياة حوالي ثلاثة أرباع السكان العاملين؟ لكن الناس يمكن أن يتراجعوا لأسباب أخرى».

«بالطبع. نظمْ أولئك الواحد وسبعين بالمئة من الفلاحين والنقابات فتزيد من سلطتهم خارج كل التقديرات».

Twitter: @alqareah

هز غوما كتفيه استهجاناً. كلما اقترب براي من تعريف السياسة الكامنة وراء القرارات المستقلة لفصيل شينزا، كان غوما يقدم موقفاً متملقاً... عاد شينزا إلى النقاش مع لينوس اوغوتو ونوانغا، سيجارته تتدلى على شفته.

«في غينيا، أقصد، لا تدعونا ننسى أن قضية الأفرقة لم تبرز. فالفرنسيون رحلوا عندما أسقط سيكو الجالية الفرنسية في الانتخابات، ولم يكن ثمة مزيد من الموظفين المدنيين المغتربين الآخرين الذين يقبضون رواتب دسمة لكي يقارن السكان المحليون أنفسهم بهم. كانوا يشتغلون في أرضهم. من السهل اقتطاع حسميات قاسية على الرواتب. لكن يجب أن تكون حذراً جداً بخصوص إلى أي مدى تفعل ذلك... إذا كان لديك سلم أجور متدن وأرباح هامشية على مستوى النقل، المدرسين، فإن ذلك ضربة مرتدة». كان يتثاءب، من حين لآخر، مع الانفعال: «تواجه بقيام نقابتهم بحملة لأجل مراجعة الرواتب مرة أخرى...».

تضايق شينزا من أن مسألة أَخْذِ مويتا سلطة تعيين الأمين العام لاتحاد النقابات قد وضعت مبكراً على جدول أعمال عصر اليوم التالي. قال رجل يرتدي بذلة رمادية مع وشم قبلي على وجنتيه: «يريدون أن يزيحوه من الطريق».

تجاهله شينزا، تجاهل عيني براي. أسند مرفقيه على الطاولة، وضع يده فوق فمه وأطلق تنهيدة ثقيلة من خلال منخرين منتفخين: «خارج الطريق»..

بالطبع، كان يريد امتلاك الوقت ليترك انطباعاً على المؤتمر، ليبرهن على مدى بضعة أيام على عودته إلى القيادة الفاعلة النشيطة وزعمه أنه ينال التأييد قبل أن تثار القضية. كان شبه منسي ولا بد أن يذكّر الحزب بما لا يزاله بما يمكن أن يكونه. ثم في أي طريق تسير الأمور، إذا كانت الحركة ستُهزم ومويتا سيأخذ لنفسه الحق بتعيين الأمين العام لاتحاد النقابات ويتجاهله، أو إذا نجحت واحتفظت اللجنة التنفيذية لاتحاد النقابات بالحق في انتخابه ـ عندها فإن أسهم شينزا سوف ترتفع.

قال سايروس غوما شيئاً ما لشينزا حول الوقت. اتخذت الجماعة الصغيرة مظهر الاحتراس، وكل منهم ينظر إلى الآخر، مظهر أناسٍ منتظرين في مكان آخر. كان شينزا يحتقر الغموض.

«إذا كنت تشعر برغبة في ذلك فهلم...؟ إذا كنت تريد...».

تجهم غوما برأسه المطأطيء. وقف الآخرون بشكل أخرق. أحس شينزا بضغط الاستهجان وتجاوز الدعوة كما لو أن براي قد رفض.

Twitter: @alqareah

«أنا آسف... إننا منصرفون لكي نرى دلاميني اوكوي».

هكذا كان اوكوي، وزير البريد والتلغراف، في معسكر شينزا أيضاً، الآن. ابتسم شينزا بكسل ليرى النتيجة في وجه براي. لكن غوما نظر بحدة، متضايقاً بشكل عابس. قدم براي احتراماته للمرأة العجوز مرة أخرى. الآن، وقد خرج براي، فقد سُر سايروس غوما بالانفراج، وراح يثرثر ليبيّن أنه ليس ثمة شيء شخصي.

«بعد كل هذه السنوات. وكيف السيدة براي؟ هل هي سعيدة في الخارج هناك في انكلترا؟ عندما تكتب لها أرجو أن تبلغها تحياتي، لا أعرف إن كانت تتذكرني...».

كان لا يزال مرتدياً الرداء القطني الغرب أفريقي الذي كان لباسه في الظهورات العامة.

«دعنا نذهب»

أطلق شينزا العبارة. قال لبراي، كما لو أنه في تهكم سري من موقف الآخرين: «حتى غداً صباحاً. لا تدخل في مشكلة في المدينة الكبيرة».

لم تكن قد بلغت بعد الساعة العاشرة، والظلام كان حاراً كثيفاً. دخل صرصور طائر في السيارة، وانسل مائلاً على حرفه مثل حافة سكين، تحت حصيرة السقف المهترئة عندما ضربه. حسناً، ربما توجد بقايا طعام دسم تحت المقاعد وفي التجاويف، من مخلفات الرحلات مع الأولاد. لقد جعلوا من السيارة مكانا مريحاً مع الخبز والدمى المكسرة مثلما كانت سيارة ريبيكا دائما. لم يشعر أنه يرغب في النوم، أو الشرب مع رولي؛ خطر بباله أن يعرج على السيلفر رينو ويقول مرحباً لآل ونتز. فهما كانا ينتظرانه في وقت ما. لم يكن ينوي أن يتخلف في العاصمة بعد انتهاء المؤتمر. كان الرينو ممتلئاً.

قال مجالمار: «أجور مخفضة لأجل المندوبين. ما الذي يمكنك أن تفعله؟».

«علينا أن ندفع للهيئة (هيئة الإدارة) الأجر نفسه، بغض النظر عما يدفعه الضيوف».

كانت مارغوت نائمة. «أليست مريضة؟»

«من يدري، مع مارغوت؟ تقول إنها متعبة، وتكون مريضة. تقول إنها مريضة، وتكون متعبة. أريدها أن تذهب في إجازة. تقول لماذا لا أبتعد أنا لأيام قليلة».

ترك المكتب، جلسا في غرفة الجلوس الخاصة الصغيرة ذات الطاولة المستديرة تحت مخروط الضوء الوارد من الظل المتدلي الخفيض، انفتحت نوافذ هذا الداخل

Twitter: @alqareah

الفيلاردي تلهث على مصراعيها في الليل الحار الذي يفوح برائحة الغبار الأحمر وحرائق العشب. كان هجالمار ونتز دائماً يخلق الحميمية الفورية لشخص لا يجد من يتكلم إليه، في هذه الليلة أعطى انطباعاً عن سجين كان براي قد حطم قفل زنزانته دون أن يدري. الابن ستيفن أحرز مستوى A لكن لم تكن مسألة الجامعة واردة. إنها المرة الأولى على مدى أجيال التي يعرفون فيها أحداً سواء في عائلته (هجالمار) أو عائلة مارغوت: يترك المدرسة ببساطة ويصبح واحداً من البرجوازية الصغيرة نصف المتعلمة. «إنه استعماري طبيعي ـ النوع القابل للتكيف الذي يتمتع بنوع من الشعبية التي تحصل عليها عندما تدير حانة والجميع يدعونك ستيف ـ أنت تعرف ماذا أقصد. لا شيء يمكنك فعله حول ذلك. الكل يحبونه. مارغوت تجد ذلك مقززاً. بالطبع أنا لا ابتهج تماماً... لكني أراه بمثابة حل لمشكلة البقاء، منه؟ نحن جلبناه إلى هنا، إلى هذا العالم وهذا المكان، وهذه هي الكيفية التي جيّر بها الأمور لنفسه. ليس فكرياً، أنت تفهم ـ ليس لديه سوى الغرائز. مارغوت في أوربة لم تكن تعرف مثل هؤلاء الناس. والدها، البروفسور العجوز ـ عندما ذهبوا إلى منتجع، كان يتناول كل وجباته في غرفة خاصة. لقد تعلموا أن العزلة والتأمل ينميان الملكات البشرية، وإضاعة الوقت مع الأغبياء تمنعها من النمو ـ تثبطها. كان هيغلياً كبيراً؛ لقد خلقوا لقلب كل فكرة مقبولة والتفكير بعكسها قبل أن يكوّنوا آراءهم ـ أنت تعرف، التفكير السلبي وكل ذلك. كان يكنّ احتقاراً كبيراً للوسطاء... حسناً، ومن لا يكنّ ذلك، خصوصاً إذا كان عليك أن تصبح واحداً منهم. آه يا مياياه ـ لم يكن ذلك النداء الألماني، بل النداء السكندينافي بالحروف الصوتية الأطول الذي لا يخطئ، مع إيقاع صاعد في النهاية «إنه مثقف يهودي جداً، بالرغم من أنه بالكاد يعتبر نفسه يهودياً. لو كان في أوروبة الشرقية بدلاً من ألمانيا لكان العجوز واحداً من اولئك القديسين التلموديين الذين لا علاقة لهم بكسب المال ـ جزءاً من التقليد الحاخامي الذي كان بالنسبة له نوعاً من الڤيتو أسوأ بكثير من الڤيتوهات الحقيقية».

تذكر براي أن البنت قد سميت تيمناً بذاك الأوربي البعيد والبغيض. ليلهي هجالمار عن ابنه، حوّل انتباهه إلى البنت التي كان أكثر قرباً إليها بكثير.

«وايمانويل؟ كيف سيرتها الموسيقية في الإذاعة؟».

«إنها تذيع بانتظام مساء كل خميس».

بدا هجالمار ملجوماً قليلاً؛ بالتأكيد كان ذلك شيئاً يعرفه كل واحد. لكن براي لا يستمع أبداً إلى أي شيء باستثناء الأخبار، وكان غير واع لجهله.

Twitter: @alqareah

«اوه، جيد جداً».

كان هجالمار يرفض افتخاره السهل بها بوصفه شيئاً جديراً بالازدراء.

«ينبغي أن تكون في الكونسرفاتوار في كوبنهاغن. في باريس. تمارس النفخ على الفلوتات الصغيرة المصنوعة من العيدان وتصدر الأزيز على قطع من الصفيح فوق يقطينة. آهه، لا يمكنني التحدث حول ذلك. والآن مارغوت مع أفكارها ـ أخذ نفساً وأطلقه؛ بتشاؤم ـ «الآن مارغوت تذهب وتحضرها إلى الطبيب لمعالجتها، خذي حبة واتخذي رجلا مثل حبة اسبرين، أيضاً».

كان يخاطب مارغوت الغائبة «من أنت لتقرري بدلاً عنها ما إذا كانت ستنام مع أي رجل يظهر؟ هي لم تطالب بذلك؛ أنت تقررين. أنت تقررين كيف تعيش البنات في هذه الأيام». «انصرف من تلقاء نفسه. فالاتهامات كانت تلاحقه».

«وأنا الوحيد الذي فقد التماس مع الواقع؛ أنا الذي يعيش في عالم الأحلام. اوه نعم. أي رجل له خمسة أو ستة أولاد وزوجة في البيت في الأدغال هو جيد بالنسبة لها؛ لا شيء يثير القلق لأن إيمانويل محمية. ضد ماذا؟ هل يمكنك أن تخبرني؟ ألا توجد تعاسات وأحزان متبقية عندما تعرف المرأة أنها لن تخاطر بطفل؟»

قال براي: «نحن نعمل ما بوسعنا، هذا هو كل ما في الأمر».

«بناتك متزوجات؟».

«نعم، هذا ليس شكلاً من الحصانة، أيضاً».

كان ثمة توقف سلس؛ هز هجالمار طرف أذنه ذات الشكل الحسن. «أنت تعرف، غالباً ما شعرت بأنني أرغب في الصعود إلى محلك ليومين ـ مجرد استراحة، لمجر إلقاء نظرة، أنا لم أر شيئاً من البلد».

«حسناً، ولماذا لا تفعل؟»

«أي فكرة للمناورة بها» هز كتفيه استهجاناً «لا يمكنك أن تبتعد نصف يوم، في هذه اللعبة. يصبح من المستحيل أكثر أن تجد هيئة [تدريسية]، طوال الوقت. عادت مارغوت إلى المطبخ مرة أخرى ـ اُصيب الطباخ بطعنة في مشاجرة. حسناً، ما الذي يمكنني فعله؟ لا يمكنك أن تستدعي طباخين من الفضاء. لقد أخبرتها، أن ما ينبغي علينا فعله هو استجلاب واحد من أوروبة، مهاجر. ننشر إعلاناً في ايطاليا أو في ألمانيا».

ظهرت إيمانويل، في الحال ارتسم تعبير على وجهها يقول: حول ذلك مرة أخرى. مدت يدها النحيلة الشاحبة، وهي تهزها مثل الرق:

Twitter: @alqareah

«المفاتيح، المفاتيح، من فضلك ـ مرحباً كولونيل براي، لم أكن أعرف أنك هنا».

«لسوء الحظ أنه قد أهملنا هذه المرة، إنه مع السيدة داندو. إننا مهجورون».

ما الذي يمكن للمرء أن يقوله لفتيات من عمر إيمانويل؟ ليس أنك قد كبرت...بالرغم من أنها تبدو قد كبرت. كانت تبدو أطول مما كانت آخر مرة رآها فيها، بل إنها أكثر هيافة بشكل أنيق. ثرثرا للحظات قليلة، لكنها أكدت على حالة المساواة التي يتمتع بها البالغون، والتي كانا بالطبع قد بلغاها آخر مرة. لقد نسي الأحاديث في الحديقة. «تعال وتناول مشروباً معنا» قالت، تاركة الدعوة مفتوحة، كما لو أنه سيعرف الرفقة التي تركتها مؤقتاً. هزت يدها لأجل المفاتيح مرة أخرى، وهي تقف برجليها المتباعدتين، أمام أبيها.

«ماذا تريدين؟ لا بأس عليك». ابتسم، مستسلماً.

«لا، إيمانويل، ما هو؟» «سأفضح كل أسرار العائلة وأكشف أمام العيون الغيورة للناس كل مجوهرات العائلة ، هذا ما أريده». كان وجهها الضيق، الداكن، لا يزال خالياً من المكياج، لكن شعرها كان نامياً وسابلاً، مرفوعاً إلى الأمام على جانبي عنقها الطويل من الذروة المدببة لجمجمتها، خشناً ولماعاً. نظرت إليه بحب وشفقة، نظرة قاسية ومفترسة على نحو غريب. هكذا يمكن للمرء أن يصنع قرار قتل حصان وفي محبوب، عندما يحين الوقت. ثم ولت، بمشيتها المتشامخة الصبيانية، شديدة الأنوثة في احتقارها للأنوثة.

كان هجالمار ونتز شخصاً آخر عندما يتكلم عن المسائل خارج حياته الخاصة. في حركة عكسية مثيرة للفضول كانت ذاته العلنية مصانة كمعتزل يشعر فيه بنفسه أنه [يحقق] أقصى ذاته، محمية ضد التآكل. انحنى بشدة إلى الأمام (كان لا يزال يرتدي حذاء الأسيدريل وسروالاً كتانياً مجعداً كما لو أنه كان مختطفاً في يوم عطلة من الدانمارك أو الكوستا براڤا) في حين كانوا يتحدثون عن الإضرابات واضطرابات الأشهر القليلة المنصرمة.

«وراء كل رجل جيد في سياسة الإصلاح، ثمة عصابة من اللصوص لا يختلفون بالنسبة له. في بلد من الفلاحين الأميين يعرفون الحجج للإقناع حيث لا يكون المنطق مفهوماً».

كان خطاب مويتا الافتتاحي في جريدة المساء؛ هذا هو يومنا ـ **الرئيس مويتا**.

«ماذا يعني ذلك للناس عندما يقول إن حاجات التنمية الاقتصادية تأتي قبل أي شيء؟ ماذ يعني لو قال العمل، ومزيداً من العمل، ومزيداً من العمل؟ لكن عندما

Twitter: @alqareah

يضربهم صبيان الرواد، عندما يتحدون النقابات ويقومون بالإضراب؛ **عندئذ** يفهمون. يعرفون إذ ذاك أن النقابة هي الحزب وأن الحزب هو البلد. كله واحد ولا أحد يحتج على ما يقرره زعماء الاتحاد، من يفعل يكن خائناً. فيما بيننا، اسمع: الحقيقة هي أن قطاع الطرق الرواد هم الصلة الفاعلة الوحيدة المتبقية بين الحزب والحكومة في كثير من الأماكن. المثير للشفقة أنه ترك تنظيم الحزب في الأدغال يذهب إلى الأشخاص ذوي الشأن» ـ هجالمار لم يكن دائماً يلتقط مصطلحاته الانكليزية بشكل صحيح.

ـ «الفروع تُهمل... إذا لم يقم الشباب الدنيا ويقعدوها فإن كثيرا من فروع البلد سوف تشعر أن لا صلة لها بحكومة الحزب على الإطلاق. كان عليه أن يركز على الكفاءة. حسنا، هذه مشاكل ظهور الأسنان».

«نعم، حسناً، هذه هي مفارقة هذه البلدان ـ نقص القدرة البشرية وزيادة الذين لا يصلحون للعمل».

«سنحتاج إلى ألفين ونصف من حاملي الشهادات المدرسية وحدهم في العام القادم، وثلاثة عشر ألفاً في خمسة عشر عاماً. في تقدير متفائل، لن يكون هناك أكثر من ألف في العام القادم. لكن في خمسة عشر عاماً ينبغي أن يكون بالامكان تحقيق ذلك العدد».

«هذا هو ما تعمل عليه، ايه؟» أقر هجالمار براحة الأرقام، ربما المزورة. «أنت على حق. لا زلت أؤمن بأن التعليم هو الأمل الوحيد. لا يزال عليّ أن أصدق ذلك برغم كل شيء». كان يقصد ألمانيا، فشل معرفة العلوم الأنسانية في جعل البشر أكثر إنسانية، هذا المحور الذي تدور حوله حياته. «هذه الأيام، إنه الحب، ايه؟ لنعد إلى الحب. ولا حتى وصفة المسيح. أنا لا أثق بها بأكثر مما أكرهها».

قال براي: «في أوروبة تحدثنا من وقت لآخر عن جيل ضائع، لكنه في أفريقيا موجود في الواقع. ما الذي سيحصل لهم؟».

«إنهم يساعدون في صنع الأنقلابات، أعتقد. من يدري؟ سوف يهرمون ويذهبون إلى بيوتهم ليزرعوا المنيهوت في مكان ما. لن نكون هنا لنرى».

«ولكن حتى الآن تقولون أن الأمور لا تسير بشكل سيء للغاية؟» سأل براي بفضول.

ـ «لا. لا على العموم. إنه يحتفظ برأسه».

ـ «ووعوده؟»

Twitter: @alqareah

اتخذ هجالمار مظهر امرأة عجوز تبوح بسر. «لقد أطلق من الوعود أكثر مما ينبغي. مثل كل واحد. ولكن إذا منحوه وقتاً. إذا لم يضغطوا عليه من كل الجهات، البريطانيون، الأميركيون، منظمة الوحدة الأفريقية».

«أخشى أن يكون تورط الرواد الشباب هو ببساطة شيء زائد ـ ظاهرة عرضية. إنهم هناك؛ إنهم متبطلون: كما قلتَ، إجراميتهم لها وظيفة معينة في كونها المشاركة الدنيا الوحيدة تقريباً في شؤون البلد المتروكة لبعض فروع الحزب. لكن للحظة: ما الذي حدث في الإضرابات في مناجم الذهب؟ النزاع على العمل الإضافي في منجم فلزات الحديد، القضية في سكة كاسولو: كلها إشارات على أن العمال يفقدون الثقة بالنقابات. يشعرون أن النقابات لم تعد تنطق باسمهم. على طول الخط من أصغر القضايا المحلية إلى مستوى الاتحاد فإن القرارات المؤثرة بهم يتم اتخاذها من فوق رؤوسهم. إذا أصبح الأمين العام تعييناً رئاسياً، فإن اتحاد النقابات يكون تقريباً جزءاً من وزارة العمل. من غير المستحسن إقحام رجال الحزب لكسر رؤوس الناس الذين يضربون ضد اتفاقيات الأجور. إن الشقاق في النقابات هو القضية الحقيقية».

ـ «ولكن هل هذه هي الحقيقة؟ الرئيس لن يشجع وضعاً فاشياً هنا. لا أحد يمكنه أن يقول ذلك. لن يسمح بذلك. إنه لا يحب التوتاليتارية [الشمولية] من اليسار أو من اليمين، كله سواء بالنسبة له... لكن هذا الرجل إدوارد شينزا ـ هذا اعتدت أن تعرفه... الناس يقولون إنه وراء كل ذلك».

كان براي قد نسي أنه هو الذي يطرح الأسئلة: «لكنه شيء حقيقي. لم يبتدعه. كل هذه القضايا في المؤتمر. سيكون ذلك مؤسفاً إذا حوربوا كعرض للقوة علناً».

تلوّى هجالمار ونتز بثقة بالنفس في كرسيه:

«أليس ذلك هو الحال؟» أكدت ابتسامته الخبرة المشتركة لجيل واحد.

«حسناً؛ من المثير للاهتمام أن تكون موجوداً ـ إنك محظوظ. هل تلك السينما على ما يرام؟ كان ثمة حديث في البداية عن أنه يمكن أنهم يريدون أن يبقوها هنا، أنت تعرف... وخزة من الغرور الساخر ـ لكنني أعتقد أن لدينا ما يكفي من المشاكل».

كان إيمانويل، راس آساهي، وشاب أبيض جالسين في مقصورة النزلاء. حيّت براي فيما كان ينصرف. رفض مشروباً لكنه وقف يتحدث للحظة. كان الانكليزي الشاب يمتلك المظهر المبهور بشكل لطيف والمخنوق قليلاً لشخص كان نائماً بملابسه، في الطائرات لأسابيع. كان من إحدى الصحف الأسبوعية أو ربما مراسلاً

Twitter: @alqareah

لوكالة أنباء (مرة أخرى، براي كان متوقعاً أن يعرف، من اسمه، وكان في جولة اعتيادية على الدول الأفريقية. كان راس آساهي يعطيه تعليمات حول الناس الذين ينبغي عليه أن يراهم، يدس في جيوبه عدد كبيراً من قصاصات الورق التي حاول أن يعرف منها هوية الأسماء المختلفة التي نصحه بها الآخرون : «بازيل قال لي ألا أفوت هذا الرجل، ماذا تسميه... ـ أوه وهل تعرف زميلاً... انطون قال إنه ذو قيمة رائعة...» قال لبراي، «أنا متأكد من أن أحداً ما قد أعطاني اسمك؟».

قال راس: «أوه نعم، الكولونيل براي أحد الشخصيات المعروفة جيداً».

رمت إيمانويل براي بإحدى ابتساماتها النادرة والجميلة بشكل أخاذ، اعترافاً بالاتهام الحاد قليلاً. الذي يعزى إلى سوء فهم راس الطفيف بالقدر نفسه للمعنى الآخر للعبارة الانكليزية.

«أنت الذي كنت مسجوناً، أو شيئاً من هذا القبيل، مع الرئيس؟».

«تماماً، أو شيئاً من هذا القبيل».

«لا تصده» أحلت إيمانويل براي محلّه، ربما كانت هذه هي طريقتها في مغازلة الصحفي، أرخت نفسها في الأريكة العميقة ذات النوابض المكسورة، نهداها الصغيران يتدليان بتجهم وهما عاريان ظاهرياً تحت الفستان القطني ذي العنق العالي.

«كان الكولونيل براي يعرف تلك الجماعة جيداً... أبي، شينزا العجوز».

التفت آساهي، رجل القضايا، إلى براي بحركة مسرحية ـ «ينبغي عليهم أن يحبسوا شينزا، ايه؟ المشكلة هي أن الرئيس لين أكثر مما ينبغي مع هؤلاء الناس».

كان الصحافي لا يزال يقارن الهويات. «ألا تعرف رجلاً يُدعى كارل تشرتش؟ أعتقد أنه الرجل الذي ذكرك. اعتاد أن يكون مع الغارديان... في حوالي الخامسة والأربعين، يعرف خلفيات أفريقية».

كان يعرف تشرتش؛ ولكن عندما بدأ يسأل عن أخباره، تبين أن الشاب لا يعرفه. لقد التقيا للمرة الأولى في حانة في ليبرفيل قبل أيام قليلة. قال تصبحون على خير. «لماذا تريد أن يُسجن إدوارد شينزا، يا راس؟»

«ينبغي أن يطرد من الحزب، بأي حال. يقولون إنه قد ذهب إلى بكين مع سومشتسي. على كل حال. حسناً، تلك هي القصة. لكنه كان متجولاً يعقد اجتماعات سرية مع عمال مناجم الذهب، أعطاهم المخطط لأجل الإضراب المنصرم، تزعم الأمر برمته. كيف أمكنهم أن يمتلكوا الخبرة من تلقاء ذاتهم. خطرت ببالي

Twitter: @alqareah

فكرة أن أعمل فيلماً وثائقياً حياً، مقابلات وما شابه، أتحدث إلى المضربين؛ لكن المسؤول الجديد لوزارة الإعلام أحبط ذلك... كان يتعين أن يُلعب على البارد... لو فعلت ذلك لكان شينزا في [السجن] الآن».

كان لراس آساهي الضحكة الخاصة للثقة الكاملة بالنفس (كما علق براي عليه لآل بايل) غير المكفولة من الاضمحلال. لا عجب أن فتاة ونتز، التي تحب أباها، الضحية الطبيعية، كانت منجذبة إلى شخص لديه نزعة واضحة جداً إلى البقاء. ينبغي على المرء ربما أن يواسي هجالمار بالإشارة إلى أن إيمانويل أيضاً ـ وليس فقط أخاها ـ تكشف عن غريزة حفظ الذات اللاشعورية.

Twitter: @alqareah

(16)

رفع قرار فرع لينوس اوغوتو [للحزب] بإدانة الرواتب العالية لأعضاء الحكومة وتيرة المؤتمر باكراً في الجلسة الصباحية. كان الصمت الحذر يطارد خلسة جمله القليلة الأولى، لكن التركيز والتيقظ انحسرا عندما تابع، متدرجاً في تجريد الأرقام. اصطدم فجأة وجهاً لوجه بمحطة بترول تتصدق بالبترول المجاني؛ كان يرتب النسب المئوية مثل حفنة من البطاقات؛ باسم المؤتمر، داعياً إياه لأخذ نسبة، أية نسبة ـ واستنتاج أبعاد الحسم الأسبوعي من اللحم الرخيص الذي يمكن للعامل أن يشتريه لأسرته على مساهمته من ساعات العمل البشري بالمقارنة مع ساعات العمل التي تؤمن للمسؤول فراريجه ـ أحياناً القابلة للحسم بمثابة مخصص للترفيه في الصفقة.

أطلقت امرأة قرب براي ـ متأثرة بهذه الإفشاءات ـ صوتاً خفيضاً مثل صوت آلة تشيلّو عزف عليها بشكل عَرَضي. أظهر الرجال الذين ينتمون إلى فئة الدخل الخاضعة للهجوم ذلك الصبر الاستعلائي الساخر الذي يعلق به الأغنياء في كل مكان على جهل الفقراء بالأعباء التي يتحملها أصحاب الامتيازات بشجاعة. عندما فتح النقاش كان ينهض اثنان أو ثلاثة منهم إلى أمام نظر الرئيس كلما كان يثبته؛ فتنتفخ الفصاحة على خلفية الجيوب الصدرية المسلحة بأقلام الحبر. مرة تلو الأخرى طُرحت مسألة ما إذا كان يتوقع من أعضاء الحكومة ذوي المناصب الرفيعة أن يداوموا في ساعات النوم التي تضيع في حين تبقيهم المشاكل المؤثرة على حياة الأمة ساهرين حتى منتصف الليل؟ إنها دعوات هؤلاء الرجال إلى منحهم «تعويضات متواضعة» لأجل معرفتهم وعملهم الذي لا يكل «أية كذبة أن نتحدث حول «الساعات البشرية» لأن الحقيقة هي أنه لا يمكنك في المنصب الكبير أن تتوقف عن

Twitter: @alqareah

العمل في الخامسة مثل أي موظف محظوظ» ـ كادت أن تُهزم الحركة، لكن إفشاء اوغوتو البريء بأن ثلاثة أرباع المندوبين الحاضرين ذاتهم يكسبون أقل من ستمائة جنيه في السنة كان كافياً لقلب القرار لصالحه. كان فم اوغوتو يرتعش؛ فهم براي أن عليه أن يزمه للسيطرة على نشوة الانتصار. ظل مبتسماً غير واثق في هذا الاتجاه فبدا مثل شخص حسير البصر لا يريد أن يبدو أنه يتجاهل التحيات. في أعلى خشبة المنصة كان شينزا يدخن.

في نوع مثير للفضول من تناقض نجاح اوغوتو، أحدثت مطالبة فرع تانانزي بتجميد المكاسب فوق ستمائة جنيه حالة من الريبة في المؤتمر. لم يعترف جاسون مالنغا، وزير المالية، فعلاً بأن أساس النظام السياسي برمته يمكن أن يتعرض للتحدي بفعل توزيع أكثر مساواة للمال، بل حذر من أن تجميد الأجور وتحديد مستوياتها من شأنه أن يعرض الاستثمارات الأجنبية للخطر؛ فأحال المسألة إلى لجنة منتخبة.

لم يستغرق أيضاً بدء هجوم الفروع الريفية والمطالبة بتنظيم العمال الزراعيين والمناداة بالحد الأدنى للأجور حسب المنطقة التي يتصل بها، سوى وقت قليل لكي ينطلق. كان على الرئيس أولاً أن يزيل خلاف المتكلمين الذي أرادوا أن يتيهوا عبر القضايا المحلية لسوء استخدام اليد العاملة الزراعية بدلاً من أن يتكلموا في القضية نفسها؛ كان ثمة قسوة وإحساس بالهموم المتضاربة. بدأ يتضح النمط الخاص لهذا المؤتمر، من القوى الحاضرة في الاجتماع، كما لو أنه لم يكن موجوداً طوال الوقت. كان براي يعرف هذه اللحظة من كل المؤتمرات والمحادثات، والمناقشات، في حياته؛ ثمة دائماً وقت يوشك فيه التجمع فعلاً أن ينطلق بقوة وبشكل لا يُخطأ مثل رائحة الاحتراق. لا أعراف، لا حيل أو دبلوماسية يمكنها أن تمنع ذلك. بما أن كثيراً من مسؤولي وقادة الحزب كانوا أيضاً في الحكومة، فقد كان ثمة دائماً عضو ما من القسم المناسب من أقسام الحكومة ليقدم في هيئة حضوره كمندوب عن الحزب خط الحكومة في كل قضية على حدة. كان نائب وزير الزراعة قد أُحضر لأجل هذا. فالطبيعة الموسمية للعمل الزراعي، وأساليب الزراعة البدائية، غلبة العمال اللامهرة الذين لا يزالون يركزون جهودهم على كسب لقمة العيش بدلاً من الإنتاج ـ قال بلهجة مدينيه شبه مملة ـ [كل ذلك] يجعل العمال الزراعيين غير عمليين إجمالاً و«عشر سنوات عاجلة أكثر مما ينبغي». إن خطط التنمية الزراعية الحكومية يجب أولاً أن يسمح لها بجعل الأرض أكثر إنتاجية. «تحمس إلى درجة الابتذال».

Twitter: @alqareah

«لطالما كان من المتعارف عليه أن يؤجر الناس أنفسهم لأجل التعشيب أو الحصاد عندما يحتاجهم المزارعون البيض - هل سنقول إن هؤلاء النسوة والأولاد والعجائز الذين لا يمكنهم العمل بشكل منتظم يجب أن يتخلوا عن فرصتهم في كسب القليل من المال والمساعدة في حراثة الأراضي، لأن تنظيم العمال الزراعيين بالتوازي مع خطوط عمال المصانع سوف يمنع ذلك؟ لا يمكنكم أن تصنعوا مجتمعاً عاملاً حديثاً من القسم المتخلف من الريف بين عشية وضحاها، لا بدستور ولا بأي قصاصة ورق أخرى».

وافق سايروس غوما، الذي كان رداؤه معلقاً على أحد كتفيه العاليين على أن خطط التنمية الزراعية ضرورية: «بالطبع إن معظمها، أيضاً، لا يزال قصاصات من الورق. لكن التخلف الزراعي لا يمكن تغييره فقط بتقديم السدود للناس وبإعارتهم الجرارات وإرسال شخص ما للتدريب على الفلاحة الكونتورية. مهما كان الناس متخلفين وغير مهرة فعليهم أن يعيشوا الآن في اقتصاد نقدي حديث، والخطوة الأولى هي الاعتراف بأن عملهم يجب أن يقيّم بلغة ذاك الاقتصاد. إن المال الذي يتعين أن يحصلوا عليه لشراء الأشياء به هو مثل مال أي شخص آخر؛ فالعمل الذي يقومون به لكسبه يجب أن يقيم بلغة ذاك المال، ليس كما يعتقد المزارع الأبيض أنه يكفي لأجل النساء العجائز والأطفال. المبدأ لن يترسخ أبداً حتى يُنظم العمال الزراعيون مثل أي عامل آخر. وعمل الأرض العشوائي استمرار للطرق القديمة لأجدادنا الذين كانوا يحرقون ما يكفي من الأشجار لإيجاد فسحة لزراعة المحاصيل الكافية فقط لأطفالهم، وينتقلون إلى مكان آخر عندما تنهك التربة. لن يصبح هذا صناعة زراعية حديثة عالية الإنتاجية إلى أن يصبح العامل الزراعي عاملاً منظماً. كيف يمكن أن توجد صناعة بدون سلم أجور مناسب، شروط عمل، فوائد اجتماعية؟ بدون هذه الأشياء يبقى عامل المزرعة قناً كلما اشتدت اتهاماته أصبح صوته أكثر جفافاً».

«أريد أن أسأل المؤتمر ما إذا كانت التعهدات التي يطلقها الحزب لكل السكان هي الآن لأجل الناس في المدينة وحدها؟» سكت، لكنه رُفض بالصمت.

«إذا كنتم لا تريدون أن تسألوا أنفسكم ذلك، عندئذ ربما ستدعونني أخبركم أن الخبراء ذوي الآراء السياسية المختلفة جداً يتفقون جميعاً على شيء واحد: التخلف الزراعي دائماً يبطيء وأحياناً يعيق تماماً أية إمكانية للتوسع الاقتصادي السريع ككل. ففي انكلترا سهلت الثورة الزراعية في المزارع المسيجة، في القرن السادس عشر إلى الثامن عشر، الثورة الصناعية إلى حد كبير. في أمريكا، في اليابان في وقت متأخر

Twitter: @alqareah

يمتد إلى مئة سنة خلت، كان الإصلاح الزراعي السريع هو الذي جعل المعجزات الصناعية لهذين البلدين ممكنة في فرنسا، فإن ضريبة الأرض للحركة المعروفة باسم الفيزيوقراطيين...».

قدم براي خيطاً طويلاً من الاستشهادات المأخوذة من العالم الزراعي الأنيق: رينيه دومون. «يا له من شيء أخرق، أن تأتوا إلينا في المزارع باجتماعات وتطلبوا المال لدفع رسم اشتراك لأجل النقابة وأن تقولوا لنا بأننا سنحصل على كافة أصناف الأشياء التي لن نحصل عليها». كان شاب واقفاً على قدميه، سواء كان فعلاً قد التقط نظرة الرئيس أم لا فقد كان ذلك متأخراً جداً أكثر من قدرة الزعيم على تحديده ـ التفتت الرؤوس كما لو أنها تفسح المجال لمرور شخص كريه فيما بينهم.

«كم هو فظ أن تجعلوا الناس في الأراضي يظنون أن بإمكانهم أن يعيشوا مثل الناس الذين في المدينة لأنهم ستكون لهم نقابات... إننا ننبش الطين وليس الذهب... نحن نزرع عندما يكون الآخرون في المدرسة... لماذا تقولون لنا إن هذا يمكن أن يتبدل لأننا ندفع مئتين وستة والمؤتمر الموحد للنقابات سيقول ذلك...». حاول الناس أن يقاطعوا، فهز الرئيس رأسه من الفوضى. انتقل المتكلم فجأة من فصاحة الأمي إلى انكليزية اللجان المصاغة بعبارات تقليدية، بمظهر من يترفع عن أية منفعة لنفسه بسبب الرعب. «إن الفروع الريفية للحزب نفسه قد تم تضليلها للإلحاح على هذه الحركة. سوف ترفع أجور العمال الزراعيين وتتحسن شروط تشغيلهم كنتيجة للإنتاج المحسّن عبر خطط المساعدة الحكومية ولا شيء آخر. إن العمال الزراعيين يتم استخدامهم، إنهم يتحملون لكي لا يستفيدوا شيئاً عن طريق مطالبهم لأنه لا شيء في ذلك لأجلهم. كل ما فيه هو محاولة قطاع معين من الحركة النقابية لبسط نفوذه وودائعه لأسباب خاصة... النقابات لا يمكنها أن تفعل شيئاً لأجل العمال الزراعيين لا يمكن لقسم الزراعة أن يقوم به. هذا الحزب بدأ كحزب للشعب، كحزب للفلاحين، لأنهم جميعاً ينحدرون من هناك، من الأرض» ـ تصفيق، خصوصاً من أولئك الذين يوحي لباسهم بأنهم هم أكثر من ابتعد عنه «ولا حاجة لهذا الهراء حول الناس المنسيين في الأرض لأنه لا يوجد فرق بين الناس في الأرض والناس في المدن. نحن سواء. إن فكرة وجود فئة مختلفة من الناس في المدينة، لا أعرف من أين يجلبها أي واحد من شعبنا. إنها ليست فكرة أفريقية. إنها تأتي من مكان آخر ونحن لسنا بحاجة إليها. حزبنا كان ببساطة حزب الشعب وحزبنا في السلطة هو ببساطة حكومة الشعب».

Twitter: @alqareah

الآن تكلم شينزا للمرة الأولى. كان يرتدي نفس القميص الذي كان يرتديه في اليوم السابق، وثمة علبة سجائر واضحة المعالم في الجيب الصدري المزرر. وشعر براي الذي سمعه مرات كثيرة، بنوبة هستيريا تغلي في بطنه، وجد نفسه متنبهاً لأجل ردود الفعل الصامتة المنبعثة من الجمهور، مركزاً، ومع ذلك متحركاً، مع الجزر والمد الهادئ للتنفس من حوله. إن شينزا، مثل مويتا (ومويتا كان قد بدأ يقولب نفسه عليه)، قد تركهم ينتظرون للحظة أو لحظتين قبل أن يتكلم، إنها حيلة من حيل السلطة، وليس تردداً. ثم فتح فمه مرة ـ كان السن المكسور فجوة قبيحة ـ وأغلقه ببطء، دون صوت. عندما جاء الصوت كان يبدو أنه في رأس براي تماماً.

«حزب استقلال الشعب نبت من قرى الأدغال ومواقع العمل في مدن البيض حيث جاء القرويون ليعملوا. لقد نبت من حركات العمال في المناجم، حيث كان عمال المناجم أيضاً من الأدغال».

كان الصوت هادئاً وصبوراً، صبوراً أكثر مما ينبغي قليلاً ـ ربما ـ فقد يظنون أنه كان يُلمح تلميحاً بحيث أنهم سيكونون بطيئين في المتابعة. «صحيح أنها حركة فلاحية وأننا جميعاً أبناء فلاحين. لكن ليس صحيحاً أن هذا كاف لأن يضمن طوال الوقت أن يبقى الحزب الحاكم حزب الشعب. والحكومة حكومة الشعب. بالنظر إلى الوراء إلى وجه شبابكم لن تزول الندوب والعلامات التي يحملها الآن»

مد يده شارداً فوق اللحية التي تغطي وجهه « بالنسبة لبعض الآلاف ـ أقل من ربع السكان ـ تغيرت الحياة. إنهم يعملون في الوزارات، في دوائر الحكومة، المكاتب، المحلات والمصانع. أولئك الذين في القمة يملكون السيارات والبيوت، حتى أولئك الذين في القاع يعرفون أنهم يستلمون طروداً نفيسة منتظمة ترد كل أسبوع ويمكنهم أن يسددوا أقساطاً على مدافئهم وأجهزة الراديو، تلك الأشياء هي الطريقة الأسرع لإظهار المستوى للمعيشة». هز كتفيه هزة استهجان صغيرة. «لكن بالنسبة لعشرات الآلاف، فقد تم تغير القليل جداً. ثلاثة أرباع السكان لا يزالون في الأرض، وبرغم أن التصنيع ـ بشرط يكون شيئاً ما أكثر من امتياز أجنبي متزايد ـ سوف يمتص نسبة مئوية جيدة في المستقبل، فإن عشرات الآلاف سوف يبقون بشكل دائم ـ في الأرض. إننا جميعاً الشعب نفسه، في المدينة والريف، مع أنهم لا يملكون لا سيارات ولا بيوتاً قرميدية، لا برادات ولا ملابس أنيقة.... نحن جميعاً شعب واحد مع أنهم لا يملكون راتباً منتظماً يأتيهم على اثني عشر شهراً في السنة، ولا تعويض

Twitter: @alqareah

تأمين بطالة، ولا ساعات عمل أعظمية، ولا تعويض إصابة، ولا تعويض لأجل التسريح. هل نحن الشعب نفسه؟ - نفسه لكننا مختلفون؟ نعم - نفسه، لكن مختلفون. يجب أن نواجه حقيقة أن الكلام الكبير حول الأفكار اللا أفريقية هو رفض غبي لرؤية الحقيقة. فالتصنيع نفسه هو فكرة لا أفريقية - إذا كنت تقصد بذلك شيئاً جديداً على أفريقيا. الحزب السياسي هو فكرة لا أفريقية. هذه السينما الجميلة التي نجلس فيها هي فكرة لا أفريقية، ينبغي أن نكون في الخارج تحت شجرة في مكان ما ... إن الاعتراف بحقيقة أننا أوجدنا نخبة مدينية، وأن ثمة فجوة آخذة بالاتساع بمصطلحات الإشباعات المادية كما الأنواع الأخرى من التحسين بين تلك النخبة والشعب في الريف، وأن القليلين يسيرون في المقدمة ولا يظهر منهم شيء سوى الغبار للكثيرين، هذا الاعتراف ليس لا أفريقيا أو لا أي شيء ، إنه مسألة نظر إلى ما يحدث فعلاً. إذا كنا شعباً بلا طبقات، فإننا الآن نخلق بروليتاريا فلاحية مجردة من الملكية خاصة بنا. حيوات الناس في المناطق الريفية راكدة. إذا كان الحزب كحزب حاكم سيبقى حزب الشعب فعليه من خلال كفاح الاستقلال أن يعترف بما سمح هو بحدوثه. الآن فقط سمعنا أعضاء المؤتمر يعارضون تحركاً يطالب بالحقوق الأساسية لأجل العمال الزراعيين كقوة عاملة. هل يمكننا أن نصدق آذاننا؟ هل هذا هو الصوت الذي يتكلم به الحزب الآن؟».

توقف لكي يستثير تعجباً، لكن مرة أخرى كان ثمة صمت عبوس. امتد صوته متحولاً إلى سلطة.

«حسناً، نحن هنا في المؤتمر السابع للحزب، المؤتمر الأول منذ شكّل الحزب حكومة؛ يجب علينا أن نصدق. البارحة كان على منظماتنا النسائية أن تحتج لأنها منعت من المشاركة في المؤتمر. كان علينا أن نصدق آذاننا إذاً، أيضاً، عندما سمعنا أن النساء اللواتي عملن منذ البداية لأجل الاستقلال يداً بيد مع الرجال،نساءنا اللواتي كن دائماً أعضاء كاملات العضوية في الحزب أخذن على عاتقهن ألا يمارسن التمييز ضد أي كائن بشري على أسس القرابة القبلية أو الجنس - نساءنا اللواتي تُركن خارجاً ليصنعن الشاي فيما المؤتمر يناقش القرارات التي ستؤثر على حيواتهن وحيوات أولادهن - لقد سمعنا، وما سمعناه لا يمكن أن يعني سوى شيء واحد: أن خطوط الاتصال بين مبنى الحرية في هذه المدينة وفروع الحزب في القرى والأدغال مقطوعة. هذا هو السبب في أن المؤتمر يناقش موقف عمال الزراعة كأنهم غرباء، أناس يعيشون في مكان آخر - بشر من القمر. هذا هو السبب. الحزب يبقى حزب

Twitter: @alqareah

الشعب والحكومة تبقى حكومة الشعب فقط طالما أن الشعب يعرف أن الحكومة والحزب هما في خدمته. يجب ألا تكون هناك مقاطعات منسية، يجب ألا تكون هناك قطاعات منسية من السكان. مهمة الحزب هي أن يكون التعبير المباشر عن الجماهير، لا أن يتصرف كإدارة مسؤولة عن تنفيذ أوامر الحكومة، فالحزب، سواء كان حاكماً أم لا، وجد لمساعدة الناس على تحقيق مطالبهم وأن يصبحوا أكثر وعياً لحاجاتهم، لا أن يحول نفسه إلى حاجز بين الجماهير والقادة».

«إذا كان الحزب مستعداً لتجاهل مطالبة عمال الزراعة بالتنظيم كقوة عملٍ معترف بها مع الحق في التفاوض على شؤونها الخاصة، فإن الحزب يكون متهماً بالموقف المزري (القائل بأن) الجماهير عاجزة عن حكم نفسها ـ وهو موقف اعتقدنا أننا قد تخلصنا منه إلى الأبد عندما أصبح دار الحكومة مقر الرئيس. هذا المؤتمر يجب أن يواجه حقيقة أن الحزب في خطر من أن يصبح حزب وزراء حكومة موظفين مدنيين، ورجال أعمال».

اصطدم الاستحسان والمعارضة مثل قطعتي الصنج؛ فالكثيرون الذين صفقوا فعلوا ذلك بالطريقة المحدودبة الكتفين، نصف المتحدية لأولئك الذين يخشون الاستهجان. الريفيون الذين لم تظهر صفاتهم المميزة وملابسهم بارزة في صفوف الركب والوجوه انبثقوا فجأة في قوة متميزة العدد. فالوجوه ذات العلامات القبلية، وشحمات الآذان المطوطة التي تتدلى على ياقات قمصان منسلة كانت موجودة في كل مكان. شعر براي بالتيه على نحو غريب؛ مع أنه للحظة بالكاد استوعب ما قاله شينزا، فقد كان يقيس الوجوه من حوله، الوجوه على المنصة. مويتا أبقى رأسه مورباً في حين كان شينزا يتكلم؛ لا رد فعل أياً يكن، باستثناء ربما ـ هكذا تكشف لملاحظة براي الشديدة العصبية ـ رفع طفيف للذقن أظهر أنه يصغي، تماماً «رغم كل شيء، هُزم التحرك على نطاق ضيق جداً، والهزيمة قوبلت بهمهمات سخرية واستنكار مدمدمة من الاستياء، فالحضور الجماعي كيان عاطفي على نحو غريب، يمتلك صوته إمكانية من الضجات المعبرة ـ صرخات لا مقطعية، إنذار، عويلات ـ بحيث أن الناس الذين يشكلونه قد نسوا كيف يطلقونه، بشكل منفرد. كان سايروس غوما يتحرك متململاً مقيداً من هزيمته الخاصة. شينزا لم يلتق بعين أحد، كان ينظر بشكل مستقيم إلى الأمام بما كان يبدو، من مسافة براي، ابتسامة باهتة، خصوصية، أو رفعاً مرهفاً للشفتين في جلَد. في حين كانت عينا براي عليه، هرش نفسه فجأة بقوة على الصدر؛ نوعاً من إشارة هزلية، إشارة حياة».

Twitter: @alqareah

كان من المؤكد أنه قد ترك بصمته على المؤتمر. لو أن فصيلين معروفين بشكل واضح لم يوجدا أبداً من قبل ، فقد كانا موجودين الآن. عندما ألهب أولئك المندوبون راحات أكفهم بتردد ولكن بلا مقاومة لأجل شينزا، فإن تأييده، شعبيته الخاصة، قد عادا إلى الوجود مرة أخرى بالنسبة لكل شخص حاضرٍ ليرى ويسمع. كان موجوداً الآن. مويتا يجب أن يعرف ذلك. لا بد أنه، أيضاً، قد تلقى الرسائل المدسوسة بسلاسة في الخطاب، الموجهة إليه. فليس بإمكانه أن يتفادى إشاحة الوجه.

في الردهة خرج براي من حجرة الرجال ودخل على رولي داندو وشينزا تماماً في اللحظة التي لم يكن بمقدورهما فيها أن يتجاهل كلٌ الآخر. قال داندو: «هذا هو خطك، الآن، يا إدواردر» كما لو أنهما يلتقيان كل يوم. «ليس لي خط، يا رولي. سأدعم أي قرار يشكل عملاً قائماً علي دعم إنتاجية العامل، ضد الامبريالية الاقتصادية. هذه هي سياستي. كانت دائماً هي نفسها. أنت تعرف ذلك».

تكشيرة داندو في حينها أعادت ترتيب تجاعيده.

«أوه، نعم، الحزب ضمن الحزب».

قال براي: «دعونا نتناول الغداء وبإمكانك أن تكشف ما تعرفه».

«أنتما الاثنان يمكنكما الانصراف والاستمتاع بغدائكما. لدي عمل متراكم في مكتبي اللعين. هذه السيركات مضيعة للوقت تماماً بالنسبة لي».

تجمع الناس حول شينزا بشكل مفتوح الآن. غوما، اوغوتو وبازيل نوانغا، الشاب الضخم . كانوا يتسابقون حوله، يقومون بمهمة المرافقة لحضرته بتوتر هنا وهناك. بعيون تختار وتنبذ برشاقة من بين جمهور المندوبين. مويتا، الذي لم يظهر من قبل خارج الجلسات بل كان ينصرف فوراً في السيارة الرئاسية، انتقل عبر الردهة محاطاً بأعضاء اللجنة المركزية. رأى براي فتوجه نحوه، جالباً معه حاشيته إذْ لم يكن بمقدوره أن يتملص منها. مر بالرؤوس والوجوه. نادى «هل سأراك الليلة؟» نظرة براي كانت نظرة استفهام: «ألم يتصل بك السكرتير؟»

«ربما اتصل، بعد أن غادرت البيت».

«العشاء. حوالي الساعة الثامنة. بعد حفلة الكوكتيل. موافق؟».

كان من الخراقة أن يعود إلى فلك شينزا بعد هذا الفرز. كان سايروس غوما قد راقب متشككاً. على براي أن يبذل جهداً حاسماً للتغلب على شعوره الخاص بالذنب وتحييد شينزا جانباً للحظة، مدفوعاً إلى ذلك بمزيج من الإثارة واللهفة إلى إدانة

Twitter: @alqareah

الحركة لسلطة مويتا على تعيين الأمين العام لاتحاد النقابات الذي كان مزمعاً أن يصدر في جلسة بعد الظهر. شينزا لم يكن متفائلاً أكثر مما ينبغي؛ مع أنه كان من الصعب بالنسبة له، في حمى العنفوان الذي جلبه الدليل على الدعم الحقيقي للناس المتجمعين حوله، ألا يشعر بالاندفاع مع الحظ. بأي حال، وهو يتحدث إلى براي، بدا فجأة أنه يجعله يحسم أمره حول أمر ما. وجهه متيبّس كوجه سكران، أوضح بهدوء: «هل تتذكر زكريا سمستو؟ لا يزال يقول الكلمة وكل الفروع الخمسة في مقاطعة تيسولو تردد... لقد كان سايروس يتحادث معه لأيام، ولكن أنت تعرف كيف... بغض النظر عما يعتقده، فكرة التصويت ضد مويتا تنخز في حلقه... حسناً، إنه شيء مفهوم. لكنه يعرف أنك ـ بقدر ما يعنيك الأمر. أقصد، أنه كان يثق دائماً بما تقول. لو كان لديك مجرد كلمة معه، فليس هناك مشكلة».

وقال براي بسرعة للغاية بحيث أنه سمع صوته الخاص: «لا بأس، أين هو؟»

«إنه في الأسفل في موقف السيارات، مرره لينوس قرب السياج في مؤخرة البناية. تسللْ نازلاً كما لو أنك ذاهب إلى سيارتك، وستراه».

ترك براي اللوكسوراما دون إثارة انتباه أحد وخرج إلى الحر. كان يمشي فوق الأرض الكثيرة الحدبات والنتوءات بعزم شيء يدفعه في الظهر. مئة شمس تصوب نيرانها عليه من السيارات التي يقترب منها ويمر بها؛ من حين لآخر كانت قدماه تسحقان فوق بقع من خبث المعادن الذي استعمل لملء التجاويف. ثمة شجرة وحيدة تركت واقفة مغطاة بغبار فصل بكامله مثل قطعة أثاث مكفنة في حجرة فارغة. الصبيان الصغار الذين يتسكعون بأسمال قذرة، الذين يثيرون الإزعاج بمسح الزجاج الأمامي للسيارات، يقامرون ببنسات حول جذور الشجرة المكشوفة.

رأى بعض الرجال يجلسون نصفهم داخل ونصفهم الآخر خارج سيارة مفتوحة الأبواب. كانوا يأكلون السمك والبطاطا المقلية وقام أحدهم بسحق علبته الورقية بقبضته ورماها إلى بقية الفضلات التي تكومت تحت الشجرة. كان العجوز زكريا سمستو يجلس بشكل مرتب على صندوق فاكهة مقلوب، يدخن غليوناً ذا غطاء صفيحي صغير على سلسلة. عندما برز براي أشار العجوز إلى الأطفال بأن يكتشفوا أين سقطت العلبة و، غير مميز لبراي للحظة، قال بنزق للآخرين: «دعوهم يأكلون إذا كنتم لا تريدون». كان براي يحييه بشكل رسمي بلغة غالا، فقد أطلق عليه «صديقي القديم».

Twitter: @alqareah

ميزت أذنا الرجل العجوز ما لم تميزه عيناه. نظرة انذهال بهيجة أنعشت وجهه. استمرت التحية لمدة خمس دقائق.

«لكنك رأيتني في الداخل هناك». قال براي، بإمالة للرأس.

«حسناً، حسناً... سمعت أنك عدت إلى البلد. سمعت ذلك. لكننا عرفنا أنك قد غادرت إلى الأبد... لقد بقيت بعيداً لفترة طويلة للغاية».

«لم يكن لي خيار. كما تعرف. لم يكن مسموحاً لي بالدخول، كل تلك السنوات».

قال سمتسو: «وأنا كبرت في السن».

كان للآخرين مظهر الناس الذين سمعوا ذلك كله من قبل؛ كانوا هامدين تحت سلطته. قدّم اثنين منهم؛ كلاهما على ما يبدو من حملة المناصب في فروع حزب تيسولو، لكنه قدّم الأقل أهمية بحركة جامعة من يد كانت أصابعها ـ كما رأى براي ـ تتميز الميلان جانباً بعيداً عن البرجمة الأولى المتضخمة بفعل التهاب مفاصل. عشر سنوات فترة طويلة؛ تبعاً لأي مرحلة من حياتك كنت فيها في البداية.

كلاهما واقفان، يتحدثان حول تيسولو. ثمة حقول آجر هناك، رواسب جيدة من الصلصال، الأفضل في البلد. بالنسبة للبقية، كانت زراعة الكفاف من النوع الأكثر فقراً.

«هل يجب أن توسع حقول الآجر بحيث تنهض مشاريع أبنية حكومية كثيرة؟» نعم، لكن الرواسب الصلصالية الجديدة كانت في الطرف الشرقي من المقاطعة، وثمة حاجة لوصل سكة الحديد قبل أن يكون بالإمكان تشغيلها بكامل استطاعتها».

«وزارة الأشغال العامة ومبنى محطة الإذاعة تُبنيان بالآجر من بلد كاوندا» قال العجوز. «لقد كتبت إلى مويتا. إنه مشغول جداً. ليس من السهل أن تراه هذه الأيام. لكنه أجاب. نعم، ثمة رسالة جيدة جداً في جوابه».

تكلم الرجل الذي رمى علبة الطعام.

«لقد أخبرتنا بما نعرفه. فالآجر سيتعين استيراده إلى أن تنشأ سكة القطار».

«ووصلة سكة القطار على القائمة رقم واحد». قال سمستو، وهو يلفظ «رقم واحد» بالانكليزية *number one*. ضحكوا جميعاً قليلاً، وبراي أيضاً.

قال سمستو: «أعتقد أن القائمة رقم واحد طويلة جداً. أود أن أعرف أين تقع سكة القطار، على تلك القائمة».

Twitter: @alqareah

«وهل كان ذاك هو سبب المشكلة؟» سأل براي. «لقد حصل إضراب في حقول الآجر الشهر السابق». كان ثمة فاصل تردد ثان: المعنى الضمني أن هذه مسألة لا ينبغي التحدث عنها مع غريب. لكن سمستو كان يعرف براي قبل أن يعرف أياً من الآخرين.

«أخبر الناس بأنه إما أن الأجور يجب أن تبقى نفسها، أو يجب تسريح بعض الرجال من العمل. الاتحاد قال ذلك. ثم، عندما بدأت المشكلة، أرسلت الحكومة شخصاً من هنا لإخبارهم: حقول الآجر الجديدة خاسرة إلى أن يأتي خط القطار، ينبغي عليهم أن يصرفوا أناساً من العمل. لكنهم سوف يبقونهم في هذه الأثناء إذا لم يطالبوا بمزيد من الرواتب».

«ولكن مما قرأت في الصحف، فإن الاتحاد نفسه كان قبلئذ يفاوض لأجل زيادة الأجور عندما بدأت المشكلة؟»

«نعم، نعم ـ في البداية كان الاتحاد يطالب الشركة بزيادة الأجور، ثم انقلب، فهمت، انقلب مرة أخرى ـ وأخبر الرجال في حقول الآجر الجديدة أنهم سوف يُصرفون من العمل إذا استمروا في حقول الآجر القديمة بالمطالبة بالزيادة».

هز براي رأسه بقوة؛ إذ لا أحد من الرجال نظر إلى الآخر، الرجل الذي تكلم من قبل عرف عن نفسه بوصفه الذي كانت عيناه يتم تجنبهما. «ماذا يمكننا أن نفعل غير ذلك. بعد أن بدأنا نتحادث مع الشركة؟» ـ حقول الآجر كانت تابعة لمجمع مناجم الذهب ـ «تم استدعاؤنا إلى مقر وزارة العمل، أخبرنا السكرتير هناك، انظروا هنا، يا صبياني».

«لو أن أحداً ما تمكن من إخبار مويتا» ألح سمستو العجوز. «لو استطعنا الحصول على سكة القطار. عندما تتحدث أنت إليه ربما يمكنك أن تخبره، في المرة القادمة؟».

كان براي قد رأى أنه يعمل باتجاه التعبير عن كونه شخصاً قد يصلح للاستخدام.

قال العجوز، «بالطبع، إنك تراه».

«نعم، أراه. ولكن كما قلتَ، إنه مشغول جداً. الجميع يريدون شيئاً».

تأمل سمستو، لكن وجهه بقي مغلقاً على أية محاولة للتخلص منه. أعاد تسوية قبعته العتيقة على رأسه؛ كان لا يزال متلفعاً بالطقم الأسود للكاهن أو معلم المدرسة مع سلسلة ساعة اليد مربوطة بحلقة فوق المعدة؛ إنها الأثواب والعلامة المميزة الأولى

Twitter: @alqareah

على محو الأمية «الرسائل ليست جيدة. إنها مكتوبة على الآلة الكاتبة من قبل شخص ما».

بيده المصابة بالتهاب المفاصل، وهي تمسك الغليون، زخرف توقيعاً في الأسفل.

كان الآخرون ينظرون إلى براي وإليه بعينين متضيقتين ضد النور. أنتأ رجل الاتحاد شفته السفلى ونفخ ملء رئته من دخان التبغ أمام وجهه. قال براي له: «اتحادك سيكون عليه أن يلح على اتحاد النقابات لمناقشة مسألة سكة القطار مع جماعة خطة التنمية».

لوى الرجل قسمات وجهه وأشاحه جانباً مكشراً ، كما لو أنه يكشر لواحد لا يعرف عما يتحدث هو. هز رأسه وضحك، محترساً لئلا يسلم نفسه حتى إلى مغفل.

«لكن بالطبع، أنت قد فعلت ذلك قبلئذ».

قال الرجل «وإذاً».

ابتسم براي، «حسناً. أنت قل لي».

«الاتحاد لا يقول ما نريد. إنه يخبرنا ما تريد الشركة».

صمت. نشقة عميقة من الدخان دخلت في كليهما ـ الشركة، خطة التنمية، كله سواء. الآن جاءت اللحظة المناسبة بنفسها، براي اتخذ افتتاحه تقريباً بمثابة سؤال عرضي للرجل الذي كان قبلئذ في مناقشة معه، لكنه التفت في حينه إلى سمستو.

«حسناً، يؤسفني أن أسمع أن الأمور لا تسير جيداً في مقاطعتك؛ موكاواي، يا صديقي العجوز: ما رأيك، بأي حال، بفكرة الأمين العام، فكرة المؤتمر الموحد للنقابات بدلاً من انتخابه؟ إنه منصب هام جداً، أقصد، حتى الآن بقدر ما يتعلق الأمر بمشاكل كمشاكلكم، الأمين العام، إذا كان هو الرجل المناسب، فإنه هو الذي يجعل الحكومة تفهم».

«أوه لكن مويتا هو الذي سيسميه».

«كنا نقول ذلك تماماً. مويتا لديه قرارات كثيرة للغاية ليتخذها. مويتا لديه أشياء كثيرة للتفكير بها».

قال العجوز: «مويتا لن يختار مغفلاً أو شخصاً سيئاً».

ـ «لا، بالطبع لا. ولكن كما كنا نقول، لا يمكنه البقاء على اتصال مع ما يفكر به الجميع في هذه الأيام. سيكون عليه أن يأخذ المشورة من شخص ما، الآن، ألا تعتقد ذلك...»

Twitter: @alqareah

- «نعم، نعم. ولكن من؟» ألح العجوز إلى أنه يمكن أن يكون فقط من أعضاء وزارة مويتا، أناس من اختياره.

«أناس من وزارة العمل. ربما جماعة التخطيط والتنمية». أضاف براي، موجهاً الكلام إلى رجل الاتحاد «الذين صادفتهم».

«ومن بمقدوره أن يعرف أفضل من مويتا من هو الرجل المناسب؟»

ترك الرجال الآخرون السيارة وبدأوا يقتربون، بحذر. ناشدهم براي جميعاً، ببساطة، بصرامة: «حسناً، كنت سأقول العمال أنفسهم. لا بد أنهم يعرفون من هو الذي يريدونه أن يتكلم إليه. هذا هو ما [ما خلقت] النقابات لأجله».

«الأمين العام يجب أن يستمر في كونه منتخباً».

أطلق العجوز العبارة لكي يتفكروا بها.

قال براي «لقد كان ذلك على الدوام هكذا حتى الآن. منذ أن أطلق شينزا ومويتا النقابات وجعلا الإدارة الاستعمارية تعترف بأن للعمال حقوقاً. منذئذ».

فجأة بدل العجوز اتجاه الحديث. بدا أنه يحذر نفسه. «آه، الآن نلنا الاستقلال. ومويتا يعرف ما العمل. إذا قرر اختيار الرجل، فهو يعرف لماذا يريد القيام بذلك».

بعد لحظة أمال رأسه جانباً تحت قبعته نحو براي، مثل رجل غير متأكد من مما يسمعه، وصوب الغليون إلى وسط براي». «لكنك رجل ذكي. ذهبت مع مويتا وشينزا لتجلبوا لنا الاستقلال. لا ننساكم. الشعب سوف يتذكركم كما يتذكر آباءنا. أنت لا تقول ذلك، لكن ما تقوله الآن هو أنك لا تعتقد أن مويتا على حق».

«أنا أقول: إن أياً يكن من يختاره مويتا، ليس صحيحاً أن عليه أن يختار. الاتحاد يجب أن ينتخب أمينه العام».

- «نعم، هذا أيضاً، لكنك تقول إن مويتا على خطأ».

«نعم، أنا أقول إن مويتا يرتكب خطأ. وسوف أخبره. لأنه رجل عظيم فأنا دائماً أخبره عندما أعتقد أنه على خطأ».

راق ذلك للعجوز؛ فكشّر.

«أوه، أرى أنك لا تزال قوياً... عندما أبعده البريطانيون قلنا هنا: سيكون عليهم أن يقيدوه إلى سفينتهم مثل ثور». لكن الرجال الأصغر سناً لم يهتموا بهذه الخرافات عن العهد الاستعماري.

«أسمع أن شينزا يريد أن يكون الأمين العام».

Twitter: @alqareah

الغريزة أنبأته أن يكون جسوراً، فلأول مرة في حياته لم يكن يبدو أنه يمتلك الكثير من الأشياء الأخرى ليلوذ بها.

لم يكن بمقدوره أن يميز ما إذا كانوا يعرفون أم لا عن شينزا مباشرة، ما إذا كان هو العامل الذي استوقفهم ضمنياً.

«شينزا، ايه؟» قال العجوز «وهل توافق على ذلك؟»

قال براي ارتجالاً: «لقد كان أميناً عاماً من قبل. إذا كان الاتحاد يريده. لا أحد يعرف العمل النقابي أفضل من شينزا».

«أريد أن أتحدث إليك حول شيء ما».

نظر العجوز حوله إلى الآخرين. انسحبوا بشكل جماعي، آخذين وقتهم بخصوص ذلك، وهم يحملون ستراتهم الأنيقة فوق أكتافهم. دخل براي والعجوز إلى المقعد الخلفي للسيارة؛ بالرغم من أن الأبواب كانت مفتوحة فإنها لم تكن أبرد من الوقوف في الخارج. كان ثمة أصيص من الورود الشمعية في حامل بجانب المرآة الخلفية. قال سمستو: «ألن يكون ذلك أمراً سيئاً...؟».

ربما كان يعني أن من السوء أن يعارض مشيئة مويتا، أو ربما يعني أنه لا يحب فكرة وجود شينزا في [المنصب] في هذا الوقت. لقد كان ذا مغزى أن يكتشف أكثر قليلاً، من شينزا، حول علاقاته الأحدث عهداً مع العجوز.

«هل تريد أن تعرف بماذا أفكر؟».

قام براي بإيماءة قائسة... «فيما يجري هناك شينزا أصبح بعيداً أكثر مما ينبغي».

«هناك في الأسفل في سهل الباشي، نعم. إنه بعيد. وشينزا يفهم المشكلة. لقد كان في المناجم بنفسه».

«بالضبط. شينزا هو زوج آخر من العيون والآذان لأجل مويتا، وهو يعرف ما الذي يراه ويسمعه، أيضاً».

«الرجل الذي أرسلوه إلى حقول الآجر»... فرقعت طقطقة لسان سمستو مثل سوط في قرف.

«لقد تخرج من مدرسته، نعم...».

تركه براي وحده يفكر لدقيقة.

«لطالما كان غوما يزعجني بخصوص التصويت. طوال الوقت يأتي إلي».

«حسناً، إنه شيء هام. فروع تيسولو الخمسة، أنت تعرف».

Twitter: @alqareah

«لكنني كنت منزعجاً لكون ذلك شيئاً سيئاً... لأن مويتا يريد أن يختار».

«لا أظنه شيئاً سيئاً».

حتى في غالا، سمع العادة الانكليزية في التظاهر بالسلطة والثقة بالنفس في صوته؛ تماما مثل عاهرة صارت محترمة تحتفظ بنزعة احترافية في أسلوبها إزاء الرجال.

تابع سمستو حديثه، حول غوما: «رأسه مضغوط إلى داخل كتفه مثل نسر، من الصعب أن تثق برجل يبدو مثل ذاك الطائر؛ يغار من مويتا، يغار من شينزا» - «لا بد أن أحداً ما قد تحدث بينهما؛ راحة مقاعد اللوكسوراما، المؤتمر الأول - هل تذكر براي؟ - عندما كان البوليس قد وضع يده على جدول الأعمال، عندما انتهى كل هذا التمهيد واستطاع أن يفعل ذلك مع الاستقلال ، قال : «بإمكانك أن تخبر غوما أنني سأفعل ذلك».

- «كل الفروع الخمسة؟»

«الخمسة».

هذا هو كل ما في الأمر. رأى نفسه يقول لشينزا، إن هذا هو كل ما في الأمر. لقد قمت بمهمتي . بهذه السهولة. ذهب إلى المقهى حيث كان وشينزا قد تناولا النقانق لكنه لم يكن جائعاً. تورمت قدماه ويداه، بعد تعرضه لبرد اللوكسوراما، وهو يقف في الحر. ساعته التصقت بمعصمه وحفرت أثراً في اللحم الرطب والشعر بنترة شافطة عندما أزاحها. كان عصير الفاكهة الاصطناعي يدور ويدور في وعائه، ساطعاً وغائماً. كان المالك اليوناني وزوجته يشربان القهوة التركية في أكواب من الصفيح.

«هل يمكنني أن أتناول فنجانا من ذاك؟»

كانت للرجل الصغير غمازتان في وجهه الشاحب المائل إلى الخضرة عندما ابتسم للرجل الانكليزي الكبير.

«أوه نحن لا نبيع هذا النوع من القهوة، نصنعه نحن اليونانيون لأنفسنا».

«أعرف. أحبه كثيراً. هل بإمكاني أن أتناول فنجاناً؟».

كان الرجل لاهياً.

«اوه إذا كنت تريد. سأعطيك».

الزوجة الحامل، الشابة جداً، ذات خصلات من الشعر الأسود تتبدى في الأقواس البيضاء من تحت ذراعيها، أحضرت فنجاناً، دون أن تبتسم. في القبة الواقعة بين البدن والذراع كان يتذوق دائماً الرائحة العطرية الحلوة لشيء ما ملطخ هناك لإخفاء

Twitter: @alqareah

العرق، والمرارة الطفيفة، كما لو أنها حبة برتقال معضوضة، مرارة العرق نفسه، ولسانه، يتحرك في اتجاه واحد بسلاسة، فيشعر بزأبر الجذور الشعرية المحلوقة عندما كان يتحرك في الاتجاه الآخر. كانت القهوة ساخنة تغلي. سميكة ولذيذة. لم تكن ريبيكا قد وردت على باله مطلقاً؛ وحده هذا الجزء منها، فجأة، طالبه بإحساس غامر بالواقع من تلقاء ذاته. مسحوراً بالفرج، يسمونه ـ لا بأس أنه لم يكن الجزء الصحيح ـ فكر بحب شديد، غير آبه بما يسمونه. كان في الوقت نفسه منتفخاً بالطريقة الأخرى، أيضاً. طلب زجاجة ماء الصودا لأن الرجل لم يشأ أن يأخذ نقوداً ثمناً للقهوة؛ لقد كان هو، براي، الذي شرّفه بتثمين تقاليد البلد ـ بلد يقع على بعد آلاف الأميال.

كل يوم في شهر تشرين الأول في هذا الوقت يحدث تحول غريب للعناصر. فالسماء لا تعود لوناً أو فضاءً بل ثقلاً من الحرارة؛ يضغط على الأشخاص والأشجار والأبنية. شوارع الساعة الثانية عصراً تبدو خفيضة ومطروقة. شعر أن قامته تضرب باتجاه الأرض، حيث وحده النمل الأحمر الكبير يتحرك بخفة وحرية.

كان سائقو التاكسي في العاصمة في حالة من النشاط والخفة من العمل الجيد، فالمؤتمر قد جلب الكثير من الزبائن إلى المدينة. السائق يرتدي قلنسوة غولف بيضاء ونظارات شمسية، وعند إشارة المرور ينقر الطبلات بالراحتين المفلطحتين على فخذيه في تزامن مع الموسيقى المنبعثة من مذياعه.

كانت الردهة قد أفرغت تقريباً من شاغليها الذين عادوا إلى المدرّج لتوّهم. رأى براي أن بإمكانه أن يدخل منسلاً بدون رؤية فريق شينزا. لم يكن يريد التحدث حول سمستو. لكن شينزا نفسه خرج عكس تيار المندوبين الداخلين؛ كان يهرع إلى مكان ما مع أوراق في يده.

«حسناً، كيف اتفقت مع صديقك القديم سمستو؟».

«سوف تتولى الأمر فروع تيسولو».

قال شينزا متهكماً من تفكيره: «بهذه السهولة».

لم يقل براي شيئاً. كان شينزا في تلك الحالة التي يصبح فيها اقتراب وقوع حدثٍ حاسم أمراً لا يطاق، وعلى نصف عبارة أن تنضاف كي يكتمل تفصيل تافه. واضعاً في أداء هذه الأشياء عديمة الفائدة كل الإلحاح الذي يصده الحدث ذاته: هنا؛ الآن؛ يحمل معه معجزة من نتاجه. أياً تكن قصاصات الورق، فقد كان يمسكها كما لو أنها مصيره؛ عيناه قبلئذ لاحقتا براي بنفاد صبر، شفتاه مزمومتان بنوع من

Twitter: @alqareah

الابتسامة على سيجارة منطفئة: «أتمنى لو كانوا يثقون بي بنفس السهولة كما يثقون بك».

- «إنهم يثقون بي لأنني لا أمتلك أية سلطة. وهذا لن يكون جيداً كثيراً لك...».

أخرج من جيبه ولاعة الغاز الصغيرة التي أعطته إياها ريبيكا، واندلع اللهب الصغير فجأة مع لفة إبهامه: «هنا».

«ألم تجلب علبة كبريت لأجلي؟ أنا خارج».

أحنى شينزا رأسه الصوفي الداكن بشكل آلي وأعاد إشعال السيجارة.

- «احتفظ بهذه» كان ثمة خربشات قليلة باللون الأبيض، مثل خيوط من القطن الأبيض التي تنسلها من قماش صوفي، على التاج. براي لم يكن أبداً قد انتابه مع شينزا الإحساس بالتأثر الذي تملكه مع مويتا، التأثر الذي كان بالطبع يعني انجذاباً فيزيائياً معيناً، أيضاً، أي تسامحاً لجسد الشخص الآخر، لجواهره وخصائصه. كان هذا جزئياً ما قصدته الفتاة عندما قالت مرة إنه كان «يحب» مويتا؛ استعمل موس [الحلاقة] الخاص بمويتا أو ارتدى ثوباً لمويتا (ليس معنى ذلك أنه كانت تنطبق عليه مقاسات أي شيء يرتديه مويتا!». وذلك بدون تفكير، كما يستعمل منشفة مخططة بالمادة السوداء التي تنمسح عن رموش ريبيكا. لكن مع شينزا، الذي يعرفه أفضل بكثير مما يعرفه مويتا - شينزا مقارناً به في الذهن، حبس معه في جيل واحد. بين شينزا وبينه نفسه ثمة شيء ما من النفور الجسدي. تذكر مرة أخرى تلك اللحظة، يوم رأى شينزا لأول مرة، مع الصبي الصغير الذي أنجبه من فتاة صغيرة، ضعيفاً في يده. لحظة من الغيرة الجنسية المحضة، لا تشمل أية امرأة؛ لا امرأة بمفردها، سوى امرأة بمثابة الرمز الذي به تحدد أبوة الطفل. حسناً، كان الجني خارج القمقم هذه الأيام، مشاعره، ذاك الفيض الكامل من الاستجابات العصبية، وبشكل ما اندفعت نحو الاستعمال اليومي؛ متاحة بشكل غامر ويقظة، نوعاً من ذكاء ثان. وهو يلقي نظرة على رأس شينزا الثاني، فكر، هل كان ذلك عندما بدأ يحمل ابنه؟ - نسي أحد ما أن يشعل الأضواء المنزلية في اللوكسوراما فكانت مصابيح المخرج الحمراء وحدها المتوهجة. بعد ضوء النهار رأى قليلاً في العتمة وكان مدركاً لكل العيون الموجودة هنا المثبتة ليس عليه بل في توتر هادئ على ما سيأتي، لم يكن ثمة الكثير من الكلام. تحسس طريقه إلى مقعد. ثم صححت الإنارة وانكشف كل شخص في نوع من نفاد الصبر الحالم، بانتظار اللجنة التنفيذية واللجان المركزية والرئيس لكي يدخلوا. كان مويتا قد ارتدى اللباس الذي ارتداه لأجل حفل تقليده المنصب.

Twitter: @alqareah

هذا الرداء يترك عنقه حراً من الياقة وربطة العنق بسبب حر تشرين الأول لكن هذا لم يكن منتشراً هنا. الرداء جعله يبدو أطول بكثير والعضلات التي تشكل حرف V في قاعدة أسفل حنجرته كانت تظهر في خطوط من اللمعان على امتداد البشرة السوداء الناعمة، كلما أدار رأسه. كان شينزا منكباً على الطاولة، كتفاه مرفوعان متجنباً جيرانه، قبضتاه تدعمان ذقنه وتغطيان الجزء الأسفل من وجهه الملتحي. ظل براي ينظر إليه ليرى إن كان سيتطلع إلى الأعلى، لجعله يتطلع إلى الأعلى. شعر بالقلق على نحو مثير للفضول من أن شينزا سيفعل ذلك، إنه القلق حول ما كان المندوبون يفكرون به بهذه الصورة. شينزا لم يتحرك. الإيماءة المألوفة التي فتش بها في جيبه الصدري عن سيجارة ضائعة.

بالتقاليد نفسها التي يحملها من أي جزء من الأعمال إلى جزء آخر، وصل المؤتمر إلى الحركة: «إن مؤتمر حزب استقلال الشعب ينظر بقلق شديد إلى النية في جعل منصب الأمين العام لمؤتمر النقابات الموحدة تعييناً شخصياً من قبل رئيس الدولة، بدلاً من أن يكون تعييناً يُصوت عليه بالاقتراع ضمن أعضاء مؤتمر اتحاد النقابات، كما كان منذ ولادة النقابات في هذا البلد. إن حزب استقلال الشعب يقترح رسمياً أن يتم إبلاغ الرئيس باحترام بأن مثل هذا الانتهاك للإجراءات الديموقراطية هو مناقض لروح الدولة ولمبادئ العمل الحر التي يؤيدها حزب استقلال الشعب ومؤتمر النقابات الموحدة، المبادئ التي تأسست عليها الدولة؛ وأن يطلب من الرئيس أن يؤكد الحق الذي لا يمكن تحويله لاتحاد النقابات في انتخاب أمينه العام».

الجعجعة القانونية الحرفية، الزعيم المتحكم بالنظام الذي بموجبه يتم الاستماع إلى الأصوات، الناس الجالسون مع تلك القصاصة من الورق، جدول الأعمال، نموذج لترويض أفكارهم الأكثر تطرفاً والأكثر لجاجة، تترجم إلى رموز على الورق الأبيض الرخيص؛ هذا الشكل القديم من الانضباط البشري ـ الأمفورة المتصدعة الهشة، التي أورثها الإغريق، هكذا كان ـ قد بقيت. كل الطيبة(•) الاحتفالية للتجمع في لقاءاته الأولى قد تلاشت الآن. فالبذلات تجعدت من الجلوس والمدخنون استهلكوا العلبة إثر العلبة، متحملين تناوب الملل والتوتر. بالرغم من التكييف، أو بالأحرى الهواء الموزع بشكل بارد، عن طريقه، فقد كانت هناك رائحة القطيع، القطيع البشري، الناجمة ليس فقط عن طريق الإجهاد الجسدي بل عن طريق إفرازات التصميم، والاستياء والخشية والإثارة العصبية، الآتية، فكر براي، من ذاتي وكل الآخرين.

(•) بالفرنسية في الأصل: bonhomie. (المترجم).

Twitter: @alqareah

نحن لا نتكلم، لا أدري بماذا يفكرون على الجانب الآخر مني، أذرعنا تتلامس على مساند الكراسي، لكننا نبعدها، هذه الرسالة التي لم نعد نعرف كيف نقرأها كما تفعل الحيوانات.

تم اختيار المتكلم الأول إلى الحركة بعناية؛ كان النقابي سام غاكا رجلاً من النوع الأخرق المخلص بشكل مؤلم. هكذا هو، بالنظر إلى فهمه الملح الخاص لمجموعة معينة من الحقائق بدون ربطها بهرمية من الحقائق الأخرى. لو كان في أي مجتمع حيثما كان ممكناً، فلن تكون له علاقة بالسياسة؛ لقد فشل هنا ببساطة في فهم موقفه السياسي. كان مؤمناً (تقريباً بالمعنى البروتستانتي) بالنقابية الاندماجية، حصر نشاطات الاتحاد بشكل صرف بالمسائل المهنية لعلاقة رب العمل ـ العامل. وهكذا بالرغم من أن النقابية الاندماجية كانت شيئاً لا يمكن لاتحاد النقابات أن يمارسه أبداً، نظراً لأنه منذ البداية جزءاً من الكفاح السياسي القومي، مع رب العمل الاستعماري الأبيض والقوة نفسها التي كان على العامل الرعية ـ الأسود أن يفرض مطالبه ضدها، وبالرغم من أن النقابية كانت شيئاً ليس بمقدور اتحاد النقابات أن يمارسه الآن، لأن على البلد المتخلف أن يكون قادراً على «دعوة» عماله بالمعنى السياسي القديم إلى خوض كفاح الدول من أجل التحرر الاقتصادي ـ فقد كان قادراً على المحاججة لصالح انتخاب الأمين العام من الموقع الصرف للاندماجية. لأن الذين اعترفوا بذلك، أطلقوا عليه اسماً. كان يقول للغالبية ببساطة إن أعضاء الاتحاد الذين يمثلون مجمل القوة العاملة للبلد، يجب أن يعرفوا أفضل شخص للتكلم بالنيابة عنهم إلى الحكومة، بحيث أن فكرة النقابية كلها كانت قائمة على اختيار العمال للناطقين باسمهم، الخ...

قال براي في سره إن شينزا ذكي، باختيار هذا الرجل. لكن ثمة عبارات يجب تحريفها من هذا السياق المحايد سياسياً، أيضاً. نديسي شونونغوا، الأمين العام الحالي للاتحاد قادر على التكلم من موقع آخر. الكل يعرف أنه هو نفسه تم انتخابه للمنصب، مع أنه كان يذكّر أعضاء الحزب بأن الرجل الذي سيتم تعيينه في المستقبل من قبل الرئيس لن يكون من الخارج ـ ثمة شرط هو أن هذا لا يمكن أن يحدث ـ فهو سيكون عضواً في اللجنة التنفيذية للاتحاد، وبالتالي شخصاً منتخباً بحرية من قبل أعضاء الاتحاد أنفسهم ليتكلم بالنيابة عنهم، وإلا كيف سيكون في الاتحاد بالمرة؟

Twitter: @alqareah

كانت مؤخرة بازيل نوانغا الضخمة تمنع رؤية الرجال في المقاعد على جانبيه عندما نهض. «السيد الرئيس، هذا رائع بوصفه الجواب الظريف والمرتب لصاحب المنصب الذي ربما يشعر بالثقة بأنه سيبقى في المكان المناسب إذا تم تعيين الأمين العام بدلاً من أن ينتخب انتخاباً». ـ صوته الأنيس استمر بحدة في الحال قبل أن يتمكن الرئيس من إبداء أي اعتراض ـ «حسناً، بالطبع، إن الآراء الشخصية ليست هي ما يهمنا، يجب أن نقرر [بناءً] على الحقائق،... الحقيقة التي استبعدت هنا هي أنه ثمة في الاتحاد نفسه أناس يمثلون أفكاراً مختلفة في الحركة النقابية. إن أغلبية أعضاء الاتحاد هي وحدها التي تملك الحق في تحديد أي رجل، يمثل أي أفكار، سوف يخدم العمال على النحو الأفضل كأمين عام. إذا جاء التعيين من الخارج فلا يمكن النظر إليه إلا بوصفه يفضل مجموعة من الآراء على مجموعة أخرى. لا بد أنه يشبه ذلك ـ ستكون هناك مشكلة في النقابات. دعوا العمال ينتخبون رجلهم ـ إنها مهمة الحزب أن يدعم هذا الحق». تكلم بانتخاع، بانكليزيته ذات اللكنة الثقيلة التي تقطع الجمل إلى أنماط من التشديد غير مألوفة، لكنه كان يمتلك فظاظة فتية تطلق عفوية. جاء التصفيق مثل بنسات مرمية عندما أخفض جسمه خارج الطريق مرة أخرى. وقف شخص ليسأل عن السبب في أن المسألة تتم مناقشتها في مؤتمر الحزب بالمرة ـ ... أليست شيئاً تناقشه النقابات؟ ـ لكنه سرعان ما خرج عن النظام إلى تصفيق ظافر مقصود ليس لأجله بل بمثابة تهنئة للذات من ناحية مؤيدي الحركة.

كان شينزا قد خرج ببطء من استغراقه المركز؛ فقد صفق لغوانغا، لكنه ابتسم فحسب للحظة لهذا التوكيد. عندما تسارع السجال تولد لدى براي الانطباع بأن شينزا كان طوال الوقت مقروناً إلى شيء ما يصغي من أجله، يترقبه، خلف الأصوات المتصادية للمتكلمين، حتى خلف الهمهمة الخلفية المشاغبة إلى حد ما والتي ارتفعت برغم إيماءة الرئيس. كان ثمة جدال ثانوي يجري بين المندوبين عبر كل صفوف المقاعد، ملاحظات تمرر، أشخاص يبدلون أماكنهم، ظهور تحنى بحميمية وكما الآذان تميل مع الرؤوس المحنية. كانت العيون المائلة إلى الصفرة والمعرقة بالدم، عيون رائقة، جاحظة تظهر البياض، عيون مرخمة بالتقدم في السن، كانت تلتقي بعيون أخرى بتلك اللمعة من الانتباه الموجه من الداخل الذي لا يفشي شيئاً.

ثنى مويتا ذراعيه فوق ثوبه، فتحهما وجلس إلى الوراء في كرسيه، يداه محلولتان على الطاولة. كانت الايماءات العلنية القليلة موجودة ـ وحتى هذه تكون

Twitter: @alqareah

محكومة بنفس المجموعة من الأعراف، حتى لو لم تكن فعلاً مدونة من قبل، إنه الشكل القديم الذي كان يقيد الاجتماع، هل كان لمويتا شكوك حول السلطة التي كانت موضع تساؤل؟ هل جلس هناك، امبرطوراً رومانياً صغيراً أنيقاً في جلابيبه، يعرف نفسه مخطئاً؟ لكنه مؤمن بنفسه ويعتقد أن لديه التبرير في تقبل التحضير لأجل السلطة التي يعتقد أنه لا يقدر على إمساكها بأية طريقة أخرى؟

كان شخص ما ـ عضو ملتقط من فصيل شونونغوا ـ مويتا ـ يثير الحمية على «الإهانة لزعيمنا العظيم» التي أظهرها أولئك الذين عارضوا حقه في اختيار الأمين العام . «هؤلاء الناس ينبغي أن يغادروا هذا المؤتمر. هذه دولة الحزب الواحد. نحن أمة واحدة، لنا قائد واحد، إنه قائد أعضاء مؤتمر اتحاد النقابات وكل هذا الشعب».

جعل الهديرُ المتكلمَ غير مسموع مع أنه استمر في الجئير. كان يقابل بالتصفيق، بالصياح ـ فورة عظيمة من الطاقات المعارضة بدت حرفياً أنها تزحزح مقاعد السينما المثبتة إلى بعضها البعض وإلى الأرض، بحيث أن براي شعر بالضغط يثقل عليه. إن الخصلة الصغيرة لرولي داندو من وجه أبيض تتحرك على عنقه مثل خصلة طائر مثار. مديرو تشريفات الحزب تم تعزيزهم بالحضور المفاجئ لرجال الشرطة ذوي الخوذات البيضاء الذين ظهروا من خلال المخارج ذات الستائر حيث كانت الدلّالات الخلاسيات الأنيقات للأخوين جوشي ينتظرن بشكل اعتيادي مع المصابيح وصينيات الحلويات. كان ثمة عراك على يسار براي في مكان ما، قرب مؤخرة السينما ـ مشاجرة؟ ـ «الرجل العجوز أصيب بنوبة قلبية»، أحد ما كرر ذلك، لكن الرجال ذوي الخوذات البيضاء صعدوا إلى الممشى ثلاث درجات دفعة واحدة وأنزلوا بسرعة شاباً انتفخ الغضب في وجهه لكونه مكشوفاً هكذا، ورجلاً آخر كان كم سترته المهترئة ممزقاً من فتحة الذراع. عندما دُفعا عبر الأبواب تناهى غناء من نوع ما من الخارج، كما لو أن قرص مذياع قد دوّر للحظة عبر طول موجة لمحطة ما ـ النساء مرة أخرى، بلا شك ـ ودخل عدد قليل من «مارشالات» الرواد الشباب ذوو الوشاحات الحمراء. لم يكن يبدو أن البوليس يعرف ما الذي يفعله بهم. لكن سلطة الشباب المزيفة اهتزت في وجود السلطة المقلّدة بشكل أكثر وضوحاً بالخوذات البيضاء، والجزمات الجلدية، والمسدسات ذات القرابات. وقفوا بجانب البوليس، حضورهم لا هو مؤكد ولا هو مرفوض، ينظرون جانباً كل إلى الآخر.

Twitter: @alqareah

كان ثمة نداءات لأجل مويتا لكنه لم يعط أية إشارة على أنه سيتكلم. تساءل براي، وهو يضع نفسه في مكانه، لماذا ترك لشونونغوا ومرافقيه الآخرين أن يناقشوا القضية.

- «ألا تريد أن تكون في المعمعة؟ ما كان ليسمع السؤال مني، الآن، حتى لو كان بإمكاني أن أكون موجودا بجانبه تماماً»، موجهاً السؤال إلى أُذنه فقط، لما سمع. وكان بعيداً على الجانب الآخر من هذا المصدر للصوت الذي يهتز كما لو أنهم جميعاً بداخل ناقوس هائل يرن بأصوات المتكلمين وأمواج الفكر اللاحصر لها تنتشر، تتداخل، تتعشق بين الأصداء: نية وحيدة تجاهه تلاشت قبل أن تصل إلى هناك، لقد أصبح، بالنسبة لبراي، عندما حاول أن يمسكه بالبصر، بالعقل، شيئاً ما يرمز إلى مويتا - الوجه المألوف، الثوب. كان جوستين تشيكوي، الأمين العام للحزب بالإضافة إلى كونه وزيرا للمالية، قد اختير ظاهرياً بمثابة بندقية كبيرة ضد الحركة. كان متكلماً فصيحاً (عضو سابق في اتحاد اوكسفورد، كطالب منحة دراسية أسود مغرور) وحينما لم ينحط إلى مستوى الاحتكام العاطفي، فإن مشهده وصوته بالضبط قد انتزعا الثقة، معززين بسلطة حقيبته الوزارية منذ الاستقلال بالطريقة التي تُجعل بها امرأة أكثر جاذبية جنسية عن طريق معرفتها السرية بأنها تدير قصة حب. فكل قروي كان بإمكانه أن يرى ما الذي يمكن أن يصيره الابن - ولو كان ذلك متأخراً أكثر مما ينبغي.

لم يكن ثمة جراءة في أسلوب تشيكوي؛ فقد كان يرتدي الملابس النفيسة للرجل الأبيض كما يستعمل أنفَسَ الكلمات، الكلمات التي لا تأتي إلا بثمن التعليم الأنفس. في هذا بقي أفريقياً بطريقة يمكن تمييزها فوراً بدون أية حاجة للشرح، كذاك الشرح الذي كان ضرورياً لإعادة تأكيد غروره بأشياء تمت استعادتها من سلم القيم المهمل الخاص بأفريقيا. ما كان يقوله، بالطبع، كان موجهاً بشكل مباشر إلى شينزا؛ كان قائما، لأسباب تكتيكية، على سوء تفسير متعمد للدوافع. هل كان المؤتمر يُستحث على الموافقة على تبني الحركات الأفريقية ذات النزعة النقابية المهنية الخالصة؟ لقد رفض مؤيدو هذا الرأي السماح بمشاركة النقابة في أي شكل من النشاط الحكومي. فقد ناقش المرحوم توم مبويا القضية لصالح ذلك، وكان ذلك رائعاً بالفعل، «لأجل البلدان ذات الاقتصادات العالية التطور بما يكفي لتحمل ذلك مع أننا إذا نظرنا إلى بعضها، انكلترا، على سبيل المثال» - سمح لنفسه بابتسامة تعاطفية مع مصاعب حكومة حزب العمال - «نتساءل إن كان بمقدور أحد أن يتحمل ذلك»... ولكن حتى

Twitter: @alqareah

المؤيدين الأكثر تحمساً لهذه النظرية تأكد لهم من خلال التجربة في أفريقيا أن الحركة النقابية لا يمكنها أن تشغل نفسها حصراً بالدفاع عن المصالح الآنية للعمال، وأن «تدع البلد يشنق». حتى المحامون الأكثر تحمساً للنقابية المدعوة بالمدمجة تأكدوا اليوم أن الطريقة الوحيدة لدعم مصالح العمال هي بمساعدة الحكومة بكل وسيلة لتحقيق أهدافها الاقتصادية. كان من الضروري على نحو مطلق بالنسبة لوجهة نظر النقابة أن تأخذ في الحسبان التخطيط الاقتصادي طويل الأمد وضمان تنفيذه «بأقصى درجات الثقة والتعاون المكنين بين الحكومات والنقابات. إن تعيين الرئيس للأمين العام للاتحاد هو الاعتراف الأهم بهذا التعاون. إنه ضمانة الحكومة بأن هذا التعاون سوف يحدث على أعلى مستوى ولن يكون معرضاً للخطر من قبل هذه الخلافات الداخلية الصغيرة التي يمكن أن تنشأ من وقت إلى آخر ضمن الحركات النقابية نفسها...».

كانت النقاشات تُدوّن عند طاولة المطبعة، تسجل على شريط، لكن الديسيبلات(*) الصاعدة والهابطة لم تكن لتلتقط ما يحدث فعلاً. فتحت هذا الرسم البياني كان ثمة آخر، الانتقال جيئة وذهاباً للتوازن بين شينزا ومويتا. وتحت هذا، ثمة آخر من طبيعته نفسها. حتى براي لم يكن أكيداً. كل هذا الصخب والحديث بعد الظهر سيصبح جزءاً من منحنى صغير في صعود وهبوط القوى فوق القارة برمتها، سوف يلخص ذات يوم في نصف جملة المؤرخ «حوالي نهاية العقد، كان من الممكن تمييز نموذج معين للاصطفاف [تتدرج] فيه دول مختلفة ظاهرياً...». إنه ليس بدون دلالة، هذا الصخب، إنه أسهل مما يجب، أيضاً. إن دلالته شيء يجب الإصغاء إليه، يتم التوصل إليه بشق طريق من خلال الكلمات، الحضورات، العقال في الركبتين والالتهاء القسري بإشعال سيجارة بعد الأخرى.

مع ذلك فإن مويتا لم يصدر أية إشارة. كان من الممكن أن يتكلم لو أراد، حتى لو كان ثمة اتفاق على ألا يفعل ذلك. كان قد فعل ذلك من قبل؛ كان ذلك جزءاً من طبيعته المتهورة. كان حسه السياسي يتجاوز المفهوم البائت للسياسة بوصفها «لعبة» يجب أن تُرسم فيها خطة لكل الحركات ويُلتزم بها. لقد كانت السياسة على الدوام ملموسة بالنسبة له، إنها قضية خبز، عمل، ومأوى. جلس هناك متلفعاً بردائه؛ جزء من الفن السياسي الشعبي، قال براي في نفسه ـ تماماً مثلما أن هناك فناً دينياً وشعبياً، أشكالاً جصية مطلية بالأزرق والذهبي.

(*) الديسيبل decibel: وحدة لقياس التفاوت بين شدتي صوتين. (المترجم).

Twitter: @alqareah

كان للفصيل الآخر خطة عمل خاصة به، أيضاً. كان شينزا بصدد أن يأخذ كلمتهم الأخيرة. عندما وقف انتظر لكي يسود الصمت ويسمعها، لكن الذين أعطوها بمثابة دين مستحق وجدوا أنه ينظر حواليه كما لو أنه يريد أن يتذكرهم جميعاً، كل شيء؛ فثبت نظره على السفاحين، رجال الشرطة، الحضورات الخرقاء التي لم تكن لها علاقة بالكلمات، في تجمع يقوم معناه على السريان الملزم للكلمة أو لا يكون شيئاً. نظر إليهم ببدايات ابتسامة جافة، مشفقة بشكل لعوب، الابتسامة التي يعطيها الناس للسجناء. ثم بدأ يتكلم.

«في بلدنا، كما في معظم الدول الأفريقية الأخرى، قبل الاستقلال، كانت النزعة القومية تُعطى الأولوية في النشاط النقابي لأن الوضع الاقتصادي والاجتماعي للعامل الأفريقي كان نتيجة مباشرة للاستعمار. الآن وقد تحقق الاستقلال، تعود المشاكل الاقتصادية والاجتماعية إلى الواجهة مرة أخرى ـ انظر إليهم جميعا حولنا في الإضرابات والعصيانات في المناجم، معامل الأسماك وخطوط السكك الحديدة. كان على الحركة النقابية الأفريقية أن تعيد صياغة سياساتها للتعامل مع هذه المشاكل، الآن دعونا نكون واضحين حول شيء واحد. هذه الإعادة صياغة يمكن أن تحدث فقط ضمن إطار تحدده تركة النظام الاستعماري، دور النقابات في النمو السياسي للدولة، وحجم المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي تواجهنا ـ هذا هو ما يدور حوله قرار ييما. هذا هو ما يتكلم حوله فخامة الوزير السيد تشيكوي؛ هذا هو ما يتكلم حوله». إن كل التكلّفات التي تعلمها تلميذه المتحمس منه (ارتداء الرداء، الكتفين المرتدين إلى الوراء مثل تمثال نصفي علىٍ قطعة نقود؛ لكن، لدى شينزا نفسه، بدون ذاك الامتياز المعروف بوصفه سحراً. لقد اقتنع بذلك). «إن وصمة النقابية الاحترافية ، التوحدية، الاندماجية ، لن تلتصق على اتحاد النقابات. ولا حتى النقابية الاحترافية «المتنورة» التي يكون السيد تشيكوي مستعداً لمداهنتها، لأن ما يقوله في الواقع هو أن النقابات يمكن أن تدعم أية حكومة تخدم سياستها، بغض النظر عما تكون عليه السياسة الشاملة للحكومة. حسناً، إننا نعرف إلى أين يقود هذا التفكير في أوربة، قاد إلى موسوليني، قاد إلى هتلر، قاد إلى الفاشية. إن أفريقية ترتكب ما يكفي من أخطائها؛ آخر آمال العالم وآمالنا هو أنها على الأقل لن يكون عليها أن تكرر كل أخطاء أوربة. في أفريقية، يستشهد السيد مويتا بمثال مبويا. نعم، إن المرحوم توم مبويا قد اتبع الاندماجية «المتنورة» بصفته رجلاً نقابياً، ثم

Twitter: @alqareah

لاحقاً بصفته وزيراً للتخطيط الاقتصادي والتنمية، ونحن نحترم ذكراه كواحد من رجال قارتنا الكبار، لكن ثمة أناس يقولون إنه استعمل هذه الحجة لتبرير ارتباطه الأعمى بالكتلة الغربية، متخلياً عن مبادئ الحياد الإيجابي التي التزم بها حزب استقلال الشعب وبلدنا؛ وفي وقت وفاته كانت مصالح الأعمال الأجنبية مزدهرة في حين ظل الشعب الكيني فقيراً... لا، إن وصمة النقابية الاحترافية، وصمة التهرب من الدور الواقعي والمناسب للنقابات في دولة نامية لن تلتصق بالاتحاد، لأن ما كان يمثله الاتحاد منذ تلك الأيام عندما نما حزبنا خارج النقابات هو أقصى مشاركة للعامل في صياغة سياسات الدولة. في عام 1959 عندما خرجت من السجن بالكاد كان لدي الوقت للبحث عن قميص نظيف» ـ الشيء الرائع الذي يذكّر بأنه قد دخل إلى وخرج من السجن بسبب الحزب ـ «قبل أن يرسلني الاتحاد إلى كوناكري إلى مؤتمر الـ UGTAN ـ إحدى المحاولات الهامة الأولى لخلق حركة نقابية شاملة لأفريقيا ـ مع تفويض لدعم التورط النقابي في العمل السياسي باعتباره الطريق الوحيد لتحقيق التقدم الاجتماعي والاقتصادي. فيما بعد، خلال السنوات، عندما منع الحزب وتصرف الاتحاد لبعض الوقت بوصفه منظمتنا الطليعية، أعادت النقابات تأكيد هذه القناعة بالأفعال ـ ربما قال «بشكل أعلى من الكلمات» ـ فقد بددت كلماته بفعل عاصفة مباغتة من التصفيق في مكان ما ـ «النقابات رأت عندئذ أن الحاجة القصوى للعمال هي حاجة البلد إلى الكفاح ضد الاستعمار والامبريالية. إن السبب في أن أمينهم العام ينبغي ألا يتم تعيينه من فوق رؤوسهم ليس لأنهم يعتقدون أن دورهم بعد الاستقلال يتعين أن يكون أقل تورطاً على مستوى الحكومة، بل على العكس، لأنه يتعين أن يكون أكثر تورطاً، لأن الحاجة القصوى للعمال الآن هي أن يضمنوا أن الحكومة تتابع النضال ضد الاستعمار الجديد وكل ما يعنيه للعمال. هذا الشيء، الاستعمار الجديد، ليس، كما يريد بعض الناس أن يخبرونا، عبارة سحرية، مستثمراً نزيهاً من أوربة أو أمريكا أو من أي مكان، الذي يُلبسه الشيوعيون ملاءة. إنه معنا الآن في هيئة مساعدة «نزيهة» ممنوحة من قبل القوى العظمى؛ في الهيمنة على مواردنا الوطنية من قبل الشركات العالمية، وفي تأييد الدونية الاقتصادية باعتبارنا المنتجين الأبديين للمواد الخام بأسعار متدنية، والمستهلكين للمنتوج الجاهز بأسعار عالية».

Twitter: @alqareah

أدخل إصبعين في جيب القميص المجعّد، كما لو أنه، وقد انغمس في مناقشة مع صديق، كان يبحث عن السيجارة المعتادة. لكن ما صادفه هناك مع الطرد البريدي هو التحقق من أنه كان على منصة عامة، يتحدث عن حياته السياسية؛ رأى براي اليد وقد أصبحت غائبة، منطوية.

«بعد الاستقلال، غدت **النقابية** وسيلة الناس للدفاع ضد رأس المال الأجنبي. ألا تصدقوني؟ لا نسمع سوى عن الحاجة إلى جذب رأس المال الأجنبي . لكن الحقيقة هي أننا بحاجة إلى دفاع ضده، أيضاً. نحن بحاجة لأن نضمن أنه لا يتملكنا. لدينا موارد قيمة في بلدنا وبالطبع سيكون علينا أن نستمر في البحث عن المال لتطوير تلك الموارد لبعض الوقت في المستقبل. لكن الشروط التي يستثمر في ظلها هذا الرأسمال ونمط التطور الذي يستخدم لأجله ـ هذه هي القضايا التي نحتاج فيها إلى التدخل الفعال للرأي النقابي المستقل، وليس الختم المطاطي لموظف حكومي» وأنزل قبضته بحيث اهتزت كل أباريق الماء الزجاجية على طول الطاولة. وكان هذا مرئياً تماماً إلى خلفية السينما في تذبذب الضوء خارج محتوياتها».

«وليس فقط بمثابة كلب حراسة في بلد مستقل حديثاً يدافع عن الشعب ضد رأس المال الأجنبي. جوليوس نايريري كان يتكلم إلى شعبه في تنزانيا، لكن ذلك كان من الممكن أن يكون موجهاً لنا عندما قال: «لقد ارتكبنا خطأً باختيارنا المال، شيئاً لا نملكه ،لأن يكون أداتنا الكبرى للتنمية... فتنمية البلد يحققها الشعب، وليس المال». حيث تعترف حكومة بالتعاون القوي مع النقابات، ثمة إمكانيات لأجل أنواع من التنمية لم نلمسها حتى هنا. أنا لا أتحدث عن التغيرات البنيوية في اقتصاد البلد ـ تأميم المناجم والمصارف وشركات التأمين... وهلم جرا ـ مع أننا يجب ألا ننسى، في خوفنا من تخويف الرجل الغني القادم من ما وراء البحار، أن التأميم هو رغم كل شيء، إجراء ما بعد استعماري لاستعادة الاقتصاد الوطني وإعطاء قاعدة ديموقراطية للاستقلال... ما أقوله هو أنه من الممكن، من خلال التعاون على أعلى مستوى بين الحكومة والنقابات لتأسيس أشياء مثل تعاونية صيادي الأسماك في البحيرة، التعاونيات بين المزارعين الفلاحين ـ كان بمقدورنا أن نحصل على المساعدة من الهستادروت، على سبيل المثال، الإسرائيليين، مع ذلك، كما فعلت بلدان أخرى. ولماذا لا ندخل في إمكانية شراء الحكومة لمزارع المستوطنين البيض الراحلين؟ هناك خطة **التسيير الذاتي** التي بدأت أولاً في يوغوسلافيا ثم اعتمدت في الجزائر، الكلمة التي تعني الإدارة الذاتية، فكرة أن يتم تسليم الأرض إلى العمال الزراعيين، الناس

Twitter: @alqareah

الذين يعرفون كيف يجعلونها منتجة في الدرجة الأولى، ومن ثم يتم تسيير المزارع من قبل لجان العمال الزراعيين أنفسهم. إنها فكرة أفضل من إقامة مزارع حكومية جديدة تماماً كبيرة من لا شيء، كما أن خدماتنا الزراعية مشغولة باقتراض المال الآن، تلك المزارع يجد الخبراء في النهاية أنها عاجزة عن الانتقال إلى إدارة القرويين عديمي الخبرة... إن نظام الإدارة الذاتية ذو أثر جانبي هام جداً، أيضاً. إنه يساعد على دمج العاطلين عن العمل في قوة عمل دائمة عن طريق عدم تشجيع استعمال اليد العاملة الموسمية ووضع كل العمل الزراعي على أساس دائم. - «وفي المدن - في الصناعة - أين هي خطط المشاركة في الأرباح لصالح العمال الأفارقة؟ إن كثيراً من الشركات العالمية العاملة هنا لديها خطط شراء أسهم أو خطط تقاسم الأرباح لأجل مستخدميها في بلدان أخرى، خارج أفريقية. لماذا يجب أن تكون أفريقية هي الاستثناء؟ هذه الشركات يجب أن تطور خططاً ملائمة لأجل عمالنا، تدخل في اتفاقيات مصافقة مع النقابات. ثمة إمكانيات أخرى كثيرة وكلها بحاجة إلى الاعتراف بمبادرة النقابة على مستوى التخطيط الحكومي. يمكن إقامة هيئة استثمار العامل كتمهيد لنشاط تجاري آخر، لإدخال الأفارقة في قطاع اقتصادنا الذي يهيمن عليه المغتربون في الوقت الحاضر. إنه ذو مغنى أكثر من رمي الحجارة ونهب الحوانيت الأجنبية، كما فعل بعض الرواد الشباب الشهر الماضي في تمبا... لماذا لا يتعين علينا أن نمتلك مصرفاً شعبياً، مصرف تدعمه الدولة لمساعدة مزارعينا الصغار وأصحاب الحوانيت الذين لا يستطيعون الاقتراض من المصارف العادية؟ ليكن تكييف خطة الإدارة الذاتية مع المعامل الصغيرة، أيضاً؛ يمكنكم أن تقيموا في المدن نظاماً موازياً لنظام المناطق الريفية. إن المصانع، الحوانيت - وحدة صناعية كاملة يمكن التحكم بها من قبل العمال الذين يسيرون الإدارة من خلال هيئة الإدارة الخاصة بهم، في حين أن الهيئة الإدارية والمهندسين يتم تعينهم من قبل الحكومة. إن المستثمرين الأجانب لا يمتلكون تلك المصانع والحوانيت. إذ لا يمكنهم أن يسيروا بنفس كفاءة الشركة الأجنبية، فالأرباح لا يمكن أن تكون عالية كما يفترض بها أن تكون، ولكن لا يوجد حاملو أسهم في بلدان أخرى ينتظرون ليخطفوا الأرباح. أنا أعرف مؤسسة صغيرة تم إغلاقها تماماً لأنها لم تكن تكسب مالاً كافياً لإقناع الرجل الأبيض. لكنها كانت تكسب ما يكفي لإرضاء ستة وعشرين رجلاً كانوا يعملون لصالحه... انضموا الآن إلى العاطلين عن العمل.

Twitter: @alqareah

عندما نصوت على هذه الحركة، ثمة شيئان لنتذكرهما؛ وكلاهما يظهران تعيين الدولة للأمين العام بوصفه شيئاً يجب إدانته من قبل هذا المؤتمر. الأول ـ مهما يكن الموقف المعلن للنقابات فيما يتعلق بالسلطة السياسية، فإن الاتحاد لا يمكنه أن يتجنب القيام بوظيفته الأساسية، وهي نقل استياء العمال الذين يمثلهم. لا يوجد أمين عام معيَّن سوف يلتف على ذلك. ثانياً ـ ليس دور النقابات في دولة مستقلة أن تصبح وظيفية محضة، فرعاً من وزارة العمل، بل أن تفهم أن نوع المجتمع المخطط له القائم على عمل الشعب هو في توافق مع أهداف الشعب. في دستور مؤتمر النقابات المتحدة وضع كهدف من أهدافه الحفاظ على الاتحاد بصفته أحد الفروع المناضلة للحركة التي ستبني الدولة الاشتراكية تحت القيادة السياسية لحزب استقلال الشعب «إنني أدعو المؤتمر للدفاع عن ذاك الفرع من الحزب، أو خيانة الحزب ذاته».

هاجم مؤيدو شينزا الاجتماع بهتافهم الشديد. إن بريقاً من العرفان بالجميل قد ومض عبر وجهه، طعم شيء ما، لكن نوع التصفيق المعزز الذي يأتي قوة بعد قوة من كل زاوية وكل صف من المقاعد ويرفع رجلاً أعلى وأعلى فوق المعارضة، لم يكن موجودا. بدلاً من ذلك فقد كان ثمة جو غريب من الذعر. جلس. استمر الجدال لكن كان ثمة الشعور بأن لا أحد يصغي؛ مع أن تبلوراً كان يحصل في كل صرير مقعد؛ كل نقلة غير مريحة للوضعية في الأصداء المثارة مثل الخفافيش عندما كانت الأصوات ترد من نقاط معينة، وحتى ـ شعر براي بالنذائر العبثية تضغط بداخله ـ ضجر اللصوص من الرواد الشباب، كان آخرون يتحدثون وشينزا الآن مثل مويتا لم يقل شيئاً. لكن صمت مويتا، حضوره، كان يكبر، ينتشر فوق الناس الذين كانوا يتنهدون، يخربشون بشرود، يتجنبون أنظار بعضهم بعضا، يجلسون إلى الأمام بتوتر، أو إلى الخلف، منتظرين. وقبل أن يؤخذ التصويت كان موجودا: صمت مويتا تكلم إليهم. كان ذلك، إذاً، هو ما كان شينزا يصغي لأجله، من البداية، السجال. الآن سمعه براي، شعر به ـ لا كلمة تجلو كيف كان فهم ذلك ـ كما يجب على شينزا أن يفعل.

الملوحّون تغلبت عليهم أيديهم، لنقل، في نصف نغمة لأجل شينزا. لقد صوتوا لصالحه، وهو جالس هناك لا يطلب شيئاً منهم متلفعاً بردائه، لأنه كان يتوقعه منهم. أخرج شينزا السيجارة من علبته الآن. ألصقها في زاوية فمه وكان يشعلها بهدية ريبيكا، التي كانت دائماً تشتعل من أول محاولة.

ـ هكذا ظن رجلي براي؛ ذاك هو رجلي.

Twitter: @alqareah

(17)

وجد نفسه مع داندو وشينزا في أحد بارات فندق البحيرات الكبرى. إذا كان صحيحاً أن أي واحد من قبل «وجد نفسه» في أي مكان: بعشوائية هادفة أكثر مما يبدو، فإن جاذبية الممانعة المسحورة قد نقلتهم ببطء من جماعة إلى جماعة في حفلة الكوكتيل المستمرة في قاعة الغولدن برتش. لم يعرف ما إذا كان متوقعاً ظهور شينزا على الإطلاق؛ فقد كان صوت داندو هو أول صوت يسمعه. - «أي نوع من الرمز الجنسي، بدون وسيط، ما بين الساقين» وهو يخطب من فوق آخر قطعة من الزخرفة المعادة، سمك فرخ البحيرة المحنط الكبير الذي منح القاعة اسمها والذي يتخذ الآن النصف العلوي من جسد امرأة؛ بالجص المذهّب، في مكان رأسه السمكي الخاص.

إن كثيراً من المندوبين الذين لم يسبق لهم أن شوهدوا داخل مكان مثل البحيرات العظمى من قبل، وقفوا شبه مشلولين بالجهل بالأسلوب اللازم للأكل والشرب في مثل هذه الأجواء، وتجاهلهم النادلون الذين يأنفون أن يبادروهم، وهم يمرون مسرعين حاملين الجين وصودات الويسكي لأجل أولئك الذين يعرفون كيف يقيمون هذه الأشياء. عندما كان مويتا (ببذلة قاتمة صحيحة) ينتقل بينهم وهو يحمل في يده الليموناضة - وقد دعاهم بنفسه ملحاً إلى أطباق الأطعمة الشهية والمشروبات - جلسوا برزانة إلى المأدبة التي دعوا إليها وأكلوا «على العمياني» قطع القريدس على العيدان؛ حتى أن بعضهم صاروا يعربدون فيما بينهم عندما نزلت المشروبات، في حين أن السياسيين المحترفين والأشخاص الذين يجلسون على موائد الضيوف شربوا باعتدال، ولم يحققوا شيئاً أكثر من الأهمية الذاتية المتألقة المرتبطة بالشرب الاجتماعي. لقد بدا أن انتصارات وامتعاضات كافة الفصائل تُحتوى بهذه الطريقة، وليمة تلي جنازة مثلما تلي عرساً.

Twitter: @alqareah

كان شينزا يرتدي قميص العطلة المجعّد نفسه، كما لو أنه جاء بنية جعل حضوره ناشزاً. شوهد مع مختلف تجمعات الناس، ولم يوجد أبداً في جوار مويتا، يتحدث بشكل مستقل ظاهرياً. كان محاطاً الآن بقليل من الشبان مثل جسم خطير يمكن أن ينفجر في أي لحظة. كان أحدهم، أكبر سناً وثمل قليلاً، القائد في توبيخه بجرأة - كانوا يطرحون أسئلة حول التسيير الذاتي:

- «هل هذا هو محل الحداد على طريق كنشاسا الذي تتكلم حوله؟ - لكن أحد أصهاري كان يعمل هناك وحصل على وظيفة في محل صناع المراجل الآن».

«ماذا، يا رجل». ثمة أحد ما خجل من مستوى السؤال.

- «لكن من الذي يمتلك هذه المزارع والمصانع» «إذاً - الحكومة؟».

كان أمام رولي داندو الكثير ليشربه؛ كان رفاقه منكسي الرؤوس، منتشين فوق كؤوسهم فيما هو يتكلم بوجه خالٍ من التعبير بصوت أعلى فأعلى إلى أن خرج صوته إلى المناقشة المجاورة.

- «بالطبع، احترام العمل النقابي هو مجرد أمل تقي في الدول الأفريقية. أنت تعرف ذلك، كرمى لله، ألا تعرف، يا شينزا؟ - بالطبع هو يعرف. يعرفه جيداً كما أعرفه أنا».

اندفعت وجوه تشق طريقها، وهي تلمع. ابتسم شينزا ببطء بشفتين مطبقتين ومرر خنصره فوقهما في محاكاة ساخرة للاعتذارات.

«حسناً، أنا أتعلّم - سريعاً».

كانوا مسرورين منه؛ ضحكوا. وخاطب راس ساهي الذي سحب براي إلى البار، شينزا.

«أوه نعم، نصدقك، يا صديقي. ثمة طريقة واحدة فقط لجعلك تتعلم، مع ذلك».

- «وأنت تتكلم إلى داخل لحيتك، هذا اللغط حول العمال وقيام الحكومة ببناء الدولة الاشتراكية لمصلحة العمال». كان داندو يقول: «في الدول الأفريقية لا يمكن تحويل الاقتصاد إلا إلى أذى للعمال. من أجل جحيم من الزمن الطويل القادم. هذه حقيقة. أنا لا أعبأ بالعقيدة السياسية أو المفاهيم الاقتصادية التي تريد أن تسميها، حقائق إنتاج وتوزيع الثروة تبقى هي نفسها، نفسها تماماً، في كل أنحاء القارة. لا، لا - أنا أعرف ما هو قادم - لا تعرض علينا ما حدث في أوربة منذ مئة سنة، لأنك تعرف الجواب على ذلك، أيضاً. التضحيات المعتصرة من الطبقات العاملة الأوربية في القرن التاسع عشر مكنت الاقتصادات الغربية من الوصول إلى نقطة أمكن عندها

Twitter: @alqareah

أن تقر بمطالب العرصات الفقراء الذين ينضحون أحشاءهم عرقاً لسبب واحد فقط: تم بلوغ الهدف بدون الإخلال بنمط النمو. ضمن الحدود، وصلوا إلى مرحلة حيث الاستهلاك المتزايد يؤدي إلى استثمار أكبر».

جُرف شينزا وداندو إلى الحلبة بفعل صغر البار، والمشروب في أوردتهما، وفضول مرافقيهما ـ وكذلك بفعل شيء آخر، إدراك كلٌ منهما للآخر في الغرفة نفسها. استأنف شيزا الحديث بروحية رجل نفض يده من الجدال. «ولماذا ذاك مستحيل؟».

«لأنه، يا عزيزي شينزا، في أفريقيا اليوم الادخار الداخلي غير موجود. غير موجود أوٍ غير منتج. قليل من الجنيهات المحشوة في فرشة مع البق. والاستهلاك متدن جداً، من المستحيل حصره بأكثر من ذلك لتشجيع الاستثمار الزائد، لذلك فإن تجميداتك للرواتب لن تفيد. الثروة توزع بطريقة لا منتظمة، وغير مبررة أخلاقياً، لكنني عليّ اللعنة إن كنت أعرف ماذا أفعل بشأن ذلك. النقابية كلها مقيدة لأنها جاءت إلى المسرح قبل وقت طويل من حدوث التصنيع الكامل».

ـ «تتكلم بلغة ماركس دفاعاً عن الرأسمالية السوداء! تذكّر لصالح من تعمل هذه الأيام، يا داندو». أرخى شينزا فمه الملتحي، نصف مازح، نصف متفضل.

ـ «كل ما تقوله هو أن العمال لن يشعروا بالفائدة في الأمد البعيد».

ـ «ليس بعيداً إلى اليمين أو إلى اليسارِ أو في منتصف الطريق ـ بإمكانك أن تتحدث إلى أن تأتي المملكة. خذ مشروباً، يا إدوارد، هلم، يا رجل، اعتن بالجنتلمان».

عنّف الساقي. ضاقت الحلقة.

«إدوارد وأنا كنا نتحدث حول هذه الأشياء عندما كنتم جميعاً مجموعة من الأولاد ذوي الأنوف المخوطة... هو يعرف ما أقوله».

ـ «ما هذا الهراء حول كون العمل النقابي مقيداً».

أخذ شينزا بلعة من جرعة داندو من الويسكي.

«اسمع ـ ما ينبغي عليه فعله هو أخذ الخيار. لصالح التطور الاقتصادي، يمكن أن يصبح العمل النقابي عضواً في آلية صنع السياسة للحكومة ـ ما يعني أن أي انتقاد لعجز الحكومة هو باطل. عندئذ يكون نشاط النقابة محصوراً بشيء واحد ـ ضمان ولاء العمال في الصناعات الإنتاجية. الآن هذا شيء يؤبّد توزيعكم الجائر الشهير للدخل القومي تماماً. أنت تبعثر المال الكبير إلى أصحاب المقامات الرفيعة، أنت تدفع الفاتورة لأجل قوة بوليس ضخمة لإبقاء الجميع هادئين. وكل ذلك يمثل

Twitter: @alqareah

إنفاقاً لا إنتاجاً، أي؟ لذلك ستكون النقابات قادرة على تهنئة نفسها على تعزيز السلطة السياسية للنخبة. لكن ثمة طريقة أخرى».

بدأ داندو يهز رأسه في حين كان شينزا يتكلم.

- «خط الدفاع عن مصالح العمال. قل لي طريقة أخرى، قل. إنها تؤدي حتماً إلى تباطؤ النمو الاقتصادي. كل أفكارك حول النشاطات القائمة على الدور الإنتاجي للعمال لا يمكن أن يكون لها سوى أثر محدود جداً. إنها تجعل العمال ينكبون على العمل ويخرسون».

كان شينزا يلوح له بذراعه: «هذا هو ما حاولتَ أن تفعله، هذا هو ما حاولتموه!».

«أوه، لا أحد ينكر أنه يوجد الكثير من الشكوك حول قدرة النقابات على وضع سياساتها موضع التطبيق. نحن نعرف ذلك».

إن براي، الذي انقضّ أيضاً على ويسكي داندو، وجد نفسه يُستدرج إلى الجدال.

«حتى الآن، فإن انمساخ زعيم النقابة إلى زعيم سياسي قد أجبره على المساومة... وهذا واحد من الأسباب الأساسية للضعف هنا. لكن الضعف الأساسي هو مزيج من الاثنين: التخلف الصناعي زائد المسؤولية السياسية التي كان على النقابيين أن يأخذوها على عاتقهم».

«أو كرمى للمسيح. الشيء الوحيد هو، خذ تلك المسؤولية السياسية تحديداً».

امتدت يد شينزا تحت شيء ما ثقيل بشكل غير منظور.

- «لا، الاعتقالات ممنوعة» قال داندو. التفت إليه براي.

- «هل توافق على أن القول الفصل في مسودة خطة التنمية الاقتصادية هو أحد المتطلبات الأساسية لمعظم النقابات الأفريقية، يا رولي؟».

«اصغ إليه: مطالب، مطالب».

بدأ داندو يتباهى، محتكماً إلى جمهوره.

- «لكن بالنسبة لهم كان براي جزءاً من الأداء بقدر ما كان هو...».

«إنها الطريقة الوحيدة للتغلب على التناقض بين المطالب التي تهدف إلى نتائج قصيرة الأمد، وبين إجراءات سيكون عليك أن تتخذها إذا أردت أن تؤسس سياسة تنمية حقيقية. بالطبع إن الصعوبات هائلة... إنها محفوفة بالمخاطر...».

Twitter: @alqareah

من حين لآخر كان داندو يفقد السيطرة مؤقتاً ويتحدث بدافع من بعض الاستجابة الضبابية المرتعشة بفعل الكحول في دماغه.

ـ «تخاطر بحياتك في كل مرة تعبر فيها الطريق».

ـ «... وضع النقابات والحكومة لا يمكن أن يصبح متعذر الاصلاح».

ـ «ها ـ ها ـ ها ـ ها ـ ها...» كان داندو يضحك، قام بملاكمة وهمية فوق البار.

«دُسْ بخفة، يا براي، فالبيض تحت الأقدام، أنت تعرف».

عاود انتباهه، التفت إلى شينزا.

«إنك تحصل على عضويتك النقابية إلى حد كبير من الإدارة العامة، بعيداً عن المناجم. إذا بدأت باتخاذ إجراءات صارمة ضد البيروقراطية، فستكون هناك تخفيضات للإنتاج. كيف ستجعل هؤلاء الناس يوافقون بدون أن تفقد مئات الأعضاء؟».

«لم يكن بمقدوري أن أكون أقل اكتراثاً بمئاتك القليلة من البيروقراطيين اللعينين إذا كان بمقدروي أن أكسب آلاف الفلاحين. انسَ ذلك، يا رجل».

بدأ شخصان أو ثلاثة ينشدون أناشيد الحزب، أولاً بشكل غير متقن، من ثم، بالعجز الأفريقي عن الغناء خارج اللحن حتى عند السكر، بانسجام صاخب. كان رولي قد أصبح متحدياً، دون أن يدري حول ماذا. بدا صغيراً جداً وأبيض، شعره الرقيق المشحم القليل الكثافة ينتصب بشكل متفرق في تاج رأسه، ونظاراته تتحول إلى هذا الهدف أو ذاك.

«أفضل من عصابتكم اللعينة كلها، يمكنني أن أقول لك ذلك. أكثر شجاعة مما سوف يرى بعضكم على مدى الحياة... أنا لا أثق به بقدر ما أثق بالباب، العرص العجوز.. أما أنتم، المبللون خلف الأذنين، الكثيرون منكم، فلن تروا واحداً آخر مثله، ليس من صالحكم أن تبدأوا بإخباري...».

شعر براي بحنين قديم إلى داندو العجوز، الذي لا يعتمد أبداً على كرامة منصبه بل يحتفظ لنفسه بابتزازات الاستجابة الشخصية، بغض النظر عن كيف يمكن أن يظهر معطوباً أو مضحكاً. وحدها الدولة الأفريقية التي استخدمت رجلاً مثل ذاك؛ فلو كان في أي مكان آخر، لضاعت قدرته المهنية على خلفية اعتبارات الجانب المهني.

Twitter: @alqareah

كان راس آساهي يتحدث عن الإضرابات في المناجم وكان براي نصف مصغٍ فقط: «ليس مثل هذا التدافع لإيقاف الإنتاج الآن بحيث أن الشركة جلبت الخردوات لكي تفرض عليهم إجراءات صارمة!»

كانت العبارة سهماً مرتعشاً: «خردوات؟».

- «نعم، لن يكون عليهم أن يقفوا في الجوار يقضمون أظافرهم بعد، عندما يهتاج الصبيان ويغضبون. لقد رأيت ذلك في اليوم الآخر، بشكل سري جداً - لكن، يا رجل، كله موجود». كان ثمة أسطول صغير ظريف من شاحنات فورد محولة إلى عربات مصفحة».

"هل أفراد شرطة الشركة مسلحون؟".

«حسناً، ماذا تظن؟ سيقفون في الجوار بانتظار قدوم رجال الفضاء» (البوليس النظامي كان يدعى هكذا بسبب خوذاته) بانتظار الرئيس ليقرر ما إذا حان الوقت لاستدعاء الجيش؟ كما يبدو، الشركة ذهبت إليه مباشرة وقالت، انظر هنا، إذا لم يكن بمقدورك أن تفعل ذلك، فيجب أن تدعنا نقوم به... وأعطاهم الضوء الأخضر".

«لقد حصلوا على البنادق».

بسط راس يديه الأنيقتين. «المعدات الكاملة لفرقة مكافحة الشغب. غاز مسيل للدموع، بنادق - طائرات الهليوكبتر بحيث يمكنهم نقل دزينة أو أكثر من الرجال حيث تكون ثمة حاجة إليهم، سريعاً. سيكون ذلك عوناً كبيراً حيث توجد مشكلة... حتى لو لم تكن في المناجم... الرجل الكبير يعرف أنهم موجودون إذا احتاجهم».

في الوقت نفسه كان ثمة نوع ما من الإحساس بوجود عقدة حول داندو وشينزا. كل ما رآه براي هو داندو يضع ذراعه حول كتف شينزا في إيماءة مصطنعة، طعنة، و - على نحو مميز - شينزا يتجنبها بهدوء وبسرعة مثلما ينسل القط من تحت يد. لم يكن شينزا ينظر إلى داندو، كان ملتفتاً بعيداً وهو يتحدث إلى شخص آخر في تلك اللحظة الخاصة. لا بد أنه قد أصبح واعياً بين لحظة وأخرى للذراع المطالبة به. لكن داندو، الذي مط نفسه قبلئذ عن كرسي البار، كان متقلقلاً، فأخلت هذه الحركة بتوازنه. وقع؛ فحصل اهتياج - رفعه الناس عن الأرض وسط الارتباك الذي يبدو أنه يمثل عدوانية أو قلقاً على حد سواء.

قال آساهي باشمئزاز، «ذاك العجوز هو أفضل حجة أعرفها لصالح الأفرقة. فينبغي أن يدعوهما ينهيان أحدهما الآخر؛ هذا المكان بحاجة لتنظيم».

Twitter: @alqareah

ـ «يا لك من متزمت، يا راس. ربما كان عليك أن تطلب غازاً مسيلاً للدموع».

لكن آساهي كان يشبع غروره بأن يُظن أنه حازم، كان براي مدركاً لكونه واقفاً تحت ابتسامة رجل يشعر أن بإمكانه أن يتحمل ذلك. مضى بسرعة إلى رولي داندو. كان داندو واقفاً على قدميه مرة أخرى، بشكل رصين إلى حد ما. «هل سنذهب إلى البيت؟»

«لماذا حديث الأطفال، يا براي؟ على كل، ألا تأكل مع مويتا؟».

كان يمتلك مظهر دجاجة انتُزعت غير متأذية من فكي كلب.

«ثمة وقت للذهاب إلى البيت أولاً».

«يا إلهي الطيب لا، لقد أخذت موعداً».

انصرف مع الشابين اللذين نفضا الغبار عنه، واحد من قبيلة مسو، ـ كانوا شعباً قصيراً بديناً؛ دم باتوا سال من الكونغو، هناك، في هجرة منسية ـ والآخر كان رجلاً صغيراً بهيجاً. محدودباً، ثرثاراً يرتدي، بالإضافة إلى ربطة عنق خاصة بالحزب، شارات مختلفة من العهد الاستعماري ـ أزرار الكشافة والصليب الأحمر.

خلّف وراءه أصواتاً مرتفعة وإيماءات مبالغة؛ فالفوضى قد أطلقت العنان للكراهيات الخاصة والتوترات التالية للحادث بالإضافة إلى عمل النهار في المؤتمر. كان شينزا محاطاً بشكل محكم برجاله الخاصين، الآن؛ كان نوانغا، غوما، واوغوتو يشربون حول طاولة صغيرة بروحية كونهم ليسوا في أي مكان على وجه الخصوص، كما لو كانوا في محطة قطار أو مطار. لكن شينزا قال لبراي من فوق كتفه: «هل العجوز بخير؟».

تناول العشاء وحده مع مويتا، متأخراً؛ استغرق أولئك الضيوف القاطنون في البحيرات الكبرى الذين لا يجتمعون في البارات وقتاً طويلاً ليتفرقوا من قاعة الفرخ الذهبي. كان مويتا منزعجاً، كما كان دائماً، من اختيار حفلة الكوكتيل كطريقة لتسلية الناس.

ـ «خصوصاً المؤتمر».

لذلك فالمؤتمر يستحق شيئاً أفضل. مع أنه جلس هناك، في ردائه الذي يرمز إلى دخولهم إلى مؤتمرهم الخاص بهم، وسمح لنفسه بأن يأخذ منهم الموافقة على تهيئة نفسه إلى منصب أكثر سلطة، ابتسم براي، «حفلات الكوكتيل والديموقراطية تسيران معاً».

«هل هو هكذا؟»

Twitter: @alqareah

«في الدكتاتوريات؛ توجد المآدب».

كشر مويتا: «هل تريد هذه، يا جيمس؟»

كان ثمة زجاجة من النبيذ على الطاولة.

قُدمت لهما شرائح لحم البقر والبطاطا بشكل غير رسمي، وأخبر مويتا الخادم ألا ينتظر. كانت غرفة الطعام الكبيرة مكيفة منذ أن كان براي فيها آخر مرة، فشعروا بالبرودة وانعدام الهواء الطلق.

فتح مويتا النوافذ بنفاد صبر، فدخل الليل الدافئ الكثيف، مثل إشارة حميمية بينهما. كان يعرف أن براي يعتقد أنه من الخطأ بالنسبة له أن يجعل الأمين العام لاتحاد النقابات من تعيينه هو. لقد عرض الموضوع بنفسه في الحال بحيث لا ينبغي أن يبدو ذلك عائقاً؛ تحدثا مع افتراض موقف براي. كان الرنين الحميم للشوكة على الطبق مترافقاً مع خواء الاتفاق على الاختلاف. أكل مويتا بنهم غير معتاد، وهو يزدرد شرائح لحم البقر بحركة شبه مسرحية:

- «بالطبع لا يمكن للمرء أن ينكر ذلك، في بلدان عديدة يكون التنظيم النقابي خاضعاً لسياسة الحكومة . لكن هذه البلدان يكون نموها الاقتصادي بطيئاً، عندهم أكبر المصاعب التي يجب مواجهتها في التغلب على عوائقهم الأساسية. وهي أسباب لا تنطبق هنا».

كان مويتا يزدرد ما يقوله مع كل لقمة، هازاً رأسه، ليس علامة على الموافقة بل ليظهر أنه منتبه.

- «نعم، لكن النقابات في البلدان الإفريقية الأكثر تقدماً يجب أن تكون حريصة على ألا تصبح حركات معارضة راديكالية عندما تتصلب معارضتها. هذا خطر جدي على نجاح أية سياسة تنمية اقتصادية».

كان براي مدركاً لابتسامته الباردة وهزة كتفيه الاستهجانية. مد يده إلى النبيذ، رغم كل شيء.

«إنه يعتمد على حيث ترسم الخط. ما الذي يشكل وما الذي لا يشكل معارضة؟ ثمة فرق بين مقاربة راديكالية لمشاكل العمال والمعارضة الراديكالية للحكومة. هنا يأتي التشوش. في اختيار الأولويات الاقتصادية، هل يمكن للحكومة أن تتحمل القيام بالتحرك بدون دعم غالبية حركة عمالية منظمة؟».

ابتسم مويتا كما يبتسم رجل عندما يعالج الاعتراضات واحدة تلو الأخرى والتي يكون مستعداً لها.

Twitter: @alqareah

«لدينا الدعم».

«هذا لا يتأتّى عن طريق ما حصل في الأشهر القليلة المنصرمة».

لم يصدق مويتا أن هذا هو ما يعنيه. أجاب بكلمات مصاغة على لسان براي:

«ماحصل كان مثالاً كاملاً ـ محاولة لدفع النقابات إلى موقع المعارضة السياسية. حسناً، كما رأيت بنفسك، لقد فشلت. هذا ما يجيب على سؤال ما إذا كنا نملك الدعم أم لا».

قال بجفاف، بلطف، «إدوارد فشل، أنت فزت».

لم يبد مويتا علامات الضيق، لم يعد يقول، ثق بي. لم يعد يلح على شرح نفسه. «لذلك تعتقد أن ذلك بين شينزا وبيني ـ لا بأس بالازدهار الاقتصادي».

كان نصف مازح، في مسارّته الجديدة.

«أعتقد أنها الطريقة التي تراه بها».

«المعارضة ـ خصوصاً المعارضة السياسية ـ من النقابات لا يمكن السماح بها إلا عندما يكون واضحاً أن الطبقة الحاكمة تعمل على تعزيز مصالحها الخاصة بدلاً من العمل لتطوير اقتصاد متقدم».

قال مويتا، حاصراً نفسه بهمه في أن يكون دقيقاً.

«حيث لا يكون ذلك سوى محاولة لتشويه سمعة الحكومة، فإن الحكومة لا تملك خياراً سوى تحطيم أولئك الناس، أي حتى باستعمال القوة، ربما».

«أتساءل إن كان ذلك هو ما كسبته».

لكنهما جعلا التعليق عديم الأذى عن طريق نوع من الحنين إلى الماضي، نادمين، مفسحين الطريق كلٌ للآخر، فقد عفا الله عما مضى.

لقد حبس في نفسه الضرورة منذ أن تحققت في وهج موقف السيارات ذاك الصباح.

«صديقي القديم، سمستو ـ سيتعين عليه أن يقدم تفسيراً لنفسه بهذا الخصوص هذا المساء؛ هنا. لماذا؟ ـ الآن النية برمتها لا علاقة لها بالموضوع. وبالأمارة نفسها لم يكن ضرورياً بالنسبة لمويتا أن يعترف له بأنه يسمح للشركة بتجهيز جيش خاص. انقضى المساء. كل واحد منهما كان لديه ما تركه دون أن يقال. مع أنهما تحدثا كثيراً. كان مويتا متحمساً لمناقشة بعض الأخطاء التي اعترف بها، المصاعب، بعض الشكوك. خصوصاً حول أعضاء وزارته. كانت المصارحة بديلاً عن انعدام الصراحة. ربما لم يكن ذلك مرضياً بشكل محسوب ـ دعوة (إلى الوفاء؟ إلى التعاطف؟) لم يقدم

Twitter: @alqareah

إنشاً واحداً. لم يتم التطرق إلى مسألة ما إذا كان براي مستمراً في الإقامة في البلد أيضاً؛ بل اكتفى مويتا بالتعليق بأنه يعتقد أن العمل في غالا يجب أن يكون منتهياً تقريباً؟ لم يسأل لماذا لم تأتِ أوليڤيا. ولو أنه سأل؟ ـ أي جواب، أية كذبة لتقديمها على عجل ستكون مقبولة على عجل؟»

بقي المؤتمر منقسماً بشكل قلق حول كل ما ناقشه. كان هامش النظام في كل جلسة ضيقاً جداً. حملق شينزا خارجاً من فوق المدرج، بنظرة غير مهذبة بشكل ازدرائي. بدا أكثر فأكثر مثل غريب يظهر فجأة من البرية ويتخذ مكاناً له مسبباً الإزعاج للناس الآخرين. حتى مؤيدوه بدوا أنهم يفهمونه على مسافة من غوما، بازيل نوانغا البهيج ـ رجال أكثر شبهاً بأنفسهم.

كتب براي إلى انكلترا. استفاد هذه الأيام من امتلاكه لشيء ما مثير للاهتمام بشكلٍ موضوعي، مثل المؤتمر، ليخبر أوليڤيا عنه، لإرسال رسالة طويلة ممكنة إليها) واصفاً شينزا بمثابة «مذكر غير مريح بالأفكار التي لا تزال خلسة خلف الحلقة المسحورة لوهج العاصمة، البلد برمته...»

كانت رسالة تقرأ بصوت عال على الأسرة أو الأصدقاء. «مثيرة للاهتمام» «ولا شيء فيها لا يمكن لأحد أن يقرأه. ما يحدث بينه وبين شينزا، مويتا ـ لم يكن ثمة كلمة واحدة عن ذلك؛ سر واحد، مثل غيره، لم يكن ممكناً. مع ذلك ـ وهو يتصفحها (أحياناً يتصفح رسائله إليها عدة مرات، الآن) ـ رأى أن التعليق حول شينزا يعكس بعض الحقيقة حول موقفه منه الذي جاء بشكل لا واع من خلال النغمة المدروسة.

كان مشمولاً في النقاشات الجارية في بيت غوما في أولد تاون. بالطبع كان ذلك حديثه إلى سمستو ـ باستخدام الادعاء «صديقي القديم» في ذاك اليوم وهو جالس في ذاك الفرن ـ السيارة العتيقة ذات الوردة البلاستيكية على مستوى النظر ـ ذاك، الذي بالنسبة للبقية ـ جعله مثبتاً ومقبولاً؛ إن شينزا بلا شك يتكل على أشياء أكثر متانة وأكثر ديمومة. ولكن ربما كانت صحيحة: إن أصغر فعل قد يكون أكثر التزاماً من أكبر المبادئ. جماعة شينزا أنفسهم استمروا في الهجوم، عبر كل قضية مثارة للنقاش مما دعاه غوما بـ «تحجر قيادة الحزب». بالرغم من كونهم، وقد اجتمعوا في بيت غوما، كانوا يعرفون أن هزيمة حركة الأمين العام هي هزيمتهم في هذا المؤتمر. بدوا مصممين على أن المندوبين يجب أن يضعوا في آذانهم، حتى عندما صوتوا لإسقاط هذه المعارضة، المطالبة بمزيد من المبادرات لأجل الوحدات القاعدية للحزب

Twitter: @alqareah

وتحويل المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية العتيقة. ألحوا على الحاجة إلى العيش البسيط، والانضباط والتضحية، بدلاً مما يدعونه سيروية النخبة الحاكمة الجديدة. علق براي بشكل خاص لشينزا بأنهم قد بدأوا يظهرون أعراض التطهرية والتي هي نموذج لجماعة الضغط. ابتسم شينزا، انتقد سنه المكسور: «هذا هو الخطأ في جماعات الضغط في النهاية - أي - هذا هو كل ما لديهم ليفعلوه بأنفسهم».

لكن في نقاش اليوم الختامي حول الخطاب الافتتاحي للرئيس، شن هجوماً بارعاً على موقف مويتا بدون أن يبدو أنه يهاجمه شخصياً. ودعا بشكل انفعالي إلى رفض «المعنى الزائف للديموقراطية الذي يرى فيها معنى حماية حقوق المصالح المشتركة الكبيرة والاحتفاظ التفضيلي بالروابط مع السلطة الاستعمارية السابقة».

«روح الشقاق» التي «برزت في كل مكان في المؤتمر لأنها في قلوب الناس وعقولهم عن طريق الإعلان بالتفاتة من جهة إلى جهة أخرى من رأسه الكثيف العرف مثل مخلوق تعرض لكمين»

«الاستقلال ليس كافياً. الثورة السياسية يجب أن تتبع بثورة اجتماعية، حياة جديدة للجميع...» واستشهد، ويداه ترتعشان، غير مستندتين تماماً على الطاولة أمامه، بأقوال:

«اذهبوا إلى الناس
عيشوا بينهم
تعلموا منهم
أحبوهم
اخدموهم
خططوا معهم
ابدأوا بما يعرفون
ابنوا على ما يمتلكون».

كان ذلك متهوراً كان هذا المثل الصيني، رغم كل شيء هو الشعار المفضل لنكروما، الذي نادى بالاشتراكية ونصب نفسه كإله... لكن شينزا كان من الصعب أن يتعرض للملامة، من خلال الترابط مع الطموحات المماثلة، لأن مويتا، مثل كاوندا، استمر لبعض الوقت في الاعتراف برئيس الدولة الغاني المخلوع. فيما بعد، عندما أجريت معه مقابلة من قبل صحفي انكليزي زائر وأشير إليه بوصفه «المحارب السياسي الناري الذي اندفع عائداً مثل شيطان غباري من سهول الباشي»، نقل عن

شينزا سؤاله: «عندما نكون قد بنينا دولتنا، هل سنجد الهياكل العظمية للمعارضة موضوعة في جدران البناء؟» (أوليفيا أرسلت القصاصة في الحال).

كان الرجل الذي اختير لأجل الخطاب الختامي إلى المؤتمر تقليدياً هو الذراع الأيمن لزعيم الحزب؛ الآن وقد كان زعيم الحزب هو الرئيس، فقد كان الاختيار يؤخذ عموماً على أنه مؤشر على رجل قادم في الحكومة. ثمة حديث بأن جون نافوما، سكرتير الشؤون الرئاسية سيكون هو ذاك الواحد. لكن نديسي شونونغوا، الأمين العام لاتحاد النقابات هو الذي ألقى الخطاب.

في يوم الأحد كان ثمة اجتماع حزبي حاشد كبير. فقد مكث كثير من المندوبين لأجله، وجاء الناس بالشاحنات وسيراً على الأقدام على مدى أميال. كان ستاد الاستقلال، الذي استخدم لأول مرة منذ احتفالات الاستقلال، كان قد حجز لأجل المناسبة؛ الأعشاب، الأذى الذي سببته الأمطار والناس الذين (كما قيل) أزالوا أجزاء من المنصات لاستعمالها كمواد بناء ـ وكل هذا تم إزالته وإصلاحه، ظاهرياً بكرم من الشركة، باستخدام عمال الحدائق والعمال الذين ظلوا يصونون عقارات الشركة ذات المروج الخضراء ومساكب نبات القنا التي خلقت بيئة نظيفة، حيادية لأجل المستخدمين البيض في العهد الاستعماري. كان براي هناك مع هجالمار ونتز وابنته ايمانويل، وسمع الزعيم يشكر الشركة، من بين الآخرين الذي أشار إليهم بوصفهم «الراعين». قدمت شركة مشروبات غازية عالمية شاحنات تسليم البضائع لنقل الناس المسنين وأفواجاً من أطفال المدارس.

كان هجالمار متحمساً جداً للنزهة، وكانت ايمانويل تقريباً ساهرة على راس آساهي، الذي كان يُخرج تسجيلاً وتصويراً للحدث لأجل الإذاعة وأحد البرامج التلفزيونية النادرة المصنوعة محلياً. كانت الفتاة ترتدي تنورة قصيرة مصنوعة من قماش جميل من أعالي أفريقيا، و، كل السيقان، تتسلق بين الحشد مع آساهي، تنظر إلى الوراء من حين لآخر إلى حيث أبوها وبراي يجلسان بألق يأتي من تقديم نفسها إليهم كمخلوق خاص، بارتياح كبير بين هذه الأكتاف الذكرية السوداء التي تظهر من خلال قمصان النايلون الشفافة، هؤلاء النسوة الصارخات ذوات الوجوه المبيضة بسبب الفرح. بطريقتها الخاصة كانت دخيلة للغاية بحيث أنها كانت جزءاً من المشهد، كما في نصف الكرة الشمالي لا تبدو الشيتا على سلسلة مذهبة خارج سياق عرض للأزياء. علق براي على حقيقة أن راس آساهي يصنع أفلاماً أيضاً،

Twitter: @alqareah

الآن، وقال هجالمار، تقريباً بشبه غرور متذمر بالنيابة عن ابنته ـ «كل ما يلمسه يبدو أنه يسير حسناً».

تكلم بصوت مكتوم، خفيض؛ فقد كان هذا هو النوع من التعليق الذي لا يمرره في حضور زوجته، مارغوت.

كان شينزا قد عاد مباشرة إلى الباشي. لقد ترك العاصمة، بأي حال: «سأراك في البيت إذاً». وهو يقصد غالا بشكل مفترض. بدونه، كان تقريباً كأن شيئاً لم يحدث. كل هؤلاء الناس أمام مويتا، العجائز في جلود الفهود يرتدون خلاخيل مصنوعة من البذور تخشخش على كواحلهم، كما يحاكون فشخة القتال القديمة في وثبات مسحاء تجعل الشباب يقهقهون. أفراد جوقات الكنيسة بأيديهم المطوية، طلاب كلية عسكرية يمشون مشية عسكرية، أعلام بطولة رياضية، نساء معولات، أطفال يرضعون أثداءً أو يعلكون أكواز ذرة مشوية، رجال يمشون في موكب تحت رايات الحزب المصنوعة محلياً، الشمس الساطعة، الغبار، رائحة جعة الذرة الصفراء، معلاق ذبيحة يغلي، والسمك المجفف الغالي: عنف الحياة. شعر براي أن ذلك ينقعه بعرقه. لو كان بمقدوره أن يتكلم إلى مويتا عندئذٍ (وجهاً متألقاً، متوهجاً، رافضاً إرجاء المحفة، آخذاً المجد الكامل للشمس والحشد الهادر) أراد أن يخبره، هذا ملكهم دائماً، إنه تأكيد للحياة. كانوا سيعطون ذلك لآخر إذاً، سيتم إنزالك غداً مثل علم ونَصْبُ آخر مكانك. ليس هذا ما ينبغي أن يهمك، الآن. وتساءل إن كان سيخبره أي شيء مرة أخرى؛ أي شيء هو يعتقده بنفسه. كانت الليلة الأخرى سهلة للغاية؛ كم كان من الممكن لمثل هذه الأشياء أن تكون سهلة هكذا. فجأة، في لطخة الصور المستبدلة، الداكنة والفاتحة، التي جاءت مع الدوخة الخفيفة للحر والضجيج، كانت أوليفيا، صورة جزء من الثانية. كان ذلك سهلاً معها، أيضاً. هي لم تسأل، وهو لم يفتح الموضوع. إن ذلك قد جعله غير مرتاح، مع ذلك، بحيث أنها ومويتا يتعين أن يكونا مترابطين عند مستوى معين في عقله. بالطبع، كان ثمة صلة جلية؛ الماضي. لكن خطاً بين المشي متبلد الحس نازلاً إلى موقف السيارات ليحاول كسب التأييد لأجل شينزا («سمستو، صديقي القديم»)، وحضور الفتاة ـ دائماً عليه، بصمة لمسة لا تمحى أبداً ـ كان بالإمكان فقط أن يكون ملاحقاً بالتهمة. ومتهماً بماذا؟ لقد استمريت في العيش؛ أنا لا أرغب في أوليفيا: شيء ما لا يمتلك المرء أية سيطرة عليه، والأشياء التي أؤمن بها كانت موجودة فيَّ قبل أن أعرف مويتا وتبقى حية فيَّ لو ابتعد عنهم.

Twitter: @alqareah

شعر، مع هجالمار الودود إلى جانبه والحشد الأنيس من حوله، بأنه متوحد بشكل مطلق. لم يكن يعرف كم يدوم ذلك؛ إنه لحظي، ربما، لكنه كثيف للغاية إلى درجة أنه بلا زمن. كل شيء ارتد عنه. كان الحشد ماءً عميقاً. وجفف النسيم العرق في طلاء تيبس على عنقه.

بعدئذ ذهبا إلى بيت آل بايلي لتناول مشروب. كان رولي هناك، ومارغوت ونتز، وآخرون.

«كيف نجوتَ؟» وكان نيل بايلي يقصد من ملل المؤتمر. كان بايلي «قلقاً بشأن المعلم الكبير» «لكن كان عليك أن تكون هناك».

كان هجالمار مرتاحاً في مكان ما من نفسه بفعل الاحتكاك مع جمهور الناس البسطاء في المهرجان. «إنهم يحبونه، أنت تعرف، إنهم يحبونه». تعبير عن نفاد الصبر عبر وجه مارغوت؛ عاود مثل ارتعاش عصبي لا إرادي، هذه الأيام، عندما كان هجالمار يتحدث. قال بايلي إن مويتا كان «يُرَوض» من قبل تشيكوي، وزير عدله، وآخرين. هم أرادوا تولاتولا خارج وزارة الخارجية، لأجل شيء واحد.

«حسناً، أنا أعرف أن مويتا لم يكن سعيداً جداً معه في البداية ـ تتذكر ذلك السؤال في المؤتمرحول كثرة أسفاره».

ـ ابتسم براي ـ «لكنه أبلى بلاءً حسناً، في الحقيقة، كنت سأقول ـ ألا تقول ذلك؟».

ـ «نعم ـ لكن أولئك الناس تحديداً الذين اتهموه بإضاعة الكثير من الوقت في الطائرات النفاثة هم على مودة شديدة معه الآن، إرضاءً لتشيكوي. تشيكوي يقول إنه قد أجرى اتصالات مع جماعة شينزا».

سلم هجالمار الرفقة إلى براي. «هل يوجد أي شيء في ذلك؟»

«لقد رأينا هذا الأسبوع على ماذا يقوم دعم شينزا».

لوح رولي داندو بغليونه «براي يمثل واحداً».

قال نيل «هل وجدته مؤثراً؟ ـ عندما أقرأ ما يقول أفكر كم هو شاب لماح، إنه على حق، معظم الوقت. لكن إذا كان يتحدث إليّ ـ أقصد إذا كان هناك بلحمه ودمه وأنا أصغي ـ فإن ذلك يجعل شعري ينتصب. لا أحب الرجل».

كان لجسم ڤيڤيان المنظر البالوني المنخسف لامرأة ولدت حديثاً. في إطاره ذي الشعر المهمل الذي يقبع متيبساً كما لو أنه منحوت، شقراء زنجارية حافظ وجهها الجميل على صفته الخالدة من خلال الصخب الأكال للأطفال والحديث العابر.

Twitter: @alqareah

«إنه رجل جذاب جداً. أنا متفاجئة من أن أي واحدة منا لم تتخذه عشيقاً».
«أنتِ لم تقابليه. إنه افتتان تلميذة» لم يدع زوجها التعليق يمر.
«لقد قابلته. قابلته في حفل استقبال العام الماضي كنا هناك».
«عندما تثار عاطفتها، فإنها لا تنسى أبداً، فيلتي».
«وتحدثت إليه منذ ثلاثة أيام. تقابلنا في كاراج هفاجي».
ضحك الجميع، لكنها بقيت رابطة الجأش.
- «موعد مفرح».
كنا نشتري البترول. تذكرني فوراً.
«هذا الحياد الإيجابي فكرة ظريفة جداً، وكل ذلك جيد، لكن علينا أن نكون عمليين قليلاً، هه؟» قال هجالمار. «أينما جُرب ذلك يدخل الروس أو الصينيون أو الكوبيون فتعود إلى الحرب الباردة؛ مثل قيادة سيارة - نه - إذا بقيت على الحياد، لا يمكنك أن تتحرك... لم يكن أبداً أقل انحيازاً من مويتا. وعندما خاف الغرب من أفكار كهذه، تلقفه الشرق. إنه بين مجموعتين من النسور».
«آه حسناً، هذا هو الفن في ذلك. أن تحافظ على اللحم على عظامك. هذا هو ما يجب على أولادنا السود الهزيلين أن يبرعوا فيه».
قال براي لداندو: «هل تعتقد أن مويتا يمتلك تجربة؟»
عض داندو على غليونه بسن سفلي متآكل حتى العظم.
«لقد تحدثنا حول ذلك مئة مرة. أنت تعرف بشكل جيد تماماً ما أفكر به. ما تريده هو أن تثبت ما تعتقده. لقد صحوت من حلم يقظتك اللعين أخيراً... لا أعرف ما الذي... الآن أنت لا تحب ما تراه. أنا في الموقع الأقوى لأنني لم أتوقع أبداً أن أرى شيئاً كنت أتمناه»... كان ثمة ضحك؛ حتى مارغوت ابتسمت.
- «مويتا ليس رجلاً يرتكب مغامرات كبيرة، ليس راديكالياً في أصغر نسيج من جسده. فللقيام بتغيرات كبيرة هنا عليك أن ترتكب المغامرات الأكثر هولاً، لقد اختار أن يلعب لأجل نصف السلامة، لسبب بسيط وهو أنه ليس قادراً على أي شيء آخر وفي عظامه يمتلك الإحساس بمعرفة ذلك. لقد اختار مجموعته من النسور لأنه يظن أن بإمكانه أن يقيس من الخبرة طول مناقيرهم؛ حسناً. إنه يرى الآن كم من اللحم بإمكانه أن يحفظ منهم».
وجد نفسه يتكلم إلى داندو، إليهم جميعاً، وهو ينظر إلى الوجوه، من واحد إلى الآخر:

Twitter: @alqareah

«لماذا نحن واثقون للغاية من أن مجموعة من المناقير هي أكثر خطورة بكثير من مجموعة أخرى؟ بسبب السجون، معسكرات العمل، آلاف الموتى في الاتحاد السوفيتي على مدى السنوات؟ لأن المسيرة الكبرى قد تم تجاوزها عن طريق الحروب الأهلية في الصين، بسبب هنغاريا، بسبب تشيكوسلوفاكيا، بولندا، نعم، أنا أعرف. لكننا أناس نعرف ما هو عيب الغرب، أيضاً، العبودية التي مارسها بنفاق لفترة طويلة من الزمن، الاحتقار الذي أظهره للناس الذين استغلهم ولا يزال يظهره، في جنوب هذه القارة. الصورة المرآتية لذاته التي ينصبها في الضواحي السوداء ذات الامتيازات التي تأخذ مكانها ... الحروب التي يؤيدها في قضية «العالم الحر»... إذا كان الحياد الإيجابي هوالمثال، لكن العالم الثالث يُختصر إلى براعة رولي في العيش بين مجموعتين من النسور، فلماذا يمكننا أن نكون أكيدين هكذا بأنه من غير الممكن أن نتخيل أن الأجدر بنا في هذه الأثناء أن نرى كم من اللحم لا يمكن للمرء أن يحفظ في العلاقة مع الشرق؟ لماذا؟ لأننا «ننتمي» إلى الغرب؟ نعبر عن آرائنا ـ نتمسك بها ـ بإباحية الغرب؟ مربوطين إليه بتلك الإباحية؟ رولي ـ نفسه ـ لا أعتقد أنه سيقول إنه قد آمن أبداً بأي شيء آخر ـ هل توافق على أننا دائماً كنا نتقبل ما كتبه سارتر ذات مرة من أن الاشتراكية هي حركة الإنسان في سيرورة إعادة خلقه لنفسه؟ أليس هذا ما نؤمن به؟ ـ مهما تكن أمراض التجربة على طول الطريق ـ سواء كان روبسبير أو ستالين أو ماوتسيتونغ أو كاسترو ـ فإنه الطريق الوحيد الموجود لنسلكه، بمعنى أن كل طريق آخر هو طريق إلى الوراء. ماذا تريد أن ترى هنا؟ صين أخرى؟ أمريكا أخرى؟ إذا كان علينا أن نعترف بأن من المرجح أن يبنى على نمط أو آخر فأيهما ينبغي أن نختار؟».

«أنت تقول إن الاشتراكية هي المطلق؟» كان نيل يحب العواطف القوية، كشكل من التسلية. سرعان ما تحمل المسؤولية.

«المعيار الذي يجب أن يُحكم به أي مشروع سياسي؟».

ـ «نعم، يجب، إذا كنا نؤمن، الناس مثل رولي ومثلي، ما كنا نقوله طوال حياتنا المحامي والموظف المدني. نعم! ماذا غيره؟».

ـ «لكنني لا زلت محامياً وأنت لم تعد موظفاً مدنياً». قال داندو، وهو ينظر إليه التقت عيونهما؛ ثم تراجعت، تحت تحديق داندو تحديق رجل يقف مراقباً رجلاً آخر يختفي عن النظر.

كان الحديث قد عاد إلى تولا تولا، وزير الخارجية.

Twitter: @alqareah

«ولكن ماذا حول آل مسو» كان هجالمار يلح ـ «نيل ـ كيف سيخرجه مويتا دون أن يسبب مشكلة لنفسه هناك؟».

وقف نيل بايلي تقريباً بين ضيفيه الجالسين مثل مدير حلبة السيرك، يسّرح يديه صاعداً عبر هالته المجعدة اللامعة من اللحية والشعر.

«آه، ثمة ميزة الوضع الغريب لتولا تولا ـ بالرغم من أنه اسمياً من قبيلة مسو، يبدو أنه فعلاً ينحدر من الكونغو... أحد ما نبش ذلك. من الواضح أنه ليس اسماً من أسماء مسو... أليس كذلك يا جيمس؟ تولا تولا».

«ربما لا؛ أنتم ليس لديكم تكرار المقطعين...»

«لذلك حتى بالرغم من أنه قد حصل على مقعد للمسو، فيوجد بعض». ـ دوّر يده يميناً ويساراً، الأصابع مفروشة على شكل مروحي بصلابة. ـ «الغموض حول القضية بكاملها. لكن مويتا سيكون عليه أن يضع واحداً من آل مسو في مكانه، تلك هي العقبة الخفية. ظاهرياً: آل مسو سوف يطلبون مسوماني. أو بالأحرى: مسوماني يريد أن يتأكد من أنه هو الرجل. إنه يجن جنوناً شديداً ليتخلص من حزب العمال، وهو بالكاد ما يثير المفاجأة».

قال براي: «نيل، هل كنت ستقول إن مسوماني كان أحد الذين يدفعون مويتا؟».

ـ «هذا يتوقف على أي اتجاه. إنها دائماً مسألة تتطلب براعة لتبقي فصيل مسو سعيداً. دون أن تصنع منهم أكثر مما ينبغي».

«لا أقصد ذلك. فهل كان له نفوذ كاف لدى مويتا ليجعله يوافق على أن تقوم الشركة بتشكيل جيش خاص؟».

«هل تلك القصة صحيحة؟»

قالت مارغوت: «يجب إخبار هجالمار عشرين مرة إذا كان لا يريد تصديق ذلك».

«سيكون عليك أن تدهسه بدبابة أولاً».

«مصدر معلوماتي لم يذكر سوى السيارات المصفحة».

تدخل براي بخفة ليحمي هجالمار المسكين. وصوت ڤيڤيان الآمر الذي طبع أصلها بشكل لا يمكن إنكاره مثل أي وحمة أميرية على مؤخرة لقيط: «هجالمار، أنا مثلك تماماً. ما كنت لأصدق ذلك لو لم تخبرني إحدى أمهات الشركة اللواتي يرعين الأطفال في مدرسة إليز: كم زاد شعورها بالأمان الآن. أخبرتها كم قلَّ شعوري بالأمان».

Twitter: @alqareah

كان نيل لا يزال يتمسك بالأرضية. «سايبرمان كنت هو المرجح أكثر لأن يكون الشخص الذي قام بالدفع؟ وحتى غوكا، ربما. إذا أعطى وزارتي الداخلية والدفاع لك، فمن الصعب ألا تأخذهما».

«ولا أحد طرح أي سؤال في المجلس».

«لقد تم ذلك بشكل متكتم للغاية... أول ما سمعه أي شخص عندما ظهر هؤلاء الرجال على نحو غير متوقع الشهر الماضي في منجم نغويشي - كان التقرير هو أن تعزيزات «البوليس» قد جاءت من هناك. ثم تسرب خبر مفاده أنهم نوع جديد من البوليس... لكن عندما ينعقد المجلس مرة أخرى» عاد ذهنه إلى «القلق» حول مويتا الذي بدأ به قبلئذٍ بالطبع، إن ذلك يبدو مشوّوماً للغاية. أنا لا أشك في أنه حازم بما يكفي لإبقائه تحت السيطرة. لكنه سيكون من الأفضل إبقاء الشركة في الخلفية. كان من الممكن تسميتهم قوة الاحتياطيين المدنيين، شيء ما كهذا. لقد تلقى نصيحة سيئة بترك اسم الشركة يدخل بشكل مفضوح. أنا ما كنت لأوافق على أنه لا ينبغي أن يستعمل موارد الشركة إذا احتاجها، قد يتعين على المرء أن يستخدم الموارد القائمة».

- «لا يفيدني التحدث حول الشركة كما لو كانت ظاهرة طبيعية» قالت ڤيڤيان «إنها لا تزال تبدو مثل الأيام القديمة التي قرأنا عنها في زامبيا وروديسيا، الحكم مع التنظيم البوليسي المقونن القديم للمكان كرمى الملكية البيضاء العظيمة... فأي نوع من السفاحين سوف تجند الشركة، بأي حال؟ إنه شيء مخيف. كل أولئك المرتزقة من الكونغو يجولون في أفريقيا بحثاً عن عمل...».

صرفها نيل: «أنا أفهم أنها قضية سوداء، وليست أساساً قضية البيض».

«ومدراء الشركة هل يديرون جيشاً؟».

«هل تعتقد ذلك؟» ضحكت ڤيڤيان عليه.

«حسناً أعتقد أنهم استعاروا عدداً قليلاً من الأشخاص من جورج غوكا. بأي حال، أنت تبالغين كالعادة».

عينا ڤيڤيان الزرقاوان المبقعتان زانتا الرجلين في تحدٍ متشكك، مستفهمة.

«أخبري ريبيكا أنني احتفظ بحقيبة مرزومة... أنا مسرور للغاية أن غوردون قد اختفى مرة أخرى، فالجميع دائماً أكثر رضا بكثير من دونه».

«ربما كانت ريبيكا قد جعلت منها صديقة مؤتمنة على الأسرار، فبراي لم يكن يعرف. لكنها كانت تتكلم بسهولة، رابطة إياه بشكل طبيعي بـ ريبيكا كصديقة

Twitter: @alqareah

تعيش في المكان نفسه؛ فربما كان ذلك ـ كما هي ڤيڤيان ـ طريقة لتظهر له قبولها بعلاقته ونيتها الهادئة والقادرة في حماية ريبيكا وحمايته من الآخرين».

قالت: «أوه لم يكن يبدو على الأولاد أنهم يفكرون هكذا. كانوا يحبون أن يكون حولهم».

«نعم، بالضبط، غوردون يثير التوقعات وهذا دائماً مثير. يجعل الناس يشعرون أن كل أصناف الأشياء تسير نحو التغيير، لكنه إذا بقي، فإنها لن تتغير. لذلك من الأفضل دائماً بالنسبة له أن ينتقل، أنت تعرفين. الآن سيرونه في العطل المدرسية، وسيكون ذلك مسلياً لهم بدون أن يستمر طويلاً بما يكفي لإحداث أي ضرر، على ريبيكا ألا تقلق بشأنهم. لقد تدبرت أمرها بشكل جيد تماماً. ينبغي عليَّ حقاً أن أرسل صغارنا إلى أمي أو إلى مكان ما لفترة، فقد كانوا برفقتي أكثر مما ينبغي. نيل يعارض ذلك لسبب أو لآخر».

كان يعرف أنها لا تصدق ذلك؛ كانت تثبت برفقته الوضع العادي لريبيكا. لكن زوجها قال متباهياً، «أنا هنا، يا فتاتي، لا أحفر سداً لعيناً لأجل فورستر وكايتانو في كابوراباسا».

دخل راس آساهي وإيمانويل فجأة مع عدد قليل من أتباع راس. كان أحدهم محاضراً في الجامعة، شاباً أسود التقط طرفاً قرمزياً من اللسان بين أسنانه الكاملة متسلياً كما نيل، أمين سجله كان يحاكي الهيئة التدريسية في اجتماع أخير ساحباً إياه إلى الامتياز المهني في مؤسستهما. لقد بدأ التجمع يغير صفته، مع مزيد من المشروبات والثرثرة المفككة. المواضيع التي كانوا يتكلمون حولها قد أهملت، سواء كان ذلك مسألة مزاج، أو لأنه لم يكن ممكناً، مرة أخرى الآن، بالنسبة للسود والبيض أن يتحدثوا بطريقة عامة حول هذه الأشياء، بدون أن يبدو أنهم ينتزعون من السود الولاءات السرية التي قد تكون خطيرة بالنسبة لهم. كان ذلك كما كان من قبل ـ قبل الاستقلال، عند ضيافة الحاكم في معسكرات الاحتجاز والسجون المنتظرة في الطرف الآخر من الصراحة ـ طيشاً. كانت السهولة في الوسط ـ سهولة الأشهر القليلة الماضية ـ تعود إلى زمن كان الناس فيه من أوربا لاهم في موقف السلطة لصالحهم، ولاهم في وضع يمتلك فيه الأفارقة شيئاً ما ليخافوا من بعضهم. شعر بموجة من نفاد الصبر من العاصمة. حينما كان يشرب ويستسلم لـ مزاج أنه من «الرائع» أن يكون بين هؤلاء الأصدقاء مجدداً، أراد أن يكون خارجاً، يسوق سيارته وحيداً خلال الليل إلى البيت في غالا.

Twitter: @alqareah

قبل أن يغادر اتصل هاتفياً بريبيكا في البوما وأخبرها أن ترسل له رسالة تمنحه فيها تفويضها القانوني، بدت مؤدبة على الطرف الآخر من خط رديء، كما يفعل الناس غالباً في الإلحاح، هيّأ نفسه لأن يستبقى أياماً قليلة، يقيم في بيت رولي. ولكن لا بد أنها قد قامت ببعض الترتيبات لكي تأتي الرسالة بالبريد الجوي في حقيبة الحكومة. ـ أمل ألا تكون قد ناقشت المحتويات مع أليكي ـ لأنها سُلمت إليه في بيت رولي بشكل عاجل جداً من قبل مراسل الحكومة. مطوية كتعقيب حول الرسالة الرسمية التي كان قد أملى كلماتها، كانت نصف ورقة من ورق النسخ الأخضر مع كلمة سر غبية للتحبب مخربشة عليها؛ علامة تعجب. كانت كاتبة رسائل خرقاء؛ فالأشياء التي تلقاها منها ذكرته برسائل أخواته من المدرسة. أحرق نصف الورقة بحذر وابتسم مدركاً أن الوثيقة الأخرى هي من النوع الذي من الأفضل حرقه، أيضاً.

لكنه أخذها إلى المصرف وسحب النقود من مبيع البيت الذي بناه أهل ريبيكا لأجلها عندما تزوجت من غوردون، الرجل الذي كان الجميع أكثر رضاً من دونه.

كان نصف المبلغ يعادل المقدار الأعظمي التي كانت تسمح أنظمة التحكم بالصرف بإخراجه من البلد، ومن قبل أشخاص يغادرون بشكل دائم فقط. في محادثات مائدة الأفطار مع رولي حول القطع الأجنبي، استُدرج رولي بسهولة إلى الحديث عن المسؤولين الذين لا يبدو أنهم قادرون على منع الأموال من الخروج من البلد بشكل غير قانوني، كهذه الحالة تماماً. قال إنه من المعروف جيداً كم تجري هذه الأمور؛ فقد كان ثمة جماعة واحدة، رجل أبيض جنوب أفريقي وزوجان كونغوليان، لهم عملاء في العاصمة، ويقومون ببساطة بتهريب الأموال النقدية إلى لومومباشي ومن ثم إلى حيث يريدها الزبون، وكان ثمة هندي معين في أولدتاون. كان معروفاً عنه أنه يمتلك طرق ووسائل أكثر موثوقية ـ ذو صلة بالناس الذين استلموا الكاراج منذ أن توفي هفاجي العجوز. كيف يتم ذلك؟ حسناً، بدلات السفر لأجل شيء واحد؛ الطلاب الفقراء الذين يخرجون في منح دراسية للدراسة في الخارج، كان يسمح لهم ببدل أعظمي يفيض بشكل ثابت عن النقود التي بحوزتهم، لذلك كان يدفع لهم نسبة مئوية صغيرة لإخراج أموال شخص آخر بوصفها أموالهم هم. إنهم رجال الأعمال، زوجات موظفي الشركة البيض الذاهبات إلى «الوطن» في إجازة، المسلمون الذاهبون إلى الحج في مكة، وكثير من الناس الذين لا يخطرون بالبال».

Twitter: @alqareah

فكر أنه قد يتبين ببساطة أن الكونغوليين أصدقاء غوردون. لم يكن صعباً جداً، من خلال التحقيق العرضي في الكاراج، اكتشاف أين يذهبون في الأولد تاون. مرة أخرى هو مع الشمس على رأسه والهدف وراءه على ظهره، وطيء فوق أرض يباب. لو عرف الجنتلمان الكهل الذي يرتدي طربوشاً من صوف الخروف فارسياً رمادياً من هو، لما أبدى أي أندهاش؛ وربما كف طويلاً عن التفاجؤ من الناس الذين يتعرف عليهم. كان ذلك كله محسوماً بشكل مرض. اسم ريبيكا لن يظهر أبداً، في الحقيقة أن الجنتلمان الكهل لن يعرفه أبداً. المال، حوالي أربعة آلاف جنيه بالعملة الانكليزية، ضعفا ذاك الرقم بالعملة المحلية، سوف يصبح فرنكات سويسرية في حساب ذي رقم. في الوقت المناسب سيُودع توقيع ريبيكا لدى المصرف السويسري بوصفه التوقيع الوحيد المطلوب للسحب على ذلك الحساب. شرح أن التأجيلات في تحويل المال ـ التحويل التدريجي، على سبيل المثال ـ لن تحصل! هذا أيضاً، كان مقبولاً بوصفه مسألة ممارسة روتينية: عندئذ ستكون نسبة العمولة أعلى، بالطبع. المال سيُودع خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع كحد أقصى.

بعد إنجاز ذلك مشى عائداً إلى الفناء الفارغ حيث كان الأولاد الأفارقة والهنود يلعبون معاً بحلقات مصنوعة من الشرائط الصفيحية لصناديق التغليف. لأول مرة استطاع أن يتذكر، الفولكس فاكن، امتنعت عن الإقلاع، فقاموا باللعبة الجديدة لمساعدته في دفعها بحيث يتمكن من الاستفادة من منحدر هابط. عندما انطلق وانعطف إلى الشارع حياه شاب يرتدي القميص الأبيض لموظف عادي ونظارات شمسية. لم يشعر بالقلق لكونه قد شوهد، فمثل هذا القلق لم يكن له أساس بالنسبة له لأنه لم يبدُ أنه يمكن أن ينطبق عليه، أن تكون له صلة بأسلوبه في الحياة. شعر بالسلام المبتذل لكونه على مستوى واحد من الوجود وحده، لمرة واحدة: كان عقله مشغولاً بكامله بمسائل عملية يتعين أن يتخلص منها واحدة تلو الأخرى من خلال سلسلة من الأفعال قبل أن يكون بمقدوره أن ينأى. كان لديه موعد مع طبيب الأسنان، وعليه أن يجمع الأحذية التي جُددت نعالها وأن يقدم النبيذ كهدية لأجل مضيفه.

في طريق العودة إلى بيت داندو ليأخذ أغراضه، استوقفه مرور السيارة الرئاسية، كما حصل معه مرة من قبل. كان المواكبون على دراجاتهم النارية ينطلقون أمامها وخلفها. كانت السيارة محمولة على الحشد المندفع الغاضب لضجيجهم.

Twitter: @alqareah

لم ير سوى البروفيل الأسود لوجه مويتا يندفع مبتعداً عن بؤرة نظره. في المرة التالية، المرة التالية التي التقيا فيها ـ كان من الصعب التحقق. كان ذلك قد انتهى هكذا هذه المرة. لكن الشؤون الإنسانية لم تصل إلى خواتيم محسومة، يُرسم خط ومجموع يُضاف، لقد بدا أنهما ينحلان، يتلاشيان، في حين أنهما يعيدان التشكل فحسب، يندمجان في تركيبة أخرى. حتى عندما نكون موتى، فإن ما فعلناه يستمر في صنع هذه التركيبات الجديدة (رأى سحباً، رأى جزيئات)؛ هذا يصح على التاريخ السري مثلما يصح على النوع الآخر. في المرة التالية التي نلتقي فيها ـ نعم، مويتا قد يكون عليه حتى أن يرحّلني. حتى ذلك سيكون شكلاً من اللقاء.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الجزء الخامس

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

(18)

سيارتها مركونة خارج آل بيت تلومي، كاليمو يغتسل على الأغصان. التينة، مثل الأشجار فوق الشارع الرئيسي، ترزح تحت غطاء من الغبار المصقول، نوعية الصمت الذي لاقاه في غرفة نومه ذات الستائر الرقيقة اللماعة وفي غرفة المعيشة الرثة - مشى من خلال الغرف بيدين مطبقتين، فجأة، كل شيء هنا؛ ليس ذاكرة، إنه حياة، الآن. لقد دخل فيه، واستحوذه. غمره ترحيب كاليمو مثل تعبير عن فرحه الخاص.

وفي الحال جاءت، سمعها وهي تخطو صاعدة درج الشرفة وصرير الباب الشبكي الذي مررها. كان مطمئناً بأنها في خلال ثوان قليلة ستكون واقفة هناك في الغرفة، حية. هناك كانت، بذاتها. الذات التي لم يُكن بالإمكان استيعابها حتى بالجهد الأكثر إجهاداً للعقل والحواس، التذكر الأكثر دقة، أبداً، أبداً، الذات التي لم يكن ليُستمتع بها إلا عندما تكون هناك: في اللحظة التي عانقها فيها (الإرباك الطفيف من إنكار أن ذلك يحدث، مذاقُ غور فمها يعود إليه، الإحساس باللحم على ظهرها بين أصابعه المفروشة) فإن الإحساس بتلك الذات قد اخترقه وتلاشى، شفافية، إلى حميمية. أرادت أن تسمع «كل القصص» بالاشتياق اللاهي لواحدة كانت راضية، تنتظر في الخلف - لم تكن قد حسدته على العاصمة أو على رفقة أصدقائها القدامى. تناولا وجبتهما الأولى: نعم، تلك بالضبط الكيفية التي كانت بها، طريقتها في تأمله من تحت جفنين مسدلين، ما ينبغي عليها أن تعين نفسها على فعله تالياً. بقي ساكناً لينظر إليها وهي، من حين لآخر، تمد يدها إلى يده وتفتلها بهذا الاتجاه أو ذاك، وهي تعصر العظام.

«تلقيت المكالمة الهاتفية بهدوء شديد».

Twitter: @alqareah

كانت بالكاد متوقعة. قالت بفضول متردد:

«أنت نفسك كنت هادئاً جداً».

«ألا تريدين أن تعرفي لماذا طلبت الرسالة؟ ألست مهتمة بما فعلته بها؟ ريبيكا، لقد سحبت نقودك من المصرف».

فتشته من قبيل النكتة «لا، حقاً».

«لقد فعلت. نقود البيت. لقد حولتها بعيداً. ستكون هناك لأجلك في سويسرا كلما كنت بحاجة إليها. يمكن لأحد آخر أن يلمسها، لا أحد سيجمد الحساب. يمكنك استخدامه أينما كنت».

أصبحت في الحال متوترة ويائسة، تعبيرٌ سطّح ووسّع وجهها عبر عظام الخدين.

- «لماذا؟ أنا لست هاربة».

«يجب أن تكوني بأمان. أنت وأولادك. الآن أشعر بالرضا لأنكم في أمان».

«فهمت».

«لا تفهمين... لا تفهمين...».

نهض عن الطاولة وأقبل إليها، ضمها بخراقة إلى جانبه. أبعد ذراعيها عن وجهها، كان وجهها مثاراً، أحمر. كان وريد مثل خيط ينزل إلى أسفل جبهتها. ظن أنها ستبكي، عذبها، داعبها.

«أنت فتاة أمينة جداً، كان بإمكاني أن أهرب بكل أموالك. لقد قمت بالتسليم بلا تذمر».

ربّعت فكها إلى الوراء على خلفية عنقها المتلىء اللين لأجل ضبط النفس.

«المشكلة هي أنك لا تحاول أبداً أن تخدعني. أنا أعرف ماذا ستفعل وما لم تكن لتفعله. لم يكن بإمكاني أن أغير ذلك».

«على الأقل آمل أن تكون النقود في مصرف سويسري، سنعرف في خلال أسبوع أو أسبوعين ما إذا كان ذلك حقاً أو ما إذا كنت حماراً مغفلاً أضاع ذلك عليك».

فيما بين «القصتين»، جاءت أخبار الأصدقاء غير الهامة، تحدث قليلاً عن المؤتمر: لكنه كان هائلاً في ذهنه؛ لم يكن بالإمكان معاملته بشكل حكائي ولا كوصف لأحداث، ولا حتى كشرح. لقد تفرع على مدى أيام إلى مكونات هي الأكثر مغزى له، وهذه المكونات أخذت أشكالها الخاصة من التعبير ووجدت أوقاتها الخاصة للظهور.

Twitter: @alqareah

قالت في تلك الليلة: «ما فعلته أنت ـ النقود من ثمن البيت ـ غير مسموحٍ به، أليس كذلك؟».

قد غط في النوم ثانية فأعاده صوتها إلى الصحو.

«لا، إنه غير قانوني».

وجد أن يده قد أفلتت، رخوة عن نهدها؛ ففي النوم ترجع إلى ذاتك، ما حلمت بأنك قد أمسكت به سريعاً لم يكن شيئاً، فتحة على وجه رجل ميت.

قالت: «إنه لصالح غوردون. وإذا اكتشفوا ذلك؟».

ـ «ما تبقى من المستوطنين الذين رحّلوني سوف يقولون إنهم كانوا يعرفون أي صنف كنت أنا».

ـ «ومويتا؟».

كانت حلمتها رخوة بسبب النوم، أيضاً. استطاعت يده بالكاد أن تتبين الفرق في النسيج بين تلك المنطقة والسطح الآخر للثدي؛ بعج الهالة اللينة بسبابته إلى أن ارتدت. تزحزحت بلطف احتجاجاً على هذا الانهماك، وتملصاً. فجأة كان في قمة استيقاظه وتركتها يده وغابت في العتمة تتحسس بحثاً عن سيجارة على كرسي الكونغو ذي الساق الواحدة التي كانت طاولة سريره. دخّن وبدأ يتحدث عن يوم السجال حول الأمين العام للاتحاد، أخبرها كيف أنه نزل إلى موقف السيارات لإقناع سمستو بتأييد شينزا.

«هل كنت تعرف سمستو من قبل؟».

«أوه، نعمٍ، صديق قديم. تلك هي الكيفية التي استطعت بها أن أفعل ذلك. لقد عرفته طويلاً كما عرفت مويتا وشينزا».

ـ «ومويتا؟» قالت مرة أخرى، أخيراً.

«كانت لدي كل النية لإخباره. كان يعرف بأي حال ما هو رأيي حول الأمين العام، لذلك لا أعتقد أن ذلك سيكون فيه الكثير من المفاجأة... ولكن بدا لي رغم كل شيء أنه شأني الخاص...».

«ماذا تقصد؟ أنت فعلت ذلك لأجل شينزا».

«لأجل نفسي، لقد بدأت أفكر. شينزا يحاول أن يفعل ما أعتقد بأنه يجب القيام به هنا».

قالت: «أخشى أن تدخل في ورطة، يا براي».

Twitter: @alqareah

«أنت التي قلت لي ذات مرة إن اللعب بأمان مستحيل، على المرء لكي يعيش أن يتابع ويفعل الشيء التالي. أنت افترضت مفارقة أن اللعب بأمان هو خطير. كان شيئاً مؤثراً جداً. جداً».

«لم أكن أعرفك آنئذ...».

كانت دائماً تتجنب كلمة «حب»، مثل تلميذ يعتبر ذلك مخيفاً، بوصفه شيئاً يُسمع وسط السخريات.

قالت: «سيظن أنك تصطف مع شينزا»، خارج صمتها: «أليس كذلك؟».

«ما الذي سيفعله حيال ذلك؟».

- «لا أظن أن بالإمكان اعتباري بمثابة معارض خطير جداً. مويتا هو الرئيس، يستطيع دائماً التخلص مني».

«هذا ما أقصده، قد لا تكون خطيراً، لكن مشاعره سوف تُجرح... وهذا هو الخطير».

«عندئذ سيكون بدوره قادراً على أن يقول إنه قد لفظني لأنني كنت أهرب العملة».

جلست منتصبة في السرير الضيق. في الظلام رأى الظلام الأشد لشعرها الأسود النازل إلى كتفيها الآن.

«ها أنت ترى! أتمنى لو أنك لم تفعل ذلك. إنه على خير ما يرام بالنسبة لشخص مثل غوردون...».

«عزيزتي... إنها مجرد نكتة! لا شيء سيحدث».

أنزلها، أفسح مكاناً لها مرة أخرى، أخبرها كل الأشياء التي لا أحد منهما، لأسباب مختلفة، كان يصدقها، لكنهما تقبلاها كهدهدة قبل النوم.

«كان بإمكاني أن أرى من الطريقة التي يدار بها، أنه مأمون تماماً... الجميع يعتبرون قوانين العملة، مثل قوانين ضريبة الدخل، لعبة مشروعة».

«أنت لست الجميع».

تغلبت عليهما الطمأنينة لكونهما (بمعنى حالة من الكينونة) قريبين جداً إلى بعضهما، شيء ما مثالي وغير معقول، انتقالي بشكل متشائم في أمنه المطلق.

تصرف أليك، ليوفر على نفسه إزعاج تقرير كيفية التعامل مع أي وضع آخر، كما لو كان الجميع بالطبع - بمن فيهم براي - راضين برؤية شينزا يوضع في مكانه. طرح أسئلة حول «الألعاب النارية» بالتكشيرة المألوفة لرجل يتوقع من

Twitter: @alqareah

الصبيان أن يكونوا صبياناً ومن السياسيين أن يكونوا سياسيين. عندما أرسل أحد أولاده جرياً لإحضار البيرة الباردة وتصارع بحنان مع آخر تسلق بإلحاح من فوق ظهر كرسيه على رأسه، ظل يحض:

«لقد تركوه ينالها، لا بأس... ألم ينج بفعلته؟».

كان براي يقدم وصفاً واقعياً لبعض السجالات الرئيسية، ملخصاً الحجج المختلفة والنقاط التي برزت . قال: عندما وصلت البيرة وكانوا يشربون «كلبيتك تذهلني، يا أليك».

«حسناً، تلك هي المرة الأولى التي أدعى فيها كذلك».

«بالضبط. هذا هو سبب دهشتي. أنت لا يبدو أنك مهتم على الإطلاق بالقضايا... قد تكون غير موجودة أيضاً... إنك ترى ذلك بمثابة سباق. إنها ليست ملموسة لك، لماذا؟».

لو كان من الممكن بالنسبة لشخص يمتلك ثقة أليك بنفسه أن يُحرج، فقد كان هو كذلك ـ لقد فهم بسرعة أن قبول التهمة سوف ينتقص من ذكائه، نظراً لأنه كان قبلئذ قد دحض الكلبية كتفسير، لكن الإنكار سوف يجلب ضرورة مناقشة القضايا نفسها والتغلب على نفور، نصف كسل، نصف خشية، ليجد نفسه وبراي في حالة خلاف. ابتسم.

«... هذا الكثير من الكلام. فقط عندما يصل إلى الانشغال بالإدارة تتمكن من فهم كيف ستتحقق الأمور فعلاً. ألم تجد ذلك دائماً؟ تتخذ قراراً ما بأن تختار كل البقرات ذات القرن الأيسر المعقوف، لأن ذلك من شأنه أن يحسن الماشية بطريقة اكتشفها المخططون في الدائرة البيطرية، لكن النتيجة هي أن بعض الناس لن يدفعوا الضرائب لأنه يتبين أنه في منطقة الزعيم الفلاني، كل البقرات صار لها قرون يسرى لولبية لعينة...».

لكن الخطوة الجانبية في حد ذاتها، كما رأى براي، هي الاعتراف به بوصفه معارضاً.

«بأي حال، ربما سننعم ببعض السلام والهدوء الآن».

قال أليك بدماثة، ليدخل زوجته في الحديث عندما ظهرت وهي تهز علبة من الفول السوداني على صحن قهوة.

«إذاً لتأخذ أسبوعاً، أرجوك، دعنا نأخذ عطلة».

Twitter: @alqareah

«أنا لم أقل شيئاً حول العطلة ـ سوى أن ادواردو شينزا سيكون خارج الطريق، هذا هو كل ما في الأمر ـ لقد أخبرتك، بإمكانك أن تذهبي إلى أمك إذا شئت، سأنضم إلى جيمس بصفتي عازباً.. مرة أخرى».

«آمل فقط أن يبقى خارج الطريق، إذاً. أنا لا أحب هذه الجولات الليلية إلى منجم الحديد ولكنه يعلم إلى أين في الأدغال وأنا وحدي هنا مع الأولاد».

التفتت بأسلوبها المتجهم قليلاً والمغناج إلى براي:

«أنا فزعة».

«لقد سمعت الشكوى نفسها من شابة عندما كنت في المؤتمر. سوى أنها خائفة من الجيش الخاص للشركة. تخشى أن يكونوا قد جندوا شرام ومرتزقته العاطلين عن العمل».

«أوه المدينة. ما الذي يخيف في المدينة. إنها ليست مثل هنا مع ناس الأدغال من معامل الكلس الذين يهتفون في الشوارع، يا ريبيكا المسكينة، تتذكرين في السيارة في ذلك الوقت».

ـ «نعم، نعم. لكن شينزا عاد الآن إلى سهل الباشي وذيله بين ساقيه، مؤتمر الحزب انتهى، وكل ذلك الهراء سيتوقف».

«لست كلبياً فحسب، بل إنك متفائل جداً، يا أليك».

كرمى لآغنس أليك، غيّر الموضوع. «هل رأيت آل ماليمبا منذ أن عادوا؟ كان سامبسون ناجحاً بقراره بشأن النادي، لم تكن لدي أدنى فكرة عن كونه حتى يفكر بذلك».

ـ «ماليمبا؟ حقاً؟» تمتم أليك لاهياً، ومرة قال عندما تجرع بيرته وحدق حوله مع الانتقاد المتأمل المهموم لرجل أكثر انشغالاً من أن يفعل ما يشعر بأن عليه فعله.

«آغنس، إما أن تثبتي في ذاك المكان كما قلت وإما أن تخليه لأجل الحطب».

نظرت زوجته وبراي إلى فوق بشكل غير مفهوم للحظة، ورأيا أنه يقصد البيت الصيفي العتيق في الحديقة، قالت، لمصلحة براي، «أوه، لا، لن نهدمه. أريد أن أجعله ظريفاً مرة أخرى».

كانت أوليفيا قد بنته، أو بالأحرى بناه لها السجناء الذين يأتون تحت الحراسة ليشيدوا جدران الطين والوتل ويربطوا القش (الشاي والخبز كانا يرسلان إليهم من مطبخ المجلس). كان لأجل الأولاد، الفتيات الصغيرات، اللابسات ثياب أمهاتهن ويلعبن هناك مع ناظرتهن الانكليزية، تلك الفتاة ذات الربلتين المنمشتين الضخمتين

Twitter: @alqareah

اللامعتين بالشعر البني والتي كانت (كما قالت أوليفيا) مغرمة به. لكنه بالنسبة له كان الآن بيت أليك؛ عندما مشى صاعداً مروحة درج الشرفة المنحدر غير المتساوي أو عندما دخل الغرفة، تذكر بالكاد أنه قد سكن هناك.

بالكاد مر شهر بسلام على مويتا. لو ظن أن المتمردين في النقابات قد عولجوا في المؤتمر، فإن العمال الأكثر حظوة الذين لم يشتركوا معهم بالقضية، لم يتلقوا تأديباً كهذا. لقد بدأ العمال «الموالون» بتجديد مطالب الأجور من أجل المساواة مع عمال المناجم البيض المغتربين التي رفضها بحجة «اليد الفارغة» الشهيرة من قبل. في الوقت الحالي، ظل خارج النزاع علناً، في حين تدخل نديسي شونونغوا أولاً - «رجله القادم» - ثم سكرتير وزير العمل، وأخيراً تاليسمان غونزي، وزير المناجم نفسه؛ كانت تصل صحيفة البارحة إلى مكتبي براي وأليك كل صباح مع التقرير اليومي للاجتماعات والمحادثات التي «لم تكشف» نتيجتها - الفشل. علق أليك، «ينبغي على مويتا أن يخبرهم إلى أين يفرون - إنه الوحيد الذي يصغون إليه».

براي لم يقل شيئاً، فهو بالكاد يمكنه أن يثبت ضرورة أن يفعل ذلك، الآن.

«هذا هو السبب الذي جلب غونزي لأجله».

لكن ذلك كان قاسياً، بالنسبة للناس الذين حُكم عليهم من قبل سلطة لا وجه لها عبر البحار بألا يروا الهيبة حصراً في وجه فرد من بينهم أنفسهم، الفرد الذي تولى السلطة باسمهم. «الحكومة» كانت لزمن طويل القوة المجردة؛ «القائد» رجل من لحمهم ودمهم.

تساءل ما إذا كانت ربما بالنسبة - لشينزا - إحدى تلك الهدوءات المؤقتة الغريبة ستحدث الآن؛ إحدى تلك الانكسارات العصية على التفسير ظاهرياً في الحياة السياسية الأفريقية عندما يرحل شخص تماماً، عندما يبدو أنه على وشك أن يطبق سيطرته. تأمل (بضيق شديد) شينزا وهو يتلاشى في ثغرة ذاك الكوخ الذي تصدر عنه رائحة دخان الحطب، وطفلاً مشاكساً، يتحدث، يدخن، في حين أن جسداً عجوزاً كان ينام في حزمة من الأسمال في الخارج في الجناح ينتظر الموت كما انتظر شينزا - من أجل ماذا، إشارة أو توقيت، براي لم يكن يعرفهما. لكن شينزا أرسل في طلبه لكي يأتي إلى مزرعة خيول بوكسر. كانا قد أمضيا النهار عند البحيرة، على جزيرتهما - هو والفتاة. كان الجو حاراً جداً، وكانت مموهة الألوان من الشمس؛ خطوط من اللون القرمزي أسفل قصبتها وربلتيها، مروراً بالأنف، وعظام الخدين وحول الجبهة العالية.

Twitter: @alqareah

«آمل ألا تكون مريضاً بسبب ضربة حر»؛ لكنها قبلته بشفتين منتفختين ملتهبتين توحيان بأنها جاهزة للمضاجعة. كانا كلاهما منهكين وهذا بدا أنه يضع حداً دقيقاً من الوهن على أعصابهما؛ فمنذ أن عاد كان الإلحاح بينهما مضطرداً ـ في بعض الأحيان كان عليه أن يمسك يدها وأن يضغطها على عضوه.

تحت الدوش العتيق الصديء قالت بين اللهاثات والجرعات «لقد نسيت أن أخبرك ـ بوكسر العجوز ظهر عندما كنت مسافراً بعيداً. جاء للبحث عنك في البوما».

«ابق أطول قليلاً، فربما لديك حرارة طفيفة».

كان شعرها يسيل جداول فوق وجهها، ضغطت فخذيها إلى بعضهما ووقفت وقفة الحمامة في الماء البارد. صاحت:

«لن يكون في مزرعة الخيول».

«كيف عرفت؟».

كان شيئاً جيداً أن عينيها مغمضتان؛ فالدوش تجشأ حشرة ميتة ذات شعرات طويلة من السيقان المبللة فرماها عن بطنها دون أن تلاحظ هي ذلك.

«أوه كيف أمكنني أن أنسى ـ دعني أخبرك فحسب..».

خطت خارج الدوش مغمضة العينين على الحصيرة الندية وتحسست بيدها لإغلاق الحنفية، مجبرة إياه على الخروج من الحمام أيضاً.

«هذا علاج مائي كافٍ الآن، يا براي. ـ لأنه كان في انكلترا. لقد عاد إلى انكلترا. توفيت زوجته، لذلك فقد عاد الآن إلى انكلترا!». بدءا يقهقهان.

«حسناً، ما هو المضحك إلى هذه الدرجة؟ قلت لك، زوجته توفيت!».

لكنهما ضحكا أكثر من قبل.

«هل سيعود؟ هل قال لأجل الخير؟» «بالطبع لا. إنه عائد. لقد ذهب فحسب لأنها توفيت... ليرى إن كانت حقاً، أعتقد... لا أدري...».

همَّ بتقبيلها على جفنيها المسفوعين بالشمس، عنقها، لكنها فجأة قاومت بنوع من الإحراج حينما ضحكت. بتلك الطريقة تماماً التي كان ابنها، الصغير، يمسك بها وجهه، ضاحكاً أو باكياً، ويرفس لكي يتحرر منها أحياناً عندما تلتقطه. صارعها براي لكن عينيها انفتحتا ورأى ـ اتهاماً، اشتراكاً في الجريمة، زوجته غائبة، زوجة ميتة.

«هلمي، جففي نفسك، سأضع بعض الكريم على كتفيك».

ومضيا إلى المهمة الصغيرة بهدوء وبشكل هادف.

Twitter: @alqareah

في الصباح أسندت وجهها على ظهره فيما كان يحلق ذقنه، ذراعاها المرتخيان من النوم حول وسطه، مشوشة بشكل مبهج للغاية، انقشع بضربات موسى الحلاقة وجه رجل الثلج في المرآة، فأفلتته لتقابله وهو يتحدث إلى نفسه، في حين كانا يثرثران حول العاصمة. حكى لها كيف أن ڤيڤيان قالت إنه من المدهش أن واحدة منهن لم تتخذ شينزا عشيقاً.

«هل هذا ما قالته..أقصد» تتخذ «هذه هي نتيجة تربيتها، تظهر ڤيڤيان العجوز العزيزة، عندما يصل الأمر إلى أشياء كهذه فهي تعتقد أنها قد عادت في إحدى قصص جدتها ـ أو ربما جدة جدتها وهي سوف ترسو على هذا الرجل أو ذاك. لا بأس بما كان يظنه حول ذلك».

«هل أخبرت ڤيڤيان؟».

شعر أن طرفاً رطباً يرسم خطاً صاعداً إلى أخدود عموده الفقري: إنه لسانها.
«ليس بشكل مباشر، ولكن عندما أكتب بالطبع دائماً»:

«لقد فعلنا هذا، فعلنا ذاك».

«لأنني تولد لدي الانطباع بأنها تعرف عنا».

«هي دائماً تعرف عن هذه الأشياء، ڤيڤيان. هي تعرف لكنها لا تتحدث أبداً». ـ بالطبع كانت ڤيڤيان كتومة من قبل؛ ربما حتى عندما كان الأمر يتعلق بزوجها وصديقتها، «وهي لا تخطىء في حكمها على الناس أبداً» كان الفم خلفه يقول.

أراد أن يقول: «إنها لا تحب غوردون»، لكن عينيه نصف المغمضتين وهما توجهان حلاقة عنقه في المرآة، جعلتاه خجلاً من ذلك على نحو مسل.

بلا نظارات، مع الدم المسحوب طرياً إلى سطح البشرة، كان الرجل الأكثر فتوة، الذي يعتبره كل رجل لسبب غير مقنع جداً بمثابة ذاته المكتملة، شبه حاضر في لحم الوجه الثقيل المسحوج بقوة، الذي يعتقد أنه يمثله.

رأى ذاك الوجه باتزان هادىء، وهو يشعر بها على ظهره.

عندما غادرت إلى البوما وعد بأن يحاول العودة في تلك الليلة ذاتها: أطلق ابتسامة لطيفة، مطمئنة ليعيد تأكيد منظور بعينه:

ـ «وسأتبين ما إذا كانت المدام بوكسر ميتة أم أنها تتظاهر بالموت فحسب»، لكنها شغلت نفسها بكعب حذائها التي قالت إنه مفكوك، واندفعت عائدة إلى البيت لتستبدله بزوج من الصنادل الحمراء. الأحذية الحمراء التي كانت أوريان دو غرمانت قد شغلت نفسها بها للتهرب من القول بأن سوان تحتضر؛ لكن ريبيكا لم

Twitter: @alqareah

تعرف من هما اوريان وسوان؛ فمع اوليفيا أعاد قراءة بروست ذات شتاء في ويلتشاير. إنه بالضبط النوع من المتعة الذي يعد به التقاعد للانسجام بعد الشغف.

هزة (نهائية) للبروستات والكثير جداً مقابل ذلك.

لاح بيت بوكسر مغلقاً كان أولاد الخدم يستغلون ترف اللعب على الشرفة. حول قفا البيت، كان المطبخ مليئاً بشكل مؤنس، بالطباخ وأصدقائه بين القدور المليئة بقشرة البب التي تنتقع بالماء، وجرار الحليب الموضوع لكي يصبح رائباً، ورائحة اللحم الذي يحترق على الموقد. والبيرة التي يتم تجرعها من صفائح المربى. قدم الطباخ لبراي جرعة مضيافة من المادة الرقيقة الرائبة - في كأس رجل أبيض - وأرسل صبياً صغيراً ليرشده إلى شينزا. كانت الحرارة تومض من حظائر الماشية من كل جانب. لكن براي، الذي كان في الخارج في الأدغال بدون شقوق التملص التي يقدمها مأوى المدينة، قد استنشقها إلى رئتيه، الآن، لقد تعلم جسده مرة أخرى أن يوجد بداخلها، شافطاً إياها وناضحاً إياها إلى الخارج بدون مقاومة مثل متعضٍ مكيّف تماماً يحافظ على درجة الحرارة المناسبة للبيئة التي يدخلها، يتوحد معها.

كان شينزا وبازيل نوانغا في بيت صغير بُني بجهد شخصي على الطراز الأوربي يعود إلى المعلم في مدرسة المزرعة. قدم له شينزا بإلحاح ساق دجاجة مسلوقة كان يحملها في يده.

- «لا، تابع، تابع»، كشر نوانغا - «لقد أتى بنفسه على كل ما كان موجوداً»، «من الذي أكل الساق الأخرى؟». تحداه شينزا.

«أنت يا رجل، هناك، انظر إلى الطبق، ما هو ذلك العظم..».

رفع شينزا العظم ليراه العالم: «ماذا تقصد، عظم؟ هذا عظم جناح، إيه؟».

أقحم نوانغا إصبعاً مدهنة كبيرة في طبق شينزا.

«هناك، هناك، ما هو ذلك العظم الكبير - لا ترني أية فضلات، كن نزيهاً فحسب، أنت تسمع - خذ تلك الساق، يا كولونيل، خذها، لن تحصل عليها مقابل لا شيء، لا تقلق».

نتش شينزا العظم الذي خصه به الشاب ضاحكاً ورماه إلى الكلب الهجين الشاحب الذي التقطه في منتصف الجو.

«لقد أفسد الأدلة ضده!» صاح بازيل نوانغا، وهو يضرب راحتيه على الطاولة.

«أرسل الصبي إلى البيت لأجل مزيد من البيرة»، وقال لبراي «يكفي أن تذكر الشراب، لينسى نوانغا كل شيء، وقل إننا نريد قدراً كبيراً هذه المرة، وليس

Twitter: @alqareah

زجاجات ليموناضة لعينة ـ إنهم يصنعون بيرة جيدة في هذا المحل، أفضل بيرة سبق لي أن تناولتها منذ سنوات، منذ تلك البيرة الجيدة جداً ـ جداً جداً ـ إيه؟ ـ التي اعتادت زوجتي أن تصنعها، أنت تعرف، زوجتي الأولى، الطويلة. قدر كبير، يا نوانغا..».

وهو يصنع إيماءة استعجال، أقبل نوانغا السمين إلى الباب لينادي على متطوع من بين الأولاد في الباحة.

«يبدو أنك قد أقمت علاقات وطيدة جيدة هنا».

«أوه أكيد. هؤلاء كلهم إخوة حميي. بيرتهم متاحة لي لكي أطلبها».

أومأ براي حوله «ليس بيرتهم فقط».

ابتسم شينزا لتفاهة المكان.

قال: «إنهم سيفعلون أي شيء لأجلي. هل تريد أن تسهر في البيت الليلة؟». كان قد نسي أن براي، بأي حال، هو صديق المالك.

«انتظر، عندما ترسل رسالة، يا إدوارد، لماذا بحق الجحيم لا تجعلها أكثر دقة قليلاً، هذه إقطاعة ضخمة. أنا متأكد من أن كل واحد في هذه الإقطاعة يعرف أين تختبيء، ولكن عندئذ هناك مسألة الوقت كما مسألة المكان. لا أعرف أبداً إذا كنت ستذهب إلى هناك لمدة ثلاثة أيام أم ليوم واحد، لا أعرف إلى أي مدى يكون من المأمون أن أنتظر بدون أن أفتقدك، وأفترض لسبب ما أنني لا أستطيع أن أتخلى عن كل شيء وآتي مباشرة ..».

«أنا هنا إلى أن تأتي، بالطبع».

ضحكا، قال نوانغا:

«كيف كانت متعة مدرسة الأحد؟».

كان يتحدث عن الاحتفال الجماهيري للحزب.

قال شينزا: «سمعنا أنك كنت هناك».

«آساهي هو الرجل الذي يريدني أن أعتقل».

«نعم، ذهبت مع بعض الأصدقاء ـ البنت تعمل معه».

«أوه الجميع يعرف عن فتاة آساهي البيضاء، هل هي مليحة؟».

كان نوانغا متشككاً بشكل ودود.

«مليحة إلى حد ما».

Twitter: @alqareah

«لا بد أنه قد رأى الفتيات اللواتي اعتدت أن أتخذهن في لندن، أي، براي؟ وأمريكيتي ـ أنت تتذكر كيف جلبت لي تلك البيجامة عندما كنت في السجن مع ليمبي ـ حرير، يا رجل، نوانغا، مع قشاط أحمر وما تسمونها (الشرابة)».

«لقد دخلت إلى المعترك السياسي متأخراً أكثر من اللزوم، هذه هي المشكلة».

«هل مويتا سعيد» قال شينزا.

«واثق من نفسه، نعم، ينبغي أن أقول، وهذه في العادة إشارة لا يشك المرء فيها، أو يكتمها بنجاح. هو لا ينشد الاطمئنان إلى أنه على حق».

أمسك شينزا سيجارة جاهزة للسحب لكنه لم يضعها في فمه فيما كان يصغي؛ ثم قال: «فهمت»، وأخذ مجة.

رأى براي أن الـ «إنه لا ينشد الاطمئنان» قد أقحمت نفسها بمثابة إقرار بأن مويتا قد أطلق سراحه. إن مويتا قد خالف موافقتي. لقد تراخى؛ أنا حر. لذلك فهناك روابط عديدة مختلفة، أنواع كثيرة للغاية من الحرية. وكل رابطة تتعلق برابطة أخرى. حرية تلزم نفسك بها. إنك حر في أن تمارس الجنس معها وهكذا تصبح مزيف عملة بارعاً. متحرراً من مويتا ـ بالنسبة لشينزا.

قال، بنفاد صبر تقريباً: «حسناً، ما الذي يحدث؟».

«أوه، ثمة الكثير من الأشياء للحديث عنها... أريد أن أتناقش معك، بهدوء، هل تعلم؟ كنت أريد فرصة للحديث...».

صار نوانغا في الحال متنبهاً بشكل متعمّد عندما بدأ شينزا بالكلام؛ لقد سويا ذلك كله مسبقاً.

«لا فائدة من تكرار الأمر برمته في المؤتمر، كلام بدون جدوى، إيه... أفكر على خطوط أخرى الآن».

«نعم؟».

نظر شينزا إليه بشكل قلق على نحو مبالغ فيه تقريباً، ربما، كونه شينزا، بأثر من المحاكاة الساخرة لنشدان الاطمئنان الذي لم يعد مويتا يظهره. إن نصف ابتسامته قد أقر بذلك.

«هناك سيكونون جميعاً ممسوكين بالنقابات. وحتى لو كنت سأموت غداً، أقول لك، لن يكون لذلك أية أهمية، لا يزال ثمة جحيم. أقصد أن بعضاً مما حصل له لم تكن لي أية علاقة به، إن ذلك مناقض لسياستنا على نحو مطلق... عمال المناجم، الآن. قبل الآن كانوا يتقاضون أفضل من أي شخص آخر في البلد. لكن ها أنتم.

Twitter: @alqareah

سترون، في نهاية الشهر سوف يخرجون، سيكونون أكبر رتل حتى الآن، وسنرى ماذا سيفعل عندئذ. هذا هو الحشد الذي يخشاه أي واحد. لن يُخضعهم بهذه السهولة هذه المرة. إن هيبة النقابات تُكسر، الحكومة بدأت بتسييرها بنفسها وعندئذ يتبين حتى أن أزلام الحكومة يطالبون بثمن الحفاظ على هدوء الصناعة الوحيدة التي يخافون من معاملتها بخشونة وقسوة، فما الذي سيفعله؟ إذا حصل عمال المناجم على المزيد فستكون هناك مطالبات جديدة في كل مكان. إذا أصبح قاسياً، فإن ذلك سوف يسري كالنار في الهشيم، سيكون ثمة تضامن بين أولئك الذين اتبعوا المؤيدين للحكومة والذين خُذلوا، وأولئك الذين رفضوا أن يتبعوها وقمعوا».

«والمتمردون سوف يُلامون لأجل الشيء برمته».

«بالطبع ـ من يسمون بالمتمردين».

صحح شينزا بشكل تلقائي، بحذر السياسي لئلا تؤخذ عليه أية زلة لسان ذات دلالة يمكن أن تفسر لنقض شرعية منصبه.

«محرضون! شينزا وغوما ونوانغا كانوا هناك!».

«عذر جيد لوضعنا جميعاً في السجن».

نوانغا، الذي لم يسبق له أن دخل سجناً؛ تكلم بصوت عال بشكل طارىء، إن موضوع الخوف يفقد بعضاً من قدرته. شينزا دخله عدة مرات؛ بالنسبة له لم يكن لذلك علاقة بتضييع الوقت في تأمل الاحتمالات التي يكون فيها المرء مشلولاً.

«الأساس لما يحدث هو فساد النقابات، إيه؟».

«الفساد؟».

«تدخل الحكومة. الشيء نفسه. هذا هو السبب في أنني كنت أفكر، لماذا لا نجلب شخصاً ما ـ مرجعية ما، يمكنه أن يفضح هذا؟ بدون الانحياز بالمعنى السياسي. رأي ما لا يمكن لأحد أن يلتفت ويقول ـ حسناً، فكرت، فيما كنا آتين إلى هناك مباشرة، أن بإمكانك أن تقوم برحلة صغيرة، يا جيمس، تذهب وترى العائلة». مط نفسه ، أومأ: «شيء من هذا القبيل».

«بإمكانك أن تذهب عن طريق سويسرا، لنقل، إن كثيراً من الطائرات تتوقف هناك، أليس كذلك؟».

للحظة بلهاء بالنسبة له كانت الإشارة إلى المال في المصرف.

«تابع».

Twitter: @alqareah

«أوه لا شيء مخيف جداً، لا شيء صعب جداً ـ بإمكانك أن تذهب إلى الـILO وترى إن كانوا سيرسلون شخصاً ما ـ مراقباً، لجنة تحقيق ـ شخصاً ما لينظر في وضع النقابات هنا... ما رأيك؟».

كانت طريقته في النظر إلى الجوانب العملية أولاً، ليكبح ردود الفعل الأخرى إلى أن يتم التأمل في هذه.

«إذا وافق الـILO، لا تنسَ أنه لا توجد أية ضمانة بأن يسمح لمثل هذا الوفد بالدخول. إذا تذكرت كان الأمر نفسه في تونس، ألم يكن كذلك ـ ورفضت الحكومة. بالطبع سيكون من الخراقة بالنسبة لمويتا أن يقول لا، لرجل في مثل سمعته وتعقله، لكن... ثم هناك تقرير يتعين تقديمه إلى الـILO».

«أوه، غوما جمع كل المعلومات لأجل ذلك» قال بازيل نوانغا، وأضاف شينزا: «سوف نعجل في ذلك، لا مشكلة».

ـ «وماذا ستكون صلاحيتي؟».

لم تكن الاعتبارات المنطقية سوى مناورة لأجل الوقت؛ فقد كانت مفهومة من قبل الآخرين.

«فضول موظف مدني سابق؟ أفضل صديق للإنسان الأسود؟» وعندما ضحكوا جميعاً: «مرتزق سياسي؟».

ضحكة بازيل نوانغا أصبحت قوقأة، مبتهجة عميقة، وضرب فخذيه:

«نعم، هو ذا، هذا هو أقرب تعريف توصلنا إليه لأجلي».

ـ «أوه ستكون مفصلاً بالضبط» قال شينزا مرحاً بشكل كاسح.

«سيكون عليّ أن أحصل على أوراق اعتماد. على الأقل تبين أنني سوف آتي بناء على طلب من سلطة تمثيلية بمعنى الكلمة للنقابات. حتى عندئذ، سيكون ذلك تجاوزاً للاتحاد».

«كل ذلك سوف يُسوى، سوف نصل إلى العمل عليه»، تجاوزه شينزا.

«هذا لا يساوي شيئاً. هذا سهل. لا شيء على الإطلاق».

كان لديه الانطباع المثير للفضول بأن هذا الإلحاح الطائش للاطمئنان هو ما خدم غرضه ولم يعد ذا أهمية كبيرة أو فاعلية. قال لشينزا، بجفاف إلى حد ما:

«أنت تقول إنك تقود هنا».

«حسناً، أريد التحدث إليك حول ذلك» أطبق شينزا يديه على الذبابات التي ظلت مستقرة على أذنيه الأفريقيتين الوسيمتين، أمسك واحدة ونظر إلى بقعة الدم

Twitter: @alqareah

والخبيصة على يده بقرف. مزق قصاصة من صحيفة الصباح التي جلبها براي ومسح كفه عندما قال: «نحن نعرف أصدقاءنا، هم في الحزب كما هم في النقابات الآن. صار علينا أن نبقى على اتصال ونعمل معاً».

- «بشكل مفتوح؟»

فك شينزا أزرار قميصه ببطء. «بقدر ما يمكنك أن تتوقع».

«وهو قدر ليس كبيراً، أليس كذلك؟».

كانت التغضنات تحت ثدي شينزا خطوطاً لماعة من العرق؛ مرر يده فوق الشعر والحلمتين. «أوه لا أعرف. بإمكانك أن تضع قليلاً من رجال النقابة في السجن، لا يمكنك أن تعتقل القوة العاملة برمتها».

مرة تلو الأخرى، مرت اليد بسرعة وخفة فوق اللحم.

«لكنك وغوما ونوانغا لن تستمروا طويلاً».

داعب شينزا صدره العاري، الحساس.

«غوما وبازيل لديهما مقعداهما في البرلمان لحمايتهما قليلاً».

«هل سيكون عليّ أن أجعل العثور علي صعباً».

«قبل أن تطفو على السطح، في المؤتمر، كنت إلى حد ما بتلك الطريقة التي لم تكنها من قبل. لكن لا أحد كان يبحث عنك بكل تلك القسوة. لدي شعور بأن ذلك كله سيكون مختلفاً الآن. سوف يتم اعتقالك في اللحظة التي تتحرك فيها».

نظر شينزا إلى السقف وابتسم؛ التفت إلى براي وقال:

«ألأنه لن يكون عليه أن يفسر ذلك لأي شخص بعد؟»

وصل صبي صغير يحمل البيرة وهو يعدو برشاقة حافي القدمين على الشرفة وتوقف، مفرط الحياء، يلهث في الباب. نهض شينزا وأخذ منه الإناء البلاستيكي الذي كان ذات مرة يضم منظفاً لجلي صحون بوكسر. أعطاه قطعة نقدية واستفزّه بخصوص قوة ذراعيه الصغيرين المغبرين.

«لماذا ليس في المدرسة، يا جيمس؟» «هل تعرف أنه لا مكان له في المدرسة؟ ضع ذلك في تقريرك».

«كله مدون هناك، لا تقلق».

قال شينزا: «كلمتك الأخيرة».

«ربما».

«أقصد حول الموضوع - لم يبق شيء لتقله».

Twitter: @alqareah

كان شينزا يصب البيرة: «أيها كانت كأسك يا بازيل؟»

«شكراً لا أريد. لا أعرف، أمعائي ليست على ما يرام اليوم».

«هلم، إنها جيدة، هذه!».

ملأ شينزا كأس براي. «بالطبع، يحتاج إلى المال، ليواظب على الذهاب لا أعتقد أن أياً من أصدقائي القدامى في الـ ILO سيفعل أي شيء بخصوص ذلك، مع ذلك...؟ سيكون عليّ أن أرى ما يمكنني أن أجده. غوما يريد أن يطبع جريدة... نحتاج إلى زوج من السيارات. كل شيء يستهلك مالاً».

قال براي: «من الذي كان يقدمه حتى الآن؟».

كان شينزا متحمساً لأن يكون صريحاً.

«كنا نتكل على حميي، مبانا. لكن هذا لا شيء. سيارته القديمة تلك هي في حالة اهتلاك كامل تقريباً، أي بازيل؟»

«تحتاج إلى محرك جديد، للإقلاع به».

قال براي: «ذلك يعتمد على المسافة التي تريد أن تقطعها».

«بصراحة، قد لا يمكنها أن تأخذك إلى هناك».

«أنت سمعتني»، وكان شينزا يقصد في المؤتمر.

«ذاك هو المكان الذي سأذهب إليه. لأرى هذا البلد يعاد إلى شعبنا. أنت تعرفني. أنا لم أطلب أبداً أي شيء آخر».

«نعم، أظن أنني أعرف ما هو مفيد لنا».

نقرت أصابعه استجابة من عظم صدره، بغضب: «تماماً عندما قرر ما هو مفيد بما يكفي لأجلهم». هذا هو الفرق الكبير بينه وبيني. آمل أن أغوص في الأرض قبل أن أصل إلى ما رتب لأجله. أتعفن في الأرض. سوى أنني كنت ممسوساً بما يكفي لأصدق طوال هذه السنوات أننا قد علمناه ما هو الاستقلال الممسوس بما يكفي.

جلس نوانغا ساكناً سكون الأموات. رأى براي بذهول دموع شينزا تلمع له، وهو يمسكه.

«إذا انتهى الأمر بهذا البلد اللعين إلى أن ينتمي إلى الشركة فإن وزراء الحكومة، السود يجلسون على موائد الرجال البيض، بعد كل هذه السنوات التي أكلنا فيها المنيهوت وقدّمنا مؤخراتنا لأجل الرفس وسألنا وتسولنا وجعلنا رؤوسنا ثغرة مخبولة وجلسنا في السجن».

Twitter: @alqareah

اضطرب صوته، سال اللعاب من أسنانه: «إذاً فأنا ألوم نفسي ـ نفسي. وأنت، يا براي. أنا ألومك، وأنت لن تخرج من ذلك، أبداً! طالما أنا على قيد الحياة، ستعرف ذلك، لا يهمني إذا كنت تجلس في انكلترا أم في آخر الدنيا، لا يهمني إذا كنت أبيض. طالما أنني على قيد الحياة!».

كانت الغرفة خواءً للحظة. في الخارج، لا بد أن الأطفال كانوا يلعبون بسيارة الزعيم مبانا؛ كان ثمة رشق على المستنكرين ثم خرق الصمت. خرج شينزا بتشامخ. كان بالإمكان سماعه يطارد الأولاد. دخل مرة أخرى بمشية هر مستعد للعراك.

كان شينزا ينظر إليه وهو يزرر قميصه ببطء.

قال: «شينزا، ما الذي كنت ستفعله به؟»

كان ثمة شعور قوي بينهما بأن نوانغا لا مكان له في حضرتهما؛ لكن نوانغا الضخم المأسور في هذا التيار تحديداً، كان عاجزاً عن المغادرة.

«سوف تحبسه في مكان ما لسنوات، أو تسلمه إلى دولة أخرى بحيث يضيع حياته وهو يتآمر لإزاحتك».

«أوه الله يعلم».

«لكن الآخرين الذين حوله، هل سيتعين عليهم أن يذهبوا؟»

«يتعين أن يُحبسوا، بالتأكيد».

اجتاحه شعور بالجفاء، مثل الإغماء. بدون توقف، قال بصراحة: أنت «لا زلت تقابل سومشتسي والآخرين. هل أنا محق في الاعتقاد بأنك تجري صفقة؟ سوف يساعدونك بالرجال والأسلحة مقابل بعض الوعد بأنك: فيما بعد، سوف تمنحهم قاعدة؟».

«وفق تلك الخطوط. لا حاجة لوجود ذلك أيضاً، فهو لا يسبب الكثير». شق شينزا طريقه واندفع فجأة: «لا يسبب من الأذى أكثر بكثير مما سيفعل عندما يترك عصابات شركته فالتين بين العمال، لا حاجة لذلك ـ إذا كان التوقيت صحيحاً».

«ستحاول أن تجعل التوقيت صحيحاً».

كان حضور نوانغا قد أصبح مقبولاً ببطء مرة أخرى. كان شينزا صامتاً في حين أن الشاب، كما بدا لبراي، هز رأسه موافقاً بتثاقل.

علق شينزا: «لو مررت بغالا ذات ليلة وأردت أن أراك، هذا كله على ما يرام، هل كنت وحدك في البيت، مم؟»

«أنا لست وحدي».

Twitter: @alqareah

قال شينزا: «أوه عندئذ سأرسل رسالة، اوكي؟ تعال دعنا نتحرك ـ أريد أن آخذك إلى هذا الرفيق فيتي، اختفى بعد أن أسقطت دعوى منجم الحديد، كان في الحبس طوال هذا الوقت في حين مضى أولئك الأوغاد من الحزب أحراراً. ذاك هو تشيكوي وصديقنا القديم داندو» .

كان أنف الرجل الطويل الجاحظ العينين قد كسر أثناء التحقيق. أصبح في الحال فاتر الهمة ومع ذلك فقد كان فالت اللسان، فالبؤس الحقيقي الذي عاناه تبدى للعيان ممزوجاً بالأكاذيب الواضحة لمسرحة الذات.

كان ثمة مئتا رجل في معسكر الاعتقال ـ ثلاثمائة ـ خمسمائة. لقد وضع في الحبس الانفرادي؟ حبس في زريبة مع خمسة عشر، مع عشرين آخرين. كانوا شبه متضورين جوعاً، عاشوا على جرذان القصب من حقول السكر، خلعت أحذيتهم.

«لماذا الأحذية؟» قال شينزا، غير مبال... لهذا العرض. البائس أمام براي. «لماذا؟ لماذا؟... انظر إلى هذا، لقد ضربوني بساق الكرسي الذي كان مكسوراً».

ظل الرجل يتحسس بالسرج المعقوف لأنفه وينظر حواليه إليهم جميعاً ليرى إن كانوا يظهرون رد فعل مناسب.

لم تكن بشينزا حاجة لأن يُحرج أمام براي، فقد توصل بصفته حاكماً إلى معرفة أن المعاناة ليست الشيء النبيل الذي لا يعتقد الذين لم يروه أبداً أنه ينبغي أن يكون، بل هو في الغالب شيء مقزز، تنفر منه طبيعة المرء.جلس الرجل في كوخ مليء بالأقارب الذي جاؤوا ليكونوا هناك كما لو أنهم جاؤوا إلى سرير مريض؛ معظمهم جثم بين الدجاج والكلاب في الخارج، العجائز والأولاد.طفلة صغيرة زحفت إلى الباب ترتدي خرقة ثوب تكشف عن عانتها المتلثة مع مفترقها؛ في كل مرة كان فيتي يلمس أنفه كانت يدها الصغيرة ترتفع مع يده وتتحسس وجهها.

كان الحنو شيئاً لطيفاً أكثر مما ينبغي على أي حال. كان الغضب يأتي من التقزز. وكان أكثر فائدة، معظم الأحيان.

كان المعسكر الذي حبس فيه فيتي قلعة هوارد؛ «مكان الأمن القديم حيث كانت الحكومة الاستعمارية قد «حبست» مويتا فيه».

كان شينزا متنبهاً لبراي طوال الوقت، مصمماً على أن يكون على بعد وثبة أمام عقله، قال بشكل درامي «سوف نفلح ذاك المكان ونزرعه. يجب ألا يكون هناك تماماً، بعد الآن».

هبت عاصفة غبارية هائلة على مزرعة خيول بوكسر، آتية عبر الشعب الجبلي من سهول باشي. كانت الأرياش والأوراق وقشور الذرة والرماد والزبالة من مواقد

Twitter: @alqareah

الناس تتراقص في دوامة زوابع الغبار التي ترفع أعمدة متداعية إلى السماء. كانت الريح حارة. في مكان الشمس ثمة كثافة جهنمية حمراء تتحرك أسفل السديم؛ الناس يتنشقون لأجل المطر وسط الاضطراب بالرغم من أنه قد لا يأتي بعد أسابيع. جلسوا مسمرين في أكواخهم، مكث براي الليلة رغم كل شيء، وهو ينام عاريا في غرفة خانقة موصدة ضد الريح مع شينزا، ونوانغا ومعلم المدرسة. كان بإمكانه بسهولة تامة أن يقود السيارة إلى البيت أثناء الليل، لكنه كانت لديه ممانعة غريبة للخطوِ خارج صلابة الجو بينه وبين شينزا. هذان الرجلان. تحدثا حتى وقت متأخر جداً؛ عن النقابات، فيتنام، الحرب النيجيرية، العرب كأفارقة، إخفاقات ويلسون في أفريقيا، وبرود نيلسون تجاه دولها التي يهيمن عليها البيض؛ حول النقابات مرة أخرى. كان قد سمح لنفسه بأن ينسى، لسنوات، تفوق ذهن شينزا. قابعاً هناك في الغرفة التي تفوح منها رائحة عرق أجسادهم، حثالة بيرتهم ومرارة أعقاب السجائر، يسمع الرجال يشخرون، وهو يتقلب على السرير الحديدي الرخيص الشاغر في قبول لنفسه في النوم، كما كان دائماً، فكر براي كم كان رجلاً استثنائياً هناك، مثل كثير من الرجال الاستثنائيين الأفارقة في هذه القارة الذين انتهوا ميتين في خندق. عندئذ لام السود البيض على المناورة بالسلطة في قارة لم يغادروها بشكل فعلي أبداً؛ البيض لاموا الروح القبلية وتدخل الشرق (إذا كانوا هم أنفسهم من الغرب) أو الغرب (إذا كانوا من الشرق). كان الرجال الاستثنائيون يتحدثون عن الاشتراكية والإنسان العادي، أو عن المجد والعظمة المسيحانية، وماتوا من أجل النحاس أو اليورانيوم أو النفط. كان مويتا واحداً منهم، أيضاً. مويتا وشينزا. بالنسبة له ـ براي. الإعدام كان قد صنع، لأجلِ مويتا، قبل الآن. كانت العبارة في السياسة هي الخضوع للضغط الذي وضع حداً له، كما عرفته. لا يمكنني أن أقول كيف سيذهب شينزا، خاضعاً لنوع آخر من الضغط (لكنني لم أتمكن من قتله، هو كذب، وأنا كذبت، هل كان متقبلاً له؟. لا بعيداً في انكلترا، ولا في الطرف الآخر من الدنيا... فكر أنه لم ينم بل إنه يجب أن يكون قد نام، لأن الكلمات علقت هناك.

Twitter: @alqareah

(19)

كان رجل يجلس مع ريبيكا في غرفة المعيشة. كانت الغرفة معتّمة لمنع الحر. لكن هجالمار ونتز كان في السيلفررينو؛ في العاصمة! غاص ونتز وريبيكا عميقاً في كرسي موريس العتيق المرتخي على جانبي الموقد الفارغ، غرقا في الصمت وكل منهما عاجز عن تفسير حضوره للآخر. كان الارتباك كبيراً للغاية بحيث أن أياً منهما لم يتمكن من النهوض.

- «حسناً يا هجالمار! ماذا تفعل هنا!».

أعتقهما، عينا ريبيكا تدلان على كرب مركب، منذرتان، الله يعلم بماذا، هجالمار يقول بابتسامة متألمة: «حسناً، أنك سألتني، ربما تتذكر...؟».

حقيقة أن تفاهة تحيته قد اعتبرت بمثابة احتجاج على نحو أكثر صراحة مما أنذرته عينا ريبيكا، «لم يخطر ببالي أبداً أن بإمكاني أن ألقاك هنا بغض النظر عن الجهد الذي بذلته... هذا رائع... متى وصلت... هل أنت...» لكن العينين، المطلقتي الاصفرار بكثافة، الآن أشارتا - «هل قدت السيارة طوال الطريق؟»

إيماءة مرتعشة - ابتسامة مصطنعة بشكل مغلوط ومحاولة للتنكيت: «لا تسأل - لقد وصلت إلى هنا. وريبيكا قدمت لي غداء شهياً».

«هذا رائع. أنا ببساطة حدقت كالأبله... لم أصدق ذلك. كنت خارجاً أمشي مجهداً أدور على بعض المدارس...أعب الغبار طوال النهار. يجب أن آخذ دوشاً - هل هبت ريح رهيبة، هنا، الليلة الماضية؟» تحدثا حول الطقس؛ «حسناً، بعض الشاي أولاً والحمام لاحقاً. أغسل الغبار بدلاً من... هل أدخلت أغراضك، هل اعتنى بك كاليمو طوال الليل؟» .

«نعم، نعم، ريبيكا قدمت لي غداءً جيداً جداً، افوكادو طازج من الشجرة، كل شيء، الخدمة كانت ممتازة!».

بدا الصوت يلتفت بشكل تلقائي خارج الوجه الأشقر المتقبض. كان براي والفتاة يقفان حوله كما لو أنهما يقفان في مسرح حادث. قالت: «يجب أن أنطلق؟». «أفضل تمنياتي لأليك» قال براي، لكنه تبعها إلى الحديقة عن طريق المطبخ بذريعة طلب الشاي.

كانت في انتظاره. «شيء مروع. ألا تسمع الراديو؟ راس آساهي فر من البلد. ايمانويل ذهبت معه».

«لماذا يتعين على آساهي أن يفعل ذلك؟ هل أنت متأكد؟ هل هو؟. لم يذكر سوى ايمانويل.» «أعتقد أنك تعرف أن ايمانويل قد هربت قال لي، لكنني كنت أخاف أن أسأل، كنت أخشى أنه لن يبقى هادئاً. يا إلهي ظننت أنك لم تأتِ. اتصلت بالبوما وقلت ليس بمقدوري أن أعود، كنت أشعر بتوعك أو شيء ما. لم يكن بمقدوري أن أتركه وحده. لا أعرف ما الذي حدث... معهما. لا يتطرق إلى ذكر مارغوت». «ايمانويل ولت ـ هذا هو كل ما في الأمر».

ـ «ثم جلسنا بلا شيء نقوله. لا أعرف ما هو رأيه في أن يجدني في البيت كما لو أنني أمتلك المكان. حسناً ـ لا أعتقد أنه يلاحظ أي شيء في اللحظة. ولكن لماذا أتى إلى هنا؟ إليك؟»

ـ «أوه يا حبيبي... أنا آسفة... لا تقلق».

لف شعرها خلف أذنيها ـ كانت مليحة للغاية، الآن، بشعرها النابت. أراد أن يقبلها، وهو يفعل ذلك، غير مبال بأن كاليمو قد خرج ليرمي أوراق الشاي على خليط الأوراق، شعر بالجسد الدافئ كله يملأ الشكل الذي صنعه لنفسه بداخله.

ـ «كم سيمكث؟».

ـ «يا حبيبي، لا تقلق».

ـ «الآن لن أكون قادراً على المجيء إلى هنا الليلة».

فجأة ضغطت حوضها إليه في تعاسة.

«جحيم لعين. أوه تعال، لماذا لا تأتي؟ ببساطة لن نقدم أي تفسير، هذا هو كل شيء».

ـ «نعم. نعم ـ أوه لماذا اختار هنا، لماذا لم يكن بمقدوره أن يذهب إلى مكان آخر».

ـ «إن ذلك كله على ما يرام، كله على ما يرام...»

Twitter: @alqareah

مسّد شعرها كما لو كان نسيجاً جديداً مبهجاً لم يسبق له أن لمسه بأصابعه.

«هل تود أن تضاجعني الآن؟»

«بالطبع».

قالت: «اللعنة عليه».

صار كل واحد منهما يداري الآخر منعاً لامتعاضه.

مضى معها إلى سيارته، وهو يتحسس شعرها. عندما أقلعت المحرك التفتت إليه بابتسامة تنم عن سعادة خالصة.

«أنا جئت». أومأ برأسه بشكل صاخب.

تسكعت معه للحظة أخرى: «لقد أصبحت مغبراً في كل خط من خطوط وجهك».

فهم ما تقوله. «أعرف يا حبيبتي».

وهناك كان الرجل وتعاسته في الانتظار.

دخل براي، إليه. شعر بأنه مدرك لطوله، لبنيته العضلية الثقيلة، المعافاة كماله ـ، عندما وقف هناك؛ بدا ذلك أنه يستحق اعتذاراً، يشكل إهانة. أخذ علبة سجائر من جيب سترته الدغلية وقدمها إلى هجالمار قبل أن يأخذ واحدة.

قال: «هل لدى أحد أية فكرة عن السبب في أن آساهي قد فعل ذلك؟»

انتفض الوجه الأشقر، المضنى من القلق، بالحياة.

«كان في الفندق في مساء الأربعاء. اندفعت إلى الداخل وقالت إنها خارجة لمدة ساعة. عادت متأخرة جداً. يجب أن تكون قد عادت. كنت قبلئذ قد رتبت الأثاث وذهبت إلى الفراش، ولم تكن قد عادت إلى البيت بعد. ثم في يوم الخميس فهمت أنها أخذت بعض الملابس إلى المنظف وألحت علي أنها يجب أن تنظف في اليوم نفسه. يبدو أنها توسلت إلى تيمون ـ كبير الندل ـ أنت تعرف ـ كان يوم عطلته وطلبت منه أن ينتشلهما عندما يأتي من المدينة. لم تكن تريد أن تعرف أمها حول ذلك، أنت فاهم ـ لذلك لا بد أنها قد قررت قبلئذ... يوم الجمعة كانت طبيعية تماماً، طبيعية تماماً، لا شيء... وفي العصر قالت إنها ذاهبة مع بعض الأصدقاء لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في ماتينغا، إلى السد. حتى أنها دخلت إلى المكتب وطلبت مني أن أخرج لها الزلاجات المائية الماء من غرفة المستودع. هل تصدق ذلك».

صار الوجه شاحباً مرة أخرى. نهض فجأة، وهو يصارع ببطء للخروج من الكرسي بحيث كان على براي أن يتراجع عن الحاجة إلى مد يديه لمساعدته، كما لو كان ذلك بدافع من الرغبة في التدخل في عمل خفي ينبغي ألا يكون ملحوظاً.

Twitter: @alqareah

مشى الرجل عبر الغرفة، سترته متكومة مجعدة فوق كتفيه؛ ترنح في فقدان مفاجئ للهدف.

«كانت معي في المخزن ونظرنا بين النفايات بحثاً عن الزلاجات المائية. قالت لي لو أنني لم أحاول أبداً، وأخبرتها أننا لم نكن نفعل ذلك عندما كنت شاباً، فقالت لكنك اعتدت أن تتزلج بشكل صحيح في الثلج وأنت تستعمل نفس العضلات. قالت يجب أن آتي ذات يوم وأجرب. تشعر بالقوة، أليس كذلك، عندما يمر كل شيء باندفاع؟ تشعر أن بإمكانك أن تفعل أي شيء تريده».

بدأ يهز رأسه بقسوة شديدة لكي يكون قادراً على المتابعة.

«بالفعل ذهبت معي لجلب الزلاجات المائية».

جلس براي على الكرسي ذي المقعد المصنوع من جلد الثور الذي صنعه الصبيان في ورشة النجارة لأجله. لم يكن ثمة شيء لتقديمه سوى الصبر.

«أخبرتها أن هذه هي بالضبط الطريقة التي كنت أشعر بها في النمسا. بشكل مضحك كفاية، بالضبط ما اعتدت أن أفكر به. ثم ذهبت إلى غرفتها مع الزلاجات ولم أرها بعدئذ أبداً. كان عليّ أن أنزل إلى المخزن البارد إلى المدينة وعندما عدت أُخبرت أنها قد غادرت إلى ماتينغا».

«ألم ترها مرة أخرى؟»

بدأ يتحدث بانفعال. «أقصد أننا توقعناها ليلة الأحد، في وقت من الأوقات، هذا هو كل ما في الأمر، لم يخطر ببالنا شيء... في يوم الأحد رأيت أن الكراسي موضوعة خارجاً في حديقة البيرة، وتيمون يصعد، هناك اتصال هاتفي. حسناً، أنت تعرف... قلت دع أحداً آخر يأخذه، أليس كذلك. ثم قال: إنه من دار السلام، إنها من الآنسة ايمانويل. قلت له: دار السلام! من ماتينغا! لم أنزعج، مع ذلك، هي تريد أن تمكث ليلة أخرى».

«هل اتصلت بك من دار السلام؟».

«كانت في المطار. لم أصدقها. استمرت تخبرني، اسمع، راس وأنا في دار السلام، إننا مغادران إلى لندن في دقائق قليلة. لم يكن بمقدورها أن تسمعني جيداً. هتفت لها، عيشي معه هنا، يا ايمانويل. ليس عليك أن تهربي. فقدت أعصابها، قالت ألم أتأكد من أنها لم تكن «تمثل دور المغفلة» - تلك كانت كلماتها بالضبط - لم تكن «تمثل دور المغفلة»، راس كان في خطر كبير ولم يكن بمقدوره أن يبقى. هذا ما قالته».

Twitter: @alqareah

«والإعلان في الراديو؟».

كان هجالمار غارقاً في الكرسي. «حسناً، انفصلنا عن بعضنا منذئذ. اتصلت، حاولت أن أجري اتصالاً من هنا... في الوقت الذي عبرنا إلى دار السلام مرة أخرى كانا قد ذهبا. مارغوت لم تصدقني، كان عليّ أن أكرر المرة تلو الأخرى، كل شيء... كما أخبرك. أصيبت بالهستيريا، لماذا لم أتصل بها على الهاتف. ثم سمع ستيفن من الأخبار أن آساهي قد فر من البلاد، مع فتاة بيضاء وهلم جرا ـ لا اسم ـ كان يجب أن يكونا في مطارنا بعد الظهر بانتظار الطائرة على بعد ميلين من حيث كنا جالسين في الفندق. يقول الناس إنه كان يمر بمشكلة سياسية ما. هل يمكنك أن تفكر في السبب في أنه كان يمر بمشكلة سياسية؟"

كان متحمساً لأن يحول ذهنه إلى افتراض معقول.

«هجالمار، بالشرف، كلما تكلمنا معاً كان يعطيني الانطباع بكونه مؤيداً مخلصاً لأي شيء يمكن أن تختار الحكومة القيام به. ربما بعض الضغط من الشخصيات، في العمل...؟ ولكن افترض أن أحداً ما كان يحاول أن يدفعه عن موقعه في الإذاعة، فلن يتعين عليه أن يختفي من البلد، أليس كذلك؟»

ـ «لقد ذهبت إلى البوليس» هز كتفيه استهجاناً.

«حاولت الامساك برولي لكنه لم يكن في المدينة، لم أستطع... كل ما تقوله هي، أريد أن أعرف كلمة بكلمة... لماذا لم تتصل بي على الهاتف. ليلاً ونهاراً».

انحنى إلى الأمام وهمس في وجه براي:

«لا أعرف إن تحدثت إليها على الإطلاق».

فعل براي ما لم يكن يعرف ما يفعله منذ عام. قبض على يدي ونتز، سمّرهما للحظة على ذراعي الكرسي. «ماذا حول داندو...؟».

هذا الارتباك الذي صعد إلى الوجه، هذا الارتباك من كونه أهمل السؤال. من الواضح أن الرجل قد هرب بدون انتظار داندو ليعود؛ بشكل ما أفلت، فقد السيطرة... لا عجب أن ريبيكا كانت مضطربة لكونها معه.

«لندن مكان جيد لهما ليذهبا إليه. سوف تسمع قريباً عنهما هناك. يمكن للمرء دائماً أن يرتب الأشياء في لندن ـ الأصدقاء، المال، وهلم جرا...».

أوليڤيا، لكن سرعة البديهة، الممانعة: أن تنسج أحبولة جديدة، ترسم هذا البيت وويلتشاير معا، تخلق، لدى ايمانويل، الدليل على أن حياة مجهولة بالنسبة

Twitter: @alqareah

لويلتشاير كانت موجودة هنا. وإذا كانت خطوط الفتاة بالإمكان تتبعها لدى ايمانويل، فكم هي مختلفة للغاية!»

لم يكن من الممكن منح هجالمار ونتز أي سلوان. لم يكن بالإمكان إلهاؤه. لو أن أحداً حاول، لكان ثمة إرباك، فما حدث قد تجاوز ذهنه برمته. ولكن في الوقت نفسه كان كل ما يجمعه إلى بعضه: محاولة إيقاعه في الشرك، وسوف يتداعى بشكل مقزز.

هكذا كانت ايمانويل؛ ايمانويل وراس آساهي؛ عصر يوم الجمعة والمكالمة الهاتفية من دار السلام في ليل الأحد. جلسوا ثلاثتهم في كراسي الخدمة الاستعمارية القديمة في غرفة معيشة براي على مدى الأمسيات القليلة التالية فيما كان يتحدث هجالمار ونتز. كان وجهه قد اكتسى تعبيراً نكداً على الدوام. والأصبع الوسطى من كل يد، جامدة على ذراعي الكرسي المهترئ، مشدودة بقوة بحيث كانت الأوتار صعوداً إلى الرسغ ترتعش تحت الجلد.

«عندما ذهبت معي إلى المخزن، أتساءل إن كانت تريد التحدث إلي... ايه؟ ربما قلت شيئاً ما... صددتها؟ دون أن أدري...»

«اوه لا أعتقد ذلك. أنت وهي تنسجمان بشكل جيد للغاية. لو قصدت أن تقول أي شيء، لقالته، حسناً...»

استمرت العينان الزرقاوان بالبحث داخلياً. أبعد براي الكأس عن اليد وأزال غطاء الويسكي، لكن المشروب لم يسعفه، إذ لا يمكنك حتى أن تجعله يسكر، أمسك الكأس ونسي أنها موجودة. «لماذا تقول ذلك حول «شعورك بأنك يمكن أن تفعل أي شيء؟» كنت سأقول، ماذا كنت تقصد بـ «أي شيء»

علقت ريبيكا لبراي، «من الأفضل له أن يدفعنا بجنون إلى التفكير في ما يعتقد أنه فعله خطأ، المسكين ـ إنه على الأقل يمنعه من التفكير حول كم كانت حذرة ـ وصولاً إلى مسألة زلاجتها».

لكن براي لم يستطع مقاومة البحث عن بعض الاطمئنان الذي سيدوم.

«هجالمار، هل كان ما فعلته استثنائياً للغاية بالنسبة لك ـ رغم كل شيء؟ أنت تقول إنها فعلاً متعلقة جداً بالرجل. ربما أنك حتى تشعر بالمسؤولية بطريقة ما، بسبب الوفاء الذي ربما تشعر به تجاهه؟ لأنك ومارغوت ـ حسناً، إن أولادك قد كبروا في جو كان الأفارقة فيه يعتبرون شعباً بحاجة للمناصرة ـ أنت تعرف إلام

Twitter: @alqareah

ألح؟ ـ لو أن شيئاً ما رهيباً هدده، (علينا أن نصدقها) وهي ساعدته على الفرار، حسناً... أنت نفسك فعلت ذلك، في ألمانيا، عندما فرت مارغوت...»

لم يكن يعرف ما الذي كان مدمراً هكذا لهجالمار. رأى وجه رجل يسقط، يسقط، يتحطم من جائز إلى جائز من خلال الزجاج والغبار ويمزق النبتات المتعرشة للمأوى الذي بناه هذا الطقس من الحوار لاحتوائه. في داخل الصمت الذي يقبع مثل فعل لا سبيل إلى إلغائه بين الرجلين، جاء صوت ريبيكا وهي تنشد لنفسها في رشاش الحمام (الدوش) تحت الانطباع بأنها لا يمكن أن تُسمع فوق صخب الماء. وجد براي نفسه يبتسم، بشكل مخيف. في وجه هجالمار فقط بدت البشرة الشقراء الناعمة سليمة، والبنية العظمية بدا أنها تفككت، وكان فمه على الدوام مفتراً قليلاً كما لو أنه يفتقر إلى الأوكسجين. في ذلك الوقت كان ثمة شيء ما يتحرك بوهن هناك، نوع من التنسيق في العينين، إدراك لوجود أناس آخرين، كما لو أن نظرته الوحشية قد وقعت على قصاصة جريدة مجهولة التاريخ عثر عليها في الزبالة. بدأ براي يحمل المشروبات والكؤوس إلى الحديقة. في حالته الراهنة لم يلاحظ ونتز التغيرات المفاجئة للموضوع ولا النشاطات التي لا هدف لها ظاهرياً. التقط كرسياً بلا مسند وصحيفة، وقف لحظة، ببطء أنزل الصحيفة، ثم التقطها وتابع ببطء إلى شجرة التين.

كان الغبار في الهواء في هذا الوقت من السنة يصنع سماءً شيفونية بعد غروب الشمس، رمادية مطفأة وزهرية، وكان الجو متخناً بنفس الألوان المعكوسة على الذرات الناعمة، اللا مرئية، المعلقة للغبار. أشعل براي المصباح، قال هجالمار، «أنا آسف أنني دخلت عليكما بهذا الشكل».

«إنه على ما يرام».

لكن صلابته الواقية للذات بدا أنها تنجح على نحو مثير للفضول في مساعدة ونتز كما لم تنجح كل حساسيته التعاطفية.

«لا، لا يفترض بي أن أكون هنا. ينبغي أن تتركا وحدكما. أنا أعرف ذلك»

«لا يهم، يا هجالمار. في النهاية إن الأسرار الوحيدة التي يحرص عليها المرء هي تلك الأسرار التي يتقاسمها مع ذاته. حتى هذا خطأ».

«أنا لا أفهمك».

ابتسم: «أظن أنني أقصد الشكوك التي تساور المرء حول التبرؤ من جوانب منه لا يمكنه أن يعيش معها أكثر من ذلك».

Twitter: @alqareah

«وإذا لم يتبق شيء؟ - ما الذي تفعله عندئذ، تقتل نفسك؟ لكن الكلمات كانت مفقودة، كان بالإمكان تجاهلها في ظهور ريبيكا، التي تفوح منها رائحة العطر الذي اشتراه لها في العاصمة، وهي تهتف «يا لها من فكرة جيدة، نعم، دعونا نأكل في الخارج هذه الليلة. هل سأجلب كاليمو؟ هل جلبت بيرة باردة هناك لي؟» كان ثمة اتصال هاتفي في الصباح التالي إلى براي في البوما.ستيفن ونتز «هل والدي موجود؟ نعم، حسناً، لقد شاهده أحدهم في الباص في ماتوكو، لذلك ظننا أنه لا بد أن يكون قد وصل إلى محلكم».

«إنه بخير» قال براي، بالرغم من أن الابن لم يسأل.

«أختي أبرقت» «لندن؟» «نعم، إنها مقيمة هناك».

اتصل براي ببيته على الفور. استغرق كاليمو وقتاً طويلاً ليجد ونتز. ما الذي فعله بنفسه طوال النهار. كان كما يبدو جالساً في مكان ما في الحديقة. تكلم أخيراً، نعيب متردد «مرحباً...؟» ايمانويل بأمان في لندن. لقد أبرقت - ابنك اتصل لتوه.

- «إلى مكتبك؟» أكد ونتز بعصبية.

«لا يريد أن يتكلم إلى أحد منهم»، نقل براي إلى ريبيكا، التي صدف أن انسلت إلى المكتب حينما كان يتصل. هزت كتفيها استهجاناً، ضاغطة ذقنها إلى الوراء بحيث أنها تضاعفت، بشكل شبه هزلي، فمرر إصبعاً على امتدادها لكي يثيرها. حكى لها وهو يستلقي في وقت مبكر من ذاك الصباح عن اقتراح شينزا حول الـ ILO في سويسرا. قالت، الآن: «إذا خرجت، هل سيسمح لك بالدخول مرة أخرى؟» هذا ما جاءت لأجله.

- «لم لا... وإذا فعلت كما يريدني... لنقل إنني ذاهب إلى انكلترا».

«ستذهب إلى انكلترا». كانت واقفة في الباب.

- «لن أذهب إلى أي مكان على الإطلاق. لا أعرف كم هو جاد في ذلك. لدي شعور... ».

لم يكن قد أخبرها أي شيء بعد. كان دائماً يخبر أوليفيا بكل شيء. ولكن في النهاية؟ الآن لم يكن بمقدوره أن يخبر أوليفيا شيئاً على الإطلاق، لا شيء. لذا ماذا كان الجواب، بين الرجال والنساء؟ كان عليه أن يمضي إلى بيت ماليمبا؛ سامبسون يريد أن يتحدث إليه، على انفراد.

«لقد تعرضت للتهديد». انتظر ماليمبا إلى أن وضعت زوجته فنجانين كبيرين من الشاي الحليبي وغادرا غرفة المعيشة الصغيرة مرة أخرى. بدا محرجاً، كما لو كان

Twitter: @alqareah

عليه أن يعترف بعدوى التقطها في ظروف مشبوهة. «لقد أخبرت أنني إذا لم أوقف الصفوف لأجل الناس العاملين في منشآت الكلس فإنني لن أعود إلى البيت ذات ليلة».

«من قبل من؟»

«رجل، من قبيلة مكادي، يسمي نفسه قومندان، من الرواد الشباب. نفس الأشخاص الذين بدأوا مشاجرة خارج قاعة غاندي حينما كنا في المدينة» - يقصد في المؤتمر.

«سوف نطلب الحماية من المفوض سيلوڤو. سنذهب إليه معاً. يجب أن يكون شاهداً على أنك تلقيت وعيداً بذلك».

إن الدورات التي تعطى في الوقت الحالي لأجل عمال الكلس هي التعليم الأولي الأكثر استقامة. «من أراد أن يضع حداً لذلك؟». كرر ماليمبا.

«إنها الدورة التي أقمتها في وقت مبكر حول حقوق العمال والنقابات، أعتقد. هم لا يريدون شيئاً كهذا أن يجري مرة أخرى».

قال سيلوڤو ذو الأنف المعقوف المميز لرجل الساحل الشرقي وعينيه المغضنتين في تعبير احترافي عن قرار يُصغى إليه بدون رد فعل: «لا أعتقد أن عليك أن تقلق بخصوص أي شيء، يا سيد ماليمبا، فأنا كنت سأتجاهل هذه الهراءات».

«هؤلاء الناس كشفوا عن أنهم عنيفون، أيها المفوض: أنت نفسك تعرف أنه كان على البوليس أن يتدخل مرات عديدة، حيث يكونون متورطين»، سمع نفسه يقول ببرود.

«لكن إذا شعرت بالعصبية» وهو يتفضّل، بابتسامة سريعة جداً باتجاه سامبسون ماليمبا - «سأرى أن ثمة شخصاً ما يقوم بالمهمة حول القاعة هذه الليالي. بالطبع، المشاعر تسمو في السياسة - المشاعر تسمو في بلدنا، ايه؟ - حسناً، من الطبيعي أن تقع في مشكلة، ثم نحن... نحن ملزمون بحمايتك. ما الذي بإمكاننا أن نفعله؟» ضحك بلطافة مصطنعة، وعندما هموا بالمغادرة علقّ، «وأنت أيها الكولونيل، ماذا كانت شكواك؟»

«ماليمبا وأنا ندير معاً مشروع تعليم البالغين، وأنت تعرف، يا سيد سيلوڤو، أنا معني بما يؤثر على المشروع وعليه».

«أوه حسناً أنا سعيد أنك بخير. لا مشكلة في رحلاتك حول البلد. أنت لا تشتبك مع أي من هؤلاء المثيرين للمتاعب، إيه - هذا جيد، هذا جيد. أنا سعيد».

Twitter: @alqareah

على العشاء في ذاك المساء جاءت الأخبار عبر الراديو بأن ألبرت تولا تولا، وزير الشؤون الخارجية، قد اعتقل بصفته زعيماً لمؤامرة للإطاحة بالرئيس. كان من بين المتورطين عدة أشخاص بارزين في الحياة العامة بالإضافة إلى عضوين في البرلمان، وكان هناك على الأقل خمسة معتقلين آخرين. متآمر آخر، شخصية الإذاعة والتلفزيون السيد إيرازموس نوماكيلي (راس) آساهي، كان ظاهرياً قد فر من البلد الأسبوع الماضي. كان هجالمار ونتز يصغي مثل سجين تم إحضاره من الزنازين، مبهورا، ليسمع نطقاً بالحكم. ريبيكا حدقت في براي. شعر بإثارة عصبية جعلته يريد أن يضحك. تولا تولا! دخل كاليمو ليأخذ أطباق الحساء وطقطق لسانه انزعاجاً لأنها لم تكن مفرغة. رفع هجالمار ملعقته وبدأ يأكل.

أكلوا جميعاً. هز براي الجرس لأجل كاليمو.

«لذلك لا نعرف شيئاً، يا هجالمار، لا نعرف شيئاً!».

«تولا، تولا» قال هجلمار، مصفياً حنجرته، «هل كانت له علاقة بإدوارد شينزا؟».

«ظاهرياً لا! لا بد أنه انقلاب يميني كانوا يحاولون القيام به!»

قال هجالمار: «لطالما وجدت آساهي رجلاً مغروراً».

لكنها كانت الإشارة الوحيدة من قبله إلى الإحساس السياسي. إن ايمانويل قد ولت؛ الإفشاءات العلنية لا تزيد ولا تنقص من ذلك. قدمت ريبيكا عرضاً خجولاً «على الأقل لم يجرّوها». وأضاف براي:

«هذا جيد. يبدو كما لو أنه لن تكون هناك أية صعوبة». يقصد في قضية آساهي. بالتأكيد إن رولي سوف يهتم بذلك كثيراً؛ بأي حال. هجالمار لم يوحِ بأنه يمكن أن يتصل بزوجته، أو أنه سيكون ذاهباً إلى البيت. شرب البراندي مع براي بعد العشاء وذهب إلى السرير مبكراً؛ من تحت شجرة التين رأوه يسحب الستائر عبر الضوء الآتي من غرفته. تمشيا حول الحديقة. كان ليلاً حاراً ثقيلاً ولا قمر فيه، وتابعا، وهما يتحدثان، قريبين ولكنهما بالكاد قادران على رؤية أحدهما الآخر، عبر الشجيرات. وجدا نفسيهما في الأرض الوعرة لمضمار الغولف ولكن في الليل عاد المشهد الاستعماري المروّض والمشذب إلى الشجيرات، كان جزءاً من السواد الذي يجعل كل شيء سوى مركز البلدة الصغيرة (ضوء خافت مكوّب في يد قاتمة هائلة) يتوحد مع السافاناه والغابة اللتين تمتدان بعيداً في كل الأنحاء، متراصة فوقها

Twitter: @alqareah

بالضجيج المّوار لمليون حشرة في مليون شجرة. شينزا، مويتا، والرجلين نفسيهما، يمشون عن طريق التلمس بين أشكال الشجيرات؛ تولا تولا، راس آساهي.

قالت ريبيكا:

«هل تظن أنها كانت [متورطة] في ذلك مع راس آساهي؟»

«أشك في ذلك»

«إنها ذكية جداً. اعتادت أن تجعلني أشعر أنها تعرف ما تفكر به».

«ما أود أن أعرفه هو ما إذا كان ذلك محاولة من جماعة مسو أم إذا كان تولا تولا قد فعله من تلقاء ذاته... أقصد أنه كان على الدوام بمثابة جزء من فصيل مسو، مويتا أسند إليه الشؤون الخارجية بموجب الصفقة الانتخابية القديمة معهم. سوف نكتشف فقط عندما ينشرون أسماء البقية... إن خلفية أسرة راس هي خلفية غالية [نسبة إلى غالا] صلبة، حزب الشعب من الحرس القديم ـ لكنه كان يزدري أساهي العجوز... كانت ذكية، حسناً، لو كانت دائماً تعرف ما كان يفكر فيه. توصل إلى التفكير بذلك، كان نيل يتحدث حول كون تولا تولا ليس من قبيلة مسو بالولادة».

«ستحدث مطاردة للساحرات العجائز الآن. لا أحد سيكون قادراً على التحرك بدون أن يُفتش بحثاً عن السلاح».

أحياناً كانت الصياغة اللغوية لعباراتها تعكس صدى غوردون (زوجها) بشكل لا شعوري. في مكان ما بعيداً عبر ألفي ميل من الظلام كان موجوداً، أيضاً. الذكر الصغير الوسيم بشكل خجول في لفاعه الحريري.

أجهل ذلك. لا شيء يجعل الناس يشعرون بالأمان أكثر من كونهم قد كشفوا مؤامرة ونالوا مكافأة. الخوف يكتسي وجهاً واسما وتتم معالجته».

ربما سيحول الانتباه عن شينزا لوهلة؛ من يدري؟ وهو يتحرك معها في الظلام كان واعياً للافتراضات التي تنحل الواحد في الآخر. وصلا إلى عين ماء، لمعان الساتان الأسود؛ شيء ما غاص فيها بشكل صاخب ـ الليغوانات الوحوش التي كانت تعيش بين كرات الغولف المفقودة، الناجون قبل التاريخ الأخرق يخفون الروح المسالمة في ظهور القاطور (التمساح) ـ كان قد صادف واحداً منها ذات مرة، وهو يعلق عليه بشكل تافه لكاليمو، كان كاليمو قد قبض عليه وأكله.

«تقصدين أنك ستواظبين على الذهاب إلى سويسرا».

شعر تحت يده بتمفصل وركها وهي تسير.

«تعال معي. سأجرب بحيرة أخرى».

Twitter: @alqareah

«كيف سأعود مرة أخرى».

بالطبع، لم يكونا في الظلام الكامل وبشكل سري على العموم إطلاقاً؛ فلو خرجت عن التبرير المقبول لحاجتها إلى المكوث في البلد، لما كان بمقدورها أن تعود إلى هذه الحياة. إذ لم تكن توجد إلا هنا. فقد كان البيت الذي عاش فيه معها في ظلام، بعيداً تحت الشجرة الكبيرة. بدا مهجوراً، كانت الغابة قد نبتت جذورها تحته. دخلا وهما يتحدثان مرة أخرى عن تولا تولا. كان أكثر انهماكاً من أن يفكر بممارسة الجنس، ولكن في حين كانت تتحرك بهدوء حول الحمام (لئلا تزعج جارها هجالمار عبر الممر)، فإن جسده بكامله، المرمي على السرير، استعد من تلقاء ذاته لأجلها؛ فهمت ذلك عندما دخلت. وهكذا ولج مرة أخرى اللذة الضارية التي كانت بداخلها، في حين كانت الخفافيش من التينة تحدث ثقوباً صغيرة من الصخب في سماكة الظلام.

كان متيقظاً بشكل صافي الذهن للحظات قليلة لبعض الوقت في الليل. لماذا الذهاب إلى سيلوڤو مع سامبسون؟ هو وسامبسون أودعا شكوى لدى مفوض البوليس؛ المفوض أفرز رجلاً إلى قاعة غاندي. سلسلة من الإيماءات الإجرائية: ما ينبغي القيام به قد تم القيام به. وفقاً لأي قانون؟ وإذا كان ماليمبا سوف يُقتل فعلاً؟ يمكن أن يطعن بسكين في أي كمين حول الضواحي؛ خارج بوابته... كان ذلك لا يزال شيئاً لا يمكنهم تصديقه؛ نحن ـ أنا لا زلت أعمل ضمن مجموعة من الأعراف التي لا تطبق. ليس ثمة تضليل أخطر من ذلك. سيلوڤو لن ـ ولا يستطيع ـ يعطي للرواد الشباب الكلمة التي سوف تقيدهم. لا توجد كلمة. شرطي خارج قاعة غاندي: كان ذلك الرمز المثالي لكفالة معنوية لا معنى لها. لم يكن ثمة مكان في العالم الآن يمكن فيه لساتيا غراها ـ المستقطبة قبلئذ مع العنف في اللحظة التي كان فيها المصطلح يترجم بمعنى اللاعنف ـ أن يجد ميثاق الاحترام للحياة البشرية الذي تقوم عليه فعاليتها.

من بمقدوره أن يحمي ماليمبا؟ لم يكن بمقدور مويتا، الذي يطلق تغييراً مفاجئاً وكاملاً في الموقف من شينزا فقط ليدافع عن نفسه ضد تولا تولا، أن يقدم شيئاً أفضل من شرطي سيلوڤو الذي يتمشى حول قاعة غاندي. لم يكن شينزا يمتلك السلطة ليقدم النوع من الأمان الذي وعد به... بعد... ماليمبا يحتاج إلى بندقية، يجب أن يحمل بندقية في هذه الليالي.

Twitter: @alqareah

أما في الصباح فكانت ضرورة ذاك الوميض من اليقظة الذي أضاء عقله بين الظلام والظلام باهتة في وضح النهار. كان يوم سبت، ذهبت ريبيكا إلى البلدة في وقت مبكر لتتسوّق، وبقي هو إلى مائدة الفطور تحت الشجرة. عادت بالبريد والصحف التي طالبت بها في البوما ـ بالرغم من أن المكاتب كانت مغلقة، فقد كان ثمة دائماً من يفرغ صندوق البريد. كان في إحدى صحف ما وراء البحار حول قضية تولا تولا أكثر مما يمكن جمعه من الصحف المحلية؛ كانا يقرآن فوق ركوة طرية من القهوة عندما ظهر هجالمار، مسرعاً كما كان في الصباحات. يبدو أنه قد أخذ حبوباً منومة قوية. لم يقولا شيئاً له حول تولا تولا؛ تركاه يتريث في تلك الحالة من السرنمة (السير نائماً) التي كان ينوس فيها بشك متعمد بين المطبخ وطاولة الفطور ـ كإشارة لا شعورية، ربما، إلى الحرج الذي شعره في المكوث، فقد أبدى نوعاً من الممانعة لأن يكون مخدوماً.

أنهى براي فطوره؛ أكلت ريبيكا مع الضيف، كان قد حلم طوال الليل.

ـ «هذا هو السبب في أنني متعب للغاية هذا الصباح... كان ثمة خنفساء على الأرض، تئز وهي منقلبة على ظهرها».

ـ «في المنام؟» لأن ريبيكا امتعضت من حضور هجالمار فقد كانت دائماً منتبهة خصيصاً له.

ـ «لا... في الغرفة، على الأرض. سمعتها عندما أطفأت النور. وفي كل مرة كنت أغرق في النوم كنت أستيقظ وأسمعها، وهي لا تزال هنا، على ظهرها. بقيت أفكر، إنها على ظهرها، لا يمكنها أن تنهض، يجب أن أقلبها. كائن مسكين...».

ابتسم براي لحظة، من فوق الصحيفة، من فوق نظاراته، وتوجه إلى هجالمار: «ثم نهضت وأشعلت النور ووجدتها وأخذت الشبشب وقتلتها».

نظر بتركيز أولاً إلى براي، ثم إلى الفتاة، كما لو أنه يبحث عن تفسير، ترددا، ضحك براي باعتدال، وكذلك فعلت هي. قالت: «أكمل بقية البيضة المقلية». فيما كانا يطالعان، تولى هجالمار بفتور قسم المراجعات من صحيفة انكليزية.

انصرفت ريبيكا لتغسل شعرها، وهي تمرر يدها عبره في واحدة من تلك الإيماءات الطقوسية المتصلة بالعناية بالجسد التي تمتلكها النساء.

«هكذا فإن فيلهلم رايش رائج، مرة أخرى، لدى الطلاب... في ألمانيا كان هو نبينا... لكن في حين كنا نناقش الثورة الجنسية بوصفها القطيعة مع الاستبدادية في الأسرة التي يهيمن عليها الأب، فقد كان الآخرون قبلئذ يقبلون قدمي الأب هتلر

Twitter: @alqareah

والأب ستالين. ماذا عن أفكارنا عن الديمقراطية، عندما نعرف أن إرادة الغالبية كانت مدمرة للذات في كثير من الأوقات...».

قال براي: «بالطبع أنت تميل إلى رؤية كل شيء من وجهة نظر المكان الذي أنت فيه... لذلك أجد...». «لكن ماذا كان رأي رايش باستبداد هذه القارة، الآن - إن الأساس الجنسي للاستبداد بحسب نظريته لا يوجد ببساطة في المجتمعات الأفريقية، فحياتهم الجنسية كانت على الدوام منظمة بطريقة تجعل الإشباع متاحاً لكل واحد في اللحظة التي يكون فيها مستعداً جسدياً؟».

لكن بصيص اهتمام ونتز خمد؛ فصار يقلب الصفحات بدافع الواجب وطوى الجريدة جانباً.

قال: «كائن مسكين. فقط عندما عدت إلى السرير مرة ثانية تأكد لي أنني قد قتلتها» «لقد سحقتها تحت الخف - أنت تعرف تلك الحشرة المعروفة باسم كايفر، إنها تمتلك قشرة قاسية لكنها تنسحق خلال دقيقة. لكنني خرجت من السرير لمجرد إيقاف الضجيج، لأضعها على ساقيها، لأوقف الكفاح اللامجدي».

بالتوازي مع الصحف والبريد الآخر كان ثمة رسالة من أوليڤيا. كان براي قد تركها هناك مع أنه رآها في الحال عندما وضعت الفتاة الرزمة. كانت ملقاة تحت أنظارهما للحظة فيما هو يمزق الأربطة عن الصحف. فتحها الآن.

«أقصد أن تكون على ظهرك، ساعة بعد ساعة على الأرض».

«كان خط السيد المثقف، المنمق الكبير يغطي صفحات رقيقة بدون كلمة مشطوبة - زواج ابن أحد الأصدقاء القدامى، سيارة فينيشا الجديدة، مؤتمر برايتون لحزب العمال - جلست أتفرج على التلفزيون فيما كنت أنت في دخان وحرارة معركة شينزا مع مويتا. سينما جوساب، من كل الأماكن - هل تتذكر عندما افتتحت، قبل أن نغادر تماماً، والفتيات الهنديات الصغيرات - يكللن السيدات البيضاوات بالهيبسكوس المليء بالنمل، لذلك كنا نهرش أنفسنا بتهذيب طوال الأحاديث... ».

- «علامة ضعف. من المميت أن تظهر علامة ضعف، إنها تتهمني بالضعف. تقول إنني لم أكن أمتلك سلطة على الأولاد. لكنها تلوم نفسها أيضاً. هل تعرف لماذا؟». بدأ هجالمار يضحك، بشكل خافت، عاجزاً عن تمالك نفسه «هل تعرف ماذا قالت مارغوت؟».

كانت عينه تتابع رسالة أوليڤيا فيما كان يصغي إلى هجالمار... «إنك تقضي وقتاً أكثر إمتاعاً بكثير... أخباري المملة البائسة... أحياناً أقلق. أتساءل أين سنقيم مرة

Twitter: @alqareah

ثانية. بالطبع، كان عليّ أن أجيء، لكن الحقيقة هي أنني لم... يبدو أن ذلك لم يكن ممكناً بالنسبة لنا».

«قالت، أنا ألوم نفسي. فالأب اليهودي يفترض أن يكون له بعض السلطة على ابنته. يفترض أن يكون قد فهم أنها مزودة بتعليم موسيقي مناسب. أن يجد مكاناً لأجل أولاده لكي يعيشوا فيه أفضل من أن يدفنوا في هذا المكان... اليهودي يفترض أن يفعل أفضل...».

في الصمت المروع اندلقت قهقهة ضعيفة... مرة أخرى.

«أعرف أنني لست بخير. لكن هذا صحيح ـ قالت ذلك».

كانت الضحكة الخافتة الرهيبة فجأة اعتذاراً محرجاً بقوة، ليس لأجله، بل لأجل زوجته.

قال براي: «مسكينة مارغوت».

«لقد تركتُ كل المفاتيح، تركت العربة خارج الحانة، ومشيت إلى الطريق الرئيسي مع أغراضي. كانت تحمل أصيصاً من الأزهار إلى المدخل ورأتني أضع المفاتيح...».

ـ «أحياناً أشعر بالقلق ـ مسح السطور التي قرأها من قبل ـ قد تكون ضجراً، الآن، في ويلتشاير. والمكان يبدو جميلاً للغاية. لقد صرت أحبه أكثر فأكثر. يبدو لي البيت الوحيد الذي امتلكته، لا أستثني ضاحية دارغلر بيت أبيها. أوليفيا واحدة من أولئك الناس الذين قضوا طفولة سعيدة للغاية بحيث لا يمكن ردهم إلى حالة من اللا أمان، مهما كانت معاناتهم الأخرى».

ـ «لذلك تتخلص مني».

ـ «أنت تبقى، يا هجالمار».

قال ونتز: «أنت لا تقول شيئاً كهذا ـ في اللحظة بالذات».

ـ «لطالما كانت تفكر في ذلك لسنوات، إيه؟».

ظهرت ريبيكا بشعرها المبلل ممشطاً كما كان في اليوم الأول الذي جاءت فيه إلى البيت، سوى أنه الآن كان طويلاً.

نهض بشكل رسمي على نحو غريب، رسالة زوجته في يده، وللمرة الأولى يلمس ريبيكا في حضرة هجالمار ونتز، وهو يرفع الشعر المبلل ويقبلها على الخد: «أنا ذاهب إلى بيت ماليمبا».

Twitter: @alqareah

جلست في الشمس قرب هجالمار مع قطعة خياطة، كانت فستاناً لأجل ابنتها الصغيرة، وكانت تضطجع في حضنها للحظة تحت ناظريها وناظري براي مثلما فعلت الرسالة.

لوّح هجالمار وريبيكا بأيديهما، ساق السيارة نزولاً إلى الطريق. كان أكبر صبيان ماليمبا يسد بالاسمنت الشقوق في الشرفة الخرسانية للبيت، والأولاد الصغار يقفون حوله بانتظار فرصة لكي يلعبوا في المخاضة. كان سامبسون لا يزال في انتظار البيت الذي وعد به عندما أصبح مسؤول التعليم الإقليمي، براي غالباً ما كان يعلق بأن على آل ماليمبا أن يأخذوا البيت الذي أعطي له هو، لكن سامبسون، الذي كانت الكياسة لديه تتفوق دائماً على الحق، رفض سماع ذلك. أدخله سامبسون إلى غرفة المعيشة ذات الشهادات المدرسية المؤطرة والتربيزة البلاستيكية، ذات الشكل البيضوي أمام الأريكة. قال: «سامبسون، أعتقد أنه ينبغي عليك أن تحمل معك بندقية في الليل. شيئاً ما تخيف به احداً... ».

قال ماليمبا: «جيد، لقد جعلت ابن عمي يخرج معي طوال الوقت الآن».

«أنا سعيد. هل تعتقد إن بإمكانك أن تهتم بنفسك؟».

«إنه يحمل سكيناً». جلس سامبسون ويداه تتدليان بين ركبتيه بتثاقل، كما لو أنه قد تبرأ منهما بسبب ما يمكن أن تفعلاه.

كانت شوارع الضاحية تعج بالحياة مثل سوق، في صباح يوم السبت. الأولاد، الدراجات، الناس اللطفاء البطيئو الحركة ـ السيارة تحمل حملاً عبر ذلك، أكثر مما كانت تتقدم. اشترى براي قمعاً من ورق الجرائد مملوءاً بالفول السوداني (لأجل أولاد تلومي؛ كان هو وريبيكا ذاهبين إلى هناك لأجل الغداء)، وفي حين أنهى هو والبائع عملية البيع برز رأس في نافذة السيارة على الجهة الأخرى، إنه الشاب، توجو وانجي، الذي كان منتبهاً ومجادلاً في صفوف براي الليلية. ذهبا إلى حانة الكينغ كول على الزاوية. كان توجو يرتدي صندلاً بلاستيكياً مصبوباً، شفافاً ذا أطواق مقطوعة، ونظارات لازوردية على شكل الزجاج الأمامي الواقي للسيارة، ويستعمل جريدة مطوية ليؤكد على ما يقوله.

«هذا تولاتولا، ماذا يريد؟ ماذا يريد؟» كانت له طريقته في الضحك، وكان رأسه مرفوعاً، فمه مفتوحاً، نشيطاً مفعماً بالحيوية.

«لا أعرف. هل تظن أنهم آل مسو؟».

«هذه الورقة ! أنا لا أتعلم شيئاً !».

Twitter: @alqareah

«لا، حسناً أنا أظن أنهم لا يتلقون الكثير من المعلومات. أو أنهم أُمروا بألا يستعملوا ما بحوزتهم».

«إذاً لماذا يتوجب عليّ أن أدفع ستة بنسات؟ إنني بالأحرى سأشتري لنفسي بيرة».

اشترى براي زجاجتين أُخريين وأخبره الشاب، الذي كان رئيس ورشة في الأعمال الكلسية، أنه قد حصلت مشاجرة في اليوم السابق، يوم الراتب.

«هؤلاء الرجال، نسميهم السود الكبار ـ أنت تعرف، يشتغلون بتحميل الأكياس على الشاحنات، وهم أقوياء. ثمة رجلان جديدان تم تشغيلهما هذا الأسبوع وعندما كنا ننتظر في مكتب الرواتب بدأ السود الكبار بافتعال مشكلة، وطلبوا من الرجلين الجديدين أن يبرزا بطاقتيهما، حسناً، فقد تعرضا للضرب. لا أدري، سلبت نقودهما، ورُفسا على الأرض. ثم رفعنا شكوى إلى النقابة. أنا بنفسي، قلت لهم، من هم هؤلاء الثيران، هذه الأكتاف بلا أدمغة. أوه، أعتقد أن من الأفضل ألا ننفتح بشكل واسع للغاية في المستقبل».

وكان مسروراً، فقد زأر بضحكة. «ولكن ثمة قتال، قتال طوال الوقت. إنهم لا يهتمون برفع الإنتاج» أضاف ليظهر أن حدسه لم يكن مضيعاً.

في البداية بدا كما لو أن تولا تولا لن يقدم إلى المحاكمة مباشرة؛ فقد كان، رغم كل شيء، محتجزاً بموجب قانون الحبس الوقائي، ونظرياً كان من الممكن حبسه إلى أجل غير مسمى ـ على الأقل إلى أن يخضع المرسوم لمراجعة سنوية كما اشترط داندو عندما تمت صياغته. إن نزاع الرواتب في المناجم لم تتم تسويته، وفترة التجميد لمدة أسبوعين التي نجحت النقابات في جعل عمال المناجم يوافقون عليها قد خرقت بإضراب غير مشروع. كان من المفترض أن يكون قضية إضراب تذكيري ليوم واحد ومحصوراً بالمنجم ذي الإنتاج الأكبر، لكن بعض فئات العمال لم تعد إلى العمل في اليوم التالي، واستمر بشكل متقطع، وقد تعقّد بفعل النزاعات الداخلية ليس فقط بين النقابات وعمال المناجم بل أيضاً بين جماعات عمال المناجم أنفسهم.

«إنه ينحدر إلى حرب عصابات» علق براي ذات ليلة في بيت آل تلومي.

«فرصة أخرى لأجل البيض في الجنوب ليقولوا كيف أن السود لا يعرفون شيئاً عن العصبية القبلية».

«حسناً، إنه خطأنا نحن» قال نونغوايي، متجهماً بحصافة.

ـ «إنهم أهل غالا ومسو الذين يضربون بعضهم بعضاً».

Twitter: @alqareah

ـ «إنهم يقاومون أنفسهم بإحباط لأن النقابات فقدت السيطرة. النقابات تتجاذبها الحكومة وعمال المناجم. قدمت وعوداً لكليهما ولا يمكنها الوفاء بها».

ـ «لذلك فإن أولئك الغاليين البلهاء ينفسون عن غضبهم بإيذاء أهل مسو». نونغوايي نفسه كان غالياً، ويتكلم كما لو أنه من أسرة مهزومة.

ـ «لا أحد يفهم شيئاً حول العصبية القبلية» قال هجالمار. هو وبراي والفتاة كانوا قد أصبحوا لصيقين جداً، بطريقة ثانوية، بحيث كانت قادرة على أن ترمي ذراعها العاري بشكل نصف هزلي، نصف مغرٍ، وتعطي كتفه ضغطة.

ومع أن التعليق كان واهياً، فقد نجح تقريباً في أن يكون نكتة ضده نفسه.

كان مويتا وجوستين تشيكوي مستعجلين لإجراء محاكمة سياسية بسبب موقف الإضراب. إذا كان الناس في مزاج قتالي، فإن المحاكمة سوف تحقق مزيداً من الشقاق بالنسبة لهما لكي يعرّفا نفسيهما به، أو أنها تؤكد الشكاوى الأخرى، المعارضة ربما، التي من نافلة القول أنها سوف توسع الاحتكام إلى الاستياء وروح التمرد بشكل عام. لكن الإضراب نما وانتشر بأي حال، حيث كان جانباه متعايشين في مظهر ثالث: أنه مهما فعل عمال المناجم في مكان العمل ـ إضراب أو شجار بينهم حوله ـ فإن المناجم لا يمكن أن تسير بدونهم. لم يكد شينزا يقول ذلك، حتى كانت كل مناجم الذهب خارجة. وتبعتها مناجم الفحم والحديد والبوكسيت (الألمنيوم). ففي مناجم الذهب قرب العاصمة استعمل جيش الشركة الغاز المسيل للدموع، وهاجم بالهراوات لتفريق مسيرة ضخمة لعمال المناجم كانت متجهة إلى مقر الرئيس. امتلأت مشافي المناجم والعاصمة بالأشخاص الذين يعانون العمى المؤقت من الغاز المسيل للدموع، كتبت ڤيڤيان بايلي: «ألبرت تولاتولا الدموي يمكن توجيه الشكر له لأجل كل ذلك. نحن نعرف أنه حرك قوته الصغيرة بناءً على صرخة القتال إذ أن مويتا لم يكن يمتلك الجيش القوي لإسكات النقابات وشينزا. الآن! مويتا يقوم بالاستعراض الوحشي للعضلات الذي يريدون. لماذا لم يخرج إلى شرفته ويتحدث إليهم؟ لم يكن بحوزتهم الكثير جداً من قبيل الحجارة. حتى نيل يقول إنها كانت الفرصة الأخيرة. لم يأتوا لكي يقتلوه، جاؤوا ليتحدثوا إليه لأنهم لم يشاؤوا أن يتحدثوا إلى تشيكوي وجماعته. كان هجالمار على حق في الهرب من غضب مارغوت بدون انتظار غضب المعلم الكبير والشركة ليقع على هذا المكان (لا تخبره أنني قلت ذلك). إن حقيبتي مرزومة».

Twitter: @alqareah

صحيح أنه كان اليوم السابق لفتح محاكمة تولاتولا وشركائه (أعلن ذلك فجأة: داندو، الذي يصير جلفاً، هل يصمد بعناد ضد تشيكوي في سبيل جزيرته التي يسودها حكم القانون؟) مويتا اعتقل ثلاثة وعشرين نقابياً. «هذا هو السبيل لفعل ذلك»، جلس أليك إلى الوراء في كرسي مكتبه الكبير وأنزل ذقنه إلى صدره مكشّراً.

«يقول سيلوڤو إنه كان ثمة آخرون، أيضاً. والآن يتوقع أن يحصل على الموافقة على إبعاد أشخاص قلائل هنا يمكننا الاستغناء عنهم في اللحظة».

«ما الذي يمنعه؟ لو كان ثمة أي تمرد في منجم الحديد، لقام بالاعتقالات. لكن المضربين يبدو أنهم يحافظون على رؤوسهم هناك بشكل أفضل من الغالبية».

«هؤلاء الذين يفكر بهم ليسوا مضربين فعلاً. بعض الشباب الأذكياء في المدينة. الوقاية خير من العلاج».

«ولكن منذ أن انتشلت ليباليسو على القدم الخاطئة في ذاك الوقت، صار كل واحد هنا حذراً جد ـ د ـ اً».

ضحك بابتهاج على مشكلة سيلوڤو.

«أوه ذاك».

«هل نسيت؟» كان غلام أليك مذكّراً بالإزالة اللبقة لليباليسو من المشهد أكثر مما كان الصبي الذي كان ظهره متقرحاً.

«لا، ولكن كل شخص آخر قد نسي. سيلوڤو ليس لديه شيء ليقلق بشأنه».

«أوه، إنه طموح، سيلوڤو. إنه رجل ذكي. لا ذباب على أنفه»

«آمل أن يستخدم حماسه لمعالجة الناس الذين هددوا سامبسون».

كان سيلوڤو على الأقل ناجحاً حتى الآن في منع الرواد الشباب من غالا من تسوية الإضراب في منجم خامات الحديد، على طريقتهم الخاصة، هذه المرة. ظاهرياً كان قد أقام نقاط تفتيش بوليسية تفتش كل العربات والأشخاص المشاة الذين يقتربون من المنجم أو المجمّع. بالطبع إن هذا سوف يصعب الأمور بالنسبة لشينزا ـ بالنسبة لأي واحد من جماعته من الخارج الذين يعملون مع المضربين؛ لكن كان واضحاً أن رجال شينزا راسخون جيداً للغاية في القيادة بين العمال أنفسهم بحيث أن ذلك قد يكون عديم الأهمية. وشينزا؟ «كان مقر قيادته» في مزرعة بوكسر قريباً جداً من المنجم. ربما كان شينزا على بعد أميال في مكان آخر من البلد، إن لم يكن

Twitter: @alqareah

عبر الحدود. مع ذلك لو أراد أن يرى شينزا الآن، لكان مكان التقائهما القديم المتفق عليه خارج الشبهات.

ألقى مويتا خطاباً حاقداً على التلفزيون؛ كان ثمة ذبابة تدب وتتريث، منفوخة بشكل رهيب خارج البؤرة التي ترسمها الكاميرات، حول الابتسامة العجيبة التي أصبحت فماً عدوانياً. في غرفة المعيشة العاتمة الحارة لآل تلومي انقطع الصوت للحظة فبدت الأسنان البيضاء تلتقط الذبابة... عاد صوته؛ كان قد «نفد الصبر» لديه؛ سوف «يسحق الحشرة الطفيلية، يحرق الأسمال القذرة التي تحمل التدمير القذر». تكلم عن قضية تولا تولا بصراحة بالرغم من أنها كانت أمام القضاء(*).

أعلنت حالة الطوارئ في البلاد كلها ومنع التجول في العاصمة. منحت المقابلة مع رئيس الشركة ـ من الواضح أن البيان تم إعداده بالتشاور بين الشركة والحكومة ـ صفحة كاملة في الصحف. إن أزمة الإضراب قد «أحدثت ضرراً لا يوصف» بآمال البلد في المساعدات والاستثمارات الأجنبية. فالبلد ينبغي ألا «يُضلل إلى درجة الإيمان بأنه لن يضيع سوى الاستثمار الخاص» ـ الذي تم إعلام الناس بشكل مؤاس بأنه «إمبريالية اقتصادية»، «استغلال»، وشعارات أخرى من الدعاية الشيوعية ـ «إن منظمات المساعدة المالية الدولية، التي سيشدد على أن لا شيء ـ لا شيء ـ من مشاريع التنمية الكبرى يمكن تحقيقه بدونها، كانت تعتمد إلى حد كبير على تقارير عن الصناعة لأجل ضمان الاستقرار عند تخصيص القروض. (صوته في أذن البنك الدولي؟)... الشركة، التي لعبت دوراً كبيراً في جعل اقتصاد البلد من أكثر الاقتصاديات صحية في أفريقيا، سوف تتعاون بكل وسيلة ممكنة (تجند مزيداً من الرجال لأجل جيشها الخاص، تشتري مزيداً من البنادق؟) مع الرئيس مويتا لاستعادة السلام والازدهار الصناعيين.

استمعوا إلى كل نشرة أخبار بتركيز صامت. عند وجبات الطعام، لم تكن تسمع قرقعة ملعقة واحدة. في الليالي الخانقة تحت التينة، خلع براي وهجالمار قميصيهما، لم يكن ثمة سوى اللطخات الشاحبة لصدرهما التي تفضح حضورهما مع الفتاة. في غرفة الحمام، مع راديو الترانزستور الصغير على عتبة النافذة فيما كان يحلق ذقنه وكانت تضطجع في الحمام (مشهد تحت سطح البحيرة، صخرة بيضاء من اللحم، حديقة من العشب الداكن، حلزونين متشبثين من الحلمتين؛ كان قد طفا وجهاً لوجه مع رجل آخر هناك)؛ حتى في حانة فندق الفيش ايغل، ذات مرة، بين

(*) sub judice: بالفرنسية، في النص الأصلي. (المترجم).

Twitter: @alqareah

الرجال البيض الذين قطعوا حديثهم وحدقوا فيما كانت المروحة ترسل تيارات مرتعشة فوق جباههم المتعرقة، وهم يسمعون الصوت وينتظرونه لكي ينتهي. **ينتظرونه لكي ينتهي**. في الحوانيت البيضاء للشارع الرئيس كان الباعة وأصحاب الحوانيت والنزلاء البيض يمتلكون المزاج نفسه، إنها عادة العقل يرى ما يحدث في البلد بلغة «مشكلة بين السكان الأصليين» أي، في حين أن ذلك يجعل المرء متضايقاً، فسوف يُسوى، يُعالج، ينقضي بشكل غير مفهوم مثلما جاء («هم» لم يكونوا نفسهم يعرفون عما كان ذلك كله، لم يعرفوا أبداً ماذا يريدون). يعالج من قبل من؟ ينقضي إلى ماذا؟ لم تكن عزلتهم الطويلة كمستوطنين في هذا البلد النائي تحت أشجار الماهوغاني قد هيأتهم للتمادي في الافتراض أكثر من ذلك. في عقلهم كانوا يعرفون أن هذا بلد أجنبي الآن (بلد مستعمراتي ينتمي إلى المستعمِرين، وليس إلى المستعمَرين الذين يخدمونهم)، لكن عواطفهم ترفض أن تصدق العقل.

علق شخص في الحانة في الفيش ايغل على مويتا؛ «سيكون على السير ريجينالد أن يزيل الفوضى لأجله، كالعادة»، ثم غادروا جميعاً إلى جنهم وبيرتهم الباردة ومباريات الغولف في نهاية الأسبوع. كان براي، وهو يتجرع بيرته، وحده بعد إيماءة من وجه أو وجهين، شعر، ليس بالاستياء أو الكره الحقيقي؛ بل بالأحرى بنوع من الجحود الفاتر، الإقرار الجواني الذي لا يُنكر، الذي يعود به المرء إلى مؤسسة - مدرسة، ثكنة - ويشم مرة أخرى رائحة الممرات ويرى مرة أخرى اللافتات المجعدة نفسها على نسيج البيز. لقد كان هنا؛ كان واحداً من هؤلاء الناس بلون بشرته وتقاطيع وجهه.

هذا الاتكال في كل يوم على البيانات المزعجة للراديو أزاح التقسيمات العادية للقرارات، الأمزجة، الأفعال، التي بواسطتها، تؤخذ الحياة وتترك بشكل متواصل. في كل ظهيرة، تنتظر لتسمع ما حدث في ذاك الصباح؛ في كل مساء تنتظر لتسمع ما يمكن أن يكون قد حدث منذئذ. وفي المدينة نفسها، في غالا، هناك انفتحت مرة أخرى تلك اللحظات من الثغرة حيث يمكن أن يطرأ أي شيء، أي شيء يمكن أن يكون التفسير - مضى ملء شاحنة من البوليس يفتشون الشارع الرئيس، مروراً بمصلح الدراجات والحلاق والباعة بأكوامهم الصغيرة من أربطة الأحذية، وشفرات الحلاقة والكريم البارد (البوظة)... إلى أين كانوا ذاهبين؟ بدأ عمال الكلس بالتجمع تحت شجرة العبد في استراحات الغداء؛ لا أحد بمقدوره أن يجد مبرراً لتفريقهم طالما كانوا ظاهرياً وببساطة يتسكعون في الظل، لكن أشخاصاً آخرين، يتقاطرون على طول

Twitter: @alqareah

الطريق الترابي الأحمر إلى المدينة أو يتنازعون مرة أخرى على رغيف خبز أو قارورة بارافين، تحلقوا بشكل مفكك ـ حول ماذا كل ذلك؟ كما لو في استجابة لا شعورية لجمهور ما، في استراحة غداء اندلع شجار وكان ثمة مطاردة عبر المدينة: قمصان ممزقة، صدور تصعد وتهبط، وصبي صغير مع أخيه الصغير على ظهره يطلق صيحات خارج مكتب البريد. كان قد أصيب في الشجار؛ لا، لم يُصب، بل كان ببساطة قد تعب منه ـ ولكن في الحال كان ثمة جماعة أخرى حوله: المرأة المجنونة التي تنشد التراتيل، رجال عجائز قلائل يعيشون على صناديق القمامة ويجلسون معظم النهار على درج مكتب البريد، المراسلين الشباب الذين يتبادلون أطراف الحديث هناك. (ريبيكا، وهي تمر، جلبت للطفل قطعة آيس كريم (بوظة)؛ وقفت السيدة ميتلاند السمينة من محل التنظيف الناشف وقفت تهز ثلاثة قضبان بيضاء وقالت لها «الطريقة التي يهملون بها أولادهم رهيبة. معظمهم لا ينبغي السماح لهم بأن يكون لهم أولاد».

كان براي وهجالمار مسرورين بالقصة.

كتب أحدهم بالطلاء البخاخ «اشنقوا تولا تولا» على جدار مكتبة الأميرة ماري. أضرمت النار في بيت في الضاحية الأفريقية فقال الجيران إن «القومندان مكادي» أخبرهم أن الناس في ذاك البيت كانوا «رجال تولا تولا». ألبرت تولا تولا، الذي يقضي وقته كما فعل في لندن، واشنطن، وألمانيا الغربية، لم يكن في أي مكان قريباً من الشمال البعيد لبلده، وكان أهل غالا يقللون تقليدياً من أهمية آل مسو، لذلك من المرجح أن يكون قد لقي مؤيدين في غالا. ولكن أياً يكن فقد كانوا مصممين على المضايقة، فأضرم الرواد الشباب النار في ثلاثة بيوت أخرى وحصل قتال شوارع في الضواحي ليلاً. ركز سيلوڤو جلّ قوته الصغيرة على حفظ السلم في منجم الحديد، على بعد مئة وسبعين ميلاً؛ فرض أليك حظر التجول في غالا، مثل ذاك الحظر المفروض في العاصمة. «لقد عرض الرائد العجوز فيلدينغ أن يجمع مجموعة من المتطوعين للمساعدة، في حراسة مركز المدينة»، قال لبراي؛ وهي معلومة كانت في الحقيقة طلباً للمشورة. «يا إلهي. يا له من مستقبل! القومندان مكادي والرائد فيلدينغ يفلتان بيننا بالبنادق. لماذا لا يمكنك أن تعتقل مكادي؟».

«سيلوڤو يقول إن المشكلة هي أن الدليل غامض للغاية. لا يمكنك أن تثبت أنه كان وراء الحرائق».

Twitter: @alqareah

وجد براي ظرفاً منفذاً رخيصاً تحت قطعة من كوارتز المالاكيت (هدية ريبيكا) حفظها على طاولة مكتبه في ألبوما. مذكرة على ورقة منتزعة من كتاب تمارين، مكتوبة بعناية على طول الخطوط بخط مدرسي تبشيري: «تناول مشروباً في فندق الفيش ايغل هذه الليلة في الساعة السابعة». النقطة الأخيرة محفورة عميقاً في الورقة، ظاهرياً بتردد حول الشكل الصحيح الذي يجب اتباعه حيث لا يوجد توقيع. كان ثمة شعور بأن عبارة «المخلص لك» ضرورية، بأي حال. خطر بباله شينزا، ولكن لماذا الفيش ايغل؟... ربما كان سيُدعى للانضمام إلى أعضاء اللجان الأمنية البيضاء.

كان عليه أن يجد عذراً للتملص من ريبيكا وهجالمار؛ فهما سيصابان بالدهشة فيما لو أعلن في هذه الساعة فيما الجميع يتبردون بشكل عادي تحت الشجرة، أنه ذاهب لتناول مشروب في فندق الفيش ايغل. علق بقوله إنه سيكون عليه أن يرى سامبسون ماليمبا في حوالي الساعة السابعة؛ كان هجالمار وريبيكا يخطوان خارج المنطقة الواقعة تحت التينة، هجالمار معه شريط معدني ينطلق إلى الأمام مثل لسان الحرباء، ريبيكا معها دفتر مذكرات وقلم رصاص. كان هجالمار قد بدأ يشغل نفسه بهدوء حول البيت؛ أولاً كان قد هيأ ضوءاً أصفر طارداً للحشرات لكي يتمكن من القراءة في الخارج ليلاً، أما الآن فكان بصدد أن يصنع مساحة ممهدة تحت شجرة التين. ريبيكا تذكرت كومة الآجر المتروكة في الباب التالي في حديقة آل تلومي من قبل بنائي الحكومة. فيما يبدو، أن هجالمار، كاليمو، ماهلومي، وأولاد تلومي الكبار، قد نقلوها أثناء النهار في عربات اليد ذات الدولاب الواحد. كان هجالمار وريبيكا يتناقشان فيما إذا كان ينبغي وضعها في نسق النسيج السلي أم في كتل أفقية وعمودية متقابلة. «هل ستطلى بالاسمنت؟» «لا، لا » أثبت هجالمار بيديه «إذا وُضع الآجر بشكل صحيح، غمس إلى الوجه في الأرض، ألصق إلى بعضه بإحكام، فإنه لا يكون بحاجة إلى شيء. إذا أحببت بإمكانك أن تتركي بضعة فراغات مفتوحة لوضع شجيرة صغيرة أو ما شابه. ازرعي شيئاً ما، فهذا يبدو ظريفاً، ايه؟ بعد انتهاء الأمطار، لن ينجرف، عندها بإمكانك أن تغرسي نبتات صغيرة».

«ألن يكون ظريفاً في العام التالي؟» التفتت متحمسة إلى براي. تركهما يعملان على التحسينات لأجل المنزل كما لو كان هو، هي، وهجالمار نوعاً من أفراد أسرة يبنون بيتهم في مكان يتوقعون أن يعيشوا فيه دون إزعاج بقية أعمارهم.

كان ديڤ، الساقي الأسود في الفيش ايغل، شعبياً مع الرجال البيض الذين يذهبون إلى هناك للشرب. كان يرتدي سترة سهرة زرقاء وربطة، وقد حفظ كثيراً من

Twitter: @alqareah

عباراتهم بانكليزيته الطليقة «ماذا تشرب، سيدي، العقيد؟ هل أنت بمفردك، أم تريد الانتظار؟» مكشراً، وهو يفرش المنديل فوق طاولة الحساب، ويسوي أطباقه الصغيرة من رقائق البطاطا المقلية. كان براي يفكر كم سيبدو أي رجل من رجال شينزا منافياً للذوق السليم بشكل مضحك هنا عندما تأكد له أن الساقي نفسه هو الذي كان يميزه للفت الانتباه إليه. «عذراً، يا سيدي العقيد،لكن سيارتك تسد الطريق ـ هل يمكنك من فضلك أن تحركها» عندما غادر البار، اختفى الساقي عبر باب آخر وقابله في الممر.

«تعال من هذا الطريق تماماً، يا له من إزعاج».

لقد كان بوسع أي شخص يمكن أن يسمع؛ قاد براي مروراً بصناديق الزجاجات الفارغة: «اذهب من خلف ذاك السياج من طريق المرآب، غرفتي هناك ذات السقف العالي، بإمكانك أن تراها. لقد تلقيت رسالتي اوكي، ايه؟ يكفي أن تفتح الباب. إنه بالداخل...». كان لشينزا أصدقاء في بعض الأماكن اللامتوقعة. لكن هذا لأن غالا الصغيرة ظلت، على السطح، مدينة استعمارية بيضاء ومن الممكن أن يرتكب المرء خطأ رؤية الرجال السود في سياقات بيضاء لمجرد أن واحدهم يتقن عمله. فشخصية ديف تبدو رجلاً أسود أبيض يشاطر زبائنه همومهم أكثر من أي هم آخر؛ ففي نهاية العصر الاستعماري في دول أفريقية عديدة، كان رجال النوادي البيض يُصدمون باكتشاف أن الانسان الذي كانوا يعتبرونه نادلهم أو سائقهم المفضل إنما كان في حياته السرية مناضلاً سياسياً.

كانت باحة الفندق معتمة إلا من مصباح وحيد فوق جناح الرجال، فالذي يخدم البار كان خارجاً هناك، لذلك حتى لو شوهد فلا شيء غير عادي في رجل أبيض يتجول حول مقر الخدم. في الغرفة الملحقة بالمنزل جلس شينزا على سرير مرفوع على آجرات ومغطى بغطاء قماشي مزهر.

«انظر ـ قبل أن نقول كلمة أخرى ـ سيلوفو حصل على الضوء الأخضر للقبض على أي شخص يعتبره «غير مرغوب فيه» وهذا يعني أن لديه الكثير من المخبرين حوله، لذلك...».

كان شينزا يهز رأسه، ضغط رأس لسانه إلى الأعلى نحو السن المكسور.

«أنا لا أذهب قرب الضاحية، لا تقلق بشأن ذلك. وهؤلاء الناس هنا موثوقون مئة بالمئة. بازيل معتقل هل تعرف؟ تم القبض عليه في لانجي، في نفس اليوم الذي قبض فيه على الثلاثة والعشرين».

Twitter: @alqareah

قال أليك إنه «كان ثمة آخرون ـ» «بالإضافة إلى زعماء النقابة. كانت لانجي قرية صغيرة قرب العاصمة.

«حسناً ـ اختصر شينزا الطريق على نفسه ـ «كان يتعين وجود شخص ما، أعتقد. الشيء السيء أنه بازيل. جيمس، لقد صار علي أن أمتلك سيارة. بازيل كان يستخدم السيارة القديمة، سيارة حميي».

«هل كنت هناك أيضاً؟»

استبعد شينزا ذلك. «كان ذلك خيراً. لقد أخطأوني. لكن لا أحد منا يمكنه العودة إلى السيارة. أنا بحاجة ملحة إلى واحدة. يجب أن أخرج من هنا الليلة».

«هذا ليس سهلاً. في غالا كل واحد يعرف سيارة الآخر».

«أعرف. ولكن يتعين أن أحصل على واحدة».

«سأحاول. سأحاول».

«لا تحاول، يا جيمس؛ يجب أن أحصل عليها...».

كانت الغرفة صغيرة للغاية بحيث بدا وكأنهما محشوران أحدهما قرب الآخر أكثر مما ينبغي. قال لشينزا:

«هل كنت تعرف عن تولا تولا؟».

«ماذا تقصد؟»

«هل كان ذلك متوقعاً؟».

«كان تولا تولا يلتف علينا. قبل المؤتمر تماماً أجرى معي حديثاً. قال إن بإمكانه أن يحمل آل مسو معه، وبالطبع، كان يعرف أن كثيراً من الناس لا يزالون يؤمنون بي...».

ضحك شينزا. «ايه؟ فكر لو كان بإمكاننا ربما أن نعمل معاً... لقد بيّن أن بإمكانه الحصول على المال. كرمى للمسيح من كان مستعداً لإعطاء المال لتولا تولا؟ ايه؟ بأي حال ـ لقد عرض عليّ شراكة صغرى أو كان يحاول أن يوقع بي في الحديث بحيث يستطيع أن يبلغ عني».

ـ لا أعرف أيهما بالضبط.. لقد أخبرته أنه يعرف أنني قد استقلت من السياسة. قال إنني أهينه بمعاملته كمغفل. بالطبع، بعد تجواله في كل أنحاء البلاد، وجد من يسانده، استطاع أن يضع يديه على الأشياء... انظر، يا جيمس، أريدك أن تذهب لأجلنا، الآن.

«إلى سويسرا».

Twitter: @alqareah

«أي مكان، كل مكان».

نظر براي إليه.

«أوه ذاك الشيء ILO ـ حسناً. إنه متأخر جداً. ثمة فرصة الآن قد لا تتكرر ثانية. أنت تعرف عما أتحدث. هذا الإضراب في المنجم لم يكن من فعلي. ليس عليّ أن أخبرك ذلك. ولكن الآن والأمور تسير على هذا النحو، سيكون عليّ أن أنتقل إذا كنت بصدد أن أتحرك بالمرة. يجب أن نستفيد من ذلك، أنت تفهم. قد يستمر ذلك وقتاً طويلاً، وإذا أصبح إضراباً عاماً... إذا أضرب البلد بكامله ـ يا جيمس، ما أريد منك هو أن تذهب وتحصل على المال لأجلنا. بسرعة، الآن. أنت تعرف الناس المناسبين في انكلترا. ثمة القليل من الاتصالات لي... هناك من السويد، ألمانيا الشرقية. يجب أن نأخذ المال حيثما نستطيع، في هذه المرحلة. لقد حصلت على البعض منه، قبل الآن، كان لدي البعض منه، بالطبع يجب على سومشتسي أن يملك المال إذا كان بصدد أن يساعدنا وأنا بحاجة إليه، يا جيمس. لديه أشخاص مدرّبون... أنت تعرف. بقوة صغيرة من الأشخاص المدرّبين في الأماكن الصحيحة في الوقت الصحيح، تستولي على محطة الإذاعة والاتصالات البعيدة... المطار... بإمكانك أن تنجح في ذلك بدون... تقريباً بدون خدش. إذا كان مويتا لا يستطيع أن يوحد هذا البلد ونحن تقاعسنا، فما الذي ستنالونه؟ سيكون لكم تولا تولا. أنت تفهم ذلك. تولا تولا أو شخص مثله. هذا ما ستنالونه: والرشاوي ستكون أكبر في العاصمة والسجون ستكون أكثر اكتظاظاً، وعندما تتأخر الأمطار، مثل الآن، سيكون على الناس أن يفتشوا عن الجذور ليصنعوا قليلاً من العصيدة، تماماً بالطريقة التي كان يحدث بها هنا دائماً».

فكر براي، إنه يقول كل الأشياء الصحيحة لي؛ لكن شينزا سكت عندئذ، وفي هذه الغرفة التي كانت تضمهما بشكل متلاصق مثل زنزانة، عرف شينزا ماذا كان يجول في خاطره: فقد كان يفكر بالشيء نفسه، وقال: «لم يخطر ببالي أبداً أن أفعل ذلك. الآن يتعين علي أن أفعل».

قال، «ماذا سأقول لك؟ سأفكر في ذلك ملياً».

أطلق شينزا نخرة متعاطفة...

«عندما أكون قد فكرت في ذلك ملياً، سأعرف فقط ما أعرفه قبلئذ: لم يخطر ببالي أن ذلك كان متوقعاً مني. ليس فقط من قبلك. بل مني نفسي».

ابتسم شينزا له بشكل شبه أبوي:

Twitter: @alqareah

«أعتقد أننا لم نعرف كم كنا محظوظين بأن ننطلق بدون بنادق حتى الآن. بالأخذ بالاعتبار ما نريد. أنت لا تتوقع أن تحصل على ذلك مقابل لا شيء».

«سيكون ثمة القليل من العنف الرمزي، يا براي؛ ولن تشعر بشيء. سيحدث ذلك لأشخاص آخرين، كالذي يفعله الغاز المسيل للدموع والهراوات».

«ولكن هل تتوقع ذلك لنفسك؟» كان شينزا يقول، منشغلاً بشكل مستقل.

«نعم»

«يا إلهي، يا جيمس، تذكر الأيام الخوالي عندما اعتدنا أن نأتي إلى محلك ونحن نتضور جوعاً بعد الاجتماعات؟ بعد ركوب الدراجة لخمسة عشر ميلاً في المطر من تبشيرية مولو غوشي؟ وعندما جاء الأمر من أمانة السر بأن «يقبض عليّ» وقررت أنت أنه لم يقل «يُعتقل» لذلك استطعت أن «تقبض» عليّ لتخبرني عن ذلك...؟»

ضحكا.

«سأعود لاحقاً إذا استطعت أن أنبش سيارة. إذا لم أكن هنا لنقل في الساعة الحادية عشرة، فلا تتكل على ذلك».

لكن شينزا بدا واثقاً من أنه لن يكون هناك. ربما يعرف، أيضاً، أن لي امرأة، وأن السيارة ستكون سيارتها لأن سيارتي أيضاً معروفة جيداً في هذه المحافظة.

عاد إلى البيت واتصل بها من غرفة النوم بحيث يتمكن من التكلم إليها على انفراد.

«بإمكانك أن تستخدم سيارتي في هذه الأثناء، وسنقول إن سيارتك في المرآب لأجل الإصلاح. هجالمار لن يعرف أنك لم تأخذها إلى العمل في الصباح لأنك دائماً تكون قد ذهبت في الوقت الذي يستيقظ فيه «آمل من الله فقط أن تسير» قالت، وعيناها تتحركان في أرجاء الغرفة بأسلوب شخص لا يود أن يطرح أسئلة.

قال: «الشيء الوحيد الذي يقلقني هو ما يحدث لو اعتقل في مكان ما... إنها سيارتك التي سيقودها... ولكن مع سيارتي... لو تم ربطي به بهذا الوضوح فلن أكون ذا فائدة كبيرة بعد...».

- «لا، لا، ليس سيارتك».

انتزعت أي تفسير، من كليهما.

كان ذلك كله عملياً مثل مناقشة ما هي المؤن التي سيأخذانها عندما يذهبان في نزهة صغيرة إلى البحيرة في عطلة نهاية الأسبوع.

Twitter: @alqareah

كان الليل مفعماً بالرطوبة التي لم تجد منفذاً ـ فقد كان لا يزال بإمكان الشمس أن تسحبها يوماً بعد يوم، حتى في الجفاف، من الماء والغابات إلى الشمال الغربي. في حوالي التاسعة والنصف قال إنه نسي محفظته الجلدية في بيت ماليمبا. بعيداً عن الأنظار حول قفا المنزل، أخذ سيارة ريبيكا بدلاً من سيارته. كان الرجال البيض بالشورتات يلعبون لعبة السهام المريشة بين الصراصير الطائرة على الفرندة المضاءة لفندق الفيش ايغل؛ تذكر التوقف في أعلى السلم هناك، عندما عاد لأول مرة إلى غالا، وهو يفكر بأن بإمكانه أن يميز البحيرة بعيداً فوق المسافات الزجاجية... لو كان قادراً على رؤية ذلك، فقد كانت الفتاة هناك أمامه في ذاك الحضور. تولد لديه الشعور بأن منطقة الشك الذي يحيط به بصرياً عندما خلع نظاراته هي الظروف الحقيقية التي عاش فيها حياته؛ ونظاراته كانت أكثر من وسيلة لتصحيح عيب جسدي، كانت طريقته المختارة في إعادة ترتيب ما لا يمكن معرفته وفق خطوط عامة قليلة اهتدى بها.

ساق السيارة حول سكن الساحة الخلفية. كان شينزا يستلقي على السرير، حافي القدمين، يدخن. كان ثمة اثنان من الشباب رآهما براي معه من قبل. كان جهاز راديو يبث، أعطاه براي المفتاح، مد يده السوداء ذات الكف الأصفر الذي ارتسمت عليه خريطة قارئ الحظ.

«سيقود أحدهم السيارة بك في طريق العودة».

«لا، يمكنني أن أمشي».

«بحق الجحيم، لا، يا رجل، حقاً؟ أعتقد أن ذلك أفضل». بكسل تقريباً. جلس الملازمان الشابان، واحد على كرسي، وواحد على صندوق مقلوب، أقدامهما مغروسة، منكبين إلى الأمام بأسلوب الرجال المعتادين على استعمال أيديهم، في رفقة رجال يستعملون الكلمات. نقر شينزا المفتاح لأحدهما وأخبره بلغة الغالا أن يحرك السيارة إلى الزقاق الواقع خلف عقار الفيش ايغل. نظر إلى الآخر بنظرته الآمرة النافذة الصبر، وهو يلف لحيته بين إبهامه وسبابته مثل كرية خبز. نهض الرجل، وقف للحظة، وتابع.

ـ «هل أنت عائد إلى هناك؟» كان براي يتحدث عن العاصمة.

ـ «لا يقلقني الجيش كثيراً» لم ينزعج شينزا بالإجابة. كشر براي واستقام شينزا في جلسته على السرير الذي صرّ ووضع ذراعيه حول ركبتيه، رافعاً حاجبيه لنفسه.

Twitter: @alqareah

ـ «لا، انتظر دقيقة. مع الجيش يمكنني أن أصل إلى مكان ما. ثمة رجل أبيض في القمة، رجل مويتا، رجل الدولة. العميد رادكليف يعمل مع جيش الشركة. حقيقة الأمر أن أحد أصدقائه هو الذي دربّهم، أوصى به زميل قديم في [كلية] ساندهرست. أوه نعم. لكن ضباط رادكليف أفارقة. على الأقل إن اثنين من ذوي الرتب العالية لا يحبانه كثيراً وهما طموحان. هو يعتمد عليهم جميعاً لتنفيذ أوامره. إذا ذات يوم لم... فثمة فقط ثلاثة آلاف رجل، ولدى سايروس صلات مفيدة جداً بين الضباط . لقد ظل يشتغل على ذلك لبعض الوقت».

«يا إلهي الطيب...».

أرجح شينزا ساقيه فوق جانب السرير بشكل حاسم. لم يستطع براي أن يفلت منه. تابع كما لو أنه لن يوقفه شيء؛ كلما عرف براي أكثر قلة الخطورة في إخباره، كلما زادت القيود عليه.

ـ «كان سايروس ناجحاً تماماً، لا أمانع في القول، يا جيمس. كان دالاميني اوكوي مفيداً أيضاً. أخوه في منطقة جيش HQ. بإمكانك أن تتعلم الكثير منه. أنت تعرف أن الجيش قد أعيد إنعاشه قليلاً قبل الاستقلال، جُعل لا مركزياً بحيث أن كل تشكيل هو تشكيل عملياتي قائم بذاته. الآن إذا كان بإمكانك أن تتولى السيطرة على أي مستوى تقريباً، فالأوامر التي تعطيها سوف تطاع على كافة المستويات في الأسفل، لأن مختلف القواد غير معتادين على أخذ أوامرهم مباشرة من GHQ بعد، كما كانوا من قبل. لديك فرصة جيدة لأن تكون فعالاً على كافة المستويات ـ باستثناء الفرقة والكتيبة، بالطبع، لأن ذلك تابع لـ GHQ. ذهب العميد اوكوي إلى ساندهرست أيضاً. يعتقد أن بإمكانه الاتكال على ضباط اللواء السادس بالإضافة إلى ضباط لوائه، الثالث والعشرين، أي لوائين، من جيش صغير إلى حد ما. مصدر القلق الرئيسي هناك هو قوات حملة الشركة... هكذا يسميها. هذا سيتوقف على كيفية احتلال ذلك... أما البوليس، فتلك قصة أخرى»..

«اونابو بمثابة زعيم، لكن كثيراً من الضباط البيض هم الذين في الواقع يسيّرون العمل، تحت إمرته».

«بالضبط . أولئك البيض هم المحترفون الحقيقيون الذين يريدون أن يعملوا ما يدفع لهم مقابله. لا توجد فرصة لأن يكون أي منهم معنياً بنا. وثمة من البوليس أكثر من الجنود».

Twitter: @alqareah

«اونابو ليس مغفلاً، أيضاً. إن رولي ما كان لينصح مويتا بتسليمه لو كان مغفلاً. إنه يعرف كيف يعتمد على ضباطه البيض عندما يصل الأمر إلى وضع كهذا. سيشكر الله لأجلهم».

«هذا هو الوضع يا جيمس، رجال البوليس كثيرون جداً. وتنظيمهم راسخ على الطراز القديم، إيه؟ لقد كانوا كل ما لدينا على مدى دهر، عندما كان كل ما هو في طريق الجيش قلة من الفتيان من المملكة المتحدة يقومون بالتدريب العسكري هنا. كانت قوة البوليس على الدوام رديفة للجيش. وقد جعلوا الرواد الشباب يقومون بأشياء لا تبدو مستحبة لهم أنفسهم. أنا أعرف كل ذلك. ولكن ثمة إشارات قليلة إلى أنهم ليسوا سيئين للغاية... هل تعرف أي انقلاب في السنوات الخمس عشرة الماضية أو أكثر دافعت فيه قوة البوليس عن أسيادها السياسيين؟ إن ذلك يميل لأن يكون بيروقراطياً بشكل جوهري... وفي بلد بهذا الحجم، وهذا العدد للسكان لا يزال في معظمه زراعياً، يعيش في القرى، فإن الأعداد الكبرى من رجال الشرطة هم في المناطق الريفية. هل يمكنك أن ترى رجال سيلوفو المحليين يندفعون إلى العاصمة لحماية حكومة لم يروها أبداً؟».

استمع لكنه لم يجب.

ـ «لدينا أصدقاء آخرون، أيضاً. في مكان جيد. الفرع الخاص. إنه ليس فقط عوناً للحصول على المعلومات، إنه أيضاً هام لنكون قادرين على فعل شيء ما حول ما يتم تسريبه. أقصد، لإخراج تولا تولا من الطريق، هذا شيء، هل تعرف؟».

«لذلك فإن ذلك كله احترافي جداً» قال براي.

نظر شينزا إليه مثمناً للحظة.

«نعم! إذا تم انجازه بالشكل الصحيح فلا ينبغي أن تكون هناك رؤوس مكسورة. لا قطرة دم، لا خدش».

«ماذا عن سومستشي؟».

«لم يفكر بشيء سوى هذا النوع من الأشياء على مدى سنوات. إننا بحاجة إلى تجهيزات نقالة لأجل الاتصالات، يا رجل، أشياء كهذا. إننا نذهب لأجل المركز التنظيمي، لا نبحث عن المعارك في الشارع».

«متى تريدونني أن أذهب، يا إدوارد؟».

ـ «الآن. بالسرعة الممكنة. سوف تعيد الطعام؟».

Twitter: @alqareah

في الطرف الآخر. سأخبرك بالعنوان لأننا لا ندون أي شيء، ايه لا أريد أن يلقى القبض «عليك...»

«لا أعرف إلى أي مدى يمكنني الإسراع في الذهاب. ما زلت لا ألعب بالوقت. ثمة أشياء شخصية يجب ترتيبها، حسمها. عليّ أن أقرر ما هي الكيفية الفضلى لفعل ذلك».

«جميل. جميل. لن أكون هنا. الناس دائماً رائحون وغادون، بإمكانك أن تترك رسالة هنا في البار، ولكنها قد لا تصلني باستمرار. أفضل شيء هو أن تجري اتصالاً عندما تنزل لتحجز على طائرتك. اذهب إلى كاراج هفاجي ـ هل تعرف؟ ـ اسأل عن توماس باثلو».

«كاراج هفاجي مرة أخرى».

«مم؟ باثلو يعرف أين أكون. أو غوما، إذا لم أكن هناك. حسناً، هكذا سترى العائلة مرة أخرى في انكلترا، بأي حال. على الأقل إنني أقدم لأوليڤيا مطلباً جيداً».

«قد لا أكون قادراً على العودة» قال براي «قد لا يسمح مويتا لي بالدخول. لا بد أنه يعرف أننا على اتصال. وإن هو تركني أدخل مرة أخرى فسيكون عليه أن يعتقلني».

فجأة تكلم شينزا بلغة غالا. «ربما يحتاجك لإطلاق يده لأجل ذلك، حتى الآن». إن عبارة «لإطلاق يده» كانت تعني رفع الحظر عن إيذاء عضو من القبيلة.

قال براي: «لقد تم ذلك».

ناقشا بالضبط أين عليه أن يذهب وأي نوع من الدعم يجب أن يحاول إيجاده؛ رتبا الاتصالات التي ينبغي عليه أن يستعملها لإعلام شينزا، سواءً في البيت ومن خلال سومشتسي عبر الحدود، مر زمن طويل بعد موعد حظر التجول عندما بدأ يمشي إلى البيت. كان الفيش ايغل يغرق في الظلام، الشارع الرئيس ساكن وصاخب بصراصير الليل والقرقرات الصغيرة لضفادع الشجر. لم يقابل سوى دورية شرطة واحدة ولم يحاول أن يتهرب منها؛ إن رجلاً أبيض آتٍ من اتجاه بار الفيش ايغل من الصعب أن يعتبر مصدر خطر أمني. تمتم الشرطي بعبارةِ مساء الخير فظة بلغة الغالا فتمتم هو بتحية مقابلة. بالطبع لو كان في انكلترا أيضاً، لكان مخالفاً للقانون. ألم يكن من الإساءة أن يخطط للإطاحة بدولة صديقة؟ كان الشتاء قد بدأ هناك، كما كان في العام الماضي، منذ حوالي سنة، عندما غادر. الأوراق الرطبة الباردة تغطي

Twitter: @alqareah

الأرصفة ورائحة القبور المتحللة الحلوة تصدم الوجه. انكلترا. اجتاحه نفور عميق، وهو في الواقع يبطئ خطواته. انكلترا.

كان هجالمار وريبيكا لا يزالان في الخارج تحت شجرة التين عندما عاد إلى المنزل. بشكل آلي، كان قد اتخذ الحيطة لأن يفتح ويغلق بعنف باب سيارته، بحيث سيبدو أنه قد ذهب إلى البيت بها. كان بإمكانه أن يشم رائحة عرقه عندما هبط على الكرسي وكان يأمل أن هجالمار لن يلاحظ أنه من الواضح أنه يمشي. كان الجو حاراً للغاية بحيث أن لا أحد يشعر بالرغبة في الذهاب إلى السرير. كان القمر قد بدّد بعضاً من السديم، عالياً في السماء، وبدا أنه يصدر الدفء المنعكس مثلما يصدر الضوء. احتواهما السلام المنزلي الغريب الذي وجد لنفسه مكاناً بينهما في تلك الأيام، كما لو كان بمقدوره أن ينمو فقط في كل ما يجعله مستحيلاً وعبثياً.

قالت ريبيكا فيما بعد: «إنني أشم رائحة حريق».

بعيداً باتجاه الضاحية، كانت السماء تكشف عن شروق منتصف الليل.

Twitter: @alqareah

(20)

أحرقت المنازل في تلك الليلة، فمات خمسة عشر شخصاً.

بدأت الحرائق المقدسة في كل أنحاء البلاد؛ فقد استولى الشباب على مجاز «حرق مويتا للأسمال القذرة» لأجل نصهم. لا شيء قاله الآن، غاضباً أم يائساً، مهدداً أم مناشداً، كان قادراً على الوصول إليهم، في حماستهم الشرسة.

كان لكثير من المضربين من منجم خام الحديد عائلات تعيش في غالا. في يوم الجنازة المشتركة، في حين حُوّل رجال الشرطة من خلفية المنجم إلى المدينة للتعامل مع محرقي المباني (وبدأ الناس الذين أحرقت منازلهم ينضمون إلى بعضهم في عصابات للثأر بحرائق أخرى)، انقض هؤلاء المضربون فجأة على غالا. تغلبوا على فريق من الشرطة المتروكة لحراسة المنجم وصادروا شاحنات المنجم المسافرة ليلاً. وفي معمعة الفوضى نجحوا في الوصول إلى المدينة في الصباح قبل أن تتمكن الشرطة من إيقافهم. هناك انقسموا بطريقة ما إلى فصيلين، واحد عبر مضمار الغولف وصولاً إلى الضاحية الأفريقية، فيما انتهى الآخر في شوارع غالا نفسها. كان براي وريبيكا يراقبان من البوما؛ كان الناس ساهرين طوال الليل وجاؤوا وهم ينشدون، يتهادون بخطوات كبيرة، حالة في طفر بطيء، البعض منهم يرتدي الخوذات المنجمية، البعض يحمل عصياً تشبه العكازات أكثر مما تشبه الأسلحة. اغرورقت عينا ريبيكا بالدموع؛ ظنه خوفاً. قالت: «مساكين».

ناشده أليكي، وهو يقف متباعد الساقين، يأخذ نفساً عميقاً: «هل يعتقد أن المظليين سوف يهبطون من السماء؟ إنه مجنون. كيف يمكنني أن أحصل على القوات هنا الآن، في هذه الدقيقة؟».

كان سيلوفو قد أيقظه من النوم في وقت مبكر من الصباح، ظل يتصل بالهاتف.

Twitter: @alqareah

«حسناً، إنه رجل قلق».

«كل واحد قلق. لقد تكلمت إلى ماتوكو. أجريت مكالمة إلى الوزارة، طلبت الوزير نفسه. الآن ماذا يريد؟ إلى الجحيم».

وقف هناك يتطلع خارجاً إلى المسيرة بتعبير فضولي من التردد العابس. كل طبيعة الطيبة الواثقة بدت موزونة مثل تيهور(*) يمكن لصيحة أن تتسبب بسقوطه.

«والمساعدة من ماتوكو؟».

«هل أنت مجنون أيضاً؟ كل الجحيم في منجم الاسبستوس منذ الأسبوع الماضي. كان على الشركة أن ترسل مكافحي الشغب. أطلقوا النار على المضربين البارحة، قتلوا امرأة كانت مختلطة بهم بشكل ما. الله يعلم ما الذي يحصل هناك».

صار الإنشاد عالياً كصوت التشيلو ومرتعشاً، ويُحدث تحت النوافذ تلك الرهبة الخصوصية التي يمتلكها الصوت البشري في قدرته على خلقها.

لاح موظفو وسعاة البوما على رقعة العشب والأزهار. رفع الجنائني موسى العجوز كالثعبان نافورة خرطومه في الهواء وصاح بلغة الغالا، هل أنتم عطاش! ضحك أهل البوما بتحفظ، متوقعين أن يستدعوا للعودة إلى العمل؛ أمسك أحدهم حافظة الأوراق الحكومية البنية لحماية عينيه من الشمس.

لم يكن هدف المضربين واضحاً. كان موجوداً بداخلهم، حيث يعرفون أنهم مهددون على مدى أشهر من قبل أشياء كثيرة: انعدام الثقة بالناس الذين يتكلمون بالنيابة عنهم في المنجم، السلطة المحيرة للناس الذين يتنمرون عليهم باسم حزب الرئيس، فشل السلطة في حمايتهم. تحركوا مروراً بالبوما باتجاه السوق.

قال أليكْ فجأة: «هلموا» وكان تحثه الخشية أكثر مما تحثه الثقة، حول ما يمكنهم أن يفعلوه، وجد براي نفسه معه، أسفل سلم البوما ذي الدرابزين الخشبي القديم، إلى الخارج مروراً بالموظفين، الذين، بالرغم من أن أليك لم يفعل الكثير كالنظر إليهم، كانوا يخشون أن يُتبعوا، ومشى على الطريق بخطوات واسعة خلف الرجال. كان ردفا أليك العضليان الكبيران في شورت التيربلين المشدود يعملان مثل ردفي رياضيٍ. نجح بغريزة ممتازة في تحويل الجانب اللا محترم من المطاردة إلى ميزة. بدلاً من الإسراع في موازاة المضربين شق طريقه بإرادة كلب الرعاة سريعاً عبر القطيع. شعر براي بالأجساد تمشي الهوينا حوله، وشمَّ رائحة العرق والغبار؛ أغلب

(*) التيهور: كتلة ضخمة من الثلج الجليد أو الصخر تنهار بسرعة على جانب جبل أو منحدر شديد (المترجم).

Twitter: @alqareah

الرجال تعرفوا عليه أكثر مما كانوا يعرفون أليك. العيون عليه: تقلص الحتمية ووميض الانكشاف ـ كما لو أن التزامه بشينزا، مكانه الحقيقي في كل ذلك بدلاً من صورة نفسه بصفته التأييد المحايد لأليك، كانا مكشوفين للحظة أمام أولئك الذين بمقدورهم أن يشاهدوا. لكن عادة السلطة كانت غريزية. هو وأليك اخترقا الصفوف الأمامية من الرجال عند السوق تماماً ومشيا بخطوات مديدة نحو الوراء قليلاً، أيديهما مرفوعة في توافق كامل. تلاشى الغناء؛ وقف الرجال الذين في المقدمة وأقبل أولئك الذين في الخلف، وهم يقتربون. تدفقوا بحيث كان أليك وبراي محاصرين، ولكن في فضاء واضح، بين أكوام صغيرة من الخضراوات الذابلة من الجفاف والسمك المجفف. كان ثمة امرأة عجوز حُبست هناك معهما في خطوتها وجلست دون حراك، ساقاها الخشنتان ناتئتان تحت ثوبها. بدأ يتكلم . كان ذراعاه مثنيين عبر صدره الكبير. عندما اندفع الرجال إلى الأمام ليسمعوا اخترقهم مرة ثانية ووثب على كشك مصنوع بجهد شخصي، منتصباً بين الفول السوداني وجذور المنيهوت. أصدر صريراً لكنه ثَبُتَ في مكانه؛ لم يكن صوته البهيج القوي متنمراً ولا مناشداً. قال إنه يعرف لماذا أتوا؛ إنهم قلقون حول أقاربهم. لكنه وعد بأن يتم القيام بكل شيء لإيقاف الحرق والقتال. إذا أخذوا على عاتقهم أن يحاولوا ويوقفوا ذلك فإنهم سيجعلون الأمور أكثر سوءاً بالنسبة لأقاربهم. إذا عادوا من الطريق الذي جاؤوا منه فإنه سيكفل شخصياً أنهم لن يُعتقلوا أو يُضايقوا.

كان يعرف وكانوا يعرفون أنه لا يمكن أن يعد بشيء من هذا النوع. لكنهم كانوا يؤمنون بأنه سيحاول؛ وهدفهم، غير واثقين من تعبيره الصحيح، تذبذب أمام سلطته. انحل التوتر عندما تنقل وهو يتحدث بين الناس، وانخرط الناس في السوق في النقاش، يلوحون ويشيرون.

قال براي: «أعدهم إلى مضمار الغولف. أخرجهم من هنا بأسرع ما يمكن. لكن سيكون أكثر أماناً أن ترتب ذلك على شكل مجموعات. عليهم أن يتجنبوا الشارع الرئيسي».

كان ثمة حوالي مئة وخمسون رجلاً؛ من الصعب ألا يتبدلوا عن طريق التولي الواضح أكثر مما ينبغي لسلطة الزعماء، فقد كان جو الموافقة بدلاً من الإذعان هو ما نجح أليك في خلقه.

«هل سنذهب معهم بأنفسنا؟».

Twitter: @alqareah

وقف هو وأليك كما لو في حشد خارج من مباراة كرة قدم، العرق ينسكب على وجهيهما، وذباب السوق يحط في كل مكان. كان أليك يريد قبل كل شيء أن يتجنب أي صدام مع البوليس. ثم بلمسة ثقة سهلة قديمة قال: «سأبدو مغفلاً لعيناً، وأنا أخرج في المقدمة».

قال براي: «إذا انقسموا إلى ثلاث مجموعات، واحدة يمكنها العودة مروراً بالبوما، الأخرى تلف وراء المسلخ ـ لا، ليس جيداً، قريباً جداً من منشآت الكلس ـ حول قاعة الكنيسة القديمة، هذا أفضل، ثمة ممر عبر الأرض المفتوحة. ومن ثم يمكن للثالثة أن تتابع طريق البوما بعد حوالي عشر دقائق خلف الأولى. أهم شيء هو أن ندع ذلك كله سرياً».

«سوف أقوم بنوع من التمشي إلى البوما مع المجموعة الأولى. سيبدو ذلك كما لو أنني عائد إلى هناك، ومن ثم يمكنني ببساطة أن أتابع معهم رغم كل شيء».

«هذا جميل».

«لكن أنت ابق هنا»، طلب منه أليك، «تسمّرْ وابق عينيك عليهم... لا أحب فكرة هذه السوق، مع كل هؤلاء الناس إيه؟»،

بدأ الرجال يتفرقون، وهم يتحركون بحركة دوامية، أصبحوا أفراداً متعبين بدلاً من كونهم حشداً.

كان واحد أو اثنان يشتريان المنيهوت للعلك، لا بد أنه قد انقضت ساعات كثيرة منذ أن تناولا الطعام. سمع براي خلفه مباشرة هبة الإطارات، الصيحات وتحولت بالكامل إلى حمولة شاحنة من الرواد الشباب يندفعون إلى الجمهور. شيء ما ضرب كتفه بوحشية في طريقه، كانت المرأة العجوز تنحني فوق بصلاتها حماية لها، وهي تولول. مرّ الرواد الشباب مع مزق الشارات السوداء والحمراء بجانبه طائرين مثل أحصنة فوق حاجز، وشقوا طريقهم بين المضربين. كانوا يضربون بعصي ذات عقد وجنازير الدراجات. كان أليك قد توقف جامداً، على بعد ثلاثين ياردة، مع المضربين الآخرين. صرخ بهم براي أن يتابعوا، لكن الوقت كان متأخراً جداً، فالرجال كانوا يتسابقون عائدين إلى زملائهم. تدحرجت الخضراوات وكومة من الدجاج المربوط من سيقانه يتعثر بها بالأقدام، تطلق صوتاً حاداً بشكل رهيب، والريش والدم مع الثياب الممزقة وفجوات اللحم العاري. رأى برعب خانق الأيدي تختطف الزجاجات البرتقالية والخضراء الزاهية الألوان من كشك المشروبات الباردة، والسائل الملعون ينسكب فوق نتف الزجاج المكسر، الأعناق المثلمة للزجاجات تنقذف

Twitter: @alqareah

بين الرؤوس والأذرع. أحد المضربين ترنّح نحوهما، الذهول الرهيب من طعنة تتحول إلى جرح بليغ من الدم فتحت الوجه بكامله، من الجبهة إلى الذقن. كان دم الدجاج والرجال يسيل في كل مكان. صارع براي ليصد ذراعاً رفعت عنق زجاجة فوق رأس آخر.

لوى ذاك الذراع ولم يكن بمقدوره أن يفلته حتى لو سمع العظم ينقصف. عندما سقطت الزجاجة في يده الأخرى أنزلها عميقاً في جيب سرواله وهو يتصارع في الوقت نفسه مع شخص كان قد أمسكه حول العنق من الخلف. جاء الناس يركضون من البوما ومنعطف الطريق الذي يؤدي إلى مركز المدينة. فيما كان يقاتل كان مفعماً بالألم المبرح لدى مشاهدته لمزيد ومزيد من الناس يندفعون إلى الحشد الهادر المتقاتل. كان يحاول الوصول إلى أليك بدون أن تكون لديه أية فكرة عن مكان وجوده؛ فجأة رآه أليك، ينزف من الأذن، يجاهد باتجاهه. لم يتكلما بل شقا معاً طريقاً عبر الضربات واندفعا وراء مراحيض السوق، عبر الساحة الخلفية لمجموعة من الدكاكين، وإلى خلفية البوما.

بدت أسنان ريبيكا مطبقة بين شفتين مفترتين، مثل شخص أخرج لتوه من ماء بارد. حملقت إليهما بارتباك. خطف غودفري ليتانكا، الموظف الكهل في سترة الألبكا الأنيقة، المنشفة من جانب المغسلة في مكتب أليك وثبتها على الأذن النازفة. «هل هو من الداخل؟» سأل براي.

كان أليكْ، وصدره الكبير يصارع لأخذ نَفَس، هز رأسه كما لو أن ذبابة في أذنه. حاولا أن يمسحا الدم لكي يريا من أين يأتي، وهناك اكتشف براي ثقباً صغيراً، عميقاً، تماماً عبر غضروف قوقعة الأذن: هكذا لم تكن إصابة دماغية. وجد ليتانكا علبة الإسعافات الأولية في مكان ما وأمسكت ريبيكا الأذن بإحكام بين ضمادين من القطن الطبي لوقف النزف.

لم يعد أليك مدوخاً.

«اتصل بسيلوفو - جرّب الهاتف، يا جيمس!...».

قالت ريبيكا: «البوليس هناك...».

«أنت لم تري. كانوا على أطراف الحشد، وصلت سيارتا جيب من شارع نيروبي، من ذاك الجانب، غودفري وأنا رأيناهم من السطح». «السطح؟».

«نعم، وجدنا أنك استطعت أن تصعد إلى تلك المنصة الصغيرة حيث يوجد العلم».

Twitter: @alqareah

اندفعوا مع أليك الذي يمسك ضمادة من القطن الطبي إلى أذنه، على امتداد الممرات الفارغة («أولئك الحمقى الدمويون من المنجم، ذهبوا جميعاً لكي تكسر رؤوسهم») وتسلقوا عبر نافذة إلى الجملون الخشبي الملتف الذي بني بمثابة مِنْصَبْ لأجل سارية العلم عندما كان يرفرف العلم البريطاني هناك.

«لا تصعدي ثانية، قد يكون ذلك أثقل مما ينبغي» قال براي لريبيكا. فوقفت هناك في الأسفل، تنتظر.

اتقلبت سيارة وكانت تشتعل حاجبة كل شيء بالدخان والأبخرة. لكنهما استطاعا أن يشاهدا سيارات الجيب التابعة للبوليس، الأسواط اللامعة لهوائيات راديوهاتها.

عادا إلى داخل البوما وحاول أليك أن يتصل بسيلوفو. في حين سأل الموظف المسؤول في الخدمة وهما يراقبان وجهه لأجل رد فعله على الإجابات، همست ريبيكا لبراي، «أنت تنزف أيضاً».

نظر إلى الأسفل، كان ثمة دم قاتم على حذائه. «الدجاجات قتلت» هزت رأسها؛ أشارت، دون أن تلمسه أمام الآخرين.

«إنه يسيل، انظر». امتدت يده إلى جيبه فأخرج العنق المكسور لزجاجة الليمونادة. نظر حواليه بحثاً عن مكان ما يضعه فيه. أخذته منه ووضعته، وهو ملوث بالدم والقذارة، في نفاضة سجائر أليك الكبيرة، كان داخل جيب السروال ممزقاً وفي حضنه لمست إصبع براي خبيصة من الشعر المبلل تحتها، إنه جرح. هز رأسه؛ لم يكن شيئاً.

«إنه في الضاحية. ثمة أشخاص قتلوا هناك. كان عليهم أن يطلقوا النار عليهم. لا أحد في مخفر الشرطة سوى الرجل الذي يرد على الهاتف. لا أحد».

ساد صمت. نظرت إلى الحذاء المدمّى.

قال: «بإمكاننا أن نأخذ السيارة ونعود إذا شئتما».

قال أليك: «ما الذي يمكننا أن نفعله نحن الاثنان».

«كنتما تبليان بلاءاً حسناً. لو أن الرواد الشباب فقط ظلوا خارجاً لكان كل شيء على ما يرام. ما استطعتما فعله ـ كان بإمكاننا أن نقوم بجولة سريعة حول منشآت الكلس وهلم جرا ـ يبقي الناس في الداخل وخارج الشوارع».

«ماذا عن ريبيكا؟ هل تعتقد أن الوضع مؤات لغودفري ولها هنا؟»

قال براي، «سوف نصعدهما إلى بيتي».

Twitter: @alqareah

«يمكنني أن أقود السيارة بنا، سوف أبقى بعيداً عن هذه الطرق. غودفري وأنا سنكون بخير».

نظر براي وريبيكا كلٌ إلى الآخر للحظة. «خذ الطريق مروراً بالمقبرة. لا تذهب قرب مضمار الغولف».

وهو يجلس بقرب أليك مرت لحظة من الكآبة المخدّرة الشديدة حول ريبيكا، كما لو أن شيئاً ما قد حدث للتو لها بدلاً من احتمال أن تقع مشكلة. كان الجرح الصغير يؤلم مثل حُرق سيجارة يسبب شعاعاً من الألم خارج التصور لا يتناسب مع إصابته السطحية. كان أليك جيداً جداً هناك في الحي الصناعي. ثمة بعض التمزق في العمل هناك، الشائعات عما يحدث في الضاحية جعلت الناس تأخذ دراجاتها وتتسابق إلى البيت. تكلم إلى جماعات من الرجال فيما كانوا يحدقون إلى أذنه المعصوبة حتى رأسه من قبل ريبيكا بشريط متصالب، ورآهم براي منجذبين إليه، للاطمئنان الملموس على شخصه تماماً كما في البيت، كانت النساء والأصدقاء والأولاد منجذبين! بدون جهد من ناحيته.

قال أليك: «هل تريدون الذهاب إلى الضاحية؟».

كانت تلك طريقته في التعبير عن ذلك: «سوف آتي معكم».

وتثاءب أليك فجأة بشكل انفعالي، رفع يديه عن عجلة القيادة وصفقهما عليها مرة أخرى. «سنعرّج على بيتك لنرى إن عادوا بخير».

قال: «أتساءل بخصوص المدينة، ثمة الكثير من الناس المصابين، ولا يمكنني أن أشطر نفسي إلى نصفين. البوليس هناك. أصحاب الحوانيت سوف يمتلكون الوعي لإغلاق المحل».

كان آل تلومي مع ريبيكا، هجالمار، وليتانكا في البيت. كان الأولاد يحتفلون بذلك؛ طاردهم كاليمو خارج المطبخ فركضوا وهم يزعقون عبر الغرف. ريبيكا وكاليمو يطوفان بالقهوة. تجرع أليك فنجاناً في هالة معينة من الارتباك ـ التساؤلات اللامنطوقة التي تتراكم حول شخص ما في السلطة. كانت إدنا تلومي في مهمة ليلية. من المفترض أنها كانت نائمة أثناء النهار لكنها عادت إلى المستشفى واندفعت إلى الداخل الآن فقط لتتأكد من أن نونغواي جلب الأولاد من المدرسة.

عرضت أن تطبب أذن أليك لكن زوجته، آغنس، كانت لا تزال تتصل هاتفياً بشكل هستيري بعد أن لم تلق رداً من مكتبه، فاندفع لإسكاتها بإظهار نفسه لها للحظة. كان لديه سبب آخر، أيضاً.

Twitter: @alqareah

سأل براي «هل لديك بندقية؟».

«لأجل العصافير. على بعد ستة آلاف ميل».

كان غودفري قلقاً حول أمه وكانوا يحاولون إقناعه بألا يذهب إلى الضاحية. اتصل براي ببيت سامبسون ماليمبا فردت زوجة سامبسون، لم تكن تعرف أين سامبسون، كان ثمة مشكلة، ظلت تردد. لقد حبست نفسها بالداخل. إن سيارات وشاحنات «أولئك الناس» ـ تقصد الرواد الشباب لكن كان من الممكن أن تقصد المضربين ـ أيضاً، تسير عبر الشوارع.

«ما الذي يمكن لأليك أن يفعله بشأن ذلك؟ سواءً كنت مسؤولاً حزبياً، أم أي شخص» قال نونغواي تلومي.

«لديه مواهب معينة، أنت تعرف».

«تقول ريبيكا أن لديك إصابة في الساق، يا جميس؟ دعني أفحصها بسرعة».

كانت إدنا الصغيرة قد اكتسبت طلاقتها باللغة الانكليزية أثناء قيامها بدورة تدريب المرضات، فكانت تحفظ مفردات تقارير المستشفيات. ألحت على ذلك، وكان عليه أن يدخل إلى الحمام وأن يخلع سرواله. وقف هناك في سرواله الداخلي في حين قامت بقص الشعر ونظفت الجرح. ابتسم. «إصابة ذاتية. إنها بحاجة إلى قطب. يتعين عليك أن تأتي إلى المستشفى. يمكنني القيام بذلك في دقيقة، لكنني لست مفوضة بذلك».

«أوه، هلمي. ستفعلينها بشكل أفضل من الطبيب».

انطلقوا بسرعة إلى بيت تلومي ـ الناشز بغرف مقفلة ونوافذ مغلقة في منتصف النهار ـ وأخرجت إبرتها المعقوفة والخيط البلاستيكي «مثل إسكافي ماهر»، كما قال. غرزت الإبرة سريعاً من خلال مقاومة الجلد الجلف، سُحب الخيط بشكل ينم عن خبرة، وعقد، وقُطع. كان الكفان الورديان وأظافر اليدين السوداوين النحيلتين علامات جميلة.

«ما الذي سيحدث يا جيمس؟ لماذا لا يستطيع الرئيس أن يوقف كل ذلك؟ لا يعرف المرء ما الذي يفعله. يتعين عليك أن ترى حالات الحروق في المستشفى. ريبيكا محظوظة لكونها غير ملزمة بالقلق حول الأولاد».

تركته ليرتدي ملابسه، فارتدى سرواله الملطخ بالدم بشدة. وريبيكا لا تزال هناك، بسببه. الأحداث تحرض الوعي بشكل لا انعكاسي من لحظة إلى أخرى، لكن هذا ينسحب على العقل.

Twitter: @alqareah

هناك في البيت كانت ريبيكا تلعب مع أولاد تلومي بالاهتمام المتملق لبالغ عديم الأولاد؛ كاليمو واثنان أو ثلاثة من الأصدقاء قدموا كل واحد منهم يؤيد كلمات الآخر بهزات الرأس والهمهمات العميقة: ماهلوبي، الجنائني الشاب، انصرف إلى مضمار الغولف في وقت أبكر لينظر ولم يعد.

أعلن كاليمو: «ثمة كثير من الزبالين هنا».

لكن أصدقاءه كانوا يحاولون أن يمنعوه من الذهاب في أعقاب الصبي.

قال براي: «إذا بدأنا جميعاً بالبحث كل واحد عن الآخر، فإننا سنضيع جميعاً، يا كاليمو». كانوا يتكلمون بلغة غالا.

نغمة تقديرية صعدت من صدور الآخرين. قال كاليمو: «لقد سكر في مكان ما. أنا أعرف ذلك. وثمة دائماً ناس مستعدون لسرقة راتب شخص آخر فيما المشكلة مستمرة».

«هل أنت قلق بشأن راتبه؟».

«موكوايي، أنت تعرف أنك نفسك دفعت له ليلة البارحة».

«سأحاول وأقوم بالتحريات حوله لاحقاً. ابق هنا. أنا أحتاجك. يا كاليمو».

وعد فارغ، مداهنة صغيرة؛ انصرف العجوز على مضض. كان براي يصغي لأجل سيارة أليك؛ أبقاه هجالمار، واصفاً الرجال الذين جاؤوا عبر مضمار الغولف... «ينشدون، أنت تعرف ـ كان ذلك مثل أيام الطلاب في ألمانيا، كنا ننشد النشيد الأممي مثل التلاميذ ولم يكن ذلك يبدو حقيقياً عندما أتوا وضربونا». كان منفعلاً. «الشيء نفسه دائماً، الطلاب والعمال يمثلون لحماً مفروماً لأجل الشرطة السفاحين».

«لقد التقطوا ذلك هنا مثل V. D والحصبة... الحصبة تقتل الناس الذين لم يتعرضوا للفيروس من قبل...».

في الخارج، كانت شجرة التين المغضنة ببشرتها الغبارية ثابتة مثل الأبدية. فكانت سكينة حرِ الظهيرة المحصورة في الحديقة تحتها لا مبالاة لا يمكن بلوغها: وقف براي مذهولاً للحظة ـ النخرات والزعقات والشجار اليائس، المصارين الصفراء للدجاج المسحوق، ووجه عامل المنجم المشقوق المبلل بالدم يحاصره في الوهم. هناك وراء الأشجار، اضطراب عظيم لا يمكن تعريفه عبر كل الحواس، بشكل يلف الجو. كان الصخب في الضاحية أبعد من أن يُميز. لم يكن ثمة سوى هدير صدفة بحرية مثبتة إلى الأذن.

Twitter: @alqareah

صاح أليك مستهجناً في الطريق على الجانب الآخر من البيت، ودار ودخل إلى السيارة الحكومية بجانبه.

في الجزء القديم من الضاحية، كانت الحياة شديدة الكثافة لدرجة أن العنف كان مبهماً ـ في بيوت الطين، أوراق النخيل المتشابكة، أكواخ مبنية من مادة مهملة، شاسيهات العربات العتيقة، أكوام الخشب، الباوباو والنباتات المتعرشة النابتة من القمامة. تلاشى الفارق بين المسكن والخراب، نسق الشوارع ذاته اختفى، وإذا كانت الأبواب مكسورة، والدعامات مقتلعة، أشياء مثل الأسلحة مكسوة بالغبار، فإن ذلك من الممكن ببساطة أن يكون جزءاً من النهج الثابت للخراب والانحلال اللذين كان المكان يحافظ بهما على حياته. وحدها البيوت المحروقة كانت شهادة على التمزق؛ حتى أن واحداً أو اثنين منها كان قبلئذ يمتلك تلك الإشارات ـ قطعة صفيح فوق زاوية جدران الموقف، باب صندوق تعبئة مدعوم، الدلالة على السكن الذي يعاود زحفه.

كانت الضاحية القديمة تفوح منها رائحة الكارثة وتطغى على كل شيء؛ فالناس اختفوا، قدور الطبخ وصفائح الموقد تُركت خارج المنازل لكي يتم استعمالها في النشاط المعتاد حالما ينقضي هذا التهديد للحياة اليومية، مثل كل تهديد آخر عرفوه، ويتركهم مرة أخرى ليشعلوا موقداً، ليطبخوا، ليغسلوا الثياب في مغطس من الصفيح.

كان ذلك أيضاً يخفي ولاءاتهم، قرارهم المفاجىء بأخذ التهديد بأيديهم. سمع براي وأليك فيما بعد أن عدة أشخاص هناك في الأسفل قد قتلوا في معارك الشوارع في ذلك الصباح، لكنهما، نفسيهما، لم يلاقيا شيئاً سوى انسحاب بطيء ووجوهاً وأيدي أطفال خلف قطع الخيش في فتحات النوافذ.

لم تكن لمنطقة مخطط الإسكان الجديد قرب الفندق مثل هذه الحماية. مادة الحياة هناك لا تزال جديدة أكثر مما ينبغي ورقيقة أكثر مما ينبغي لتحمل الاعتداء. كانت الشبكة محطمة. كانت حقيقة أنه ثمة ألواح في النوافذ كافية؛ فالزجاج المكسّر في كل مكان بين الآجر، والدراجات المفتولة، وأكشاك الطعام المحطمة، العصابات الصارخة من الناس ـ كل هذا يعري حتى الأرض المقطوعة الشجر الحمراء التربة المجرفة من الغابة. كان من المستحيل الدخول إلى بعض الشوارع. فقد كانت تصد السيارة فتسير بشكل متعرج، كانت تجمعات الناس تعني قتالاً بالأيدي أو جرح أحد ما. ثمة عربة بوليس تشق طريقها مليئة بالوجوه الهاتفة خلف القفص السلكي؛ خوذة عامل منجم ملقاة على الأرض يتم التقاطها وإرسالها وهي تتدحرج مثل رأس

Twitter: @alqareah

مقطوع. امرأة غالية بفستانها المضلّع أسفل ثدييها، ذهبت عمامتها، وجدائل شعرها المضفورة تنتصب مكشوفة، تزعق مرة تلو الأخرى.

تتبعوا أثر الفوضى إلى الفندق. هرعت عصابة من الشبان الزاعقين إلى السيارة، تعلقوا بها، وهزوها. كما لو أنهم سرب من النمل الطائر. ظل أليك سائراً إلى أن سقطوا عنها. خارج الفندق كان سيلوفو وبعض الرجال مطوقين بعربتين مفتوحتين. كانت الحجارة وعلب الصفيح تنقذف خارج النوافذ في معركة بين المضربين والرواد الشباب الذين كان الفندق معقلهم.

بدأ رجال سيلوفو يرمون قنابل الغاز المسيل للدموع، ليس إلى داخل البناية بل بين المضربين. فتح براي باب السيارة فيما لا تزال متحركة وفي حين استمر أليك في التحرك خلال الحشد، علق في الخارج، وهو يَتشبث بالسقف ويصيح بالرجال بلغة الغالا لكي يتراجعوا. أصيب بالصمم من الصخب والفوضى العارمة بفعل هدير صوته الخاص، الآمر بوحشية، القاسي والرنان، صوت موروث من ماضيه العرقي، المتبرىء منه باسم قباطنة البحر وتجار العبيد الذين فقست مورثاته بين سيقانهم. أصبح نظره زائغاً بفعل ضغط الدم في عنقه. كان لا يزال يجأر؛ كانوا يرتدون منفوشي الشعر، يسعون لبلوغ السيارة، وهم ينأون عن البناية. ظن أنهم يهتفون، شينزا! شينزا!

كان أليك قد وضع السيارة في وضعية الرجوع، وهي تعن وتنخع نحو الخلف عبر حافة الحشد، والرجال يتسابقون خلفها، ينادون على براي. لا بد أن أليك قد استنتج أنهم خارج مجال الغاز المسيل للدموع. توقف وقفز خارجاً. إن المنظر الذي اتخذته الوجوه على براي، الاسم الذي نادوه، قد ضاعا في الفوضى. شكل أليك وبراي مرة أخرى تراصاً غريزياً من الانضباط وتحركا بشكل عاجل بين الرجال، يرميان وشاحاً لا منظوراً حول الإثارة العربيدية، يسوقانهم مثل راعيين مستفيدين من لحظة التردد التي تزيغ إرادة الرعاع.

كانت المشكلة الآنية هي إخراج رجال منجم الحديد خارج الحي. لم يكن بمقدورٍ سيلوفو أن يعتقل الكثيرين ولا كان لديه أي مكان لحبسهم لو فعل ذلك. كان واضحاً أنه في كل مرة كانت تهمد فيها المعركة المستمرة بين البوليس والمضربين والرواد الشباب في حين يختفي الرجال المحليون في شوارعهم، كان «الغزاة» يظلون مجمَّعين تقريباً، على الأقل في شلل، فكانوا هدفاً لكل من البوليس والعصابة التالية من الرواد الشباب التي يمكن أن يصطدموا بها. شيء واحد في أليك، فهو لم يكن ينزعج من

Twitter: @alqareah

البروتوكول ولم يكن يخطر بباله أنه يتصرف بشكل مستقل عن مفوض الشرطة. كانت لديه نية قيادة عمال المناجم بعيداً إلى مكان ما ـ أين؟

«المعرض الزراعي» فجأة تذكر براي ـ وإبقاءهم هناك إلى أن يكون بالإمكان إعادة نقلهم إلى المنجم. أخذ براي السيارة وهرع خارجاً عبر الشوارع المرقمة بالأحرف لعله يجد ماليمبا ويصادر باصين مدرسيين. كان ذلك عبثاً، كما يفترض بالإجراءات اليائسة أن تكون غالباً: لم يعد سامبسون وبراي وأليك بحمولة باصات من الرجال المعرضين للهجوم. لم يعودوا وهم يصدون تدخّل العصابات الإجرامية، يعرفون ما إذا كان المشهد يغضبهم أم يهددهم. عندما أكملت العملية بنجاح، انطلق براي وماليمبا برعونة بين أرض المعرض والمدينة لينتشلا سيارة براي، ويجلبا الطعام والإمدادات الطبية والمساعدة: ولكن في البيت كانت سيارة براي قد ولت؛ اتصلت إدنا بربيكا وهجالمار ونونغوايي للمساعدة في نقل الجرحى الذين لا يزالون متروكين ممددين في السوق. عاد براي وماليمبا إلى أرض المعرض: هناك كان أليك في جدال غاضب مع رجلين أبيضين، المستر جورج ناي والمستر تشارلز ألديس، رئيس وسكرتير الجمعية الزراعية للمستوطنين، اللذين يُطالبانه بأن يردع «المتعدين» على الملكية الخاصة. إنه فزع قديم من سنوات عندما كان رجل أسود ورجل أبيض يصرخ كل في الآخر، ما يدل على خلل في النظام المحدد للمجتمع الذي يدفع له أجر لصونه، هذا الفزع قد أيقظ براي. لم يكن لذلك أية دلالة عملية الآن؛ كان أليك الرجل المسؤول وكان ناي ببساطة المواطن الخصوصي اللاتعاوني؛ إن كونه أبيض لم يكن مفيداً له على الإطلاق. لكن لدى رؤية براي، تحول ناي إليه.

«بالطبع! هذا هو بالضبط اليوم الذي كنت تنتظره! هذا هو السبب في أننا تخلصنا منك ذات مرة! أنت ابن قحبة أبيض!».

كانت صرخة ممزوجة مع كل الصرخات الأخرى لما بعد الظهر. عند هبوط الليل ـ وصلت حمولة شاحنتين من الجنود وكانوا يجوبون المدن وبرشاشات ستين ـ عادوا فاجتمعوا في البيت مرة أخرى ـ ريبيكا، هجالمار، نونغوايي، وبراي نفسه كان لا يزال في سرواله القذر، بقعة الدم الجافة على مكان العورة ذكرته بشيء ما يمكن أن يكون قد حدث منذ أيام.

كان كاليمو يعتني بأولاد تلومي طوال فترة ما بعد الظهر. وكان البيت يمتلك الجو المذعور والمشعث لنوع آخر من التمرد. تقاسمت ريبيكا وهجالمار حيوية كونهما

Twitter: @alqareah

قد جعلا نفسيهما مفيدين؛ تحببات ذقنها وخديها بدت مخشوشنة بطبقة لامعة من العرق ونسيان الذات.

قال بصوت خاص: «هل كان ذلك سيئاً جداً؟» فأجابت بصوت تنفسي، خال من التعبير، «لا، لا. لحسن الحظ أنني لم أر أياً من الأموات». ضغط يدها.

ذهب نونغوايي إلى البيت مع الأولاد وكان الليل هادئاً جداً على نحو مفاجىء وهو يوشك على إنهاكهم. شربوا البيرة وسمعوا من المذياع أن الإضراب قد انتشر إلى ورشات سكة القطار وأحواض السفن، وفي العاصمة خرج عمال النقل، وعمال البريد، والمعلمون. كان ثمة «تقارير عن اضطرابات في مقاطعة غالا»، قال صوت المذيع بلكنته الأفريقية ولكن بلامبالاة مذيع الـ B. B. C. كشر هجالمار وضحك بصمت.

خرج براي إلى الحديقة ليلقي نظرة على السماء فوق الضاحية لكن ريبيكا نادت من خلف ضباب الشرفة، أليك! فهرع داخلاً إلى الهاتف. كان المذياع مولفاً على موجزات الأخبار، يرسل إيقاع كنكان يجري خلال البيت. على خلفية ذلك، وهو يغطي أذنه الأخرى، سمع صوت أليك المضلل رناناً في ذاك الجسد الكبير. كان يتحدث حول طائرة. «أية طائرة؟ الخدمة التي تؤدى كل أسبوعين لم تكن كافية لأجل يومين أو ثلاثة».

«حسناً، من قسم الزراعة... أنت تعرف. أغنس نازلة. إلى أمها، مع الأولاد. أعتقد أنه كان من الممكن لها أيضاً ـ وهي ـ حسناً ـ أنت تعرف. ماذا عن ريبيكا؟ يمكن أن يقبضوا عليها؟».

كان ينظر إليها فيما أليك يتكلم.

قال: «سأحاول».

«هذا أفضل شيء بالنسبة لهم، أخرجهم من تحت أقدامنا» قال أليك؛ باللا مبالاة التي هي طريقته في التعبير عن الارتباك.

«متى سيحصل ذلك؟».

«في الصباح. قل لها أن توضب قليلاً من الفساتين في حقيبة الملابس وأن تطل. يريدون الإقلاع في حوالي السابعة».

وقف للحظة قبل توقع ريبيكا وهجالمار. أخفض صوت المذياع.

«أغنس والأولاد ذاهبة إلى أمها ـ في رحلة على متن الطائرة الزراعية غداً صباحاً. تريدك أن تأتي فوراً، يا ريبيكا». علق اسمها في فمه بخراقة، بدا مثل اسم شخص لا أحد منهما يعرفه.

Twitter: @alqareah

«بإمكانك أن تقضي عدة أيام مع ڤيڤيان ونيل. أظن أن عليك أن تذهبي».

«مجرد عدة أيام، أليك يقبل. سيكون ذلك معقولاً».

قالت، مثل طفل يزيح التوبيخ «وإدنا؟».

«إدنا ممرضة». وبالطبع كانت إدنا تنتمي إلى هنا، كان بلدها، وطنها وشعبها، في حين أن أغنيس وريبيكا - حتى أغنس، فتاة مدينة، من العاصمة - لم يكن لديهما أي التزام بما يمكن أن يحدث في غالا. فلو انفصلت غالا، كما يمكن أن يحصل ذلك بسهولة، بطريقها الوحيد، وعدم وجود سكة قطار، ووجود مهبط طائرات صغير، فإن آل تلومي سيكونون في بيتهم. مشت مروراً بالرجلين وخرجت من الغرفة إلى غرفة النوم. كان لديه إحساس حقيقي جداً بالذعر، كما لو أنه قد فعل شيئاً ليس بمقدوره أن يبطله.

كانت واقفة هناك بين خزانة الملابس العتيقة القبيحة - حيث فساتينها معلقة - والسرير حيث ناما الليلة المنصرمة. هذه الأشياء أصبحت ممتلكات لغريب، هي وهو كان من الممكن ألا يكونا هناك من قبل.

«لو لم يكن ذلك لأجلي... أنت تفهم، يا حبيبي...؟ أشعر أنني أتصرف مثل مجنون، معلق بك».

«لن أذهب».

اقترب منها كما لو أنهما في غرفة فندق، وحيدين في غرفة غريبة. مسّد شعرها وحضنها «لا ينبغي عليّ أن أدعك قريبة مني».

لم يقولا شيئاً. خدشت بظفر سبابتها أسفل قميصه. قالت أخيراً: «كم قطبة؟».

- «أربع. أعتقد. لا، اثنتان - كنت أعد الثقوب الأربعة، لكل واحد قطبة».

«ألا يؤلمك؟ إنها ماهرة، أليس كذلك».

«هنا». أخذ إصبعها وأراها أين تتحسس العقد الصغير للخيط البلاستيكي من خلال السروال.

طلبت منه: «اتصل بأليك»، فهز رأسه موافقاً.

عادا بهدوء إلى غرفة المعيشة، حيث كان هجالمار يقطع ساق خروف.

«لقد عاد ماهلوبي»، أعلن كاليمو بشكل مشاكس من الباب.

Twitter: @alqareah

(21)

كان أليك في أغلب الأحيان في المنزل. لم يَكن لديه أحد في البيت، فكانت كل حيواتهم تتبدد معاً بالشك من ساعة لساعة. في هذا المنزل استمر تحضير وجبات كاليمو الساخنة ـ المجمدة، المجففة وغير القابلة للهضم ـ بانتظام عنيد ثابت كما طلوع الشمس، فيأكلها في أي وقت أي شخص يصادف أن يكون هناك. بمعزل عن كاليمو، كانت وظائف كل شخص آخر مموهة، والهدف والقناعة الفرديان يتم تجاوزهما في الإنجاز البسيط للشيء التالي.

كان سيلوفو المنهك يعتمد على أليك الذي اقترح أن يدبر براي وسامبسون ماليمبا إمدادات الطعام لأجل الرجال المخبأين في أرض المعرض. ولكن عندما وصل هو وسامبسون في اليوم الثاني مع اللحم والعصيدة الصادرين من مطبخ المستشفى، والأكواز والأواني من تجهيزات كشافة ماليمبا ـ كل ما استطاعا تسوله أو استعارته ـ وجدا الرجال مزروبين في الساحة تحت الشمس يحيط بهم الجنود. كان الجنود من أفراد تاليفا من الغرب ولم تكن لهم أية لغة مشتركة مع المضربين. لدى رؤية براي صعد الهتاف: شينزا، شينزا. تجادل ماليمبا مع الجنود لكي يَدَعوا براي يدخل بين المضربين. وقف هناك جامداً بشكل مطلق، محترساً بتوتر، يكبت أي رد فعل يمكن أن يبدر منه بشكل طائش. ثم سمح له بالدخول. تجمهر الرجال حوله لمطالبته. كانوا يريدون الذهاب إلى بيوتهم؛ سيقطعون المسافة سيراً. لكن البوليس لن يسمح لأحد بالذهاب؛ البوليس نقل أكثر من عشرين منهم والباقون أخبروا بأنهم سوف يحتجزون في «مكان الماشية».

لم يكن ثمة شيء للقيام به سوى الاستمرار بتوزيع الطعام. جنّد هو وماليمبا نفسيهما لذلك، ولذلك وحده، كان يعرف أن سامبسون (برغم سخطه الشديد من

Twitter: @alqareah

قضية «وجار الكلب» في المؤتمر) لم تكن لديه شكوك حول مويتا، وسوف يدعم مويتا على الدوام مهما كان محزوناً وحائراً بخصوص أشياء تحدث في ظل النظام. في الوقت نفسه، كان سامبسون يثق به، لذلك لم يكن ثمة شيء يقال حول الطريقة التي هتف له بها باسم شينزا. لم يكن من الممكن أن توجد مناقشة بينهما لما شاهداه بالضبط. كان ثقل الظروف ملموساً في الحر الحارق الذي تجمّع في الفولكسفاغن العتيقة.

أنزل ماليمبا. كان السوق مغلقاً، المحلات الهندية مقفلة، لكن أبواب السوبرماركت كانت مفتوحة ذاك الصباح. ثمة عدد قليل من الأشخاص في الجوار وفي كل مكان انتقلا إليه معاً، حتى النساء اللواتي يحملن على رؤوسهن سلالاً وعلى ظهورهن أطفالاً، لفتن انتباه الجنود المسترخين الذين استعادوا نشاطهم فطردوهن بخشونة. شاهد النساء الغاليات وهن يتمايلن. يحملن الكانغاسات حول مؤخراتهن، وهن يضحكن بوقاحة ويتلفّظن بشتائم لا يفهمها الجنود. خارج البوما كان أليك يتحدث إلى سيلوفو من خلال شباك سيارة شرطة. أشار إلى براي؛ كان الثلاثة مجمعاً سرياً، يمثل القانون والنظام؛ حياه سيلوفو بابتسامة عملية.

«هل كل شيء على ما يرام؟ هذا عمل جيد جداً ما تقومان به أنت وماليمبا ـ كنت أقول، يجب أن أبقي ذاك الحشد معزولاً، وأين يمكنني أن أضعهم؟».

«لقد تم إخبار ناي إلى أين يجب أن يفر» قال أليك برضا. ولسيلوفو: «ينبغي أن تكون قد سمعته وهو يشتم براي، يا له من شخصية. لو كان في زمن آخر لأعطاه لكمة على الفك».

«أوه، الكولونيل لن يزعج نفسه برجل مثل هذا» ـ سيلوفو رسم التقدير المتملق كواحد من شلة رجال أنداد.

«جُمع الرجال في ميدان الماشية بدون وقاية من الشمس».

«الآن ما هذا الهراء ـ سأنزل بنفسي وأرى ذلك. الرقيب لا يعرف ماذا يفعل. كيف هي ساقك؟ ألا تضايقك؟» وانصرف بكلمة أو كلمتين إلى أليك.

كان أليكْ قد جلب ريبيكا إلى البوما ليحاول أن يبقي نوعاً من الروتين مستمراً، لكن المكان كان تحت الحراسة. من الصعب على أي شخص أن يكون قد جاء لأجل العمل. أليك نفسه كان قد استدعي إلى الحي الصناعي ـ ثمة قتال يجري هناك بشكل متقطع بين رجال معمل الأسماك والأعمال الكلسية وبين عصابات الرواد الشباب ـ كان يتحاشى تسميتهم ويتكلم دائماً عن «السفاحين».

اندلع حريق «لكنه لم يكن سوى تلك الشجرة الهرمة».

Twitter: @alqareah

- «شجرة العبيد؟».

«الشجرة التي اعتاد العاطلون عن العمل أن يجلسوا تحتها. أنت تعرف. لكن ذلك كان جيداً، فالنار لم تنتشر. العصارة لا تزال رطبة من الداخل حتى بالرغم من أن الأوراق تطايرت مثل الورق».

«براي مولع بتلك الشجرة ـ أليس كذلك؟»، ابتسمت ريبيكا له.

«لعلها رمز شرير لزمن مضى. كنت بالأحرى أحب رؤية الناس يأكلون البطاطا المقلية بكل سهولة هناك رغم كل شيء».

لدى العودة إلى البيت، قال لأليك: «انظر، لقد تم تحويل أرض المعرض إلى معسكر اعتقال. لأجل ماذا؟ أولئك الرجال يجب إعادتهم إلى بيوتهم. لكن سيلوفو اعتقل حوالي عشرين ويعامل الباقين كما لو أنهم قيد الاحتجاز. إنهم قيد الحبس».

«ليس بمقدوره أن يوفر وسيلة نقل للشرطة لأخذهم جميعاً في ذاك الاتجاه، يحتاج إلى كل ما لديه».

«دعه يصادر باصات المدارس. يا الله الطيب، لقد فعلت أنت ذلك».

«نعم، لكن ذلك كان حالة طوارئ».

«الوضع برمته حالة طوارىء! فنحن لم نكن نجمع الناس معاً لكي يعتقلهم البوليس».

ريبيكا وهجالمار لم يرفعا أنظارهما عن صحنيهما. كان ثمة صمت بين براي وأليك.

قال أليك: «قضية الدخول إلى المدينة بهذا الشكل لم تكن مجرد فكرة خطرت في أذهانهم. رجال شينزا بينهم؛ سيلوفو يحاول أن يكتشف المزيد، من الذين أخذهم في الداخل. ثمة تقارير تقول بأن ثمة معسكرات في الباشي على هذا الجانب من الحدود. أسلحة مخبأة في الأدغال. الناس قالوا إن جماعة سومشتسي قد تسللوا عبر الحدود».

رفع كتفيه وأنزلهما: «لا أعرف. لدينا ما يكفينا من مشاكلنا الخاصة».

عندما كانا يشربان القهوة، أجبره براي على القول:

«من الأفضل أن تتحقق من أن سيلوفو أمر بترك الرجال يعودون إلى المدرج».

كان المضربون يعسكرون خارجاً على المقاعد اللوحية تحت واقية المدرج الكبير، قبل «الترتيبات» الجديدة.

«نعم، أوكي».

Twitter: @alqareah

«سامبسون سيذهب إلى هناك فيما بعد...».

«نعم، سأذهب، لا تقلق. أوه، هنا مفاجأة لكم...».

سلم أليك رزمة من الرسائل. بسبب إضراب عمال النقل في العاصمة تعطل البريد مرة أخرى.

«راود أحدهم الفكرة اللماحة بإعطاء الحقيبة إلى الرجل الذي طارده الجنود، لكن الضابط نجح في تذكر إعطاءها لي الآن».

أحد المغلفات وكان عليه طابع سويسري. فتح الرسالة وقرأ بسرعة تحت المناقشة. عندما ذهب أليك، سلمها إلى ريبيكا.

قال لهجالمار ولها: «أعتقد أنه من الأفضل أن أذهب وأرى بنفسي. لا يمكنني إلا بصعوبة أن أعطي الأوامر إلى مفوض البوليس، هل يمكنني...». كانت عيناها تتابعان بسرعة:

«عزيزي الكولونيل براي، نسختك من رواية الفتاة ذات العينين الذهبيتين(*) قد تم الاحتفاظ بها لأجلك ونحن بانتظار التعليمات على راحتك». طوتها وأعادتها إليه بهزة صغيرة من رأسها.

كان لدى هجالمار رسالة هاتفية لأجل براي لكي يتصل مع المستر جوساب. حاول أن يتصل بالمحل لكن لم يكن ثمة رد؛ رحل بدون شك. جوساب المسكين. أعتقد أنه كان من الأفضل أن يذهب ويراه، أيضاً. قالت ريبيكا:

«ليس ثمة الكثير من الفائدة في عودتي إلى المكتب، إذا لم يكن أليك في الجوار».

«لا، ابق هنا». كان يفكر بالعصابات والحريق المضرم قريباً جداً من المدينة، في المنطقة الصناعية.

قال هجالمار: «هل يتعين علينا أن نستمر في العمل في الحديقة؟».

«إذا لم يكن من فائدة بالنسبة لك في مكان، فيجب عليك أن تجرب شيئاً آخر».

عندما غادرهم وكان ينصرف بسيارته، جاءت راكضة خارج باب المطبخ. توقف وانتظرها. «هل كان ذلك من المصرف السويسري؟».

هز رأسه موافقاً « كل شيء مأمون وسليم ».

«ماذا بشأن الفتاة..؟ من أين حصلت على ذلك؟».

أبقاها منتظرة لثانية، وهو يمتع نفسه بالنظر إلى تينك العينين بالإطار الأسود الموائم للزي الحديث التي درجت على إعطائه لهما في الآونة الأخيرة.

(*) la Fille aux yeux d'or بالفرنسية في النص الأصلي. (المترجم).

Twitter: @alqareah

«إنه يعني الفتاة ذات العينين الذهبيتين. إنه عنوان الرواية. ذات مرة سمعت رولي يناديك بهذا الاسم. لذلك فإن لك اسماً مرمزاً، تمام...».

«من كتبها؟» بالرغم من أنه شعر بالفضول موجهاً نحوها ذاتها، أكثر منه إلى الطريقة التي رآها بها.

«رواية فرنسية قديمة. بلزاك».

كان بيت جوساب يقع خلف محل الخياطة التابع له. ثمة حديقة صغيرة لا عشب فيها ولا أزهار، ذات بركة فارغة منصوبة على رأسِ فيل من الخرسانة. واجهة البيت مطلية باللون الأزرق الفاتح. رن الجرس ردحاً طويلاً قبل أن يفتح الباب أحمد، الابن الثاني لجوساب؛ أدخل بصمت إلى الداخل فوق اللينوليوم إلى أفضل غرفة، مليئة بطاولة طعام ضخمة وبوفيه يعلوهما لوح من الزجاجِ. لا بد أن جوساب كان يعمل في مكان ما بالداخل بالرغم من أن المحل كان مغلقاً، فظهر طوقا التوسيع الفضيان اللذان يمسكان كمي قميصه الشديد البياض وشريط القياس حول رقبته كالمعتاد. رأى أنه من المكرب أن يدخل في الموضوع، مهما يكن؛ قدم الشاي البارد ـ كل ذلك موشّى بتعليقات عابرة حول «كون الأشياء كما هي»، الحر، الجفاف ـ مستعداً لتفسير أعمال الشغب والحرائق كنوع من الفعل الطبيعي الموسمي، إذا كان ذلك أكثر لباقة.

«أنت قلق، يا عزيزي جوساب. لكنني لا أعرف ما الذي من شأنه أن يطمئنك. أو يطمئنني أنا نفسي. الناس الكلبيون سوف يسرون بالقول إن الاستقلال لا يحل شيئاً. الناس أمثالنا يتعين عليهم دائماً أن يعرفوا أن الاستقلال فقط يبدأ بحل لا شيء. في اللحظة التي يُنجز فيها لا يعود فيها هدفاً».

«أنت محق جداً، أيها الكولونيل، أنت حكيم للغاية. من دواعي سروري أن أتحدث إلى شخص مثلك. لا يمكنك أن تتصور ما أقاسيه مع بعض هؤلاء الناس. أقول لهم، لا مجال للمقارنة مع الأيام الخوالي. لكنهم عصبيون، هل تعرف؟ يقولون لماذا لفت الانتباه؟ وقاعة غاندي بنيت بمساهمة من الجالية. أقول لهم، غيروا الاسم إذاً، إذا كنتم خائفين طوال الوقت من أن شيئاً سيحدث لاستثماركم. غاندي لم يكن يؤمن بالاستثمار. لكنهم عصبيون ـ تعرف ماذا أقصد؟».

«حسناً، لا توجد أية صفوف شغالة هناك، الآن، بالطبع لا أحد يقوم بالتدريس، لا أحد يأتي في الوقت الحالي».

Twitter: @alqareah

«هذا صحيح. لكن ـ أيها الكولونيل ـ يريدونك أن تهرب بأشيائك. مواد النجارة وهلم جرا... يقولون لو خطر ببال أحد ما أن يدخل ويحطمها...».

«هل تريدنا أن ننصرف؟».

«كولونيل...».

«لا تنزعج ، يا جوساب؛ أنا أفكر فحسب...».

«جاليتنا قدمت مساهمات منتظمة للحزب. كولونيل، ومن ثم مع كونك صديقاً جيداً للرئيس، اعتقدنا أنه لن يكون علينا أن نقلق. لكن الآن هؤلاء الناس ـ من هم؟ إنهم لا يصغون لأحد...».

«لا أفهم كيف يمكن لماليمبا ولي أن نتدبر ذلك فقط بزوجين من الأيادي».

رفع جوساب يديه في قبول مكروب:

«هل يمكنك إيجاد بعض الشباب لمساعدتنا؟ أصدقاء ابنك؟ ـ لا بأس، من الأفضل أن يبقوا خارج ذلك. سوف أقبض على شخص ما».

لاحت إحدى إناث المنزل المغفلات الاسمِ بحياء شديد وهي تضع صينية شاي برفق شديد، حتى ملعقة الشاي لم تصدر صوتاً.

«أوه تناولْ فنجاناً، أيها الكولونيل، انظر ها هو هنا» قال جوساب، كما لو أن الفنجان قد تجسّد من تلقاء ذاته.

«هذا زمن رهيب بالنسبة للرئيس مويتا، رهيب، رهيب. ما رأيك بذلك، أيها الكولونيل؟ هل هم الشيوعيون؟».

قام براي، ماليمبا، وأبناء ماليمبا الكبار، هجالمار، ماهلوبي، نونغوايي تلومي، وريبيكا بسحب تجهيزات مركز تعليم البالغين خارج قاعة غاندي في عصر ذلك اليوم ومسائه. أحضروا سيارة جيب من القسم الزراعي وشاحنة خضار نجح جوساب في استعارتها من أحد أصحاب المحلات الهنود. تم تجميع العفش في مرآب براي المنحدر السطح، في الروندافل في بيت تلومي الذي كانت تشغله ريبيكا وأولادها، وحتى في البوما.

في منتصف الليل رن الهاتف. كان صوت جوساب في الحال واهناً وزاعقاً كما لو كان يتعرض للاختطاف فيما هو يتكلم.

ـ «كولونيل، أوقفهم، أوقفهم، يجب أن توقفهم. أنت تعرف الرئيس...».

ـ «جوساب، كرمى لله ماذا حدث لك؟».

ـ «إنهم يحرقون القاعة. يجب أن تأتي وتوقف ذلك...».

Twitter: @alqareah

أسقط سماعة الهاتف واتكأ هناك إلى جدار غرفة المعيشة المظلمة، وهو يصحو من النوم إلى يقظة مثل الغثيان. مرت يده بوهن فوق صدره ـ إيماءة شينزا.

اكتشفته بعوضة صفارة بشكل لا يخطىء وهي تئز حوله، وحول هذا الدوخان. اتصل بأليك. عندما ترك البيت بسروال مرفوع فوق بيجامته أوقفه أحد رجال الرائد فيلدينغ، الذين كانوا يكتسون بأشرطة ذراع حمراء وبنادق رياضية.

«كرمى لله لا تجادل ثمة حريق».

شاهد وأليك لهباً من مسافة بعيدة وشعرا به، حرارة هائلة تنبعث من باب فرن كبير. كان الرواد الشباب الذين نهبوا المكان وأشعلوه قد ولوا، وكانت سيارة الإطفاء هناك، خراطيمها لا تكفي سوى لترطيب المنطقة حول البناء لمنع انتشار النار ـ وسط غلالات حواجز الماء والدخان، كانت القاعة والمدرسة المتصلة بها تماماً في المرحلة التي يكون فيها بناء مشتعل يحتفظ بشكله لهباً خالصاً أكثر مما هو مادة؛ في لحظة سيبدأ بالانهيار على نفسه. وقف جوساب وعدد قليل من الرجال الآخرين هناك، يرتدون معاطف فوق ملابسهم الليلية رغم حرارة الليل والحريق. كانت رائحة الرطوبة والاحتراق خانقة؛ سالت عيونهم الداكنة بدموع الغضب وبدوا عاجزين عن الكلام. كانوا يحدقون في براي.

لا بد أن البناء كان ملتهباً بشكل يستعصي على الإطفاء وكان رجال الإطفاء هناك عندما اتصل جوساب. بين الأشياء المنقوعة والمفحمة التي تم إنقاذها رأى براي صندوقاً كُتب عليه بحروف مزخرفة باللون الأبيض: «عدة دراسة لا عنف المهاتما غاندي». أحد الهنود الشباب قال له «لا أعتقد بأن شركة التأمين سوف تعوض».

كانت ريبيكا متعبة للغاية بحيث أنها لم تسمع صوت الهاتف، ولم تسمعه وهو يغادر المنزل. عندما عاد جلست مستنفرة. «قاعة غاندي أحرقت».

«يا إلهي ، كل الجهود ذهبت هباء».

استلقى على طرف السرير إلى جانبها. كانت تفوح منه رائحة الخشب المحروق المبلل والدهان المحروق.

قالت «ادخل». وهي تسحب الأغطية تحته. خلع الصندل من قدميه واستلقى على ظهره هناك عاجزا عن الحراك. سمع نفسه يطلق شهقات شخير مرتعدة كبيرة عندما غلبه النعاس على نحو يائس.

في الصباح الباكر، كان ديف الساقي من بار الفيش ايغل هناك لرؤيته. كان كاليمو يمسح أرضية غرفة المعيشة، والأثاث كله مكوم في منتصف الغرفة، أبقى

Twitter: @alqareah

كاليمو رأسه مشاحاً عن الزائر عندما أدخله. ثم تابع الركوع على ركبتيه مرة أخرى، متنقلاً بين قدمي براي وقدمي الرجل الآخر بقصد واضح لإظهار أن الزائر لن يلقى استقبالاً محترما.

كانت ريبيكا في الحمام. أدخل الرجل إلى غرفة النوم في وجود السرير المنكوش، وحذاء المرأة وملابسه الملذوعة بالنار ملقاة على الأرض،

«سيلوفو ينال من الرجال الذين اعتقلهم».

«العشرين رجلاً من المعرض؟».

«خمسة عشر أو عشرين ـ لا أعرف العدد. إنهم يُضربون وأولئك الأوغاد الرواد الشباب أطلق العنان لهم. سيلوفو يخاف أن يعتقلهم. نعم، صحيح. أنت ترى بنفسك، كل هذا الحريق والقتال يبقى مستمراً لأنه لا يعتقلهم، إنه يعتقل الناس الذين يتعرضون لهجومهم، هذا هو السبب في أنه لا يحب الجنود. إنهم يقبضون على أي شخص يثير مشكلة، إنه خائف، إنه خائف على منصبه».

«إذا ذهبت إلى سيلوفو، وسألني من أين حصلت على معلوماتي؟».

أخذ الساقي يده كما لو أنه سيفضي بملاحظة تافهة تحت تأثير الجين.

«لا تقترب منه».

«أوه أنا لست من مساعديه الطوعيين».

«لماذا أتيتُ، كنت أعرف أنك تدون الرحلة. أخبر شينزا. بعضهم قد يقول أشياء ستجعلهم يغيرون مخططاتهم. سيعرف إن كانوا يعرفون أي شيء مهم. لقد حصلت على الأسماء».

«حسناً، أعتقد أنها كلها أنواع من الشائعات... كان بإمكاني سماعها من أي مكان؟ هل تعتقد أن أحداً قد لاحظ أنك جئت إلى هذا المنزل؟».

«ربما رآني أحد ما، ربما لا. الجميع يراقبون الآن، إلى أين أنت ذاهب؟ متى تذهب».

«لا يمكن ترك سيلوفو يفعل ما يشاء بالناس».

تجاهل الساقي المناشدة: «ألا تريد الأسماء؟».

«نعم أعطني إياها على أي حال. هل تعرف إن كان شينزا بخير؟».

«سيكون بخير» نصف توبيخ، نصف ولاء مقاتل.

عندما ولى الساقي دخل كاليمو إلى المطبخ حيث كان براي يجلب حذاءه الملمع حديثاً من ماهلوبي. «آمل ألا تكون قد أعطيته نقوداً، يا موكاوايي؟».

Twitter: @alqareah

«لماذا يتعين عليّ أن أفعل ذلك؟». كان لاهياً بشكل حذر.

«ذاك الرجل من البار في الفندق، أي؟ أنا أعرف».

الكل يعرفه، إنه يستدين المال، المال. يقولون إنه يحصل عليه حتى من الرجال البيض الذين يشربون هناك. «He no good».

«لا تقلق يا كاليمو، لم أعطه شيئاً».

طوال النهار مر بفترات لم يستطع فيها التفكير مطلقاً؛ عندما فرضت الضغوط المعاكسة نفسها بالقدر نفسه، وهي تمسكه في توازن قاتل بينها. كان ذاهباً إلى مخفر الشرطة في وقت الظهيرة، ثم أوقف السيارة ببساطة أسفل الطريق تحت شجرة ودخن سيجارة. في وقت مبكر من العصر عرف أنه سيذهب في الساعة السادسة، وإذا لم يتم العثور على سيلوفو، فإنه سيذهب إلى بيته (كان أليك قد أعطاه إذناً، الآن، صادراً عن البوليس، يسمح له بالخروج بعد حظر التجول، وهو مؤشر آخر على الامتياز والتفضيل. إذا اكتشف سيلوفو أن المخبر هو الساقي في الفيش ايغل، فمن المحتمل أن يقبض على الرجل ويُحبس ليروا ماذا يعرف). إذا لم يكتشف سيلوفو، وامتلك الميزة الجاهزة أن براي «اعترف»، أن قصة التعذيب قد جاءت كإشاعة حول غالا، فإن سيلوفو بالتأكيد سوف ينكرها بلا تحفظ . كل ذلك كان بعيداً تماماً عن أية استنتاجات يمكن أن يتوصل إليها حول نفسه ـ قال براي في نفسه: يمكنني أن أطالب برؤية الرجال ـ مرة أخرى، باسم من، أو ماذا؟ أرسل سيلوفو إلى هنا من قبل مويتا ليحل محل ليباليسو بسبب الصبي ذي الظهر المتقرح. إذا امتلكت التفويض المجنون لأطلب ذلك، فسيكون باسم مويتا.

في الوقت نفسه، كانت تلك الملاحظة من سيلوفو، عندما ذهب ليراه مع سامبسون ماليمبا: «لا غبار على رحلاتك حول البلد، أيها الكولونيل...». وفهمت الملاحظة بشكل غامض كإشارة إلى اتصالاته مع شينزا، أو إلى الشك حولها. كان من الممكن أن تكون تحذيراً: لا تظنن أنني لا أعرف. لا بد أنه يعرف. ومع ذلك فقد كنت متعاوناً للغاية في هذه الورطة. أتصرف بدافع من إنسانية مبتذلة. حفظ السلام. (باسم من؛ أي نوع من السلام؟). وربما تردد مويتا حتى مع ذلك في «إطلاق اليد...».

نادراً ما يتكلم إلى هجالمار أو الفتاة عندما يتناولون الطعام معاً. عندما يجدان نفسيهما وحيدين يقبّلها بدون رغبة. كان هو وماليمبا يأخذان إمدادات الطعام اليومية إلى أرض المعرض؛ كان الرجال قد عادوا إلى المدرج الكبير لكنهم لا يزالون

Twitter: @alqareah

تحت حراسة شديدة. إن غالا برمتها تفوح منها الرائحة المنبعثة من حريق قاعة غاندي. ثمة أخبار عن أعمال شغب وحرائق أكواخ في منشأة تبريد الأسماك عند البحيرة؛ متاريس الطرق تمنع سيارات الإطفاء من الدخول إلى غالا.

بعد العشاء جلس تحت التينة في الظلام يدخن سيجاراً بائتاً كان قد عثر عليه. سينهض ويذهب إلى سيلوفو في أية لحظة. بقي جالساً. خرجت ريبيكا وقد وجدت أنه لا يتكلم، تحركت بهدوء فيما كانت الخفافيش تلطخ الشجرة الهرمة. جلب هجالمار كتاباً وأشعل الضوء الخاص الطارد للحشرات؛ كان ثمة في الحديقة، بالإضافة إلى الشجرة البطريركية أشجار الجركندة التي لا يلاحظها المرء خارج وقت إزهارها القصير. كانت قد تفتحت فجأة في الأيام القليلة الأخيرة، والليل أدرك كهوف الأزهار الليلكية. أرسل ماهلوبي من قبل كاليما لإحضار صينية القهوة؛ كان الشاب يغني لنفسه بصوت رقيق.

دخل إلى البيت ووقف للحظة عند الطاولة حيث يقبع تقريره غير المنجز، بعض الأوراق المفككة مثبتة بمنفضة سجائر، حتى إطار الصورة الفوتوغرافية الصغيرة مع فينيشيا والطفل كان مضغوطاً بالاستعمال ـ احتياط كاليمو ضد الريح المغبرة التي غالباً ما تهب داخل البيت. كان الورق خشن الملمس. ثمة ذبابة سوداء مشعرة ميتة على ظهرها. جلست ريبيكا على الأرض مستندة إلى ساقيه عند الموقد. كان فارغاً سوى من أعقاب السجائر التي كانوا جميعاً يرمونها هناك بكسل. انقضت أسابيع منذ أن جلس إلى الطاولة، كتب رسالة، حتى إلى زوجته. أخذ واحدة من ورق الآلة الكاتبة كانت ريبيكا قد استعملتها لأجل تقريره ودوّن التفاصيل حول الأموال في سويسرا؛ اسم المصرف، العنوان، رقم الحساب، الاسم السري.

طوى الورقة ومسّدها بظفر إبهامه، ورماد السيجار يسقط عليها، ثم قسمها بعناية وطوى مرة أخرى النص الذي كتب عليه، واضعاً إياه في جيب سترته الأدغالية.

نهض ونادى عليها من الشرفة المظلمة.

وجدته في غرفة النوم، حيث سيكونان بأمان من هجالمار. كان جالساً على السرير. قال: «سنغادر غداً. سوف نحزم أمتعتنا هذه الليلة ونذهب في الصباح».

لم تذهب أبعد من الغرفة.

«لماذا لا تصدقني. أنا لست ذاهبة».

مد يده إليها: «تعالي هنا، يا حبيبتي، إننا ذاهبان معاً».

«إنك تأخذني لأنني لم أذهب في ذاك اليوم».

Twitter: @alqareah

«لا، لا، لن أتخلص منك في أي مكان. نحن ذاهبان. لا يمكنني البقاء هنا أقوم بدور عضو لجنة لأجل أليك، هل يمكنني ذلك؟ كيف يمكنني؟».

وقفت أمامه حيث جلس، وهي تنظر إليه، متراجعة إلى الوراء قليلاً. مد يديه ببطء وأراح كفيه على كل ردف من ردفيها.

«هل ستأتين معي؟».

«سنذهب معاً».

«ومن ثم؟».

«لست متأكداً. سنذهب إلى الفندق بحيث أنني لن أساوم أحداً على أي شيء أفعله... سنقول إنه كان عليّ أن آتي لآخذك لأن الوضع كان غير آمن هناك ـ إنه غير آمن».

«كنت خائفة من شيء واحد فقط ـ عدم العودة ـ ألا تعود».

«أعرف. لكنني سأكون هناك».

«ألن تعود إلى هنا؟».

هز رأسه.

«ليس على الإطلاق؟».

«ربما لا».

قالت: «هذا البيت المسلي لك». جلست على السرير بجانبه وأخذت يده.

سألت: «تقصد أنك ستذهب إلى سويسرا؟».

كان ثمة حميمية مدوية في الغرفة حولهما. بداخلها كان ثمة تجربة هي بالضبط الانعكاس النقيض للفراغ، الإحساس بأن كل القوى قد تحللت وتداعت، بأنه يمتلك اليوم كله.

«ربما. لكن الوقت تأخر كثيراً على ذلك. ثمة شيء آخر علي أن أفعله في أوروبة. سأخبرك غداً عندما نخرج من هنا. ولكن حتى بقدر ما يتعلق الأمر بكل شخص آخر، فأنا في المدينة لكي أحضرك، هم؟».

«كيف يمكننا أن نذهب معاً. عبر البحار؟». قالت ببطء مستخدمة المصطلح الكولونيالي، المحمل بالابتعاد واللاوصول.

«سنرى. ربما ننجح في ذلك. سنقرر ما سنفعله. لا يمكنني البقاء هنا، يا عزيزتي». مسّد شعرها، كان قد طال، كان نابتاً طويلاً جداً. قالت: «بماذا تفكر؟».

ابتسم لها: «للأسف، بطريقة ما».

Twitter: @alqareah

لقد كانت هي من يفكر بهجالمار. اتفقا، بالطبع سينزل إلى العاصمة معهما. «وسأجعل من السهل عليه أن يسوي الأمر مع العائلة. أعني أنه سيبدو كما لو أنه عاد زاحفاً».

ذهب إلى الحديقة لإخبار هجالمار. كان الرأس الأشقر الوسيم المظهر محنياً، الجمجمة مؤكدة نفسها بشكل تدريجي من خلال الشعر الذي يصبح قليل الكثافة والبشرة اللامعة مشدودة، وهو يقرأ رسائل جورج اورويل من فوق عدستين عديمتي الحواف أكثر مما كان يقرأ من خلالهما. خلع هجالمار النظارات وأصغى على نحو ينم عن حصافة مستقلة. طرح عدة أسئلة واقعية حول الرحلة: هل توجد متاريس طرق؟ هل توجد مشكلة على امتداد الطريق؟ قال براي إنه لم يسمع شيئاً من هذا القبيل. دخل هجالمار بغرض ما؛ كان صوته يعلق بشيء ما لريبيكا، وكانت ضحكتها مسموعة.

أطفأ براي النور بحيث أن اللون تلاشى إلى ظلمة كقطعة ورق منفوخة بوهج اللهب، وفجأة تسود وتذوي في الظلام. شعر بنملة أو نملتين كبيرتين من النمل الكبير الذي يتنقل بلا توقف فوق التينة تدبان بتخبط فوق قدمه. كانت الجذوع المضاعفة للشجرة، الملتفة على بعضها إلى ارتفاع أربعين قدماً، تصنع شكل كوخ بيضوي هائل تحت امتداد أغصانها الهائلة نصف الجرداء. كم كان عمرها؟ هل هي بعمر شجرة العبيد؟ وجد ندوباً متخثنة حيث كان ثمة في نقطة ما أو أخرى من حياتها محاولة لقطعها. موضوع مطمئن يدعم الحياة حتى في الطفيليات المتزاحمة التي كان هدفها من الوجود هو أن تنهشها من الداخل، متعضية لا يمكن الوصول إلى قلبها لأنها كانت شجرات عديدة، كل جذع هوائي كبير في عناق جذع آخر لا يزال يحتفظ بشكل النسغ والليف؛ شيء هو في آن معاً عملاق وقزم، خصوبة هرمة تطرح بشكل لا نهاية له ثمراً عديم الفائدة على الجذوع والفروع. سوى أنه يكفي لأجل الأشجار لتدوم؛ وليس لأجل الكائنات البشرية. كان الحجر الأسود تهيجه دوامات صغيرة من تيارات الهواء، في مكان ما من كثافته. كانت ضفادع الشجر تنق بلا توقف. كان قد خبر هذا الليل ألف مرة.

دخل إلى البيت، وقف ينظر إلى طاولة الأوراق، تركها ودخل إلى غرفة النوم حيث كانت ريبيكا تفرغ الأدراج. كانت نظارات وبنادق صيد السمك بالرماح والبنادق مرمية في ركن.

Twitter: @alqareah

«يمكننا أن نضعها في إحدى سلات الغسيل الكبيرة لغسالة كاليمو. كان بودي أن نذهب مرة أخيرة إلى البحيرة».

قال: «يقولون إن صيد السمك بالرماح رائع في ساردينيا».

«ساردينيا، نحن ننتمي إلى هنا».

لوحت بكمامة زرقاء. وقفت كما لو كانت مصابة بدوار للحظة: «لا يبدو ذلك حقيقياً، أليس كذلك؟».

«لا، لا يبدو ذلك أبداً».

في مكان ما بعيد في مؤخرة دماغه، كان يضع هذه الملابس في حقيبة الملابس هذه في وليتشاير. راودته جملة بشكل أبله، مثل بيت من أغنية شعبية:

«قياس خصرك لم يتبدل على مدى عشر سنوات». الآن، كما فيما بعد، صار القرار سلسلة متوالية من المهمات العملية الصغيرة.

وجد سلة لعدة الصيد بالرماح؛ في النهاية جمع كل الأوراق والملفات عن طاولته وبحث حواليه عن شيء ما ليرزمها به. كان ثمة صندوق رقيق من الخشب الرقائقي من نوع صناديق الشاي ظنه سيفي بالغرض، إذا استطاع أن ينظفه قليلاً. كان قد قلبه رأساً على عقب وصار يضرب على القاعدة؛ ظهر هجالمار وراقب للحظة بالمزاج المتردد لشخص لا يعرف إن كان يقدم المساعدة أو المشورة أم لا.

«وكيف تتقدمان؟ هل انتهيتما للتو؟».

جلس هجالمار على حافة كرسي شرفة عتيق كانت أرجله تترنح تحت الثقل. قال بخجل:

«أعتقد أنني سأبقى وأحرس الأشياء في المنزل».

كان براي ينزع لصاقة قديمة عن الصندوق، فظهر صرصور صغير من الأسفل، وسقط على الأرض فالتقطه بباطن قدمه.

«لا أعرف متى سأعود، أنت تعرف».

«اوكي. ربما سأنزل حالاً. إذا صرت وحيداً أو هكذا هل تريد أن تأخذ كتاب أورويل؟».

«يا إلهي الطيب، احتفظ بالكتب. لا مكان لوضعها».

ظهرت ريبيكا وهي تحمل ملء ذراعيها من صنادل الأولاد المهترئة.

«حول ماذا هذا؟».

قرر هجالمار أن يتريث لبعض الوقت.

Twitter: @alqareah

«أوه، صحيح؟» قالت، بود، مرتبكة، لتجعل ذلك يبدو لا معقولاً ولا متوقعاً.

أطلق هجالمار ضحكة قصيرة.

«قد يبدو ذلك جنوناً، لكنك تعرفين أنني أريد أن أنهي تمهيد الأرض هناك تحت الشجرة. أكره أن أتركها نصف منجزة ـ أنت تعرفين؟ عندئذ سأكون قادراً على أن أقرر الـ... الشيء التالي. سوى أن علي أن أفعل ذلك أولاً. إنها فوضى هناك، مع الثمار الساقطة وأوراق الشجر على الأرض غير المستوية. عندما تمهدين فكل ما تحتاجين للقيام به هو أن تكنسي ذلك كنساً».

«هذا يذكرني بالنقود لأجل ماهلوبي وكاليمو. إذا أعطيتك شيكاً هل بإمكانك أن تدفع لهما؟ وأرجو الاتصال بأليك لأجلي، غداً. أخبره أنني قررت أن أخرج ريبيكا».

كتب شيكاً بمقدار أجور ثلاثة أشهر لكل خادم ومبلغاً متبقياً كافياً لإبقاء البيت مستمراً لفترة من الزمن، لكن هجالمار وضعه في محفظته الجيبية بدون النظر إليه.

نظر براي إلى الصندوق بانعدام مفاجئ للهدف من النظرة.

ـ «هجالمار، إذا تركت هذا، هل بإمكانك أن ترسله لي مرزوماً في وقت من الأوقات؟ وعندئذ إذا جئت، إما بإمكانك أن تجلبه أو...؟».

«بالطبع، لا مشكلة، سوف أتولى كل شيء».

فيما كانوا يحضرون ويحملون ويرمون بعيداً، مفرغين حياة بيت براي كما يفرغ المرء دُرجاً، شغل هجالمار نفسه بصنع الشاي. قال للفتاة عندما كان الثلاثة يشربونها:

«أنا أحب هذا البيت. إنني أمر بأوقات عصيبة لكنني بالقدر نفسه أحب هذا البيت».

وقفت هناك والفنجان في يدها ورآها براي تنظر، تنظر، بعينين منحرفتين، حول الأثاث اللا شخصي القبيح، الرث، الكراسي التي تحدثا عليها، الطاولة التي أكلوا عليها. كان ثمة ارتباك للحظة، كما لو أن شيئاً حميمياً أكثر مما ينبغي قد تم النطق به بصوت عال. أثارته بشدة. حتى الفكرة خطرت بباله ذات مرة: ربما كانت مبتهجة دون أن تدري بالانتقال إلى أولادها مرة أخرى.

مضيا إلى السرير الضيق الذي ناما فيه بشكل أو بآخر ليال عديدة، تضامًا أو ابتعدا. تدحرجا بعيداً إلى الحافتين في الحر، وهما دائماً يتلامسان في نقطة ما، عند الكتف أو القدم، أو الشعر أو اليد، كما لو أن جهازاً عصبياً ودياً واحداً كان يتحكم

Twitter: @alqareah

بجسدين بتسامح خاص. أخذا دوشاً واضطجعا عاريين بدون غطاء ودون أن يجففا نفسيهما تماماً. إن التبخر على الأقل قد أعطى الإحساس بالبرودة.

قالت: «أريد أن أشعر بك فيّ لكننا لن نمارس الجنس».

«سيكون لنا سرير كبير في فندق البحيرات الكبرى. لا بد أن لديهم أسرّة كبيرة».

«هل سنصل إلى هناك في يوم واحد؟».

«سوف نستمر في قيادة السيارة؟».

وضع يده على وجهها فشعر بها تبتسم.

في وقت لاحق هطل المطر. قصف الرعد بمهابة على السقف، فاستيقظ نصف استيقاظة، ورأى قدمه تنزل على الصرصور السريع، لوزة براقة. ارتخى وانفك عن نفقها الدافىء. أخفته غابة المطر الكثيف، وناما. في الصباح كان ثمة عالم قد خلع جلده. كان الاخضرار يلمع مثل جناحي ذبابة تنين يجفان في الشمس.

كانت الجاركندة قد كست شكلهما بالأزهار الساقطة على الأرض. النجيمات المتلألئة تومض حولهما؛ هجالمار في الخارج هناك يرى كيف انتصب موزاييكه القرميدي في المطر.

وضع ماهلوبي حقائب الملابس الثلاث والسلة مع تجهيزات غوردون إدوارد لصيد السمك بالرمح في السيارة. كان كاليمو يخطو رائحاً غادياً ويداه تحت مئزره، وهو يراقب. كان براي قد أخبره أن الدونيا(*) ذاهبة إلى صديقاتها في العاصمة. بالنسبة له العاصمة كانت القطبين وكل المدن الكبيرة وأماكن الأرض: لو وصلتَ إلى هناك، لكنت قريباً من كل مكان.

«بلغي تحياتي إلى الأولاد، من فضلك»، قال بالانكليزية لريبيكا، مبتسماً ومكرراً بدمدمة مريحة «نعم... نعم... مم هـ».

عندما قالا وداعاً تخلى عن السلة التي كانا يأخذانها دائماً معهما لأجل النزهات عند البحيرة. «هل هي بيضات فيها سمك صغير، أيضاً؟» قال براي.

انحنى الرجل العجوز إلى الأمام بضحكة: «تلك البيضات التي تحبها. قليل من الجبن...».

قالت ريبيكا: «لا دجاج محمّر؟» كانت عينا كاليمو مغرورقتين بالدمع للنكتة القديمة الجيدة:

(*) Doña، السيدة، بالإسبانية في النص الأصلي. (المترجم).

Twitter: @alqareah

«حسناً، موكاوايي لم يخبرني أنك تقود اليوم! أنا لم أطبخ الدجاج لأجل ليلة البارحة... الدجاج المحمَّر».

«طالما لدينا تلك البيضات، يا كاليمو».

قبّل هجالمار ريبيكا. «هل أنت خارج إلى العمل، إيه؟ من أين سأحصل على معاون مبلط آخر؟ سترى عندما تعود، سيكون ذلك كله منتهياً لأجلك».

تُرك هجالمار وكاليمو، أحدهما يداه على وركيه، والآخر يداه تحت مئزره. كان ماهلوبي، الذي يتحادث خارج غرفته مع صديقه، يلوح بابتهاج. وطدت ريبيكا نفسها بشكل أكثر ارتياحاً، وأشعلت سيجارة: «أشعر كما لو أننا كنا نخرج إلى البحيرة».

عندما خلفت الفولكسفاغن العتيقة غالا وراءها فإنهما قد خلفا وراءهما غضب وتمزق البلد هناك أيضاً. البوما تحت الحراسة، أكشاك السوق المحطمة، الندوب والقروح حيث يحوم الذباب، تشكل علامة على مكان معارك الشوارع، ورائحة الموتى من الأبنية المفحمة ـ كل ما عاشا وسطه كان يداس تحت عجلاتهما: بدا أن الغلالات الفاتحة للغاية والخيزران حول الطريق المبلل الثابت لا توفر سطحاً يعكس الاضطراب لكي تنهال عليه عليه الشحنة القوية وتجعله ظاهراً، فالتيار كان مؤرضاً.

أشار إلى السكة المؤدية إلى القلعة العربية لتيبوتيب.

«لم نوفق أبداً في الذهاب إليها».

«يجب أن آخذك ذات يوم. إنها مؤثرة تماماً».

الطريق يمتد خالياً لأميال كثيرة. من حين لآخر كانت الأكياس المعتادة من الفحم الحجري في انتظار الزبون؛ ظهر رجل حافي القدمين من الغابة. حيث هطل المطر ثمة جماعات من النساء خارجات مع معازقهن. بدت القرى القليلة قاحلة وهشة بعد الجفاف. في رقع من الشجيرات، كان مطر ليلة واحدة كافياً لجعل الزنابق البرية تزهر مباشرة من الرمل.

كانت عيونهما على كل شيء: الأسبوع الماضي صار سجناً وجدا نفسيهما فجأة خارجه. الحديث يصعد ويهبط؛ أحياناً يدعان تكرار الأشجار والباقات العملاقة من الخيزران يجري فوقهما على نحو حالم. الأفكار تصعد وتتشكل مثل الزبد على البحر. ضحكا على مشهد أهل المنزل المكونين من هجالمار وكاليمو اللذين يتبعان بهدوء هواجسهما الخاصة.

«لكن كاليمو سيكون المسؤول».

Twitter: @alqareah

«أوه، بدون شك سيمثل دور مارغوت على هجالمار».

قالت ريبيكا: «لا يمكنني أن أتفادى الشعور بالأسف لأجل مارغوت».

- «الرجل الضعيف يحولك إلى عاهرة. حتى لو كُنت أشعر بأنني قد بدأت أتنمر قليلاً على هجالمار العجوز البائس فوق ذاك الرصيف».

- «حتى أنت؟ لطالما كنت قادرة على تشمم الرجل الضعيف؟».

- «ممم. إذا جذبني أحد، يبقى هناك شيء ما يحميني».

«عندما عرفتك أول مرة - عرفت عنك من أشخاص آخرين - ظننتك إلى حد كبير من النوع الذي يُستغل. عاطفياً وبوسائل أخرى؛ من قبل كل شخص. وأصدقاؤك أعطوا ذاك الانطباع. ڤيڤيان كانت دائماً قلقة بشأنكِ».

«أوه حسناً، لقد دخلت بطريقة سيئة إلى هنِاك.. لم يكونوا يثقون بغوردون، ولا أي واحد منهم. أوه أقصد، الجميع دائماً يحبون غوردون، لكنهم لم يكونوا يعتقدون أن غوردون يعاملني بالشكل المناسب. أعرف أنهم كانوا متأسفين لأجلي. استمروا في التأسف لأجلي. لقد جعلني ذلك أتصرف بشكل مضحك؛ لا يمكنني أن أشرح، ولكن عندما كانوا يقومون بإيماءات مغازلة لي، نيل، والآخرون، فهمت أنهم يشعرون أن بمقدورهم أن يفعلوا ذلك لأنهم بالنسبة لي يستطيعون أن يغامروا بإظهار أن تلك الأشياء ليست جيدة للغاية لهم، أيضاً. شعرت بالأسف لأجلهم. شعرت ماذا كان ذلك يعني... ».

وضعت يدها على فخذه. «أنت لا تحب سماع ذلك...».

«غرور، أعتقد. الغرور الذكوري الغبي، لا يختلف كثيراً جداً عن غرورهم. ينبغي أن أكون خجلاً من ذلك. كنت دائماً أؤمن بالحرية في الجنس. ليس لأنني نلت الكثير منها، ولكن من حيث المبدأ».

ضحكت: «أنا سعيدة. لا أريدك أن تكون قد مارست الحب مع الكثير من النساء».

«بالرغم من أنك قد مارست الحب مع الكثير من الرجال؟».

«أنا لست مثلك. ليس مهماً بالنسبة لي. ولكن ثمة شيء واحد يهم كثيراً. كنت قد قررت أنني لا أستطيع البقاء هناك بين أصدقائي أطول من ذلك، قبل أن يبدأ الأمر بيننا. لقد أتيت إلى غالا لأنني أردت أن أبتعد عن ذلك».

بعد لحظة قالت: «أنت تفكر في المرة الأولى، في غرفة معيشتك».

«نعم».

Twitter: @alqareah

«أنت على حق. كان يبدو أنها مثل المرات الأخرى».

«أردتِ أن تريني أنني بحاجة إليك قبل أن يكون بالإمكان أن أشعر بالأسف لأجلك».

«كنت بحاجة، قبلئذ. تلك الفتاة البائسة مع أولادها. وأين الزوج؟».

«نعم. كان عليّ أن أعرض عليك بيتي بدلاً من تركك تدفعين الأجرة تلك الأسابيع في الفيش ايغل».

«ولكن بعد أن ذهبتَ لترى مويتا وعدتَ مرة أخرى جعلته شرعياً صحيحاً. منذ اليوم الذي ذهبنا فيه إلى البحيرة بات ذلك كله مختلفاً. أنا كنت مختلفة».

«هل كنت؟».

«أنت جعلتني مختلفة».

«هل أصلحتك، يا حبيبتي، أنا حبيبك العجوز المتكرش. لم تعودي تريدين رجالاً آخرين».

لكنه كان يعرف أن ما يحزنها أن تسمعه يشير إلى نفسه باعتباره صار عجوزاً.

«العيش معك مختلف عن أي شيء آخر».

«لكنه كان كذلك بالنسبة لي، أيضاً».

«أوه لا تقل ذلك».

«لم لا؟».

«لم يكن».

«يا حبيبتي! أقصد فقط الوقت في غالا. هذا هو كل ما في الأمر. قبليني».

التفت إليها بسرعة للحظة.

استندت راضية، إلى كتفه؛ لوحت لشخص وحيد على قارعة الطريق.

«ألا تعتقدين أن غوردون قد... حسناً... قدمك مع عنصر معين من عناصر الضعف؟».

«ماذا تقصد؟».

«حسناً أنت قلت لي إنه لم يحلم أبداً بالتفكير بأنك يمكن أن تكوني مهتمة بالرجال».

أطلقت قوقأة صغيرة.

«هذا لأن غوردون واثق جداً من نفسه في كل شيء. غوردون يمكن أن يتغلب على المشكلات...».

Twitter: @alqareah

«لكن هذا غطرسة، غرور. لقد برهنتِ على أنه ضعف فيه، أليس كذلك؟».

«بطريقة ما. لكنك تقول إنك تؤمن بالحرية الجنسية».

«نحن نتحدث حول غوردون. هو لا يرى ذلك بمثابة حرية جنسية، إنه العكس تماماً. هو حتى لا يرى إمكانية الحرية الجنسية لك».

«بالطبع لم يكن ذلك حرية جنسية. مجرد أن الشيء برمته لم يكن يعني الكثير. سواء كان يظنني عاجزة عن الانزعاج من أي رجل، أم يظن أنه لا يهم أن أكون فعلت ذلك أم لا، فالأمر كله يؤدي إلى الشيء نفسه».

كان ثقلها رخواً ودافئاً عليه. «أنا أغار جداً من أوليڤيا. أعتقد أن ذلك هو الحال: ينتابني شعور رهيب عندما أفكر بها».

ـ «لماذا تعتقدين أنك غيورة جداً، بما أنك مختلفة عني، مع غيرتي الجنسية الغبية من الرجال الآخرين؟».

ـ «لا أعرف». بدا أنها تنتظر الإجابة.

ـ «لأنك لا تفصل الجنس والحب. هل تفصل؟ لو نمت معها مرة أخرى لكان ذلك لأنك تحبها».

لم يستحضر ما قالته أوليڤيا، بل غوردون. كان الطريق الأحمر يمتد تحت ناظريه عبر واقية الريح المتسخة تماماً بالحشرات، وكان غوردون الذي رآه، يتحدث مبتعداً، وهو يأتي عبر شريط الشجيرات بين بيته وبيت آل تلومي.

«لا أعرف لماذا. أشعر بالنعاس بشكل عجيب. أبقى في نوع من الموت».

نامت لأكثر من نصف ساعة، لمسافة ثلاثين أو أربعين ميلاً. كان عقله ساكناً. لم يكن الأمر أنه لم تكن لديه شكوك حول ما يقوم به، أو ما سيقوم به؛ بدا له أنه جاء ليفهم أن المرء لا يمكنه أن يأمل في أن يكون خالياً من الشك، ومن التناقضات بداخله، أن هذه كانت الحالة التي يعيش فيها المرء ـ حالة الحياة ذاتها وليس من فعل ـ يمكن أن تكون خالية من ذلك. لم تكن ثمة نهائية فيما المرء يعيش، وعندما يموت سيكون ذلك، بمعنى ما، تفسيراً. خطرت بباله إمكانيات زيادة المال لأجل شينزا بسرعة. ربما، الطريقة التي تسير بها الأمور، شينزا سيكون ميتاً قبل أن يستطيع ترتيب أي شيء؛ ربما سيدخل شينزا المنفى عبر الحدود، وموبيتا سوف يستمر قوياً لفترة. ربما سيكون هناك مزيد من البيوت المحروقة، مزيد من الدم الذي يجري بسهولة كما يجري دم الدجاج في قتال لم يكن السبب الحقيقي فيه مفهوماً، قتال كانت فيه ردود الفعل الجانبية للجماعات الصغيرة من الناس تبدد بدون

Twitter: @alqareah

جدوى ظاهرياً عواطف الصراع الحقيقي الذي ورطهم فيه وضعهم ـ سنوات العبودية، العزلة، الاستعمار. هناك سيكون ضياع وارتباك. كان هو طرفاً فيه، جزءاً منه. الوسيلة، كما هو الحال دائماً، ستكون مريبة. لم تكن لديه وسائل أخرى ليقدمها بأي أمل في تحقيق الغاية، لم يكن لديه خيار.

أُثيرت لديه الغرائز الموجودة فيه التي اعتبرها بشكل لا شعوري الأكثر تحضراً، كرهاً للمخاطرة ـ كتناقض قاتل بعبارة ما ـ بجلده أو بجلود الآخرين لأجل قيم الحضارة. كان مدركاً (وهو يقود بين حفيف العشب الطويل الممسد بفعل سرعة السيارة) للسير ضد طبيعته؛ ثمة شيء ما قد يكون جديراً بالمعاناة لأجله بوصفه مسألة قناعة فردية، لكن لا شيء يستحق التسبب بالمعاناة للآخرين. إذا قتل الناس في قضية ليست قضيتي، لا يوجد دم على حذائي؛ لذلك أقف جانباً. لكنه وضع جانباً بدلاً من ذلك هذه «الطبيعة الخاصة». لقد كان ذلك إما خطأ مأساوياً أو كان خلاصه. قال في نفسه: لن أعرف أبداً، بالرغم من أن الناس الآخرين سيخبرونني لبقية حياتي. كان شعر ريبيكا يرفرف على كتفه في تيار الهواء الآتي من النافذة. مر بدامبو مستنقعي وكانت طيور الهويد ترفرف بأذيالها السوداء الطويلة. كانت أفعى تستلقي ملتفة في الطريق فتفاداها؛ السيارة التالية ستقتلها. ثمة أيضاً في ذهنه الإمكانية لأن يذهب ويرى مويتا مرة أخيرة، في العاصمة. إن استحالة الشيء تكمن مثل جوهرة سقطت في بركة وتدحرجت بين الحجارة مثل أية حصاة أخرى. لو كان بمقدور المرء أن يلتقطها... وحتى الآن، بما أن الجراءة وحدها كانت ممكنة، فقد كان من الممكن أن يقبض مويتا على شينزا، ليس العدو بل الفرصة الوحيدة... كان يرى نفسه بشكل فعلي يصعد السلم إلى الواجهة القرميدية الحمراء لذاك البيت الضخم؛ يفترض أن الصورة سوف تتلاشى كما يتلاشى شكل هلوسة مولود من الوسواس، مع الصحة، إلى جدار فارغ.

خطر شينزا بباله، بالكاد، لأن ذلك انتقل إليه بشكل أكيد مثلما هو أكيد الطريق المؤدي إلى العاصمة. كاراج هفاجي. وإذا كان شينزا قد فرٍ إلى جزء آخر من البلد، فليس ذلك مهماً. كانت لديه القائمة. شينزا لم يكن رجلاً يتكل عليه؛ بالأحرى كان يعتمد على ما سيكون عليك أن تفعله، منساقاً بدافع من ذاتك. كان يعرف أن المرء لا يطلب من إنسان ما ليس موجوداً لديه قبلئذ.

وإذا هوجم هجالمار في البيت؟ لماذا يفترض بذلك أن يحصل، إذ لم يكن ثمة شعور معاد للبيض كهذا في حالة حصار غالا. لكن بالمصادفة، كان شخص يحمل

Twitter: @alqareah

خرقة منقوعة بالبترول مشتعلة على عصا يهبط شارعاً بدلاً من الآخر، أحد الحراس الأمنيين لفيلدينغ يفقد أعصابه من ظل؟ لكن ما يمتلكه هجالمار بداخله هو البقاء على قيد الحياة. هجالمار لن يفر من ذلك. كان ذلك في غريزته لأجل البقاء مغروزاً، هناك في غالا؛ إنه لا يخاف شيئاً بقدر ما يخاف حالة زواجه.

سيكون عليّ أن أذهب وأرى مارغوت، قال في نفسه، وهو يشعر بالفتاة تطلق تنهيدة مرتعشة في نومها؛ يمكنني أن أخبرها بنزاهة تامة أنه لا يقدم علاجاً سيئاً. بشكل يثير الفضول، بالرغم من أن الانهيار العصبي كان له أثر جعل هجالمار يفقد الاهتمام بما كان فيما مضى ولعه بالتحدث بالسياسة، بحيث أنهما لم يتحدثا أبداً عما يحدث بوصفه أي شيء أكثر اتساقاً من سلسلة من أحداث القرية الحسية، فقد كان لديه الانطباع آنذاك بأن هجالمار يفهم موقفه ـ موقف براي ـ تماماً في غالا في هذه الأسابيع الأخيرة، كما لو أن مصاريع لب هجالمار الخاص قد انفتحت وكشفت معرّية تلك الاستجابة المضاعفة للمسكوت عنه، للواقع الجواني الذي يخفيه هذا الحديث. كان هجالمار قد أدلى بملاحظة في إحدى الليالي عندما كانا يراقبان الضاحية تحترق من الحديقة:

«النار في عقول الرجال، وليست في سقوف المنازل».

جاء ذلك من مكان ما لدى دوستويفسكي.

استيقظت ريبيكا. كان خداها معلّمين بطيات سترتها الأدغالية، عيناها لا تزالان زائغتين ومعتمتين بالنوم. أوقف السيارة لدقيقة لأجلها. وجدت لنفسها مكاناً للتبول وعادت على طول الطريق تحت الشمس، باسمة، وهي تبرم زنبقة كانت قطفتها. كانت ترتدي سروالها الجينز العتيق وتحركت قليلاً بشكل أخرق، ربما مدركة أن ذلك يظهرها كما هي دائماً، سمينة الفخذ قليلاً. بدت فتية للغاية عندما استيقظت ـ مثلها في ذاك الصباح ذاته. بدت الحياة تنضح من جلدها كما ينضح البخار من خلال الأرض فوق نبع معدني: حيثما كان يلمس عنقها أو وجهها كان ثمة نبض يخفق.

توقفا في وقت متأخر ليتناولا الغداء الذي أعده كاليمو، وهما جالسان على لفافات الجرائد لأن الأرض كانت رطبة جداً. شعرا بالكسل عن التحدث عن أي شيء هام. رغم كل شيء؛ إن حديثهما سوف يرتحل إلى غابة السافاناه الهادئة الشاهقة، مثلما يجب على صوتيهما أن يرتحلا، متجولين، بعيداً. لم يكن ثمة صوت عصافير، في

Twitter: @alqareah

منتصف النهار. لكن ريبيكا قالت له، أخيراً، وهي تسكب القهوة من الترموس: «إذا لم تكن سويسرا، حسناً، ماذا؟».

«سأعرف خلال أيام قليلة. سأخبرك مجرد حقائق قليلة في الوقت الحالي، لأنه لا يتعين عليّ أن أتكلم حول ذلك بالمرة. لأي شخص. ولا حتى لك».

«ولا حتى هنا؟» رفعت يدها مشيرة إلى الغابة، نصف مازحة.

«ولكن عندما أعرف بدقة ، سأخبرك بكل شيء. لأنك يجب أن تعرفي».

صنع الفيء الأرقش شالاً على ذراعيها، عيناها كانتا عليه.

«... حتى الآن هذا فقط ـ قد يكون ثمة شيء ما يمكنني فعله ـ لأجل شينزا. وسوف أفعله. أياً يكن».

لم تقل ماذا عني؟ نهضت كما لو أنها ستبدأ توضيب فضلات الوجبة ثم أقبلت عليه حيث كان يتربع على إليتيه، ووضعت ذراعيها حول عنقه وضغطت رأسه إلى بطنها.

قال: «سأحكي لك كل شيء».

«أعرف أنك ستفعل. هذه المرة».

جاءت وتربعت أمامه وخلعت نظارته. لمست البشرة حول عينيه ولعبت اللعبة القديمة، وهي تنظر من خلال الكمدة الحسيرة التي كانت تشكو منها.

قال: «إذا بدأت بتقبيلك فإننا لن نصل إلى هناك».

التقطت الترموس: «هل سأسكب الباقي بعيداً؟».

«حسناً، قد نشعر بالرغبة في الشرب لاحقاً».

«لن يكون ساخناً».

«لا بأس، سيكون رطباً».

عندما عادا إلى السيارة ظهر ولدان خارجين من الغابة، أو ربما كانا هناك، خلف الأشجار، ينتظران بصبر للحظة ليتقدما. وضعت في أيديهما المكوبة فضلات الخبز والجبن وآخر البيضات التي بداخلها سمك صغير. قبل أن تقلع السيارة كان الهيكلان الضئيلان قد اختفيا مرة أخرى في الغابة.

لم ينقض وقت طويل حتى وصلا إلى ما تبيّن أنه متراس طريقٍ نصف مفتوح. كانت الأغصان والحجارة قد أزيحت جانباً وثمة متسع كافٍ تماماً لكي تمر السيارة. لم يكن ثمة أحد حوله، لكنه لم يكن بعيداً عن الطريق الفرعي المؤدي إلى محطة تعقيم الماشية على بعد ستين ميلا من ماتوكو. لم يهطل المطر بعد في هذا الجزء من

Twitter: @alqareah

البلد. حوالي الساعة الثالثة، جعلت الحرارة والإيقاعات الرتيبة للحركة، حرارة التيار الساخن من الهواء الذي يمر بالنوافذ مع صوت شخص يصفّر من خلال أسنانه، كل ذلك جعله نعساناً. تبادلا الأمكنة؛ ريبيكا ساقت السيارة لكنه لم ينم؛ بل مدد نفسه قدر استطاعته في السيارة الصغيرة وأراح عينيه بعيداً عن المسار المنوّم للطريق. الآن كان هو الذي يشعل السجائر لها. أغمض عينيه للحظة، عندما سمعها تصدر صوتاً صغيراً ينم عن نفاد صبر بجانبها، فأيقظ نفسه، ورأى أمامه، على مسافة بعيدة، متراساً آخر. كان ثمة سراب يضخم خليط الأغصان والخضرة؛ لم يستطيعا أن يتبينا بشكل جيد جداً ما إذا كان يمتد عبر الطريق بأكمله أم لا.

أبطأت السيارة وأبقيا أنظارهما مشدودة على الحاجز. لكنها بالطبع لم تستطع أن ترى أفضل كثيراً منه.

«اللعنة، إنه يقطع الطريق تماماً. والآن ما الذي سنفعله؟».

«ابقي سائرة ببطء».

أخرج رأسه من النافذة؛ كان العشب عالياً جداً، عشب الفيل، يابساً جداً، عشب الفصل الماضي لا يزال منتصباً؛ ثمة شجرة يابسة كانت قد سحبت إلى الطريق، الجذور وكل شيء، الأغصان المكسورة كومت فوقها. توقفت وأطفأت المحرك.

«دعينا نلقي نظرة. ابقي أنت، دقيقة».

سار ببطء إلى الحاجز، صعد إلى الطرف الآخر، مشى ذهاباً وإياباً وعاود الصعود. جاء إلى السيارة باسماً.

«كم تشعرين بالنشاط؟ سيكون علينا أن نقوم ببعض العمل الشاق».

ترجلت من السيارة وبدءا بالمادة السهلة، الأغصان المكسورة، لكن جذع الشجرة، بجذورها اليابسة التي تتشبث بجلمودة كبيرة من التراب الأحمر الذي لا بد أن عاصفة قد اقتلعتها معه، لم يتزحزح. بدأت تضحك يائسة من جهودهما الناخرة.

«انتظري لحظة، يا فتاتي، ما رأيك بتجريب مرفاع السيارة؟ إذا أدخلناه تحت هذا التجويف هنا، فربما نستطيع أن نحصل على رفعة صغيرة ثم ندفعه».

لم يكن المرفاع في صندوق السيارة، في المقدمة، بل تحت المقعد الخلفي، لأن الكلاب الذي يثبته في مكانه الصحيح قد انكسر منذ شراء السيارة. دخل إلى السيارة وأفرغ سلة النزهة على المقعد الأمامي ونتر المقعد الخلفي مطلقاً الغبار. في الوقت نفسه اندفع شيء من العشب، شعر أنه قد قبض عليه من ساقه، من خصره، وكان

Twitter: @alqareah

عالقاً بين عجلة القيادة ومقعد السائق مكبلاً بشكل لا حول له بطريقة ما بفعل حجم وقوة جسمه، وسرعان ما كان هناك أشخاص من حوله وفوقه وفي السيارة، لم يكن ثمة أي صوت، والآن ليس ثمة شيء سوى الصيحات والصرخات وجهده الكبير، جهده المفجر للرئة، الممزق للعضلات ولم يعرف إن كان أولئك الرجال الذين انقضوا عليه يصرخون، أو ما إذا كانت ريبيكا تزعق. وكان جهده الفظيع ليجعلها تسمعه، ليصل إليها بصوته ويجعلها تركض حتى أكبر من محاولته للدفاع عن نفسه. أخرجوا ساقيه من السيارة فارتطم قفا عنقه بحافة السقف وسدت أذناه، أصبح صوته زعقة صامتة بالنسبة له عندما نزل به الوجع للحظة، لكن بعدئذ انتفضت بداخله قوة وحشية ووقف على قدميه، كان مدركاً لنفسه أنه مصعوق بشكل هائل إلى قدميه بين رجال أصغر منه. ثم كان تحتهم، كان يتطلع إلى الأعلى، إليهم، فرأى الوجوه، رأى العصي والحجارة وقطع عدة المزرعة، والشمس من وراءهم. شيء ما انهال مرة تلو الأخرى، وعرف أنه انتفض داخلاً إلى وخارجاً من نوبة غثيان أسود، أسود، وهو يرتفع لينحني حيث يتلقى الضربات، حيث انقطع النفس، وظن أنه نهض مرة أخرى، ظن أنه سمع نفسه يصرخ؛ أراد أن يتكلم إليه بلغة غالا لكنه لم يكن يعرف كلمة، ولا كلمة منها، ثم انفجر شيء ما في عينيه، زهرة مبللة غطته، وظن، عرف:

«لقد تم اعتراضي إذاً».

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الجـزء السـادس

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

(22)

أمضت وقتاً طويلاً في قضاء الحاجة بجانب الطريق. كانت أظافرها مليئة بالتراب الأحمر، كانت الجدران الترابية الحمراء، المقواة بباقات من العشب اليابس، تنتصب على جانبيها. برأسها المضغوط انتظرت أن يحصل ذلك لها، أيضاً. كان ثمة تراب ولعاب في فمها. كانت تغص وتولول مثل حيوان. سمعت تفجّر اللهب ورأت الدخان الكثيف. ثم ساد صمت. بعد صوت الاحتراق، لا شيء. خمد الحريق ولم يكن ثمة سوى الرائحة والدخان.

ركضت نحوه أولاً عندما بدأوا بإخراجه من السيارة. وقف على قدميه ونظر إليها مباشرة دون أن يراها بسبب انحسار النظر. لكن في نفس الجزء من الثانية أنزلوه تحتهم فكان أن دفعها صوت الضربات لدى مقاومة جسمه الكبيرة إلى قذف نفسها بشكل مجنون من خلال العشب، وهي تصارع ذلك. كانت تلوي كاحليها راكضة، فدفعها زحفها المتعثر إلى النزول إلى نوع من المنحدر المحفور في الأرض. وكانت هناك، عميقاً في خندق بعد العشب. لكنها لم تكن على بعد عشرين ياردة عنه، وعرفت أن ذلك سيأتي عليها، لا فائدة، كانت محاصرة بالجدران، في انتظارهم.

كانت واثقة أنهم لا بد هناك في الصمت.

لم تتحرك. لم يعد الدخان ينطلق؛ كان رقيقاً، معلقاً في السكون. لم تعرف كم انقضى من الوقت. لكن الصمت كان خاوياً، فوق، في ذرى الأعشاب الطويلة بينها وبين الطريق، كانت طيور النساج القرمزية تنفض الغبار، متدلية، وتزقزق سؤالاً. مر زمن آخر. نهضت وحاولت أن تتسلق للخروج من الحفرة، لكن الجدران كانت أعلى من قدرتها على تسلقها؛ جالت على امتداد خارج الطريق الذي دفعت فيه، أعلى المقطع القطري الذي صنعه قسم الطرقات. اندفعت بوهن عبر العشب الكثيف. كانت

Twitter: @alqareah

السيارة متكئة على جنبها، مفحمة، المقاعد لا تزال تحترق وتدخن والطريق مليء بالزجاج.

كان واضحاً أنه نجا من ذلك. كان على الطريق غير متأذٍ بالنار. غير مصاب. بدأت تنشج بالفرح لأنه لم يحترق، مضت نحوه باستغراق لكن ليس بسرعة ـ إذ لم يكن بمقدورها أن تتحرك بسرعة ـ نحو ساقيه المتباعدتين. طافت حوله من كل الجهات، وهي تطلق نوعاً من الصخب لم تسمعه من قبل. حوله وحوله. جسمه ـ الصدر، الجذع الكبير فوق الخصر الذكوري المتضيق الذي كان يحتفظ به، بسبب كل ثقله ـ كان شيئاً ما محطماً... تحت سترة الأدغال المتسخة، لكنه لا يزال موجوداً. كله بكامله هناك. بقع غريبة، لينة من التراب والدم؛ لكن كامل جسمه، كاملاً. كثير من الوسخ والدم على الوجه، نوع من التكشيرة، الشفتان مفترتان قليلاً إلى الوراء كما لو أنه يحاول أن يحل شيئاً ما مثبتاً بإحكام.

فجأة رأت أن نظارتيه مهشمتان في عظام خديه. كان الإطار يقبع قرب أذنه لكن الزجاج كان محشوراً هناك في اللحم القاسي تماماً تحت المنطقة اللامعة قليلاً من الجلد التي كانت دائماً محمية بنظارتيه. كان الزجاج داخلاً بشكل قاسٍ للغاية بحيث أن اللحم كان مبيضاً وكان بالكاد قد نزف.

نزلت على ركبتيها، وبنفاد صبر مرتجف في أصابعها بدأت تحاول إخراج الزجاج المكسور. كانت حريصة فقط على ألا تؤلمه، كان من الصعب أن تفعل ذلك دون أن تؤلمه. بعد برهة صغيرة ذهبت وجلست على حجر المَعْلَم المطلي بالأبيض على جانب الطريق.

لم تكن عيناه مفتوحتين لكن الجفنين لم يكونا مطبقين تماماً، كانا يُظهران خطاً من الومض. قطعت ساقاً من العشب اليابس ونكشت التراب من تحت أظافرها، بعناية، ظفراً ظفراً. كان الجو حاراً جداً. سال العرق على جانبي وجهها وتحت الشعر، على عنقها. كانت تراقبه طوال الوقت. أصبحت مدركة لفضول غريب ومخيف يستيقظ فيها؛ كان متصلاً بشكل من الأشكال بجسده. نهضت ومضت إلى جسمه مرة أخرى ونظرت إليه؛ كان الجسم نفسه الذي داعبته الليلة الماضية، الذي أخذته بداخلها عندما غطت في النوم.

كانت السلة وحقيبة السفر قد انقذفتا من السيارة ولذلك لم تحترقا. فالتقطتهما ووضعت حقيبة السفر متوازنة فوق السلة بجانبه، لرد الشمس عن وجهه.

Twitter: @alqareah

ومضى مزيد من الوقت. جلست على الطريق. كان قميصها مبللاً بالعرق وكان بمقدورها أن تشم رائحته. في بعض الأحيان كانت تفتح فمها وتلهث قليلاً؛ إلى أن سمعت الصوت فتوقفت. بدأت تشعر بشيء ما. لم تعرف ما هو ، لكنه كان نوعاً من الإلماع الجسدي. ثم فكرت بصفاء شديد أن القارورة لا تزال في السلة فنهضت بعزيمة وجلبتها وسكبت ما تبقى من القهوة في الفنجان البلاستيكي. عندما رأت السائل هناك، عاد كل شيء إليها فجأة، إلى غدد فمها، إلى أعصابها، إلى حواسها، إلى لحمها وعظامها، فقد كانت عطشى. شربتها كلها دفعة واحدة. عندئذ للمرة الأولى بدأت تبكي. بدأت تستأنف الحياة. ضرب الأسى بلون الحمرة جفنيها بالشمس والدموع سالت من عينيها وأنفها فوق يديها الملطختين بالتراب.

نزل بعض الناس إلى الطريق. توقف رجل عجوز ذو دبوس أمان في شحمتي أذنيه وغطاء عورة تحت سترة عتيقة لبرهة قصيرة وهو يردد نصف المقطع نفسه مراراً وتكراراً. كان ثمة أطفال صغار يراقبون ولم يبعدهم أحد. كل ما كان بمقدورها أن تفعله أمام الرجل العجوز هو أن تهز رأسها، مرة أخرى، مرة أخرى... لما شاهداه. أطلقت النساء تنهيدة كبيرة. كان براي يستلقي هناك في وسطهم جميعاً. جلبوا بطانية عتيقة فرفعوه وحملوه بعيداً. كان يبدو أنهم يعرفونه؛ كان ينتمي إليهم. قال الرجل العجوز ذو دبوسي الأمان لها مفشياً: «إنه الكولونيل!»

لم تعرفه أكثر. فقد تركته. كانت تسير على طول الطريق بين الأثداء المتدلية الرخوة الكبيرة ذوات الغطاء القطني لامرأتين، إنها على قيد الحياة.

أخذوهما إلى فندق كان مغلقاً أو مهجوراً. كان البناء مكسواً بألواح خشبية وثمة نوع ما من قفص للطيور ضخم لكن لا طيور فيه، الأبواب السلكية مفتوحة والكثير من الفرشات المنفوشة والقمامة مكومة هناك. أخذوه إلى حيهم الخاص، إلى أحد بيوتهم الطينية، ووضعوه على هيكل سرير حديدي في العتمة الباردة.

كان سرير الرجل العجوز وثمة غطاء وسادة مطرز يدوياً بصلبان صفراء وطيور حمراء ذات عيون زرقاء، وأزهار زرقاء ذات أوراق حمراء. جلست النساء معه وصفقن أيديهن إلى بعضها بلا صوت وبقين يصدرن نوعاً من الأنين القديم، ربما كان ذلك صلاة، ربما كان مجرد صوت بشري آخر لم تسمعه من قبل. أسندت رأسها على أحد الأثداء الكبيرة على ثوب تفوح منه رائحة دخان الحطب والسعوط. جاء موظف المقاطعة من بوما ماتوكو وأخذها في سيارته اللاندروفر، وزوجته الصغيرة، التي تبدو نوعاً ما مثل إدنا تلومي، بدت خائفة منها ووضعتها على الفراش فيما كان

Twitter: @alqareah

بشكل واضح سرير الزوجية. جاء طبيب أبيض في ثوب كاهن وأعطاها حقنة؛ تركوها لتنام لأنها لم تكن ميتة. فهمت؛ ما الذي بمقدورهم أن يفعلوه غير ذلك معها؟ نامت الليل بطوله وفي الصباح وجدت نفسها في سرير كبير، بعد كل تلك الليالي التي نامتها في ذاك السرير الضيق.

ظهر نيل وڤيڤيان باليلي ليأخذاها إلى العاصمة. ارتدت أحد فساتين زوجة موظف المقاطعة ولم يكن لديها شيء سوى سلة النزهة وحقيبة السفر.

في بيت بايلي كان الأولاد جميعاً فوقها، يشدونها، يثرثرون، يسألون أين كلايف وآلان وسوزي. استعملت ڤيڤيان وصفة الكبار: «يجب ألا تزعجوا ريبيكا، إنها متعبة جداً، جداً». لكنها كانت بالنسبة إليهم ريبيكا المألوفة التي اعتادوا أن يتكوموا في سيارتها لأجل التسلية والرحلات. مر كل أولاد ڤيڤيان بمرحلة كانوا فيها عدوانيين بشكل فظ إزاء أمهم؛ صاحت إليزا: «ليس عدلاً! ريبيكا ألطف منك» سادَ الهرجُ البيت، فكانت الأبواب تُصفق، والأصوات ترتفع.

كانت طريقة نيل هي أن يقول كلما دخل البيت: «أعتقد أن كل ما نحتاجه هو البراندي». لم يكن يبدو أنهم قادرون على التحدث إليها بدون أن يتناولوا، ثلاثتهم، مشروباً في أيديهم. شربت لتجعل ذلك ممكناً بالنسبة لآل بايلي، لكنها لم تأخذ الحبوب التي أعطتها إياها ڤيڤيان لأنه كان عليها عندئذٍ أن تذهب وتستلقي وتنام؛ وعندما استيقظت مرت لحظة لم تعرف فيها أن ذلك قد حدث وأنه كان عليها أن تكتشف ذلك مرة أخرى. قالت ڤيڤيان: «أعتقد أنها ستكون فكرة جيدة لو صنعنا لك بعض الفساتين».

جلبت آلة الخياطة إلى غرفة المعيشة واستمرت ڤيڤيان في نوع من المونولوج فيما كانت تخيط، وهي تسلّم بعضاً من اللمسات الأخيرة إليها لكي يتم إنجازها. كانت ترتدي ملابس ڤيڤيان، التي تناسب مقاسها أفضل مما كان فستان زوجة موظف المقاطعة. تذكرت وقالت لڤيڤيان: «هل أعدتم الفستان إلى ماتوكو؟» فقالت ڤيڤيان بلطف: «لا، لكنني سأعيده عندما يبدأ النقل بالعمل مرة أخرى، لا تقلقي».

كانت المادة قماشاً قطنياً أخضر باهتاً.

قالت: «ما الذي سيفعلونه به؟».

ابتعدت يدا ڤيڤيان ببطء عن آلة الخياطة، كان وجهها ذا نظرة متوسلة: «لقد أرسلوا برقية إلى زوجته ليروا إن كانت تريد إعادة جثته بالطائرة».

Twitter: @alqareah

كان المطار مغلقاً، هكذا أخبروها. سيتم إبقاؤه مُسَجًّى في مكان ما، ثمة برادات لهذا النوع من الأشياء. لا أحد يعرف متى ستقلع الطائرات مرة أخرى. حاولت أن تطلق نكتة حول المطار، بقولها: «لذلك فإن حقيبة سفركم تقف إلى جانبكم تماماً» لكن ڤيڤيان اعتبرتها كتذكير بشيء ما لا يمكن الكلام عنه ولم تستطع الإجابة.

تحدثوا حول ماحدث وكؤوس البراندي في أيديهم. خارج ذاك اليوم ـ البارحة ـ قبل البارحة، اليوم الذي قبل ذلك. الأيام المتعاقبة ببطء، الموقف المتغير حول ذلك ـ صورة أخرى دخلت في انكشاف مزدوج فوق ما تعرفه. الرجال الذين قاموا بالهجوم هم عصابة سلب مكونة من بقية أعمال الشغب الرهيبة التي استمرت لمدة أسبوع متركزة حول منجم الاسبستوس. عصابة شغب الشركة يقودها غرباء بيض، هكذا «فهمت». قاطعت ڤيڤيان زوجها. «كنت أعرف أنهم سوف يلجأون إلى استخدام أولئك الرجال من الكونغو ولن يكون مويتا قادراً على إيقافهم. كنت أعرف أن ذلك سيحدث» ـ فتحت نار البنادق الآلية على المضربين المسلحين بالعصي والحجارة. تعامل الرجال البيض معهم نتيجة خبرة طويلة بالريفيين الذي يحتاجون درساً باسم الذي يدفع ـ لقد أحرقوا القرية. قام القرويون والمضربون بغارة غير ناجحة على فندق بيلتشي القديم، حيث نزل المرتزقة. كان شخص ما قد وضع الرجال البيض (يائسين، غادروا للتو، بأي حال)... قيل إن الذي بدأ حرائق الأكواخ كان ألمانياً كبيراً لم يسافر في وسائط نقل الجيش بل في سيارته الخاصة.

قالت ڤيڤيان، «لكن هذه فولكسفاغن صغيرة، وثمة امرأة فيها».

«بالنسبة لعمال مناجم الاسبستوس فإن سيارة أركان الجيش نفسها مثل أي نوع آخر. السيارة هي سيارة».

تكلم نيل إليها ببرود. «لا أحد يعرف شيئاً، بعد، عندما تصل الأمور إلى المرحلة التي وصلت إليها الآن. لا أعتقد أن مويتا كان يعرف أنهم سيستخدمون البنادق الآلية ضد الناس. وأنه سوف تحرق بيوتهم فوق رؤوسهم. وضع الأمر فحسب في يد الشركة ـ تركه لفطنتهم ـ هذا كافٍ تماماً».

تبرعت بتقديم المعلومات: «الناس الذين ساعدونا يعرفون براي. كان الرجل العجوز ذو دبوس الأمان في ثقبي أذنيه. يعرف من قبل».

وضع نيل كأس البراندي على الأرض، كانت يداه متشابكتين بين ركبتيه، ورأسه الكبير، الفاتح اللون، الملتحي (رأس إله نهري، كما دعاه براي ذات مرة) يحدق من خلال ساقيه بحيث أن أوردته برزت في عنقه الوردي. قال بسرعة،

Twitter: @alqareah

بصرامة: «نعم، كانوا يعرفونه. لكن ذلك لا يشمل سوى حفنة من الغرباء. عمال المناجم يعاد تجنيدهم في كل أنحاء البلد. الله يعلم من هم. لا أحد يعرف من هم الرجال البيض. الرجال البيض من مكان ما. ربما يسافرون في سيارات فولكسفاغن، ربما يجولون بالنساء من حولهم. ونصبوا متاريس الطرق على بعد ميل من أولئك الذين عرفوه لمدة عشرين سنة. كانوا مجموعة من الرجال لم يروه أبداً من قبل. هذا كل ما في الأمر».

جاءت أغنس أليك لرؤيتها. كانت ترتدي شعرها المستعار اللماع، متأنقة، وتبكي طوال الوقت.

«ليتك جئت بالطائرة معي، لو جئت عندما ذهبتُ أنا».

بدت من خلال موت براي أنها تجرب بجسدها الصغير المثير الممتلىء كل ما تخشاه. جلست ريبيكا معها في الحديقة وأمسكت أغنس بيدها لكي تواسيها؛ قامت ڤيڤيان بإخراج الشاي. «تعالي وامكثي معي، يا ريبيكا، تعالي إلى بيت أمي. إنه بيت ظريف: أوه، كم كرهت ذاك المكان، غالا، لا تريني ذلك المكان مرة أخرى، أبداً - وكيف يجب عليك أن تكرهينا - قلت لأمي، إنها ستكرهنا ولماذا لا ينبغي عليها أن تكرهنا؟».

تعانقتا، وريبيكا تربت عليها بلطف فيما هي تنشج بالبكاء. قالت ڤيڤيان برقة صارمة: «ما هو رأيك بخياطتنا النسائية، يا سيدة أليك؟ أنت تعرفين ريبيكا، وأنا صنعت ذاك الفستان الذي ترتديه هي، صنعناه بأنفسنا».

جاء رولي داندو. كان ذلك في وقت متأخر من العصر؛ شربوا جميعاً. كان رولي الصغير النحيف يمتلك نفحة شخص يعرف ما يجري في زمن الفوضى والثورة، عندما يكف ما يوجد من معلومات رسمية عن أن يكون جديراً بالثقة. كان معلوماً أن مويتا ليس في المقر الرئاسي؛ استمرت رسائله تُبث إلى الشعب، ولكن من ملجأ مجهول. كانت إطلالاته التلفزيونية، كما قيل، أفلاماً قديمة قرنت بها بيانات مسجلة جديدة، ليس بشكل جيد جداً.

لم يذكر شيئاً من هذا. لكنهما تحدثا. بدا داندو مقتنعاً أن شينزا كان عبر الحدود، يخطط لعصيان مسلح، لحرب عصابات. دلاميني اوكوي ووزير الصحة، موسى فاهلي، قد اختفيا ومن الواضح أنهما معه. قيل إن غوما في السجن؛ ثمة أناس كثيرون في السجن بحيث أنه إذا لم يشاهد شخص ما لأيام قليلة فقد كان يُفترض أنه حيث يجب أن يكون.

Twitter: @alqareah

قال نيل: «هل صحيح أن مويتا طلب قوات بريطانية؟».

جلس رولي هناك عند الغسق بعنقه العضلي المتوتر المشدود إلى الأعلى بشكل مستقيم جداً عن ياقته، لم يكن يبدو عليه أنه يسمع. نهض لإحضار مشروب آخر وتردد على الطريق، حيث جلست ريبيكا. وضع يده على رأسها:

«الفتاة ذات العينين الذهبيتين، الفتاة ذات العينين الذهبيتين» مشى متشامخاً بشكل أخرق إلى طاولة الشرفة وصب لنفسه شيئاً. عاد وجلس على ذراع كرسيها، وذراعه حولها، يلامس عنقها وهو يتحدث، وصار ثملاً قليلاً، عاجزاً حتى في هذه اللحظة عن مقاومة الفرصة الكئيبة للاستفادة من أساه لملاطفة امرأة. كان يتحدث عن براي.

«الموضوع، بالطبع، أن كل أصدقائنا الأعزاء في الخارج سيقولون: قتله الأصدقاء الذين أحبهم، وماذا يمكن أن تتوقع غير ذلك منهم، وكم هم جاحدون! وكل ذاك الاثنين زائد الاثنين يساوي أربعة للعقاب والمكافأة مما يخطر بالبال لأجل التفسير المخابراتي للأحداث. هذا الجزء منه هو الذي من شأنه أن يغضبني. أو ربما كان يسليه. لا أدري».

خرج صوت ڤيڤيان الجميل المضبوط من الظلام «أتمنى لو كان بوسعنا أن نعرف أن جيمس نفسه يعرف أنه ليس كذلك، عندما حدث».

«بالطبع كان يعرف!».

تكلم رولي بالموثوقية التي لا تقبل التحدي للصداقة على مستوى لم يتشارك به أي من الآخرين.

«ليس له علاقة بذاك العدد الكبير من البوالين الروحيين الذين يجدون بديلاً عن مخاوفهم في موته! كان يعرف ما هو المقصود بقوى التاريخ، كان يعرف مدى خطورة الطاقات المنفلتة بفعل التغيير الاجتماعي. ولكن ما الفائدة؟ سيقولون إن «سُودَه» قد قتلوه. سيمضون أبعد من ذلك: سوف يطلعون بذنوبهم لكي يكفروا عنها ويقولوا: نعم، إنه بالتأكيد قد مات بالغفران المسيحي بسبب الناس الذين قتلوه، بالإضافة إلى ذلك. المسيح الكلي القدرة. لن نفهم ذلك مباشرة. سوف يضربون كل شيء بتصوراتهم المغلوطة البغيضة». أمضى رولي الليل بسبب حظر التجول. سمعته يشخر في الغرفة المجاورة للغرفة التي أعطيت لها.

Twitter: @alqareah

تحدثت ڤيڤيان إليها كثيراً حول أولادها، حول كلايف وآلان وسوزي، لكنها نفسها لم تكن تفكر بهم مطلقاً. بدأت تحيض بالرغم من أنه لم يكن الموعد الصحيح وعندئذ قالت في نفسها: «هكذا إذن، لم يحدث [الحمل] أبداً، لن يكون ثمة ولد أبداً».

وضعت ڤيڤيان مهامّ صغيرة في طريقها كما لو أنها تقود مخلوقاً تائهاً بدافع اللطف، على سكة.

«أظن أنه ينبغي عليك أن تذهبي وتري مارغوت. إذا كنت تشعرين برغبة في ذلك. إنها كئيبة جداً. إنها حقاً تود أن تعرف عن هجالمار، مع أنها بالطبع لا تقول ذلك». وهكذا أخذت سيارة ڤيڤيان وساقت إلى السيلڤر رينو. كانت المرة الأولى التي تسوق فيها السيارة منذ ذاك اليوم. كانت السيارة من النوع نفسه ـ فولكسڤاغن من طراز قديم. نجحت قدماها ويداها من تلقاء ذاتها، إذ لم يكن قد مضى على ذلك سوى خمسة أيام.

كانت السماء قد أمطرت طوال الليل مرة أخرى وكان الصباح جميلاً. (اكتسى حلة خضراء، قالت ڤيڤيان). كان ثمة جنود يحرسون حول مكتب البريد واستديوهات الإذاعة. كان الناس يمنعون من الاقتراب من المنطقة حيث كانت المكاتب الصحفية قد حصنت بالحجارة. خارج محطة القطار وموقف الباصات كان مئات من النساء والأولاد العجائز يجلسون في تجمعات بين الأغراض المنزلية والماشية تحت الشمس القوية المرتفعة مع وخز رائحة البول والخضار المتعفنة؛ لم يكن ثمة قطارات أو باصات تسير.

وفي كل مكان أدى المطر والحر إلى تفتح الأزهار. كان الجنود بلباسهم الميداني المصنوع من قماش الدراب يقفون تحت الأشجار المزهرة، حيث كانت البونستية والهيبيسكوس المتألقة بشكل فاقع كما الزهور الورقية الكرنفالية في الطريق الخاص للمقر الرئاسي الذي قيل إنه فارغ. في الحديقة القديمة للسيلفر رينو كان ثمة سيارة أميركية ضخمة مركونة، مع سيارة أخرى أقدم منها ولكنها بالكاد أصغر منها تقف خلفها. ثمة ستائر من النايلون في شرفة النوافذ حول مؤخرة السيارة الجديدة، وأغطية مقاعد من طراز أوسيلوت. كان بعض الرجال الأفارقة بالبيجامات جالسين على العشب خارج أحد البنغلوهات. هي لم تلاحظ فعلاً في طريقها إلى البناء الأساسي. لكن أحدهم نهض وتقدم نحوها بذراعين مفتوحين؛ كان رجلاً سميناً، ضخماً في فمه سيكار وعلى رأسه توكة من جلد الفهد: لولو، لولو كامبويا، شريك غوردون السابق من الكونغو.

Twitter: @alqareah

«مدام إدوارد؟ كنت أقول إنني أعرف تلك الفتاة الماشية! ماذا تفعلين هنا؟».

«لولو ـ وأنت؟».

أخذها من الكتفين مبتسماً لها بابتهاج؛ كان يمتلك وجهاً أسود غبياً ضخماً ذا حافة سميكة من اللحم تنضغط مرتدة إلى الوراء على الأذنين وحتى صعوداً إلى الجبهة من الحافة الجبهية.

«أقوم بأعمال تجارية في كل مكان. أنت تعرفين لولو. ولكن ما هذا القتال، ايه؟ إنهم مجانين، إيه؟ أقيم هنا، جئت البارحة لمدة أسبوع مع أهلي، لا شيء لنعمله، لا شيء. أحياناً أفكر في أن أذهب وأجد فتاة صغيرة(*) ضحك بشكل هائل. عرفت من غوردون أن «Faire une petite folie» تعني إيجاد فتاة وممارسة الجنس معها؛ كان لولو وغوردون يتكلمان الفرنسية معاً، فرنسية الكونغو التي يتكلمها الأفارقة نصف المتعلمين، مخلوطة بكلمات لنغالا واللهجة البلجيكية، لكن لولو كان على الدوام فخوراً بكونه قادراً على التكلم إليها بالانكليزية بحيث لا تشعر بأنها مستبعدة. «والأطفال»(**) هل يكبرون بشكل جيد؟ أين غوردون؟ هل يكسب النقود مرة أخرى أم لا؟ آه غوردون، لو يقيم هذه المرة الآن معي، لكان لديك الكثير من الفساتين! أنا أصنع الوقت الكبير ـ هذا صحيح، أقول الوقت الكبير ـ إيه؟ ـ هكذا أسمع في السينما. أوه إن التجارة تستمر في السير جيداً، أما الآن هذه الحرب اللعينة أو ماذا. ماذا؟ إيه؟ أنا لم أكن هنا مع عائلتي إلا منذ البارحة...».

«أين تعمل؟»

«أنا ذاهب إلى الجنوب. هناك في الأسفل، في الأسفل. بعيداً عن هنا. حصلت على تذكرة لكن الطائرة لا تذهب. أنت ترين، أريد الذهاب إلى جوبورغ. هل تذكرين؟»

نعم، كانت تذكر؛ لقد كان لديه على الدوام توق لرؤية جوهانسبورغ. رفض الاقتناع بأن جنوب أفريقيا لا تسمح بدخول السود من بلدان أخرى كقاعدة، وإنه إذا دخل فلن يكون قادراً على التمتع بحريته المعتادة في البارات والفتيات.

«أنت تعرفين ـ لدي أعمال هناك الآن. أرسلت البضائع ثلاث مرات قبل الآن بقيمة ثلاثين ألف فرنك. الدفع في سويسرا. وليس في الكونغو».

زأر بضحكة على القصة القديمة.

(*) Faire une petite folie: بالفرنسية في النص الأصلي للمترجم. (المترجم).

(**) Et le bebés: بالفرنسية في النص الأصلي. (المترجم).

Twitter: @alqareah

«لكنك مريضة، يا مدام إدوارد، ما الذي تسبب بذلك؟»

سحب يديه المزينتين بالخواتم بكآبة نزولاً إلى وجهه. «هل تحتاجين إلى نقود؟»

ـ «لا، لا شيء. أنا بخير. هل سأراك مرة أخرى عندما أخرج؟ صار عليّ أن أذهب وأبحث عن المسز ونتز».

«في أي وقت. أي وقت. يبدو أنني سأبقى حتى عيد الميلاد».

شعرت أصابعها بالوهن والارتعاش. عندما رسم ذاك الوجه، الذي لا ينجح سوى في الظهور بمظهر هزلي؛ شعرت بالدموع تعود إليها فجأة مرة أخرى. ففي بيت آل بايلي جفت: كما تتكلم عن بقرة تجف.

كانت مارغوت ونتز قد تركت شعرها يطول ليتجاوز صبغته. فيما كانتا تتحدثان كانت تنظر طوال الوقت إلى ذاك الإنش أو الإنشين من اللون الأبيض المبقع والمذهب في مفرق شعر مارغوت. ربما كان ذلك إشارة حداد خصوصي. جلستا في غرفة الجلوس الصغيرة إلى الطاولة المستديرة ذات الغطاء القماشي المشرشر. أعلن عن تجهيز القهوة، مع ملاعق شاي فضية رقيقة وإبريق كريم فضي على شكل زهرة توليب. ناقشتا هجالمار كما لو أنه قد أصيب بمرض ونُصح بالذهاب إلى غالا لكي يتعافى. قالت ريبيكا إنه يبدو أحسن بكثير في الآونة الأخيرة. إن العمل الذي يقوم به، متسكعاً حول الحديقة، يبدو جيداً لأجله. قالت في نوع من الشرح النهائي لكل شيء متروك لم يتم التحدث عنه:

«عرض أن يبقى ليعتني بالبيت» ونظرة أسى مكبوت مسحت وجه مارغوت ونتز لأنهم الآن قد اعترضتهم صعوبة حتماً على خلفية ما حدث: إلى ذاك اليوم عندما غادر براي وريبيكا غالا. في كل مرة كان اسم براي يرد في ذكر حياة هجالمار في غالا، كان خد مارغوت الأيسر يتحرك قليلاً كما لو أن وتراً انتفض بالداخل هناك، لكنها الآن لم يعد بمقدورها أن تحرف نفسها. قالت شيئاً ما حول ذاك الشغل الرهيب، حول كم كان رجلاً رائعاً؛ حدقت إلى ريبيكا، غير قادرة على المتابعة. بدت رائعة؛ فقد كان وجهها (خلافاً لوجه لولو) وجهاً خلق ليعبر عن المأساة.

شربتا مزيداً من القهوة وسألت ريبيكا عن الفندق والابن، ستيفن.

«لا أحد يعرف ماذا سيحصل»، قالت مارغوت، بشكل شبه مهيب.

«لا أملك مالاً لكي أذهب، إن أردت. وحتى لو أردنا الذهاب، فإن المطار مغلق. وأعتقد أن الحدود مغلقة أيضاً. هجالمار لن يتحسن هنا». ثم تذكرت أنه لو لم يبق ليعتني بالبيت لكان من الممكن أن يكون قد مات، ولامتلك مرة أخرى ذاك المظهر

Twitter: @alqareah

من الاضطراب الذي رأت ريبيكا أن حضورها قد جلبه على وجوه الناس، سألت ريبيكا عن الابنة وكان ذلك أفضل؛ فقد كانت مستقرة في لندن «طبعاً، هناك كل الأشياء التي لا تنالها ايمانويل، كل الحفلات الموسيقية وحفلات العزف المنفرد ـ الموسيقا حياتها، أنت تعرفين».

عندما نهضت لتنصرف، قالت لها مارغوت: «ريبيكا، لو كنت بحاجة إلى أي شيء. لا أعرف ماذا ـ مكان ما للإقامة، ربما؟».

لكنها شكرتها، لا شيء، كانت تقيم مع آل بايلي بالطبع. «أرى أن لديك صديقاً قديماً من أصدقائنا في الفندق ـ لولو كامبويا الشهير».

«إنه هو». كان صوت مارغوت جافاً.

«إنه يتجول مع عاهرته، غير مبال بسائقيه وسكرتاريه. إنه لأمر جيد بالنسبة لي أن الرخصة التي أعطتني إياها الشرطة لها أشياء أخرى لتقوم بها، وإلا لكنت في ورطة بسبب تشغيل ماخور».

كان اهتمام لولو منصباً عليها فترك أصدقاءه جالسين يشربون البيرة على شرفة إحدى فيلاتهم المستديرة.

«ألا تريدين أن تتناولي جرعة صغيرة؟ لا؟ تعالي لأريك بسيارتي الليموزين مشاريعي التي أقوم بها هذه الأيام»

كان يرتدي سروالاً كتانياً أزرق باهتاً و، رغم الحر، كنزة موهير بنية ذات خيط ذهبي في الحبكة. لبسها فوق صدره العاري، حيث كان جنزير ذهبي يتبع تجعدات الشحم حول قاعدة عنقه وينتهي بميدالية كبيرة ذات حجر أحمر. كان ذيل نوعٍ من الزباد يتدلى من قبعة جلد الفهد. كان الصندوق الخلفي الكبير للسيارة مملوءاً بعلب مصنوعة خصيصاً، طراز البائع الجوال، ولكن بلمسة لولو: أقفال أغطية تمساحية بلاستيكية لولبية ذهبية أو حمراء اللون. «من الولايات المتحدة، من الولايات المتحدة».

كان يبيع السلع القديمة نفسها: سكاكين الورق العاجية والقلادات، نسخاً فظة من الشكل الجالس الشهير للملك لوكنغو الذي نقشه لأجله فريق من الرسامين في قرية ما من قرى الباكوبا في الكاساي، أقنعة مزخرفة بأصداف الودع الصفراء والنحاس، مصنوعة ليس لأجل الرقص بل لأجل جدران بيوت البيض.

Twitter: @alqareah

«إذا لم أستطع الذهاب إلى جوبورغ، أفكر الآن في أن أعبر الجانب البرتغالي بنفسي غداً. أنا أبيع هذا؛ إنه ليس مكاناً سيئاً هناك... هنا، أنا أقدم لك هدية صغيرة، نعم خذيها».

وكان عليها أن تجد زوجاً يناسبها من بين كومة من الصنادل ذات الكعب الذهبي ذات أربطة مصنوعة من جلد وحش بائس.

«مدام إدوارد، ولكن لماذا أنت مريضة، إيه؟».

وقف مبتعداً إلى الوراء وهز رأسه فوقها، مدركاً جيداً أن الهدايا لن تفيد. ثمة صوت زيلوفون أفريقي يُعزف عليه يصعد ويهبط في السيلڤر رينو للإعلان عن الغداء، نهضت الحاشية مع صرير الكراسي والثرثرة والجدال، وكانت الفتيات يضحكن بطريقتهن الخاصة الخليعة، اللامبالية، يلوحن حولهن بأيد سوداء ذات أظافر مطلية مثل قشور براقة، والنهود تهتز، والأقراط تنوس، والضفائر الخلفية السوداء الصغيرة تتطاير فوق رؤوسهن. أطلق تعليقاً متهكماً، لكن كل ما حدث كان مزيداً من القهقهات، ووضعت إحدى الفتيات يديها على ردفيها وخبطت الأرض بقدمها بحيث أن أساورها تهزهزت وكذلك مؤخرتها المدورة بالبانييه الضيق الملتصق بجسمها.

كانت ريبيكا عند بيت آل بايلي تقريباً عندما أقفلت عائدة بالسيارة إلى السيلڤر رينو. كانا جالسين إلى الغداء، كرسياهما مائلين في هذا الاتجاه وذاك، الندّل يكدون ويتصببون عرقاً حولهما، وزجاجات البيرة صاعدة تسلّم وتُستلم، لولو عند رأس الطاولة. حيثما يذهب يحمل معه جو النادي الليلي الأفريقي في العراء.

«هل أنت حقاً ذاهب إلى الضاحية البرتغالية؟ نعم، قلت لك ـ هذا المكان يكفي. والطائرة ـ لا شيء. أنا ذاهب ـ لقد ذهبت إلى هناك مرة واحدة قبل الآن، إنه ليس سيئاً..».

قالت: «هل يمكنني أن أجيء معك، يا لولو ـ هل تأخذني؟».

«بالتأكيد آخذك! بالتأكيد! غداً؟ هل حجزت؟ هل معك الكثير من الأمتعة والبيلوكو؟».

لم يعرف آل بايلي ماذا يقولون لها.

«وعندما تصلين إلى هناك، ماذا ستفعلين؟».

«يمكنني أن آخذ طائرة».

قالت ڤيڤيان: «ستذهبين إلى جنوب أفريقيا إذاً».

Twitter: @alqareah

هزت رأسها.

«إلى أين ستذهبين يا ريبيكا؟» تكلمت ڤيڤيان بلطف.

حكت لهم عن المال الذي أرسله براي إلى سويسرا.

قال نيل بايلي: «لا تكرري القصة لأي شخص آخر. ولا حتى لصديقك لولو».
صمتت ڤيڤيان.

«أفكر في أن أذهب وآخذ المال»

لم يطرحا أية أسئلة أخرى.

أعطتها ڤيڤيان معطفاً من وبر الجمال اشترته من انكلترا:

«الوقت شتاء تقريباً في أوربة ـ ليس لديك ملابس دافئة».

كان لديها الفستانان القطنيان اللذان صنعوهما لها، وبنطلون الجينز وقميص (مغسول، بدون أي أثر لتراب أحمر)، سلة النزهة وحقيبة السفر العائدة لبراي. كان على نيل أن يطلب منها أن تدعه يفتشها لأجل جواز سفر براي وأوراق أخرى لكنه أعادها إليها.

دخل نيل إلى غرفة النوم حيث وقفت هي وفيفيان مع المعطف.

«ماذا عن تذكرة السفر بالطائرة؟»

«سأقترض المال من لولو».

هز نيل رأسه، فقد كان لولو شريك زوجها وقال: مسألة المال سوف ترتب بسهولة. قالت على الفور: «سوف يكون مسروراً بجعلي أدفع بالفرنكات السويسرية».

عندما غادر نيل الغرفة، قالت لڤيڤيان: «لن أسكن مع غوردون مرة أخرى». ووقفت ڤيڤيان هناك، وهي تنظر إلى المعطف دون أن تراه، وهي تضغط ظفر إبهامها بين أسنانها الأمامية. أعطياها إحدى حقائب السفر الخاصة بهما. عندما رزمت أمتعتها، كانت لا تزال نصف فارغة. حتى اللحظة التي غادرت فيها بدا أنهما يشعران بشكل ما بمسؤولية إيقافها، ومع ذلك فقد كانا عاجزين عن تقديم أي سبب يفسر لماذا ينبغي عليها ألا تسافر.

«لا أظن أنه قد سبق له أن اجتاز الحدود» تبرع نيل بالقول.

«وخصوصاً هو. من المعروف ربما أنه قام بتهريب البنادق في كاتانغا في عهده».

«سيجتاز الحدود بخير. غوردون دائماً يقول إن لولو يمكنه أن يفعل أي شيء».

Twitter: @alqareah

ساق نهاراً وليلة ولم ينم سوى غفوة قصيرة لمرتين أو ثلاث مع إيقاف السيارة لإراحتها على جانب الطريق. كان خطراً بالنسبة لأي شخص أن يسوق هذه المدة الطويلة وبهذه السرعة بدون راحة لكنها تعرف أن لا شيء سيحصل. وجدت أن ليس المهم هو إن كنت تعيش أو تموت بل أن تعرف متى لا يمكنك أن تموت. إنك على قيد الحياة. كان قد جلب معه إحدى الفتيات فقط . وثمة متسع كثير للتمطي والنوم. لم يكن ثمة لغة مشتركة بينها وبين الفتاة، لذا فإن تواصلهما كان يقوم على ابتسامة من حين لآخر واتفاق بلا كلام حول الأوقات التي كانتا فيها بحاجة إلى الدخول إلى الأدغال معاً للتبول. كان الحر شديداً ومع السرعة كان يسبب دوخة: الغابة، السافاناه، الشجيرات، التبدل في الحركة الملتفة إلى الأسفل في شعب جبلي. سارت أمور لولو جيداً للغاية مع الموظفين في المركز الحدودي و«نسيت» زجاجتين من الويسكي متروكتين واقفتين بجانب المكيف الذي كان يتعرق الماء من الرطوبة. على الجهة الأخرى من الحدود كان الليل، كان ثمة انفجارات مفاجئة من الموسيقا المفرقعة عندما حاول أن يلتقط محطة ما على مذياع السيارة، النوم المضطرب، كتلته الغامضة هناك في الكنزة، أشعة الضوء العالي للسيارة الملبدة بالحشرات، الفجر القادم كرائحة الطراوة قبل طلوع الضوء. كانوا في أرض شبه صحراوية، صفراء قاسية، محفورة على شكل أقماع في أكوام نملية يبلغ ارتفاعها خمسة عشر قدماً، شجيرات شائكة زرية الشكل مكسوة بمشبكات مهترئة، أشجار باؤباب ضخمة. ساقوا فوق جسور خشبية منصوبة فوق أسرة أنهار جافة. في حوالي منتصف النهار كفت كل الأشياء النابتة عن الوجود ولم يكن ثمة شيء سوى الجروف الصفراء القاسية، انجرافات من كثبان بلون الطلع، جرود أخرى ذات أقنية ومنحدرة بشدة بفعل التعرض للعوامل الجوية، ثم وراء الكون الأصفر كان هناك لون أزرق ساطع وقوي بالقدر نفسه ـ إنه البحر. عبر القرى الرثة، مواكب الدراجات والدجاج والحافلات والشاحنة الزائدة الحمولة التي هي العلامة الأولى على كل بلدة كولونيالية، مروا بالمصانع ذات الأسماء البرتغالية، الجروف المكسوة تماماً بالجدران القرمزية والبيضاء والأسطح المكسوة بالآجر، الأشجار القاتمة والممرات المتلألئة من بوغنفيليا منازل البيض، وفي الأسفل، المكعبات والمستطيلات الباهتة للمركز التجاري خلف كورنيش مقوس والخليط المرفأي من السفن والروافع. أخذها لولو إلى فندق لشبونة («أنت تحبينه ـ فيه باران للكوكتيل») وأعطاها ما يعادل خمسين جنيهاً، جزء بالدولار، وجزء بالستيرليني، بالإضافة إلى السعر بالإسكودوس للتذكرة للسفر

Twitter: @alqareah

إلى أوروبة. في إحدى رحلاتهم إلى الأدغال كانت الفتاة قد أظهرت لريبيكا رزم الأوراق النقدية في كيس من الخام على وركيها تحت البانيبة. يبدو أنها قد جلبت بمثابة حصالة خنزيرية أكثر مما هي بمثابة فتاة صغيرة. لولو نفسه لم يحجز في الفندق؛ فقد كان لديه صديق جيد في جمارك المرفأ سيذهب ويراه، ثم إنه وعد بأن يشتري للفتاة شعراً مستعاراً، وضعت أصابعها على كتفيها وابتسمت بشكل متطلب لتظهر أنه يجب أن يكون شعراً طويلاً، طويلاً حقاً ـ قبل أن ينطلقا مرة أخرى ليسوقا السيارة جنوباً إلى الميناء الآخر.

عندما ذهبا جلست على أحد الأسرة في الغرفة التي أعطيت لها، وهي لا تزال تتهزهز قليلاً من حركة السيارة، واتصلت بمكتب الطيران. أخبرت أنه سيكون عليها أن تنتظر يومين من أجل رحلة إلى زوريخ، كان ثمة مقعد لأجلها على الطائرة. أخذوا اسمها وقالت إنها ستأتي لتدفع ثمن التذكرة لاحقاً.

كانت غرفة مزدوجة ذات سريرين مفصولين بطاولة سرير صغيرة تحمل الهاتف ونفاضة السجائر، وكتيب بالانكليزية والفرنسية والبرتغالية يحمل عنوان؛ [ما يجب أن تراه وإلى أين يجب أن تذهب]. كان ثمة غرفة حمام وراء ستائر سميكة وجدت شريحة صغيرة من شرفة. خرجت للحظة. كان ثمة هلال من خليج منبسط، أشجار النخيل تمتد بعيداً بفراغات منتظمة على امتداد المنعطف، قبالة الفندق تماماً كانت ترتفع بناية جديدة خلف ستائر من الحصر. في فجوة، جلس عمال على حبل بهلواني من العوارض الفولاذية يتناولون طعام الغداء. تحتهم، في الأسفل، كان ثمة باحة لا بد أنها كانت الساحة العامة عندما كانت البلدة قاعدة عسكرية للحامية. هذه الباحة مقسمة بممرات رملية ونباتات مزخرفة، مثل تربيعات خوذة النبالة. لوّح لها عامل يرتدي على رأسه قلنسوة ورقية. دخلت، أسدلت الستائر مرة أخرى، ووقفت تنظر إلى السريرين. قلبت غطاء السرير الذي جلست عليه فيما كانت تتصل، واستلقت على ظهرها. ثمة ست شعمات زائفة من الثريا تصنع ست دوائر بنية مظللة على السقف، كانت قطرات الزجاج تدور ببطء في تيار من الهواء بحيث أنها لم تشعر بها. لم يكن ثمة شيء مألوف في الغرفة سوى سلة النزهة وحقيبة السفر. وهي نفسها. في مثل هذا اليوم، منذ أسبوع بالضبط، كانا يسيران على الطريق إلى غالا.

كان أحد الرجال عند طاولة الاستقبال في فندق لشبونة قصيراً ذا رأس ضخم بشعر مجعّد، وفم صغير مظلل بالأزرق من كل جوانبه بغض النظر عن نعومة

Twitter: @alqareah

حلاقته، وعينين بنيتين فتيتين مدورتين مثل عيني قرد القشة. هذا الرأس الكبير لم يكن مرتفعاً جداً فوق طاولة الحساب، وكان على الدوام مائلاً ينهمك بنوع أو آخر من الخدمة: إما يبدل شيكات المسافرين أو يسجل رقماً على الهاتف لأجل شخص ما، أو يطقطق بالرصاصة خارج قلم الرصاص المذهب الصغير ليرسم خريطة شارع. كان يتكلم الانكليزية بطلاقة وهو الذي أخبرها كيف تصل إلى مكتب خطوط الطيران. كان يخطو خارجاً ليكبس الزر عندما يأتي المصعد بطيئاً؛ يلتقط ـ بابتسامة مثل الابتسامة من سرير مستشفى ـ مفتاح الغرفة الذي أوقعه عند الطاولة ضيف خارج إلى الشمس.

كان بإمكانها أن تستذكر عندما تشاء كل تفصيل حول وجه هذا الرجل، كان ختماً مطاطياً انطبع على صفحة بيضاء، في حين كان في وجه براي ثغرات لا يمكن ملؤها ـ بين عظم الوجنة وزاوية الفك، على الجانب الأيسر ـ من الأنف إلى الشفة العليا. لم يكن بمقدورها أن تجمعه إلى بعضه. كانت تلتقط تعبيرات بعينها وزوايا بعينها لكنها لم تستطع أن تجد الصورة الراسخة.

كان المنتزه تحت أشجار النخيل أطول بكثير مما يبدو. يستغرق أكثر من نصف ساعة، مشيا ببطء، للوصول إلى المدخل المؤدي إلى أحواض السفن. مشت في اتجاه واحد على طول المنتزه والاتجاه الآخر، على الجهة المقابلة من البوليفار العريض، على طول الحوانيت والأبنية. قبل الأحواض تماماً ثمة مكان كريه الرائحة حيث كان المنتزه زلقاً بقطع السمك، والنساء الأفريقيات بائعات الجملة يجرين الصفقات لأجل الصيدات ويأخذنها بعيداً، إلى صناديق السيارات المحلية. على جانب البلدة ثمة مجمع جديد من المصارف وشركات التأمين، كل الزخرفات والملصقات المعدنية وأصناف النحت التذكاري للآلهات السواداوات التي يميل المعمارون البيض للإتجار بها في المستعمرات، حيث يكون السكان المحليون سيئي التغذية على وجه الخصوص. ثمة حوانيت مكتظة براديوهات الترانزيستور، المسجلات، والشوايات الكهربائية ذات الدجاج الجصي المسمّر جيداً على أسياخها. ثمة أبنية أقدم عهداً، مخازن ومستودعات مغلقة بشكل مصمت، وأخرى ذات واجهات مصنوعة من عجينة الباستيل آخذة بالتقشر، أعمدة trompe-l`oeil وأكاليل مطلية بشكل باهت حول الأبواب والنوافذ. في مقاهي الرصيف كان الرجال البيض يقرأون الصحف وينزلونها للحظة عندما تمر امرأة. جلست في الشارع إلى طاولة أو أخرى من الطاولات الصغيرة لفترات طويلة، تشرب قهوتها

Twitter: @alqareah

السوداء المحلاة جيداً وتراقب الطيور الكبيرة التي تقف طوال النهار في الماء الضحل للخليج، حيث تبدو مساقة إلى الشاطيء على الطين عندما يحدث المد، وتنتقل إلى صورتها المرآتية، رأساً على عقب في السطح الباهت الهادئ، عندما يحدث الجزر. ذات مرة نزلت إلى حافة الطين المتسخ لكن الطيور لم تتحرك. ثمة مقاعد خرسانية على المنتزه. جلست لبرهة يضايقها الصبيان المتسولون الذين يبيعون بطاقات اليانصيب، والجنود البرتغاليون الفتيان؛ ربما كانت هذه المقاعد هي المكان التقليدي لأجل التقاط الفتيات، بالرغم من أن البغايا في تلك البلدة من المحتمل بصعوبة أن يكن بيضاوات. جاء الجنود الشباب من حصن قديم على إحدى التلال الصفراء فوق الخليج؛ لو التفتت يساراً بدلاً من يميناً، على طول المنتزه، عندما خرجت من فندق لشبونة، لمرّت تحتها. كانت مصمتة ومهترئة مثل تاج ضرس عتيق؛ فقد بناها البرتغاليون منذ خمسمائة سنة وكانت لا تزال قائمة. كانت سيارات الجيب العسكرية تسلك صاعدة نازلة إلى الطريق المنحدرة إلى الشرفات المفرّجة وأكواخ الحراس التي تنتصب بين أشجار التين الهرمة جداً، التي تمتد جذورها في الجدران، التي لم تنفلت، أيضاً. في الليل كانت تضاء بالأنوار الكاشفة؛ أحد المناظر المذكورة في الدليل السياحي المكتوب بثلاث لغات بجانب السرير.

لم تغادر الطائرة حتى الساعة السادسة من مساء اليوم التالي.

اشترت زجاجة شامبو وغسلت شعرها وذهبت إلى الباحة الصغيرة لتجففه تحت شمس الصباح. كان ثمة رجل أسود عجوز رث الملابس يرتدي قلنسوة مع شعار البلدة يرشرش خرطوماً على الأوراق الخشنة للشجيرات. لم يكن ثمة صحف انكليزية لكن غرفة الاستقبال في الفندق كانت تعرض كشكاً سلكياً مع صحيفتي تايم ونيوزويك لأجل رجال الأعمال الأجانب الذين يجلسون طوال اليوم تحت الأضواء النيونية لردهة البار، يتبادلون المصافحات وعثرات اللغة مع رجال الأعمال المحليين ومرافقيهم. اشترت صحيفة تايم وقلبت الصفحات في الباحة فيما كان العمال يصفرون لها من السقالات. متزوجون، مطلقون، موتى، ممثلات، أفراد أسرة مالكة مخلوعون، سياسيون أميركيون لم تسمع بهم أبداً. صور لمجموعة من الطلاب العراة يحرقون تمثالاً على جسر شاهق؛ صورة طفلة ڤيتنامية مع ذراعها المنسوف عند المرفق. قرب أسفل الصفحة، الصورة الفوتوغرافية، [الاسم - ايني ميني مويتامو - هل سيكون التالي دوره ليذهب؟ هذا العام هو عام الانقلابات في افريقيا، نصف دزينة من الحكومات أسقطت منذ شهر كانون الثاني. رجل طيب وسيم من الأمم الغربية،

Twitter: @alqareah

آدامسون مويا (40) هو آخر قادة القارة المعتدلين الذي يجد نفسه يتمسك بحزام الأمان الرئاسي في حين أن أعمال الشغب تهز بلده. سجونه مليئة ولكن حتى عندئذ لا يستطيع أن يكون متأكداً من هو - من بين أولئك المطلقي السراح - اليسار أو اليمين، من هو الصديق أو العدو. إن وزيره للشؤون الخارجية، البرت تولاتولا المديني المعادي للشيوعية، يقبع في السجن بعد شائعات عن محاولة استلام للسلطة تمت في الشهر الماضي. رجله الأبيض الموثوق فرايدي، خبير أفريقيا الكولونيل ايڤلين جيمس براي (54)، الذي ساعده في التفاوض على الاستقلال، قتل في ظروف غامضة على الطريق إلى العاصمة. رفيقه في السلاح فيما مضى، اليساري إدوارد شينزا نجح في إثارة عصيان داخل النقابات تصعّد من إضراب عام إلى فوضى عارمة على نطاق البلاد. كما لو أنه ليبرهن على سخريات هذا الصديق القديم كونه ليس أكثر من «المراقب الأسود الذي يقف حارساً خارج شركة الرجل الأبيض»؛ فقد كان على مويتا أن يطلب من بريطانيا إرسال قوات إلى بلده. هل سيبقيه الغزو في كرسيه عن طريق دعوة السيد الاستعماري السابق، بينما ذهب البلد وموارده المعدنية، الفلزية النفيسة الأخرى، في أيدي المصالح البريطانية والأميركية؟] باختصار شديد: لقد كان وجه مويتا هو ما رأته - اسم براي سيفاجئها في منتصف النص. قرأت المقال بأكمله عدة مرات. مشت نازلة إلى المنتزه ثم عادت على امتداد الدكاكين وجلست مرة أخرى إلى إحدى طاولات الرصيف. الناس الآخرون معهم صحفهم، وهي لديها المجلة ملقاة هناك بجانب القصعة المليئة بكيسيات ورقية من السكر. كان المد يلف سيقان الطيور. على بعد عدة طاولات فارغة كان رجل وصبي صغير يركزان على شيء ما كان الرجل يرسمه. الصبي يميل رأسه جانباً، مبتسماً بإعجاب، واستعجال واعتداد بالنفس - فقد كان الرسم يُنجز لأجله. كان الرجل في سن متقدمة، أحد أولئك الرجال الوسيمين الذي يمكن أن يتخذ زوجة ثالثة أو رابعة من نفس عمر ابنته. من حين لآخر يرفع رأسه ويلقي نظرة من تحت حاجب مرفوع مجعّد، إلى البحر لأجل نقطة استئناس ما. كان وجهاً متوسطياً داكناً جداً، كل المستويات الجميلة محققة بعمق الآن، كما لو أن العمر يعيد رسمه بقلم رصاص أكثر حدة وقتامة. كانت العينان السوداوان بشكل لماع غارقتين في تجعيد تأملي، لاهٍ، يوحي بثقافة مخيبة الآمال. إنه عالم، شخص رأى الحياة كشكل من التدويمات في قطرة تحت المجهر، لكنه رث الملابس وبائس المظهر. ربما كان مثقفاً عانى مشكلة سياسية في البرتغال. أمسك الصبي الصغير بذراعه في حماس معيقاً إياه. أخيراً

Twitter: @alqareah

أنجزت الصورة فأمسكها ومدها بطول ذراعه قبالة البحر، فنزل الولد الصغير عن كرسيه ليراها بشكل مناسب. استطاعت أن ترى أيضاً لوحة سعادة عظيمة، سعادة ماضية، أمواجاً متلاطمة تتلاشى، سفينة زاهية الألوان ذات أعلام ودخان نصر، طيور متفرقة في الجو مثل القبلات على رسالة. نظر الولد إليها باسماً ولكن في استعجال، باحثاً عن الـ شيء ما ـ الأعجوبة السرية التي لا توجد إلا في أمل الأطفال. كان الرجل نفسه هو الذي ضحك من عمله باستمتاع. ثم أخذ الصبي الصغير وضحك بحماس لكونه معه. أخذ الطفل رشفة نهائية بالقشة من عصير البرتقال ثم عبر الاثنان البوليفار يداً بيد، آخذين الرسم معهما. اقتاد الرجل الولد في نوع خاص من الحمائية اليقظة التي توحي بأن المسؤولية مؤقتة، أو جديدة؛ أب مطلق خطف الولد من عهدة زوجة سابقة. ولكن لا، فقد كان بالفعل أعمر من أن يكون هو الأب؛ من المحتمل أكثر أن يكون جداً وجد نفسه وحيداً مع ولد؛ تولد لديها الانطباع القوي أن هذا هو الشيء الأخير في حياة ذاك الرجل، إنه كل ما خلفه.

ذهبا. لمدة عشر دقائق شعرت بتأثر عميق بذينك الكائنين البشريين. أحد الطيور فتح جناحيه ـ لم تكن قد رأتهما يتحركان من قبل ـ ورفرف ببطء مبتعداً فوق الخليج.

وصلت الطائرة متأخرة جرّاء توقفات أخرى جنوباً في أفريقيا، وفي الموعد الذي أقلعت فيه كانت البلدة سيفاً أحدباً من التلألؤ على امتداد الخليج، كانت جفنة من الضوء المائل إلى الخضرة الذي هو الستاد الرياضي، ذو المنصة المائلة، كانت القلعة، ومن ثم عدد قليل من التوهجات المتخامدة مثل أعواد الثقاب على الأرض. لم تر شيئاً من غابات وصحاري القارة التي كانت تغادرها للمرة الأخيرة، بالرغم من أن الرجل في المقعد الذي بجانبها استمر يشعل مصباح القراءة لينظر إلى الخريطة المحشورة على الدوام مع حقيبة الأدوية في جيب المقعد.

مناطق مظللة مائلة إلى البنية، مناطق خضراء: قطرات الرطوبة متكثفة خارج النافذة المزدوجة، فلم تستطع حتى أن ترى الظلام، لم تر سوى وجهها. جلبت المضيفة عربة الجرائد وكان ثمة غلاف العدد نفسه من المجلة، وعندما أعيدت العربة كانت المجلة قد ولت: في مكان ما على امتداد صفوف أقفية المقاعد، كان ثمة شخص ما يقرأها. الرجل الذي كان جارها شرب زجاجات بحالها من الشمبانيا، فعل ذلك بمزاج كيدي أكثر مما فعله بدافع الاستمتاع، وفي الساعة التي

Twitter: @alqareah

لا يقدم فيها الطعام ويتم فيها تعتيم الأضواء، كان يكبس الزر الأحمر لأجل المضيفة ويطلب السلتزر.

بما أنه كان مستيقظاً فقد أخرجت من حقيبة السفر (بجانبها، بين ساقيها وبين جدار الطائرة) نصف ورقة من ورق الآلة الكاتبة التي كان عليها، بخط يد براي، اسم المصرف، رقم الحساب وعبارة الفتاة ذات العينين الذهبيتين. لقد نظرت إليها عدداً من المرات منذ أن دخلت إلى الطائرة. ربما كان ذلك آخر شيء كتبه. الشيك لصالح هجالمار؟ لا، هذا يجب أن يكون قبل. لكنها لم تكن متأكدة، فهي لم تعرف متى قرر أن يدون على تلك الورقة التفاصيل حول الحساب. وهي لم تكن تعرف إن كانت تلك حقاً آخر مرة سيكتب فيها عندما كتب عبارة الفتاة ذات العينين الذهبيتين. لم يكن ثمة شيء سوى الحقائق، العنوان، الاسم السري. ما الذي كان بمقدور المرء أن يجده في شكل الحروف، في المباعدة بين الكلمات؟ قامت بتفتيشها مثلما فتش الولد رسمة الرجل.

وضعت الورقة بعيداً في حقيبة السفر مرة أخرى. بجانبها كان ثمة تجشوءات مكبوتة.

لو نسخ (من دفتر مذكرات؟ من الذاكرة؟) تفاصيل الحساب، بالطبع، فلابد أنه فعل ذلك لكي يعطيها لها. لذلك لم تكن تعرف إلى أين تذهب. ولكن لو أنهما سيكونان معاً لما كان ثمة داعٍ بالنسبة لها لأن تحصل على قطعة الورق. لقد وضعها في حقيبة السفر، لم يكن ليعطيها إياها. متى كان سيعطيها لها؟

ولكن ربما بقيت في حقيبة السفر زمناً طويلاً. لا دفتر مذكرات، ولا التزام بالذاكرة: إنها محفوظة في حقيبة السفر لأجل التسجيل، وقد أخذاها معهما بشكل تلقائي عندما غادرا، كواحدة من الأوراق الشخصية، أوراقه وأوراقها، التي سيحتاجانها معاً. غفا الرجل بجانبها فشعرت بأن ذهنها قد بدأ ينسل، أيضاً. كانت ثمة ومضة خاطفة من حلم مع براي يتسكع، لكنها ارتدت خائفة إلى اليقظة. وفي ساعات أو فترة صغيرة، وهي تتطلع خارجاً إلى اللون الأزرق ـ الأسود الذي كان واضحاً الآن، رأت قشرة محترقة على امتداد حافة كتلة أكثر قتامة. خطر ببالها حريق أشجار لكنها عندئذ كانت مدركة لانعكاس ضيق للنار المعكوسة على امتداد شكلها. كان ذلك خط ساحل في الأسفل. شاطىء البحر والمرافىء الصغيرة المنارة طوال الليل إلى أوائل الفجر في حين كانت كتلة اليابسة وراءها نائمة. الآن رأت الانتفاخات المتألقة للظلمة بشكل داكن: البحر.

Twitter: @alqareah

كان الرجل الذي بجانبها يمط عنقه على مسافة مهذبة من فوق كتفها. قال:

«إنه ساحل إيطاليا».

لم يسبق لها أن خرجت من أفريقيا من قبل. اجتاحها شعور بالغربة الشديدة. كان الوقت نهاراً، عالياً في الجو. في الأسفل، كان أهل أوربة يواصلون نومهم. وفي الحال كانت جبال الألب تحت الشمس الباردة، مشعة وأنيقة. استفاق المسافرون لينظروا إليها، وهي تنتشر مثل الساعات في واجهة محل للمجوهرات.

أقلّتها تاكسي مرسيدس سوداء من المطار الزجاجي الأسود إلى المدينة. كانت الأكمات اللطيفة للحقول لا تزال خضراء، أو مجدوعة بعد الحصاد. تغشاها نسمة باردة. كل الأبنية الجديدة هي نفس الأطر السوداء الثقيلة التي تدفع عنها الزجاج الذي له نفس اللون الرمادي البراق للبحيرة العاكسة للسماء. نافورة عالية تنبثق من البحيرة كما لو أن حوتاً مأسور هناك. كان الفندق الذي أرسلتها إليه الفتاة في مكتب استعلامات المطار فيللا قديمة فوق البحيرة وكان عليها أن تمشي نزولاً إلى الشارع لتأخذ الترام إلى البلدة. كان للمنازل أبراج مستدقة صغيرة، شرفات، وكانت مغلقة وراء نوافذ مزدوجة. على امتداد جدار كانت شجرة إجاص مزودة بتعريشة لا تزال تحمل إجاصة وحيدة، متوردة اللون وذابلة. ارتدت المعطف المصنوع من وبر الجمال وكانت ساقاها باردتين. كان الترام يترنح ويتهزهز بشكل منحدر نزولاً، فترجلت منه مع الجميع في آخر الخط في الشارع الرئيسي. كانت معها، ليس في حقيبتها، بل في يدها المطبقة في جيب المعطف، قطعة الورق: على ما يبدو أن المصرف في الشارع الرئيسي. بدأت تمشي قُدُماً وهي تنظر إلى الطريقة التي تسير بها الأرقام، فعبرت لأن الأرقام المزدوجة على الجهة الأخرى ومشت ومشت، وهي تكتسب الانطباع بأن كل شخص كان يتجه نحوها مصوّباً إليها كما لو أنها غير موجودة. ثم تأكدت أن الناس هنا يلزمون اليمين، وليس اليسار. كان الشارع طويلاً جداً وعريضاً جداً ومزدحماً لكنها لم تكن مدركة للمحلات أو الناس، بل للأرقام فقط. ثمة مصرف ذو واجهة صقيلة ذات خزنات عرض صغيرة حيث كانت دمية مبتسمة ترتدي شعراً مستعاراً، شقراء تحمل مدخراتها، لكنه ليس المصرف المقصود. أرت شخصاً الاسم المكتوب على قطعة الورق فأرشدها إلى بعد ياردات قليلة إلى رواق معمّد وأبواب مزدوجة ضخمة. في الداخل كانت في قاعة مرددة للأصداء ذات أرضية مبلطة بالبلاط الأسود والأبيض وعدد قليل من الحجرات من خشب الماهوغاني، ذات درابزونات نحاسية مصفوفة مدفوعة إلى الوراء بعيداً حول الجدران. اعترضها بواب على الطريق إلى إحداها. لم يستطع أن يفهمها فأخذها إلى موظف شاحب

Twitter: @alqareah

يتكلم الانكليزية الصحيحة. أرسلوها في مصعد من خشب الماهوغاني من خلال القبو الكبير للبناية. كان الشعور بالغربة الذي بدأ في الطائرة يزداد قوة.

ثمة قاعة أخرى مرددة للصدى كانت فيها الخطوات دنوّاً مديداً أو تقهقراً. ولكن ثمة ركن ذو سجادة سميكة وكراسي من الجلد والمخمل. جلست ونظرت إلى مجلات الصيرفة باللغتين الفرنسية والألمانية المليئة بصور الأبنية والمصانع ذات الهياكل السوداء والزجاجية، والناس الذين يتزلجون بأجنحة من الثلج. كان رجل وامرأة هنديان ينتظرا، أيضاً. كانت المرأة ترتدي ساري شفاف مع سترة صوفية محبوكة فوقه - إنها غريبة من مناخ آخر، مثلها.

لم تكن تعتقد، الآن، أن كل شخص في هذا المكان سيعرف بأمر الحساب، أو أن الحساب أو المال، الذي تم الكلام عنه في مكان بعيد للغاية، كان موجوداً بالمرة. كان محتال بساقين عاريتين ومعطف مستعار يذهب على طول الكوريدورات، مروراً بأحواض النباتات، على ذراعيه دب خشبي مع قبعات وشمسيات، إلى داخل غرفة كبيرة فاسدة الهواء، مكظومة خلافاً لأي مكتب سبق لها أن دخلته. دب خشبي آخر. خزانة كتب ذات واجهة زجاجية. طاولة محمولة على تمثال امرأة شهوانية. طاولة مكتب أيضاً، ولكن مع المظاهر الوظيفية الملطفة للغاية بفعل الجلد المصنوع بالأدوات، الطيور الفوتوغرافية، وأصيص من البنفسج الأفريقي في سلة مذهّبة كان مجرد قطعة آخرى من الأثاث.

قدّم الهرڤيبر نفسه مثل طبيب مستعد لأن يسمع أية شكوى خصوصية بشكل لطيف مثلما يمكن أن يسأل حول عمل مصران منتظم. كان له وجه لطيف ناعم وكرش من الطراز القديم ذا جنزير ساعة. الفتاة ذات العينين الذهبيتين. ربما كان شميدت أو جونز؛ كتب شيئاً بقلم الرصاص الفضي، رن جرساً، أرسل في طلب بعض الأوراق. فيما كانا ينتظران أجرى حديثاً. كان براي قد استفزها بقوله إن غوبلز وغورينغ، بالإضافة إلى تشومبي، أودعوا ملايينهم في المصارف السويسرية، كان الهرڤيبر رجلاً عجوزاً: «لقد مضى عليّ أربعون عاماً في هذا المصرف» أخبرها، باسماً. «أين كنت تعيشين؟ «أوه لا بد أن أفريقيا ممتعة، نعم؟ لطالما رغبت في زيارتها لكنها بعيدة للغاية. زوجتي تحب الذهاب إلى إيطاليا. إنها جميلة. كنا ذات مرة في اليونان. تلك جميلة. لكن أفريقيا جميلة أيضاً، نه؟» ربما أجرى هذا الحديث نفسه مع تشومبي وسيجريه مع المرأة التي ترتدي السترة الصوفية والساري - "أوه لابد أن الهند ممتعة، نعم؟" - فيما كان طوال كل السنين قد جلس بأمان بين صوره الفوتوغرافية العائلية.

Twitter: @alqareah

عندما جاءت الأوراق وتصفحها بالزاوية الشاذة للأشخاص الذين يرتدون عدسات ثنائية البؤرة، وسأل كم من المال تريد أن تسحب قالت إنها تفكر بسحب المبلغ بكامله.

تقدم لها بالاقتراح الأبوي: «ألا تريدين بالأحرى أن تحوليه إلى حيث ستذهبين؟ إلى أين تذهبين؟»

هي لم تفكر سوى بالمجيء إلى هنا: ذاك هو المكان الذي كانت ذاهبة إليه.

قالت: «انكلترا»

كانت سبابته الرقيقة القصيرة بندولاً: «هل تعرفين إذا أخذت نقودك إلى انكلترا، فإنك لن تخرجيها مرة أخرى؟ إنك تمتلكينها هنا في سويسرا، بإمكانك أن تكتبي إلينا من أي مكان في العالم، فنرسل لك المال. من الأفضل لك أن تأخذي الآن ما تحتاجينه فقط، وأنا أحوّل إلى انكلترا ما سوف تحتاجينه هناك. أين؟ لندن؟ ـ أي مصرف تسمينه» .

«أي مصرف. أنا لا أعرف أي مصرف».

وقعت بعض الأوراق. دوّن تفصيلات المبلغ المراد دفعه في حساب جان ـ لويس كامبويا، من لومومباشي. «كونغو كنشاسا أليس كذلك؟».

كان فخوراً بمعرفة الفرق: «نحن نتعامل مع هذه الكونغو ومع تلك الكونغو». أعطاها قُصاصة لأجل أمين الصندوق وصافحها.

«أتمنى لك إقامة هنيئة، يا سيدتي العزيزة. لسوء الحظ أن هذا ليس أفضل وقت. عليك أن تأتي في الربيع، نيه؟»

في الطابق الأرضي قامت يدان ذكريتان بيضاوان ترتديان خاتمٍ زواج ذهبي بعد ألف وخمسمائة فرنكاً سويسرياً بالقطع النقدية الورقية ورزمتها معاً. كانت هي مثل فتاة لولو، الآن، مع تشكيلة من العملات حولها.

والآن ها قد تم ذلك. تلاشت خطواتها خلفها عندما خرجت من خلال الأبواب الكبيرة فووجهت بأشخاص بالمعاطف المطرية والمعاطف الجوخية يهرعون في كل اتجاه من حولها، وضجيج أصوات الأولاد المستفسرة بالألمانية. الآن لم يكن لها أي هدف على الإطلاق. وبشكل مرتبك واجهت الحوانيت المليئة بمعاطف سويد suede والحقائب المصنوعة من جلد التمساح (الحقيقي، وليس من جلود لولو)، محلات الدمى العجيبة، محلات السلامي الوردي والسجق على شكل نضوة الحصان، وواجهات عرض ساعات اليد الفولاذية والذهبية والماسية، ومحلات

Twitter: @alqareah

جزمات الفراء. كان شلال دائم يتدفق نازلاً داخل نافذة مليئة بأحواض الورد والزنبق والأوركيدات، مضمخاً إياها ومؤطراً إياها بشكل ما بعيداً عن المتناول، مثلما تضخم وتؤطر عدسات النظارات الواقية الحدائق البرية تحت الماء في تلك البحيرة الأخرى التي خلفتها وراءها. في محل للحلويات كانت نساء يشترين الكعك ويأكلنه عند طاولة البيع. هبة من الحرارة في الباب طردت البرودة خارجاً. وفيما كانت تشرب فنجاناً من القهوة في الغرفة المعطرة بالفانيليا حيث الجميع يأكلون الحلويات، كانت تراقب الأصابع الموجهة إلى هذه الكعكة أو تلك فشعرت بأن ساقيها قد صارتا دافئتين بفعل التدفئة المركزية. خارجاً في الشارع تابعت تجوالها مروراً بساحة مطمورة صغيرة ذات تمثال تكسوه الأشنيات، يغوص عميقاً في أوراق لها شكل اليد، مقولبة مثل قفازات شاموا عتيقة. لم يسبق لها أبداً أن رأت شجرة كستناء من قبل لكنها تعرفت على الكونكرز التي كان الأولاد يلعبون الألعاب بها في كتب القصص الانكليزية من أيام طفولتها. بدأت السماء تمطر؛ امرأة عجوز سمينة تبيع الكستناء المشوية من مجمرة تظل متوهجة تحت مظلة. في الترام العائد صعوداً إلى التلة جلست بين ربات البيوت الذاهبات إلى المنازل بما اشترينه في تسوقهن الصباحي، مجهزات مسبقاً باللباس الكامل ضد الشتاء القادم ـ المعاطف، الجزمات، المظلات. القفازات؛ حتى الأولاد الصغار بجزماتهم المطاطية ومعاطفهم المصنوعة من النسيج الصوفي الغليظ الزئبر ذات السحابات المرفوعة إلى الأعلى بشكل بدين. كن يبدون رائعات للغاية، مهيآت بشكل عملي لأجل طوارئ كلها متوقعة في بيئتهن حيث كل المخاطر معروفة. ولكن بالطبع، لم يكن الأمر بشكل واقعي هكذا أبداً: حتى هذه الأنوف القرمزية المبللة (حتى الهر ڤيبر) يمكن أن تُغزى في أسرتها الريشية الشرعية بعنف الحب المفاجئ أو الموت.

شعرت ببرد شديد وبالشحوب فطلبت كأساً من النبيذ الأحمر في ردهة الفندق. كانت الردهة مفروشة بالأنتيكات المتداعية وبورتريهات عائلية وتنتهي بمشتل أزهار صغير حيث تنمو النباتات الشائعة في كل مكان بالبيت، في أفريقيا. تدفأت بالتدفئة المركزية ورفعت الزجاج من الأصص. كان زوجان شابان يجلسان هناك، يخفقان الكريما على قهوتهما وينهيان ببطء زبديات من التوت المرشوش بالسكر. تمتما لبعضهما بعضاً باللغة الألمانية ـ شيئاً من قبيل «جيد...؟» «أوه جيد جداً» وتابعا لحس الملاعق بشكل حالم. كانت الفتاة ترتدي بنطلوناً وكنزة ذات خيط من اللؤلؤ، كانت طويلة القامة وضيقة القدمين جافية. لم يكن الرجل، الأقصر منها، يبدو عليه

Twitter: @alqareah

مرتاحاً تماماً في ملابس لا رسمية، أنيقة، وكانت له ذقن مزدوجة صغيرة قلقة بدأت بالنمو للتو تحت بشرة وجهه الناعم. تثاءبت الفتاة فابتسم. كان ذلك مأزق الحديث، فتور زوجين متزوجين حديثاً ولم يكونا عاشقين سابقاً. «جيد جداً» قال مرة أخرى، وهو يضع صحنه على الصينية.

ارتفع النبيذ إلى رأسها في إحساس غنائي وفكرت بهما وهما يجلسان بتهذيب حول تربيزة إلى الأبد، هو يغرق في السمنة والشيب، وهي لا تنعتق أبداً من جفائها في حين يكبر أولادهما، بانتظار أن يأخذوا مكانهما هناك. أصبحت مدركة لساعة حائط زخرفية تتك خارقة الصمت في الغرفة بين ذاتها والزوجين.

Twitter: @alqareah

(23)

وهكذا جاءت إلى انكلترا، طائرة فوق بحر رمادي ذي زبد عائم مثل البصاق، بحر تُفرغ فيه مجارير أوروبة؛ فوق مدن أوروبية مكونة من كتل رمادية مثل آذان الطباعين.

كان أبواها يعيشان هناك. لكن الحقيقة هي مجرد عنوان كتبت رسائلها إليه، وليس مكاناً من المحتمل أنه يقع ضمن رحلة ساعة من الزمن في الشوارع التي عرفتها آنذاك، في لندن، حيث يدخل الناس في طبقة سميكة من السديم كما لو أنهم يهربون من نهاية العالم. لم تبذل أية محاولة للاتصال بعائلتها. جالت الشوارع وركبت الحافلات لترى كل الأشياء التي ترمز إلى هذه المدينة. لو كان ثمة زقاق يقال إنه يؤدي إلى بيت «صموئيل جونسون» لاتخذته؛ لو كان ثمة كراس سياحي لاشترته. انتظرت على الأدراج الشديدة الانحدار لمحطات أنفاق السكك الحديدية، الآخذة بالهبوط إلى الظلمة. عبرت الجسور وشمت رائحة مسك الكنائس. مرت بالحانات المليئة بالضوء الملون بلون البيرة حيث يقف الناس متراصّين، متلامسين. كانت بينهم في القطارات حيث يقفون متراصّين، غير متلامسين. قرأت الرسائل: في نفق القطار، فتاة تسقط سروالاً داخلياً ورقياً من بين السبابة والإبهام - اعطي غسيلك القذر إلى الزبال؛ في صيدلية سوهو، اختبار الحمل - خدمة على مدى 24 ساعة.

مرت على عناوين الكتب المستعملة على عربة يد على مبعدة من شارع اولد كومبتون؛ وجوه الرجال المسنين تحت نير موائد السندويتش، مشهد القوادين الواقفين مثل الناظرين خارج نوادي التعري. عبرت بين بريكات الماء الصغيرة من النافورة وأرجل الناس الذين يجلسون طوال النهار مع صررهم وغيتاراتهم، معزولين

Twitter: @alqareah

على تلك الجزيرة المرورية التي كانت سيرك بيكاديلي. يسوع صغير في رداء أبيض قذر ومعه حلقة من الأتباع ذوي العرف المجعد. فتيات بشراريب الهنود الحمر يستندن على صبيان بسترات صائدي الفراء. كانوا يندفعون مارين من حولها، خلفها في جادة شانتسبري رعاة بقر ذوي أحزمة عريضة مثل مشدات النساء، فتيات شاحبات ذوات شعر متشابك طويل، معاطف متسخة طويلة، جزمات ممزقة مثل اللقاطات في الرسوم التوضيحية لطبعات أعمال ديكنز التي تمنح كجوائز مدرسية؛ غجر متسولون شرقيون، قطاع طرق وسيمون ذوو شوارب، مصارع ثيران يرتدي سروالاً مخملياً أخضر وسترة فضفاضة من نوع بوليرو، وكلهم يهجمون عليها. ما الذي كان يعرفه هذا المهرجان البارد عن حقيقة الشمس الحارقة على سيارة محترقة؟ عن حمولة الأزهار الخبازية اللون التي تحملها الأشجار في القرية حيث الدجاج المربوط من أرجله، يدهس ويتبخط في الدم والأمعاء تحت أقدام الرجال؟ راودتها لحظة انزياح مفاجيء مثل السطوع الداكن المدوخ الذي يلي ضربة عاصفة. لقد ذهبت غير مميزة هنا؛ كانت الشخص ذا المنجل.

مع ذلك فقد كان هذا هو المكان الذي انحدر منه براي؛ ثمة وجوه بإمكانها أن تقتفي أثره فيها. رجل كهل في تاكسي خارج مطعم؛ لا بل حتى ممثل شاب ذا سبلتين خديتين وخصلات شعر. كان من الممكن ذات مرة أن يكون، أو أصبح، أياً من هؤلاء الذين يعيشون بشكل مختلف للغاية عن الطريقة التي عاش بها. كان الأمر كما لو أنها اقتحمت ماضياً تركه منذ زمن طويل ومستقبل لن يسكنه أبداً. جالت الطرق الجانبية لحياته التي لم يتخذها، مستوفية إمكانية حضوره. راودها ذلك كنوع من العجب. كتفسير. شرحٌ لماذا؟ لحياته؟ لموته؟ تجربتها في العيش معه؟ شيء ما من كل ذلك. ابتدأت بمعرفة أنها لن تعيش مع غوردون مرة أخرى. كان ذلك الشيء الإيجابي الأول الذي عرفته بعد تلك اللحظة على الطريق، عندما أصبحت مدركة للظمأ؛ كانت قد قالت لڤيڤيان: «لن أعيش مع غوردون مرة أخرى». الآن بدأت تمتلك فكرة غامضة عن سبب معرفتها بذلك. هذا المكان الذي جاء منه براي مليءٌ بالوجوه التي لم يكنها هو، الوجوه التي اختار ألا يكنها. جعل حياته انسجاماً مع اختيار واعٍ ما ، معتقدات، كان يعتقد وكانت هي أيضاً تعتقد، أنها لا تفهمها تماماً. لم يكُن لذلك علاقة كبيرة بما كان أبوها قد أسماه عاشق الزنوج. لكن كانت له علاقة بالحياة ذاتها. غوردون كان دائماً يحاول أن يفوقه ذكاء؛ براي عاش ليس كخصم بل كمشارك. هي لم تعش أبداً مع أي شخص مثله من قبل. وما إن تعشْ

Twitter: @alqareah

كذلك. حتى لا يعود بمقدورك أن تعيش مرة أخرى مع غوردون ما، لا يريد سوى أن «يجمع كومته ويخرج» دائماً إلى البلد التالي الذي يشبه الأخير تماماً «والفرصة» التالية تشبه تماماً الفرصة الأخيرة: أن يجمع كومته ويخرج. إن طريقة براي قد انتهت على الطريق كما لو أنه لم يكن بذي أهمية بأكثر من حزمة من الدجاج المربوط من ساقه - نعم، التفسير الذي قدمه الناس في العاصمة لم يكن يساوي شيئاً لها، لا معنى له مقابل حقيقة موته كما سمعتها وشاهدتها وشعرتها في اللحم عندما انتزعت الزجاج من خده. أياً من كانوا، فقد قتلوه مثل صوص، ثعبان مدهوس على الطريق، بقة مهروسة على جدار، وما فعلوه كان رعباً خالصاً عديم الرحمة لها، جنون الانتظار في الخندق، التراب تحت أظافر يديها. لكنها كانت واثقة من أنه كان يعرف من هم. كان سيعرف لماذا حدث ذلك له. داندو العجوز الداعر الذي يحاول أن يتحسس بداية نهدها من فوق كتفها، كان محقاً في ذلك.

احتفظت بقطعة الورق مع تفاصيل الحساب السويسري بخط يده؛ حملتها معها في جيب المعطف الجديد الذي اشترته لنفسها في أحد المتاجر ذات الأضواء الوماضة التي تشتعل وتنطفي على الموسيقا الحادة. لقد هرّب الأموال إلى الخارج لأنه كان يحبها، هذا ما كانت تعرفه أيضاً. لكن ذلك لم يبهجها كبرهان، لأنه (وهي تخرج الورقة في الأنفاق، والحافلات وعلى مقاعد الحدائق) كان يعني في الوقت نفسه أنه قبل أنهما سيفترقان، أن ثمة حياة لها لكي تعيشها بدونه. و... وهي تحل مزيداً من رموز الشيفرة - أنه في الوقت الذي كتبت في الورقة، كان ذلك يعني أنه سيعود ذات يوم إلى أوليڤيا؛ وليس معناه أنه سيموت. فكرت بأوليڤيا بوصفها زجاجة عطر فارغة لا تزال فيها بقايا ضعيفة من الرائحة العطرة. لقد سبق لها أن وجدت واحدة على أحد الرفوف في خزانة الملابس في غرفتها بالفندق. تركتها هناك امرأة إنكليزية مجهولة الاسم، أوليڤيا ما. لم تكن تعرف أحداً في مدينة الملايين الثمانية. لم يكن لديها أي قاسم مشترك مع أحد؛ باستثناء زوجته.

في بعض الأحيان كانت تنجذب بقوة لفكرة الذهاب لرؤية أوليڤيا وبناته. لكن التفكير بأنهن سوف يستقبلنها، يتقبلنها بتسامحهن المتمدن بشكل ينم عن فوقية - تسامحه هو - هذا التفكير قد ملأها بالاستياء. أرادت أن تكشف معاناتها، أن تعيشها وأن تطرحها، مقززة، أن تنتزع حية منها تحت أنوفهن، لا أن تجعلها «مقبولة» للآخريات.

اشترت لنفسها ثياباً دافئة وبدت الآن مثل أي شخص آخر عندما كانت تتجول. بعد تبادل الحديث مع الخادمة الايرلندية في الفندق حول موضوع الأعمار والأمزجة والتأثر لمرض أولادها، فكرت بكيف سترسل في طلب أولادها وربما بأن تعيش في لندن معهم. لم يكن ذلك مخططاً بقدر ما كان حلم يقظة ـ تمشي معهم فوق أكوام أوراق الشجر الساقطة في الحدائق. كانت الخادمة الايرلندية الشخص الوحيد الذي تحدثت إليه. ويبدأ الحديث في اللحظة التي تفتح فيها المرأة الباب بمفتاحها العمومي ويستمر، من المستحيل أن يتوقف حتى يطغى عليه الظهور المفاجيء الأخير لتعليقات الهوڤر. كانت الأجوبة على الأسئلة حول الأولاد حقيقية لكن براي هو من كانت تتكلم عنه عندما تتم مناقشة الأزواج، وأنه على قيد الحياة، بانتظارها لكي تعود إلى أي جزء من أفريقيا يعيشان فيه. كانت الخادمة تقتنع بأي تعريف مقتضب: أشارت إلى أفريقيا بوصفها «الخارج هناك»، وبدت متعاطفة: «كان علي أن أترك عملي في فندق الجامعة للرجال بعد خمسة عشر عاماً لأن الملونين كانوا يحقنون بعضهم بعضاً، شاهدت عبوات الفازلين. ذهبت مباشرة إلى المشرفة. قلت، كل أولئك الملونين الذين تسمح لهم الحكومة بالإقامة، أنا لست معتادة على مثل هذه الأشياء، قلت: زوجي لن يسمح لي بالبقاء يوماً آخر. لن أتحمل ذلك، شكراً جزيلاً لكم».

بالرغم من أنه كان ثمة نصف ورقة في جيب المعطف، فقد كان ثمة أيضاً ما قاله براي في الليلة السابقة لمغادرتهما غالا. كانت قد أخبرته ـ ليس بكلمات كثيرة ـ الشيء الوحيد الذي كانت تخشاه في غالا هو الإبعاد، وقال هو: «أنا أعرف، لكنني سأكون موجوداً». وعندما قالت: «كيف يمكننا الذهاب معاً»، وكان يعرف أن انكلترا تخطر ببالها، قال، ربما نستطيع أن نتدبر الأمر. قال: «سنقرر ما الذي يجب فعله. (وهما جالسان ذات عصر في مكان يدعى دكان الشاي السيلاني. تذكرت ذلك فجأة بدقة). سنقرر ما الذي سنفعله. ربما شيفرة الورقة لم تكن تُقرأ بمعنى أنه سوف يُجلسها في مكان ما، بلطف، بأسف. كان من الممكن أن يعني ذلك أنهما سيذهبان إلى ساردينيا، حيث كان صيد السمك بالرمح جيداً للغاية. لا، ليس ذلك حقاً... ولكن في مكان ما معاً خارج غالا؛ لم يتواجدا أبداً خارج غالا».

في حانوت الشاي ذي الصور الفوتوغرافية المكبّرة لمزارع الشاي والحزورة المؤطرة «كم تعرف عن الشاي؟» قبالتها، عادت مرة أخرى إلى حقيقة أنهما في تلك الليلة الأخيرة لم يمارسا الجنس كما يرام. كانت هي التي قررت، لأنهما كانا متعبين

Twitter: @alqareah

للغاية، وكان عليهما أن يستيقظا باكراً، فلم يكملاه. أغفى وهو بداخلها وكان ثمة خاطرة، مثل دعوة، أنهما سوف يمارسان الجنس في سرير كبير لأول مرة في الليلة القادمة، في العاصمة. هكذا لم يأت إليها أبداً، وهي لم تأتِ إليه أبداً؛ لم يتم الوصول أبداً إلى ذاك الميثاق السري للإيفاء بالوعد. مرت الآن بأيام كانت فيها معذبة بفعل هاجس الندم على ذلك من كل الحرمان، الضياع، الصمت، الفراغ، النهاية، أصبح هذا [الهاجس] هو الأكثر إلحاحاً، الأكثر قسوة، لأن الإلحاح ذاته كان شكلاً من الاستهزاء المرتد إليها من فراغ الموت؛ لم يكن ثمة شيء لكي يوّجه إليه. أخبرت نفسها أنهما كانا قد مارسا الجنس مئة مرة، الميثاق صُنع - فما الذي كان يهم في حدوثه مرة أخرى؟ لكنها كانت تتوق لأجل تلك المرة الأخيرة. لقد تم التنازل عنها، مقابل لا شيء، مرة تلو الأخرى ما هو الفرق الذي كانت ستشكله؟ لكن الجواب كان بشكل بغيض هو أنها كانت تشتهيه. كان لها. قبل أن يأتي الموت. كان [...] قد صار عائداً لها؛ لم يكن الموت هو الذي أخذه - ما أخذه الموت لم يكن قابلاً للنقاش، كان قد ضُيع. فكرت في ذلك كثيراً للغاية بحيث أنها أنتجت في ذاتها التمظهرات الجسدية للفعل غير المنجز. انتفخت شفتا جسدها وعرفت بفزع أن رغبة تلك الليلة لن تُشبع الآن أبداً. شعرت بالخوف من نفسها.

كانت رائحة السجائر البائتة في نفاضات السجائر هي رائحة غالا بعد الحرائق. وهي تتمشى حول البُرك المرتعشة، نزولاً إلى جادات أوراق الشجر المخضلة كما الجرائد العتيقة تحت أشجار المنتزهات، رأت عقيدات براعم السنة القادمة على الأغصان الجرداء، جساءة الأرض المتجددة بلا نهاية. هل هي، أيضاً، سوف تنشد مرة أخرى - حاولت أن تختزل ذلك إلى الحقيقة الأكثر تجرداً - ذاك البزوغ لجسد مقابل الجسد الآخر إلى أن يتمزق كما تمزق حصاة صغيرة في النهاية سطح بركة راكدة، فيندفع الإحساس في حلقة تلو الأخرى خارجاً من تلك الحصاة الصغيرة، تلك النواة المثمرة من مكمنها، اللب الريان لكينونتها... قالت في نفسها: «ذاك هو كله»، صارت خائفة. إن ذلك سيعود، رغبة عادية. كل شيء آخر سيؤوب مرة أخرى، سيكون مجدداً. جلست في الحافلة وشعرت بتهديد الأجساد العادية من حولها ثمة أيام توقفت فيها النبضات الطارقة للكرب لا لسبب أكثر من كونها ستبدأ مرة أخرى. عندئذ كانت تبكي. بدأت تمارس التمارين الرياضية على أرض الفندق كل صباح لأنها قرأت في صحيفة ما أن بإمكانك أن تجتاز الفترات الطويلة ببساطة عن طريق ممارسة حركات ذات روتين معين، فكانت تستلقي على سجادة الخادمة

Twitter: @alqareah

المهوفرة فتسيل الدموع من الزوايا الوحشية لعينيها. بكت لأن الإحساس ببراي قد عاد إليها بشكل قوي للغاية، كما لو أنه لم يكن ميتاً أبداً على ذاك الطريق وأن ذلك لم يحدث أبداً. ما الذي كانت تفعله في غرفة الفندق؟ لقد استعادت الإحساس به ولم يكن عليها أن تبحث عن إشارات منه أو تسائله، لأنه كان قد ولّى ولم يكن ثمة شيء آخر لإيجاده. وهكذا مات، بالنسبة لها، مرة أخرى. جاءت الخادمة الايرلندية لتنظف وعلامات البكاء لم يكن بالإمكان إخفاؤها عن تينك العينين الدجاجيتين الحادتين تحت الشراريب الشبيهة بالمشقة؛ قالت إنها سمعت للتو كم يفتقدها أولادها. أصبح الاستلقاء حناناً إليهم واشتياقاً لرؤيتهم؛ وتخيل المشي معهم في لندن تحول إلى نية. في أيام قلائل سوف تستنبط نوع الرسالة التي ستكتبها إلى غوردون حولهم. لم تكن تعرف كيف أو لماذا تتوقع من غوردون أن يسلمها الأولاد. افترضت أن كل شيء قد يبدو حتى أنه يستمر كما كان، مع اكتفاء غوردون بأن له زوجة وأولاداً في مكان ما، سوى أنهم أبعد قليلاً مما كانوا دائماً.

ذات عصر كانت خارجة من السوبر ماركت في شارع التسوق في الضاحية قرب الفندق عندما نَطق شخص ما باسمها. جاءها ذلك مثل يد ثقيلة على كتفها. التفتت. كانت فتاة طويلة، نحيلة جداً ذات وجه ضيق شاحب محجوب بشعر أسود سابل تتكيء من غير قصد على سلة تسوق مدولبة. كانت ايمانويل.

«ظننتك أنت، لكن ذلك من غير الممكن! هل أنت... في إجازة؟»

«عائلتي تسكن في انكلترا. لقد أتيت إلى هنا منذ أسبوعين».

كانت تمسك بشكل محكم علبتها الحاوية على إجاصة واحدة وبرتقالة واحدة؛ دليلاً على وحدانيتها.

- «وأنت هل تسكنين في هذا الجوار؟»

التف شعر ايمانويل فوق عنقها مثل لفاع في الريح.

«نحن في آخر الشارع تماماً. شقة قبوية قذرة، لكننا سنحصل على استوديو كبير في الشهر القادم إن لم نعد، بدلاً من ذلك».

«تعودون؟ هل بإمكان راس أن يعود؟»

«إنه شخص آخر».

«أنا آسفة ـ ظننت فحسب...».

وقفتا هناك تتحدثان، امرأتان لا تشبه إحداهما الأخرى كثيراً أبداً.

Twitter: @alqareah

كانت يدا ايمانويل الأنيقتان تحاكيان نوعاً من ارتعاش اللامبالاة على امتداد قبضة سلتها.

«هذا جيد. لا مسرح. إننا صديقان وهذا كل شيء. أنا أسكن مع كوفي اهوما ـ لقد نشر روايته الأولى، لكن أباه الآن في المصلحة مرة أخرى في غانا، ويمكنه أن يطلق العنان لحنينه إلى الوطن. لذلك قد نعود إلى غانا. هل أولادك معك؟ إننا ننتج مسرحية للأطفال معاً ـ كتبها وقمت أنا بتأليف الموسيقا لها. إنها تعرض على التياتر كلوب على مدى الأيام الثلاثة القادمة، يمكنهم أن يستمتعوا بها».

«لا، ليسوا هنا».

أطلقت ايمانويل التنهيدة السريعة لواحدة تذكر نفسها بشيء لا يسرها كثيراً.

«أوه، يا إلهي! أنت كنت في ذاك الحادث! المروّع، أليس كذلك؟»

كانت فضولية بشكل لطيف:

«ماذا حدث للكولونيل براي؟ هل أصيب؟»

«لقد قُتل».

«يا للهول».

كان من الممكن أن تكون قد تركت راس لكنها لا تزال متسلحة بآرائه.

«بالطبع، لقد كان مع شينزا وتلك الجماعة. شيطان بائس. هؤلاء الليبراليون البيض الظرفاء تورطوا في أشياء لا يفهمونها. ماذا كان ينتظر؟»

Twitter: @alqareah

(24)

نجح الجسران الجويان من القوات اللذان تم إرسالهما بناءً على طلب من مويتا للمساعدة من بريطانيا في إعادة النظام إلى البلد في الوقت الحالي. كان نفس ترتيب الأشياء التي أدت إلى الفوضى بالدرجة الأولى، لكن مويتا عاد إلى بيته الكبير، ونُفي شينزا في الجزائر، وسايروس غوما، وبازيل نوانغا ودلاميني اوكوي وغيرهم الكثيرون تم إبقاؤهم في السجن في مكان ما و ـ في الوقت الحالي ـ تم نسيانهم.

لم يُصَب هجالمار ونتز بأذى في البيت في غالا وكان هو الذي رزم أغراض براي بعد موته وأرسلها إلى زوجته أوليڤيا.

لا أحد كان بمقدوره أن يحدد على وجه اليقين، عندما قتل براي في الطريق إلى العاصمة، ما إذا كان ذاهباً إلى مويتا أم ذاهباً ليشتري الأسلحة لأجل شينزا. وفقاً للبعض، كما تنبأ صديقه داندو، كان شهيد الهمجيين؛ بالنسبة للآخرين، كان واحداً من أولئك المجانين مثل جيوفري بينغ أوكونور كروز اوبريان لم ينل إلا ما يستحق. في عدد مكرس لـ «أفول الليبرالية» في مجلة شهرية انكليزية تمت مناقشته بوصف حالة مثيرة للاهتمام في هذه النقطة. رجلاً انتقل من الشكية وإذعان الليبرالية التجريبية ليصبح واحداً من اولئك المسكونين للغاية بالحماقات والشرور في القضايا البشرية إلى درجة أنهم مستعدون لقبول الحلول الجحيمية، للخوض في الدم إذا دعت الحاجة، لتحقيق تغير فعلي.

جمع هجالمار ونتز أيضاً صندوق أوراق براي وسلمها إلى داندو الذي قد يعرف ما الذي يفعله بها. في نهاية المطاف لا بد أن تكون قد وصلت إلى يدي مويتا. إنه، على ما يبدو،اختار أن يصدق أن براي كان يقوم بدور المصالحة؛ بعدئذ بعام نُشر برنامج عمل لأجل خطة التعليم الجديدة للبلد، إنه تقرير براي.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

يسوع صغير في رداء أبيض قذر ومعه حلقة من الأتباع ذوي العرف المجعد. فتيات بشراريب الهنود الحمر يستندن على صبيان بسترات صائدي الفراء. غجر متسولون شرقيون، قطاع طرق وسيمون ذوو شوارب، وكلهم يهجمون عليها. ما الذي كان يعرفه هذا المهرجان البارد عن حقيقة الشمس الحارقة في سيارة محترقة؟

لحظة انزياح مفاجيء راودتها مثل السطوع الداكن المدوخ الذي يلي ضربة عاصفة. كان هذا هو المكان الذي انحدر منه براي. ثمة وجوه بإمكانها أن تقتفي أثره فيها. كان من الممكن ذات مرة أن يكون، أو لعله أصبح، أياً من هؤلاء الذين يعيشون بشكل مختلف للغاية عن الطريقة التي عاش بها. كان الأمر كما لو أنها اقتحمت ماضياً تركه منذ زمن طويل أو مستقبلاً لن يسكنه أبداً.

@ketab_n

لم يكن التفسير الذي قدمه الناس في العاصمة يساوي شيئاً لها. لا معنى له مقابل حقيقة موته كما سمعتها وشاهدتها وشعرت بها عندما انتزعت الزجاج من خده. أياً من كانوا، فقد قتلوه مثل صوص، ثعبان مدهوس على الطريق، بقة مهروسة على جدار، وما فعلوه كان رعباً خالصاً: جنون الانتظار في الخندق، التراب تحت أظافر يديها، لكنها كانت واثقة من أنه كان يعرف من هم. كان سيعرف لماذا حدث ذلك له.

وهي تتمشى حول البُرك المرتعشة، نزولاً إلى جادات أوراق الشجر المخضلة كما الجرائد العتيقة، رأت عُقيدات براعم السنة القادمة على الأغصان الجرداء، جساءة الأرض المتجددة بلا نهاية؛ هل هي، أيضاً، سوف تنشد مرة أخرى ذاك البزوغ لجسد مقابل الجسد الآخر إلى أن يتمزق كما تمزق حصاة صغيرة في النهاية سطح بركة راكدة؟

تصميم الغلاف : ناظم حمدان

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339